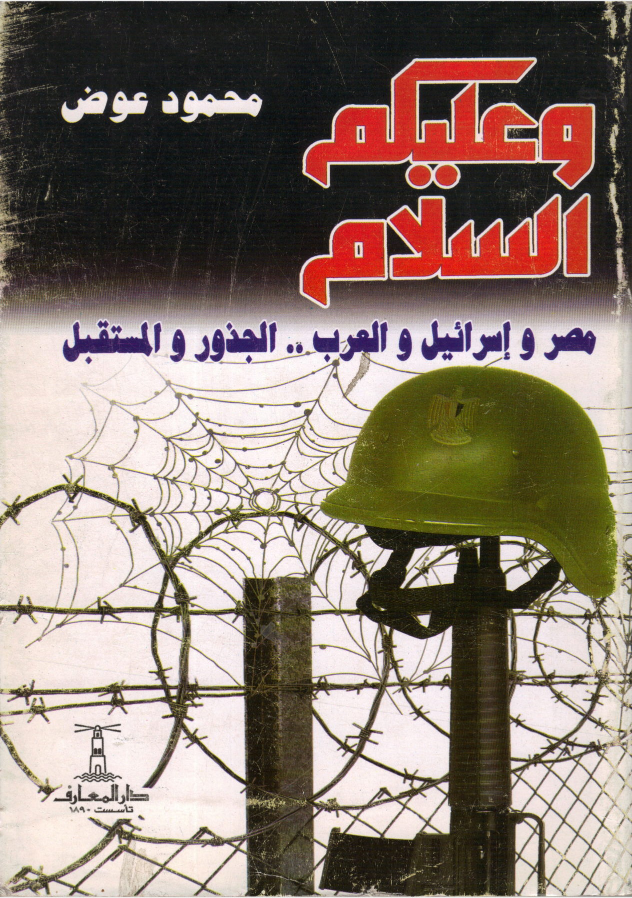

محمود عوض
وعليكم السلام
مصر و إسرائيل و العرب .. الجذور و المستقبل
دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

”فـــى ١٩ نوفمبر ســـنة ١٩٧٧، ذهب أنور الســـادات إلى إسرائيل، وأمام الكنيســـت الإسرائيلى بدأ حديثه قائلا : ”السلام عليكم....“

.. وعليكم السلام

مصر وإسرائيل والعرب : الجذور والمستقبل

محـمـود عــوض



تصميم الغلاف
الفنان شريف رضا

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة – ج . م . ع .
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

محمود عوض

وحشـــتنا ..

"إذا كنا قد عجزنا عن أن نكون أسود الغابة..
فهل حكم علينا أن نكون فئرانها ؟! "

بدلا من المقدمة

السلام هو الأصل في الأشياء. السلام. وليس الحرب. هو نقطة البدء بين الدول. تماما مثل الفضيلة. وحب الخير. وحب لأخيك ما تحب لنفسك. والنبى أوصى بسابع جار، والجنة تحت أقدام الأمهات، والنظافة من الإيمان. ومن يفعل مثقال ذرة خيرا يره.

نعم. تلك هى طبيعة الأشياء.

مع ذلك. فإن الله أرسل إلى البشر أنبياء وديانات وكتبا سماوية لكى تهدى البشر سواء السبيل. ليس هذا فقط. بل إن الأنبياء وجدوا أنفسهم أحيانا مضطرين إلى حمل السلاح دفاعا عن الحق والخير والحب والعدل الذى جاءوا يبشرون به.

فالخير دائما هو الأصل فى الأشياء. ولكن نحن نكون غير واقعيين لو افترضنا أن الخير ينتصر من تلقاء نفسه. وبشكل تلقائى. ففى الواقع لا يوجد شىء أتوماتيكى. أو تلقائى. فى الواقع توجد حقائق صماء تستمد قوتها من داخلها. حقائق نسميها موازين قوى.

والسلام بين الدول هو دائما مرآة لموازين القوى. فالقوى يصنع لنفسه السلام الذى يلائمه. ويفرضه على الآخرين. والضعيف ليس أمامه إلا أن يقبل ذلك. أو – إذا لم يقتنع – فعليه أن يبتلع رفضه ويبتهل إلى السماء بأن تخلصه يوما من هذا الظلم المبين.

ونحن أقوياء. ليس فقط لأننا نتمنى ذلك. ولكن لأننا كذلك فعلا. والقوة هى شىء لا يتعلق فقط بما نحن عليه. وإنما تتعلق أساسا بما نريده. ففى سنة ١٩١٩ مثلا كانت تحتلنا إمبراطورية كبرى هى بريطانيا العظمى. وكانت فكرة مواجهة تلك الإمبراطورية. ولديها ٢٠٠ ألف جندى مسلح فى مصر. ونحن شعب أعزل من السلاح. تبدو فكرة معجونة من الخيال والأحلام والحماقة. ومع ذلك. فإن هذا الشعب الأعزل من السلاح قلب المائدة فوق رأس الإمبراطورية الضخمة. وجعل جنودها المدججين بالسلاح يرتجفون رعبا لشهور عديدة بغير أن تسعفهم أسلحتهم. فى سنة ١٩٣٥ حدث نفس الشىء. ثم فى سنة ١٩٥٢. وفى ١٩٥٣، وأخيرا فى ١٩٧٣.

وفى كل تلك التواريخ الحاسمة فى تاريخ شعب مصر كان الواقع يبدو. للوهلة الأولى. أكبر من إرادة المقاومة. مقاومة بريطانيا مرة. وبريطانيا وفرنسا وإسرائيل معا مرة أخرى. وإسرائيل وحدها أخيرا. مع ذلك فإن إرادة المقاومة لدى شعب رفض الانهزامية والاستسلام والواقع كله. قد حولت نفس هذا الواقع إلى شىء أخر مختلف تماما. إنها إرادة الحياة فى شرايينا. ليست الحياة فقط. ولكنها الحياة الحرة الكريمة الطليقة. التى نسير فيها رافعين الرأس. مصلوبى القامة. أحرار الإرادة.

إن هناك ألف طريقة للحياة. وطريقة واحدة للانتحار هى: اليأس. طريقة واحدة هى أن تفقد إيمانك بمعنى حياتك. بما عشت من أجله وأمنت به وحاربت فى سبيله ورفعت قضيته.

ما هى قضيتك. وقضيتى. وقضية جيلنا كله؟ ما هى قضيتنا بالنسبة لإسرائيل؟.

القضيــة هى: دولة أصبحت فجــأة على حدودنا، ومن هنــاك قفزت مرة ومرتين وعشرين مرة لكى تحتل أرضنا وتحصد أرواح شهدائنا، القضية هى دولة تملك أهدافا مناقضة تماما لأهدافنا. وهى لا تملكها فقط كنوايا وشعارات وبرامج، وإنما كأسلحة تغزو وتبيد وتقتل، قتلت مرة تلاميذامصريين صغارا فى مدرسة «بحر البقر» على بعد كيلومترات من عيوننا - تلاميذ لم يكن عقلهم يستوعب بعد أية أفكار عن إبليس أو الشر أو إسرائيل.

نحن لم ننسف مرة واحدة محطة كهرباء فى إسرائيل. ولا قتلنا مهندس رى. ولا حاولنا نسف قنصلية بريطانية، أو مكتبة أمريكية. فى إسرائيل، ولكن إسرائيل فعلت هذا كله فى أرضنا.

والبعض يريد منا الآن أن نتسامح مع إسرائيل. حسنا. سوف نتسامح، ولكن لكى نتسامح يجب أولا أن يكون لهذا التسامح قيمة لعدو يحتل أرضنا. يجب أولا أن يعرف أننا نستطيع أن نتسامح، ونستطيع العكس. ثم لكى نتسامح. يجب أولا أن نبقى على قيد الحياة. يجب أن يكون تسامحنا مضمونا بقوتنا، وليس خارجا من قبورنا.

إن القضيــة لا تتعلق بمكافــأة. أو صورة تذكارية يحصل عليها نفــر منا وفوقها جملة «المســامح كريم». القضية تتعلق بمصــالح مصر العليا. تتعلق بحياتنــا. بحريتنا. وكرامة الجيل التالى من بعدنا. تتعلق بأمن مصر الذى يمثل أهم مصالحها على الإطلاق.

مع ذلك مازال ممكنا أن يعترض البعض قائلين :.. إننا دفعنا كثيرا وكثيرا لمصالح مصر العليا. دفعنا مثلا فى قضية فلســطين. ضحينا وافتقرنا وتعبنا. وآن الأوان لكى نستريح. هل كتب الله علينا أن ندفع إلى الأبد. والآخرون يتفرجون ؟

حســنا. أولا. إذا كان الله قد كتب لنا أن نعيش إلى الأبد. فيجب أن ندفع إلى الأبد. إن حياتنــا هى مســئولية. بقدر ما هى ميزة. وهــى حياة يجب أن تكون دائما أكثر أمنا. وليست مجرد أقدمية زمنية.

ثم من هم. بداية، أولئك «الآخرون»؟ ســيقولون لك : إنهم العرب. لقد ضحينا كثيرا من أجلهم. وخضنا أربعة حروب فى سبيلهم منذ ١٩٤٨ حتى الآن.

والســؤال هو : هل نحن خضنا تلك الحروب «فى ســبيلهم» ؟ فى ســبيل العرب؟ إننى شخصيا مصرى قومى عربى، أؤمن بالعروبة إلى أقصى حد. ومع كل إيمانى هذا، فإنه لو وجدت حكومة فى مصر، ضحت بحياة آخى أو زميلى أو جارى فى ســبيل «آخرين» خارج حدودنا، مهما كان هؤلاء «الآخرين» فيجب أن نطالب بشنق أعضائها فورا.

إن الشــعوب لا تجامل بعضها بالدماء. الشــعوب ربما تجامل بدموعها، وبأفراحها. وبمشــاعرها. ولكنها تحتفظ بدماء أبنائها لشــىء واحد فقط هو : دفاعها عن بقائها، هذا الدفــاع عن البقــاء هو الذى جعلنا نضحــى بدمائنا، دفاعنا نحن عــن بقائنا. وليس عن «الآخرين».

هنــا يــردون عليك : هل كان ذهابنا إلى فلســطين. فى ســنة ١٩٤٨. هــو دفاع عن بقائنا؟.

والإجابة يمكن أن تكون نعم، ويمكن أن تكون لا. حسب نظريتك التى تؤمن بها. فإذا جاء قاطع طريق وســكن فى المنزل المجاور لك. وهمس فى أذنك قائلا لك : أنت صديقى

وحبيبي فلا تعترض طريقي. إنني سـوف أفرض إتاوة على كل سـكان الشارع. وسأعفيك أنت - أنت فقط - منها. فاتركني وشأني.. لكي أتركك وشأنك.

هنا بالضبط سـوف تسـمع فـي داخلك صوتين : صوت يقول لـك : هذا كلام جائز. صحيح إنه قاطع طريق. وصحيح إنه يفرض إتاوات بالقوة. ولكنه يفعل ذلك مع الآخرين وليس معك. احمد الله إذن. ونم مستريح البال.

وصوت آخر يقول لك : أنت لا تسـتطيع أبدا أن تنام مسـتريح البال طالما قاطع الطريق يفعل ذلك مع سـكان الشـارع. إنـه. الآن. يتفرغ للآخرين.. ولكنه بمجـرد أن يفرغ منهم فسيأتي الدور عليك حتما. إن من الأفضل لك إذن أن تضم قوتك إلى قوة الآخرين وهم يقاومونه الآن.. بدل أن تنتظر فناء الآخرين. فتكتشف أنك وحدك. حينها يستدير قاطع الطريق إليك.

والدول هي نفس الشيء. فحينما حاربت الولايات المتحدة ضد ألمانيا النازية في الحرب العالمية الثانية. لم يكن هتلر قد مس حدودها مطلقا. كان بينه وبينها محيط وجبال وسهول تـبرر لها أن تجلس القرفصاء مكتفيـة بالتفرج على غزواته في أوروبا. ولم يكن هتلر أيضا قـد أطلق بعد رصاصة واحدة على بريطانيا العظمـى. ومع ذلك فإن كليهما دخل الحرب ضده. لأن كليهما اكتشـف أن الحرية لا تتجزأ. فالحر تزداد قوته بحياته وسـط أحرار.. ويزداد ضعفا بحياته وسط عبيد.

مع ذلك. فدعونا نفترض جدلا - والجدل غير الواقع - إننا دخلنا حرب سـنة ١٩٤٨ دفاعا عن «الآخرين». ماذا بعد ذلك ؟ عندما جاءت إسـرائيل تغزونا بعد ذلك في سـنة ١٩٥٦. ثم في سـنة ١٩٦٧. هل كان دفاعنا عن أرضنا في سـيناء هو جزء من دفاعنا عن أنفسنا. أو هو في سبيل «الآخرين»؟ في سبيل العرب ؟.

ومن هم العرب ؟ هل هم قوم يعيشون في القطب الشمالي. أو في أستراليا. أو في الصين؟ أو أنهـم قوم من بيننا. أعضاء في أسـرة واحدة تضمنا. يتكلمـون لغتنا. ويعبدون إلهنا. ويهبون لنجدتنا. وتقويهم قوتنا. ويضعفهم ضعفنا ؟

هنا سـتجد من يقولون لـك : ولكن هذه صورة غير واقعية. صحيح إننا جميعا أسـرة عربية واحدة. ولكنهم - هؤلاء العرب - يفرحون لهزيمتنا. ويستمتعون بفقرنا. ويتلذذون

بإذلالنا. ألم تقرأ. مثلا مثلا. عن ذلك الطالب الكويتى الذى اعتدى بالضرب على مدرس مصرى فى الكويت ؟

نعم قرأنا هذا. وأكثر. قرأنا مثلا لقلم واحد هنا فى مصر وهو يتلقف ذلك الحادث فى الكويت لكى يصوره على النحو التالى : طالب كويتى يضرب مدرسا مصريا. إن الطالب الكويتى غنى. والمدرس المصرى فقير. طالب لم يقدر أن هذا المدرس المصرى صاحب رسالة. وهو يمارس رسالته كمعلم فى الكويت. ألا يكفى أنه يمارس تلك الرسالة هناك بغير شكر ولا عرفان بالجميل ؟ هل هذا هو فى النهاية جزاء مصر من الكويت ؟!.

بالطبع هذا ليس جزاء مصر. وهى بربرية أن يكون هذا جزاء مصر. ولكن. أولا. ما دخل الكويت ومصر بهذا كله ؟ إن الحقيقة كلها فى تلك الجريمة تكمن فى سطرها الأول فقط : طالب كويتى يضرب مدرسا مصريا. لا. بل الحقيقة هى : طالب يضرب مدرسا.

إن هذا السلوك من الطالب هو سلوك بربرى. وهذا المدرس ضحية. بغير أن يكون للجنسية هنا أدنى علاقة بالموضوع. إن علينا أن نستنكر الجريمة بأعلى الصوت. ونطالب بحساب هذا الطالب بقانون رادع ليس على أساس أن الطالب كويتى والمدرس مصرى ولكن على أساس أن هذا طالب وذلك مدرس. علينا أن نحاكم طالبا كويتيا. ولكن ليس شعبا كويتيا. وعلينا ألا نقبل ذلك على الآخرين. لأننا فى الواقع لا نقبله على أنفسنا. لا نقبل مثلا أن يأتى إلينا سائح أجنبى. لكى يتعرف بعاهرة فى كباريه. فيعود إلى بلده ليكتب إن مصر شعب من العاهرات. وتعيش حياتها فى الكباريه! أو أن يأتى هذا السائح ليستقل سيارة تاكسى. فينصب عليه السائق. فيعود ليصرخ : إن المصريين شعب من النصابين واللصوص!.

إن اللص لص. سواء حمل جنسية كويتية أو مصرية أو عراقية أو فرنسية. وسوف ندعو فى صلاتنا دائما أن يشفى الله قلوبا فى العالم العربى تحقد على مصر. وقلوبا عندنا فى مصر تحقد على العروبة. سوف نبتهل إلى الله دائما أن يخلصنا من هؤلاء وأولئك.. لكن بغير أن ندعى على الله أبدا أنه وعدنا بذلك فى أى وقت.

لقد ابتلانا الله دائما بأصوات تقفز عند كل مصيبة. بمناسبة وغير مناسبة. صائحة: العروبة.. العروبة ! وسوف يظل هناك دائما متسع لافتراض حسن النية عند تلك الأصوات. فربما كان تشنجهم ضد العروبة هو مجرد انفعال عابر. أو بتأثير مبالغ فيه لحادث أو أخر. ربما كان انفعالهم هذا يتم صدفة. أو بتأثير إصابة عابرة بإنفلونزا سياسية حادة. أو بسعال ديكي.

ولكن الأمر ليس دائما صدفة. ولا هو بحسن نية. ففى اليوم التالى. والشهر التالى. والعام التالى. نجد نفس الأصوات والأقلام تقول لك : بصراحة. إن علينا أن نتعلم من أخطائنا.

عظيم. ما هى أخطاؤنا ؟

هنا يقولون لك : أخطاؤنا هى أننا نربط أنفسنا بالعرب. كنا أقواهم فأصبحنا أضعفهم. وكنا أغناهم فأصبحنا أفقرهم. لذلك يجب علينا أن نقبل أى سلام تفرضه علينا إسرائيل.

الآن فقط قفزوا إلى النتيجة التى سعوا إليها. وخططوا لها من البداية. نتيجة. دفعنا فى الماضى ثمنا فادحا لقيام مثل تلك الأصوات بترويجها بيننا. بمثل ما ندفع الآن. نتيجة غير صحيحة. اعتمدت على مقدمة صحيحة.

كنا أغناهم فأصبحنا أفقرهم. ربما يكون هذا صحيحا. ولكن. ما ذنب العرب ؟ وإذا كان الذنب. حتى. ذنب العرب.. فهل نحن بقبولنا «أى سلام تعرضه علينا إسرائيل». نعاقب العرب. أو نحن نعاقب أنفسنا ؟ وهل من البداية. نحن أصبحنا أفقرهم بسبب نوايا شريرة من جانبهم ؟ أو مؤامرة كانوا هم مدبريها ومنفذيها والمستفيدين منها ؟

ترد عليك نفس الأصوات مستدرجة ومصححة ومضيفة : لا.. ليس بالضبط. ولكن الله رزقهم بخير وفير وبترول كثير يبعثرون ثمنه وإيراده يمينا ويسارا. ويسرفون فى تبذير حصيلته شمالا وجنوبا. بغير أن يكونوا جادين مرة واحدة فى مساعدتنا على الصمود.

حسنا فماذا تريدون. حتى لو كان هذا صحيحا ؟ يقولون لك : نتركهم فى طريقهم. ونختار نحن طريقنا. الذى هو بالضرورة منفصل عن طريقهم.

والواقــع إن الأمــور. أحيانــا. يجب أن تصبــح أكثر تحديدا لكى يكــون الرد أكثر واقعية.

فبعد كل شيء لم يقل لنا أحد أبدا ماذا حصلنا من العرب. ماذا حصلنا. وهم يقفون خلفنا صفا واحدا فى عدوان ١٩٥٦. ثم فى هزيمة ١٩٦٧. ثم فى حرب أكتوبر ١٩٧٣. وما بعدها.

مــاذا حصلنا عليه مــن العرب. وماذا نحصل عليه الآن مــن الولايات المتحدة. وفى الماضى من الاتحاد الســوفيتى - وهى دول عظمى أنشــدت نفــس تلك الأصوات قصائد ودبجت مقالات فى مدح «كرمها» فى الماضى والحاضر - بغير أن تشير مطلقا إلى الثمن. ثمــن القروض والمعونات التى نحصل عليها من الــدول العظمى. إن العرب لم يطلبوا منا على أى حال استعمارا سياسيا كما فعل الاتحاد السوفيتى. ولا استعمارا نفسيا كما فعلت الولايات المتحدة. ومســاعدات روســيا وأمريكا معا. فى الماضى أو الحاضر لم تبلغ ربع أو خمس مســاعدات العرب لنا. مع ذلك فإننا مع روسيا أو أمريكا.. نتفاوض. وندرس. ونجتمــع. ونناقش. ونتكلم. ونعترض. ونوافــق. ونضيف. ونحذف. ونضغط. ونقنع. هل نحن استنفدنا كل هذا مع العرب.. وهم يساعدوننا ؟

مــع ذلك فإننى أعترض علــى تلك الكلمة من حيث المبدأ : إن العرب يســاعدوننا. لا.. العرب لا يساعدوننا ولا يجب أن يكون أساس علاقاتنا ومشاعرنا أبدا هو أن العرب يســاعدوننا. إنهم لا يســاعدوننا. إنهم يساعدون أنفســهم بالدرجة الأولى. فكل دينار. أو ريــال. أو جنيــه عربى يأتى إلى مصر. لا يأتى إليها مــن حيث هى. ولكنه يأتى من العرب دفاعا - بمصر - عن أنفسهم.

إننــا كمواطنين مصريين. ضحينــا وعرقنا وتعبنا وعملنا بهمة لبناء ســد عال يحجز فيضان النيل عنا فى أســوان. إننا لو لم نبن ذلك الســد لكنا قد وفرنا ملايين وملايين.. ولكن ثمن ذلك هو أن يفاجئنا فيضان النيل فى منازلنا.

والعرب يفعلون نفس الشــىء. وأســاس أى دينار. أو ريــال. أو جنيه عربى يأتى إلى مصــر هو قضية واحــدة تربطنا جميعا وتهمنا بنفس الدرجة. نحن فقط. كمصر. موجودون

في الخط الأمامي من الجبهة ضد الخطر. وهذا الخطر مشـترك.. ومواجهته هي مسـئولية مشتركة. لنا فيها نصيبنا الذى يجب أن نقوم به - سواء بالآخرين أو من غيرهم.

وعلاقة مصر بالعرب هي علاقة شريك بشريك: كلاهما يحصل على الأرباح.. وكلاهما يقتسـم الخسـائر. وحتى لو كانت هناك أطراف. أو أصوات. عربية لا تدرك ذلك.. فإن واجبنـا نحن هو أن ندرك ذلك. ندرك أن مصير شـعبنا يجـب أن تحركه مصالح دائمة. وليست مشاعر عابرة. هي في أحيان عديدة مشاعر ملفقة تحركها مصالح مضادة.

وسـوف أفترض مرة أخرى وأخرى. حسن نية هؤلاء الذين اعتادوا بين وقت وأخر أن يقدموا لنا البلاغات الكيدية ضد العرب والعروبة. ما الذى يجب علينا أن نفعله إذن. إنهم أشقاؤنا. وسوف أفترض أننا اكتشفنا فجأة أن الشقيق جاحد وشامت ومذل وحاقد وبخيل. وكل الأوصاف الشيطانية في جميع قواميس جميع اللغات فيه. ماذا تفعل مع شقيقك إذا اكتشفت فيه هذا كله ؟ هل أنت تذهب إلى أقرب مكتب للشهر العقارى لك تسجل تبرؤك منه ؟ هل أنت تملك أصلا أن تتبرأ منه ؟

إننى سأظل أدعو وأبتهل وأسعى وأصلى لكى يكون شقيقى دائما أفضل مما هو عليه.

ولكـن.. إلى أن يحـدث ذلـك فأن هناك حقيقـة كبرى تقررت وانتهـى الأمر. حقيقة لا تتوقف على رغبتى أو رغبته. حقيقة أنه شقيقى. حقيقة أنه في أسوأ حالاته لن يستحل دمى.. ولن يرتهن رقبتى.. ولن يسير على جثتى إلى أرض جديدة يغزوها كل يوم.

إن هذا يعيدنا من جديد إلى إسرائيل. لقد فعلت إسرائيل بنا هذا كله - وأكثر. إسرائيل قتلت واعتدت وشردت وغزت واحتلت وأبادت وقذفت - لثلاثين سنة - بقنابل كان أخطرها قنابل صبت في حياتنا كمية لا نهاية لها من الكراهية. ليسـت كراهية لها ولأهدافها. وهو الأمر الطبيعى. ولكنها كراهية روجتها هي لبعضنا البعض. إن نصف إعلام وجهود إسرائيل طوال سنوات قيامها قد تم تسخيرها لإحداث الوقيعة بين العرب وبعضهم البعض. هذا ليس اتهامـا ولا إدانة ولا احتجاجا أخلاقيا. فالسياسـة لا مكان فيها للاحتجاجات الأخلاقية. هذه مجرد وقائع. وربما لو كنا مكان إسرائيل. ولنا أهدافها. لسلكنا الطريق نفسه.

لقد حاربتنا إســرائيل بطائرات ميراج وفانتوم وسكاى هوك واف ١٦ وبمدافع ودبابات بريطانية وألمانية وفرنســية وأمريكية.. ولكن أخطر تلك الأســلحة جميعا كان هو: الوقيعة بيننا. لماذا إذن نقدم لها سلاحا ضدنا ؟ نقدمه مجانا ومتطوعين. لكى يرتد إلى صدورنا؟.

الإجابة هى: إن البعض بيننا يفعل ذلك بالانفعال. والبعض بعدم المعرفة. لكن البعض يفعله أيضا.. عن قصد. البعض روج. ويروج. لمثل ذلك المنطق. لأنه مقدمة ضرورية تمهد بيننا للإذعان لـ «السلام الإسرائيلى» بديلا عن «السلام العربى».. وهما مفهومان متناقضان تماما. يقوم هذا الكتاب بتحليل مضمون كل منهما.

ولنأخذ مثلا: إن علينا أن نقيم السلام مع إسرائيل. كما تعرضه هى علينا. لأننا يجب أن ننبــذ طريق الحــروب والكراهية والأحقاد. ماذا أخذنا من الحروب ؟ لماذا لم نحاول أن نكون «متحضرين» من البداية. ونلجأ إلى التفاوض مع إســرائيل وإقناعها ؟ لماذا لم نســلك طريق السلام من البداية ؟ !

ومثــل تلك التســاؤلات الملفقة. التــى قيلت وتكررت فعلا عن قصــد. تفترض أولا أن ما كان بيننا وبين إسرائيل منذ سنة ١٩٤٨. هو مباراة تنس أو بنج بونج. أو كرة سلة. لقد كان علينا أن نســجل هدفا فى المرمى فيقتنع الإسرائيليون وينسحبون من الملعب. ولكننا. ويا لهذا الشــر فى نفوســنا. أبينــا إلا أن نلجأ إلى الكراهية والحقــد والمدفع والقنبلة لكى نواجههم بها. أرأيت سفهاء وأشرارا مثلنا ؟ لقد حان الوقت إذن لكى نصبح «متحضرين».. بل وربما نقدم إلى القوم اعتذارا عن ســوء ســلوكنا فى الماضى. وتعهدات وضمانات بحسن سلوكنا فى المستقبل !

لقد قيلت مثل تلك الأشياء. وتم الترويج لها. بتبجح منقطع النظير. تبجح لأنه حذف تماما أن ما كان بيننا وبين إســرائيل هو دولة سرطانية أصبحت على بابنا الشرقى. وتقوم كل عشــر ســنوات بغزو المزيد من أراضينا. دولة ترسل إلينا بشبكات التجسس والتخريب حتى لا يجلو المستعمر البريطانى عن أراضينا مرة.. وتنسف دور السينما والمكتبات بالقاهرة والإسكندرية لكى تمنع تحسن علاقاتنا بالولايات المتحدة مرة أخرى.. وتحتل سيناء بغزو عسكرى مفاجئ لأننا أممنا شركة قناة السويس التى لا علاقة لها بها مرة ثالثة.. الخ.

وما كان بيننا وبين إسـرائيل هو شـيء جاد جدا ضحى إخوة وآباء لنا بأرواحهم فى سـبيله وهم يدافعون عن حياتنا وترابنا. والآن، بعد أن فعلوا ذلك. مؤمنين بأن أرواحهم تهون فى سـبيل حياة وحرية وتراب ومسـتقبل أفضل لبلدهم. تأتى أصوات وأقلام بيننا لكى تقول لأسـرهم ومواطنيهم : إن ذلك الصراع الدامى بيننا وبين إسرائيل طوال سنوات مـن المواجهة المسـلحة كان مجرد نكتة سـخيفة تلهينا بها. وضحكنا عليهم بسـببها. وحماقة كبرى حان وقت الاعتذار عن ارتكابها !

لقد كانت تلك فى الواقع جريمة فى حقنا جميعا. جريمة فى حق مصر بالدرجة الأولى. جريمة فى حق تراب وماضى ومستقبل وأمن مصر.

ومـا هو أمن مصر ؟ إنه ببسـاطة أمن الفرد العادى. أمنـى وأمنك وأمن أختك وزوجتك وأمك وابنك. فلكى يذهب ابنك آمنا إلى مدرسته فى الصباح. فإنه يحتاج إلى أشياء عديدة. من بينها وجود رجل شـرطة فى الشـارع. إن ابنك قد يتعرض للسـرقة. أو الاختطاف. أو الإصابة. أو النصب. وفى كل تلك الأحوال لن يسـعفه ويسـعفك سوى القانون. والقانون يظل حبرا على ورق إلى أن توجد سلطة تنفذه. هذه السلطة يمثلها ويرمز لها رجل الشرطة.

وأنت تنام آمنا فى منزلك ليلا. ليس لأن الله شـطب من حياتنا فجأة كل المجرمين واللصـوص والقتلة والأشـرار.. ولا لأنهم أعلنوا فجأة توبة رجـل واحد فى لحظة تجلى بمسجد السيدة نفيسـة.. ولكن لأن سيف القانون يمكن رؤيته فى الشارع ليلا. القانون يمثله رجل شـرطة يسـير على قدميه حاملا بندقية. إن وجود البندقية فى كتفه ليس معناه أنه سيطلق الرصاص فى كل لحظة. أو سيحتاج إليها فى كل دقيقة. ولكن معناه أن تسعين فى المائة من الذين يفكرون فى سرقتك وسرقتى سوف يردعهم وجود البندقية.

من أين جاءت البندقية ؟ لقد اشـترتها الدولة. ولكن.. ما هى الدولة ؟ إنها ليست شخصا يمتلك شهادة ميلاد وحصل على شهادة عليا من جامعة القاهرة أو عين شمس أو أسـيوط. الدولة ليست لحما ودما. إنها شخص اعتبارى. إنها مجرد جامع ضرائب كبير.. تخصم منى ومنك ضرائب لكى تشترى بها أتوبيسات وتقيم مرافق و..و..تشترى بندقية لشرطة بيننا تحمينا كأفراد. وسلاحا لجيش فى حدودها يحمينا كشعب.

ونحن شعب فقير. ولا تسمح لنا مواردنا إلا بشراء الضرورى من السلاح الذى يكفى لحماية أمننا ووجودنا ومستقبلنا. وربما من أجل هذا لا نستطيع الشراء بترف.. وبلا مسئولية.ولكن مواطنين آخرين فى بلاد أخرى. يشترون ويصنعون لدولتهم سلاحا ذريا. إنهم لا يفعلون ذلك لأنهم عجينة بشرية أخرى. ولا لأن الله وضع فى مكان عقولهم مساحة بيضاء. ولكن لأن أمنهم يتطلب سلاحا ذريا.

وإسرائيل تملك سلاحا ذريا. إنها لم تفكر فيه اليوم. ولا قبل خمس دقائق. ولكنها فكرت فيه قبل أكثر من ربع قرن. وقتها أيضا كانت إسرائيل تتشدق بالسلام مع العرب نهارا.. وتصنع السلاح الذرى ليلا. إن إسرائيل تريد السلام. حسنا. سوف نصدق ذلك. ولكن. بمجرد أن توصلت مع السادات إلى معاهدتها للسلام. بمجرد أن ضمنت إسكات الجبهة العربية الأولى. ماذا نقول عن تلك الجهود المستميتة التى بذلتها إسرائيل لمنع الأردن من الحصول على صواريخ «هوك» أمريكية للدفاع الجوى عن أراضيها ؟ ماذا نقول عن تلك الحملة الشرسة التى حاولتها إسرائيل داخل الكونجرس الأمريكى لمنع السعودية من الحصول على مجرد خمس طائرات «أوكس» للإنذار المبكر ؟ طائرات غير مقاتلة. ووظيفتها هى مجرد الكشف المبكر عن أى هجوم مضاد. ومن ثم المساهمة فى حماية السعودية ضد أية أطماع خارجية؟.

أكثر من ذلك. ماذا نقول عن طائرات الفانتوم الإسرائيلية التى انطلقت سرا فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٨٠. بعد أن تم طلاؤها بشعار سلاح الجو الإيرانى حتى تطير متنكرة. لكى تحاول تدمير المفاعل الذرى السلمى العراقى جنوب شرقى بغداد ؟

إن العراق كانت قد دخلت لتوها حربا ضد إيران. والعراق. حتى بغير حرب. ليست لها حدود مشتركة مع إسرائيل. والعراق تبنى مفاعلها الذرى لأغراض سلمية بحتة. وتخضعه للتفتيش الدولى. مع ذلك فبمجرد أن انشغلت العراق بحربها مع إيران. استدارت إسرائيل ضدها على الفور.

إن محاولة سبتمبر ١٩٨٠ لم تنجح. ومع ذلك فإسرائيل لم تيأس. فبمجرد أن حصلت من الولايات المتحدة على الدفعة الأولى من الطائرات بعيدة المدى «إف - ١٦» كررت محاولتها

من جديد فى فجر السابع من يونيو ١٩٨١ لكى تنجح أخيرا فى تدمير المفاعل الذرى السلمى العراقى. وحينما فعلت إسرائيل ذلك. فإنها اخترقت أجواء ثلاث دول عربية مستقلة هى الأردن والسعودية والعراق، وألقت بستة عشر طنا «تى. إن. تى" وصواريخ "سايدوبندر" وقنبلتين زنتهما أربعة آلاف رطل. على مجهود علمى سلمى. تبنيه العراق على بعد يتجاوز سبعمائة كيلومتر من إسرائيل نفسها. وكل هذا. برغم أن إسرائيل نفسها لديها أكثر من مفاعل ذرى. أقامت مفاعلها الأول منذ أكثر من ربع قرن وقد ظلت لسنوات طويلة تزعم أنه مصنع نسيج. ومازالت حتى الآن تمنع الولايات المتحدة من التفتيش عليه. برغم معرفة الجميع من البداية إنه أقيم للأغراض العسكرية. وليس من أجل السلام.

بل إنه فى الوقت الذى نجحت فيه إسرائيل فى تعطيل التقدم الذرى السلمى العراقى لسنوات طويلة قادمة. بادرت لتوها إلى حث فرنسا على التعاون معها فى بناء مفاعل ذرى جديد (غير ما تملكه بالفعل) وضغطت على هذا الموضوع بشدة خلال الزيارة الأولى التى قام بها الرئيس الفرنسى الجديد فرنسوا ميتران لإسرائيل فى مطلع ١٩٨٢.

وإسرائيل تفعل ذلك بالرغم من أنها تمتعت بمنتهى السلام على الجبهة العربية الأساسية بمقتضى اتفاقيتى كامب ديفيد. ومعاهدتها مع السادات.

فهل الذى يفكر فى السلام. يفكر فى نفس الوقت فى سلاح ذرى ؟ نعم. من يفكر فى السلام يجب أن يفكر فى نفس الوقت فى سلاح يحمى به نوع السلام الذى يريده – ليس سلاحا ذريا بالضرورة – ولكن ما يكفى من السلاح لكى يحمى به السلام الذى يريده.

أكرر : السلام الذى يريده

فالسلام، مثله مثل أى شىء آخر. يتوقف على عوامل عديدة. أهمها نوع ومستوى السلام الذى نريده. إن هتلر أقام سلاما مع تشمبرلين.. وستالين أقام سلاما مع هتلر.. ونابليون أقام سلاما مع أمراء البندقية.

وهناك سلام الآن بين الصين وألبانيا.. وبين أمريكا والإسكيمو.. وبين السود والبيض فى جنوب أفريقيا.. وبين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة فى برلين. وهناك سلام بين فرموزا والصين.. وبين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى.. وبين كوبا والولايات

المتحدة.. وبين اليونانيين والأتراك فى قبرص. وفى كل تلك الحالات يختلف نوع «السلام» باختلاف أطرافه وعلاقــات القوى بينهم.. يختلف باختلاف أهدافهم. وقوتهم. وقدرتهم على فرض نوع السلام الذى يريدونه.

بالطبع إســرائيل تريد الســلام.. ونحن نريد الســلام. ولكن سلامنا يختلف جذريا عن السلام الذى تريده إسرائيل. والصدام بيننا ليس أساسه صداما بين الحرب والسلام.. ولكنه صدام لأن كل طرف يحاول أن يفرض النوع الملائم له ولأهدافه – من الســلام – ليس فقط ملائما بحكم الرغبة. ولكن بحكم الهدف. والمصلحة. والنظرة إلى المستقبل.

وما تريده إســرائيل. أولا وقبل كل شــىء. هو سلام القوة. والإحساس بالقوة له منطق خــاص بــه. يجعل صاحبه يتصور دائما أنه على كل شــئ قدير. فــإذا زاد على ذلك أن إســرائيل فى حالتنا هذه. تأتى إلينا.. ســواء فى قتال أو تفاوض. متصورة أنها تحمل فى جيبها بطاقة توصية من الســماء بأنها شــعب الله المختار. وأنها العبقرية التى ســتهدى تخلفنا العقلى سواء السبيل. فنحن نصبح إذن أمام حالة شرسة من طغيان وعربدة القوة.. حالة شرســة. ولكن ليست فريدة. ففى الحرب العالمية الأولى كان الجنود الألمان يتمنطقون بأحزمــة تحمل عبــارة «إنها إرادة الله» . وفى الحرب العالمية الثانية دخل هتلر مع العالم فى حرب إبادة. إيمانا منه بأن لديه تفويضا من الله بوضع باقى البشر تحت حذائه.. إنه إغراء وطغيان القوة. وتحت تأثير شــعور مماثل هاجم الأثينيون ســيراكيوزا. وغزا نابليون ومن بعده هتلر روسيا. وذهبت الولايات المتحدة إلى فيتنام محتلة.

وتحت تأثير شــعور مماثل أيضا. تصرف الإغريق والرومان والإســبان والألمان والإنجليز خلال الفــترة القصــيرة التى ارتفع فيها نجم كل مــن هذه الأمم. لقد كانت رعونــة القوة هى التى أدت بالإنجليز فى القرن الماضى إلى الظن بأنهم إذا ما خاطبوا الأجنبى بصوت عال بما فيه الكفاية. فإنه لابد أن يجثو على قدميه مقبلا أحذيتهم.. وإسرائيل. حتى فى لحظة ميلادها الأولى سنة ١٩٤٨. أرادت.. بل وقدمت فعلا.. معاهدة رسمية كما ســيتضح فيما بعد. عرضت فيها على مصر ســلاما من تحت حذائها ! إنه سلام القوة.. من قبل حتى أن تمتلك ذلك القدر من القوة اللازم لفرضه.

وفى مواجهتنا لذلك نستطيع أن نفعل أشياء كثيرة. نستطيع مثلا أن نطلب من كل تلميذ فى مدارسنا أن يبتهل إلى الله خمس مرات فى اليوم. بأن يهدى الله مناحم بيجين. أو إسحاق شامير. أو شيمون بيريز. أو كل سياسى إسرائيلى. وبهذا الابتهال إلى الله. بأن يهديهم سواء السبيل، نكون قد أزحنا من على أكتافنا حملا ثقيلا وأوكلنا تنفيذه إلى السماء.. ولكن هذا لن يجعل الحياة بالنسبة لنا أكثر راحة فى اليوم التالى. ذلك أن الشعوب هى كالأفراد. فحينما تنجب ابنا. فإنك. ومهما كانت مواردك وظروفك، سوف تفعل كل ما فى استطاعتك كى تجعله يشق طريقه فى الحياة بنجاح. إنك سوف تعطيه كل اهتمامك ومواردك وخبرتك. جزء من هذه الخبرة أن تعلمه حب الخير : يا بنى.. لا تكذب.. لا تسرق.. لا تعتدى.. إلخ. ولكنك سوف تجد نفسك أيضا مضطرا فى لحظة ما إلى أن تقول له : يا بنى.. قاوم الظلم إذا تعرضت له.. وكن شجاعا فى صد العدوان إذا فوجئت به.. قاومه بلسانك وبقلبك وبضميرك. ولحظة الضرورة. بذراعك.. نعم. ستجد نفسك مضطرا إلى أن تقول له ذلك. أو فلنجرب طريقة أخرى. فلنجرب مثلا أن تقول له : يا بنى.. إذا صفعك أحد على خدك الأيمن فأدر له الأيسر. إنك لو قدمت مثل تلك النصيحة إلى ابنك. فإنك بذلك تكون قد كسبت رضاء السيد المسيح. ومن ثم رضاء الله ولكنك لن تكسب أبدا رضاء ابنك نفسه. فحينما سيشب هذا الابن عن طوقه ويخوض الحياة كما هى فى الواقع. وليس كما تمنيتها أنت. فإنه سوف يكتشف أنك قد حدثته عن دنيا أخرى غير هذه.

ولقد فعل معنا آباؤنا شيئا من ذلك – بالنسبة لإسرائيل – كانوا قوما صالحين. أو فلنفترض مؤقتا أن معظمهم كان كذلك. لكنهم حدثونا عن كل شىء إلا عن حجم الخطر الإسرائيلى على حدودنا.. والآن يتكرر نفس الخطأ. الآن نجد أصواتا صالحة. وربما مخلصة. تكرر لنا النصيحة نفسها : يا بنى.. إذا صفعك أحد على خدك الأيمن. فأدر له خدك الأيسر.. حسنا. ولكن..

أولا : نحن لا يجب أن نلقن نصيحة إدارة الخد الأخر إلى قوم لم يتلقوا منذ خمسمائة سنة سوى الصفعات.

ثانيا : نحن لا نريد أن يكون علاجنا لواقع مؤلم. هو بالهروب منه. إن الأمر جاد جدا. وهو يتعلق بمصير منطقتنا كلها. ولا يتعلق بكتابة نسخة جديدة من «ألف ليلة وليلة» .. حيث تشترى شهرزاد كل ليلة ٢٤ ساعة جديدة من حياتها. بالفرار المؤقت من مواجهة الخطر على هذه الحياة.

ثالثا : نحن لا نريد أن نحصر تفكيرنا فى بديلين اثنين لا ثالث لهما.. فإما أن نكون أسود الغابة.. أو نكون فئرانها.

لقد أصبنا بخسائر فادحة بسبب نوعين من الناس : فريق يريد أن يكون الهدف هو إزالة إسرائيل فورا من الخريطة. وفريق آخر يقول إنه طالما أن هذا غير ممكن.. فإذن يجب أن نستسلم لإسرائيل ونسلمها الخريطة!.

ولكن هذا غير صحيح. لأن معناه أن نختار بين وسيلتين يجىء موتنا بإحداهما : فإما أن نموت بالرصاص.. أو نموت بالسم ! وهو غير صحيح أنه ليس أمامنا من حل سوى القفز من بديل إلى عكسه. إن المقاتل السياسى لو حصر اختياراته فى نصر مؤزر.. أو استسلام مطبق. فلا هو مقاتل. ولا هو سياسى. إنه بالكثير. لاعب أكروبات.. قد تناسبه القفزات المفاجئة. ولكنها لا يمكن أن تصبح أسلوب حياة للشعوب.

لقد انتقل الصدام الأمريكى السوفيتى من حالة المواجهة الكاملة. إلى الاحتواء. إلى التعايش السلمى. ثم أخيرا إلى الوفاق. وفى كلا الجانبين. لم يفسر أحد مطلقا هذا الوفاق بأنه تحالف. أو صداقة. أو حتى نهاية صراع. صراع مازال مستمرا. وسوف يستمر. فى الصفحات الأولى من صحف اليوم.

والقطيعة الكاملة بين الولايات المتحدة والصين. تحولت أولا إلى تهدئة محسوبة. ثم دبلوماسية «البنج بونج» .. ثم اتفاق على «تطبيع العلاقات» استغرق تنفيذه حتى الآن ما تجاوز السنوات العشر. قبل أن تسمح الصين لأول سفير أمريكى بأن يطأ أرضها. كانت الولايات المتحدة قد دفعت الثمن نقدا. ومقدما. وهو التخلى عن تايوان.

فى تلك التحولات من مواجهة الحرب الباردة التى تعايش السلام، يقوم كل طرف بحساب مسبق لقدراته، وتعديل أوضاعه حتى يضمن فى النهاية أنه لا ينزلق إلى سلام

مزيف.. ربما يكسب فيه خصمه ويخسر نفسه. ونحن لا نريد أن يكون ثمن السلام مع إسرائيل هو حرب أهلية عربية.. لأن إسرائيل فى هذه الحالة تحقق بالسلام ما عجزت عن تحقيقه بالحرب. ولا نريد أن يكون ثمن انسحاب إسرائيل هو انسحاب مصر من السياسة العربية.. أو انسحاب العروبة من مصر. أولا، لأن هذا مستحيل. وثانيا لأننا بذلك نجعل انتحارنا هو نفسه ثمن نجاتنا. ثم أننا لا نريد أن يعتمد أمننا فى المستقبل على قصاصات ورق عنوانها «معاهدات السلام»، إن المعاهدات الوحيدة التى يمكن الوثوق بها هى التى تعقد بين الأفكار الحقيقية والتصرفات العملية. وإسرائيل لها أفكار حقيقية، وأهداف عملية، فى هذه المنطقة.. نعرفها بدلالاتها ونتائجها، فحينما تشترى إسرائيل أسلحة بخمسة عشر بليون دولار لسنوات ما بعد السلام مع مصر، فإن علينا أن نتساءل : لماذا ؟ وعلينا أن نفحص أولا نوع السياسة التى ستعبر عنها تلك الأسلحة.. وحينما تعلن إسرائيل، بالألفاظ الصريحة وعلى لسان رئيس وزرائها، أنها ستقوم بدور «حماية الأقلية المارونية فى لبنان» .. حينما يعلن دروز لبنان أن إسرائيل عرضت عليهم مساعدتهم فى إقامة دولة مستقلة لهم هناك. فإن علينا أن نحسب جيدا ماذا يعنى هذا لمستقبل وأمن السودان ومصر و المغرب والجزائر وسوريا والعراق.. وحينما تصر إسرائيل على جعل أشكال محددة من العلاقات الاقتصادية والثقافية والسياسية نصوصا جوهرية فى أى معاهدة سلام.. فيجب أن ندرك على الفور أن إسرائيل تبحث لنفسها عن مركز متفوق داخل الدول العربية.. كمقدمة لبرنامج عمل تم التخطيط له مقدما.

وحينما تحول إسرائيل قضية السلام إلى مساومات طويلة لا تنتهى. فى قضايا فرعية تبعدنا عن القضية الأساسية. فيجب أن ندرك أن هذا ليس مجرد أسلوب فى التفاوض. وإنما هو استراتيجية مقصودة لذاتها. ولتحقيق نتائج سيكولوجية محددة. تضخم فى شعور المواطن العربى أنه يتفاوض مع إمبراطورية عظمى. وليس مع مجرد دولة يسكنها ثلاثة ملايين من السكان. إنها ترسب من الآن فى اللاوعى العربى أنها هى التى تضر وتنفع. وهى التى تمنح وتمنع. وهى التى تسود وتسيطر. وهى التى تقرر من البداية قواعد اللعبة كلها.

نعم السـلام هو الأصل فى الأشـياء. ولكننا نريد السـلام الذى يكون هو إسمنت العالم العربـى وليس ديناميت العالم العربى.. ونريد السـلام الذى نختاره بحكم المصلحة وليس بحكم ابتزاز المسدس الإسرائيلى.

هناك سلام المتعادلين.. كالذى تم بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى بالوفاق فى سـنة ١٩٧٢. ثم بين الصين والولايات المتحدة. ومن قبل بين فرنسـا وبريطانيا. وهناك سـلام المنتصر. كالذى فرضته روسـيا على تشيكوسـلوفاكيا.. والهند على بنجلاديش.. وأمريكا على المكسـيك. وهناك سـلام الضرورة.. بين ألمانيا الغربية وألمانيا الشرقية. وبين كوبـا والولايـات المتحدة. وبين الصين وفيتنام. وهناك أنواع من السـلام.. بمثل ما هناك أنواع من الحروب. وفى تقييمنا لنوع السلام الذى نريده. يجب أن يرتبط هذا تماما بنوع تقييمنا لنوع السلام الذى تريد إسرائيل فرضه. فهناك «سلام عربى» .. يختلف تماما عن «السـلام الإسـرائيلى» . و «السلام الإسـرائيلى لا يرتبط بما تقوله إسرائيل. ولكنه يرتبط بما تفعله وتخطط له».

إننا جميعا نعرف قصة جحا. لقد جاء إليه جاره مرة يطلب منه استعارة حماره. ولكن جحا رد عليه قائلا : إننى متأسف. فلقد خرج ابنى بالحمار إلى السوق.. فى نفس اللحظة اسـتمع الجار إلى نهيق الحمار داخل منزل جحا. فتسـاءل مندهشـا : هذا حمارك هنا.. فكيف تزعم أنه فى السـوق ؟ !. ورد عليه جحا قائلا : شـىء عجيب.. هل أنت تصدق الحمار.. أو تصدقنى أنا؟.

ونحن يجب أن نصدق تصرفات إسـرائيل.. وليس أقوال إسرائيل. إن الأقوال لا تكلف شيئا.. ولكن التصرفات هى التى تكلف إسرائيل دراسات وخطط وبرامج وبلايين الدولارات. فبرغم أن إسرائيل تعيش من جدول المرتبات الأمريكى. إلا أنها توفر. وتقترض. وتقتطع.. مبالغ ضخمة. ليس فقط لكى تحمى أمنها كما تقول.. ولكن لكى تقيم دولة مستقلة للأكراد فى العراق. ودولة للمارونيين فى لبنان. وسـلاحا طويل المدى تهدد به الخرطوم والرياض وطرابلس وبغداد والقاهرة.

إن هــذه هى أخطار حقيقية لا يســتطيع أحد أن يدعى على الإطــلاق أنها بعيدة عنه لمجرد أنها لم تمسه شخصيا بعد.. فالانهيار فى مستقبل أمة يبدأ من تصورها أنها تعيش فى جزيرة نائية تملك الانعزال عما يجرى حولها. إن الفلاح المصرى نفسه تعرض للإفلاس مــرة فى القرن الماضى بســبب الحرب الأهلية بين ولايات الشــمال وولايات الجنوب فى أمريــكا.. ومرة فــى هذا القرن فى أعقاب حرب كوريــا.. لأن الدولة فى مصر تصورت أن ما يجرى فى أمريكا وفى كوريا بعيد عنها. وفى المرة الثانية كان الإفلاس مقدمة لنكســة اقتصادية فى مصر.. ولكن فى المرة الأولى كان مقدمة لاحتلال مصر نفسها.

ونحــن فى هذه المــرة لا نناقش ما يجرى فى أمريكا. ولا مــا يجرى فى كوريا. نحن نناقش خطرا مرئيا هنا وســط الأمة العربية. نناقش أخطارا محددة يمثلها جدول الأعمال الإسرائيلى. إن إسرائيل أصبحت تتصرف فى السنوات الأخيرة على أساس أنها تستطيع إدارة شــئون العالم العربى بفرقتين من جنود المظلات وســرب الطائرات. إن لها قاموسها الخاص فى الحديث وفى تلفيق التاريخ.. حيث كســبت «اســتقلالها» فى ١٥ مايو ١٩٤٨ بعد حرب «للتحرير» خاضتها قبل ذلك ضد «المستعمر» الأجنبى. الذى هو شعب فلسطينى كامل . ترى إسرائيل إنه «اغتصب» منها أرض «الآباء والأجداد» .. إلخ.

حسنا. إننا سمعنا وقرأنا هذا القاموس نفسه من قبل حينما جاءت إلينا أوروبا فى حرب صليبية قبل ثمانية قرون. حرب شــنتها أوروبا ضدنا باســم الصليب لكى تقوم بـ«تحرير» القدس من «المســتعمر» الأجنبى.. الذى هو شــعب فلســطينى كامل يمثل جزءا من العرب «الكفار».

بعــد قليل اكتشــفنا أن هؤلاء القادمين «لتحريــر» القدس. يتقدمــون لاحتلال القاهرة والإسكندرية ودمياط والمنصورة والجيزة.. وهى مدن تقع فى بلدنا نحن وليس فى فلسطين. ذلك لأن الذى يأتى إلى فلســطين كمســتعمر أجنبى. سرعان ما يكتشف أن مصيره الحتمى هو الذوبان أو الانســحاب. ما لم يسيطر بالتالى على كل الدول المحيطة بفلسطين. ونحن بدورنا ســرعان ما نكتشــف أن الغفلة عما يجرى فى فلسطين ســرعان ما يصبح غفلة عن مصير مصر نفســها. وسوريا نفســها.. إلخ. وعندما قال نابليون بونابرت «إن مصير الشرق

يعتمد على هذه المدينة الصغيرة» .. فإنه كان يشـير إلى مدينة «عكا» فى فلسـطين. وهى نفس المدينة التى حسمت من قبل مصير تحتمس المصرى. وبطليموس الرومانى. وريتشارد قلب الأسد الفرنسى. والجنرال اللنبى البريطانى.

لم يكن غريبا إذن أن مدينة صغيرة فى فلسطين تحسم مصير الشرق.. لأن فلسطين فى الواقع تحسم مصير العروبة ومن بعدها الشرق كله.

إن الحقيقة الأولى فى مصير العرب هى فلسطين، والحقيقة الأولى فى مصير فلسطين هـى مصـر، والحقيقة الأولى فى مصير مصر هى فى عـدم الانكفاء إلى الداخل.. تصورا بذلك أننا نكفى أنفسنا شرور الآخرين خصوصا إذا كان أولئك «الآخرون» هم دولة معادية تدعم نفسها فى فلسطين استعدادا لأهداف أخرى قادمة فى الطريق.. والتخلف فى فهم هذه الحقيقة لا يمثل فى الواقع مجرد مسـئولية مصرية. ولكن مسـئولية عربية أيضا، ولقد تخلف عرب كثيرون فى الماضى والحاضر.. سواء بدافع القصور أو عدم الإدراك أو التعمد.. فى ترجمة الإحسـاس بالخطر إلى برنامج عمل يدعم مصر فى مواجهة حاسمة سـتقوم بهـا على أى حال. وهذا الذى يتعامل مـع مواطن مصرى واحد فى الخليج أو ليبيا أو السـعودية مثلا. بمنطق الغنى مع الفقير أو المحسـن مع المحتاج. إنما يضع قنبلة زمنية لن تنسف فقط مشاعر مصر نحو العروبة.. ولكنها قد تنسف العروبة ذاتها.

وهـذا الـذى يتصور أن الحيـاة المرفهة داخل قصر.. يمكن أن تسـتمر فى وجود حياة قاسية داخل الشارع المصرى أو السورى. وفى مواجهة خطر حقيقى داخل عقل إسرائيلى.. إنما هو فى الواقع يضعف نفس الحليف الذى لن يكون قويا إلا به.

نعم. هناك إهمال شـديد فى تنقية الشـعور العربى. وقصور أشـد فى بناء المسـئولية العربيـة.. فليـس كل العرب هم «فيصل» أو «بومدين» مثلا. لقـد أعطى الله للعالم العربى أيضا نصيبه من الملائكة والشـياطين.. وحصته من الأصحاء والمرضى.. وعلينا ألا نفرط فى الأولين يأسا من شفاء الآخرين. والمثل العربى المصرى الشعبى يقول: «أنا ادعى على ابنى.. واكره اللى يقول آمين».

ونحــن ســوف نختلــف دائمــا مــع إخــوة عــرب بســبب إهمالهــم فــى النهوض بمسـئولياتهم. سـوف نختلف.. وننقـد.. وندعو.. وننصـح.. ونجعـل حقائقنا جارحة مـن وقت لآخر. ولكن هذا شـىء. وأن تكـون المرارة العابرة دافعا لكـى نفرط فى أمننا.. شـىء آخر مختلف تماما. إن مداواة المشـاعر ممكنة غالبا.. ولكـن علاج الانهيار فى أمن أمة يكون قاتلا أحيانا. فأنت تستطيع أن تصنع من البيضة عجة.. ولكنك لا تستطيع أن تحول العجة إلى بيض مرة أخرى.

نعم السلام هو الأصل فى الأشياء. تلك حقيقة كبرى آمنا بها قبل أن يؤمن بها غيرنا. بـل إننا الأمة الوحيدة على ظهر الأرض التى يبدأ فيها الفرد العادى تحيته للآخر بقوله: السـلام عليكم.. مع ذلك فإنه تبين من دراسـة علمية أنه فيما بين سنة ١٤٩٦ قبل الميلاد وسـنة ١٨٦١ ميلادية - وهى دورة زمنية طولها ٣٣٥٧ سـنة - لم يكن من بينها سـوى ٢٢٧ سـنة من السلام. بينما تخللتها ٣١٣٠ سنة من الحرب. بكلمات أخرى: فى مقابل كل ١٣ سنة حرب شهد العالم سنة واحدة من السلام.

وفـى إحصائية نشـرها روبرت ماكنمارا وزير الدفاع الأمريكى الأسـبق قال: «إن السـنوات الثمانى السابقة على سنة ١٩٦٦ شهد العالم ١٦٤ صراعا عنيفا بالقوة المسلحة حسمت مصير ٨٢ حكومـة مختلفة» .. على أن الفارق الأساسـى الذى لاحظه ماكنمـارا هو أنه لم يكن هناك صراع واحـد من الـ ١٦٤ اتخذ شـكل الحرب الرسمية المعلنـة. فالواقع أنه لم يكن هناك إعلان رسمى واحد للحرب منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية. مع ذلك فإن الولايات المتحدة حاربت فى كوريا ثم فى فيتنام. وفرنسـا حاربت فى الهند الصينية. والاتحاد السـوفيتى سـحق تشيكوسلوفاكيا. وتركيا حاربت فى قبرص. وإسرائيل غزت أراضى عربية بالقوة المسلحة لثلاث مرات على الأقل.

نحـن لم نخترع إذن..ولكنها تفـرض علينا فرضاً. شـئنا.. أو لم نشأ. ولن يفيدنا كثيرا أن ندير عيوننا إلى الاتجاه الآخر. وسوف نخسر أرضنا إذا لم نعرف كيف ندافع عنها.. ومن أين يبدأ هذا الدفاع.. وعلى أى أساس يجب بنائه.. إن الشعوب تعيش وتتقدم وتنهض بألف طريقة وطريقة.. وليس من بينها أبدا أن تدير لعدوها خدها الآخر. والواقع أنه مع كل غزوة وعربدة إسرائيلية جديدة فى عالمنا العربى تصبح نظم الحكم العربية أكثر ضآلة أمام مواطنيها.

وتصبح دولنا نفسها أصغر وأصغر داخل مكانها على الخريطة. إن كل هجمة بربرية إسرائيلية جديدة تدفع كل دولة عربية إلى المزيد من الانكماش ذعرا إلى الخلف.. حتى تجعل المسافة بينها وبين الدولة العربية المجاورة أكثر بعدا.. وحتى تحصل فى النهاية على شهادة ورقية بحسن السير والسلوك. ليس من شعوبها. ولكن من أعداء شعوبها.

هكذا أصبح حالنا فى السنوات الأخيرة. كما لو كنا أبطالا مأساويين فى دراما إغريقية مفجعة.. حيث فيها يسير البطل بعينين مفتوحتين نحو كارثته التى حددتها له الأقدار من البداية.. ولقد كان هنرى كيسنجر. وزير الخارجية الأمريكى الأسبق والصديق الصهيونى المخلص لإسرائيل. هو الذى لخص موقفه قبل سنوات بما يلى : يجب أن يصاب العرب أولا بحالة من اليأس الكامل.. قبل أن يتحدث معهم أحد (من إسرائيل) عن السلام.. وفى السنوات الأخيرة بدأنا نرى نتيجة هذا كله ماثلة أمامنا.. والأسوأ من ذلك أن الذين يروجون لهذا اليأس أصبحوا من بيننا. يتحدثون لغتنا. ويقسمون بالأيمان المغلظة فى أذاننا قائلين : إن طريق الخلاص أمامنا هو فى الالتزام بأخلاقيات وسياسات قارب النجاة. إن السفينة غارقة لا محالة.. فليسرع كل واحد إلى الفرار نحو قارب النجاة قبل الآخرين.. وإذا زادت الحمولة.. فليضح الشقيق بشقيقه.. حتى ينجو هو بجلده !

ولقد أصبح لأخلاقيات وسياسات قارب النجاة هذه كهنة وحملة مباخر يقومون فى كل مرة بالوقيعة بيننا. والتوقيع على الوشايات الإسرائيلية المعدة مقدما بخاتم اختلسوه من بين أدراجنا. ماذا تريدون ؟.. البقاء فى السفينة ؟.. إنها غارقة.. التماسك مع أشقائنا؟. إن قارب النجاة لا يحتمل كل هذا العدد.. الغضب للشهداء من بيننا الذين يتساقطون أمامنا ؟. حسنا.. بعد أن تنتهى الكارثة سوف نذهب إلى أقرب مكتب تلغراف ونرسل باسمهم برقيات مواساة وتعزية !.

لكن. إذا كان الفقيد فى كل مرة سيحصل على الرحمة.. فما الذى سنحصل عليه نحن؟ هنا يقولون لك : نحن سنحصل على النوايا الطيبة. مزيد من النوايا الطيبة. مستر بيجين رجل يفى بكلمته. قال سأقتل. فقتل. وسأدمر. فدمر. وهو الآن يقول سلاما. وسيفعل.

لكن السـلام لا تصنعه مطلقا النوايا الطيبة المغشوشـة، السلام لا تصنعه أخلاقيات وسياسات قارب النجاة. ولا برقيات العزاء بعد دفن الضحية. ولا شهادات حسن السير والسـلوك التى يغرق بها الغزاة الإسـرائيليون البعض منا.. أو يدخرها لنا حلفاؤهم فى كل مرة.

إن السلام يصنعه شىء أبسط من هذا كله. شىء اسمه : توازن القوى. فإسرائيل كلما خرجـت بمكافأة على عدوانها.. كلما جعلها هذا أكثر شـهية لمزيـد من الغزو والعدوان.. يجـب إذن أن نختار نقطة نبدأ منها ونقول عندهـا بأعلى الصوت وأوضح الأفعال : الآن يجـب أن نتكاتف معا. ليس بمجرد إعلان أننا نرفض ونشـجب.. أو نصبح عنتريين فى خطبة أو خطبتين.. أو نكنس عليهم مسجد السيدة زينب !. يجب أن نكون جادين ولو من باب التغيير. إن علينا أن نتكاتف لأن علينا أولا أن نوقف هذا السـقوط السـريع المتتابع فى السـنوات الأخيرة. هذا الانكماش والتقوقع ذعرا. هذا الانسـحاب النفسـى والعقلى من حاضرنا ومسـتقبلنا وجوهر أمننا. لقد عانينا فى يونيو ١٩٦٧ من نكسـة مروعة. لكننا خرجنا منها على الفور بوضوح قاطع فى الرؤية : ماذا أصابنا.. ومن أين يبدأ العلاج.

ولكن.. فى السـنوات الأخيرة وقع أكثر من «يونيو». كان هناك مثلا يونيو ١٩٨١ فى بغداد. ثم يونيو ١٩٨٢ فى لبنان. إنه لم يكن مجرد «يونيو» آخر. لقد كان أكبر وأفدح لأن العـالم العربى افتقد الإرادة التى تتصدى للخطر. والقيادة التى تترجم تلك الإرادة عمليا.. ولقد كان السيناريو الإسرائيلى واضحا من البداية لكل من يريد أن يرى. ومع ذلك تصرف البعض كما لو كان الذى يجرى فى كل مرة هو مفاجأة مثيرة وقعت على رؤوسـنا فى ليلة شتاء مطيرة تخلت فيها عناية السماء عن رعاية أقدارنا.

وحينمـا نسـأل فى كل مرة : ما الـذى فعلناه. أو سـنفعله. إزاء الكارثة الجديدة.. فـإن كهنة أخلاقيات قارب النجاة ومروجى الروح الانهزامية. يبدأون فى اختلاق الأعذار الملفقة من هنا وهناك. إنهم يتعللون مثلا بأن أمريكا أصيبت بانفلوانزا سياسية ستشفى منها حتما.. ومستر رونالد ريجان لا يرضيه أبدا انتهاك حقوق الإنسان الفلسطينى لأنه لم يرضه من قبل انتهاك حقوق الماشية والأغنام فى جزر فوكلاند.

ولكـن، بصرف النظـر عن دعواتنا بالشـفاء العاجل لأمريكا. ولـلإدارة والمصالح الأمريكيـة، إلا أن الضمانات النهائية لأمننا لن تأتى إلينا مطلقا داخل مظروف قادم بالبريـد الجوى مـن أى عاصمة أجنبية. إن أمننا هو بـين أيدينا.. نحن الذين نفرط فيه ونحن الذين نصنعه. والخائفون المذعورون اليائسون لا يصنعون أبدا أمنا لأمتهم.

وفى كل مرة تقوم فيها إسرائيل بهجوم، أو بغزو وحشى، أمام عيوننا.. لا يصبح السـؤال فقط : ماذا نفعل ؟ ولكن السـؤال يصبح : كيف نسـتعد من الآن.. للغزوات القادمة إلينا فى المستقبل ؟.

وفى الإجابة عن هذا السؤال يجب أولا أن نبدأ من الواقع – ليس بهدف الاستسلام له كما تريد إسرائيل ويروج لها كهنة سياسات قارب النجاة – ولكن بهدف تغيير هذا الواقع لمصلحتنا. فالتشـخيص الصحيح للواقع هـو إذن المقدمة الضرورية للقدرة على تغييره. ولقد اختصرت إسـرائيل ذاتها كل هذا الواقع على امتداد سـنة ما بين يونيو ١٩٨١ ويونيو ١٩٨٢، سـنة، انتهت بغزو إسـرائيلى كامل للبنان. غزو بلغ قمته فى حصار قوات الاحتلال الإسـرائيلية لبيروت الغربية. حصار اسـتمر ٧٧ يوما. فعلت إسـرائيل خلاله كل شـىء، من الغارات الجوية الوحشية المركزة، إلى حصار الجوع والعطش، وبعدها المذابح السافرة التى اهتز لها ضمير العالم كله، فعلت إسرائيل كل شـىء، بغير أن تتيقظ النظـم العربية يقظة كافية لجوهر المشـكلة وبداية الطريق إلى علاجها.

فإذا نسـينا، مؤقتـا، كل الكلمات والمصطلحات المتناقضـة، والمثيرة للجدل، فى قاموسـنا السياسـى.. إذا نسينا المصير العربى المشـترك، وهذا الحزب هنا أو هناك، وهـذا الحاكـم وما فعله أو لم يفعله، والاستسـلام والرفض، وأنصـار وخصوم كامب ديفيد والمعاهدة الإسرائيلية مع السادات، إذا نسينا، حتى، ياسر عرفات وكل ما هو فلسـطينى، فسيظل هناك دائما الحد الأدنى الذى نسـتطيع أن نتفق عليه لكى نبدأ منه. هذا الحد الأدنى يقوم على الحقائق التالية.

أولا : إن هناك قوة عسكرية عظمى ولدت فى المنطقة. قوة تملك تفوقا عسكريا ساحقا. وجدول أعمال يتناقض تماما مع جدول أعمالنا. هذه القوة لم تولد قبل ربع ساعة. ولكنها ولدت فى وضح النهار خلال السـنوات القليلة الأخيرة. قوة تختار ما يلائمها من أهداف. وتنفذهـا بـين فترة وأخرى بقوة السـلاح ومباركـة الحليف الأمريكى. قـوة تتطلع خارج حدودها. ليس فقط لكى تحتل جزءا من فلسطين وجزءا من سوريا. ولكن لكى تحكم على دولة عربية هى لبنان بنزع سـلاح جزء من أراضيها، والقدوم ذليلة إلى مائدة المفاوضات. لكى تسـتمع إلى الشـروط التى يمليها مناحيم بيجن. بل وحكمـت عليها. برفض انعقاد مؤتمر عربى للقمة طوال أربعة شهور من بدء الغزو.

ثانيا : إن تلك القوة العظمى، إسرائيل فى طبعتها الجديدة. لديها جدول أعمال محدد تسـير قدما فى تنفيذه يوما بعد يوم وسـاعة بعد ساعة. بلا تردد ولا توقف. ففى السنوات الأربع الأخيرة فقط قامت إسرائيل باختراق أجواء ثلاث دول عربية مستقلة هى السعودية والأردن والعراق. ودمرت المفاعل الذرى السـلمى العراقى جنوب العاصمة بغداد. وأعلنت ضـم القدس العربية ومرتفعات الجولان السـورية. واحتلت ثلاثة أخماس لبنان. وأرغمت رئيس لبنان على التفاوض تحت حصار دبابتها. بينما جنودها يتمخطرون أمامه بالمايوهات والمدافع الرشاشة.

ثالثا : إن تلك القوة العظمى الجديدة بدأت تسـتخدم ضدنا أسلحة جديدة تماما تهدد المنطقـة كلهـا برياح صليبيـة عاتية قادمة من القرن الحادى عشـر. ليسـت فقط القنابل العنقودية المحرمة دوليا والنابالم، ولكن سلاح تحويل الأقليات الدينية فى المنطقة إلى قوى سياسية تفتك بالجسد العربى من الداخل لحساب إسرائيل نفسها. وهذا السلاح الإسرائيلى الجديـد كاف بمفرده لإنـذار كل دولة عربية بالخطر القادم نحوها فـى الطريق.. لو أنها تظاهرت اليوم بأن ما يجرى فى لبنان بعيد عنها.

رابعا : إن الولايات المتحدة وهى الحليف الوحيد لإسرائيل فى هذا العالم بدأت تتصرف بروح جديدة من الاستهتار والاستخفاف الشديدين بالعالم العربى بأجمعه. فلا أصدقاء ولا أعداء أصبح لهم اعتبار كبير فى السياسة الأمريكية الجديدة. بالطبع ـ السوفييت يتصرفون

أيضا أحيانا بلا مبالاة. وسلبيتهم تلك عامل إضافى أخر لصالح إسرائيل ولكن أمريكا شىء مختلف. أمريكا تساعد إسرائيل بإيجابيتها. مرة بالسلاح المتطور نوعا وكما ومدى.. ومرة بتوفير الغطاء السياسى لها لحمايتها من غضب المجتمع الدولى داخل الأمم المتحدة.

ولقد رأينا مثلا كيف وصل النفاق الأمريكى الجديد إلى ذروته بادعاء أمريكا أنها تريد حماية إسرائيل من الإرهاب الفلسطينى فى لبنان لكننا رأينا إسرائيل قبلها بسنة واحدة. وهى تنطلق أكثر من ٧٠٠ كيلو متر خارج حدودها لكى تدمر المفاعل الذرى السلمى العراقى. بغير أن تعلن أمريكا فى حينها أنها ستحمى العراق من الإرهاب الإسرائيلى.

والمسألة هنا لم تعد مجرد ادعاء أمريكا بأنها تحمى إسرائيل. إن ما أصبحت أمريكا تحميه الآن هو غزوات إسرائيل. هذا هو التحول الأمريكى الجديد الذى يجب أن نواجهه ونفكر فى نتائجه. وهذا يعنى أن من الخطر على أمننا أن يعتمد فى جوهره على كلمات جوفاء يحملها إلينا البريد الجوى. فلنصادق أمريكا، بل ولنرسل إليها بطاقات معايدة من وقت لأخر. ولكن مصالح شعوبنا أهم من أمريكا والاتحاد السوفيتى معا. وهى مصالح لا تعنى أحد غيرنا وأرواح شعبنا لن تحميها سوى عقولنا وسواعدنا نحن.

خامسا: لقد أصبح واضحا بطريقة قاطعة أنه من المستحيل أن نحمل دولة عربية واحدة مسئولية التصدى لأطماع القوة الإسرائيلية العظمى الجديدة.. وإلا كنا نخون ضمائرنا وندفع تلك الدولة دفعا إلى الانتحار. لقد أصبحنا نواجه اختلالا فادحا فى ميزان القوى ضدنا ولمصلحة إسرائيل. ولا يكفى لمواجهته أن نحسب قطع السلاح هنا وهناك.. لأن السلاح المتناثر لا قيمة له إذا لم تحركه إرادة سياسية ناضجة. تتجاوز المشاعر الإقليمية الضيقة والرغبة فى تمزيق ثياب الآخرين أو التحجج بهم.

سادسا: إن كل دولة عربية أصبح عليها. ولحماية نفسها قبل أى اعتبار أخر. أن تعيد تقييم الأسس التى تقوم عليها سياستها الخارجية.. بحيث نعرف من الآن أين سيكون مصيرنا غدا وهل نحن نستعد لهذا المستقبل من الآن.. أو أنه سيفاجئنا فى كل مرة حيث لم نتوقعه أو نستعد له.

ونحـــن هنا لا نطالب الحكومــات العربية بمعجزات. ولا بأحـــلام عنترية. نحن فقط نطالب بأن تعلن لنا كل حكومة الدروس الصحيحة والجادة التى اســتوعبتها من الغزوات الإســرائيلية الجديدة.. وفجوة القوة التى حققتها إسرائيل لصالحها خلال السنوات القليلة الأخيرة.

لقد أصبحت الدول العربية جميعا منزوعة الســلاح فى مواجهة إســرائيل.. بحيث إن كل حكومة لم تعد تملك ســوى خطابات ونداءات واســتغاثات تدعو فيها الآخرين لتأدية واجباتها هى. اســتغاثات هى فى أحســن الأحوال تحرك معنوى. لكن لم يعد فى أيدينا وســيلة ضغط مادية واحدة لمواجهة الأحداث التى تفرضها علينا الأطماع الإســرائيلية فى كل مرة. إننا وجدنا أنفسنا وبلادنا عرايا من كل سلاح سوى الاستغاثات بعواصم أجنبية. وهـــى حتى لا تلقى اســتجابة جادة. لم تنفعنا إذن لحظة الجـد كل تلك الصور التذكارية التى أغرق بها المصورون البعض من بيننا. ولا دافعت عنا تلك الأيدى التى لفقت التصفيق للبعض منا ومنحته شهادات ورقية وجوائز وصكوك توصية إلى السماء.

تلـك إذن حقائق أساســية لا أعتقد أن أحدا يختلف عليهـــا أو يجادل ضدها. والحل الوحيد الآن هو أن يكون العلاج برنامج عمل للمستقبل. إن المستقبل يبدأ الآن.. وإلا فابدأ.. وسوف نبتلع من الآن بغصة فى حلقنا تلك الأعذار التى تم اختلاسها فى كل مرة.. ولكننا نقول مرة أخرى : إذا كنا قد عجزنا عن أن نكون أسود الغابة.. فهل حكم علينا أن نكون فئرانها ؟ !

ثم شيء آخر : إذا كنا قد عجزنا مؤقتا عن إقامة «السلام العربى» بالمنطقة.. فهل يعنى هذا بالضرورة أن نذعن ونستسلم لـ «السلام الإسرائيلى»؟.

إن هذا الكتاب يقوم على أســاس مجموعة مفاهيم جوهرية.. أهمها على الإطلاق هو : الأمـــن. مفهوم الأمن المصرى فى مواجهة الأمن الإســرائيلى. وربما من أجل هذا كان لابد من تأصيل هذا الأمن وإعادته إلى جذوره الأساســية. وفى هذا المجال فإننى اخترت نقطة تعســفية فى القرن الماضى. كانت هى النقطة التى بدأ منها الانهيار فى أمن مصر. ولأنها

كذلــك بالضبط فقد كانت هى أيضـــا نفس النقطة التى ولدت فيها فكرة إقامة إســـرائيل. كدولة فى فلسطين.

ولقد انتهيت من هذا الكتاب أصلا فى شهر مارس سنة ١٩٧٩. لكن ظروفا قاهرة حالت دون نشـــره فى حينها. بالطبع كان ممكنا دائما نشره خارج مصر. ولكننى لأسباب عديدة رفضت ذلك. أســـباب فـــى مقدمتها أن القارئ المصرى مَعْنىُّ أساســـا بالأمن المصرى الذى هو بدوره المفتاح إلى الأمن العربى فى مواجهة الأمن الإســـرائيلى. وحينما تغيرت الظروف فى ســـنة ١٩٨٣ وأصبح ممكنا خروج هذا الكتاب إلى النور فى مصر. كانت إســـرائيل قد ســـارت شوطا فى تحقيق «الأمن الإســـرائيلى» المخصوم من «الأمن العربى» بما يفوق خيال أكثـــر المحللـــين دراية. من هنـــا كان لابد من مراجعـــة الكتاب فى مواضـــع عديدة. بما يستوعب الخطوات السريعة المتلاحقة التى تختصر بها إسرائيل الطريق إلى فرض «السلام الإسرائيلى» على عالم عربى. اعتاد مؤخرا الاعتماد على كل طرف إلا الاعتماد على نفسه وذاته. وكان الســـبب المباشـــر فى ذلك هو أن انطلاق إسرائيل ســـريعا إلى أهدافها لم يكن ممكنا إلا بعد تدبير وقوع إعصار سياسى على العالم العربى يفقده الثقة فى نفسه وقدراته.. ويشككه فى جدوى المقاومة ويجرده من خطوط دفاعه النفسية والعقلية قبل أى شىء أخر.. تمهيدا للاختراق الإسرائيلى الكبير.

من هنا فإن الخطوة الأولى إلى «الأمن العربى» قد تبدأ من آخر مكان نفكر فيه. تبدأ من استرداد تلك الثقة الضائعة فى النفس. تبدأ من الإيمان بجدوى المقاومة. جدوى التلاحم معا. جدوى الاســـتعداد للمستقبل. إن كل المأساة العربية فى الصراع العربى الإسرائيلى يمكن تلخيصها فى عبارة واحدة : إن إســـرائيل كانت تســـتعد دائما للمســـتقبل.. بينما نحن نســـتعد للماضى. وكانت إســـرائيل تثق فى قدرة القـــوة. بينما نحن نثق فى قدرة الحق.

ولقـــد آن الأوان لإنهـــاء هذا الخلل. آن لنا أن ندرك أن الأمم تحيا أو تموت بحســـب الأسلوب الذى تواجه به التحديات المفروضة عليها. وفى مواجهتنا لهذا التحدى. ليس هنـــاك. مـــرة أخرى. قانون ثابت فى هذا العالم يقرر أن المعتدى لابد وأن يعاقب. أو أن

العدل لابد أن يسود. إن اللحظات التى قد تتوق فيها أمة إلى الانتباه لتوفير احتياجاتها فى الداخل. قد تكون هى نفس اللحظات التى تضطر فيها إلى مواجهة التهديد من الخارج. والأمة التى تنهض لمواجهة هذه اللحظات بالذات. هى الأمة التى تملك حكمة إدراك الخطر. وإرادة هزيمته، هى وحدها الأمة التى تعيش فى عالم اليوم. وسوف نرى. عبر صفحات هذا الكتاب أن مصر واجهت مثل تلك اللحظات مرات عديدة فى تاريخها.

والخطر أمامنا اليوم لم يعد بحجم دولة. لم يعد بحجم مصر وحدها مثلا، أو العراق. أو سوريا. أو السعودية، أو الخليج. أو الأردن وحدها. إن الخطر الآن أكثر من أى وقت مضى. أصبح بحجم أمة كاملة. وقد تكون مصر أكبر دولها. ولكنها بالتأكيد ليست وحدها المعرضة للإعصار النهائى. من هنا أصبحت مواجهة الخطر تحتم أن نتكاتف معا. نتلاحم معا. وبالطبع ليس بوسع مصر وحدها أن تواجه الخطر. مع أنها ستواجهه بإرادتها أو رغما عنها. كما أنه بغير مصر لن تتم أبدا مواجهة ناجحة للخطر. لن تتم فى وقت قصير على الأقل.

وبينما القوة ليست هى الحق، فالحق وحده أيضا ليس بديلا عن القوة. من هنا فإن سياسات إدارة الخد الأخر لإسرائيل اعتمادا على يوم تنصفنا فيه السماء. هى بالضبط سياسات الكارثة لنا كأمة، وكدول، وكأفراد.

فإذا كنت. عزيزى القارئ، تؤمن بمنطق إدارة الخد الآخر، بل إذا كنت حتى تتصور أن إسرائيل سوف ترتدع يوما لمجرد أننا نملك الحق وقرارات الأمم المتحدة، فإننى أنصحك من الآن بألا تواصل قراءة هذا الكتاب.

أما إذا كنت تريد من ابنك أن يعيش فى دنيا حقيقية. يسعى فيها إلى الخير والمحبة والسلام. ولكن يدافع عنها بذراعه لو لزم الأمر.. وإذا كنت تريد ألا تضع من الآن فيتو على حياة ابنك ومستقبله.. وإذا كنت تريد أن يدعو لك ابنك فى صلاته، مترحما بعد وقت طويل وقائلا : كان أبى بعيد النظر. وواقعيا وبفضله أصبحت أعيش حرا فى بلد حر.. إذا كنت تريد ذلك، فأرجوك أن تواصل القراءة.

فابنك هذا هو الجيل القادم فى مصر وفى العالم العربى. الجيل الذى سوف يسدد من مستقبله أية «فاتورة» تحولها إليه من الآن. وابنك هذا هو بلد بأكمله. بلد عظيم يجب أن نرتفع إلى مستوى عظمته.. ومتحضر يجب أن نضيف إلى حضارته. وعصرى يجب أن نؤكد عصريته.. ومسالم يجب أن نوفر الأمن لسلامته.

بلد يريد السلام لنفسه وللآخرين. ولكنه سلام شعب حر - جزء من أمة حرة - يعرف إمكانيات مستقبله. وحدود قدراته. وخريطة مصالحه. سلام. نصنعه من إرادتنا وأمننا. ولا نستعيره من نوايا الآخرين. سلام شعب. وأمة. تقف على أقدامها. سلام نفرضه.. ولا نتسوله.

و.. عليكم السلام

محمود عوض

الجزء الأول

بداية البداية

"إن فلسطين - والشام كله - هى
باب الديار المصرية"

محمد على - ١٨٣١

الفصل الأول

الربع ساعة الأخير - إرغام مصر على الانسحاب

إن فكرة إسـرائيل – كدولة – لم تولد من فراغ. لم تولد فى سنة ١٩٤٨ حينما أعلنت رسميـا. ولا فى سـنة ١٨٩٧ حينمـا انعقد المؤتمر الصهيونى الأول. لقـد ولدت قبل ذلك فى أوراق وأرشـيف الدول الكبرى. وكانت لحظة الولادة هى نفسـها لحظة انحسار مصر وإرغامها على الانكفاء على نفسها. إن إسرائيل – الدولة العازلة فى فلسطين – ولدت فى الربع ساعة الأخيرة لإرغام مصر على الانسحاب من الشام لهذا يجب أن نبدأ القصة من أحداث هذا الربع ساعة الأخيرة.. بالضبط.

ففـى نوفمبر سـنة ١٨٣١ طلب محمد على مـن الجيش المصرى التوجه إلى فلسـطين للاستيلاء عليها وتحريرها.

كان والى عكا – ودائما هناك عكا فى التاريخ المصرى – قد بدأ يمارس الابتزاز ضد قوافل التجارة المصرية من وإلى الشـام. وهكذا أرسـل محمد على ابنه إبراهيم على رأس الجيش لكى «يحرر» فلسطين.

وبرغم أن والى «عكا» تحصن لعدة أسابيع فى قلعة «عكا» ذاتها. إلا أن الأهالى استقبلوا الجيش المصرى بأقصى درجات الترحيب والمسـاعدة. إنهم لا ينسـون أبدا أن وحدتهم مع المصريـين اقترنت دائما بلحظات انتصار تاريخية فاصلة، كان أخرها الانتصار المدوى ضد المغول.. الذى قدم كالإعصار من أسيا. والآن.. بقدوم مصر لأول مرة منذ ثلاثة قرون.. فان الحكم التركى قد آن له أن ينتهى، ويبدأ مرة أخرى الحكم العربى.

كانت تركيا منذ سـنة ١٥١٧ هى إمبراطورية ضخمة مترامية الأنحاء أقامها آل عثمان. وكانـت المنطقة من الجزائر غربا إلى العراق شـرقا واليونان شمالا واليمن جنوبا. هى بلاد تمثـل كل منها ولاية تابعة للإمبراطـور العثمانى فى العاصمة. القسـطنطينية. تؤدى له الجزية سنويا، ويقوم هو بتعيين ممثل له ليكون واليا على كل بلد.

ولكن محمد على لم يكن واليا معينا من السلطان لحكم مصر.

فى الواقع إن الذى وضعه على كرسـى السـلطة فى القاهرة كان هو الشعب المصرى ذاته. بعد أن ثار على الوالى ممثل السـلطان وخلعه ليضع فى مكانه محمد على، الضابط الذى جاء من ألبانيا. واضطر السلطان العثمانى أخيرا إلى الاعتراف كارها بقرار الشعب فى القاهرة.

وخلال سنوات قليلة اندمجت المصلحة الشخصية لمحمد على مع المصلحة الموضوعية للبلد التى أصبح على رأسها.. بحيث إنه بدأ على الفور فى إجراء سلسلة من الإصلاحات الشاملة التى عجلت بها الأحداث. لقد تولى محمد على السلطة فى سنة ١٨٠٥. بعد سنوات قليلة من فشل الحملة الفرنسية على مصر بقيادة نابليون بونابرت. ومن البداية أصبح عليه أن يواجه محاولة غزو جديدة قامت بها بريطانيا فى هذه المرة (١٨٠٧) سرعان ما فشلت على الفور لحسن تنظيم المقاومة الشعبية.

لقد فتحت محاولة الغزو هذه عينيه على أشياء عديدة وخطيرة. فبرغم نجاح المقاومة الشعبية فى طردها فى النهاية.. إلا أن الدرس كان واضحا تماما. هناك تخلف شديد عانت منه مصر طوال القرون الثلاثة الأخيرة. هناك تخلف اقتصادى سببه أن الاقتصاد المصرى مازال اقتصاد القرون الوسطى.. فى الوقت الذى بدأت فيه أوروبا تتحول إلى الصناعة وعصر البخار.

وهناك تخلف تكنولوجى.. كان من نتيجته أن نجح نابليون فى الدخول من قبل غازيا.. لأن البندقية التى جاء بها جنود نابليون مثلت تفوقا تكنولوجيا على الحصان الذى حارب به جنود المماليك.. وهكذا كان لابد من الانطلاق بسرعة فى الإصلاح الجذرى.. إذا كان لمصر أن تضمن أمنها.. وبقاءها.

لم يكن محمد على يعرف القراءة أو الكتابة. لم يكن قد تلقى أى دراسة. فى الواقع إنه لم يتعلم القراءة إلا فى سن الأربعين.. مع ذلك فقد تنبه إلى ما لم يتنبه إليه السلطان العثمانى فى القسطنطينية.. تنبه إلى أن الأساس الحقيقى للقوة الجديدة التى طرأت على أوروبا هو : التنظيم العلمى للإنتاج.. وهكذا بدأ محمد على على الفور فى تطوير الزراعة والجهاز الإدارى وبناء الصناعة وإنشاء المدارس وإقامة الجيش الوطنى القوى.. مستعينا فى ذلك ببعثات دراسية أرسلها إلى أوروبا.. وفنيين أوربيين استقدمهم على وجه السرعة كسبا للوقت.. وسعيا لاستعادة شرارة الحيوية والديناميكية داخل المجتمع. كان محمد على يريد انفتاحا سريعا على أوروبا.. ليس انفتاحا على لصوص أوروبا وأفاقيها ومقامريها (كما حدث فى فترات لاحقة فيما بعد).. وإنما انفتاحا على عناصر أوروبا المنتجة. وهو

انفتاح يسمح له باستخدام أوروبا لمصلحته وليس العكس. وخلال سبع سنوات من حكمه كانت قد بدأت تظهر فى مصر لأول مرة صناعات نسج القطن والصوف والحرير. والسكر والزجاج والدباغة والورق والبارود والمنتجات الكيماوية.. الخ.

فى نفس الوقت بدأ محمد على إعادة بناء الجيش ليكون قوة عسكرية حديثة وعصرية. وفى تلك الفترة كان فى أوروبا فائض من الطاقات البشرية الإنتاجية المعطلة. بعثرته هزيمة نابليون أمام تحالف القوى الرجعية الأوروبية.. بعد أن اتحدت الأخيرة فى حرب لا هوادة فيها ضد كل العناصر الثورية التى ساعدت نابليون.

ولم تجد تلك العناصر من الفنيين والضباط أسواقا مفتوحة للعمل أمامها إلا فى بلاد ثلاثة : الولايات المتحدة (الدولة الجديدة النامية فى النصف الآخر من الكرة الأرضية).. وبلاد فارس (إيران).. ومصر الدولة التى تزيل من عقلها لتوها غبار القرون الوسطى.. ولم تكن تلك التطورات لتخفى نتائجها على السلطان العثمانى فى القسطنطينية.. ولكن الإمبراطورية العثمانية كانت قد توقفت منذ وقت طويل عن أن تكون قوة حقيقية.. وأصبح ما تبقى منها الآن هو «ظلال القوة» . إنها مستعمرة كإمبراطورية بقوة الدفع الأول وليس بفعل طاقة حيوية متجددة. فى الواقع إن الغمز واللمز كان فى أشده ضدها داخل مكاتب الدبلوماسيين وصناع السياسة فى عواصم أوروبا : هذه الإمبراطورية العثمانية قد أصبحت رجلا مريضا.. يغالب سكرات الموت.. ويجب الاستعداد من الآن لدفنه.. ولكن الوقت لم يكن قد حان.. تماما.

فبدلا من أن يعارض السلطان العثمانى القوة الجديدة الناشئة فى مصر. وهى التى مازال يفترض اسميا أنها ولاية تابعة له ويحكمها محمد على باسمه. فإنه قرر أن يستخدمها لحسابه.. هكذا طلب السلطان من محمد على التوجه عسكريا إلى أراضى الحجاز لإخماد ثورة داخلية هناك.. ففعل. واستنجد بمحمد على مرة أخرى للمشاركة بأسطوله فى إخماد ثورة داخلية فى اليونان.. ففعل.. ولكن. عند هذا الحد قررت أوروبا أن تتدخل بأسطول مشترك ضد القوة التركية المصرية المشتركة. ومن هنا حدثت واقعة نافارين المشهورة.

كانت أوروبا ترى فى القوة المصرية الوليدة عنصرا طارئا على الموقف.. ومع ذلك فإن أوروبا لم تتوقف عند الأمر كثيرا. خاصة وقد تحطم جزء كبير من سفن القوة المصرية فى نافارين.. لكن.. الآن ونحن فى نوفمبر ١٨٣١. ها هو محمد على يرسل ابنه إبراهيم على رأس جيش إلى فلسطين.. وها هو الجيش يتقدم بسرعة من فلسطين إلى باقى أجزاء الشام. فى تلك الفترة كان لفظ (الشــام) يعنى فلســطين ولبنان وسوريا.. وخلال سبعة أشهر من بدء التحرك العســكرى المصرى. كانت القوات المصرية بقيادة إبراهيم قد استولت بالفعل على كل من فلسطين ولبنان وسوريا وطردت الحكم التركى منها. ورأى السلطان العثمانى فى القسطنطينية فيما يجرى تمردا ضد الحكم العثمانى. فقرر تعبئة الجيش الإمبراطورى العثمانى لمواجهة الموقف. ولكن. سرعان ما تعرض الجيش العثمانى لهزيمة كبرى. فى المواجهة الأولى مع الجيش المصرى التى جرت فى ســهل عكا (قرب الحدود الفلسطينية اللبنانيــة فيما بعد).. ثم هزيمة أكبر فــى المواجهة الثانية التى جرت قرب مدينة حلب السورية.

وهنا لم يعد الســلطان العثمانى هو وحده المنزعج من الموقف. لقد أصبحت هناك أوروبا أيضا. فحتى سنوات قليلة لم تكن أوروبا ترى فى الفلاح المصرى سوى كائن كسول وقدرى ولا يصلــح إلا لترديــد الخرافات ومواجهة بارود أوروبا بالدعــاء عليه... الآن يتحول هذا الفلاح المصرى نفســه إلى مقاتل منظم فى جيش حديث يهزم الإمبراطورية التى حكمته من قبل طوال ثلاثة قرون..!.

فى الدقائق الخمس الأولى.. ســيطر على أوروبا الشعور بالمفاجأة.. وفى الدقائق الخمس التالية.. ســيطر عليها الشــعور بالحذر.. ولكن. فى السنوات العشــر التالية. بدأ يسيطر عليها الشعور بالخطر.. وكانت الدول الخمس العظمى فى العالم هى نفسها الدول الخمس العظمى فى أوروبا فى حينها : إنجلترا وفرنســا وروسيا والنمسا وبروسيا. إنها الدول التى سبقت العالم إلى دخول عصر الصناعة بدرجات متفاوتة. وهى الآن تتجه إلى اقتسام العالم فيمــا بينهــا.. وتتابع عن كثب الحالة الصحية للرجل المريض - الإمبراطورية العثمانية - قبل الانطلاق إلى تقسيم التركة بين الورثة.

والآن. ها هى ذى قوة مستقلة وشابة تولد فجأة من داخل الإمبراطورية المريضة نفسها. تهدد بتأجيل اقتسام التركة. والأخطر من ذلك أن هذه القوة المصرية الوليدة قد عوضت فى وقت قياسى فجوة التكنولوجيا بينها وبين أوروبا.. ومع ذلك. فحتى هذه المرحلة كان يبدو لأوروبا أن الأمور فى «الشرق» لم تخرج بعد عن نطاق سيطرتها، وعلى حد تعبير قنصل النمسا فى الإسكندرية لحكومته فى ١٠ يونيو سنة ١٨٣٢ فإنه ... «تكفى مذكرة واحدة. أو مجرد بطاقة من إنجلترا.. لإجباره (يقصد محمد على) على التراجع إلى ما وراء حدوده (فى مصر)...»

لكن إنجلترا نفسها كان يبدو أن معرفتها أكثر دقة من ذلك.. فقبل ستة أشهر تلقت حكومة إنجلترا من قنصلها العام فى الإسكندرية تقريرا سريا يدق لها فيه جرس الإنذار قائلا : «إن الجيش المصرى (باتجاهه إلى الشام) قد بدأ فعلا فى تحرير الشعوب العربية من الحكم التركى وتوحيدها فى إمبراطورية عربية.. إن غرضه (يقصد محمد على) المباشر هو توطيد سلطته فى ولايات عكا (فلسطين) ودمشق (سوريا)..».

ومبدئيا قررت إنجلترا تعيين قنصل عام مقيم لها فى دمشق لكى يراقب لها الأحداث عن كثب.. لكن بعد قليل اكتشفت أوروبا أن الحليف الأول للجيش المصرى فى مواجهته للجيش العثمانى هو الأهالى أنفسهم.. أهالى سوريا ولبنان وفلسطين.. واكتشفت أوروبا أن إبراهيم باشا قائد الجيش المتقدم قد بدأ ينقل إلى الشام الإصلاحات الأساسية التى كانت قد بدأت فى مصر قبلها وحولتها إلى قوة عصرية. لقد نشر التسامح الدينى وبدأ فى إقامة المدارس وتطوير نظم الإدارة وجباية الضرائب. وغطت أشجار الزيتون والتوت والعنب سهل البقاع والسفوح اللبنانية وسهول أنطاكيا والجليل. وبدأ توطين القبائل البدوية فى القرى.. إلخ.

ولقد سجل أمين سر قنصلية النمسا بعض تلك التطورات فى تقرير سرى أرسله إلى حكومته فى ٢٨ أكتوبر ١٨٣٥ يقول فيه إن حالة بلاد الشام قد تحسنت تحسنا ملحوظا منذ الفتح المصرى. وأن بيروت استفادت كثيرا من تقدم التجارة. إذ ارتفع دخل جمارك مرفئها بنحو أربعة أمثال إيرادتها السابقة وأصبحت طريق بيروت دمشق قيد الإنجاز.

فى نفس الوقت سجل الرحالة الإنجليزى «بورينج» أنه منذ الوجود المصرى تحسنت أحوال الفلاحين اللبنانيين. فلم يعد يفضلهم فى مستوى المعيشة ووسائل العمل أى عامل إنجليزى أو أى مزارع من توسكانا. والقنصل الإنجليزى نفسه لاحظ منذ فبراير سنة ١٨٣٤ التحسن الملموس فى التجارة السورية والنشاط الذى دب فى ميناء بيروت. فأرسل تقريرا بذلك إلى حكومته.. لكن فى تلك اللحظة. ولفترة طويلة بعدها. كانت تلك الحقائق والتطورات حبيسة التقارير الدبلوماسية السرية. بينما نفس الدوائر الأوروبية تشيع عكسها.. علنا.

لم يكن أوروبا يعنيها فى قليل أو كثير حدوث تقدم اقتصادى فى الشام.. ولكن الذى كان يعنيها هو شىء آخر مختلف تماما.. يتعلق بالتطورات والحقائق الجديدة فى موازين القوى.. وعند هذا الحد بادرت ثلاث من الدول الخمس الأوروبية العظمى بسحب قناصلها من مصر احتجاجا على الوجود المصرى فى الشام وتضامنا مع السلطان العثمانى بالقسطنطينية وبقيت الدولتان الأخريان - إنجلترا وفرنسا - لكى تحددا موقفيهما من تلك التطورات الجديدة.. شيئا فشيئا بدأ يتبلور التناقض فى المواقف والمصالح.. إن فرنسا قررت أن تسيطر على القوة الوليدة عن طريق التودد إليها.. ولكن إنجلترا قررت أن تسيطر عليها عن طريق التصدى لها وإيقاف نموها - بالتدريج - وضربها بالعمل العسكرى المباشر.

كان الفارق بين أسلوب العصا والجزرة هو فارق تفسير ما يجرى وتأثيراته المحتملة على المستقبل. إن إنجلترا هى التى تقدمت على فرنسا فى المد الاستعمارى حول العالم وقد أصبحت شبه القارة الهندية بأكملها فى جيبها تحتلها وتستعمرها وتعتصرها. ومازال أمامها جدول أعمال ضخم للمستقبل. ومن ثم.. فانجلترا لا تريد أن تنشأ أمامها من الآن عقبة فى وجهها. ومثل هذه القوة الوليدة الموحدة من مصر والشام ستكون عقبة كبرى أمام أطماع إنجلترا. وسواء كانت هذه القوة الوليدة هى تجديد لشباب الإمبراطورية العثمانية المريضة. أو كانت دولة أخرى مستقلة. فإن إنجلترا لا تريد كليهما. إنها تريد من المريض أن يبقى فى مرضه.. ومن الضعيف أن يستمر فى ضعفه.. إلى أن تحين اللحظة المناسبة بالنسبة لها هى.

والواقع أنه حتى خمس سنوات سابقة كان محمد على يرجح أن تكون قوته سبيلا إلى قوة الإمبراطورية العثمانية نفسها.. وليست سبيلا إلى الانشقاق عليها.. ففى أعقاب أحداث حرب المورة، وواقعة نافارين الشهيرة كتب محمد على أفكاره تلك إلى السلطان العثمانى نفسه قائلا : «ينبغى أن نلاحظ، مع ذلك، أن أحداث هذا العالم قد أثبتت أن كل ساعة تمر تجلب معها قوة جديدة، خاصة وأن الدول الأوربية الكبرى، وهذا ما أثبتته التجربة، ليست دائما متفقة فيما بينها، وإننا إذا لم نستطع أن نتوصل عن طريق انقسامها إلى التخلص من الدول الثلاثة الكبرى معا (يقصد انجلترا وفرنسا وروسيا) فعلينا أن نعمل كى لا نجد فى مواجهتنا سوى دولة كبرى واحدة، وهذا ما سيسهل مهمتنا بشكل فريد، وسيخفف العبء الذى يثقل كاهلنا» .

لقد اقترح محمد على فى رسالته الصريحة تلك إلى السلطان التى كتبها فى ديسمبر ١٨٢٧ إعادة تنظيم شامله داخل الإمبراطورية العثمانية، وتشكيل حكومة «اتحاد مقدس»، ومواجهة أطماع أوروبا بشجاعة بدلا من الخنوع أمامها، و «.. هكذا، فبدلا من أن نموت ببلاهة بدون أن نقوم بأية مهمة من تلك التى تطمحون إليها، ولكى نتحاشى لعنة وغضب الأمة الإسلامية والأجيال القادمة، من الأفضل ألف مرة أن نعيش ونخدم وطننا وديننا، وأن نموت بعد ذلك ميتة المؤمنين الحقيقيين، مخلفين وراءنا آثارا باقية» .

إن محمد على يقترح على السلطان العثمانى أن يقاتل أوروبا بكرامة.. بدل أن يموت أمامها بتفاهة، فحتى تلك اللحظة كان محمد على لا يزال يأمل فى «استعادة الهلال -شعار الدولة العثمانية - ومجده» . ولكن السلطان، والإمبراطورية العثمانية المريضة كلها، كانت قد تخلت قبل وقت طويل عن إرادة القتال.. وبذلك لم يعد أمام السلطان فى النهاية سوى أن يموت فعلا.. بتفاهة!.

وهكذا، عندما يئس محمد على من إقناع السلطان.. قرر أن يتصرف بمفرده، حتى لو كان هذا ضد السلطان.. لقد كان محمد على يرى أن هناك مجالا كبيرا للمناورة بين الدول الكبرى، لكن القدرة على النجاح فى مثل تلك المناورة تتطلب وجود قوة حقيقية تستند إليها أولا، قوة حقيقية ومنظورة وعصرية.. وشىء آخر : إن الاعتماد على الدبلوماسية وحدها هو

أمر محفوف بالمخاطر دائما. لان الدبلوماسية متقلبة. وتتجه فى النهاية إلى التسليم بالأمر الواقع والاعتراف به. ولذلك فلابد أولا من تغيير الأمر الواقع.. حتى تستطيع الدبلوماسية أن تعمل بنجاح بعد ذلك لاسترداد الحقوق الضائعة.

من هنا فإن محمد على أصبح فى هذه المرحلة أكثر اعتمادا على الانتصار العسكرى منه علـى الدبلوماسـية لخلق أمر واقع جديد ملائم له. فلقـد كان الدرس الأول الذى خرج به محمـد على من المواجهة مع أوروبا فى اليونان هو: إنه فى السياسـة الدولية فإن الأقوياء دائما.. على حق.. من وقتها أقسـم محمد على. على ألا ينسـى هذا الدرس مطلقا.. مع ذلك. كانت تبدو بين لحظة وأخرى علامات التردد داخل محمد على للسير فى الشوط إلى مداه.. وهنا بالضبط كان يبدو الفارق واضحا بينه وبين ابنه - إبراهيم -.. لم يكن من رأى إبراهيـم التوقف مطلقا بعد الانتصار على الجيش العثمانى وطرده من الشـام.. لأن الدرس الآخـر المكمـل هنا هو أنه لا توجد فى التاريخ قوة عسـكرية تفرض على نفسـها التوقف باختيارها مطلقا.. ومع ذلك اضطر إبراهيم إلى التوقف. بدلا من التقدم نحو القسطنطينية. اسـتجابة لأوامر والده القاطعة. وهى قاطعـة لأن محمد على أراد أن يكتفى بذلك.. حتى يكون قادرا على مواجهة أوروبا فى ساحة الدبلوماسية.. لقد توقع محمد على أن تتصرف معه أوروبا كوسيط بينه وبين السلطان.. لكن محمد على - وهنا تكمن بذرة غلطته الكبرى - لم يكن يريد أن يصدق بعد أن أوروبا هى نفسها الطرف الذى يواجهه الآن على المائدة. أما السـلطان العثمانـى فهو فقط أداتها. لقد لوحوا لمحمد علـى بإمكانية التوصل إلى حل سـلمى مع السـلطان إذا أوقف أولا تقدم الجيش المصرى. وحينما فعل ذلك. كان الجيش المصرى على بعد مائة ميل فقط من القسـطنطينية لكن. بمجرد أن بدأ التفاوض بلا قتال.. بـدأ التلاعـب مع محمد على.. وبعد فترة أفاق محمد على إلى غلطته.. فأصدر أمرا جديدا إلى ابنـه بالتقـدم نحو العاصمة العثمانية. لكـن كان الوقت قد فات. فالفرص الكبرى فى السياسة والحرب. لا تكون أبدا من نصيب المترددين.

وهكـذا. فإن فرصة محمد على فى خلع السـلطان المتآمر ضده مع أوروبا لن تعود بعد ذلـك مطلقـا.. لقد فات الوقت.. لأن أوروبا قد بدأت بالفعل تسـتجمع قواها.. ضد محمد علـى.. ولم تكن الدول الأوربية الخمس الكـبرى على نفس الدرجة من الإصرار على وقف نمو القوة الجديدة فى الشرق. فى الواقع أن روسيا والنمسا لعبتا دورا هامشيا أدى فقط إلى ترجيـح هذه الكفـة أو تلك فى الصراع الذى يقترب الآن من نقطة الغليان.. وروسـيا كان يعنيها فقط أن تكون طرفا فى اقتسـام تركة الرجل المريض حينما تحين لحظة الاقتسـام. مع ذلك فإن روسـيا كانت منزعجة للغاية من تزايد معدلات النسـل فى مصر. حيث إن القنصل الروسـى بالإسكندرية كتب إلى حكومته فى ٢٨ ابريل ١٨٢٨ يستأذنها فى ضرورة تنبيه محمد على إلى التوقف عن تشـجيع زيادة النسل فى مصر. حتى لا تصبح تلك القوة البشـرية المصرية أحد عوامل الخطر مسـتقبلا.. ! (وقتها كان عدد سكان مصر هو خمسة ملايين و ٥٣٢ ألف نسمة).

تبقى فى السـاحة إنجلترا. وهى التى ستقوم الآن بحكم مصالحها وخططها للمستقبل بدور المبادر. والمنظم. والمحرض. والمتآمر. والمتصدى. وقائد الأوركسترا. ضد القوة المصرية الجديدة.. وفى بعض اللحظات بدا على السـلطان العثمانى فى القسـطنطينية أنه لم يعد أمامه سوى التسليم بالأمر الواقع وقبول حل وسط.. والحقيقة هذا هو ما حدث فعلا بصلح كوتاهيـه فى ٦ مايـو ١٨٣٣ حينما أصدر فرمانا يعترف فيه جزئيا بولاية محمد على على عكا (فلسـطين) ودمشق (سوريا). ولكن.. فى أوقات أخرى بدت على السلطان الرغبة فى التفاوض مباشرة مع محمد على لمنع الأمور إلى ما هو أسوأ.

لكن السـلطان كان يجد فى كل مرة أن الطرف الدولى الذى يضغط عليه من أجل عدم التفاوض مع محمد على هو بريطانيا. إن «بالمرسـتون» .. وزير خارجية إنجلترا الذى قدر له أن يلعب الدور الرئيسـى فى الأزمة كلها. وقف يعلن موقف بلاده بقوله : «إن مجلس الوزراء قد اتفق على ضرورة عدم السماح لمحمد على بإعلان استقلاله. وبفصل مصر وسوريا من الإمبراطورية التركية. إن هذا. لو تم سيؤدى إلى صراع بينه وبين السلطان.. وهو صراع سينتهى إلى هزيمة السلطان. ومن ثم يخف الروس لمساعدته. وتقوم حامية روسية باحتلال القسطنطينية والدردنيل الذى – بمجرد أن يصبح فى حوزتهم – لن يتركوه مطلقا».

كان «بالمرستون» .. فى سعيه لضرب القوة المصرية الجديدة.. يلوح لأوروبا بخطر امتداد النفوذ الروسى إذن. والحقيقة أن محمد على نفسه سبق وعرض التعهد بمواجهة الخطر المحتمل ضد القسطنطينية لو أنه أصبح بالفعل خطرا جادا. وهكذا أرسل محمد على للحكومة البريطانية عام ١٨٣٠. ثم أضاف حجة مفحمة يمكن أن يسيل لها لعاب إنجلترا: «إن لدى جيشا من ١٢٥ ألف مقاتل. جاهز ليكون حاجزا ضد الروس فى القسطنطينية وفى بلاد فارس».

ولكن. لم يسل لعاب إنجلترا.. لسبب بسيط. هو أن الخطر الروسى مازال خطرا محتملا.. أما الخطر الذى تمثله الدولة القوية التى تجمع مصر بالشام. فهو بالنسبة لإنجلترا خطر محقق بالنسبة لمصالحها كما تخطط هى لها فى المستقبل.

إن بالمرستون كان يلوح لأوروبا فى بيانه بالخطر الروسى.. ولكن بيان بالمرستون فى الواقع كان فيه من نفاق السياسة البريطانية بقدر ما كان فيه من خداعها. فالدموع التى كانت إنجلترا تذرفها خوفا على مصير الإمبراطورية التركية كانت تستخدم السبب الخطأ. لكى تغطى السبب الحقيقى. والمصدر الحقيقى الذى سيأتى منه الخطر بالفعل فى المستقبل القريب.

المهم أنه بالتوصل إلى صلح كوتاهيه.. أصبح هناك مؤقتا صلح قلق بين محمد على والسلطان العثمانى. ولم تكن إنجلترا تريد للأمور أن تتوقف عند هذا الحد. فعبر مناورات ملتوية عديدة. وعبر تحالفات مفاجئة. وانقلابات فى المواقف. وعبر تعبئة معنوية ومادية. وعبر معارك نفسية ودبلوماسية. سوف تلتقط إنجلترا أنفاسها لكى تعبئ أوروبا ضد محمد على.. وكان محمد على يدرك تلك النقطة من مكانه بالإسكندرية. لهذا كان يكرر صارخا إننى أينما اتجهت.. أجد إنجلترا أمامى..!.

كانت إنجلترا مهتمة أولا بإيقاف القتال بين الجيش المصرى والجيش العثمانى. كما حدث فعلا.. لأنها لم تكن تريد أن يتقرر مصير محمد على فى ساحة القتال حيث فرصته مؤكدة للانتصار على الإمبراطورية العثمانية.. ولكنها تريد أن يتقرر مصيره فى دواوين الحكومات الأوروبية.. ولكن. بمجرد أن تحقق هذا السلام الهش. والهدوء الخادع

فــى الميدان. بدأت إنجلترا على الفور تســتعد للمواجهة النهائية القادمة حتما ضد الدولة الموحدة القوية الجديدة - مصر والشــام - مواجهة ســيكون السلطان العثمانى هو أداتها.. وستكون إنجلترا مهندستها وعند الضرورة. هى نفسها طليعتها.

واعتبارا من نهاية ســنة ١٨٣٥. بدأت إنجلترا فى تجنيد عدد من العملاء داخل لبنان لنشــر روح التمرد الداخلى ضد الجيش المصرى لأنه.. لابد من تنظيم القوى التى ســتكون بؤرة للانتفاضات فى المســتقبل» . إن انجلترا قررت ذلك بعد أن رأت بنفســها أن الوجود المصرى يتمتع بشــعبية كبرى فى الشام. ومن بينه لبنان حيث أعلن الأمير بشير الشهابى تأييده التام لمصر فى مواجهتها للأتراك.. وفى النهضة التى تتحقق للأهالى بمجهودها لأول مرة منذ قرون.

كان إبراهيم باشــا يقود بالفعل حركة كبرى للإصلاح الإدارى والاقتصادى فى الشــام بأســرها. ولكنه أيضا فرض نظام التجنيد الإجبارى. لقد كانت تلك بالطبع ضرورة ملحة علــى ضــوء الأخطار المحتملة ضد الدولــة الجديدة من الإمبراطوريــة العثمانية. لكن هذا لم يمنع أن يكون النظام الجديد محل تذمر البعض من الأهالى.. خاصة وأن الحكم العثمانى من قبل لم يكن يجند أحدا منهم (لأسباب خاصة به - حيث لم يكن يطمئن الأتراك أبدا للاستعانة فى الجيش بأهالى البلاد التى يحكمونها). لكن النقطة لم تكن هنا.. إن الدعاية الســرية المضادة التى بدأ عملاء إنجلترا فى نشــرها تدريجيا بالشام. على وجه الخصوص فــى لبنان. كانت تتحدث عن ضرورة التخلــص من «الاحتلال» المصرى. وبرغم محاولات فاشلة للتمرد.. فسوف يتضح خلال فترة وجيزة أن فرصة النجاح الوحيدة أمام تلك الدعاية السامة والسرية.. هى أن تجد استجابة عملية لها ولم يكن هذا متاحا عمليا إلا من جانب بعض القيادات المارونية فى لبنان.. لقد بدأ إذن تكوين وتنظيم.. «القوى التى ستكون بؤرة للانتفاضات فى المستقبل». وهى بؤرة تقودها شبكة بريطانية سرية.. يديرها ويشرف عليها مبعوث سرى ستكشف عنه الأحداث فيما بعد.

وعلى مستوى آخر حصلت إنجلترا من السلطان العثمانى على «فرمان» بإلزام كل ولاية تابعه له بفتح باب الاســتيراد على مصراعيه أمام الواردات الأجنبية. ولم يكن مقصودا من

هذا الفرمان سوى مصر بالدرجة الأولى. (والشام بالطبع).. فهى التى نشأت فيها صناعات حكومية يمكن القضاء عليها فى تلك المرحلة عن طريق مواجهتها مبكرا بطوفان الاستيراد من أوروبا. ومن انجلترا على وجه الخصوص.. وعلى مستوى ثالث بدأ الخبراء العسكريون الأوربيون وخاصة من بروسيا. لمساعدة السلطان فى محاولته لتحديث الجيش التركى وتطويره بضرب مصر.

فى النهاية جاء الهجوم العثمانى المفاجئ ضد الجيش المصرى فى نصيبين. الواقعة بين الفرات وحلب. وهو الهجوم الذى عولت عليه جميع الأطراف فى القضاء على الوجود المصرى بالشام نهائيا. لكن.. خلال ساعتين اثنتين. ونتيجة لحسن الاستعداد والتنظيم. ألحق الجيش المصرى هزيمة ساحقة بالجيش الإمبراطورى العثمانى.. ومن ثم فقد تبددت أوهام أوروبا. وخصوصا إنجلترا. بالنسبة للحل العسكرى.

ومنذ معركة «نصيبين». التى جرت فى ٢٤ يونيو ١٨٣٩. بدت فى الأفق أزمة مزدوجة أزمة بين محمد على ودول أوروبا.. حيث مازال لديه الأمل فى استرضائها عن طريق منع تقدم الجيش المصرى إلى القسطنطينية وعدم المطالبة رسميا بالاستقلال عن السلطان. إن محمد على يعد بأن يظل تابعا للسلطان إذا اعترف له الأخير بالوضع القائم وبحق الحكم الوراثى لأسرته.. لكن فى نفس الوقت كانت هناك أزمة أخرى بين محمد على وابنه إبراهيم الذى كان يلح على أبيه من أجل السماح له بالتقدم إلى القسطنطينية فورا ومباشرة للقضاء مرة واحدة على رأس الأفعى الذى يتآمر مع أوروبا.. وتستخدمه إنجلترا أداة لها.

كانت روسيا تهدد. إذا تطورت الأمور إلى مثل هذا الاحتمال. بأنها لن تقف مكتوفة الأيدى وستواجه محمد على عسكريا إذا فكر فى خلع السلطان العثمانى. ولا أحد يعرف على وجه اليقين تأثير ذلك التهديد فى حينه على محمد على. إلا إنه على ضوء الوثائق التى أتيحت فيما بعد فإن محمد على كان مخطئا. وتقدير ابنه إبراهيم كان سليما. لأن هذا التهديد من القيصر الروسى كان يخفى بالفعل ضعف جيشه.. وأن الجيش الروسى كان سيتعرض لهزيمة مؤكدة لو أنه واجه الجيش المصرى فى حالة زحف الأخير إلى القسطنطينية.

مـع ذلـك فإن هذا التهديـد. مضافا إلى موقف انجلترا. جعل محمـد على فى النهاية مترددا أمام أوروبا. ولقد اعترف هو نفسه بذلك فيما بعد عندما قال فى مرارة «.. إذا لم تتفق الدول الكبرى على اقتسام البلاد الإسلامية حفاظا على مصالحها. فإنها على استعداد دائم للاتفاق على التضحية بمصر لكى تبقى تركيا فى طور «الرجل المريض» . ولكن حالة المرارة هذه سـرعان ما كانت تفسـح مكانها بعد لحظات لحالة الحسم فى عقل محمد على. فبعد أن قـال تلـك الكلمات بيومين اثنين. عاد يأمر ابنه إبراهيم بالتقدم نحو «قونيه» فى أسـيا الصغرى. وبالإعداد لعملية عسـكرية هجومية أوسع حجما. قاصدا بذلك التلويح بالتحدى للدول الكبرى مباشرة. لكن فى هذه المرة.. كان إبراهيم هو الذى رفض قرار أبيه المتأخر.

ففى ظل موقف سياسى وعسكرى متفجر على هذا النحو.. فإن اللحظة المناسبة لانتهاز فرصة واتخاذ قرار لا تكرر نفسها بعد ذلك مطلقا. ولأن محمد على تردد من قبل فى اتخاذ القرار المُلح بالتقدم عسـكريا.. فإن تلك اللحظة اختفت وانتهى الأمر.. إن الموقف الآن هو ضرورة الحفاظ على الجبهة الداخلية متماسـكة تماما.. لأنها ستكون هدف الضربة القادمة من جانب انجلترا. هكذا تنبأ إبراهيم ببصيرة حقيقية وهو يقف فى نفس الوقت مسـتعدا على جبهة القتال.. إن العدو الأوروبى لو أرسـل بعض السـفن الحربية إلى سواحل بيروت وطرابلس وطرسـوس. فإن تلك سـتكون إشارة كافية للعملاء الذين تم تجنيدهم فى الداخل للتحـرك ضد الجيـش المصرى وطعنه من الخلـف. بينما يكون الجيش متقدما فى أسـيا الصغرى نحو العاصمة العثمانية.

لقد كان تاريخ رسالة إبراهيم هذه إلى والده هو ٤ سبتمبر ١٨٣٩. ومن الغريب أن هذا هو بالضبط ما قررت دول أوروبا أن تفعله بعد ذلك فى مؤتمر لندن – تحت ضغط إنجلترا – ومن الملفـت أيضا أنه فى تلك المرحلة بدأ السـلطان العثمانى بدافـع اليأس يفكر فى التفاوض مع محمد على. وقد شـجعته روسـيا على ذلك حتى تغلق على أوروبا باب التدخل. ولكن انجلترا جرجرت أوروبا وراءها لكى ترفض وتحدد موقفها بمذكرة جماعية لم تكن فى ذاتها تعـبر عن قيمة حقيقية. ولكن الذى جعلها كذلك هو قبول السـلطان العثمانى لها.. فكأنه قبل لنفسه أن تجرده أوروبا من حق المبادرة الدبلوماسية تماما.

وكان بالمرستون. وزير خارجية انجلترا. هو الأكثر وضوحا فى التعبير عن أهدافه بعيدة المدى. عندما فلتت من فمه فى شهر يوليو التالى هذه الكلمات التى قالها لسفير فرنسا: «إن فرنسا وانجلترا لا تستطيعان أن تتخليا عن هذه القضية بالذات إلى الغير. قضية الاهتمام بأمن الإمبراطورية العثمانية وقوتها.... والواقع إننا لن نبلغ هذا الهدف إلا بفصل السلطان (العثمانى) عن مرؤوسه (محمد على). فليبق محمد على سيد مصر. وليتمتع بحق الوراثة الذى عمل فى سبيله دائما، ولكن يجب أن ينتفى كل احتمال لتجدد الاشتباك. وبالتالى.. لا مجال للجوار بين هاتين القوتين المتنافستين» .

بكلمات أخرى فإن سياسة بريطانيا هى: يجب أن يخرج محمد على من الشام. وكان بالمرستون يصوغ مطلبه هذا. فى تفاوضه مع فرنسا ودول أوروبا الأخرى. مصورا الأمر باعتباره رغبة بريطانية فى المحافظة على وحدة وسلامة أراضى الإمبراطورية العثمانية. ومع ذلك فإنه لم يفسر مطلقا كيف أنه فى تلك المرحلة بالضبط بادرت انجلترا إلى احتلال عدن. ذات الموقع الاستراتيجى الخطير عند المدخل الجنوبى للبحر الأحمر. مقابل قصاصة ورق وقعتها مع أميرها. و ١٥٠٠ جنيه دفعتها له. و ٣٠ جنديا أرسلتهم إلى هناك. حيث لن تخرج من عدن مطلقا طوال المائة والثلاثين سنة التالية..!

إن هدف السياسة البريطانية واضح ومزدوج : إذا كانت الإمبراطورية العثمانية هى الرجل المريض. فيجب أن تبقى مريضة وضعيفة حيث هى حتى النهاية. وإذا اتجه الجزء العربى من تلك الإمبراطورية إلى الاستقلال والوحدة.. فيجب منعه بأى ثمن. وهكذا أوضح بالمرستون أهدافه مرة أخرى لسفير فرنسا بقوله : «إنكم تريدون أن تقووا مصر بأكثر مما نريده نحن..»!

وجوهر المشكلة أن مصر كانت تتغير بسرعة عن ذلك البلد الذى كان الراهب «جيرامب» مازال يقول عنه فى سنة ١٨٣٣ : «يخيل إلى يا سمو الأمير أن الإنسان لن يكون جديرا بالاحترام إذا هو عاد إلى أوروبا من مصر.. دون أن تكون فى إحدى يديه مومياء.. وفى الأخرى تمساح».

لقـد كانـت أوروبا تعتقـد من البداية أن مصـر موجودة فقط لكى يتـم نهبها. وكانت انجلترا. منذ دخلت عصر البخار والتصنيع. تعتقد أن السـماء قد وهبتها توكيلا بتقسـيم مناطق النفوذ فى الكرة الأرضية كما تشـاء. وفى تلك المرحلة كان صدام يجرى بين قطبين لا لقاء بينهما : فمن ناحية هناك مشروعات انجلترا الاستعمارية وخططها للمستقبل على الصعيدين السياسـى والاقتصادى.. ومن ناحية أخرى كان هناك مشـروع محمد على الذى يؤدى عمليا إلى تكوين دولة عربية قوية وموحده تقطع الطريق مقدما على الأطماع والأخطار الأجنبية.. لهذا كان لابد للصدام أن يكون حتميا. وشرسـا. أو بتعبير القنصل البروسـى الجديد فى الإسكندرية عام ١٨٣٩ فى تقرير لحكومته فى برلين فإن واجب محمد على أن يدرك أن «انجلترا سـوف تعامله بدون رحمة. فيصبح مثل اى أمير من الأمراء الذين يكثر عددهم على السـاحل الهندى . ومن المفيد هنا التذكير بسـابقة احتلال عدن. فالسياسـة الإنجليزية تسعى إلى إضعاف الوالى طالما لا تستطيع أن تقوض قوته كلها دفعة واحدة» .

ماذا يفعل محمد على..؟

إن لديـه القـوة. ولكنه تـردد أحيانا فى اسـتخدامها. وهو متوقد الذهـن. برغم أنه أصبح الآن فى الثانية والسـبعين من عمـره.. ولديه البصيرة. ولكنه ليس جريئا بما يكفى للاسترشـاد بها.. وهو لا يثق فى الضمانـات التى تعده بها دواوين الحكومات الأوروبية. مع ذلك فهو يبدو أحيانا معولا عليها بما لا يبرره الواقع.. وهو أحيانا يتوقع مسـاندة من فرنسـا أكثر مما يجب. وفى أحيان أخرى يرى فرنسـا بعينيـه وقد نجحت انجلترا فى جرجرتها جرا خلفها..

لقد تجاوز محمد على عن خلافه المزمن مع رئيس وزراء السلطان العثمانى. فوجه إليه فى ٢٣ فبراير سـنة ١٨٤٠ رسـالة يحذره فيها من نتائج اسـتعانته بأوروبا ضد مصر لأنه «.. إذا لجـأ الباب العالى إليها (دول أوروبا) فسـيخضع بذلك لمصالح سياسـتها. إن تلك الدول تريد أن تبقى تركيا فى حالة ضعف دائم. وأن تعمها الاضطرابات. حتى تتمكن فى اللحظة المناسبة من اقتسامها بسهولة. ذلك أن هذه الفكرة تراودها من سنوات طويلة. وإذا كانت قد تحالفت فيما بينها فذلك لمنع أى إجراء يؤدى إلى تقوية تركيا ليس إلا. إنها تريد

أولا أن تضعف مصر. وهى سند لتركيا. بأمل إنهاكهما معا عن طريق إثارة حروب دائمة بينهما. لهذا اعتقد أنه من الأفضل ألف مرة أن نموت منذ اليوم ونحن ندافع بشرف عن وطننا بما يمليه علينا ديننا الحنيف من شجاعة. من أن ننهار بعد خمس سنوات. وقد وصمنا بالعار. ولذلك فإننى أستعد للحرب تحسبا لكل أمر..» .

هكذا يسجل محمد على تنبؤه بطريقة قاطعة : أوروبا تريد إضعاف الطرفين والقضاء عليهما معا فى النهاية - مصر وتركيا - ولذلك فليس أمامه سوى إنقاذ أحدهما.. أخيرا فى ١٥ يوليو ١٨٤٠ توصلت أوروبا بمبادرة من انجلترا. إلى تحالف رباعى وقعت عليه انجلترا وروسيا والنمسا وبروسيا مع استبعاد فرنسا مؤقتا.. لقد أصبح من الواضح أن انجلترا تستخدم فى معركتها ضد محمد على عدة أسلحة معا. تستخدم عداء السلطان ضده.. وتردد فرنسا معه.. وجرجرة أوروبا خلفها.. وتستخدم أسطولها الذى يستعد للتحرك.. وتستخدم أيضا مجموعة مؤثرات نفسية لاستثمار حالة التردد داخل محمد على نفسه. إن بالمرستون. بينما هو ينظم ويتآمر ويعبئ عواصم أوروبا.. لم يتخل مطلقا عن متابعته الدائمة للوضع الصحى لمحمد على وحالته النفسية. لقد استبشر بالمرستون خيرا من تقرير تلقاه من قنصله بالإسكندرية قال له فيه إن الباشا أكد له أنه لن يستسلم مطلقا. ولكنه كان مضطربا ومهتاجا وهو يفعل ذلك. ويدعم تأكيداته بالقسم..

وفى لندن فرك بالمرستون يديه فرحا وهو يقول لمساعديه ولسفير تركيا : هذا هو أعظم خبر سمعته.. إن الباشا فى طريقه بذلك للاستسلام.. فحالته هذه تدل على خوف باطنى وضعف واع..!.. مع ذلك فإن بالمرستون كان لا يزال فى انتظار عناصر «لم تكتمل بعد».. ولم تكن تلك العناصر سوى إمكانيات التمرد الداخلى فى الشام - سوريا ولبنان وفلسطين - ضد محمد على.. فمنذ الربيع أرسلت انجلترا إلى المنطقة ريتشارد وود. الموظف الشاب فى السفارة البريطانية بالقسطنطينية. وأرسلته متنكرا.. لكى يستقر فى لبنان على وجه الخصوص وينظم شبكة من العملاء المستعدين لمقاومة الوجود المصرى بأجر. والكفيلين بتجنيد الآخرين لنشر الدعايات السامة بقوة السلاح عند ظهور أول سفينة حربية انجليزية قرب الساحل. ولقد مضى على وجود «ريتشارد وود» فى لبنان سنتين من أجل تلك المهمة

التى لم تنشر وثائقها إلا فيما بعد.. وكان الغطاء الظاهرى لوجوده هو أنه يتعلم اللغة العربية (وهو الذى كان يجيدها بالفعل من قبل مجيئه).

وقد ركز ريتشارد وود أساسا على قيادات المارونيين فى لبنان. وهكذا فخلال فترة قصيرة بدأت تتردد على الفور همسات بأن انجلترا قادمة لتخليص الأهالى من «الاستبداد» و «الاحتلال» المصرى. بل وتمهيد الطريق لإقامة وطن قومى للمارونيين فى لبنان.. ووطن قومى لليهود فى فلسطين.

ولقد دخل الأسطول البريطانى فعلا إلى المياه السورية فى أواخر أغسطس (١٨٤٠) وتم قصف بيروت بالفعل فى ١١ سبتمبر. وبعدها تم إنزال برى فى بيروت من جانب القوات الحليفة. ثم.. جاءت للعناصر التى لم تكن قد «اكتملت بعد». جاء تمرد الموارنة. ولم يكن الإنزال البرى الإنجليزى لينجح لو لم يمهد العملاء مسبقا لذلك النجاح فى أوساط الجبل. فقبلها بفترة وجيزة بدأت شبكة العملاء -التى نظمها «ريتشارد وود»- تشجيع المارونيين وغيرهم على أن يضعوا أنفسهم تحت حماية قناصل الدول الأجنبية. ولقد ساعد القناصل أنفسهم فى ذلك لأنها كانت طريقة أخرى لزيادة دخلهم. والأكثر من ذلك، أنه بدأ توزيع الوعود والبنادق على «بؤر الانتفاضات». أما الوعود فقد تركزت حول المساعدة مستقبلا فى تحويل لبنان إلى وطن قومى للمارونيين.. وأما البنادق فقد وصل ما تم جمعه منها فى حملة واحدة ساعد فيها الأمير البشير الشهابى ١٦ ألف بندقية. ولكن سرعان ما كانت الشبكات السرية تأتى بغيرها بالطبع.

ومن الملفت فى هذا المجال أن روح التسامح الدينى التى مارسها إبراهيم باشا خلال حكمه فى الشام قد كانت هى نفسها الثغرة التى طعن بها فى تلك اللحظات الحرجة. ولقد أشار جورج أنطونيوس فى كتابه عن «يقظة العرب» إلى تلك النقطة بكلمات لبقة حينما كتب قائلا : «كان من نتيجة التسامح الذى تميز به حكم إبراهيم نتيجة لم تخطر على البال من قبل، فقد فتح هذا التسامح الباب أمام البعثات التبشيرية الغربية». وبالفعل. استثمرت الدول الأجنبية صاحبة المصلحة تلك الإرساليات التبشيرية إلى أبعد مدى فى تحقيق أهداف سياسية سرعان ما ستصبح أكثر تبلورا وخطورة فى المدى الطويل.

أما فى تلك الأيام الحرجة من شـهر سـبتمبر من سـنة ١٨٤٠ فقد كانت الطعنة فى مقتل بالنسـبة لنتائجها. ويسجل الدكتور جوزيف حجار. الكاهن الكاثوليكى العربى فى دراسـته القيمة التى أصدرها حديثا بعنوان «أوروبا ومصير الشرق العربى» أنه «يجب على المرء كمؤرخ. عند بلوغه هذه النقطة أن يكبح عواطفه الدينية الخاصة. ويصف الواقع دون محاباة لأحد.. لقد جرى توزيع المال والسلاح (من قبل انجلترا) على أهالى جبل لبنان على يد عملاء أخصائيين ومبشرين بروتستانت وكاثوليك... لقد وزعت ألاف البنادق على أهالى الجبل. لكن الموارنة هم وحدهم الذين انضموا إلى الحلفاء الأوربيين».

وقد رفض الدروز الانضمام إلى «بؤرات التمرد» تلك برغم الوعود التى قدمت لهم بإنشاء مـدارس فى مناطقهم. بل وحتى بحماية الحكومة البريطانية لهم مسـتقبلا. ووضع الأب اليسـوعى ريلو Ryllo نفسـه فى خدمة الحلفاء لدى الموارنة بالرغم من أن رئيسـه العام نصحه منذ ١٢ سبتمبر بالتزام الحذر الشديد حرصا على روح التسامح الدينى التى جاء بها إبراهيم باشا إلى الشام لأول مرة...

لقد عرف المصريون وقتها بنشاطات «ريلو» هذا السياسية والعسكرية. فأعلنوا عن جائزة لمن يأتى به حيا أو ميتا. وقد أكد قنصل النمسا آنذاك لرئيس الإرسالية بأنه لولا مساعدات الأب ريلو الفعالة لما استطاع الحلفاء أن يربحوا المعركة ضد الجيش المصرى.

علـى أى حـال. نزلت قوات الحلفاء بقيادة انجلترا. إلى البر أخيرا. وأقاموا معسـكرا حصينا بين بيروت وجونيه على مصب نهر الكلب. ومن هناك وزعت فى أيام قليلة ١٢ ألف بندقية للإسـراع بتمرد أهالى الجبل.. ولقد خلع الإنجليز أمير لبنان بشـير الشهابى وقرروا نفيـه خـارج لبنان عقابا له علـى تضامنه مع المصريين. إلا إنه بقـى على الزمن وحده أن يكشف للآخرين قيمة الوعود التى حصلوا عليها من انجلترا بمجرد خروج المصريين فعلا.

ولقد عملت انجلترا من جانبها أيضا على شن حرب أعصاب على فرنسا لمنع أى فكرة قد تجول بخاطرها لمسـاعدة محمد على. بما فى ذلك التلويح بإمكانية المواجهة المباشـرة عسـكريا. لقد قام بالمرستون مثلا باسـتدعاء السفير الفرنسى فى لندن لكى يقول له : «قل لمسـيو تيير (رئيس وزراء فرنسـا) أنه لو اختارت فرنسـا أن تلقى بالقفاز فنحن لن نرفض

التقاطه. وأنها إذا بدأت حربا فإنها بالتأكيد سوف تخسر سفنها ومستعمراتها وتجارتها. ولن يصبح جيشها في الجزائر محل قلقها. وأن محمد علي سوف يتم القذف به في النيل»..

ولم تسمح الظروف مطلقا باختبار مدى جدية بالمرستون في تهديده. لأن الأوضاع الداخلية في باريس سرعان ما جاءت برئيس آخر للوزراء هو «جيزو». إلا أن فرنسا على أي حال وجدت أن مصالحها في النهاية مع انجلترا بأكثر مما هي مع مصر.. وفيما بعد. حينما انتهى كل شيء تبين أن قدرات بالمرستون على المناورة السياسية فاقت جميع الأطراف الأخرى. وعلى حد تعبير «مترينخ» مستشار النمسا بعد ذلك : «أنني الآن أعترف بأن المنتصر الوحيد في الأمر كله هو بالمرستون. الذي عرف كيف يضرب على كل الأوتار».

ومرة أخرى. بعد أن جرجرت إنجلترا دول أوروبا وراءها للتوقيع مع تركيا على اتفاقية دولية بشأن استخدامات مضيقي البوسفور والدردنيل. عاد «مترينخ» إلى الشكوى بمرارة من خديعة بالمرستون له بقوله : «إن الدول في يد بالمرستون بدت كآلات موسيقية يعزف عليها كما يحلو له».

وروسيا اكتشفت هي الأخرى في نهاية المطاف أن نفوذها السياسي بعد اتفاقية لندن أصبح أقل منه كثيرا عنه قبلها.. وفرنسا ابتلعت مرارتها مع مجيء حكومة جديدة إلى السلطة. وهي مرارة عبر عنها «تيير» رئيس الوزراء المستقيل بقوله : «لقد أفلحت انجلترا في تحقيق جميع رغباتها. مبتدئه بتحطيم مصر» .. والإمبراطور العثماني أخيرا أصبح. من الآن. سجين اتفاقية لندن. واتفاقية المضايق. والذي تحول داخل بلاده بعدها إلى مجرد بواب لأوربا.

يبقى الآن في الساحة الطرفان الأساسيان في الأمر كله من بدايته : مصر وانجلترا.. كان السؤال الجوهري في الموضوع كله من لحظته الأولى هو : لماذا دخلت انجلترا أصلا تلك الحرب. التي لا هوادة فيها. ضد الدولة الموحدة الوليدة دولة مصر والشام ؟.

وكما في كل الأسئلة الكبرى في التاريخ.. لم تتضح الإجابة الكاملة إلا بعدها بوقت طويل. وفقط حينما أصبحت الأفكار والوثائق الحقيقية السرية في حينها متاحة ويمكن

الرجوع إليها.. لقد ظل كثيرون من الكتاب. بل أحيانا كتاب عرب. مترددين حقيقة فى تفسير دوافع محمد على للذهاب إلى الشام من البداية. هل ذهب إلى هناك تعبيرا عن طموح شخصى. أو لاعتبارات موضوعية ؟ هل كان ما حدث هو مجرد رغبة فى التوسع.. أو رغبة فى الوحدة والتكامل ؟.. إلخ.

الذين يؤكدون رغبة التوسع والطموح الشخصى. بل وحتى استخدموا أحيانا كلمة الاستعمار». يستندون أولا فى جميع مراجعهم إلى كتابات الإنجليز بالذات. وهى الكتابات التى كان من الطبيعى أن تروج لها انجلترا. خاصة على ضوء وجودها الفعلى كقوة احتلال لمعظم العالم العربى طوال المائة سنة التالية.. ولكن. حتى بصرف النظر عن تلك النقطة المهمة. فإن الموضوع الأساسى فى إطار لحظته التاريخية المحددة (ثلاثينات القرن التاسع عشر) لم يكن بالنسبة لانجلترا هو الدافع..وإنما النتائج.. فسواء ذهب محمد على إلى الشام بطموح شخصى توسعى.. أو ذهب لاعتبارات موضوعية. فالنتيجة بالنسبة لانجلترا واحدة فى الحالتين : إن هناك دولة عربية قوية موحدة تولد أمام عينيها فى نفس المنطقة التى تحتجزها هى لنفسها مستقبلا.

ولو كان محمد على مبشرا أو قديسا. وليس مجرد حاكم. لما اختلف منطق الأمور عما آلت عليه بعد ذلك فعلا.. ولما خففت انجلترا من معارضتها لهذا التطور الجذرى من لحظته الأولى.. فبصفة عامة لم تكن أوروبا قد نسيت بعد أن الذى أذاقها الهزيمة المُرة والساحقة فى غزوها الصليبى على الشرق الأوسط خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر.. كان دولة عربية موحدة فوق نفس المساحة – مصر والشام –.. وبصفة خاصة. كانت إنجلترا تحشد قواها فى تلك الفترة بالضبط للانطلاق فى أكبر مد استعمارى عرفه التاريخ الحديث. وهى لم تكن ترد أن تولد أمام عينيها مثل تلك الدولة الموحدة. بتلك القوة. فتصبح حاجزا قويا مسبقا أمام التقدم الاستعمارى البريطانى القادم حالا فى الطريق.. لقد احتلت انجلترا الهند. وسيظل استعمارها للهند مهددا ما لم تسيطر تماما على طريقى المواصلات الرئيسيين فى الشرق : طريق الشام/ البصرة / المحيط الهندى.. وطريق مصر / البحر الأحمر / المحيط الهندى.. وحتى تلك اللحظة لم تكن انجلترا قد أعطت بعد أولوية

لأحد الطريقين على الأخر.. ولكن. وإلى أن تجد ما يستجد. فإنها فرضت لنفسها موطئ قدم فى كل من الطريقين.

وهكذا بادرت انجلترا كما رأينا إلى احتلال عدن فى سنة ١٨٣٨ وهى مفتاح البحر الأحمر من الجنوب.. وبادرت أيضا بعدها إلى احتلال البصرة (بعد الانسحاب المصرى) وهى مفتاح الخليج العربى.. بعد أن وجهت إنذارا صريحا إلى محمد على فى حينها للابتعاد عنها.

إذن.. لم يكن يعنى إنجلترا من البداية سوى الحقيقة الأساسية فى الموضوع كله حقيقة أن قيام دولة عربية قوية توحد بين مصر والشام سوف يقطع الطريق على مصالحها القادمة بالمنطقة.. أما أن يكون على رأس تلك الدولة محمد على أو أى شخص آخر.. أو أن يكون المحرك إليها أهداف خاصة أو عامة.. أو أن محمد على يقصد أو لا يقصد.. فكل ذلك لا يغير من الحقيقة الأساسية شيئا فى نهاية المطاف. وأما التعلل بالأطماع «التوسعية» والطموح الشخصى ورغبة محمد على فى توسيع رقعة سلطته.. فكل هذا هو فى الواقع مجرد امتداد للمنشورات الدعائية التى وزعتها إنجلترا نفسها فى بيروت فى حينها. والإشاعات التى روج لها عملاؤها عامى ١٨٣٩ و ١٨٤٠. ولفترة طويلة بعد ذلك لحشو رؤوس أبناء المنطقة نفسها ببلاغات كيدية ضد الفكرة وضد بعضهم البعض.

وعلى أية حال. فلقد اتضح فيما بعد من ملفات وزارات الخارجية أن العواصم الأوربية كانت تعرف من البداية جوهر الأمر كله. ولقد حاولت بعثة انجلترا مبكرا فى سنة ١٨٣٤ أن تدق جرس الإنذار لحكومتها فى تقريرها الذى قالت فيه : «إن بمقدور القاهرة أن تصبح مركزا صناعيا على غرار مانشستر. بينما تقوم الترسانات البحرية ومصانع السلاح ومعامل السفن فى الإسكندرية بتغطية احتياجات مصر العسكرية كلها أو معظمها» .

فى نفس السنة كتب القنصل الإنجليزى العام فى الإسكندرية تقريرا إلى حكومته فى ٢٩ مايو يحلل فيه النتائج المحتملة بالنسبة لانجلترا على ضوء وجود دولة موحدة فى الشام ومصر. إن انجلترا تتمتع بحرية مطلقة فى ملاحتها عبر المحيط الهندى. وهى حرية لا يمكن أن يهددها سوى روسيا. إلا أن وجود تركيا وفارس (إيران) مازال حاجزا كافيا

ضد الخطر الروسى كما كان دائما عبر التاريخ. من هنا. فى تصور القنصل الإنجليزى. فإن محمد على يستطيع وحده أن يهدد نفوذ انجلترا هذا فى الشرق لأنه «.. إذا انتظمت الأقاليم التى يحكمها محمد على حاليا فى مملكة (موحدة) فإن هذه المملكة بحكم موقعها ستحمل طابعا أوروبيا وأسيويا فى آن واحد. وكلما قويت فإنها سوف تتدخل فى شئون إحدى القارتين».

وهكذا ينتهى القنصل الإنجليزى إلى نتيجة قاطعة: «إن الدولة السياسية الموحدة التى تتشكل تحت حكم محمد على تمثل قوة ضارة بمصالح انجلترا فى الشرق الأوسط. وخاصة إذا استقامت فى مملكة منسجمة قوامها العروبة».

نفس تلك الرؤية كان قد توصل إليها قبل سنة تقريبا مبعوث نمساوى خاص كلفه مستشار النمسا «مترينخ» عندما قال إن الرأى العام يرى أنه .. لا مفر من إقامة إمبراطورية عربية تحت لواء محمد على فى القريب العاجل» . وبرغم أن هذا التطور يبدو له غريبا إلا : «.. إننى أرى، إلى جانب إمكانيات الباب العالى المنعدمة وهيبته المتداعية. يوما بعد يوم، جيشا عربيا مدربا أحسن تدريب ومزهوا بالنصر، وأسطولا جبارا، وموارد كافية لزيادة حجم هذا الأسطول وذلك الجيش إلى ثلاثة أضعافهما. وإدارة فى غنى شبه تام عن الأتراك، وانبعاث الروح القومية عند العرب، وميلا واضحا لدى أوربيين كثيرين إلى حكومة محمد على، وأخيرا تقديرا واسعا متصاعدا يتمتع به هذا الأخير على امتداد البلاد الناطقة بالعربية» .

والمستشار النمساوى «مترينخ» كتب فى ٢٠ نوفمبر ١٨٣٤ إلى نقولا الأول قيصر روسيا يحذره فيه من مشروع محمد على المزدوج الرامى إلى «الاستقلال وخلق دولة عربية قوية» .. وهناك أيضا التقرير الذى أعده المبعوث الفرنسى «دى بوالكمت» فى نفس السنة عندما كتب يقول: « .. وهناك من ناحية أخرى أمر لا نستطيع حتى الآن أن نتكهن بنتائجه. ونعنى بذلك تلك الحروب التى وضعت أوزارها منذ عهد قريب وما سوف تبثه فى نفوس الأمة العربية من شعور بالقومية. وروح عسكرية على يد جيوش محمد على الجرارة. مما يوقظ فيها الشعور بقوتها من جديد. ويولد فى أبناء العرب الرغبة فى أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم».

وبالإضافة إلى ذلك يسجل بعض المؤرخين أن عقلية إبراهيم باشا كانت أكثر إدراكا للأمر كله من أبيه. وهم هنا يعتمدون أولا على ما سجله المبعوث الفرنسي «دى بوالكمت» أيضا عندما قابل إبراهيم باشا بعد عودته من كوتاهيه. فقال : «إنه - أى إبراهيم باشا - يعلن بصراحة عن موقفه فى العمل على إحياء القومية العربية. وعلى إرجاع وطن العرب للعرب. وإشراكهم فى جميع المناصب. سواء ما يتعلق منها بالإدارة الداخلية أم بالجيش. فيجعل منهم شعبا موجودا قائما بذاته ينعم بنصيبه من استقلال الموارد العامة ويشترك فى ممارسة السلطة. كما يتحمل أعباء إدارة الدولة» .. كذلك ما كتبه إبراهيم إلى أبيه عندما قال إن الحرب مع الأتراك هى : «حرب وطنية وأن على الإنسان أن يضحى فى سبيل أمته» . وما رد به على أحد الجنود مرة عندما قال له : «لقد جئت إلى مصر صبيا. ومنذ ذلك الحين فإن شمسها غيرت فى دمى وجعلته دما عربيا خالصا».

لكن. مرة أخرى. فإن تلك الآراء وغيرها تنتمى فى الواقع إلى النوايا التى كان كل طرف يفسرها فى إطاره الخاص من المفاهيم والمصالح.. وما يعنينا هنا فى المقام الأول هو النتيجة النهائية. وإذا كان لنا أن نستنير من وقت لأخر بالأفكار الذاتية فلدينا الآن الرؤية التى سجلها محمد على نفسه لتحركه نحو الشام. فببساطة شديدة كان محمد على يخاطب الأتراك قائلا: «أنتم فى القسطنطينية ارتديتم اللباس الإفرنجى وتصرفتم بعقول تركية.. أما أنا فحافظت على لباسى التركى وتصرفت بعقل إفرنجى..».. وببساطة أكثر. وبكلمات محمد على أيضا كما وردت فى الجزء الثانى من المحفوظات الملكية.. فإن هدفه من التحرك إلى الشام هو «إعادة الآمن إلى نصابه. واسترجاع حقوق عزيز مصر وعمل الخير للأمة الإسلامية.... وتأمين سلامة الحدود. وخدمة الدين والدولة.... وإنقاذ الأمة الإسلامية من كارثة التشتت والاضمحلال...» .

ومرة أخرى. ببساطة وإيجاز. وبكلمات محمد على أيضا. فإنه توجه إلى هناك لأن الشام (فلسطين ولبنان وسوريا) هى «باب الديار المصرية» .

هذا إذن هو مربط الفرس. إن أمن مصر لا يمكن الدفاع عنه بالجلوس فى موقف الدفاع

داخــل وادى النيل. ولكــن أمن مصر يبدأ بالدفاع عن الشــام.. هكذا توصل محمد على. الرجل الذى بدأ أميا ولكن الأحداث علمته جوهر الهدف السياسى. إلى نفس الدرس الأول والمتكرر دائما فى تاريخ مصر.

«الشام هى باب الديار المصرية».

وبقــدر ما أدرك محمد على تلــك الحقيقة وهو فى مكانه بالإســكندرية. أدركها أيضا القنصل الروســى فى حيفا (فلســطين) عندما كتب إلى حكومته فى ٢٨ مايو ١٨٣٤ قائلا: «إن موقع ســوريا - يعنى فلســطين ولبنان وسوريا الحالية - الجغرافى يجعل منها موقعا ضروريا لمن يريد أن يسيطر على مصر».

وهــى حقيقــة كان من الطبيعى أن تكــون أيضا فى إدراك «بالمرســتون» وزير خارجية انجلــترا. وهو فى لنــدن. ومن هنا كان الصــدام عنيفا وجوهريا بالنســبة لمصالح كل من الطرفــين.. فلأن انجلترا لها أهدافها الخاصة التى ســيؤكدها المســتقبل فإنها يهمها أن يظل الباب الرئيســى لأمن مصر مفتوحا.. ويهمها كذلك أن يتم استكمال عدم الأمن المصرى بعجز اقتصادى يجب أن تعانى منه. (لهذا لم يكن مفاجئا أن تشكو انجلترا مرارا وتكرارا من عدم سماح محمد على لرأس المال الأجنبى بالدخول شريكا فى المشروعات التى تملكها الدولة.. وإصرارها على الحصول من الســلطان العثمانى - تحت الابتزاز - على تعهدات بفتح الأسواق المصرية أمام الواردات الإنجليزية).

والواقــع أن قيام انجلترا بضرب أمن مصــر فى مقتل على هذا النحو. لم يكن يكفى لتحقيقه فقط إرغام مصر على الانســحاب من الشام و «قذف محمد على فى النيل» على حد تعبير بالمرســتون من قبل. لقد كان بالمرســتون من البداية عصبيا فى مذكرة أرسلها إلى قنصله العام فى مصر مبكرا فى الثامن من ديســمبر سنة ١٨٣٧ يقول له فيها: «.... إننى أكلفك بأن تخبر باشــا مصر بأن حكومة جلالته تلقت تقارير عن تحركات جيوش فى ســوريا والجزيــرة العربية تدل على أنه ينوى مد ســلطته إلى الخليج العربى وولاية بغداد. عليك أن تخبر الباشــا صراحة بأن الحكومــة البريطانية لن تقف من تنفيذ هذه المشاريع مكتوفة الأيدى».

لم يكن هناك أساس لمزاعم بالمرستون كما تبين فيما بعد.. فالتحركات العسكرية المصرية الجارية وقتها كانت تتجه إلى الحدود السورية مع تركيا. ولكن العصر على أى حال كانت لهجته وأسلوبه هو دبلوماسية البوارج المسلحة. إنما الأهم أن تلك الحالة العصبية لبالمرستون كشفت فى برقيته تلك على الأقل عن المناطق التابعة للإمبراطورية العثمانية التى تريد انجلترا بصفة عاجلة تدعيم نفوذها فيها (تمهيدا لاحتلالها مستقبلا.. وهو ما حدث بعد ذلك فعلا).

فى تلك الفترة كان الوجود المصرى قد انتشر عسكريا وسياسيا من اليمن جنوبا حتى البصرة والخليج العربى شرقا والشام شمالا.. وهذا ما جعل الحكومة البريطانية تصرح فى إحدى اللحظات علنا وبشكل قاطع بأن وجود مصر فى الخليج لا يمكن احتماله. وأن استمرار الوجود المصرى فى البصرة قائما سيجعل اشتباكه عسكريا مع انجلترا أمرا حتميا.. ومع ذلك - تستدرك انجلترا - إذا كان هدف محمد على هو التوسع فقط. إذن فليتوسع فى اتجاه أفريقيا وليس فى اتجاه الشام أو الخليج. لقد تلقى محمد على تلك الدعوة بالفعل من بالمرستون فى ٤ أغسطس ١٨٣٩ بواسطة القنصل الإنجليزى العام فى مصر. إن إنجلترا تعترض على الوجود المصرى (الحالى) فى الشام. ولكن أوروبا كلها لا تعترض على توسعه فى أفريقيا. بل على العكس، «ستنظر إليه بعين العطف، ويستطيع أن يلقى هناك ضمانات تجعله بمأمن من أى هجوم» .

لم تكن القضية إذن قضية توسع.. ولكنها من وجهة النظر البريطانية ومن البداية. قضية عدم السماح بقيام دولة عربية موحدة من مصر والشام.. وقد رأينا أنه قد تم بالفعل إرغام مصر قبل نهاية ١٨٤٠ على الانسحاب من الشام. بعد مواجهة دامية مع أسطول بحرى متحالف قادته بريطانيا ضدها هناك. وحصار بحرى على الإسكندرية.

انسحبت مصر إذن، وأصبحت مقيدة باتفاقية لندن ١٨٤٠ والقيود العديدة التالية والحتمية على حجم وتسليح قواتها المسلحة وصناعاتها الوطنية. وكل الأمور التى ستجعل مصر تتآكل من الداخل بالتدريج، وسنة بعد سنة.. وكان من المفترض أن تنتهى القصة عند هذا الحد.. ولكن هذا لم يكن كافيا - بالنسبة لبريطانيا - فبينما كانت الأزمة فى ذروتها،

وكل العيون تتجه بكل الأطراف نحو القاهرة والإسكندرية والقسطنطينية فإن إنجلترا كانت تضع عينيها على النقطة الجوهرية الأخرى فى الموضوع كله : فلسطين.

ففى الربع ساعة الأخير قبل إرغام مصر على الانسحاب من الشام. اتخذت انجلترا خطوة متواضعة للغاية. بدت فى حينها غير ملفته للنظر بالمرة. لقد بادرت فى ١٩ سبتمبر ١٨٣٨ بتعيين أول قنصل مقيم لها فى مدينة القدس. واسمه «يونج» بدرجة نائب قنصل. كان بالمرستون هو بالطبع الذى قرر ذلك كوزير للخارجية، وهو فى خطوته تلك كان مدفوعا بتوصيات قريب له. هو المليونير «آشيلى». ومن اللورد آشيلى هذا ستأتى خطوات أخرى.. سريعا. فى محاولة كانت تتبلور منذ بعض الوقت.

فى هذه المرة لم تكن المحاولة أقل من : إقامة أول مستعمرة يهودية فى فلسطين.

لم تكن الفكرة حديثة فى حد ذاتها. فإبان علو شأن نابليون بونابرت حاول بعض اليهود كسب حماسه وتأييده لمشروع ضخم بإقامة وطن قومى يهودى فى الشرق الأوسط محددين فى مذكراتهم أن «.. البلاد التى ننوى قبولها بالاتفاق مع فرنسا هى إقليم الوجه البحرى من مصر. مع حفظ منطقة واسعة المدى يمتد خطها من مدينة عكا إلى البحر الميت، ومن جنوب هذا البحر إلى البحر الأحمر. فهذا المركز الملائم أكثر من أى مركز آخر فى العالم يجعلنا بواسطة سير الملاحة فى البحر الأحمر قابضين على ناصية تجارة الهند وبلاد العرب وأفريقيا الجنوبية والشمالية» .

والبعض يعتقد أن تلك المذكرة ربما كانت وراء البيان الذى أصدره نابليون وهو على أبواب عكا فى ٤ ابريل ١٧٩٩ ونشر فى الجريدة الرسمية الفرنسية فى العشرين منه.. ولكن التطورات التالية، بما فيها انسحاب نابليون من مصر. لم تسمح على أى حال باختبار مدى حماس نابليون للفكرة. ولا بإمكانية الحصول على مساندة فرنسية نشطة للمشروع.

والآن تبدو انجلترا فى القرن التاسع عشر وكأنها القوة العالمية الأكثر ترجيحا.. ومن ثم بدا بعض المتحمسين من اليهود فى عرض خدماتهم عليها. ولكن من زاوية أقل طموحا.

ولقد ساعدت ظروف عديدة اللورد آشيلى فى أن يكون بطل المحاولة فى هذه المرة. سواء بسبب قرابته لبالمرستون وزير الخارجية. أو بسبب نشاطه وسخائه كمليونير فى

جمعية المهتدين اليهود بلندن. وكان آشـيلى فى نشـاطه هذا يعمل بالتنسـيق الكامل مع مليونير يهودى آخر يدعو بهمة إلى تعبئة الحركة اليهودية لإعادة التوطين بفلسطين. وهو «موســى حاييم مونتفيور» .. الذى كان بـدوره صهرا لواحد من أكبر غلاة العاملين لتوطين اليهود بفلسطين. وهو المليونير اليهودى روتشيلد. إن كل تلك الأسماء وأسماء أخرى عديدة فرعية، قدر لها أن تسـاهم على نحو أو آخر فى بلورة المشـروع اليهودى الضخم.. ولكن الخيط الواحد الذى ربط حركتهم جميعا كان هو الانقضاض بسرعة على فلسطين فى أعقاب إرغام مصر على الانسـحاب منها. وانعزال مصر الإجبارى عن العالم العربى الذى سيأتى بالتأكيد كنتيجة حتمية لتلك المقدمة.

وكما كشفت مذكرات «آشيلى» نفسه فيما بعد. فإن أفكاره تلك بدأت تصبح أكثر تبلورا وتصميما منذ الثالث من أكتوبر ١٨٣٨، ولكى يجعل الفكرة أكثر جاذبية بالنسبة للمسئولين الرسميين الذين سـيعرضها عليهم فى لندن. فقد صاغها بقوله: «إنه عندما تصبح فلسطين هـى المكان المميز والطبيعى لتجمع اليهود الجديد. فإنها يمكن أن تسـتخدم كمسـتعمرة للاقتصاد الإنجليزى الذى يسير فى طريق التوسع».

وفى سنة ١٨٣٩ (نفس السنة التى طلبت فيها انجلترا من مصر الانسحاب من اليمن.. وضغطت فيها على عواصم أوروبا للتجمع خلفها من أجل إرغام مصر على الانسـحاب من الشـام ـ فلسطين ولبنان وسـوريا – وهى أيضا نفس السنة التى بدأت فيها انجلترا تنصح محمد على بالتوسـع فى أفريقيا كبديل) بدأت الجهود تزداد تكثيفا وتركيزا فى المشـروع اليهودى الإنجليزى المشترك لتمهيد الأرض لاغتصاب فلسطين.

وهنا جرت ثلاث وقائع:

فأولا: نشـرت جريـدة «التايمز» البريطانية المعروفة بصلتهـا الوثيقة بوزارة الخارجية مقالا فى ٢٤ يناير سـنة ١٨٣٩، تطالب فيه بالوقوف موقفا واضحا مؤيدا «لحق» الشـعب اليهودى فى العودة إلى فلسطين... ولكن، لماذا الآن.. بالذات؟.

لأن هذه «المسألة اليهودية» هى مسألة «مرتبطة ارتباطا وثيقا بالأزمة السياسية القائمة» أزمة إرغام مصر على الانسـحاب من فلسـطين والشـام كلها «إن إزالة الوجود المصرى فى

فلسطين هو إزالة للسد المنيع القائم ضد استعمار فلسطين». «لقد بدأت مرحلة جديدة» - هكذا انتهى المقال.

وثانيا : بعدها بأسبوع واحد. تلقى القنصل البريطانى فى القدس (و. ت. يونج) تعليمات من وزارة الخارجية فى لندن. بناء على طلب بالمرستون شخصيا. وهى تعليمات صريحة وقاطعة : إن عليه أولا أن يوافى وزارة الخارجية فى أسرع وقت ممكن بمعلومات دقيقة عن حالة وعدد اليهود المقيمين بفلسطين. وعليه ثانيا أن يعتبر من الآن فصاعدا أن حماية اليهود فى فلسطين بشكل عام تمثل واجبا من واجبات الدولة (انجلترا).

إن انجلترا تريد لليهود فى فلسطين حقوقا سياسية لأول مرة. علما بأن اليهود فى انجلترا نفسها لم يتمتعوا بالحقوق السياسية والمدنية إلا فى عام ١٨٩٠ !

ثالثا: فى نفس الوقت توجه إلى فلسطين المليونير اليهودى «موسى حاييم مونتفيور» - وكان ذلك فى ربيع ١٨٣٩ - لكى يجتمع فى منطقة صفد بفلسطين بممثلى الجالية اليهودية الصغيرة هناك (وكانوا أساسا من البرتغال وألمانيا).. لقد قام مونتفيور على الطبيعة بمعاينة مساحات من الأراضى. حتى يتبلور الشكل النهائى للمشروع الذى يسعى لتحقيقه منذ فترة.

وخطرت فى بال مونتفيور فى التو فكرة مدهشة. إن مصر تعرف الآن أنها مرغمة بالتأكيد على الانسحاب من فلسطين والشام بأكمله سريعا. وبتكاليف فادحة. إن الضغوط تحاصرها من كل جانب.. فلماذا لا يتم التلويح لها بثغرة جانبية لتخفيف تلك الضغوط. ماليا وسياسيا ؟ فبعد كل شىء. وطالما مصر منسحبة من فلسطين فى نهاية المطاف. فالمعقول أنها لن تهتم كثيرا بما يجرى لفلسطين بعد ذلك. لماذا إذن لا تجرى محاولة لتوريط مصر فى المشروع اليهودى فى هذه الربع ساعة الأخيرة ؟.

كانت تلك هى الفكرة المدهشة. وسرعان ما قرر مونتفيور تنفيذها بسرعة. لقد اتجه بحرا على الفور إلى الإسكندرية.. حيث طلب مقابلة الباشا محمد على. والى مصر. إن الظروف التى تمر بها مصر دقيقة على المسرح الدولى.. ومن ثم فإنها تجعل الناس. هذا النوع من الناس. أكثر شجاعة وجرأة.. ومن الأصل كان محمد على يقابل أعدادا كبيرة من الأجانب

الوافديــن علــى مصر، وبرغــم معرفته مقدما بأن النســبة الكبرى منهم هــم مجرد أفاقين ومحتالين. لكن محمد على كان يقول: «إننى أعرف أنه من بين الخمســين شــخصا الذين يأتون إلى لعرضوا خدماتهم. هناك تسـعة وأربعون يمكــن اعتبارهم حجارة كريمة مزيفة. إلا إننى لا أستطيع أن أكتشف الجوهرة الحقيقية الوحيدة بينهم دون تجريبهم جميعا» .

هكــذا وافــق (محمد على) على اســتقبال هذا المليونير الإنجليزى القادم إليه بمشــروع استثمار مدهش يمكن أن يدر على مصر ملايين الجنيهات. فى هذه اللحظة الحاسمة التى تعبئ فيها مصر كل مواردها من أجل المواجهة الحاسمة الوشــيكة على أرض الشــام – إنه مشــروع اســتثمار ضخم.. يا معالى الباشا.. ســوف يدر عليك الملايين.. وفوق ذلك. سوف يحقق لك بركات الرب ورضاه..!

هكذا بدأت المقابلة فى ١٣ يوليو سنة ١٨٣٩. وبغير أن يعرف محمد على بعد أن هذا المليونير الإنجليزى هو أيضا زعيم الأقلية اليهودية فى انجلترا.

وبدأ الباشــا يســتمع إلى «مشروع الاســتثمار المدهش» .. – إننا نفكر فى تأسيس شركة استثمار إنجليزية فى لندن.. مهمتها تشجيع عودة اليهود إلى فلسطين للإقامة فيها. ولهذا الغرض فإن مثل هذه الشــركة تحتاج إلى اســتئجار منطقة فى الجليل (شمال فلسطين) لمدة خمســين سنة. وتلك المنطقة عاينتها بنفسى وهى تشــتمل على ما بين مائة إلى مائتين من القرى الفلســطينية. وبالطبع ســوف تســدد الشــركة إلى معاليك باعتبارك والى مصر الذى تحكم فلسطين، ضريبة استثمار عن هذه الأراضى التى سنستغلها لمصلحتنا.. ومصلحتك.. ومصلحة أهالى المنطقة أنفســهم الذين ســيعمهم الخير الوفير.. فضلا عن أن اليهود ســوف يدعون لك فى صلواتهم بأن يجعلك الله زعيما مباركا للشرق كله...!.

اســتمع محمد على حتى النهاية إلى هذا «المحسن» اليهودى المليونير القادم من لندن. والمتحمــس للأعمــال الخيرية. إن الباب قــد فتح أمام محمد على لتــوه من أجل اغتراف رضــاء الرب وبركاتــه. والرب لن يعطيه بركاته إلا بمثل هذه التوصية اليهودية المؤكدة. ثم من يدرى ؟.. ألا يجوز أن يدخل محمد على التاريخ من أوســع أبوابه. لو أنه كتب على يديه أن يكون فاتح فلسطين أمام الاستعمار اليهودى المسكين ؟ ! إنهم سيأتون له بالمال..

وبأحدث ما فى العصر من تكنولوجيا.. وبالصلوات.. وبركات السماء على أقساط متساوية لمدة خمسين سنه.. فلماذا لا يوافق ؟

لكن، لم يكن محمد على بالبلاهة التى تصورها فيه المليونير اليهودى المتحمس للأعمال الخيرية. وكان الجواب الفورى القاطع من محمد على الرفض.. جملة وتفصيلا.

هكذا عاد المليونير اليهودى مونتفيور، صهر روتشيلد، وزعيم الأقلية اليهودية فى انجلترا، عاد بخفى حنين، بعد أن اكتشف أنه قد استخف بشدة بذكاء هذا الرجل الأمى - محمد على - ولقد اكتشف مونتفيور أيضا أن مصر، وإن كان موقفها دقيقا أمام الضغط البريطانى عليها فى الشام، إلا إنها لم تهزم بعد الهزيمة النهائية لكى تقع فريسة لمشروعات الاستعمار اليهودى.. وهكذا كان لابد من طرق أبواب أخرى بديلة عن الباب المصرى.

إن انجلترا مصممة بأى ثمن على إخراج مصر من الشام، وهى فى سبيل ذلك تحرض وتساعد السلطان العثمانى ضد محمد على. وفى النهاية سوف يلتزم محمد على بالعودة إلى مركز المرؤوس التابع اسميا للسلطان.. لماذا لا تقوم انجلترا إذن، وبالمرة، بممارسة نفوذها لدى السلطان نفسه، بعد أن فشلت المساعى لدى المرؤوس.. ؟

هكذا تلقى سفير انجلترا فى القسطنطينية برقية بالشفرة من لندن فى ١١ أغسطس ١٨٤٠. وكان اتفاق لندن قد أبرم فى الشهر السابق مباشرة للتنسيق ضد محمد على. والبرقية موجهة من وزير الخارجية بالمرستون شخصيا بتعليمات محددة إلى السفير الإنجليزى. إن على سفير انجلترا أن يتحدث مع السلطان العثمانى فى مصير فلسطين بعد إخراج الوجود المصرى منها. يجب أن يكون الحديث انفراديا ومتصفا بالحصافة. إن السلطان ربما يعرف أن يهود أوروبا أغنياء وأثرياء. وهم الآن يريدون تشجيع اليهود على التوطن بفلسطين. ولو تجاوب السلطان مع هذا الاتجاه فسوف يحقق ثلاث مزايا كبرى..

فأولا: سوف يستفيد هو وإمبراطوريته من الثروات اليهودية (وهناك فى البداية دائما تلويح بها)..

وثانيا: سوف يضمن تحولا آخر فى الرأى العام الأوروبى لصالحه ضد غريمة محمد على، بتأثير النفوذ اليهودى (الذى لم يتم اختباره أبدا)..

وثالثا: سوف يقطع الطريق نهائيا أمام محمد على. وأمام أى وجود مصرى للعودة مستقبلا إلى فلسطين.. وهكذا يعم السلام فى الشرق.

كان المطلوب من السفير أن يغلف حديثه بحصافة لابد منها. إن المشروع إنسانى أولا. والخطوة الأولى هى مجرد السماح لليهود بالإقامة. مجرد الإقامة. فى فلسطين. بعد أن يتحقق ذلك يمكن المطالبة بإنشاء محكمة عدل لهم لتامين حقوقهم. بعدها يمكن إصدار تشريع لصالحهم.. الخ.

هكذا ستقاس حصافة سفير انجلترا بقدرته على وضع الغلاف الإنسانى الرقيق على الأمر برمته. وقبل كل شىء فإن انجلترا لا تستهدف من الأمر شيئا إلا سياسة تقوم على التقوى وبركات الرب موجودة فى انتظار السلطان.. لكى يتجاوب مع هذه التقوى بتقوى مماثلة.. لكن يبدو أن السلطان كان لديه ما يكفى من التقوى. فأحال الأمر إلى وزيره رشيد باشا.

وحتى تلك اللحظة كان بالمرستون وزير خارجية بريطانيا حريصا على أن يتحرك بحذر. وبعيدا عن عيون الآخرين. حتى لا تضبطه أوروبا متلبسا بمثل تلك الخطط بعيدة المدى بشأن مستقبل فلسطين. ولذلك فإنه كان يتقدم أولا بخطوة واحدة إلى الأمام. ثم يتوقف ليرى رد فعلها.. ولما لم يكن رد الفعل إيجابيا.. فقد فضل بالمرستون الانتظار.. لكن اللورد آشيلى لم يكن يطيق الانتظار. فمع تلاحق الظروف السياسية المواتية لانجلترا. كتب فى ٢٥ سبتمبر مذكرة إلى قريبه بالمرستون جرت خطوطها الأساسية كما يلى: بما أن تسوية المسألة السورية (يقصد سوريا ولبنان وفلسطين).. هى الآن فى يد الدول الأوروبية العظمى.. فإن الفرصة سانحة لتنمية أراضى فلسطين.. – هذه التنمية لن يستطيعها غير اليهود.. لأن بينهم اتجاها يميل إلى استرجاع أرض فلسطين.. ولأنهم أثرياء. – ولكن الذى يمنعهم من ذلك هو الخوف على حياتهم وثرواتهم (لو ذهبوا بلا ضمانات دولية). فإذا ما أصدرت الدول الكبرى التى ستحكم تلك البلاد (بعد إخراج مصر منها) تشريعا عادلا. وإذا ما تعهدت بمنح حماية متكافئة لليهود ولغير المؤمنين. وبكفالة دول الحلف الرباعى التى (يجب أن) تشير إلى هذا فى اتفاقها.. يمكن للمشروع أن يبدأ ويسير قدما.

ولكى يعطى «آشيلى» لبالمرستون حججا يستخدمها مع الآخرين فإنه يقترح فى مذكرته تصوير الأمر على نحو لا يثير مخاوف أحد من احتمالات المستقبل. فاليهود ليست لديهم طموحات سياسـية لأنهم لا يبالون بالأمور المتصلة بالسياسة. إن كل طموحهم يقتصر على لذة جمع الثروات. ثم إنهم ليست لديهم أية نظرية لمارستها فى فلسطين.. وهم قد تعلموا فى كل مكان تقريبا أن يطيعوا كل سـلطة ولذلك فسـوف يقبلون بالتوزيع الحالى للأراضى (فى فلسطين).. ولكى تطبق الضمانات المقترحة لهم يجب أن يكون من اختصاص قناصل ونواب الدول الكبرى الإشراف على التنفيذ.

كانت تلك المذكرة تمثل فى الواقع أول تصور صهيونى متكامل تم تقديمه إلى قوة أوربية مبكرا (أى قبل هرتزل والمؤتمر الصهيونى الأول بـ ٥٧ سـنة). وهى ، مثل كل المشـروعات التى قدمتها الحركة الصهيونية بعد ذلك ، تحاول أن تخفى تماما الهدف السياسى للمشروع الصهيونـى.. ثـم هى تحاول أن توهم بأن هناك مزايـا اقتصادية لصلحة جميع الأطراف. إن اليهود يحتاجون إلى الذهاب إلى فلسطين لأنهم مساكين. بعد ذلك يحتاجون إلى حقوق لأنهـم ذهبوا. بعدها تحتـاج الحقوق إلى ضمانات. والضمانات تحتـاج إلى قوة، أو قوى ، أوربيـة لحمايتها. بعد حمايتها يعرض اليهود خدماتهم علـى الدولة الأوربية التى تحكم فلسطين لأنهم يطيعون كل سلطة..إلخ.

لم يكن المهم فى هذا المشـروع هو مضمونه فقط.. وإنما توقيته أيضا. فهو مشـروع يتبلور فى الربع سـاعة الأخيرة قبل إرغام مصر على الانسـحاب من فلسـطين. ويتم عرضه على دول أوروبا التى توشـك على اقتسـام المنطقة بينها وتقرير مصيرها. وكلها دول ذات أطماع اسـتعمارية خاصة بها فى المسـتقبل بالنسـبة لهذه المنطقة بالذات. والمشروع فى النهاية يعرض على كل طرف دولى راغب، فى الدخول معه شريكا فى الأعباء.. والمكاسب.

فى تلك الفترة كان أحد ضباط البحرية الفرنسية فى المنطقة ، وقد شاهد قيام القوات المتحالفة بقصف مدينة عكا الفلسـطينية ، وعندما وصل إلى الإسكندرية ليقدم تقريرا إلى القنصل الفرنسى بها فى التاسـع مـن نوفمبر، ذكر فى نهاية تقريـره: «إننى لن أنهى هذا التقرير، ياسـيدى القنصل، دون أن أعلمك بالإشاعات المتداولة فى البلاد ، والتى ينشرها الانجليز أنفسهم:

١ - إنهم يعدون بإعادة إقامة مملكة إسرائيل.
٢ - إن كل مقاطعة فى الجبل (اللبنانى) سوف يحكمها شيخ تختاره هى. ويخضع للوالى (المعين من قبل السلطان العثمانى) الذى سوف لا يحكم إلا اسميا.
٣ - وبرغم التعاطف الذى يكنه لنا الموارنة (فى لبنان) فقد اقترح بعض الزعماء أنفسهم أن يعتنقوا المذهب الإنكليانى إذا لزم الأمر، بدل أن يرزحوا ثانية تحت حكم إبراهيم باشا».
وهكذا فإن المشروع الصهيونى، من بدايته المبكرة هذه، يحاول تسلق العربة البريطانية التى تبدو للجميع أنها فى طريقها للسيطرة على المنطقة. وفى نفس الوقت فإن انجلترا نفسها تحاول هى أيضا استثمار هذا المشروع لصالحها.. ليس فقط فى مجال الاستخدام الدعائى داخل الأرض التى ستصبح فيما بعد بؤرة الصراع.. ولكن فى مجال الاستخدام السياسى.. فلقد حدث فى نفس الشهر، نوفمبر ١٨٤٠، أن أرسل بالمرستون برقية جديدة إلى سفيره فى القسطنطينية. معبرا عن ضرورة بحث الموضوع مع السلطان من جديد. ولكن. بدل أن يكتفى بالمرستون بالضمانات القانونية التى كان يطلبها لليهود فى حالة عودتهم لاستعمار فلسطين. فإنه أضاف فى هذه المرة بأنهم سيكونون تحت الحماية السياسية البريطانية.. وفى الشهر التالى أخطر السفير الفرنسى بالقسطنطينية حكومته فى باريس بأن انجلترا قد طلبت من الباب العالى الموافقة على حصول اليهود الذين قد يأتون إلى القدس حق تملك العقارات.

ومرة أخرى، من المهم أن نلاحظ فى هذه النقطة ما يلى :

أولا : إن إرهاصات الحلم الصهيونى باستعمار فلسطين لم تتخذ شكلا جادا إلا فى الربع ساعة الأخيرة لإرغام مصر على الانسحاب من الشام فى مجموعه. ومن فلسطين على وجه الخصوص. وبالتدريج.. مع تمام هذا الانسحاب فعلا.. كانت المطالب الصهيونية تزداد تبلورا وجرأة. سعيا وراء حلمها النهائى بإقامة دولة صهيونية فى فلسطين.

ثانيا : إن انجلترا كانت لها خططها الاستعمارية الخاصة بها كقوة أوربية عظمى فى المشرق العربى. وفى سعى انجلترا لتحقيق تلك الأطماع.. فإنها وجدت أمامها خصمين أساسيين... *الإمبراطورية العثمانية.. والوجود المصرى. لقد سعت انجلترا أولا إلى القضاء على أقواهما، وهو الوجود المصرى..* لأنه سيصبح من السهل عليها فيما بعد القضاء على أضعفهما، كما حدث فعلا فيما بعد.

إلى أن يحدث ذلك، فإن ما سعت إليه السياسة البريطانية بإلحاح، وبصفة عاجلة، هو منع مصر مستقبلا من التواجد مرة أخرى فى فلسطين.. وقد عبر بالمرستون وزير الخارجية البريطانى عن ذلك بوضوح أكثر من مرة. وشيئا فشيئا سوف يتبلور هذا المنع فى ضرورة تحويل أرض فلسطين إلى فاصل مادى بين المشرق العربى والمغرب العربى يمنع اتصالهما من جديد مرة أخرى.

ثالثا: إنه فى هذه المرحلة، ولسنوات طويلة بعدها، سوف يسير الطرف الصهيونى والطرف الإنجليزى نحو هدفين متوازيين وليس متقاطعين.. ولذلك فكل تقدم كان يحرزه أحدهما فى تحقيق هدفه كان يخدم الطرف الآخر ويسهل فى النهاية تحالفهما النهائى معا.. بريطانيا فى المقدمة.. والصهيونية فى ذيلها.

والحركة الصهيونية من جانبها، لم تجد أن فرصتها الذهبية قد بدأت إلا مع إرغام مصر على الانسحاب من فلسطين.. ثم انكفاء مصر إلى الداخل، ومن ثم انهيار الأمن المصرى بالتدريج. وشيئا فشيئا، الانهيار أصبح هو المقدمة الأكيدة لاحتلال مصر نفسها فيما بعد.. ولذلك فلم يكن مفاجأة على الإطلاق أن القيام بعد ذلك بترتيب استيلاء انجلترا على حصة مصر فى أسهم شركة قناة السويس كان عملا سياسيا بالدرجة الأولى.. تحالف لإتمامه اثنان من اليهود المتحمسين للمشروع الصهيونى : روتشيلد، رجل البنوك والمليونير الذى ربطته علاقة المصاهرة مع مونتفيور، صاحب شركة الاستثمار التى رفضها محمد على.. وبنيامين ديزرائيلى رئيس وزراء انجلترا فى حينها.

إن مصر، بمجرد انهيار أمنها الخارجى، سرعان ما بدأ الانقضاض على القاعدة الداخلية لهذا الأمن. وهكذا بدأت الصناعات الوطنية تغلق أبوابها بعد أن تعرضت للحصار من جميع الجهات. وبعد أن توالت الامتيازات الاقتصادية التى تحصل عليها الدول الأجنبية داخل مصر.. فى فتح باب الاستيراد على مصراعيه لدخول البضائع الأجنبية القادمة من أوروبا. البضائع.. والبشر وبلا رقيب أو ضابط، بحيث إنه وصل متوسط الوافدين الأجانب على الإسكندرية ثلاثين ألفا سنويا فيما بين سنتى ١٨٥٧ و ١٨٦١.

وبتعبير الكاتب الإنجليزى ريموند فلاور فإنهم «.. كلهم يمثلون من الناحية العملية

نفاية وحثالة البحر الأبيض.. وهم يتسمون فى زحفهم وسلوكهم بسمات المافيا. ويسعون نحو هدف واحد فقط هو الحصول على أسرع وأسهل نقود يستطيعون أن يجدوها» . وهكذا «.. من الآن فصاعدا. أصبح العصر هو الوقت المثالى لعصابات الرهونات واليهود».

بعد أن تم الانقضاض على مصر من الخارج.. يأتى الدور على الانقضاض عليها من الداخل.. بحيث إنه خلال سنوات قليلة من انهيار الأمن المصرى.. سوف تصبح مصر مستعمرة أوروبية دون إطلاق رصاصة واحدة !

وبمجرد أن تم إرغام مصر على الانكفاء إلى الداخل. انطلقت أوروبا بشراسة لاستعمار المنطقة جزءا جزءا. وبالطبع فازت انجلترا بنصيب الأسد فى المشرق العربى. لقد رأيناها وقد احتلت عدن من قبل. بعدها ستنطلق لاحتلال مسقط وعمان وكل إمارات الخليج العربى. ثم تحتل مصر نفسها.. والسودان.. والعراق.. وأخيرا فلسطين.

وبمجرد أن وضعت انجلترا قدميها فى فلسطين.. توحدت مصالحها مع مصلحة الحركة الصهيونية بوعد بلفور. وبدأ المشروع الصهيونى يأخذ طريقه بسرعة إلى أرض الواقع. لقد كانت انجلترا تحتاج إلى ركائز سياسية داخل المنطقة تسهل لها المضى فى سياساتها طويلة المدى. وفى هذا الإطار نجحت الحركة الصهيونية فى أن تتحول من مجرد حلم ضبابى فى أربعينات القرن التاسع عشر. إلى حلم ذى بناء تنظيمى بدأ يتشكل فعلا منذ عام ١٨٩٧، (وقد سعت فرنسا إلى نفس الهدف فى لبنان أملا فى إمكانية تحويل لبنان إلى وطن قومى مسيحى أيضا.. ولكنها لم تحقق نفس النجاح).

والمصريون الذين تم إرغامهم على الانسحاب بطريقة مأساوية عبر فلسطين فى سنة ١٨٤٠. لن يقدر لهم أن يعودوا مرة أخرى إلا بعد ٧٧ سنة كاملة.. حينما جرجرتهم انجلترا كقوة احتلال خلفها. لكى يقيموا لها التحصينات فى سيناء ويمدون لها خطوط السكك الحديدية حتى فلسطين.

إن الجيش البريطانى المتقدم نحو فلسطين فى سنة ١٩١٧ عبأ معه أكثر من مائتى ألف من المصريين حسب الأرقام البريطانية نفسها. وحيث سقط من وحدات الهجانة المصرية وحدها – بالإحصائيات البريطانية مرة أخرى – أكثر من ستة آلاف قتيل وجريح. ووقتها

كانـــت انجلترا تمارس الدرس الأول مرة أخرى فـــى التاريخ المصرى: إن الدفاع عن مصر يبدأ من فلسطين.

ولكن. لا كانت مصر فى تلك المرة هى نفســـها.. ولا كانت فلســـطين هى فلسطين. فمنذ لحظة إرغام مصر على الانســـحاب من الشـــام عام ١٨٤٠. تم عزل مصر عربيا لمائة ســـنة بعدهـــا. أصبحت مصر ذاتها محتلة خلالها. وحينما ســـتعود مصـــر إلى العالم العربى بعد ذلك.. فإنها ســـوف تجد على «باب دارها» تماما قنبلة زمنية اســـتيطانية تهددها.. وتهدد معهـــا العالم العربى بأكمله. إن الجميع أصبحـــوا من تلك اللحظة ضحايا.. ولكن الضحية الأولى فى الواقع.. الأولى والنهائية.. كانت هى مصر نفســـها وأمنها.. الذى سينهار كما لم يحدث من قبل فى أى لحظة تاريخية سابقة.

□□□□

" لا أستطيع أن أحس بالاطمئنان وأنا أفكر في قيام دولة يهودية على حدود مصر - إذ - ما الذي يمنع من أن تدعي تلك الدولة حقا لها في سيناء فيما بعد ؟! "

مصطفى النحاس

رئيس وزراء مصر-٢٤ يوليو ١٩٣٧

الفصل الثانى

اختراق مصر .. والأبناء يدفعون الثمن !

من البداية كانت الحركة الصهيونية تحاول اختراق مصر «من أعلى» . لقد ذهبت إلى فلسطين فى ذيل الاستعمار البريطانى. وحصلت من بريطانيا على وعد بلفور فى ٢ نوفمبر سـنة ١٩١٧ مقابل خدمات لاحقة تؤديها لحسـاب المصالح البريطانية فى المنطقة. ثم هى جاءت إلى مصر تتسلل إليها فى حماية الاحتلال البريطانى فى محاولة لتخديرها وتعميتها عما يجرى فى فلسطين.. الباب الشرقى لمصر.

وإذا قفزنا أماما. بعد وعد بلفور بعشـر سـنوات. وبعد أن بدأ الاسـتيطان اليهودى المنظم فى فلسطين فى حماية السلطة البريطانية. فسوف نجد أن عددا قليلا من اليهود «محبى الخير والأعمال الإنسانية» يحاول بأى ثمن التسلل إلى الزعامات المؤثرة فى مصر. زعامات فى مقدمتها سعد زغلول شخصيا.. الزعيم الذى قاد ثورة شعبية كبرى فى سنة ١٩١٩ هـزت الاحتلال البريطانى لمصر هزا عنيفا وشمـل دويها المنطقة كلها وتجاوزها حتى الهند.

وفى سـنة ١٩٢٧ وقـع زلزال فى فلسـطين. راح ضحيته مواطنـون عديدون أصبحوا بلا مأوى. وتبرع سـعد زغلول بمائة جنيه مصرى من جيبه لضحايا الزلزال فى فلسـطين. فهم أشـقاء يجب مسـاندتهم فى محنتهم.. لكن شـخصا أخر صور المسألة على نحو آخر تمام.. شخصا اسمه «ليون كاسترو». لقد كان كاسترو هذا مجرد مواطن يهودى يعيش فى مصر. وليسـت له أية ميول سياسية ظاهرة.. بل إنه متحمس بشدة لكفاح الشعب المصرى فى سبيل استقلاله وثورته من أجل حريته. وسوف يمضى وقت طويل قبل أن نكتشف أنه هو نفسـه رئيس فرع المنظمة الصهيونية العالمية بالقاهرة. وأن تلك هى نفسها المنظمة التى تدير جهودا منظمة من أجل أقامة الدولة اليهودية فى فلسطين. وحتى تلك السنة ١٩٢٧. كانت المنظمة قد أقامت بالفعل ٩٦ مستعمرة يهودية فى فلسطين.

المهم أن «ليون كاسـترو» هذا أخرج تبرع سـعد زغلول الإنسانى هذا عن سياقه تماما.. وأشاع. بعكس الحقيقة. أن التبرع فى حد ذاته يوحى بعطف خفى على يهود فلسطين.

إننـا سـوف نلاحظ كثيرا فيما بعد تكرار نفس هذا الأسـلوب فـى الدعاية الصهيونية السـوداء.. ففى تلك المرحلة كان من المهم بالنسـبة للجنين الصهيونـى الذى يولد بعملية

قيصرية فى فلسطين أن تتم حمايته من العواصف. إن هذا يمكن أن يتم بأساليب عديدة.. من بينها الأخبار الملفقة والموجه لإعطاء انطباعات تخالف الحقيقة.

فسعد زغلول حين تبرع بمائة جنيه. تبرع بها لمنكوبى الزلزال من أبناء شعب فلسطين. وقد تبرع بها فى سياق إنسانى تماما. ولكن حينما أعطى «ليون كاسترو» الخبر فإنه أعطاه إلى صحيفة وحيدة تنشره فى القاهرة. وهى مجلة «الاتحاد الإسرائيلى».. مجلة أصدرها اليهود المصريون فى ٢٠ أبريل سنة ١٩٢٤ أولا لتكون «مجلة علمية أدبية».. ولكن. من العدد الثالث أصبحت مجلة سياسية صهيونية. وبعد أن نشرت على الصفحة الأولى من العدد الأول صورة الملك فؤاد. ملك مصر والسودان. فإنها نشرت فى العدد الثالث صورة جيمس بلفور وزير خارجية بريطانيا الذى أصدر وعد بلفور المشهور. وكتبت تحتها نص الوعد الذى أعطاه لليهود بإنشاء وطن قومى لهم فى فلسطين.. بعدها توسعت المجلة فى نشر أخبار الحركة الصهيونية فى فلسطين» .. تخريصا لأولئك النفر الذين يحاربون الصهيونية. وينكرون فضل اليهود وجهودهم فى تعمير فلسطين ونشر العلم بين ربوعها».[1]

وفى ١٩ يوليو سنة ١٩٢٧ نشرت المجلة «الاتحاد الإسرائيلى» الخبر التالى : «لما وصل خبر النكبة التى حلت ببلاد فلسطين من الزلزال جادت مكارم سعد زغلول باشا رئيس مجلس النواب المصرى وزعيم الأمة على المنكوبين من سكان فلسطين بمبلغ مائة جنيه مصرى.. فضرب بذلك لأبناء هذه البلاد وكرمائها ورجال البر والإحسان المثل الأعلى. هذا وأملنا وطيد فى أن يهود مصر سيلبون نداء الواجب فى هذه النكبة ويعملون على تخفيف ويلاتها بتبرعاتهم وإحسانهم» .

فى نفس العدد نشرت المجلة خبرا آخر: «جاءت الأنباء التلغرافية بأن جناب المحسن الإسرائيلى الكبير ناثان ستروس تبرع بمبلغ خمسة آلاف جنيه إنجليزى إعانة لمنكوبى الزلزال فى فلسطين».

ولم تكن تلك هى المفارقة الوحيدة !

لقد انتهت الحرب العالمية الأولى.. وأصبحت بريطانيا هى سلطة الانتداب على فلسطين. ولكى يكون الطريق ممهدا إلى أقصى درجة

(١) الاتحاد الإسرائيلى ٢٠ / ١٠ / ١٩٢٥

أمام الاستعمار الصهيونى فى فلسطين. فإن بريطانيا اختارت لمنصب المندوب السامى لها فى فلسطين. هربرت صموئيل. وهو نفسه يهودى صهيونى متعصب بشدة لهدف إقامة الدولة اليهودية فى فلسطين.

وبدأت المقاومة الفلسطينية تتبلور شيئا فشيئا مع تضخم الخطر.. لقد عقد الفلسطينيون مؤتمرهم الأول فى سنة ١٩١٩ يرفضون فيه جملة وتفصيلا مبدأ الوطن القومى اليهودى. ويطالبون بتحقيق الوحدة العربية. وعقدت القوى الفلسطينية مؤتمرا للمندوبين الفلسطينيين فى فبراير ١٩٢٠. ومؤتمرا آخر فى ١٤ ديسمبر من نفس السنة. لرفض وعد بلفور ووقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

وأصدر رؤساء الدين المسيحى فى القدس أوامرهم إلى جميع الكنائس فى فلسطين كى تحذر المسيحيين من بيع أراضيهم إلى اليهود. ونظمت المرأة الفلسطينية أول مظاهرة شاملة لها فى ٢٣ مارس (١٩٢٠) ضد الصهيونية. مطالبة بالاستقلال التام للبلاد العربية جميعا.

إن بريطانيا اضطرت بعد ذلك إلى منع المظاهرات فى فلسطين بالقوة المسلحة. ولكنها اضطرت أيضا إلى أن تذيع بيانا مطاطا على لسان وزير المستعمرات (ونستون تشرشل) بأن وعد بلفور لا يعتبر فلسطين بأكملها وطنا قوميا لليهود. ولا يفرض القومية اليهودية على سكان فلسطين.

ولكن «القومية اليهودية» تفرض نفسها بالمال والسلاح على فلسطين.. لقد قفز عدد مستعمراتهم من ٧١ إلى ٩٦ مستعمرة خلال خمس سنوات. وتضاعفت مساحات الأراضى التى استولوا عليها. ووصلت جهود الهجرة المنظمة بعدد اليهود القادمين إلى فلسطين فى سنة ١٩٢٥ وحدها إلى ٣٥ ألفا. بالإضافة إلى حصول الحركة الصهيونية على امتياز مشروعين اقتصاديين كبيرين هما : شركة كهرباء فلسطين.. ومشروع استغلال البحر الميت.. ولكن الأخطر من هذا كله أن الجهود الصهيونية معبأة للتعجيل بإقامة أول جامعة عبرية. يجرى تأسيسها فى القدس. ومعبأة أيضا لهدف يتساوى فى الأهمية. وهو كسب مواقع للتأثير والنفوذ.. كان النفوذ الصهيونى فى مصر متنكرا أحيانا. وسافرا أحيانا أخرى.. كان يحتمى بعباءة «التسامح» .. و «المساواة» .. والتحرر أحيانا. متخفيا تحت واجهة براقة من التنور.

أو العلم. أو العصرية. لكنه كان فى أحيان أخرى يبدو سافرا كاشفا داعيا لأهدافه السياسية مباشرة. وبلا مواربة.

إن ليون كاسترو نفسه. الذى استعطف سعد زغلول فى سنة ١٩٢٧ تحت يافطة العمل الإنسانى.. هو الذى أسس من قبل أول فرع للمنظمة الصهيونية العالمية فى مصر سنة ١٩١٧ وأصدر بلسانها صحيفة بالفرنسية فى مصر تنطق باسم المنظمة الصهيونية - صحيفة اسمها «المجلة الصهيونية» .. وتتخذ من نجمة داود شعارا لها. وتكتب صراحة أن هدفها هو «خلق وطن للشعب اليهودى فى فلسطين يتحدث فيه اليهود بلغتهم. ويحققون لأنفسهم بداخله الحرية والعدالة. ويجعلون من القدس قلب اليهودية النابض»[1] .

بل إن المجلة تشرح مبكرا. وبصراحة كاملة. أهمية مصر من وجهة نظر المنظمة الصهيونية. فتقرر أن مصر «مركز هائل لدراسة مشاكل هامة يجب حلها فى فلسطين. كما أن للرأى العام المصرى قدرته بين الدول العربية والشرقية. ولهذا فلابد من كسب هذا الرأى لمصلحة الصهيونيين. هذا بالإضافة إلى أن الرأى العام المصرى لن يكون عاملا مساعدا وقتيا للصهيونيين.. ولكن سيكون ذا أهمية كبرى فى المستقبل. وفوق ذلك فإن بمصر يهودا كثيرين يشاركون فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية. وهذا يمكنهم من مساعدة الصهيونيين» .

وفعلا.. كان بمصر يهود بارزون كثيرون.. لقد شهد البرلمان المصرى (نواب وشيوخ) أعضاء يهود. فى مقدمتهم الحاخام ناحوم أفندى (الذى استقبل حاييم وايزمان بالقاهرة سنة ١٩١٨).. ويوسف دوبيكيوتو (الذى انضم إلى حزب الوفد بالإسكندرية).. ويوسف بتشوتو بك (الذى سنراه بعد قليل يدلى بتصريح خطير هو أن الحكومة المصرية تتعاطف مع الحركة الصهيونية).. ورينيه قطاوى. ويوسف قطاوى (الذى خرج من قبل يؤيد الأهداف الصهيونية).

إن يوسف قطاوى هذا هو نفسه الذى سيصبح أول وزير يهودى فى التاريخ المصرى الحديث. فيشغل منصب وزير المالية ثم وزيرا للمواصلات فى حكومة أحمد زيور (١٩٢٥).. وقبلها كان ضمن الوفد الرسمى الذى سافر إلى لندن لمفاوضة اللورد كرزون (١٩٢٢). وعضوا

(١) ١٩١٨/١/١١

فى لجنة الثلاثين التى شكلتها حكومة عبد الخالق ثروت (١٩٢٢) لوضع الدستور وقانون الانتخاب.

والنفوذ الصهيونى يتقمص أحيانا صحفا تصدر فى القاهرة.. «جريدة المقطم» مثلا تكتب فى ١٧ مارس سنة ١٩٢٣ بلا مواربة.. إن الصراع فى فلسطين إنما هو نتيجة ظروف عارضة.. لأن فلسطين محكوم عليها بأن تكون وطنا مشتركا بين الشعبين الشقيقين اليهودى والعربى.. سواء رضيا أو أبيا!.

بعدها بقليل تكتب فى أول يونيو سنة ١٩٢٣ بأن التجربة قد أثبتت ضرورة استمرار الحكم البريطانى لفلسطين « .. إذ لا يمكن ضمان العدل والإنصاف للعرب واليهود والحالة على ما هى عليه.. إذ لابد أن تكون قوة أعلى من الفريقين توازن كليهما وتعدلهما، فلا ترجح كفة على الأخرى» !.

هكذا اعتبرت «المقطم» بداية أن الصهيونيين، وهم مازالوا ١٠٪ من السكان فى فلسطين معادلون لشعب فلسطين نفسه، وأن وجود بريطانيا هو ضرورة تمليها العدالة !.. أكثر من هذا.. فحينما انتهت مدة شغل هوبرت صموائيل لمنصب المندوب السامى البريطانى فى فلسطين، بعد خمس سنوات قضاها هناك معاديا للعرب ومنحازا إلى الصهيونية ومسهلا لها تحقيق مشروعها بكل الوسائل، كانت «المقطم» هى الصحيفة الوحيدة فى مصر التى تكتب فى ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٢٤ مطالبة باستمرار هوبرت صموائيل فى منصبه.. مكافأة له على «الأعمال الجليلة التى قام بها لصالح سكان فلسطين»!

أى سكان تقصدهم «المقطم»؟

إن الجميع يعرفون.. ولكنهم يصمتون.. مع ذلك.. فلابد أن تأتى، بعد وقت طويل أو قصير، لحظة اختبار لهذا النفوذ الصهيونى فى مصر.. وقد حانت هذه اللحظة فعلا.. بعد وقت قصير !.. إن كلا من الشعور القومى فى مصر.. والنفوذ الصهيونى فى مصر.. سوف ينزلان إلى الشارع لأول مرة فى مواجهة مكشوفة تحدد قوة كل منهما نحو الأخر.. لقد كانت المناسبة هى أن المنظمة الصهيونية العالمية قد قررت أن يكون افتتاح الجامعة العبرية فى القدس - المقرر له ٢٥ ابريل سنة ١٩٢٥، مهيبا وضخما ومؤثرا.. ويحمل

دلالات عميقة.. وموحية.. ووجهت المنظمة الدعوة لحضور الافتتاح إلى شخصيات عديدة. في مقدمتها جيمس بلفور. وزير الخارجية البريطاني الذى أصدر الوعد المشهور قبل ثمانى سنوات. وقرر بلفور أن يزور مصر وهو فى طريقه إلى فلسطين. إن الحكومة المصرية القائمة في السلطة حينئذ، يرأسها أحمد زيور باشا - نفس الحكومة التى تضم وزيرا يهوديا هو يوسف قطاوى باشا وزير المالية. وهى حكومة فرضها الاحتلال الإنجليزى عقب اضطرار سعد زغلول للاستقالة.

وقررت الحكومة أن تحتفل بوصول اللورد بلفور إلى مصر !

ولم يحتمل الشعور القومى فى مصر مثل هذا الاحتفال.. فخرجت المظاهرات إلى الشوارع فى القاهرة تهتف بسقوط صاحب وعد بلفور.. وفى اليوم التالى أصدر أحمد زيور باشا رئيس الوزراء. أوامره إلى إسماعيل صدقى باشا وزير الداخلية بالقبض على الذين تسببوا فى تلك المظاهرات. ونشرت جريدة «السياسة». التى يصدرها حزب الأحرار الدستوريين. ومنه إسماعيل صدقى. إن الذين قبض عليهم وتم اعتقالهم هم مجرد مجموعة من الوطنيين الفلسطينيين!.

إن النفوذ الصهيونى كسب الجولة الأولى !.. ولكن الشعور القومى فى مصر بدأ يغلى.. وأراد النفوذ الصهيونى أن يغير - متنكرا - هدف المعركة. فخرجت جريدة «الأهرام» القاهرية معلقة بقولها : «ليس الصواب أن يقال إن تصريح بلفور كان القوة العظمى التى استمدها الصهيونيون لتحقيق أمانيهم. فالتصاريح الرسمية ليست هى العامل الجوهرى فى تحقيق أطماع الأمم، بل القوى الكامنة فى نفسها والوسائل التى تستخدمها لتحقيق هذه المصالح.... نعم. إن للانجليز سياستهم. وإن لهم الفضل كله فى حماية جنود الصهاينة الدائبين على بناء الوطن القومى. ولكن الإنجليز قوم لا يخلقون الفرص بل ينتهزونها.... وما الذنب فى ذلك ؟ (إنه ليس) ذنب الانجليز الذين تهمهم مصالحهم وحدهم، ولا ذنب الصهيونيين الذين يطلبون وطنا لمن لا وطن له. بل ذنب الذين ناموا عن تصاريف الزمن وأضاعوا كل فرصة سانحة. مع أنهم عرفوا أحلام الصهيونيين منذ رسمها لهم زعماؤهم»![1].

(١) الأهرام: ١٩٢٥/٣/٣٠

هكـذا يوجـه النفوذ الصهيونى فـى الجريدة القاهرية المظاهـرات إلى هدف آخر : إن الإنجليز لا ذنب لهم.. والصهيونيين لا ذنب لهم.. والذنب الوحيد هو الفلسطينيون!.

ماذا يفعل الفلسطينيون؟.

مبدئيـا. فى اليوم الذى وطئت فيه قدما جيمس بلفور أرض فلسـطين. أعلن الإضراب العام فى فلسـطين. إضراب «شمل المتاجر والمدارس ووسـائل النقل والمواصلات.. وتقيد به المسلمون والمسيحيون فى مختلف أنحاء البلاد. ورفعت الرايات السوداء. وأصدرت صحيفة «فلسطين»عددا خاصا باللغة الإنجليزية. وألقى خليل سكاكينى خطابا وطنيا من فوق منصة الحرم الشريف» .

وبدأت الصحف الوطنية فى مصر تعبر عن يقظة الشـعور المصرى فى متابعة لما يجرى بفلسطين. فكتبت صحيفة «البلاغ» الناطقة باسم حزب الوفد. تصف الاحتجاج الفلسطينى قائلة : «لقد شـاهد المارون فى شـوارع القدس فى أول يوم من شـهر رمضان مناظر خطيرة مدهشـة. حيث أوصد العرب فى فلسـطين جميع مخازنهم وحوانيتهـم ونوافذ منازلهم. ورفعوا الأعلام منكسة. ووضعوا إشارات الحداد فى كثير من الأماكن احتجاجا على زيارة اللورد بلفور.. ولئن خشى العرب شيئا فهم لا يخشون ذلك البناء المقام على جبل الزيتون، ولا يفزعون من الجامعة نفسها. بل هم يخشون كثرة النازحين إلى فلسطين من اليهود بعد أن ساعدهم تصريح بلفور على ذلك»[٢] .

وفـى النهاية كان تعليق صحيفة «البلاغ» هو التضامن مع هذه الروح التى شملت فئات الشـعب الفلسـطينى ووحدتهم صفا واحدا. فلم يؤثر فيهم الإغراء ولا التهديد.. مع ذلك مـازال النفوذ الصهيونى يريد أن يكسـب الجولة الأخيرة فى اسـتعراض القوة هذا. يريد أن يكسـبها.. من مصر ! لقد ذهبت الدعوات لحضور افتتاح الجامعة العبرية بالقدس إلى شـخصيات عديدة. فى دول مختلفة. ولكن من داخل منطقة الشـرق الأوسط نفسها. كان تركيزهم الأول على مصر.. بالذات.

(٢) البلاغ: ١٢/٤/١٩٢٥

إن وجود مصر فى هذه الاحتفالات بالذات. سوف يشيع وهما بأن مصر تقف إلى جوار الحركة الصهيونية.. ضد شعب فلسطين - هذا هو ما يسعون إليه. على الأقل. وهذا هو أيضا ما يفسر جهودهم المستميتة قبيل الاحتفال على أن تحضر شخصية مصرية بارزة فى افتتاح الجامعة العبرية بالقدس.

لقد وجهوا الدعوة أولا إلى الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية سابقا.. فأهملها.. ثم وجهوها إلى أحمد زكى باشا. الذى لقب فى مصر بـ «شيخ العروبة» .. فلم يرد عليهم. ولكنهم لم ييأسوا. لقد ذهب إليه وفد من يهود مصر يرجونه «باسم العلم» أن يحضر الاحتفال. ولكنه اعتذر بكبر سنة وعدم استطاعته تحمل مشاق السفر. إنهم ردوا عليه مستمرين فى الإلحاح : نحن نضمن لك راحتك. وسوف نقدم لفضيلتك صالونا خاصا بالسكة الحديد.. !

فلما ضاق بهم أحمد زكى - كما تقول جريدة «الشورى» التى كانت تصدر فى تلك الفترة. اضطر إلى أن يفهمهم صراحة بأنه: «لا يحضر حفلة تسئ أهل فلسطين. الذين هم فى حالة حداد بسبب هذه الجامعة» . ثم تضيف جريدة «الشورى»: فلما أخفق اليهود فى مساعيهم هرولوا عن حضرته ولا يلوون على شيء.

وفجأة.. بعد قليل.. أعلن أن الحكومة المصرية قد قبلت دعوة حضور افتتاح الجامعة العبرية بالقدس.. وأنها اختارت أحمد لطفى السيد بك مدير الجامعة المصرية ليمثلها فى هذا الاحتفال.

وكان للخبر وقع القنبلة !

إن أول برقية احتجاج وصلت إلى القاهرة من فلسطين. كانت تحمل توقيع رئيس الجمعية الإسلامية فى نابلس. برقية تقول: «اشتراك لطفى بك السيد بافتتاح الجامعة العبرية باسم مصر يؤلم الأمة العربية بأسرها. نرجو المحافظة على ما بيننا من حقوق اللغة والتاريخ والجوار والأخلاق والعادات» . بعدها برقية أخرى تمثل مختلف طوائف الشعب الفلسطينى. وتقول: «إن عرب فلسطين يعتبرون مشاركة مصر فى حفلات

الصهيونية مساسا بعاطفة فلسطين الحزينة. ويطلبون أن لا تقدم الحكومة المصرية على قطع العلاقة القلبية بين قطرين شقيقين» .وتوالت برقيات الاحتجاج.. ومقالات الاستنكار فى الصحف العربية. استنكار هو خليط من العتاب والمفاجأة.. والمرارة !.. وكلمة شكر واحدة.. إن التى قالت تلك الكلمة هى نفسها صحيفة «الاتحاد الإسرائيلى» فى القاهرة. التى كتبت تقول: «انتدبت حكومتنا المصرية حضرة صاحب العزة أحمد لطفى بك السيد مدير الجامعة المصرية الأميرية ومدير دار الكتب المصرية سابقا لحضور هذه الحفلة بالنيابة عنها.... ولا يسعنا فى هذا المقام إلا إثبات خالص شكرنا إلى رجال حكومتنا السنية على جميل تشجيعهم للعلم والعاملين على نشره بدون تفريق أو تمييز بين الأديان والمذاهب»[1].

هل كان افتتاح الجمعية العبرية بالقدس هو مجرد عمل علمى كما نشرت الصحيفة الصهيونية فى القاهرة ؟

سوف يمر بعض الوقت قبل أن نعرف إجابة أحمد لطفى السيد نفسه عن هذا السؤال.. ولكن المهم الآن هو ذلك الشعور بالمرارة الذى طغى على الصحف العربية من موقف الحكومة المصرية – حكومة أحمد زيور باشا. التى تضم يوسف قطاوى باشا ! حكومة جاءت لتنفذ لسلطات الاحتلال ما رفضه سعد زغلول. لقد كان الصهيونيون يعرفون تماما الكيفية التى سيستخدمون بها واقعة اشتراك مندوب مصرى فى افتتاح الجامعة العبرية بالقدس. بل إن جريدة «بالستاين ويكلى» الصهيونية سرعان ما كتبت تقول : إن حضور مندوب مصر هذا الاحتفال.. كان هو الدليل على أن مصر المسلمة العاقلة لا ترى فى الصهيونية رأى أهل فلسطين.

إذن هذا هو بيت القصيد ؟ !

إنها نتيجة، ليس مطلوبا فقط أن يقرأها من يعنيه الأمر فى فلسطين، ولكن أيضا من يعنيه الأمر فى مصر. ربما من أجل ذلك نشرت جريدة «المقطم» القاهرية – ودائما هى المقطم – تقول لقرائها: «إن الصهيونيين فى فلسطين أقاموا حفلة أخرى خطب فيها

(١) الاتحد الإسرائيلى: ١٩٢٥/٥/٥

يوسف بك بتشوت أحد يهود الإسكندرية وعضو مجلس الشيوخ المصرى. فنوه بعطف الحكومة المصرية على القضية الصهيونية، واستشهد على ذلك بإرسال صاحب العزة أحمد لطفى السيد كمندوب عن الجامعة المصرية».[1] وأصبح على الصحف العربية أن تصدق مثل هذا التصريح الخطير: إن الحكومة المصرية تعطف على القضية الصهيونية!.

نعم. على الصحف العربية أن تصدق.. أو تغلى.. أو كليهما معا !. ورفضت الصحف العربية أن تصدق.. وظلت معا ! تغلى.. ولكن الشعور القومى فى مصر كان هو أيضا يغلى. وخرجت الصحف الوطنية فى مصر تهاجم حكومة زيور باشا بشدة.. وتهاجم أحمد لطفى السيد. وفى اليوم الخامس من مايو (١٩٢٥) خرجت جريدة «كواكب الشرق» الوفدية فى القاهرة ببيان على قرائها تقول فيه: نشرت جريدة «الوطنية» بيانا هاما عن اشتراك الأستاذ أحمد بك لطفى السيد مدير الجامعة الأميرية فى حفلة تأسيس الجامعة العبرية فى القدس. ونذكر القراء بأن إخواننا أهل فلسطين احتجوا على حضوره واشتراكه فى تأسيس الجامعة الصهيونية التى ينظر إليها العرب أبناء البلاد بعين المقت والسخط.

ثم نشرت الصحيفة بيانا من أحمد لطفى السيد نفسه. قدمت له بقولها إن: «صدور هذا البيان من الأستاذ لطفى السيد دليل على أن الحكومة المصرية التى أوفدته قد أخطأت فى تقدير الموقف.. ولما كان هذا البيان على جانب كبير من الأهمية رأينا نشره... ليطلع عليه المصريون والفلسطينيون والسوريون...».

إن المصريين إذن هم الطرف الأول فى هذه القضية كلها. وهم الذين تنشر الصحيفة الوطنية المصرية لهم اليوم هذا البيان بعنوان عريض هو: «الأستاذ لطفى السيد يدافع ويعتذر عن اشتراكه فى حفلة الجامعة العبرية».

يقول لطفى السيد أنه تصور أولا «أن الدعوة صادرة من معهد علمى (الجامعة العبرية) كان المفهوم أن لا علاقة له بالسياسة العملية كما هو شأن الجامعات العلمية» .. فشرفتنى

(١) المقطم ١٩٢٥/٤/١٥

حكومة جلالة الملك بانتدابى لهذه المهمة فقبلتها مع الارتياح. فلما كنت فى القدس... أحسست أن المبالغة فى الاحتفال بافتتاح الجامعة إلى القدر الذى رأيته ووصفه رجال كثيرون من القائمين بأمر تأسيس الجامعة.. كل ذلك ينطوى على ترويج الدعوة الصهيونية. خصوصا أنى قد علمت من بعض القائمين بأمر الجامعة ساعة وصولى إلى القدس بإن لغة الجامعة هى اللغة العبرية. لهذه الاعتبارات التى لم تكن الحكومة المصرية لتعلمها من قبل. أردت أن ابدأ بزيارة المجلس الإسلامى الأعلى فى مساء اليوم الذى وصلت فيه. وقبل أن أزور جناب المندوب السامى بفلسطين».

ولو أخذنا بكلام لطفى السيد هذا على علاته فإنه يكون قد قبل الذهاب من باب المشاركة فى عمل علمى. حسنا. ولكنه هو نفسه قد اكتشف لتوه أنه عمل سياسى قبل أن يكون علميا. مع ذلك فإن فكرة الانسحاب أو رفض المشاركة لم ترد فى ذهنه. وبدلا من ذلك فإنه كل ما فكر فيه هو أن يعوض هذه المشاركة بزيارة يقوم بها إلى المجلس الإسلامى الأعلى. وفى هذه الحالة يكون قد أرضى كلا الطرفين : الصهيونى والفلسطينى!

إن هذا المفهوم نفسه سيكون من أخطر المفاهيم على مستقبل مصر. وأمنها. وهو مفهوم لم ينفرد به أحمد لطفى السيد. إنما شاركه فيه فريق مؤتمر من المثقفين المصريين الذين درسوا فى أوروبا وعادوا إلى مصر يحاولون أن يجعلوا منها مجتمعا أوربيا كما لو كانت المجتمعات. وشخصية هذه المجتمعات. يتم بناؤها فى أنابيب اختبار.

ولجوء الحركة الصهيونية إلى هذا النمط بالذات من بين المثقفين المصريين. تارة باسم التحرر وتارة باسم التفتح. وتارة باسم اللبرالية. وتارة باسم الروح الأكاديمية. سوف يتكرر كثيرا فى تلك السنوات الحاسمة. والمؤثرة إلى أبعد حد على مستقبل مصر وأمنها.

إن المغزى السياسى لحضور شخصية مصرية بارزة افتتاح الجامعة العبرية. التى أقامتها المنظمة الصهيونية بالقدس. لم يكن لغزا ولا طلسما.. فقد أدركه اثنان من الشخصيات المصرية على الأقل. وجهت إليهما الدعوة فى مصر قبل أحمد لطفى السيد. وحجم الخطر فى فلسطين على أمن مصر لم يكن هو الآخر لغزا ولا أحجية.. فلقد نبه إليه وطنيون

مصريون عديدون حتى من قبل صدور وعد بلفور. وفى قضيتنا هذه. كان أحمد لطفى السيد يمتلك من الشجاعة ما يجعله يخرج على الرأى العام فى مصر قائلا : إنى أخطأت.. إنى أعتذر !.

لكننا لم نجد مثل تلك الشجاعة فى حالات أخرى.. والأهم من ذلك. إن مثل تلك الشجاعة كان يمكن توفيرها لو أن هناك فهما صحيحا وعميقا لدى بعض المثقفين المصريين بطبيعة والتزامات وعروبة مصر. ولكن هذا لم يحدث.. بسبب البناء الفكرى الذى يعيش فيه نمط من المثقفين. بناء سوف نجد له امتدادا ما فى كل جيل. بناء يبدأ من مقدمة أن مصر يجب أن تكون جزءا من أوروبا بدلا من الانتماء للعروبة. وسوف نلاحظ أن نفس الذين كانوا ينصحون الفلسطينيين بمهادنة الصهيونيين فى فلسطين. هم الذين كانوا ينصحون الشعب المصرى أيضا بمهادنة سلطة الاحتلال البريطانى فى مصر. ونفس الذين آمنوا بان على الفلسطينيين أن يتبعوا الحسنى ويسلكوا سبيل الاعتدال والتروى مع الاستعمار الصهيونى فى فلسطين.. هم أيضا الذين آمنوا بأن على الشعب المصرى أن يسلك سبيل الود والإقناع والاعتدال مع الاستعمار البريطانى فى مصر نفسها..إنه إذن بناء فكرى متكامل تدعمه سذاجة سياسية تقوم على عدم دراية. وعدم وعى. وعدم القراءة الدارسة الفاحصة المستوعبة لمسار التاريخ وفخاخه.

لقد علق دبلوماسى بريطانى على أساليب حاييم وايزمان مع العرب باعتبارها «سوق الضحية إلى الذبح..» والآن. فى العشرينات. يبدو هذا واضحا فى فلسطين ومصر بدرجة متساوية. لقد كسب النفوذ الصهيونى فى مصر معركته المكشوفة الأولى ضد الشعور القومى فى مصر.. وخرج هذا النفوذ بعدها يستعرض قوته فى الحياة السياسية المصرية !.

إن حاييم وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية يزور مصر مرة أخرى. فى سنة ١٩٢٥.. ونشرت صحيفة «الاتحاد الإسرائيلى» فى القاهرة[١] تقول: «رغب وايزمان بمجرد وصوله إلى القاهرة فى زيارة بيت إسرائيلى.. وقد أقامت اللجنة الإدارية لهذا البيت حفلة شاى تكريما للزائرين. شرفها الكثيرون من كبار إخواننا المشتغلين بالحركة الصهيونية فى مصر. وقد خطب د. وايزمان عن واجب يهود مصر نحو الحركة الصهيونية منوها عن

(١) الاتحاد الإسرائيلى ١٩٢٥/٥/٥

المســاعى المشكورة التى يبذلها ســيادة الحاخام الأكبر.. ناحوم أفندى فى سبيل الحصول على مؤازرة كبار أعيان يهود مصر للصهيونية. ثم ألقى الحاخام الأكبر خطبة بليغة للغاية أعلن فيها رغبته الأكيدة فى الاشتغال للحركة الصهيونية فى مصر».

ويصل إلى مصر وفد من المعلمين والمعلمات اليهود العاملين فى المدارس العبرية بالمستعمرات الصهيونيــة فى فلســطين. والقصد المعلن هو زيارة مدارس مصــر ودور الآثار والمتاحف و «..قد اهتمت الحكومة المصرية بزيارة هذا الوفد اهتماما دل على حسن تقديرها للعلم ورجاله. وقامت بعمــل كل ما رأت فيه تســهيلا للوفد فى تحقيق الغــرض من زيارته. وقد نزل أعضاء الوفد فى ضيافة وزارة المعارف العمومية.. وقد أقامت الطوائف الإسرائيلية حفلة شاى بأوتيل الكونتننتال تكريما لأعضاء الوفد حضرها وزير المعارف وكبار رجال التعليم والدكتور (حاييم) وايزمان وأعيان الطوائف الإسرائيلية» [٢] وأقام لهم على ماهر وزير المعارف مأدبة غداء بمدرسة الأورمان بالجيزة.

فــى الشــهر التــالى رأت وزارة المعارف المصريــة أن توفد إلى فلســطين بعثة من رجال التعليم اليهود المصريين لرد الزيارة إلى إخوانهم الفلســطينيين اليهود.. وصحبها كمرشــد ودليــل د.ألبرت موصيرى صاحب جريدة إســرائيل بمصر»[٣]. إن ألبرت موصيرى هذا هو نفسه الذى نشر فى جريدته «إسرائيل» التى تصدر بمصر المقالات المتتابعة تمجيدا لتيودور هرتزل» .. حتى يكون فى نضاله من أجل إســرائيل مثلا يحتذى به كل شــباب الطائفة الصاعديــن» [٤]. هو نفســه الذى كتبت عنه جريدته هذه فيمــا بعد تقول إنه «يعنى عناية خاصة بالصهيونية ونشرها بين اليهود. وكان يدعو إليها بحرارة وإخلاص. حتى تمكن من تحقيــق أمنيته بتأليف جمعية صهيونية فى القاهرة. وظل يعمل إلى أخر لحظة من حياته فى خدمة الصهيونية ونشــرها والدفاع عنها»[٥]. نفس هذا الرجل. يسافر الآن إلى فلسطين لزيارة المســتعمرات والمدارس الصهيونية هناك.. بأموال دفعها وســددتها الحكومة المصرية من الضرائب التى يدفعها المواطن المصرى.

(٢) الاتحاد الإسرائيلى ١٩٢٦/٣/٢٨
(٣) المصدر السابق : ١٩٢٦/٧/٤
(٤) إسرائيل: ١٩٣١/٧/٣١
(٥) المصدر السابق: ١٩٣٣/٣/٣

والمواطن المصرى نفسه. يعيش فى تشويش كبير لعل أبرز نموذج له هو تلك المحاضرة التى ألقاها «مرقص باشا سميكة» فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة (مارس ١٩٢٦) وقال فيها: «مضى على مصر أكثر من ألفى عام منذ أن فقدت استقلالها بانتهاء حكم الفراعنة. ومن ذلك العهد وهذه البلد - مصر - مطمع نظر الفاتحين من أحباش ويونان وفرس وروما وعرب وأتراك والزنج».

إن مصر إذن يجب أن تكون وطنا فرعونى القومية. مستقل عن الشرق ومرتبط بالغرب رأى نادى به من قبل الخديو إسماعيل ويعقوب القبطى وأحمد لطفى السيد.. وسينادى به من بعد سلامه موسى وآخرون.. وتيار آخر فى مصر ينظر للموضوع من زاوية دينية مختلفة. هو التيار الذى أمن من البداية بالرابطة الإسلامية.. وأن على مصر أن تكون جزءا من هذه الرابطة. أو حتى هذه الجامعة على رأى عبد الرحمن الكوكبى ومصطفى كامل.. أما التيار العربى فى مصر فإنه لم يكن قد أفاق بعد من نتائج معاهدة ١٨٤٠ التى فرضتها القوى الأوربية على محمد على واستهدفت عزل مصر عن العالم العربى وعملت من يومها على هذا الأساس..

إن هذا الشعور بالانتماء القومى سوف يحتاج إلى مزيد من الاختبارات والصدمات الحاسمة قبل أن ينتبه تماما لحجم الخطر الذى يقام ضده فى فلسطين. ويكتسب القدرة على مواجهة هذا الخطر.. لقد كان افتتاح الجامعة العبرية بالقدس هو المعركة المفتوحة الأولى بين هذا الشعور القومى فى مصر من ناحية وبين النفوذ الصهيونى فى مصر من ناحية أخرى.

والآن نقترب من المعركة المفتوحة الثانية.كان كلا الطرفين يكتسب مع الوقت درجة جديدة من التأثير والنفوذ..ففى الجانب الأول قام طلعت حرب مؤسس بنك مصر. أول مصرف مصرى. بجولة فى أقطار المشرق العربى لبحث إمكانية افتتاح فروع للبنك هناك - وعاد من هناك مؤمنا بأن الانتماء العربى لمصر ليس مجرد مشاعر. أو لغة. أو تاريخ. وإنما هو أيضا مصالح.. وفى الجانب الثانى أرسلت «السياسة» لسان حال حزب الأحرار الدستوريين فى مصر. مراسلا لها فى فلسطين. وهو محمد عبد الله عنان المحامى. وعاد من هناك ينشر مقالات فى «السياسة» أعادت نشرها صحيفة الاتحاد الإسرائيلى قائلة:

«.. وقد اطلعنا على رسالة له فى وصف الجامعة العبرية التى أنشأها الصهيونيون بالقدس عقب زيارته لها فأثرنا نشـرها على صفحات مجلتنا تحريضا لأولئك النفر الذين يحاربون الصهيونية وينكرون فضل اليهود وجهودهم فى تعمير فلسطين ونشر العلم فى ربوعها. فماذا يقول هذا وقد شهد شاهد من أهلهم ؟»[1]

خلال أسـابيع قليلة من مقالات جريدة «السياسـة» والترحيب الشديد بها من جانب الصحافـة الصهيونية فى مصـر.. جاءت المعركة المفتوحة الثانية بين الشـعور القومى فى مصر من ناحية والنفوذ الصهيونى فى مصر من ناحية أخرى. وكانت المناسـبة هى حدث جلل جرى فى فلسـطين. ففى أغسـطس ١٩٢٩ نظمت الحركة الصهيونية فى فلسـطين مظاهرة يهودية إلى حائط البراق (حائط المبكى عند اليهود) وهو الحائط الغربى من المسجد الأقصى.

وكانت المظاهرة اليهودية تهتف : الحائط حائطنا.

وفى اليوم التالى أقام المسلمون مظاهرة مضادة.. أكثر شدة وحماسا.. وبدأت الاشتباكات بين الفريقين.. وهى اشـتباكات سـتؤدى فى النهاية إلى سقوط ١٣٣ قتيلا و ٣٣٩ جريحا فى الجانب اليهودى.. مقابل ١١٦ قتيلا و ٢٣١ فى الجانب الفلسطينى.. واضطرت سلطة الانتداب البريطانية فى فلسـطين إلى تشـكيل لجنة للتحقيق فى ملكية الحائط. كجزء من الوضـع العام المتدهور فى فلسـطين.. وبلغ من اهتمـام الصحافة الصهيونية فى مصر بهذه التطورات. أن ألبرت موصيرى. صاحب جريدة «إسرائيل» التى تصدر فى مصر. سافر إلى فلسطين لكى يتطوع بالشهادة أمام اللجنة البريطانية مطالبا بملكية اليهود للحائط.

ولكـن تقرير اللجنـة البريطانية جاء فى النهاية يطلب تخفيـض الهجرة اليهودية إلى فلسـطين. وعلـى الفور انطلقت صحيفة «إسـرائيل» من مصر تهاجـم اللجنة البريطانية. لأن الوطن القومى (لليهود فى فلسـطين) روحه الهجـرة.. وفى القضاء على الهجرة قضاء عليه.[2]

---

(١) الاتحاد الإسرائيلى : ١٩٢٧/٥/٢٤

(٢) صحيفة إسرائيل- ١٩٣٠/٤/١١

ونشرت الصحيفة أيضا تصريحا لحاييم وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية.. يصف فيه التقرير البريطاني بأنه يبعث على خيبة أمل اليهود. ثم في النهاية ردت الصحيفة أسباب الثورة في فلسطين إلى مطامع بعض العرب وجهل البعض الآخر بوعد بلفور. وإلى دسائس الإنجليز وليس إلى الهجرة اليهودية.[1]

ومن زاوية اهتمامنا هنا فإن صدى تلك الأحداث في فلسطين كان عميقا وهادرا في مصر. لأنه فضلا عن المضمون السياسي للمواجهة الفلسطينية الصهيونية في أغسطس ١٩٢٩. فإن المواجهة أثارت أيضا مضمونا دينيا.. جعل المشاعر تستيقظ على حجم الخطر في فلسطين.. لقد بدأت الصحف الوفدية في مصر حملة واسعة لتنوير الرأى العام المصرى لأول مرة بالأبعاد الكاملة للقضية الفلسطينية.. فكتبت جريدة «البلاغ» مثلا في ٢٨ أغسطس سنة ١٩٢٩ تقول عن حقوق الشعب الفلسطيني: «... والصهيونيون ينازعونهم في هذه الحقوق ويريدون أن يقيموا قومية صهيونية على أنقاض القومية العربية. وحكومة صهيونية بدلا من الحكومة الوطنية العربية. نقول إذا كان من الأمر كذلك فهو يكفي وحده في أن يلقي ضوءا باهرا يكشف أسباب تلك المعارك الدموية التي تخرجت الحالة من أجلها في فلسطين» .

ثم تخلص «البلاغ» إلى نتيجة أساسية هي جوهر الموضوع كله. فتقول: «.. إذن فالمضي في تنفيذ وعد بلفور هو منشأ هذا النزاع. ولولاه لما وقف اليهود موقفهم في مسألة البراق».

وأرسل الأمير عمر طوسون برقية احتجاج إلى الحكومة البريطانية. باعتباره رئيسا للجنة عمارة الحرم القدسي في مصر وبدأت جمعية الشبان المسلمين في مصر جمع التبرعات لصالح عرب فلسطين من ضحايا الثورة. وقررت نقابة المحامين المصرية انتداب مجموعة من أعضائها للدفاع عن المتهمين العرب في حوادث الثورة. والدفاع عن الحكومة العربية في حائط البراق أمام لجنة التحقيق الدولية.

وهكذا سافر إلى القدس كل من محمد على علوبة وأحمد زكي وعبد الحميد سعيد ممثلين لنقابة المحامين المصرية. ودوى صوت محمد على علوبه (باشا) قائلا بحرارة : «.. وإنه ليحزنني أيها السادة أن أرى وأسمع بعد أن ذهبت إلى فلسطين. ودافعت

(١) صحيفة اليهود العبرية: سهام عبدالرازق عشرى - رسالة ماجستير - من جامعة القاهرة

بضعفـى عــن قضيتها. وعلمت أن الأمة العربية أمة واحــدة يربطها رباط واحد.. نعم. يحزننى أن أفكر أنه يوجد فى بلادى فريق مهما كان شأنه يبث فكرة الفرعونية. أنا لا أدرى ما الحافز الذى حدا ذلك النفر الضئيل فى مصر إلى أن يصرح بقوله: حذار يا مصر أن تكونى واسطة عقد الأمم العربية وأختها الكبرى لأنك لست منها بل أنت فرعونية. إن الفرعونية ليست جنسا من أجناس البشر ولكنها عصر من عصور الحكم.. على أننى لو فرضت أن هناك جنســا فرعونيا لحما ودما وعظما. فإن فوق هذا الجنس جنســا أخر وروابــط أخــرى. هى أن هذه الأمم العربية تجمعها لغة واحــدة وتقاليد واحدة وعادات واحــدة وألام واحدة وأمــال واحدة. فهل يظن ظان بأنه يوجــد اعتبار فوق هذه الروابط الوثيقــة التى لا تنفصم أواصرها ؟ ما مصر إلا أمة عربية. ولا تقوم إلا على أنها عربية. ولا يرضى المصريون بغير العربية» .

إن محمد على علوبة ربط مباشــرة بين فلســطين وعروبة مصر.. لأنهما وجهان لشــىء واحد.. بمثل ما الدعوة إلى صهيونية فلســطين وفرعونية مصر نتيجتان لمقدمة واحدة.. أنه بذلك ســجل يقظة حادة ومبكرة للشــعور القومى فى مصر وإحساسا عميقا ومباشرا بدلالة ما يحدث فى فلســطين. وعلاقته بما يجب أن يحدث فى مصر.. كان هذا صوتا مصريا منبهــا.. وكانت رؤية مصرية ثاقبة.. ولكــن.. هل كان هذا الصوت معبرا فعلا عن القوى الفعلية المسيطرة فى المجتمع المصرى؟.

للوهلة الأولى يبدو ذلك..

وللوهلة الأولى يبدو أيضا - بعد هذا التحرك الشعبى الواسع فى مصر نتيجة لأحداث البراق ســنة ١٩٢٩ - إن الشــعور القومى فى مصر قد كســب الجولة هذه المرة ضد النفوذ الصهيونى فى مصر.

ولكن هذا ليس صحيحا.

ففى الجانب المقابل. نجد أن أصواتا أخرى انطلقت على الفور فى الاتجاه العكسى..!

فأولا. كتبت جريدة «إســرائيل» تقول إن هؤلاء الثوار الفلســطينيين فى حادث البراق هم

مجموعة من الشيوعيين على علاقة بموسكو ![1] .. وكتب الدكتور محمد حسين هيكل فى جريدة« السياسة» يدعو إلى تأليف لجنة يهودية عربية تحقق التفاهم – بين الطرفين – وعلى الفور قالت مجلة «إسرائيل» الصهيونية التى تصدر فى مصر إن هذا هو: «خير ما كتب إلى الآن باللغة العربية. بأسلوب برىء من الهوى وروح الإخلاص والصراحة فى مشكلة فلسطين».[2]

وكتب محمد عبد الله عنان. فى جريدة «السياسة» أيضا يقول: «مهما كانت أسباب هذه الحوادث الدامية. ومهما كانت المسئولية فى إثارتها. فإنه لا يمكن أن تتجاهل اليهودية هذه الحقيقة. وهى أن الوطن القومى اليهودى لا يمكن أن يقوم على سياسة العنف فى قلب شعوب تجمعها روابط جنسية ودينية وتاريخية ولا يمكن أن يغفل أثرها» !.

لكن الكاتب ما يلبث أن يضيف أنه ... لا يعتقد أن سياسة العنف طريق صالح يستطيع أن يسلكه الشعب الفلسطينى لتحقيق أمانيه. لأن سياسة العنف أصبحت اليوم طريقا خطرا لا يأمن سلوكه الأقوياء أنفسهم. فضلا عن الضعفاء».[3]

وعلى الفور جاء الترحيب بهذا الخط الفكرى من المصدر الوحيد المستفيد – منه – جاء من جريدة «هاآرتس» الصهيونية فى فلسطين. التى أشادت بهذا الصوت الواحد فى العالم الإسلامى الذى يطالب بالروية والإنصاف.. إذا لم يقم بين المسلمين المتنورين من يخاطب الجمهور الثائر بمثل هذه الكلمات الواضحة البسيطة التى وجهها محرر «السياسة» !

ولكن بعض محررى أقلام «السياسة» – لسان حال حزب الأحرار الدستوريين فى مصر – تفعل ما هو أخطر. إنها تكتب مستعدية السلطات المصرية ضد الفلسطينيين المقيمين فى مصر. وتهددهم بالطرد. بتهمة إثارة الطائفية فى مصر وتهييجهم للرأى

---

(١) إسرائيل : ١٩٣٠/٧/٤

(٢) جريدة "إسرائيل" : ١٩٢٩/٦/٢٧

(٣) "السياسة" : ٧ سبتمبر ١٩٢٩

العام.. بسبب النشاط الذى يقوم به بعضهم لتزويد الرأى العام المصرى بالمعلومات عن ثورة البراق.[٤]

والحكومة المصرية القائمة. التى هى نفسها حكومة تمثل حزب الأحرار الدستوريين. ويرأسها محمد محمود لا تنتظر مثل هذا التحريض. إنها قبضت بالفعل على عدد منهم استرضاء لليهود فى مصر الذين تؤكد جريدة «السياسة» بشدة اعتزاز مصر بوجود هذا العنصر الذكى العامل بين عناصرها».[٥] بعد أشهر قليلة اتخذت الحكومة الجديدة. برئاسة إسماعيل صدقى هذه المرة. خطوات أخرى. لقد قررت نهائيا (١٩٣٠) إغلاق جريدة «الشورى» الفلسطينية التى يصدرها من مصر محمد على الطاهر.. مقررة فى نفس الوقت أن تبقى جريدة «إسرائيل» لصاحبها ألبرت موصيرى. والتى هى لسان حال الحركة الصهيونية فى مصر !.

إن إسماعيل صدقى رئيس الحكومة. الذى قرر ذلك. كان هو نفسه إسماعيل صدقى وزير الداخلية الذى اعتقل قبل خمس سنوات كل من هتف ضد وعد بلفور عند مروره بمصر ذاهبا لحضور افتتاح الجامعة العبرية بالقدس!.

والآن. فى سنة ١٩٣٠. تقوم فرقة رياضية «فلسطينية» بزيارة مصر لإجراء مباراة مع منتخب مصر. إن احد الفلسطينيين يكتب فى مصر منبها إلى أن الفريق القادم باسم فلسطين ليس فلسطينيا. ولكنه ممثل للمستعمرات الصهيونية فى فلسطين. وعلى الفور تتصدى جريدة «إسرائيل» للرد عليه باتهام له بأنه يريد إقحام السياسة فى الشئون الرياضية : «ثم تتساءل أليس من حق اليهود أن يدعوا العروبة ؟».[٦]

إن الصوت الصهيونى يسرق فلسطين من شعبها.. داخل الساحة المصرية !. والنفوذ الصهيونى يسير فوق طريق ممهدة. داخل مصر. لا يملكها نفوذ فلسطين ! لقد احتفلت الجمعية الصهيونية فى مصر بتأبين «المرحوم اللورد بلفور» واستطرد المحتفلون أثناء التأبين

(٤) "السياسة" ١٩٢٩/٩/١

(٥) نفس المصدر

(٦) جريدة "إسرائيل" : ١٩٣٠/٤/١١

إلى السخط على تقرير لجنة التحقيق (البريطانية)..[١].. وجمعية الصهيونيين الإصلاحيين (بلغوريا) احتفلت فى مصر فى صباح الأحد بذكرى الدكتور تيودور هرتزل منشئ الحركة الصهيونية. وقد أم الاجتماع جمهور كبير من أبناء الطائفة يتقدمهم جناب السرى المسيو جاك موصيرى. ولما اكتمل عددهم وقف الأستاذ ألبرت ستراسلكى وألقى خطابا ضافيا عن حياة هرتزل، بعدها تكلم عن الحالة الحاضرة فى الصهيونية.. فدعا الصهيونيين إلى التمسك بمبادئ هرتزل لأنها خير وسيلة لتحقق آمال الشعب الإسرائيلى»[٢]. ووصل إلى فلسطين فى «يوم الاثنين الماضى سرب من السيدات اليهوديات قادمات من مصر برئاسة مدام موصيرى...»[٣]

.. ثم شىء أخطر : لقد أوفدت جريدة «المقطم» القاهرية مندوبا لها إلى فلسطين فى زيارة استغرقت عشرة أيام. زار خلالها المستعمرات الصهيونية هناك. ثم كتب عن ظاهرة أثارت اهتمامه، وهى رؤية الشباب والشابات يجوبون شوارع القدس فى نشاط و حيوية. ثم مشاهدة الشيوخ والكهول اليهود يبكون مجد بنى إسرائيل وهيكل سليمان ويصلون متوسلين آملين أن تستجاب صلواتهم لإحياء المجد الغابر.

ومندوب «المقطم» يفسر هذه الظاهرة بأنها ترمز إلى استمرار الصلة بين الأمس واليوم لدى اليهود، فالفريق الذى يبكى ويصلى لم يكن يستطيع غير البكاء. أما الفريق الآخر الذى يعمل بهمة ونشاط من أجل تحقيق ما يصلى المصلون من أجله. فالقوم بين الأمل والعمل يعيشون.[٤]

إن المندوب الذى أوفدته «المقطم» إلى فلسطين معجب بالعمل الصهيونى فى فلسطين ومنبهر به. وسوف نكتفى الآن بأن نلاحظ أن هذا المندوب، الذى وقع المقال باسمه، هو كريم ثابت – اسم – سيكون له دور خطير فى مستقبل مصر فيما بعد. وسوف نكتفى أيضا بأن نعرف أن هذا الذى استحق إعجابه هناك، فى فلسطين، هو ١٢٤ مستعمرة يهودية

(١) نفس المصدر: ١٩٣٠/٤/١١

(٢) المصدر السابق: ١٩٣٠/٧/١٨

(٣) المصدر السابق: ١٩٣١/١٢/٢٥

(٤) المقطم ١٩٣١/١٢/٢٥

أقامتها الصهيونية حتى تلك السنة (١٩٣١) و ١٧٢ ألفا و ٩٠٨ مهاجرين أتت بهم فى السنوات الخمس الأخيرة وحدها، وحوالى ٣٥ ٪ من الصناعات فى فلسطين أصبحت تسيطر عليها الحركة الصهيونية.

نفس هذه الحركة، أرسلت إلى الحكومة المصرية (نفس حكومة إسماعيل صدقى التى اعتقلت الفلسطينيين وأغلقت جريدتهم وهددتهم بالطرد) دعوة للاشتراك فى المعرض الصهيونى الذى أقامته فى تل أبيب سنة ١٩٣٢. لقد جاءت إلى القاهرة دعوة من المنظمة الصهيونية.. جاءت فى أعقابها نداءات وتحذيرات إلى الحكومة المصرية من فلسطين، تتوسل عدم اشتراك مصر فى المعرض.. ولكن أذن حكومة إسماعيل صدقى لا تسمع سوى صوت النفوذ الصهيونى. لهذا قررت أن تشترك باسم مصر فى المعرض، متعللة بأن فى هذا تسويقا للمنتجات المصرية.

ولكن المنتجات المصرية ذهبت وعادت كما هى، بغير أن تشترى منها المنظمة الصهيونية شيئا. وكتب ممثل مصر فى معرض تل أبيب فى تقريره، مفسرا ذلك الكساد الذى أصاب المعروضات المصرية قائلا: «إن أهل فلسطين وهم يمثلون ثمانين فى المائة من السكان قد قاطعوا ذلك المعرض مقاطعة تامة».[٥]

وللوهلة الأولى يبدو التغلغل الصهيونى داخل السلطة المصرية كاسحا وباترا. وهو بالفعل كان كذلك فقط حينما تكون أحزاب الأقلية فى السلطة.. وللوهلة الأولى أيضا تبدو عملية خديعة مصر عما يجرى فى فلسطين كاملة وناجحة، بالفعل كذلك ـ فقط ـ حينما يأتى الاحتلال الأجنبى أو القصر الملكى بأعوانهما إلى مراكز التأثير.. مع ذلك فإن اليقظة فى الشعور القومى بدت وهى تكتسب فى كل يوم أرضا جديدة. بدأ إيقاع الأحداث فى فلسطين نفسها أضخم من أى محاولة لاحتوائه فى مصر..

إن حزب الأحرار الدستوريين، وهو بطبيعة تكوينه وحجمه، حزب أقلية شديدة الرجعية، إذا كان قد بدأ حريصا بشدة على ممالأة النفوذ الصهيونى فى مصر. ومن ثم معاداة الشعور الوطنى فى فلسطين إلى هذه الدرجة.. فإن حزب الوفد، وهو حزب الأغلبية،

---

(٥) جريدة "كوكب الشرق" : ١٩٣٢/٣/٩

ليس كذلك.. إن حزب الوفد كلف سكرتيره العام وليم مكرم عبيد بالسفر فى صيف ١٩٣١ إلى سوريا ولبنان وفلسطين ليكرر حقيقة جوهرية لمستمعيه هناك : إن المصريين عرب.. وإن الذين ينادون بفرعونية مصر. وعدم عروبتها. لا يمثلون إلا الأقلية. وإن الأغلبية فى مصر ترى مستقبلها فى الوحدة العربية.

وعندما بدأت الصحف فى بيروت ودمشق والقدس فى نشر هذه التصريحات لممثل حزب الأغلبية المصرية، منعها إسماعيل صدقى رئيس الوزراء المصرى من دخول مصر !.. إن وليم مكرم عبيد كان صوتا آخر أدرك جوهر المشكلة حينما كتب: «إن غرض الذين يريدون إخراج مصر من مجموعة العالم العربى غرض سياسى. لفصل دولة من ١٥ مليونا لتقف سدا فى هذا العالم العربى بين شرقه وغربه»[١] مع ذلك فإن هذا الصوت يشق طريقه وسط فيضان من سحب الدخان التى يثيرها النفوذ الصهيونى فى مصر. لقد أعلنت جريدة «إسرائيل» فى مصر[٢] عن افتتاح مكتب الاستعلامات الصهيونى فى القنطرة ابتداء من أول يناير سنة ١٩٣٢ – مكتب – لتنظيم الهجرة الصهيونية إلى فلسطين !

ومحمود عزمى يرسل من مصر إلى جريدة «القدس» فى فلسطين بمقال يقول فيه إن المستعمر البريطانى هو الذى يشجع الزعماء العرب (فى فلسطين) على التطرف ضد الصهيونية ليلهيهم عما يقوم به.. وجريدة «إسرائيل» فى مصر تتلقف هذه النغمة لتؤيدها قائلة: «إن هؤلاء الذين حصروا همهم فى محاربة الصهيونية وجعلوها الشغل الشاغل لهم هم أعداء الوطن وخدام السياسة البريطانية.[٣] واجتماع كبير يتم فى القاهرة. ويتم بعده تعيين ليون كاسترو رئيسا لرابطة الدفاع اليهودية. والجمعية الصهيونية فى مصر تقيم فى القاهرة احتفالا كبيرا فى ذكرى صدور وعد بلفور و «... قد افتتح الاحتفال الأستاذ جولد مان بخطاب شائق بالعبرية عن ذكرى ٢ نوفمبر... ثم استطرد إلى الكلام عن التفاهم الذى تم بين الأحزاب الصهيونية. ثم تكلم عن واجب كل إسرائيلى بإزاء النهضة الإسرائيلية

(١) المقطم: ١٩٣٢/١٢/٣
(٢) إسرائيل: ١٩٣٢/١/٢٨
(٣) إسرائيل: ١٩٣٢/١/٨

الشـــاملة فى فلســطين.. ثم تحدث الحاخام الأكبر دافيد براند وتكلم عن الاحتفال فقال: إن هــذا التصريح – وعد بلفور – يرد إلى اليهــود حقوقهم التاريخية فى بلاد أجدادهم»[٤]
وجريدة أســبوعية صهيونية جديدة تصدر فى القاهرة (١٤ ســبتمبر ١٩٣٤) اسمها صحيفة «الشمس» لصاحبها ورئيس تحريرها يعقوب مالكى..

وســـوف يراســل هذه الجريدة من فلســطين كل من إلياس (الياهو) ساســون.. وايزاك شموس.. وموسى شيرتوك (شاريت).. وهى جميعا أسماء سوف تتكرر من جديد فيما بعد..
واحتفال آخر تقيمه الجمعية الصهيونية فى الإسكندرية فى ذكرى وعد بلفور.. واجتماع يتم فى دار حضرة صاحب الســعادة يوسف قطاوى باشا حضره فريق من علية القوم.. وتألفت (فى الاجتماع) لجنة خاصة للعمل على مساعدة الجامعة العبرية – بالقدس – وتعضيدها[٥]
وناد جديد تأسس سنة ١٩٣٥ فى مصر باسم «النادى الصهيونى» تحدث رالف هرزى فى افتتاحه عن النهضة الحديثة التى تشــهدها فلســطين وازدهرت فى وقت وجيز. ثم أشاد ســيمون مانى رئيس محفل البناى بريث بالمكانة التى وصلت إليها الصهيونية فى مصر[٦]
وجمعية جديدة باسم «جمعية الشبان اليهود المصريين»[٧].

وناد آخر تأسس فى مصر سنة ١٩٣٥ أيضا باسم «الاتحاد العالمى للشبيبة الإسرائيلى».. مقره الرئيســى فى شــارع فؤاد الأول (٢٦ يوليو). وبمقتضى قانون إنشاء هذا النادى الذى وافقت عليه الحكومة المصرية تنص المادة الخامسة على قيام النادى بتأسيس جماعة باسم «مكــس نوردو» «مهمتهــا بث الروح الصهيونية وتنبيه أبناء الطائفة إلى واجبات فلســطين عليهــم» .. ولقد أدى هذا النــادى أيضا خدمات جليلة للكثيرين من خلال التبرعات التى كان يجمعها لشــراء الأراضى فى فلسطين وإقامة المستعمرات اليهودية. مثله فى ذلك مثل باقى الأندية اليهودية فى القاهرة والإسكندرية.

(٤) جريدة الشمس : ١٩٣٤/١١/٩
(٥) الشمس : ١٩٣٥/١/١٨
(٦) صحافة اليهود العربية: ص ١٠٤
(٧) نفس المصدر : ص ١٠٨.

.. ثم كان هناك ما هو أكثر.

إن الإعلانات لاستعمار فلسطين تنشر فى الصحف الصهيونية بمصر علنا وصراحة وتحت عيون السلطات المصرية !.. هذا الإعلان مثلا : «إخوانى الإسرائيليين.. إن فلسطين تناديكم بأعلى صوتها طالبة منكم أنتم أبناؤها الأبرار أن تشتروا كل واحد منكم قطعة أرض بالنقد أو التقسيط.... الوكيل الوحيد إبراهيم يعقوب سبربيل»[1].. وهذا الإعلان: «حاييم زاديكوف.. يعرض للبيع أراضى للاستثمار الزراعى والصناعى بالقرب من مدينة حيفا.. ويسلم الكوشان - حجة الملكية - عند البيع»[2] .. وإعلان ثالث : «فى الكيلو متر ٢١ فى الطريق العمومى الممتد من القدس إلى حبرون قد أنشئت (يا عار عصيون).. وقد أسستها الشركة التعاونية (أيل هاهار).. وتمنح تسهيلات عظيمة فى الدفع من ١٣ إلى ٣٦ شهرا»..

كانت الإعلانات، بالعشرات، تنشر فى مصر. تحت سمع وبصر الجميع. وناشروها يطلبون الاتصال بهم فى مكاتبهم التى تعمل علنا فى القاهرة أو الإسكندرية أو بورسعيد.. بهدف واحد هو : استعمار فلسطين!.

أما فى فلسطين نفسها فقد أصبح الصراع على الأرض يتبلور شيئا فشيئا بين الشعب الفلسطينى والحركة الصهيونية. وفجأة تشكلت جمعية أطلقت على نفسها اسم «الجمعيات الإسلامية الوطنية» لكى تعادى الحركة الوطنية الفلسطينية بأسماء فلسطينية. جمعيات سوف يثبت بعد سنين طويلة، بل بعد قيام دولة إسرائيل نفسها. أن الذى أسس تلك الجمعيات متخفيا هو كلفرسكى الصهيونى الشهير.[3]

إن الصهيونيين يهربون الأسلحة إلى فلسطين بكميات متزايدة تحت سمع وبصر حكومة الانتداب البريطانية. ويوزعونها على منظماتهم العسكرية. وبعد أحداث ١٩٢٩ انشأوا قوة

(١) الشمس: ١٩٣٥/١/١١

(٢) الشمس: ١٩٣٥/٣/٨

(٣) الحركة الوطنية الفلسطينية : عادل غنيم: ص ١١٠

مسلحة من شباب اليهود باسم «بوليس المستعمرات» .. وحصلوا على تراخيص بتأليف فرق عسكرية تابعة للوكالة اليهودية. وكانت تلك الفرق هى النواة التى تألفت على أساسها منظمة الهاجانا. التى أصبحت فيما بعد الجيش اليهودى النظامى.[٤]

ووصل عدد اليهود الذين تم إدخالهم إلى فلسطين فى سنة ١٩٣٥ وحدها ٦١٨٥٤ مهاجرا.. وفى الفترة بين سنتى ١٩٣٠ و ١٩٣٣ فقط انتقلت أراضى جديدة إلى ملكية اليهود بلغت مساحتها ١١٨ ألف و ٤٥٣ دونما. وقد وجه كثير من اللوم إلى عرب فلسطين واعتبروا مسئولين عن بيع أراضيهم لليهود. لكن دراسة أكاديمية قيمة قام بها الدكتور عادل حسن غنيم فى جامعة عين شمس أثبتت له «بما لا يدع مجالا للشك أن عرب فلسطين لم يبيعوا لليهود بعد الاحتلال العسكرى البريطانى للبلاد إلا قسما محدودا من الأراضى بالنسبة إلى ما امتلكه اليهود فى تلك الفترة»[٥].

وقد بدأت عمليات انتقال الأراضى من يد العرب إلى يد اليهود بعد الاحتلال البريطانى للبلاد على يد هربرت صموائيل أول مندوب سام بريطانى فى فلسطين. كان صموئيل يهوديا صهيونيا اختير خصيصا لتسهيل تنفيذ وعد بلفور ومنحت الإدارة المنتدبة فيما بعد أكثر أملاك الدولة الرسمية إلى اليهود.. بالإضافة إلى ذلك فقد تمكن اليهود (فى الفترة ما بين ١٩١٧ و ١٩٣٦) من شراء أكثر من نصف مليون دونم من الأراضى الزراعية من عدد من الإقطاعيين اللبنانيين والسوريين الذين كان أكثرهم من عائلات لم يكن يهمها فى الحياة سوى الترف والتشبه بالأجانب. وكانت أول صفقة اشتراها اليهود فى هذا الشأن مساحة قدرها ثمانية آلاف دونم من عائلة سرسق اللبنانية.

وقد كان إيقاف مثل هذه الصفقات يحتاج إلى جهاز فلسطينى قوى يدخل منافسا للمؤسسات المالية الصهيونية. إن مثل هذا الجهاز تأخر ظهوره حتى سنة ١٩٣٣ حينما أنشئ البنك الزراعى العربى. الذى كان أول محاولة عربية لإنقاذ الفلاح الفلسطينى من المرابين والسماسرة. كما تأسس بعدها بسنتين صندوق الأمة العربية لنفس الهدف.

---

(٤) المصدر السابق: ص ٢٢٤

(٥) المصدر السابق : ص ٢٧١

إن الحركة الوطنية الفلسطينية كان يشتد ساعدها يوما بعد يوم. مع تزايد الخطر الصهيونى على أرض فلسطين. ومع تزايد الاضطرابات. واشتداد المعارضة الفلسطينية. ودخول الشباب الفلسطينى ساحة النضال. لجأت سلطات الاحتلال البريطانى إلى إنشاء قوة سياسية من «المعتدلين» الذين يمالئون بريطانيا. وتمثلت هذه القوة فى حزب الدفاع الوطنى الذى تأسس فى ٢ ديسمبر ١٩٣٤ برئاسة راغب النشاشيبى. بهدف معارضة القوى الوطنية الأخرى التى يتزعمها مفتى فلسطين.

مع ذلك كان الشعب الفلسطينى مازال فى حاجة إلى قيادة حقيقية تكون بيقظة وضخامة الخطر الذى يواجهه. وحينما كانت تبرز مثل هذه القيادة فإنها كانت تعبئ الشعور الوطنى خلفها بسرعة وفاعلية. كما حدث فى حالة الشيخ عز الدين القسام. الذى كان مجرد مأذون شرعى فى حيفا ولكنه يؤمن بأهمية الثورة المنظمة لمنع إقامة وطن يهودى قومى فى فلسطين.. وإن على الفلسطينيين أن يعتمدوا فى كفاحهم ضد الصهيونية على أنفسهم أولا.

لقد بدأ الشيخ القسام ثورته بمجرد عشرة من رجاله. لا يملك كل منهم سوى بندقية واحدة ومبلغا ضئيلا من المال.. وقرروا توجيه ثورتهم ضد سلطة الانتداب التى تقوم بتسليح اليهود. ثم استشهد القسام أخيرا مع رجاله فى معركة غير متكافئة ضد السلطات البريطانية فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٣٥. لكن هذا الاستشهاد ألهب المشاعر الوطنية فى فلسطين بدرجة ضخمة.. وأبت الجماهير إلا أن تسير عشرة كيلو مترات مشيعة جثمان الشهداء. الأمر الذى كان مقدمة طبيعية إلى الثورة الفلسطينية الشاملة فى سنة ١٩٣٦.

وأعلن الفلسطينيون إضرابا عاما شاملا استمر ستة أشهر مطالبين بحظر الهجرة اليهودية إلى فلسطين. ولم ينته هذا الإضراب إلا فى ١٢ أكتوبر سنة ١٩٣٦ بعد تدخل الملوك والرؤساء العرب.

لقد تصادف تزامن تلك الثورة الشعبية فى فلسطين بثورة شعبية أخرى فى مصر.. وتم توقيع معاهدة التحالف بين مصر وبريطانيا فى ٢٦ أغسطس من نفس السنة.. وهى تحد قليلا من الوجود العسكرى البريطانى .. كما تتيح نواة لبناء جيش مصرى محدود.

ولقد كان التفاعل شـديدا بين نمو الحركة الوطنية فى مصر ونموها فى فلسطين وسوريا والعراق ولبنان. وأدى تضخم الخطر الصهيونى فى فلسطين إلى دفعة جديدة لليقظة القومية فى مصر. وقد امتزجت هذه اليقظة أحيانا بمشـاعر دينية، كما فى حالة جمعية الشـبان المسـلمين (١٩٢٧) وجمعية الإخوان المسلمين (١٩٢٨).. وامتزجت أحيانا بمشاعر سياسية متطرفـة، كما فى حالة حزب مصـر الفتاة (١٩٣٦).. وامتزجت بمشـاعر ثقافية كما فى حالة الرابطة العربية (١٩٣٦).. ولكنها جميعا كانت مشاعر شعبية عارمة عبر عنها حزب الأغلبية – حزب الوفد – .. وقد وجهت تلك الجمعيات والتنظيمات يقظتها إلى فلسـطين بدرجات متفاوتة.. الأمر الذى بدأ يوقظ الشـعور الشـعبى فى مصر ليتنبه إلى ما يجرى فى فلسـطين.. التى بدأ الحديث الجاد عن تقسـيمها بين اليهود والعرب.. وتجاوبا مع هذه اليقظة عقد مصطفى النحاس رئيس الوزراء وزعيم حزب الأغلبية جلسة خاصة مع أنتونى أيـدن وزير الخارجية البريطانى أوضح له فيها إن «موطن الحرج فى موقف الأمم المجاورة لفلسطين هو أنها لا يمكن أن تغفل عن المحنة التى يعانيها القطر الشقيق».

بل إن النحاس أظهر تنبها كاملا ووعيا بأبعاد الخطر الصهيونى فى فلسطين حينما أخبر الأخير مايلز لامبسون السفير البريطانى فى مصر، يوم ٢٤ يوليو ١٩٣٧ بأنه، لا يستطيع أن يحس بالاطمئنان وهو يفكر فى قيام دولة يهودية على حدود مصر. إذا ما الذى يمنع اليهود من أن يدعوا لهم حتى حقا فى سيناء فيما بعد؟».

أخيرا.. أخيرا.. أفاقت السـلطة الشـعبية والرسمية فى مصر على ما يجرى فى البوابة الشـرقية لمصر. أفاقت لأن حزبا له الأغلبية الحقيقية، وجذور شـعبية يحس بمسـئولية نحوها، هو حزب الوفد، هو الذى يتكلم الآن باسم الأمن المصرى.

وسـعى محمد على علوبـة إلى عقد مؤتمر برلمانى فى القاهـرة (٧ أكتوبر ١٩٣٧) سمى «المؤتمـر البرلمانى العالمى للبلاد العربية والإسـلامية» أعلن فيـه بطلان وعد بلفور والمطالبة بوقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين.. عقدت هدى شعراوى رئيسة الاتحاد النسائى المصرى أول مؤتمر نسـائى عربى لتأييد فلسـطين وقام طلاب الأزهر ودار العلوم والمدارس الثانوية بمظاهرات ضخمة لأول مرة هاتفين بحياة فلسطين.

وألقى مصطفى النحاس بيانا فى مجلس الشيوخ فى ٢١ يوليو ١٩٣٧ عن الموقف المصرى بالنسبة لقضية فلسطين أكد فيه عمله«على صيانة حقوق العرب ومصالحهم فى هذه البلاد التى تشمل الأماكن المقدسة التى تربطنا بها ذكريات دينية وتاريخية مجيدة»

وكتب حافظ محمود مقالا فى جريدة «السياسة» يقول فيه: «إن فلسطين يجب أن تظل عربية[١]». وكتب دكتور محمد حسين هيكل «يلوم الذين يتهاونون فى حق فلسطين العربية[٢]».

وبعض الذين تنبهوا. أخيرا. بدأوا يلومون كل شخص إلا أنفسهم. فجريدة «السياسة» نفسها. التى رأينا من قبل كم حاولت أن تقنع قراءها بعدم خطورة ما جرى فى فلسطين. هى نفسها التى تنبه الآن بعلو الصوت إلى خطورة ما جرى فى فلسطين!

لقد بدأت الصحوة أخيرا، وبعد فوات وقت طويل طويل، وبلغت قمتها بمبادرة حزب الوفد - وقد أصبح الآن خارج السلطة - إلى افتتاح اكتتاب لمساعدة عرب فلسطين.. إن ما حدث، كما تذكر محمد حسين هيكل بعدها، هو أن ثورة الشعب الفلسطينى فى سنة ١٩٣٦ قد «هزت البلاد المقدسة وهزت غيرها من البلاد العربية، فلم تستطع حكومات هذه البلاد أن تحتفظ إلى النهاية بسياستها السلبية إزاء المشكلة الفلسطينية»[٣].

وللوهلة الأولى تبدو اليقظة القومية فى مصر هذه المرة كاملة فبعكس المواجهة الأولى مع النفوذ الصهيونى فى مصر سنة ١٩٣٥. والمواجهة الثانية فى سنة ١٩٢٩. تبدو هذه المواجهة الثالثة انتصارا على طول الخط للشعور القومى ضد النفوذ الصهيونى داخل مصر.

وللوهلة الأولى تبدو القفزة ضخمة. بين ما كانت عليه الصحف المصرية فى العشرينات وأوائل الثلاثينات.. حينما كانت تضع الأخبار العربية فى «الصفحة الشرفية» كما كانت تسميها. بل إن القفزة تبدو أضخم وأضخم بين ما تكتبه جريدة السياسة فى سنة ١٩٣٧.

---

(١) السياسة ٢٤/ /١٩٣٧

(٢) السياسة ١٩٣٧/٧/١٧

(٣) مذكرات فى السياسة المصرية : هيكل - الجزء الثالث - ص ١٦

وبين ما كانت تفعله قبلها بعشر سنوات حينما كانت تخلط بين البلاد العربية والحبشة[4].. وحينما كانت مجلة المصور تتكلم عن البلاد الشرقية باعتبارها تضم السورى والعراقى والهندى وغيرهم !.[5]

وللوهلة الأولى يبدو التغيير كبيرا.. وهو كبير بالفعل. والتنبه ضخما.. وهو ضخم بالحقيقة.

أحد مقاييس هذا التنبه هو ما فعله أحمد حسين زعيم حزب مصر الفتاة. حينما شنت صحيفة حزبه حملة شعواء على اليهود المصريين بسبب نشاطهم الصهيونى. وعندما اشتدت حدة هذه الحملة اتصل به أحد اليهود عن طريق أحد أصدقائه. وتم بينهم لقاء فى مكتب هذا الصديق حيث أعرب اليهودى عن أسفه للهجوم الذى يتعرض له اليهود فى صحيفة «مصر الفتاة» .. وشكا من مقاطعتها لإعلانات المتاجر اليهودية.

وكما يروى أحمد حسين نفسه فيما بعد. فى الرسالة الجامعية بعنوان «صحافة اليهود العربية فى مصر» فإنه «... أوضح لليهودى أن خطته تقوم على نشر إعلانات عن بضائع مصرية فقط. وانتهى اللقاء بعقد اتفاق مع مصر الفتاة يقضى بأن تنشر الصحيفة إعلانات للمحال اليهودية بشرط أن تكون بضائع وسلع مصرية فى مقابل مبلغ ألف جنيه تم دفعها مقدما لإعلانات هذه المحال».

«وفى اليوم التالى اتصل بالجريدة محل شيكوريل يطلب نشر إعلان على صفحة كاملة وسئل المتحدث : هل هذا الإعلان ضمن العقد ؟ فنفى أى علم له بهذا العقد. وأبدى استعداده لدفع ثمن الإعلان مقدما ! وتلته بعد ذلك محال بنزيون وداود وعدس التى فعلت الشىء نفسه. ففهم القائمون على أمر هذه الصحيفة أن مبلغ الألف جنيه الذى دفع إنما هو مجرد رشوة لها حتى تكف عن مهاجمة اليهود. وأن تلك المحاولة من جانب المحال اليهودية محاولة التفاف على الصحيفة بقصد استهلاك أكبر مساحة ممكنة منها فى الإعلانات وبقصد إسكاتها عن اليهود»[6]

---

(٤) السياسة الأسبوعية : ١٩٢٧/١١/١٩

(٥) المصور : ١٩٢٩/٥/١٧

(٦) صحافة اليهود العربية : للأستاذ سهام عبدالرازق العشرى: ص ١٥٥

ويذكر أحمد حسين محاولة صهيونية أخرى للسيطرة على صحيفته. فيقول: إن أليـاس سـقال. هو صاحب مكتب إعلامى فى القاهرة طلب الاشـتراك فـى «مصر الفتاة» بمبلغ ١٠ جنيهات فى مقابل الحصول على نسختين فقط. وهو مبلغ يزيد بكثير عن المبلغ الذى حددته الجريدة للاشتراكات. وذلك فى محاولة لرشوتها بهدف صرفها عن مهاجمة اليهود.[١]

ولم تكن تلك مجرد صدفة عابرة. أو أسـلوب اسـتثنائى حدث فى حالة جريدة «مصر الفتاة» وحدها.. ففى مذكراته كتب حافظ محمود يقول عن نفس الفترة: «أذكر أننى كتبت فى هذه الأثناء مقالا يوضح هذه التحركات الصهيونية فى جريدة السياسة الأسبوعية التى كنت أتولى إذا ذاك رياسة تحريرها. وعلى إثر ظهور المقال زارنى متعهد إعلانات يهودى. وبعبارة لطيفة جدا رجانى أن أكتب مقالا فى نفس الموضوع. لكن بعبارة لا تحرج اليهود.. قلت له: وما شأنك أنت ؟ فأجاب بنعومة: إن عددا من عملائه يقرأون الجريدة أو يفيدون منها. والأسـلوب الذى كتبت به المقال يعرض الجريدة للخطر.. وضحكت ساخرا من هذا الإمعة وأنا أصرفه من مكتبى. وقبل مضى أربعة وعشـرين سـاعة كانت أمامى شكوى من الإداريين فى الجريدة بأنهم عجزوا عن الحصول على الورق. ثم عجزوا عن الحصول على الحبر. فقد كانت كل هذه السـلع فى أيدى اليهود.. وعالجنا هذه المشكلة. لكننا فوجئنا باختفاء قطعة صغيرة من أجزاء آلة الطبع. وبالبحث اكتشـفنا أن للوكالة اليهودية دخلا فى هذا كله»[٢]

شاهد ثالث. هو الدكتور محمد حسين هيكل. وفى جريدة «السياسة» مرة أخرى. يقول هيكل: «... وشـعر دعاة اليهود بما قد يترتب على هذه المقاومة العربية فى فلسـطين من أثر يتجاوز بلاد كنيسـة القيامة والمسـجد الأقصى إلى ما وراءها من الأقطار العربية. فبذلوا جهودهم ليحولوا دون تأييد مصر لجارتها الصغيرة. جاءنا فى جريدة «السياسـة» يهودى بدأ يكتب عندنا مقالات فى شـئون شتى لا علاقة لها بفلسطين ولا بالهجرة اليهودية. ثم

(١) صحافة اليهود العربية: ص ١٥٦

(٢) المعارك فى الصحافة والسياسة والفكر - حافظ محمود ص ٥٩

حدثنى فى تأييد «السياسة» للحركة الصهيونية. بحجة أن العرب واليهود من الجنس السامى الذى يقاومه الأوربيون بكل قوتهم. وأن تضافر أبناء هذا الجنس صاحب الفضل الأول فى إقامة الحضارة الإنسانية يقضى على تحكم أوروبا الآرية فى أبناء الساميين. وزاد على ذلك أن «السياسة» تفيد من هذا التأييد فائدة مادية جسيمة. فاعتذرت له عن عدم إجابة مطلبه... «السياسة» جريدة حزبية طابعها إسلامى. وتأيدها للحركة الصهيونية لا يتفق مع مبادئنا. وعرض الرجل أن نجعل من «السياسة» منبرا حرا فى الاتجاه. فاعتذرت مرة أخرى بأن مصر تؤازر البلاد العربية جميعا فى المطالبة بالاستقلال وتقرير المصير. وأن «السياسة» على أية حال تفقد الشىء الكثير من نفوذها إذا أيدت حركة ضد العرب. فى فلسطين كانت أو فى غير فلسطين. وأحسب أن جهودا من هذا النوع قد بذلت لدى غير «السياسة» من الصحف. فلم تلق من الأثر خيرا مما لقيت عندنا» [٣]

هذه إذن ثلاث شهادات مؤكدة. يقرر أصحابها نوع الوسائل التى يستخدمها صهيونيون داخل مصر. مع صحف مصرية. وسائل هى خليط من الابتزاز والتهديد والإرهاب والإغراء لتحقيق أهداف سياسية تتراوح بين تأييد الصهيونية صراحة. وبين مجرد منع تأييد مصر لكفاح الشعب الفلسطينى.. وهى أهداف تقال صراحة. وعلنا. داخل صحف مصرية تصدر فى القاهرة. وهى أهداف يقرر الشهود فيها أنهم رفضوها جملة وتفصيلا.

إن اليقظة فى مصر إذن قد بلغت أقصاها.. أخيرا. لكن الحصار الصهيونى هو الآخر يبلغ أقصاه.. ففى سنة ١٩٣٦ أصدر اليهودى الصهيونى جاك رابان فى القاهرة جريدة «المنبر اليهودى» التى تدعو صراحة إلى إقامة الوطن القومى اليهودى فى فلسطين وتجمع كافة القوى والإمكانيات من أجل بلوغ الأهداف الصهيونية.. وفى سنة ١٩٣٧ مر فلاديمير جابوتنسكى على الإسكندرية. حيث اجتمع هناك بأعضاء المنظمة الصهيونية الجديدة فى مصر. ثم عقد مؤتمرا صحفيا بفندق سيسيل فى ٥ يوليو سنة ١٩٣٧ وأعلن فيه إصرار المنظمة الصهيونية الجديدة على إقامة الدولة اليهودية فى الحدود التاريخية لإسرائيل.. وأكد بأنه لا يمكن الحصول على موافقة العرب إلا بعد إقامة الدولة الصهيونية قسرا وجبرا وفرضها على معارضيها.

(٣) مذكرات فى السياسة والفكر - حافظ محمود ص ٥٩

وفى سنة ١٩٣٨ كتب أحمد حسين زعيم حزب مصر الفتاة فى صحيفة الحزب يوجه نظر الشباب إلى الخطر من تأسيس دولة يهودية على حدود مصر الشرقية. ومن إغارة جيوش لهذه الدولة مستقبلا على مصر. وعلى الفور ردت عليه صحيفة «الشمس» الصهيونية فى القاهرة. تقول: إن الخطر على مصر إنما يأتى من ليبيا. حيث حدود مصر الغربية.. وإن سكوته على عدم إثارة هذا الخطر يعتبر إهمالا خطيرا ![1] .. وفى سنة ١٩٣٩ كتبت نفس الصحيفة الصهيونية تبشر العرب بأنهم لو ظفروا بصداقة اليهود فسيكون هذا حدا فاصلا فى تاريخهم.. لأن الذكاء اليهودى والمال اليهودى سوف يساعدهم لإقامة دولة من أعظم دول المنطقة ![2] وفى سنة ١٩٤١ أسست المنظمة الصهيونية بمصر «اللجنة اليهودية للترفيه عن البحارة والجنود والطيارين» للترفيه عن الجنود اليهود. وهى برئاسة الرأسمالى اليهودى أوفاديا سالم. بينما نائبه هو ليون كاسترو رئيس المنظمة الصهيونية فى مصر.

وباسم هذه اللجنة قام يعقوب وايزمان (الذى سيصبح شقيقه أول رئيس لدولة إسرائيل بعد سنوات) بجمع الأموال وإرسالها إلى الوكالة اليهودية فى فلسطين. إن يعقوب وايزمان مديرا لشركة شل بوتاجاز بالقاهرة.. واستضاف يعقوب ويزمان فى منزله بالقاهرة موسى شيرتوك (شاريت).. الذى ياتى كل ستة أشهر لإعطاء التعليمات للمنظمة الصهيونية فى مصر. (والأخير سيصبح أيضا أول وزير لخارجية دولة إسرائيل بمجرد قيامها).

وفى سنة ١٩٤٢ أصبح الصحفى اليهودى إيلى بولينى ممثلا للمنظمة الصهيونية الجديدة بالإسكندرية ـ وهو فى الوقت نفسه يعمل رئيسا لمكتب جريدة (المصرى) فى الإسكندرية.. ونشرت جريدة «المنبر اليهودى» مقالا تعلن فيه أن التسليح ضرورة واجبة بالنسبة للشعب اليهودى لكى يعيد بناء فلسطين على نحو سريع ونهائى.. ونشرت نفس الصحيفة نداء تقول فيه «يا يهود مصر.. إن الشعلة عالية على جبل المكبر... إن الجامعة العبرية توجه إليكم نداء عاجلا لمدها بمعونتكم»

وجاء إلى مصر إسحاق بن زيفى. الذى سيصبح الرئيس الثانى لدولة إسرائيل ـ وقضى

---

(١) الشمس : ١٩٣٨/١١/١٠

(٢) الشمس : ١٩٣٩/٣/١٠

عشــرة أيام يدعو لتكاتف اليهود المصريين وراء بناء الوطن القومى فى فلســطين.. وفى سنة ١٩٤٣ وصل من القدس الدكتور التمان ممثلا للمنظمة الصهيونية ليلقى محاضرة فى مكتب الاســتعلامات الصهيونى مطالبا يهود مصر التكاتف وجمــع التبرعات لتمويل الهجرة إلى فلسطين وبلغت التبرعات التى جمعها فعلا عدة آلاف من الجنيهات.

وقــرر ليون كاســترو إعادة تشــكيل فرع المنظمــة الصهيونية فى مصر. فأصبح باســم «الاتحــاد الصهيونــى المصرى» ومقرة ١١٦ شــارع عماد الدين بالقاهرة وشــعاره هو نشــر الأهــداف الصهيونية فى فلســطين. وتتبعه لجنة التبرعات والقــروض. ولجنة للصحافة والإعلام ويشرف عليها إميل نجار المحامى.

وفى ســنة ١٩٤٤ قرر أعضــاء «محفل ابن ميمون» بمصر اختيــار حاييم وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية.. رئيســا شــرفيا له. وصدرت صحيفة صهيونية جديدة فى مصر باسم «التســعيرة» لصاحبها ألبير مزاحى.. وألقى إميل نجار محاضرة فى الإسكندرية وجه فيها نداء بالوقوف وراء الوكالة اليهودية حتى تتمكن من نصرة القضية الصهيونية. وعقد فى الإســكندرية مؤتمر صهيونى حضره ثمانون صهيونيا.. وقرر أنه فى حالة فشل الصهيونيين فى الحصول على مطالبهم فى فلسطين سلميا.. فسوف يحملون السلاح لتحقيق أهدافهم.

وأنشــئت أول مدرســة ثانوية لليهود فى مصر. أقيمت بالإسكندرية. وتبعتها فى العام التالى مدرســة أخرى بالقاهرة. ودعت الطائفة اليهودية الدكتور طه حســين لزيارة المدارس الإسرائيلية بالإسكندرية. وألقى محاضرة عن علاقة اليهود بالأدب العربى. سرعان ما سوف يستثمرها الصهيونيون لمصلحتهم. وعندما هوجم طه حسين بسبب تلك المحاضرة. تصدت صحيفة «الشمس» الصهيونية للدفاع عن طه حسين بحرارة[٣].

وفى ٦ نوفمبر من نفس السنة - ١٩٤٤ - تم اغتيال اللورد والتر موين الوزير البريطانى. فى حى الزمالك بالقاهرة.. انتقاما من سياسة بريطانيا الأخيرة بالحد من الهجرة اليهودية فى فلســطين (إن إســحاق شــامير - أحد مخططى هذا الاغتيال - سيصبح رئيسا لوزراء إسرائيل فى سنة ١٩٨٣).

(٣) الشمس ١٩٤٤/٩/٢٩

ويتذكر الدكتور محمد حسين هيكل. وزير المعارف حينئذ فى حكومة أحمد ماهر. قائلا: «كان قتل لورد موين نذيرا من الصهيونيين بأنهم لن يتراجعوا عن القيام بكل عمل يحقق أغراضهم. وقد كشفت الحوادث بعد هذه الجريمة عن صدق عزمهم على المضى فى سياسة العنف إلى نهايتها.. وتكررت مظاهر العنف فى صور مختلفة دلت على أن ويزمان وأصحابه لم يعد يكفيهم من وعد بلفور أن يكون لهم فى فلسطين وطن يأوون إليه. بل يريدون أن ينشئوا دولة فى أرض المعاد. وقد ذهب دعاتهم فى هذا إلى أنهم يريدون أن يجعلوا من فلسطين كلها دولة لهم. وقيل أكثر من هذا. أنهم قرروا فى مؤتمراتهم السرية أن تمتد دولتهم من الفرات إلى النيل».[1]

هذه إذن هى الصورة كما يراها وزير مصرى مسئول فى سنة ١٩٤٤. صورة تدرك بوضوح حجم الأهداف الصهيونية فى فلسطين. بل فى مصر ذاتها.

ماذا تفعل الحكومة ؟. هل درست ؟.. فكرت ؟.. خططت ؟.. نبهت ؟.. تنبهت ؟ لا شىء ! إنها حكومة أقلية.. ولاؤها إما للقصر أو للاحتلال. هذا كل شىء!.

إن النوم الطويل مازال مستمرا. وضجيج السلاح والإرهاب والاستعمار الصهيونى. مع ضخامته. لا يبدو كافيا لإيقاف التنويم السياسى الذى تعيش فيه السلطة فى مصر.. أكثر من ذلك.. إن شبكة التنويم تتسع وتتزايد.. فالدكتور محمد حسين هيكل. الذى لمس بنفسه فى جريدة «السياسة» من قبل سلاح الإغراء والإرهاب الصهيونى فى مصر.. والذى يدرك الآن. وهو وزير فى الحكومة. حجم الأهداف الصهيونية كاملة.. لا يبدو راغبا.. لا هو ولا الحكومة كلها.. فى اتخاذ أية احتياطات أو تدابير ضد الخطر الذى يتصاعد على الباب الشرقى لمصر.. لقد أقر حالا أن «حاييم وايزمان» وأصحابه لم يعد يكفيهم من وعد بلفور أن يكون لهم فى فلسطين وطن يأوون إليه. ومع ذلك. فها نحن نرى حاييم وايزمان هذا نفسه. قادما إلى مصر فى العام التالى كرئيس للمنظمة الصهيونية العالمية.. وقدومه علنى ومنشور فى جريدة «الشمس» الصهيونية بالقاهرة : «وصل

(١) مذكرات فى السياسة المصرية - محمد حسين هيكل ص ٢٤

إلى القاهرة د. حاييم وايزمان قادما من فلسطين تصحبه عقيلته والسيد يوسف لينيتو وسكرتير الوكالة اليهودية فى لندن».[٢]

ثـم..

صدرت صحيفة يهودية جديدة فى القاهرة باسم «الكليم» .. سوف تدعو بسرعة إلى «شحذ همم الشباب كى يهاجروا إلى تلك البلاد - فلسطين- » .. ومجلة أخرى باسم «الكاتب المصرى» - نوفمبر ١٩٤٥ - . إن المجلة يرأس تحريرها الدكتور طه حسين. عميد الأدب العربى. وهو شىء مطمئن. والمجلة تصدر عن «دار الكاتب المصرى للطباعة والنشر» . وهو شىء يمكن أن يكون عاديا.. ولكن هذه الدار يملكها أربعة من أسرة هرارى اليهودية. وبرغم أن الذين يكتبون فيها هم طه حسين وابنه مؤنس وابنته أمينه وسهير القلماوى وتوفيق الحكيم وسليمان حزين ومحمد رفعت وأحمد نجيب الهلالى وحسين فوزى ومحمد عوض وعزيز فهمى وسلامه موسى ولويس عوض وفؤاد صروف وريمون فرنسيس.. وآخرين. برغم هذا كله.. إلا أن المجلة تتعرض للهجوم من بعض الصحف المصرية. التى تتهم المجلة بأنها مجلة صهيونية تسعى للسيطرة على كبار الكتاب والمفكرين المصريين. بصرف اهتماماتهم عن أهداف الصهيونية فى فلسطين. وبأنها تسعى إلى إلهاء القارئ بموضوعات أدبية لا دخل لها بالسياسة[٣].

بل إن سلامة موسى. أحد كتاب المجلة. أرسل بمقال إلى مجلة مصرية هى «المقتطف». فرفضت المجلة نشره. مسجلة ذلك فى خطاب من إسماعيل مظهر رئيس التحرير. قال فيه بوضوح إن «المقتطف» سيجرى على خطة الامتناع عن نشر أى شىء لكاتب مصرى يتصل بمجلة «الكاتب المصرى» . وبما أن لكم مقالا فى عدد هذه المجلة الأخير. فأرجو أن تعلم أنى اعتبر هذا اتصالا يمنعنى أسفا كل الأسف من نشر مقالكم هذا...» .

ويفسر أحد الكتاب المصريين المعاصرين هذا الموقف بقوله : « ... بالطبع لم يكن هدف أصحاب هذه المجلة هو الدعاية للصهيونية. ولكن كان هدفهم أسمى وأخطر من ذلك.

---

(٢) الشمس : ١٩٤٥/٥/١٦

(٣) صحافة اليهود العربية فى مصر : ص ٧٠

ففى بلد عربى كبير مثل مصر. يتزعم الأمة العربية ويعمل زعماؤه من اجل القومية والوحدة العربية. كان لابد من القيام بمحاولات لإسكات الألسن والأقلام عن توجيه أى هجوم على اليهود أو نقد لهم أو إثارة مشكلة فلسطين على صفحات الجرائد المصرية. لأن ذلك كان سيجرهم إلى مهاجمة اليهود. وكان هذا هو ما حاولته مجلة «الكاتب المصرى»[1]

ونستطيع أن نقارن بين هذا التفسير وبين التطبيق العملى. من خلال مقال كتبه طه حسين نفسه فى المجلة (العدد الثالث – يونيو ١٩٤٦) يصف فيه رحلة قام بها من القاهرة إلى بيروت فيقدم لنا وصفا مثيرا للشفقة على المهاجرين اليهود الذين كانوا يستقلون سفينة فى طريقهم إلى فلسطين. فيقول إن هؤلاء المهاجرين «كانوا إما من الكهول المضطهدين أو من الأطفال والصبية اليتامى أو النساء الأيامى... فقد كانت السفينة تحمل ألفا أو نحو ألف من ضعاف اليهود المهاجرين من الأطفال والصبية الذين لم يبلغوا الحلم ومن النساء الأيامى.... هؤلاء البائسون يهبطون من السفينة فى نظام. ترتفع أصواتهم البائسة المتهالكة بغناء لست أدرى أكان يصور الفرح والمرح وانتصار الفاتحين. أو كان يصور الحزن والبؤس وانكسار المطرودين. أم كان يصور هذا كله فى وقت واحد»!.

إن القارئ المصرى الذى قرأ هذه الكلمات لأديبه الكبير كان يقرأ خداعا كبيرا انتقل إليه فى اللحظة التى دخل فيها بناء الدولة الصهيونية على حدود مصر مرحلته الأخيرة.. ونحن ربما نغفر للقارئ أن ينخدع.. ولكننا لا نغفر أبدا لأديب كبير أن ينخدع. فخديعته التى تتم مرة واحدة. تقود إلى خديعة جديدة مع كل قارئ جديد.

لكن هذا النموذج كان متماشيا تماما مع الإطار السياسى العام. فى بلد يقوم على حدوده خطر يمس أمنه ومستقبله.. مع ذلك ففى كل مرة يتاح له أن ينتبه ويستيقظ. يجد من يدير له عينيه فى اتجاه أخر.. إن هذا الإطار كان متكررا فى الدول العربية جميعا.. ومع ذلك فإن زاوية اهتمامنا هنا هى مصر بالذات. باعتبارها الدولة الأكبر والتى يتوقف أمنها مباشرة. وطوال تاريخها كله. على ما يجرى بفلسطين.. وإذا لم تكن مصر نفسها تدرك ذلك فى الوقت المناسب.. فإن عدوها القادم أدرك ذلك مبكرا.. ومن هنا كان تركيز وضخامة

---

(١) صحافة اليهود العربية فى مصر : ص ٢٦٠ (والكاتب هو الأستاذ/ محمد فهمى عبداللطيف)

النشـاط الصهيونى فى مصر.. نشـاط كان الحد الأقصى لأهدافه هو الحصول على موافقة مصر على ما يجرى فى فلسطين.. والحد الأدنى هو تحييد مصر – أو بعبارة أخرى تخدير مصر – بالنسبة لما يجرى فى فلسطين.

ومن المثير هنا أن عملية التخدير هذه مستمرة.. لقد استطاعت عدة أسر رأسمالية يهودية أن تتحكـم فـترة طويلة فى الاقتصاد المصرى.. أسـر وعائلات مثل عائلـة رولو.. وعائلة قطاوى.. وعائلة شـيكوريل.. وعائلة جاتينيو.. وعائلة جرين.. وعائلة منشة.. ومزاحى.. وسوارسـى.. وموصيرى.. وغيرهم.. أسـر اسـتطاعت أن تسـاهم فى – وتوجيه – ١٠٣ شـركات من مجموع الشركات البالغ عددها فى مطلع الأربعينيات ٣٠٨ شركات.. إحدى هذه الشـركات كانت شركة الإعلانات الشـرقية. إنها كانت «مصرية فى الظاهر ويهودية فى الباطن» قامت بدور كبير فى التأثير على الصحف المصرية. فعلى الرغم من أنها كانت مملوكة لرجل يدعى تركى فينى. إلا إنه استعان فى تسيير أعماله بكثير من اليهود الذين كان منهـم مندوبون للإعلانات وكتاب فى الصحف الأجنبية التى أصدرتها الشـركة»[٢].. وكان هنرى حاييم مدير الشـركة يحتفظ بعلاقات وثيقة بالصهيونيين فى فلسـطين.. وهو الذى كان يسـهل حصول الصحف الصهيونية واليهودية فى مصر على الورق «ومن بينها مجلة الكاتب المصرى»[٣]

إن وجود نفس هذا المدير الواحد فى الشركة أدى إلى وجود طريق سهل « .. للصحف الصهيونية التى تصدر فى مصر.. للحصول على حاجتها من الورق. فى الوقت الذى كانت تعانى فيه البلاد من أزمة فى ورق الصحف خلال الحرب العالمية الثانية.. ولكن الشـركة كانت تمنح الورق من تشـاء وتمنعه عن من تشـاء : فقد قامت بتزويد صحيفة «الشـمس» والمستشفى الإسرائيلى ومجلة «الكاتب المصرى» بحاجتها من الورق برغم صدور قانون أثناء الحـرب يحـرم بيع ورق الصحف والاتجار فيه. ويعفى وزارة التموين من مسـئولية توفير الـورق للصحـف الجديدة – إلا أن مجلة (الكاتب المصـرى) التى صدرت بعد هذا القانون

(٢) صحافة اليهود العربية فى مصر : ص ٢٥٦

(٣) المصدر السابق : ص ٢٥٧

استطاعت أن تحصل على حاجتها من الورق عن طريق هذه الشركة» واستطاع هذا المدير الصهيونى الواحد، فى شركة الإعلانات الشرقية، أن يقوم بتعيين موظفين فى الصحف التى تشرف عليها الشركة للقيام بالدعاية الصهيونية بين اليهود المصريين. ولإعطاء انطباع للجاليات الأجنبية فى مصر بقبول الرأى العام المصرى للمشروع الصهيونى فى فلسطين.. وعلى رأس هؤلاء «ديلور» رئيس تحرير جريدة «البروجريه اجيسيان». وحكيم رئيس قسم الإعلانات.

وفى تلك السنوات الحاسمة من الأربعينات، وبينما يكتمل على أرض فلسطين مشروع إقامة الدولة الصهيونية، لم يكن يعلم الكثيرون، كما يشير حافظ محمود فى مذكراته، أن «الوكالة اليهودية العالمية كانت لها مكاتب فرعية فى العواصم العربية الكبرى كالقاهرة وبغداد. وظلت قائمة إلى ما قبل دخول الدول العربية معركة فلسطين فى سنة ١٩٤٨. كانت هذه المكاتب تحمل ظاهريا الطابع الصحفى. أما باطنها فكان يتسع للكثير. وكان فى مقدمة هذا الكثير تقديم المعلومات المزيفة عن طريق نساء يوهمن الساسة العرب أنهن يعملن لحسابهم. أما أخطر مهمة لهذه المكاتب فقد كانت مراقبة التحركات العربية وعرقلة ما يكون فيها من يقظة مضادة للتحركات الصهيونية التى سبقت قيام إسرائيل».[1]

إن الهدف فى مصر إذن، من زاوية اهتمامنا هنا، كان هو «عرقلة ما يكون فيها من يقظة مضادة للتحركات الصهيونية» .. ثم إسداء نصيحة للمصريين بأنه «ليس من مصلحة بلدهم أن تكون المسألة الفلسطينية موضع مناقشات حزبية» وأقصى ما يجب على مصر أن تفعله هو أن بمقدورها أن تعطف على فلسطين بالطرق السياسية لأنها «مسألة بعيدة عنها»[2]

والأولوية فى تنفيذ هذه الأهداف هى الصحف المصرية، ليس فقط لأنها تصدر فى مصر، ولكن لأنها موزعة ومؤثرة فى البلاد العربية. إن أميل نجار هو رئيس لجنة الصحافة والإعلام بالاتحاد الصهيونى فى مصر وعليه أن يضاعف من تنسيق التغلغل بأقصى سرعة فى الإعلام المصرى.. مع اقتراب البناء الصهيونى فى مصر من درجة الاكتمال.

(١) المعارك فى الصحافة والسياسة والفكر : ص ٥٩
(٢) صحيفة الشمس : ١٩٣٨/٥/١١

كان السكرتير العام لنقابة الصحفيين المصرية. واسمها حينئذ «رابطة الصحفيين» . يهوديا صهيونيا. هو جاك رابان.. الذى أصدر جريدة «المنبر اليهودى». (وبعد قيام إسرائيل سنكتشف أنه كان قد هاجر إليها وعمل فى صحافتها الصادرة بالفرنسية).. ومدير شركة الإعلانات الشرقية – كما رأينا – هو يهودى صهيونى آخر : هنرى حاييم.. ومدير مكتب جريدة «المصرى» بالإسكندرية – وهى الجريدة الأكثر انتشارا فى مصر–يهودى صهيونى. ومدير الإعلانات بمؤسسة دار الهلال. أكبر مؤسسة صحفية فى مصر حينئذ هو ألبير انكونا – يهودى صهيونى أخر. هو فى نفس الوقت رئيس تحرير مجلة «إيماج» .. ومدير الإعلانات فى جريدة «الأهرام» – الصحيفة التالية فى مصر – هو يهودى صهيونى من أصل إسبانى اسمه ايخمان. وفى جريدة «الأساس» يهودى صهيونى آخر اسمه كوهين.. ورئيس تحرير جريدة «البورصة» بالإسكندرية. والمستشار المالى لجريدة «جورنال ايجيبت» بالقاهرة هو روبير بلوم – يهودى صهيونى آخر «.. وكان أبراهام هرارى صحفيا بارزا فى مجلة «ايماج» .. وايلى بولينى هو متعهد توزيع جريدة «المصرى» فى الإسكندرية..وهنرى كوريل. وكانتر دفيتش يرسمون الكاريكاتير فى الصحف المصرية ثم عدد كبير من المراسلين فى الصحف والإذاعة المصرية.

إن رائحة هذا التغلغل تفوح إلى مسافة بعيدة. لدرجة أن مجلة «الحرية» فى فلسطين كتبت عن نموذج واحد لها حينما قالت فى سنة ١٩٤٦ إن مؤسسة «دار الهلال» تتخذ موقفا غامضا من مشكلة فلسطين وتهمل جانب العروبة. وما ذلك إلا لأن مديرى الإدارات المسيطرين عليها من اليهود الحاملين للجنسية المصرية.[٣]

وصحيفة «الشمس» الصهيونية فى القاهرة تنشر فى سنة ١٩٤٩ بقلم سيمون مانى رئيس محفل البناى بريث فى مصر شكرا إلى الدكتور طه حسين والدكتور محمد حسين هيكل. على كلمات العطف التى سمعها منهما عندما شكل اليهود فى مصر رابطة لمقاومة الهتلرية».[٤]

ولم يكن كسب الأنصار. ولا تحييد الأقلام الكبيرة. هو الأسلوب الوحيد الذى اتبعه النفوذ

---

(٣) رسالة من فلسطين بحيفا إلى محرر أخبار اليوم فى ١٩٤٦/٩/١٩

(٤) صحيفة الشمس : ١٩٤٤/٧/٢١

الصهيونى فى مصر فى تلك الفترة الحاسمة.. إن «جمعية الشبان اليهود المصريين» مثلا امتد نشاطها ليشمل دور الصحف المصرية بحيث إن أعضاءها كانوا. يقظين دائما. فهم يتصفحون الجرائد اليومية. ويولون زيارة إدارات الصحف باذلين المساعى لديها لتحسين لهجتها نحو اليهود... وبالرغم من قيام الثورة فى فلسطين عام ١٩٣٦. لم تغير الصحف المصرية لهجتها نحو اليهود ونحو الجمعية.. كما تمكنت الجمعية من تغيير لهجة الصحف بالنسبة لليهود فأبدلتها من الانتقاد إلى المديح. وذلك بفضل الجهود التى بذلها هنرى نسمان ورفائيل سقال نائب رئيس الجمعية».[١]

وأسلوب آخر.. هو إرهاب الصحف.. !

فقد وجهت صحيفة «الشمس» الصهيونية التى تصدر فى القاهرة.. اتهاما إلى بعض الصحف المصرية أنها تتعامل مع مكاتب الدعاية التى تخص دولا أجنبية تسعى للنشر ضد اللاجئين اليهود. فذكرت أن مجلة «المصور» نشرت صورا للاجئين اليهود عند وصولهم إلى فلسطين ووجه الخطورة فى تلك الصورة. كما تراه المجلة الصهيونية فى القاهرة. هو أنها تعطى انطباعا بأن هؤلاء «اللاجئين» أقرب إلى أن يكونوا جماعة من المصارعين !. لقد أسرعت الوكالة اليهودية فى القاهرة إلى تكذيب تلك الصورة قائلة إنها لا تصور اليهود المهاجرين. وإنما هى صور قصد بها الدعاية فقط.

واعتراض صحيفة«الشمس» الصهيونية هو أنه برغم هذا «التكذيب» من الوكالة اليهودية فقد عادت مجلة أخرى فى القاهرة إلى نشر الصورة نفسها مع المعنى المقصود نفسه. مما يدل على أن هناك مكتبا تابعا لدولة أجنبية تسعى لنشر دعاية ضد «اللاجئين» وتتعامل معه هذه الصحف المصرية.[٢]

هكذا توجه الصحيفة الصهيونية فى القاهرة اتهاما بالعمالة ضد صحف مصرية تصدر فى القاهرة.. بسبب صور اعترفت بها الوكالة اليهودية وبررتها بأغراض دعائية.

وأسلوب أخر : تحريض السلطات ضد أى كاتب يهاجم الاستعمار الصهيونى فى

---

(١) صحيفة الشمس : ١٩٣٦/١/٣

(٢) المصدر السابق ١٩٤٦/٨/١٦

فلسطين.. إن الحجة هى : إن اليهود ليسوا مسئولين عما يجرى فى فلسطين.. ولهذا فإن أى انتقاد لليهود هو انتقاد لمن لا دخل له ولا خطر منه.. وهو فى النهاية تحريض على إثارة فتنة طائفية وتهديد للوحدة الوطنية فى مصر !

هكذا طالبت صحيفة «الشمس» اليهودية. فى عددها الصادر فى ٩ يناير سنة ١٩٤٨. باستخدام مادة جديدة فى التشريع المصرى تمنع التحريض.. حتى «تصان الوحدة القومية».. وكان من نتيجة هذه الحملة أن اتخذت هيئات مصرية إجراءات فعلية استجابة لها. فأصدر مجلس إدارة الإذاعة المصرية برئاسة وزير الشئون الاجتماعية عدة قرارات هامة منها: الحفاظ على استقلال المحطة. وعدم السماح بإذاعة أخبار أو أحاديث تتصل بالتحريض الدينى أو تأليب طائفة على أخرى من الطوائف التى يتكون منها شعب مصر.

لم يكن المطروح هو قضية دينية. ولكن قضية سياسية. ومع ذلك فقد أدت الحملة الصهيونية - تحت عباءة الدين - من استخراج تلك القرارات. ثم أسرعت صحيفة «الشمس» إلى الترحيب بها على الفور.

إن التاريخ الذى يحمله ترحيب الصحيفة هو ٥ مارس ١٩٤٨ - أى قبل شهرين وعشرة أيام من قيام الدولة الصهيونية فى فلسطين.. مع ذلك فتلك هى حال النشاط الصهيونى فى مصر !.

لقد كان هناك أيضا «.. تشويه صورة الخصم الذى تتجه إليه الدعاية -الصهيونية- للقضاء عليه وعلى مواقفه. فقد اتهمت صحيفة «إسرائيل» مثلا الحاج أمين الحسينى مفتى القدس بأنه شيوعى. وبأنه يخدم مصالح الاتحاد السوفيتى فى المنطقة.. على حين اتهمته صحيفة (الشمس) بأنه على علاقة بالنازيين فى ألمانيا. كما اتهمت الصحفيين المصريين الذين يهاجمون اليهود والصهيونية بأنهم : إما أن يكونوا فاشيين أو مرتشين. أو يسعون لترويج بضاعتهم عن طريق إثارة الاضطرابات والفوضى»[٣]

كان لهذا كله نتائج أساسية وخطيرة.. فقد أحكمت تماما عملية التعمية السياسية على الرأى العام المصرى. لفترة بدت طويلة بطريقة مثيرة. إن جدول الأصدقاء والأعداء المطروح

---

(٣) صحافة اليهود العربية فى مصر : ص ٢٦٨

على الرأى العام المصرى قد انعكس بشـدة بحيث إن التنبه للخطر الصهيونى فى فلسطين لم يأخذ حجمه الطبيعى أبدا.

وفـى دراســة على تلـك الفترة بعنــوان «اتجاهــات الصحافــة المصريــة إزاء القضية الفلســطينية»... للدكتــورة عواطف عبد الرحمــن.. تبدو لنا عدة نتائج مثــيرة.. فالباحثة رأت أن الدعايــة الصهيونيــة فى مصــر. قد اعتمدت فى الدرجــة الأولى. وخلال مرحلة مــن المراحــل. على صحــف مصرية.. فى مقدمتهــا «المقطم» و «الأهــرام». وحينما كانت صحيفة مثل «المقطم» تضطر أحيانا إلى نشر وجهة النظر الفلسطينية. لإعطاء انطباع وهمى بالحياد.. فإنها كانت تحتفظ بالنسبة الأكبر للصهيونيين.. بحيث بلغت النسبة مرة واحدة لكل كاتب فلسطينى.. مقابل ثلاث مرات للكاتب الصهيونى !

لقـد لاحظت الباحثــة أولا أن الصحف فى مصــر بالدرجة الأولى تعكــس ثقافة واتجاهات -ولابد أن أضيف انتماء - رؤســاء تحريرها.. فجريدة «المقطم» كانت تعكس اتجاه فارس نمر.. و «الأهرام» تعكس اتجاه داود بركات.. و «السياسة» تعكس اتجاه الدكتور محمد حسين هيكل.. و«البلاغ» تعكس اتجاه عبد القادر حمزه.. و «كوكب الشــرق» تعكس اتجاه أحمد حافظ عوض.. و «الاتحاد» تعكس اتجاه إسماعيل صدقى.. و «مصر الفتاة» تعكس اتجاه أحمد حسين.. الخ.

ولاحظــت الباحثة. من دراســتها للفترة ما بــين ١٩١٧ و ١٩٤٨. إن جريدة «كوكب الشــرق» ... ويليها جريدة «البلاغ» هما أكثر الصحف المصرية اهتماما بالطرف الفلسطينى فى الصراع على أرض فلســطين.. ويرجع هذا إلى انتمائها إلى حزب الوفد الذى كان يمثل قيــادة الحركة الوطنية فــى مصر. بالإضافة إلى الاتجاهات الإســلامية والعربية التى كان يتبناها رئيسا تحرير هاتين الصحيفتين.

أما فيما يتعلق بالطرف الصهيونى فى الصراع.. فإن جريدة «المقطم» وجريدة «الاتحاد» وجريدة «السياسة» كانت أكثر اهتماما بالطرف الصهيونى فى الصراع.. الأمر الذى أرجعته الباحثة إلى الانتماء السياســى لتلك الصحف. «فالمقطم» لســان حال الاحتلال البريطانى.. و «الاتحاد» لســان حال الرأى.. و «السياسة» لســان حال الأحرار الدستوريين وهو حزب كبار الملاك المهادن للإنجليز.

ولكـــن. أخطر ما خرجت به الباحثة من دراســتها هــو : «أن الحركة الصهيونية فى مصـــر – كانـــت ـ تحظى باهتمام ورعاية الســلطات الحاكمة – فـــى مصر – فى حين أن الجاليات الفلســطينية والعربية كانت تلقى تعنتا شــديدا فى الدعاية للقضية الفلسطينية. وأحيانـــا كانت تتلقى تهديدات بالطرد. وكثيرا ما تعرضــت صحفها للإغلاق والمصادرة. وتجسد جريدة «الشورى» وصاحبها محمد على الطاهر هذه المرحلة جيدا» .

ولو نحينا سوء النية جانبا. وما يتفرع عنه من نتائج خطيرة على أمن مصر ومستقبلها. فإن هذه السلطة الحاكمة التى تشير إليها الدراسة الأكاديمية كانت متعرضة لخداع مستمر. وتخدير مســتمر. يمنعها من رؤية الخطر أمامها.. بل تحـــت قدميها..إن الصوت الواحد الذى كان يشـــق بحر الصمت منبها للخطر. كان يتعرض فورا للتشهير ومحاولة التلويث. كما حدث فى حالة ســؤال برلمانى تقدم به الدكتور حســـين حمد الله المراغى نائب دائرة كرمـــوز بالإســـكندرية إلى رئيس الوزراء. إن نص الســؤال هو : «مـــاذا فعلت الحكومة من الإجراءات إزاء اليهود المقيمين فى مصر ؟. هل قاموا بما يجب عليهم كمصريين من مد يد المعونة لمنكوبى فلســطين ؟. وما مقدار المســاعدات التى قاموا بها إلى الآن ؟. وهل لم تفكر الحكومة فى الحد من نشـــاط الكثير منهم نحو مســـاعدتهم الصهيونية فى تهريب الأموال الطائلة والأسلحة لهم واستعمال محطات الإذاعة السرية ؟

هذا هو نص السؤال..

ونحن فى أواخر ســنة ١٩٤٧.. وبسرعة ترد جريدة يهودية صهيونية يفترض من البداية ألا علاقة لها بالسياســـة. وهى جريدة باسم «التسعيرة» ويصدرها ألبير مزراحى. وهى تنشر ردهـــا تحت عنـــوان «أيها الغائب المتحامل على يهود مصر ماذا تبرعت – أنت – به لعرب فلسطين ؟»

إن الجريدة تســـخر بعـــد ذلك موجهة كلماتها إلى النائب المصـــرى الذى «تجرأ» على تقديم هذا السؤال فتقول : «هل تبرعت حضرتك شخصيا بشىء لهؤلاء المنكوبين من عرب فلسطين ؟ وما هو ؟ وما مقدار ما تبرع به حضرات النواب وحضرات الشيوخ والألوف المؤلفة من أغنياء مصر مســـيحيين ومســـلمين ؟» إن الجريدة تنشر ردها هذا. أو سخريتها هذه فى

١٢ يناير ســنة ١٩٤٨.. وهذا النائب الواحد هو مجرد تعبير عن الأصوات التى استطاعت أن تخترق حاجز التعمية الذى فرضه النفوذ الصهيونى فى مصر.

فبعد الثورة الفلســطينية فى ســنة ١٩٣٦ بدأ بعض النواب يفيق على حجم ما يجرى فى فلســطين. ومن ثم بدأوا يعــبرون عن قلقهم للحكومة تحت قبة البرلــان.. إن النائب محمد أبو رحاب وجه سؤاله فى مجلس النواب (جلسة ٣١ مايو ١٩٣٧) إلى رئيس الوزراء عن أهمية فلســطين وخطر تقســيمها.. ووقتها رد عليه مصطفى النحاس رئيس الوزراء بأن الحكومة لا تزال تســعى لدى الدول الحليفة ـ يقصد بريطانيا ـ ونأمل خيرا فى مســاعيها.. بعدها تقدم النواب محمد عبد اللطيف دراز وعبد المجيد سعيد ومحمود لطيف بأسئلة فى نفس الاتجاه.

وفى مجلس الشــيوخ تتابعت الأســئلة من محمد حســين هيكل (الذى قدم استجوابا عن سياســة الحكومة إزاء الوضع الجديد لفلســطين ورد عليه مصطفى النحاس فى جلسة ٢٠ يوليو ١٩٣٧.. والشــيخ عبد الســتار الباســل الذى تحدث عن «المجازر البشرية التى تحدث على حدودنا» فى فلسطين..

وهذه الأصوات الفردية تتزايد يوما بعد يوم.. فى جلسة ١٤ مايو سنة ١٩٤٦ مثلا استنكر النائــب محمد فكــرى أباظة تقرير لجنــة التحقيق الأمريكية البريطانية الــذى ينفى عروبة فلسطين.. وذكر أن الدول العربية بايعت مصر بالزعامة فيجب أن تكون فى أول الصفوف.. خصوصا وأن فى وجود دولة صهيونية فى فلســطين خطورة سياســية واقتصادية. يجب أن تواجهها مصر بتأليف جيش عربى موحد.. لأن العنف لا يمكن أن يواجه إلا بالعنف.

فى نفس الجلسة قفز نائب آخر. هو عبد الحليم أبو سيف. بالمناقشة إلى نقطة أبعد.. حينما لام الأعضاء لأنهم لم يعملوا جديا من اجل فلســطين. ودعا إلى مســاعدة حقيقية للشعب الفلسطينى. قائلا إنه لا يدرى لماذا لم تعتمد الحكومة مليونا من الجنيهات لإنقاذ أراضى فلسطين ؟ هل هى حالة صهينة. أم تأثير للصهيونية على الحكومة المصرية ؟

ولقد كان هذا السؤال فى الواقع هو جوهر الموضوع !

إنه جوهر الموضوع لأن الاختراق الصهيونى لم ينجح من البداية فى تركيزه على تحييد مصــر وتعميتهــا عما يجرى فى فلســطين إلا من خلال أصوات الأقلية. وســياســى القصر

والاحتلال. الذين بدأت مصالحهم بالارتباط بالاحتلال الأجنبي فانتهت إلى الارتباط بالصهيونية.. مع هؤلاء فقط كان النفوذ الصهيوني يجد لغة مشتركة للتفاهم.. وهم. من جانبهم. ومع افتقادهم لجذور شعبية من البداية. كانوا يقنعون أنفسهم بأن الخطر ليس قائما في فلسطين. وإذا كان قائما. فهو ليس عاجلا.. وإذا كان عاجلا. فإنه ليس من شأن مصر أن تتصدى له.. لأن على مصر أن تتطلع إلى أوروبا وتبتعد عن عالمها العربي.. أو عالمها «الشرقي» كما كانوا يسمونه!.

وبقدر نجاح الصهيونية في شق طريقها إلى هذا النوع من السياسيين. فإنها فشلت دائما في التسلل إلى الجانب الأخر – جانب الأغلبية – فحزب الوفد مثلا. وهو حزب الأغلبية الشعبية الطاغية في مصر وقتها. كان أكثر يقظة لما يجرى في فلسطين. لأنه في الواقع كان أكثر إدراكا لمسئوليته عن أمن مصر ومصالحها الحيوية. وصحف حزب الوفد كانت هي التي تصدت قبل غيرها للاستعمار الصهيوني في فلسطين. وهي التي بادرت في سبتمبر ١٩٣٨ إلى فتح اكتتاب لصالح الشعب العربي في فلسطين.

ومصطفى النحاس. زعيم حزب الوفد. كان هو الذي أدرك مدى ارتباط أمن مصر بما يجرى في فلسطين. إن قيامه بالتفاوض مع بريطانيا لحل «القضية المصرية» سنة ١٩٣٦ لم يمنعه من أن يثير أيضا «القضية الفلسطينية» ... فكلتا القضيتين وجهان لعملة واحدة. ولقد ظل النحاس على هذا الموقف. حتى وهو خارج السلطة. بل لعله السياسي البارز الوحيد الذي ذهب بالفعل إلى فلسطين خصيصا لكي يقف بنفسه على حجم الخطر هناك. لقد استقل رئيس الوزراء مصطفى النحاس القطار من القاهرة في ٨ يونيو ١٩٤٣ فوصل إلى القدس في اليوم التالي في زيارة غير رسمية لفلسطين استمرت ثلاثة أيام.. حيث استقبله أهالي فلسطين هناك استقبالا شعبيا حارا.

بعدها شرح النحاس. في كلمته التي ألقاها بمجلس الشيوخ في ٩ أغسطس سنة ١٩٤٤ إنه في تلك الفترة نفسها كان يتبادل المذكرات مع الحكومة الأمريكية. مسجلا للولايات المتحدة اعتراض مصر على المساعدة الأمريكية لبرنامج الهجرة اليهودية إلى فلسطين.. ولكن القصر والاحتلال لم يكن ليسمحان لحزب الأغلبية بأن يبقى في السلطة طويلا.. وهكذا

ســرعان ما أقيل مصطفى النحاس مرة أخرى فى ٨ أكتوبر ســنة ١٩٤٤. برغم أن هذا لم يمنعه وحزبه بالطبع من الوقوف بالمرصاد لتغافل حكومات الأقلية التى تبعته عن النشــاط الصهيونى فى فلسطين. بل وفى مصر ذاتها.

ولقد تجاوز الأمر مجرد التغافل إلى ما هو أكثر. ففى سنة ١٩٤٦ - وكانت الحكومة التى فى السلطة برئاسة إسماعيل صدقى - وصل إلى مطار القاهرة مفتى فلسطين الحاج أمين الحســينى، وأصيب إسماعيل صدقى بارتباك شــديد.. فهو لا يســتطيع السماح للمفتى بممارســة نشاط سياسى ضد الصهيونية فى مصر لأن هذا لا يتماشى مع المصالح الصهيونية، وفى نفس الوقت هو لا يجرؤ على منع المفتى من الدعوة للقضية الفلسطينية خوفا من غضب الشعب المصرى الذى كان قد قام بالفعل بمظاهرات دامية ومدوية ضده.

لكن خيال إسماعيل صدقى يســعفه دائما بالحلول الوســط. لقد صدر بيان عن مجلس الوزراء يعلن الترحيب بقدوم الحاج أمين الحســينى. ولكنه يشــير أيضا إلى أن «سماحته» لا شــك يقــدر المرحلة الدقيقة التى تجتازها مصر فى ظل «الهــدوء والنظام» والتفاوض مع بريطانيا !.. ولمزيد من التأكد. أذيع بيان باسم المفتى نفسه. يعلن فيه إنه هو الذى اختار عدم ممارسة نشاط سياسى أثناء زيارته هذه إلى مصر !

وكان الذى أذاع هذا البيان هو كريم ثابت. المستشار الصحفى والإعلامى للملك فاروق!. إن كلا مــن كريــم ثابت. من موقعه فى القصر الملكــى. وإسماعيل صدقى. من موقعه فى رئاســة الوزارة. كانــا ينطلقان من نفــس المصلحة. ويتجهان إلى نفــس الهدف - تعمية الــرأى العــام المصرى عن حجم الخطر الذى يتضخم فى فلســطين. تعمية. يحركها مزيج من المعتقدات الشــخصية والارتباط بالمصالح الصهيونية فى مصر. والعداء لكل ما هو عربى والإيمان بأن أولئك اليهود هم الأجدى لأنهم متحضرون وأثرياء.. ! وسوف نعرف فيما بعد ما هو المعنى الدقيق لذلك بالنسبة لكل منهما.

لكن المهم أنه فى نفس السنة. ١٩٤٦ أرسلت المنظمة إلى مصر مندوبا على مستوى عال لكى يتفاوض مع هذا النوع بالذات من سياســى القصر والاحتلال والأقلية. وفى مقدمتهم إسماعيل صدقى رئيس الوزراء.

وهكذا جاء إلياس (الياهو) ساسون إلى مصر. وكان وقتها يشغل وظيفة السكرتير الشرقى للشعبة السياسة فى الوكالة اليهودية ـ نفس الوكالة التى تكثف جهودها لاستعمار فلسطين وتمويل وحدات «الهاجانا» المسلحة. التى ستصبح وشيكا هى الجيش الإسرائيلى المواجه للجيش المصرى على أرض فلسطين – جاء ساسون إلى القاهرة فى سبتمبر ١٩٤٦. واجتمع بإسماعيل صدقى رئيس الوزراء فى القاهرة لكى «يبحث معه القضية الفلسطينية». ولقد روى ساسون ما جرى فى الاجتماع بعد ذلك إلى القنصل اللبنانى العام فى القدس أثناء اجتماعهما معا فيما بعد (وأرسل القنصل تقرير الاجتماع إلى وزارة الخارجية اللبنانية فى ١٠ مارس سنة ١٩٤٧). وطبقا لرواية ساسون فإن إسماعيل صدقى قال له : «إننى شخصيا لا أرى غير تقسيم فلسطين بين اليهود والعرب. وأنا أؤيد هذا التقسيم. وقال له ساسون: إننا. كيهود. نرضى بهذا الحل. ولو أن فيه تنازلا عن أمانى كثيرين منا. والتقسيم لا يخيب فى الواقع آمال العرب. فهو يعطيهم دولة ولا شك على جزء كاف من فلسطين تعترف لهم الدول الكبرى باستقلالها. وتقبلهم فى هيئة الأمم المتحدة. ومن ثم يقضى هذا على فكرة (إقامة) سوريا الكبرى التى تقض مضاجع بعض الدول العربية. ونحن من جانبنا مستعدون لأن نعترف باستقلال الدولة العربية الجديدة (فى فلسطين) اعترافا لا رجعة فيه.. !

ورد عليه إسماعيل صدقى : إننى مستعد لحث الدول العربية على قبول مشروع تقسيم فلسطين.. إذا كلفنى الإنجليز بذلك !

وبالطبع لم يكلفه الإنجليز بذلك لأنهم كانوا يحسبون جيدا حساب المعارضة الشعبية الكاملة فى ذلك الوقت لتقسيم فلسطين واقتطاع جزء منها يقيم عليه يهود وافدون من أوروبا دولة مستقلة. معارضة كانت تعم البلاد كلها. ومصر فى مقدمتها.

فبرغم كل هذه الأصوات. والأصوات المبكرة التى سبقتها قبل سنوات.. وبرغم أن عشرة من أعضاء مجلس الشيوخ قد افتتحوا مناقشة فى ديسمبر ١٩٤٧ عن خطورة ما يجرى فى فلسطين.. وبرغم أن رئيس مجلس الشيوخ نفسه (وكان وقتها هو الدكتور محمد حسين هيكل) قد سجل باسم المجلس قرار استنكار لمشروع تقسيم فلسطين الذى أقرته الأمم

المتحدة.. وبرغم أن شخصيات مصرية مؤثرة بدأت تدعو فى نوفمبر سنة ١٩٤٧ إلى جمع المال والسلاح للمتطوعين الذين بدأ تجنيدهم شعبيا فى مصر لإنقاذ فلسطين.. وبرغم أن تلك الشخصيات كانت تضم محمد على علوبة. وحسن البنا. وصالح حرب. وغيرهم.. وبرغم أن الكتائب الشعبية الأولى من المتطوعين المصريين قد بدأت طريقها فعلا إلى أرض فلسطين.. وبرغم أن الدولة الصهيونية فى فلسطين لم يعد يفصلها عن قيامها رسميا سوى شهور قليلة..

أقول إنه برغم هذا كله فإنه : يعرض فى مصر أول فيلم صهيونى أتى به اليهودى الصهيونى المصرى توجو مزراحى وهو فيلم بعنوان «بيت أبى» ويبين التقدم الذى أحرزه اليهود فى فلسطين منذ ١٩١٧ إلى ١٩٤٦.. وفيلم صهيونى آخر بعنوان «أرض الأمل» اتفقت المنظمة الصهيونية فى مصر مع توجو مزراحى على عمل دوبلاج له ليعرض. كالفيلم السابق. باللغة العربية.

ومكاتب المنظمة الصهيونية فى مصر مازالت تجمع التبرعات لإيجاد مأوى «لليهود المساكين» فى فلسطين.. والصحف الصهيونية فى مصر تتحدث عن الاستعمار الصهيونى فى فلسطين باعتباره الحركة الوطنية التى تسميها السلطات البريطانية ظلما بالإرهاب (صحيفة الشمس – القاهرة : ٥/٧/ ١٩٤٦).. ووكالة سياحية تنشأ فجأة فى الإسكندرية باسم «وكالة جريتبرج للسفريات» .. سوف يكتشف بعد سنوات أن مهمتها كانت هى الحصول على إعفاءات من ضرائب الدخل للصهيونيين المصريين وتسهيل سفر المهاجرين إلى فلسطين.. وسوف تستأجر هذه الوكالة فيلا خارج مدينة الإسكندرية لتكون قاعدة لعمليات التهريب.. والمخابرات الصهيونية فى منظمة «الهاجانا» بفلسطين تقرر توسيع شبكتها فى مصر. والسبب فى ذلك عاملين : إن الصهيونيين يريدون أن يضعوا أيديهم على شىء من الاحتياطى الضخم من الأسلحة. الذى كدسته قوى الحلفاء فى مصر منذ الحرب العالمية الثانية.. والحصول على المعلومات. باعتبار القاهرة هى مقر للقيادة البريطانية فى الشرق الأوسط. وباعتبارها عاصمة أكبر دولة عربية يمكن أن تؤدى يقظتها المبكرة لما يجرى فى فلسطين إلى تحطيم البناء الصهيونى.

إن الأمم المتحدة كانت قد أقرت مشـروع تقسـيم فلسطين بين العرب واليهود. الذى رفضه العرب.. وبريطانيا أعلنت أنها سوف تنهى انتدابها على فلسطين فى ١٥ مايو ١٩٤٨.

وعندما اجتمعت الوفود العربية فى الأمم المتحدة بنيويورك لمناقشـة هذا التطور المفاجئ أصبح الجميع يدركون أن الدولة الصهيونية فى فلسـطين سوف تقوم مع نهاية الانتداب. أى بعد شهور قليلة..

وعندما عقد رؤسـاء تلك الوفـود اجتماعا مع الدكتور ماكنيل وزيـر الدولة البريطانى. وكريتش جونز وزير المستعمرات. وكانا موجودين فى نيويورك.. خرج فى الاجتماع صوت عربى واحد يؤكد : إن إنشاء دولة صهيونية فى فلسطين أمر غير مستطاع. ولن تبقى هذه الدولة خمسة عشر يوما!.

كان هذا هو نورى السعيد !.. وهذا التخدير الذى يمارسه سياسى عربى - سوف يثبت بعـد سـنوات طويلة أنه عميـل أجنبى - هو جزء من تخدير كبـير ملأته كلها.. والخطر الأكبر فى هذه المشكلة سوف يكون ضد مصر.. ومع ذلك فإنه عندما قررت مصر أخيرا أن تدخـل الحرب فى فلسـطين. مع الدول العربية الأخـرى. فإنها قررت ذلك فى ١٣ مايو سنة ١٩٤٨.

لقد أصبح على مصر أن تعوض نوما طويلا. وتخديرا تعرضت له. واستمر ٣١ سنة على الأقل - منذ صدور وعد بلفور - وأصبح على مصر أن تستعد لحرب. كان موعدها فى سنة ١٩١٧. فتقرر دخولها فى سنة ١٩٤٨. وأصبح على مصر أن تستعد لهذه الحرب. ولم يبق أمامها سـوى ثلاثة أيام !.. وأصبح على مصر أن تدفع بأبنائها إلى فلسـطين. ليواجهوا رصاصا من الجانب الأخر أتى بعضه بأموال تم تهريبها من داخل مصر نفسـها. ويحمله مقاتلون تم تجنيد بعضهم من داخل مصر نفسها.

إن الأموال التى تم جمعها علنا فى مصر. واليهود الذين تم تهجيرهم علنا وسرا من مصر قد انتقلا إلى فلسـطين فى ظل شـعارات ومقالات تزعم أن الهدف هو إقامة مأوى للاجئين اليهود المساكين فى فلسطين !

إن مصر. التى يربطها بفلسـطين خط من السـكة الحديد. وتطير منها يوميا وبانتظام

طائرات شــركة مصر للطيران بين القاهرة واللد.. ســوف تكتشــف الآن أن ما تم بناؤه فى فلســطين ليس مجرد «مأوى» ليهود مســاكين وكهول و «مثيرين للشفقة» .. وإنما دولة لها بوليس ومســتعمرات وجيش يملك مدافع ودبابات وطائرات.. وسوف يفيق الشعب المصرى علــى أبنائه وهم يستشــهدون برصاص جاء من الاتجاه الوحيد الــذى لم يتم تنبههم إليه - جاء من فلسطين - .. وسوف يفيق الشعب المصرى على أشياء مذهلة.

فحاييــم وايزمــان الذى جاء زائرا إلى مصر عدة مرات. أخرها فى ســنة ١٩٤٦. لينظم النشــاط الصهيونى.. هو نفســه الذى ســيصبح أول رئيس للدولة الجديدة عند إعلانها.. وإســحاق بن زيفى، الذى قضى عشــرة أيــام فى القاهرة. وأقامت لــه المنظمة الصهيونية فى مصر حفل اســتقبال ضخم بمقرها فى شــارع النبى دانيال بالإســكندرية فى ٢٩ مارس ســنة ١٩٤٢. دعــا فيه علنا إلى تكاتف الجهود لبناء الوطــن القومى اليهودى.. وجمع من داخل مصر خمسة عشر ألف جنيه تبرعا لشراء قطعة أرض فى فلسطين.. سوف يصبح هو الرئيس الثانى لدولة إسرائيل.. وسوف تكون «قطعة الأرض» هذه هى مستعمرة «كفار يدياه» التى ينطلق منها مقاتلو الدولة الجديدة ضد أبناء الشــعب المصرى.. وموسى شيرتوك الذى رآه المصريون حتى سنة ١٩٤٦ يلقى خطبة فى مدرسة «نقطة اللبن» أو فى «فندق المجندات اليهوديات» بشارع ضريح سعد بالقاهرة رقم ٢.. سوف يصبح هو أول وزير خارجية للدولة الصهيونيــة الجديدة..وأميل نجــار الذى يرأس لجنة الصحافة والإعــلام التابعة للاتحاد الصهيونــى المصرى. والذى عقد عشــرات الاجتماعات فى مقر هذا الاتحاد (١١٦ شــارع عماد الدين بالقاهرة) سوف يظهر فجأة على الجانب الآخر سفيرا لإسرائيل فى إيطاليا.

ويعقــوب وايزمــان. الذى زوج ابنتــه لإميل نجار. والذى يعاون ليون كاســترو فى البناى بيريث (ومقرها ١٨ شــارع عدلى بالقاهرة) ســوف يظل فى مصر بعض الوقت.. حتى بعد قيام إسرائيل.. مديرا لشركة شل بوتاجاز.. ثم سيهاجر إلى إسرائيل بناء على استدعاء شقيقه رئيس إسرائيل !.. وجاك رايان الذى أصدر فى مصر منذ سنة ١٩٣٦ جريدة «المنبر اليهودى» لتكون منبرا للدعوة الصهيونية.. ســوف يختفى ليظهر فجأه فى الدولة الجديدة - إســرائيل - عاملا فى صحافتها الناطقة بالفرنســية !.. وسعد المالكى. الذى أصدر مجلة «الشمس» وظل يصدرها

فى مصر حتى قيام دولة إسـرائيل (فالجريدة لم تتوقف إلا فى ١١ يونيو سـنة ١٩٤٨) سـوف يختفى هو الأخر لكى يظهر فى إسرائيل بعد قيامها بستة أشهر!

ومئات.. ومئات غيرهم !

ثـم... جريدة «المقطم» التى صدرت فى مصر ١٨٨٩.. وظلت منذ صدورها تشـجع على الاسـتعمار الصهيونى فى فلسطين. هى نفسها التى سجلت من البداية أن موقفها هو المطالبة بعدم جلاء بريطانيا عن مصر، وكتبت إن على المصريين أن يطالبوا باستمرار هـذا الاحتـلال.. ولا يفكروا فى الاسـتقلال» ... ففى أى زمان تمتـع الآباء والجدود باسـتقلال وحرية حرموهـا الآن ؟ ومتى كان زمام البلاد فى قبضة يدهم وسـلب الآن منهم؟ وأى شىء تغير عليهم ؟ وما ضرهم إذا انفردت بالنفوذ دولة واحدة بينهم لا سبع عشر دولة ؟»[1]

هذه الجريدة هى نفسـها التـى اختارت صهيونيا فى مصر. ليكون أول مراسـل لها فى فلسـطين (هو نسـيم ملول).. هى التى كتب فيها كريم ثابت مقالا فى سنة ١٩٣١ يعبر فيه عن إعجابه بالاستعمار الصهيونى فى فلسطين.. وكريم ثابت هذا نفسه. الذى رأيناه متعاطفا إلى هذه الدرجة قبل ١٧ سـنة مع الصهيونية.. سـوف نراه الآن شـريكا فى رأسمال جريدة وفدية كبرى هى «المصرى» .. ثم نراه صديقا للملك فاروق ملك مصر. وبعدها مستشارا صحفيا له ومشـرفا على الإذاعة المصرية.. وبحكم هذه العلاقة وحدها.. وبسـبب مشاعر هذا الرجل نفسه. سوف يسقط شهداء كثيرون من أبناء مصر على أرض فلسطين. إنهم سيسقطون قتلى. ليس فقط بسبب رصاص من عدوهم. ولكن بسبب فساد من سلاحهم. فساد سوف يلعب فيه كريم ثابت هذا دورا خطيرا. سيمضى بعض الوقت قبل أن يتكشف للجميع بعد فوات الأوان.

إن كريـم ثابـت هذا لم يكن إلا نموذجا واحدا. عن تغلغل أناس لا يحتفظون بأى ولاء لمصر. إلى مراكز خطيرة تؤثر فيه على مستقبل مصر وأمنها.. لقد كان هؤلاء هم الذين أكملوا للنفوذ الصهيونى فى مصر ما عجز عن أن يقوم به هو بنفسه.

إن هذا النفوذ. والذين اشتراهم بالمال والأفكار. هو الذى منع شعب مصر حتى الآن من

---

(١)

أن ينتبه إلى حجم الخطر عند الباب الشرقى لمصر.. وهو الذى جعل اليقظة القومية متأخرة إلى هذه الدرجة.. وهو الذى أتاح لعملية التخدير الطويل. والخداع المستمر. النجاح حتى اللحظة الأخيرة.

لقد حانت تلك اللحظة فى النهاية. وأصبح على مصر أن تواجه عدوها فى فلسطين.. إن الأبناء الذين قررت مصر فى ١٢ مايو سنة ١٩٤٨ أن تدفعهم إلى فلسطين أصبح عليهم أن يفعلوا ذلك فى خلال ثلاثة أيام !.. لقد أصبح عليهم أن يواجهوا رصاص عدوهم بصدورهم فى فلسطين. بغير أن يدركوا بعد أنهم يدفعون ثمن خطايا جيل سابق رفض. أو عجز عن أن يتنبه للخطر فى موعده.

لقد استخف الآباء وأغمضوا أعينهم، وأداروا وجوههم فى الاتجاه الأخر. وفى أحيان كثيرة ساهموا بقصد أو بغير قصد.. بجهل أو بمعرفة.. بالسكوت أو بالعمل.. على قيام هذا الخطر فى فلسطين.

والآن جاء الدور على الأبناء لكى يسددوا ثمن خطايا الآباء.. من دمائهم.

الآن أصبح مطلوبا من الأبناء أن يخوضوا حربا لم يوفر لهم آباؤهم أى استعداد لها.. ويواجهوا خطرا لم يعبئهم آباؤهم ضده.. ويحاربون عدوا لم يشرح لهم آباؤهم حجمه ولا خطره.

الآن قامت دولة إسرائيل فى فلسطين.

والآن دخلت مصر حرب فلسطين.

ويومها كان الجيش المصرى هو مجرد جيش من المتطوعين.. فلم يفكر أحد فى مصر، بعد، فى تطبيق التجنيد الإجبارى! ويومها، أيضا، لم ترصد الحكومة لتمويل دخول مصر حرب فلسطين.. سوى أربعة ملايين جنيه !

□□□□

"على مصر كدولة مستقلة أن تأخذ فى الحسبان ليس فقط الاحتمالات المضيئة بل الاحتمالات المظلمة أيضا وإلا فإنها ستخطئ بحق نفسها أمام التاريخ" .

عبد المنعم مصطفى

دبلوماسى مصرى - أغسطس ١٩٤٩

الفصل الثالث

الربع ساعة الأولى :

معاهدة سلام إسرائيلية إلى الملك فاروق !

ذات يوم من أيام سـنة ١٩٨٢ ، أقام السفير الإيطالى فى القاهرة حفلا دبلوماسيا دعى إليه - ضمن آخرين - السفير الإسرائيلى فى القاهرة.. موشى ساسون.

وطبقا لما رواه ساسـون نفسه فيما بعد. فإنه أثناء الحفل.. تقدم منه شخص مصرى فى الثمانين من عمره.. وسأله : هل أنت أحد أقرباء السيد / إلياس ساسون ؟

وابتهج السـفير الإسـرائيلى على الفور.. فبرغم معاهدة إسـرائيل مع السادات. إلا أن السفير رأى من قبل أن من النادر أن يبادره مواطن مصرى بالحديث.. إلا إذا كان مضطرا إلى ذلك بحكم منصبه.. أو بحكم مصلحته الشخصية فى الصفقات الجارية القليلة غير المعلنة!.

ابتهج السـفير الإسرائيلى موشى ساسون إذن.. ثم رد على المواطن المصرى ذى الثمانين عاما بقوله : نعم.. إن إلياس ساسون كان والدى.. ولكن.. من أين لك هذا الاهتمام به؟.

رد المواطـن المصرى : حسـنا.. طالما أنه والدك.. فـلا بأس من أن أقول لك إننى كنت رجل الاتصال بين والدك.. وبين الديوان الملكى فى مصر أيام الملك فاروق.. فى الاتصالات السـرية التى جرت حتى سـنة ١٩٥٠ بين الطرفين.. لاستطلاع إمكانية عقد معاهدة سلام بين مصر وإسرائيل..!

ولم يكن الموضوع جديدا على السـفير الإسـرائيلى فى القاهرة.. فلابد أنه بحكم عمله ووثائـق وزارة الخارجيـة والمخابرات الإسـرائيلية ، كان يعرف مضمـون تلك الاتصالات السـرية التى حاولتها الدولة الإسرائيلية الوليدة مع الديوان الملكى فى القاهرة.. فى الربع ساعة الأولى من قيامها فى فلسطين.

وفى أول رحلة عاد فيها السـفير إلى إسـرائيل ـ حيث كان يحلو له أن يشـعر بالنشوة من حقيقة أنه الوحيد من كل سـفراء إسرائيل الذى يسـتطيع أن يسافر منها وإليها بطريق البر- راح موشـى ساسـون يحكى تلك الواقعة. عن هذا الشـخص المصرى الغامض ذو الثمانين عاما. والذى تجنب ساسون ذكر اسمه. بعدها روى تلك الواقعة فى محاضرة ألقاها بمعهد «شيلوح» فى تل أبيب.

والواقع أن قصة تلك الاتصالات السـرية بين إسـرائيل وديوان الملك فاروق فى القاهرة هى أكثر إثارة من ذلك.. لأنها تكشف بوضوح الأسلوب الإسرائيلى فى التسلل إلى أصحاب

مراكز السلطة والنفوذ فى العالم العربى.. وتكشف أيضا المضمون الذى تعنيه إسرائيل من السلام مع مصر.

ذلك لأن إسرائيل تقدمت بأول مشروع لها للسلام بعد أقل من ثمانية أشهر من قيامها. تقدمت به إلى مصر. والسبب فى ذلك. كما قرره الإسرائيليون وقتها. هو أننا لا نعنى من الدول العربية غير مصر. والصلح المنفرد بين إسرائيل ومصر معناه عمليا بداية الطريق نحو فرض (السلام الإسرائيلى) على العالم العربى.

وحتى يكون مضمون هذا «السلام الإسرائيلى» واضحا. فإن إسرائيل أعدت بالفعل مشروعا بمعاهدة كاملة للصلح المنفرد يتم إبرامها بين مصر وإسرائيل. وقامت إسرائيل بإبلاغ المشروع الكامل لتلك المعاهدة إلى الملك فاروق. ملك مصر حينئذ. بعد أقل من ثمانية أشهر من قيامها فى فلسطين كدولة بقوة الاحتلال والاستعمار الاستيطانى. واختارت إسرائيل اثنين من رجال السياسة المصرية حينئذ لإبلاغ فاروق بمشروع المعاهدة عن طريقهما. هما: إبراهيم عبد الهادى رئيس الديوان الملكى.. والدكتور محمد حسين هيكل رئيس مجلس الشيوخ.

كانت إسرائيل. حتى من قبل قيامها رسميا كدولة. تختار أولئك الذين تتفاوض معهم جيدا. فمبكرا. منذ شهر سبتمبر سنة ١٩٤٦. كان «إلياهو ساسون» السكرتير الشرقى للشعبة السياسية فى الوكالة اليهودية. يجتمع فى القاهرة بإسماعيل صدقى رئيس وزراء مصر حينئذ. للتفاوض معه بشأن الوسيلة الممكنة لتبنى المطالب الصهيونية حينئذ بتقسيم فلسطين.[(١)]

لم يكن اختيار الوكالة اليهودية حينئذ لإسماعيل صدقى فى مصر اختيارا عشوائيا. فمنذ أواخر العشرينات كانت الرأسمالية اليهودية فى مصر قد عملت على ربطه بمصالحها. هو وآخرين. وأصبح عضوا فى عدد من الشركات التى تسيطر عليها تلك الرأسمالية فى مصر. مثل شركة «وادى كوم أمبو» و «الشركة الأنجلو بلجيكية» و «الأنجلو مصرية» و«الشركة

---

(١) قام ساسون بشرح تفاصيل تلك المفاوضات فى اجتماعه مع شحادة الغصين القنصل اللبنانى العام فى القدس. وأرسل به الأخير تقريرا إلى وزارة الخارجية اللبنانية فى ١٠ / ٣ / ١٩٤٧ - انظر عادل مالك : «من رودس إلى جنيف» - ص ١٠٣ وما بعدها.

العقارية المصرية» . وبعض تلك الشركات أعطت إسماعيل صدقى عضوية صورية بالاكتتاب فى بعض أسهمها وسنداتها حتى بغير حق التصرف فيها.. الخ.[1]

وفى تلك الفترة نفسها كان لإسماعيل صدقى مواقفه العلنية ضد القضية الفلسطينية. ففى سنة ١٩٢٥. وكان إسماعيل صدقى وقتها وزيرا للداخلية. أمر باعتقال كل من يهتف ضد جيمس بلفور صاحب وعد بلفور الشهير. أثناء مرور الأخير بالقاهرة فى طريقه لحضور افتتاح الجامعة العبرية بالقدس.

وفى سنة ١٩٣٠ ، عندما أصبح إسماعيل صدقى رئيسا للوزراء أمر بإغلاق جريدة «الشورى» الفلسطينية التى تصدر بالقاهرة. لأنها تناهض الاستعمار الصهيونى فى فلسطين. بينما لم يمس مطلقا جريدة «إسرائيل» لصاحبها ألبرت موصيرى. التى كانت لسان حال الحركة الصهيونية فى مصر وتدعو إلى جمع التبرعات لمساعدة اليهود فى استعمار فلسطين!.

وبالإضافة إلى ذلك فقد قرر اشتراك مصر فى المعرض الصناعى الذى أقامته المنظمة الصهيونية فى تل أبيب. متعللا بحاجة الحكومة للاشتراك فى المعرض لترويج المنتجات المصرية فى فلسطين. وبالطبع لم يحدث شىء من ذلك. وقاطع أهالى فلسطين المعرض تماما طبقا لتقرير ممثل مصر حينئذ.

هكذا. فحينما شكل إسماعيل صدقى الحكومة للمرة الثانية فى ١٦ فبراير سنة ١٩٤٦ اختارت الوكالة اليهودية فى فلسطين أن تتفاوض معه. أملا فى مساعدتها على «تبليغ» فكرة تقسيم فلسطين إلى الدول العربية. وحتى ذلك الوقت لم يكن الصهيونيون قد استعمروا أكثر من ٦٪ من أراضى فلسطين.

ولأن إسماعيل صدقى لم يعمر فى الوزارة طويلا. حيث خلفه محمود فهمى النقراشى فى ١٩ ديسمبر سنة ١٩٤٦. فقد عقد ديفيد بن جوريون وموسى شاريت وإلياهو ساسون اجتماعا لبحث الأمر. و «قر قرارنا على أن نتصل بمعالى إبراهيم عبد الهادى باشا رئيس الديوان الملكى المصرى» وذلك بالإضافة إلى النقراشى رئيس الوزراء.

---

(١) دراسة أنس مصطفى كامل عن الرأسمالية اليهودية بمصر : مجلة الأهرام الاقتصادى ١٢ / ٤ ١٩٨١.

ومن المهم هنا أن نلاحظ أولا أن تلك الشخصيات كانت متسقة فى مواقفها ضد قيام مصر بالتصدى للاستعمار الصهيونى فى فلسطين. حتى بعد أن أصبح خطر قيام إسرائيل كدولة واضحا للجميع . فمحمود فهمى النقراشى قام. باعتباره رئيسا لوزراء مصر. بإخطار مجلس الجامعة العربية فى أول أكتوبر سنة ١٩٤٧. بأن «مصر لو قدر لها أن تحارب فى فلسطين ستشترك فقط بمظاهرة عسكرية محدودة.. ويجب أن تعلم الدول العربية مقدما أن الجيش المصرى لن يشترك فى القتال.. وذلك لأسباب داخلية بحته ! فلتعمل الجيوش العربية حسابها على هذا الأساس» !

وإسماعيل صدقى هو الآخر. فى الجلسة السرية التى عقدها مجلس الشيوخ فى ١١ مايو سنة ١٩٤٨. وقف يسوق كافة الحجج داخل المجلس على «عدم قدرة الجيش المصرى على الحرب فى فلسطين» .. «وأن الصراع فى فلسطين لا يهم مصر لأنه لا شأن لها به. ولا ناقة لها فيه ولا جمل». على حد تعبير الدكتور هيكل فى مذكراته !

وهكذا. فإن الذين ارتبطت مصالحهم بالرأسمالية اليهودية مبكرا كانوا يسجلون من البداية أنهم ضد أى محاولة لوقف الاستعمار الصهيونى لفلسطين بالقوة. وقد ذهب الجيش المصرى إلى فلسطين فعلا فى ظل حكومة لا يؤمن رئيسها بالقتال من أساسه . كما يؤمن الآخرون بعجز الجيش عن التصدى لما يجرى فى فلسطين (وهو ما أثبتت الوقائع عكسه سريعا) بل يروجون أيضا للمفهوم الصهيونى بأنه لا يجب أن تكون لمصر علاقة بما يجرى فى فلسطين جملة وتفصيلا !

من ناحية أخرى. من المهم أن نلاحظ أن إسرائيل. قبل وبعد قيامها كدولة. كانت تركز اتصالاتها على نمط خاص من السياسيين فى الجانب العربى (ومصر هنا مجرد نموذج لما جرى فى الدول العربية الأخرى). فإبراهيم عبد الهادى مثلا كان معروفا عنه أنه «سوط الإرهاب» الذى يسلطه الملك فاروق على الشعب المصرى. وإسماعيل صدقى كان صاحب سياسة «اليد الحديدية» ضد الشعب. ومحمود فهمى النقراشى كان مكروها شعبيا إلى الدرجة التى انتهت باغتياله. والثلاثة كان يجمعهم أنهم. كوزراء ومستشارين ورؤساء للوزارات. لا يتمتعون بأية جذور شعبية. ولا يتورعون عن استخدام الإرهاب. ولم

يحكموا إلا فى ظل الأحكام العرفية وتزييف الانتخابات وتعطيل الدستور وكبت الحريات. ولا يمثلون سوى القصر الملكى وأحزاب الأقلية.

فمع هذا النوع فقط من السياسيين كانت إسرائيل تستطيع أن ترى أن فرصتها قائمة لتمرير «السلام الإسرائيلى». فإسرائيل لم تجرؤ مطلقا على محاولة طرح شروطها - مجرد المحاولة - على سياسيين يتمتعون بجذور شعبية ويدركون مسئوليتهم عن مصالح مصر وأمنها. ابتداء من حزب الوفد ومصطفى النحاس إلى ثورة ٢٣ يوليو وجمال عبد الناصر. ولكن إسرائيل فعلت ذلك دائما مع كل الذين توسمت فيهم ارتباطا سابقا أو لاحقا فى المصالح. أو انعزالا عن التيار الشعبى، أو عدم دراية بجوهر الصراع العربى الإسرائيلى.

ومن النوع الأخير كانت محاولة إسرائيل فى سنة ١٩٤٨ مع الدكتور محمد حسين هيكل، قطب حزب الأحرار الدستوريين. الذى كان بدوره واحدا من أحزاب الأقلية فى مصر.. كان هيكل وقتها رئيسا لمجلس الشيوخ. وقد سافر إلى روما على رأس وفد مصرى لحضور المؤتمر البرلمانى الدولى المقرر انعقاده فى الأسبوع الأول من شهر سبتمبر ١٩٤٨.

وطبقا لرواية محمد حسين هيكل فى الجزء الثالث من مذكراته، فإنه أثناء إقامته فى فندق «اكسلسيور» بروما، تلقى مكالمة تليفونية من شخص لا يعرفه. وذكر له أنه يريد مقابلته من طرف السيد / إلياهو ساسون. ثم يضيف هيكل قائلا : «... وساسون موظف كبير فى وزارة الخارجية الإسرائيلية. قابلنى بالقاهرة غير مرة فى رياسة مجلس الشيوخ وفى منزلى. وكان ذلك قبل قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين وبعده. وحاول إقناعى بأن من الخير تفاهم مصر مع اليهود. وساق لى من الحجج مثل ما كان يسوقه ذلك الشخص الذى تحدثت عنه فى أول هذا الفصل. ولما كان الموقف قد تغير بعد قرار الأمم المتحدة. وبعد الحرب بين اليهود والعرب. حددت موعدا لهذا الشخص على أن أقف منه على اتجاه اليهود فى هذا الظرف الجديد. فلما جاء إلى الفندق سألنى عما إذا كنت أطيل مقامى بإيطاليا بعد المؤتمر البرلمانى، لأن المسيو ساسون يريد أن يقابلنى فى الأيام الأولى من أكتوبر» .

وطبقا للترتيب الذى تم الاتفاق عليه، فقد جرى اجتماع محمد حسين هيكل وإلياهو ساسون بالفعل فى مدينة جنيف بسويسرا. حيث « ... قابلنى مسيو ساسون. وبدأ يحدثنى

عن عقد الصلح بين إسـرائيل ومصر. قال : أصارحك بأننا لا نعنى من الدول العربية غير مصـر. وأننا حريصون كل الحـرص على إقامة العلاقات بيننا وبينها على أسـاس المودة والصداقة. فقلت : وعلى أى أساس تريدون أن يقوم هذا الصلح ؟. أنا لا أعرف الخطة التى قررتها الحكومة المصرية. ولكن أريد أن أعرف عزمكم أنتم. فإذا اقتنعت بأن فيه ما يصلح أن يكون أسـاس حديث فى أمر الصلح أفضيت به إلى الحكومة المصرية. وأود أن أذكر لك رأيا شخصيا لى لم أفاتح به أحدا من المسئولين فى مصر. ذلك أن تتنازلوا أنتم صراحة عن منطقة النقب لمصر. وأن تعلنوا اسـتعدادكم لهذا التنازل قبل كل حديث. وأجابنى الرجل فى لهجة لم أرضاها : وما حاجتكم إلى النقب ولديكم أنقاب كثيرة لم تصلحوا منها شيئا. يريد أن صحارى مصر الواسعة لم تنل منا عناية أو إصلاحا. وكفتنى هذه العبارة لأكف عن المضى فى الحديث، فقلت أظن إذن إنه لا فائدة من الحديث فيما قصدت إليه» .

لم يكن الصراع فى فلسطين يتعلق بضم، أو عدم ضم، صحراء النقب – إلى مصر – الأمر الذى يدل فى حد ذاته على سـذاجة الصورة السياسية لدى الدكتور محمد حسين هيكل، واسـتحق بالتالى تهكم ساسـون عليه. كما أنه لم يكن من مهمة هيكل «جس النبض لمعرفة ما يريده اليهود من الحديث مع مصر» وهو المبرر الذى يسـجله لاجتماعه مع ساسـون. إن هيكل نفسه يسجل أنه « .. لما رأيت مسيو ساسون يتحدث بلهجة لم ترضنى، آثرت عدم المضى فى حديث لا جدوى من المضى فيه. وعدت إلى مصر فى منتصف أكتوبر وليس فى نيتى أن أذكر لأحد شيئا عما دار بينى وبين المسيو ساسون» .

ومع ذلك فلم تنته المسألة عند هذا الحد. فلقد سافر محمد حسين هيكل إلى باريس لحضور اجتمـاع اللجنـة التنفيذية للاتحاد البرلمانى الدولى فى ٢٨ ديسـمبر ١٩٤٨. وفى الصباح التالى مباشـرة لوصول هيكل إلى باريـس تلقى مكالمة تليفونية فى غرفته بالفندق. من نفس المسـئول الإسـرائيلى السابق الذى رتب من قبل اجتماع ساسون مع هيكل. ويقول هيكل «... قد تولتنى الدهشة حين أظهر حرصه على هذا اللقاء، فقد كنت أحسب أن ما دار بينى وبين مسيو ساسون بجنيف قد قضى على كل رجاء يدعو إلى استئناف الحديث فى الموقف الإسرائيلى من مصر أو موقف مصر من إسرائيل. والحوادث التى توالت بعد ذلك أمعن فى تقرير هذا المعنى» .

إن تلك «الحوادث» التى يشير إليها الدكتور هيكل لم تكن أقل من قيام إسرائيل بخرق الهدنتين الأولى والثانية مع الدول العربية. واغتيالها لوسيط الأمم المتحدة الكونت برنادوت. وقيامها بمحاصرة قوة للجيش المصرى فى الفالوجا. (كان من بين المحاصرين فى الفالوجا ضابط صغير اسمه جمال عبد الناصر) حصار كان مازال قائما عندما طلب هذا المسئول الإسرائيلى الاجتماع بالدكتور هيكل فى باريس. ولم يكن هيكل يعرف بعد. أنه فى نفس اللحظة التى يحدثه فيها هذا المسئول الإسرائيلى عن «الود والصداقة» مع مصر.. كانت إسرائيل تعد لهجوم ضخم ومفاجئ جديد لاختراق حدود مصر نفسها فى محاولة للقضاء على الجيش المصرى نهائيا.

لقد استقبل هيكل المسئول الإسرائيلى (الذى جاء معه بزميل آخر) بغرفته بالفندق فى اليوم التالى. ٢٩ ديسمبر ١٩٤٨. وطبقا لرواية هيكل فى مذكراته فإن المبعوثين الإسرائيليين «عادا يخبراننى أن إسرائيل حريصة أشد الحرص على صداقة مصر. وأن مصر ترغب عن هذه الصداقة لأمر لا يفهمانه. وأن إسرائيل قدمت لمصر ما تعتقده الأساس الصالح لعلاقتهما فى المستقبل. وسألتهما. فعلمت أن إسرائيل بعثت بمشروع معاهدة مودة وصداقة تعقدها مع مصر. وأن المشروع أبلغ إلى إبراهيم عبد الهادى باشا وهو رئيس الديوان. وأنهم لم يتلقوا منه ردا. وسألتهم إن كان لديهم صورة من هذا المشروع أستطيع الاطلاع عليها. فوعدا بإرسالها لى صبح الغد. وبأن نلتقى مرة أخرى بعد يومين لأبلغهما رأيى فى هذا المشروع. وصدق الرجلان. فقد تلقيت صبح الغد من ذلك اليوم مظروفا فضضته فإذا به هذا المشروع الذى حدثانى عنه» .

هكذا إذن. تلقى الدكتور هيكل يوم ٣٠ ديسمبر ١٩٤٨. المشروع الإسرائيلى لـ «معاهدة المودة والصداقة» مع مصر. المشروع الذى ترى إسرائيل. الدولة الوليدة فى فلسطين. أنه الأساس الصالح لعلاقاتها فى المستقبل مع مصر أكبر الدول العربية.

وهنا يسجل هيكل ما حدث فى مذكراته قائلا : تلوت مقدمة المشروع ومواده فتولانى العجب أشد العجب. لقد صيغ على غرار المعاهدة المصرية البريطانية التى عقدت فى سنة ١٩٣٦. لكن إسرائيل تملى فيه على مصر ما هو أقسى مما ورد فى معاهدة ١٩٣٦. فالدولتان

السـاميتان المتعاقدتان يجب ألا تتخذ أيهما سياسة فى البلاد الأخرى تناقض سياسة الدولة الأخــرى. ويجــب أن تخف أيهما لنجدة الدولة الثانيــة إذا تعرضت للاعتداء. ويجب أن تعامل كلتاهما بشروط الدولة الأكثر رعاية فى أراضى الدولة الأخرى. إلى غير ذلك من شروط أثارت دهشــتى. حتى لقد ظننت أن المشــروع لم يجرؤ أحد على إرساله إلى مصر. وأنهما أخبرانى بذلك ليقفا على رأى فيما تعتزم بلادهما التقدم به إلى الدولة العربية الكبرى» .

ولم يصدق الدكتور هيكل ما قرأه فى مشــروع المعاهدة لما «لم يجرؤ أحد» على إرساله إلى مصر. ولكن المســئولين الإســرائيليين أخطرا هيكل بأن المشروع قد سلم فعلا إلى إبراهيم عبد الهادى رئيس الديوان الملكى. ومن ثم فلابد أن الأخير أطلع الملك فاروق على الأقل عليه.

وعندما أخبرهما هيكل بأن المعاهدة المصرية البريطانية لسنة ١٩٣٦ هى الآن محل سخط المصريين جميعا. وأن مشروع معاهدة «المودة والصداقة» هذا الذى تعرضه إسرائيل هو «أشد وطأة على مصر من تلك المعاهدة المصرية البريطانية» . أجابه المسئولان قائلين : «إن توقيع معاهدة بيننا وبين مصر ســيكون المقدمة لإلغاء معاهدة ١٩٣٦. فســتعمل إسرائيل بما لديها من مختلف الوسائل لتعاونكم على إلغائها» !

ويواصل هيكل روايته : قلت وقد اســتفزنى هذا الكلام : إن مصر قادرة بمفردها على تحقيق أهدافها. وستبلغ ما تريد عما قريب.. قالوا «إذن. أشر علينا بما يجب أن نصنعه لتوطيــد علاقة مودة وصداقة بيننا وبين مصر.. قلت : لا تظنوا أن الموقف المصرى الحاضر يعــاون علــى أى إجراء رسمى يحقق هذه الغاية. فلا تزال الخصومة بين مصر وإســرائيل على أشــدها. ومصر اليوم لم تعترف بإســرائيل. ولست أظن أنها تعتزم الاعتراف بها عما قريب. أما وقد ســألتمانى أن أشــير عليكما. فالرأى عندى أن تتركا الأمور عاما أو عامين أو ثلاثة. وألا تثيروا أنتم أية ثائرة من جانبكم. وكثيرا ما حل الزمن مشــكلات عجز أقدر الساسة وأمهرهم عن حلها» !

تلك هى شهادة الدكتور محمد حسين هيكل. والجانب المهم فى الموضوع هو هذا النص الذى أعدته إسرائيل مبكرا. ونوع السلام الذى أقامت على أساسه مشروع معاهدتها «للمودة والصداقة» مع مصر.

فتلك المعاهدة المقترحة. التى تمثل مفهوم إسرائيل للسلام مع مصر. تقوم أساسا على:

- إنها معاهدة للصلح والسلام المنفرد مع مصر.
- إن إسرائيل تحتفظ بمقتضاها لنفسها بحق الفيتو على السياسة الخارجية المصرية. بحيث تمتنع مصر عن انتهاج أى سياسة تراها إسرائيل متناقضة مع سياستها.
- إنها معاهدة تحالف. تخف مصر بمقتضاها إلى نجدة إسرائيل إذا تعرضت الأخيرة إلى أى اعتداء - من جانب دولة عربية بالطبع.
- إن الأسواق المصرية يجب أن تكون مفتوحة أمام البضائع الإسرائيلية بحيث تحصل إسرائيل على امتيازات جمركية واقتصادية تجعلها الدولة الأكثر رعاية فى داخل مصر.
- إن حصيلة كل البنود السابقة هى أن تخرج مصر سياسيا واقتصاديا وعسكريا من العالم العربى. مستبدلة التزاماتها العربية. بالتزامات مع إسرائيل تكون مناقضة ومعادية بالضرورة للحقوق العربية !

تلك هى الشروط التى تضمنتها أول معاهدة للسلام و «المودة والصداقة» عرضتها إسرائيل على مصر فى سنة ١٩٤٨. وربما كانت هناك شروطا أخرى لم يذكرها الدكتور محمد حسين هيكل رئيس مجلس الشيوخ. وكانت هى ما دعاه إلى أن يقول عن مشروع تلك المعاهدة إن «إسرائيل تملى فيه على مصر ما هو أقسى مما ورد فى معاهدة سنة ١٩٣٦» !

ومعاهدة سنة ١٩٣٦ وقعتها مصر مع دولة تحتلها فعلا. وهى إمبراطورية بريطانيا العظمى. وإسرائيل تأتى. كدولة وليدة لم يزد عمرها عن ثمانية أشهر. لكى تملى على مصر شروطا أقسى مما أملته إمبراطورية بريطانيا العظمى. فإسرائيل توضح لمصر من البداية أنها تحتفظ لنفسها بامتيازات وسلطات الدولة العظمى فى منطقة الشرق الأوسط بأسرها ! وبصرف النظر عن مصير ذلك المشروع فى النهاية. فإن المهم هنا هو النوايا الرسمية التى تكشف عنها. والمضمون الذى تعترف إسرائيل وتسجل أنها تسعى إلى تحقيقه وفرضه.

فى هذه المرة عاد الدكتور محمد حسين هيكل إلى مصر. وقد أصبح إبراهيم عبد الهادى

رئيسا للوزراء. حيث قرر أن يخطر الملك فاروق بتفاصيل ما دار بينه وبين المبعوثين الإسرائيليين.. وابتسم الملك قائلا: لقد بلغ من أمر هؤلاء القوم أن يخاطبونى مباشرة بخطاب بعثوا به. وكان أمامهم طريق الحكومة أو طريق الديوان.

ويبدو أن هيكل عرف فيما بعد أن إسرائيل تبذل نفس المساعى مع كل دولة عربية أخرى مجاورة لفلسطين. قائلة فى كل مرة إنه لا يهمها من العرب أجمعين إلا تلك الدولة فحسب. مكررة محاولتها لجرجرتها إلى صلح منفرد معها. كما فعلت مع مصر. وهنا فقط يتساءل الدكتور هيكل فى مذكراته قائلا: ترى أيكون الأمر قد بلغ إلى حيث استطاعت إسرائيل. واستطاعت السياسة الدولية. أن تفرق بين الدول العربية. وأن تصل بين كل واحدة منها وبين إسرائيل لعقد صلح منفرد ؟

ويقرر الدكتور هيكل مباشرة : «لم أقف عند هذه الأسئلة. ولم أحاول الإجابة عنها»!

إذن.. من يحاول الإجابة عليها ؟ الحكومة ؟ ولكن. ماذا إذا لم تفكر الحكومة ؟ ألا يشغل أبناء مصر البارزين بالفعل فى السياسة المصرية أنفسهم بالتفكير فى مستقبل مصر وأمنها والأخطار التى تهددها ؟ لقد كانت تلك علامات استفهام كبرى مطروحة فى الساحة المصرية منذ وعد بلفور على الأقل. أسئلة مطروحة ولكن لم يجب عليها أحد.. وتستطيع الحكومة المصرية. فيما بين ١٩١٧ و ١٩٣٦ على الأقل. أن تعلق خطاها على شماعة الاحتلال البريطانى لمصر. لكى تجد تفسيرا لعجزها عن العمل. وهو تفسير صحيح جزئيا.

ولكن. ماذا عن السياسيين والمفكرين والكتاب والصحفيين ؟ هل كانوا هم أيضا ممنوعين من الكتابة والتفكير والتنبيه إلى الخطر وإيقاظ الوعى الشعبى بحجمه؟ إذا كان بعضهم قد منع. فلماذا تطوع البعض الآخر للتهوين من الخطر - بل وللتعمية عنه ؟ كيف تفسر هذا التطوع الاختيارى التلقائى لتضليل شعب بأكمله عن حقيقة مصالحه وحدود أمنه ؟ لماذا لم يكتفوا بالسكوت إذا كانوا حقا مضطرين إليه ؟

.. ولكنهم لم يكونوا مضطرين - حتى - إلى السكوت. لقد كان هناك احتلال حقا. والتزام بريطانى رسمى بقيام وطن قومى يهودى فى فلسطين. وسياسة بريطانية تنفذ هذا الالتزام حقا بالتدريج. ومع ذلك. ففى ظل هذا كله استطاع الصوت الوطنى أن يشق

طريقه إلى الرأى العام فى مصر. استطاعت جريدة «المؤيد» مثلا أن تكتب فى مطلع القرن العشرين. وجريدة «فلسطين» أن تكتب فى العشرينات. و «البلاغ» و «كوكب الشرق» و «مصر الفتاة» فى الثلاثينات. واستطاع أحمد ذكى ومحمد على علوبة وفتحى سعيد وفكرى أباظة وعشرات غيرهم أن يتكلموا ويوقظوا وينبهوا ويدقوا جرس الإنذار. ولكن هذا الجرس لم يؤد إلى الإنذار المطلوب لأن الأجراس الأخرى غطت عليه وحاصرته. حصار لعب فيه النفوذ الصهيونى المنظم فى مصر دور المهندس والمستفيد معا. نفوذا كان قائما وملموسا وحقيقيا فى سنوات العشرينات والثلاثينات والأربعينات. نفوذا كان يستهدف من البداية تخدير وتنويم الوعى القومى المصرى إلى أخر لحظة ممكنة.

ولقد رأينا مفاوضات إسرائيل الأولى. عقب قيامها كدولة مباشرة. ولقد بدأت بالكلمات المعسولة عن السلام والود والصداقة. وحينما جاءت لحظة الحقيقة. «فوجئ» الدكتور محمد حسين هيكل تماما بالمعنى العملى الذى تقصده إسرائيل من السلام والود والصداقة. وكان شعوره الوطنى هو الذى سجل أن مشروع المعاهدة الذى قدمته إسرائيل إليه. وأبلغته من قبل إلى رئيس الديوان الملكى بالقاهرة. وهو مشروع «لم يجرؤ أحد» على التقدم بمثله إلى مصر من قبل.

ولقد كانت تلك هى المفاوضات الأولى التى انتهت إلى الفشل. ولكن. سرعان ما بدأت إسرائيل فى محاولتها الثانية. فبناء على توصية من الأمم المتحدة. كان مجلس الأمن الدولى قد قرر فى ١١ ديسمبر سنة ١٩٤٨ تشكيل «لجنة التوفيق الدولية» من ممثلين لثلاث دول. هى الولايات المتحدة وفرنسا وتركيا. وأصبحت مهمة تلك اللجنة هى محاولة التوصل إلى حلول توفيقية توفق بها بين إسرائيل والدول العربية. فى محاولة لإنهاء الصراع على أرض فلسطين سلميا. وبعد محادثات تمهيدية قامت بها «لجنة التوفيق الدولية» تقرر إجراء محادثات سياسية فى لوزان بسويسرا. بين اللجنة من جهة. وممثلى الطرفين الإسرائيلى والعربى من جهة أخرى.

وأرسلت إسرائيل إلى لوزان وفدا يتكون من إلياهو (إلياس) ساسون. والدكتور آيتان المدير العام لوزارة الخارجية حينئذ. وجدعون رافائيل.

كان الوفد اللبنانى برئاسة فؤاد عمون. والوفد السورى برئاسة عدنان الأتاسى. والوفد الأردنى برئاسة فوزى الملقى. والوفد المصرى برئاسة عبد المنعم مصطفى. وكان كل وفد يصحب معه عددا من الفلسطينيين كمستشارين أو كأعضاء. بالإضافة إلى وجود وفد فلسطينى مستقل.

ومن البداية رفضت إسرائيل أن تتفاوض مع الجانب العربى باعتباره طرفا واحدا. مصممة على التفاوض (تحت إشراف لجنة التوفيق الدولية) مع كل وفد عربى على حده. إن هذا الأسلوب يتيح لها الفرصة أولا فى الوقيعة بين كل وفد عربى والوفد الآخر (كما حدث فعلا).. بالإضافة إلى أنه يجعل إسرائيل أكثر قوة من الناحية التفاوضية. مما لو كانت تواجه كتلة عربية واحدة.

لكن هذا لم يكن كل شىء.

فبالنسبة للجانب المصرى. هو ما يعنينا هنا بالأساس. كانت المفاوضات تدور برئاسة عبد المنعم مصطفى ممثلا لوزارة الخارجية المصرية. وكان واضحا من البداية أنه يستوعب تماما طبيعة وحجم الصراع فى فلسطين - فقد شغل منصب قنصل عام مصر فى القدس فى أواخر أيام الانتداب على فلسطين - الأمر الذى وفر له معرفة عملية تولدت فى أرض الصراع نفسها.

وفضلا عن ذلك فقد كان عضوا فى الوفد المصرى الذى أبرم اتفاقية الهدنة فى روديس - الأمر الذى أتاح له خبرة أخرى بأساليب التفاوض الإسرائيلية - ولكن إسرائيل لم تكن تتفاوض الآن فى لوزان من أجل أى «سلام» . قد كانت تتفاوض من أجل أهداف أخرى تماما غير ما يدور البحث بشأنه. فإسرائيل. برغم قبولها رسميا عضوا فى الأمم المتحدة فى ١١ مايو سنة ١٩٤٩. إلا أن هذا القبول كان مرتبطا بشرطين :

أولا : التعهد بتنفيذ قرار الأمم المتحدة الصادر فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧. والمتعلق بتقسيم فلسطين بين اليهود والفلسطينيين.

ثانيا : التعهد بتنفيذ قرار الأمم المتحدة بإتاحة الاختيار أمام اللاجئين الفلسطينيين : إما العودة إلى ديارهم التى طردهم الصهيونيون منها. أو قبول التعويض. وبالطبع لم تكن

إســـرائيل تنوى من البداية تنفيذ أى من هذين التعهدين. فلا هى تريد عودة الفلســطينيين الذين سبق لها هى أن طردتهم بقوة السلاح والإرهاب. ولا هى كانت ستتخلى طواعية عن الأراضى الفلسطينية الجديدة التى توسعت إليها بالحرب. فقرار التقسيم أتاح لليهود ٥٥٪ من أراضى فلسطين. بينما هم خرجوا من الحرب وقد استولوا على ٧٧ ٪.

من هنا كانت إســـرائيل تأمل من خلال اجتماعات «لجنة التوفيق الدولية» فى لوزان. أن تشــق ثغرة لاختراق الجبهة العربية سياســيا. وهذا الاختراق لا يحدث إلا إذا نجحت إســرائيل فى الإيقــاع بدولة عربية واحدة علــى الأقل فى فخ الصلح المنفرد. وفى ســبيل التوصل إلى تلك الغاية. جربت إسرائيل أكثر من أسلوب. نراه فى الرسائل التى بعث بها إلياهو ساسون[1] من لوزان إلى موسى شاريت وزير خارجيته فى القدس.

إنه يحاول مثلا تقديم شــخصية فلســطينية عميلة لإسرائيل. على أنها ممثلة للاجئين الفلســطينيين. بدلا من الوفد الفلســطينى الحقيقى الذى ذهب إلى لوزان. وتلك الشخصية ذهبت تدعى أن وجهة نظر اللاجئين الفلسطينيين هى «أنه لا ينبغى إقرار حدود إسرائيل الحالية فحسب. بل منحها أراض إضافية أيضا. لتتمكن إسرائيل من استيعاب أكبر عدد من اللاجئين العرب» ! وبالطبع انكشفت تلك الحيلة فى حينها. بما اضطر تلك الشخصية العميلة فى النهاية إلى اللجوء إلى إسرائيل !

والوفد الإســـرائيلى يحاول أيضا إغراء كل وفد عربى على حدة بالدخول فى مفاوضات مباشرة معه من خلف ظهر الوفود الأخرى. وهكذا يكتب إلياهو ساسون إلى وزير خارجيته قائــلا : «إنـــى أفكر فى دعوة عبد المنعـم مصطفى. رئيس الوفد المصرى. هذا الأســـبوع. وســـأحاول أن أعرض عليه (إجراء) مفاوضات مباشـــرة خارج كواليس لجنة التوفيق. على غـــرار المفاوضات التى أجراها. فـــى حينه. الدكتور آيتان مع فـــوزى الملقى (رئيس الوفد الأردنى). إذا نجحنا فى ذلك سنبلغك تلغرافيا ونطلب تعليمات» .

(١) النصوص الكاملة لرسائل ساسون إلى وزير خارجيته شاريت. والاتصالات التى أجراها. نشرت ضمن الإفراج الدورى عن وثائق السياســة الخارجية الإســرائيلية بمرور ٣٠ عاما. كذلك نشرتها مؤســسة الدراسات الفلسطينية. انظر أيضا كتاب : «من رودس إلى جنيف» عادل مالك. وكتاب «المسألة الفلسطينية» مهدى عبد الهادى.

ولم يكـن الوفد الإسـرائيلى يجرب تكتيكاته تلك فى لـوزان فقط. وإنما امتد إلى ما هو أبعد منها. فطبقا لما ورد فى الرسـالة الثانية من ساسـون إلى وزير خارجيته فى القدس. فـإن إسـرائيل تريد بأى ثمن القفز فوق رأس الوفد المصـرى الرسمى. إلى ما يتجاوز وزارة الخارجية التى يمثلها. أو الحكومة المصرية كلها.

فأثنـاء توقف مؤقت لعمل «لجنة التوفيق الدوليـة» فى لوزان. عاد عبد المنعم مصطفى رئيس الوفد المصرى إلى مصر. حيث اسـتقبله الملك فاروق شـخصيا فى مقابلة اسـتمرت عشرين دقيقة.

كان هذا أمرا ملفتا فى حد ذاته. فالملك. بحكم الدستور المصرى حينئذ. ليس من حقه التدخل فى أمور سياسية إلا عن طريق الحكومة المسئولة دستوريا أمام البرلمان. ثم إن الملك. إذا كان يريد معرفة ما يجرى فى لوزان حقا. فإنه يستطيع الاتصال برئيس الحكومة. أو بوزير الخارجية. بغير أن يقوم هو بنفسه باستدعاء دبلوماسى فى وزارة الخارجية لمقابلته.

ولكن. هذا هو ما حدث. وبمجرد أن بدأت مقابلة الملك فاروق لعبد المنعم مصطفى رئيس الوفد المصرى. فوجئ الأخير بأن الملك يسأله: إننى مهتم بأن أعرف منك أمرين..

أولا: لماذا يشـكوا منك الأعضاء الأمريكيون فى لجنة التوفيق الدولية (فى لوزان) ويطلبون استبدالك بشخص آخر ترسله الحكومة المصرية إليهم ؟..

ثانيا: لماذا يبدى (إلياهو) ساسـون تشـاؤما من موقفك فى لوزان. ويعتبر أن موقف الوفد المصرى هو السبب فى فشل محادثات لوزان حتى الآن ؟

ويبـدو أن عبـد المنعم مصطفى قد فوجئ تماما بمثل تلـك المعلومات الملفقة لدى الملك. والتى لا أساس لها بالطبع. فهو قادم لتوه من لوزان. ولم يفعل الوفد المصرى سوى التعبير عن الموقف الرسمى للحكومة المصرية.

وسأله عبد المنعم مصطفى : من أين لجلالتك بهذه المعلومات ؟

فـى تلك اللحظة مد الملك يـده إلى ورقة على مكتبه. ناولها لعبد المنعم مصطفى. قائلا له: خذ واقرأ..

وفوجئ عبد المنعم مصطفى من جديد بمجرد أن بدأ القراءة. فالورقة هى رسالة إسرائيلية. جاءت إلى الملك فاروق بعيدا تماما عن القناة الرسمية التى يمثلها الوفد المصرى فى لوزان. رسالة تحاول إسرائيل فيها الاتصال بالملك فاروق مباشرة من خلف ظهر الحكومة المصرية كلها. ولم يكن كاتب تلك الرسالة سوى إلياهو ساسون. المفاوض الإسرائيلى فى لوزان.. ضد عبد المنعم مصطفى - رئيس الوفد المصرى !

ولكن. كيف تلقى الملك فاروق تلك الرسالة ؟ ومن دولة هى رسميا فى حالة حرب مع مصر ؟ لقد عرف الدبلوماسى المصرى لحظتها أن لإسرائيل طرقا خلفية أخرى إلى الملك بعيدا عن حكومته وشعبه. فلقد وردت تلك الرسالة من ساسون فى لوزان. إلى الملك فى القاهرة. عن طريق إسماعيل شيرين زوج الأميرة فوزية - شقيقة الملك !

ولكن. لماذا تعتبر إسرائيل أن عبد المنعم مصطفى «غير متعاون» .. وأنه السبب فى تعثر مفاوضات لوزان ؟ لماذا يريدون قدوم إسماعيل شيرين نفسه بدلا منه ؟.

هنا نكتشف أن إسرائيل كانت قد طلبت من قبل. خارج المفاوضات الرسمية فى لوزان إجراءين محددين وهامين للغاية من مصر :

أولا: إطلاق سراح يعقوب وايزمان. اليهودى المصرى الذى كان سكرتيرا لاتحاد صهيونى مصر واعتقلته السلطات المصرية عشية حرب فلسطين..

وثانيا: إطلاق سراح بقية المعتقلين اليهود فى مصر تدريجيا. الذين تم اعتقالهم أيضا لأسباب سياسية وأمنية.

ولكن الملك فاروق يعد الآن بالاستجابة إلى هذين المطلبين. برغم أن هذا ليس من سلطته دستوريا. بعدها يضيف قائلا لعبد المنعم مصطفى : قل لليهود فى لوزان إن حكومتى تؤيد السلام والاستقرار فى الشرق بأسره. لكن ينبغى ألا يضغطوا علينا لتوقيع معاهدة سلام. فذلك أمر لا يمكن تنفيذه خلال الأشهر القريبة بسبب الوضع الداخلى فى مصر والعالم العربى بأسره».

كان الحديث عن «معاهدة سلام» إسرائيلية مع مصر جديدا على رئيس الوفد المصرى فى محادثات لوزان. ولكنه عندما عاد إلى لوزان وجد أن إلياهو ساسون يتحدث معه فى نفس الاتجاه. لقد قال له ساسون : «إن هناك فوائد مشتركة وضخمة يمكن أن تنجم عن الصلح

المنفرد مع مصر وإســرائيل» و «إن باســتطاعة إســرائيل ومصر. إذا توصلتا إلى تفاهم فيما بينهما. أن تقدما مساهمة كبيرة وبناءة فى سبيل استقرار الشرق الأوسط وتطويره وتقويته» .

(ولنلاحظ هنا مبدئيا أن هذا المدخل هو نفسه الذى استخدمه مناحم بيجين رئيس وزراء إســرائيل فى رده على الســادات بعدها بــ ٢٨ ســنة قبل أن تأتى لحظة الحقيقة فتطرح إسرائيل ما تعنيه تماما).

لكن. مثل تلك الصورة الســاذجة لم تنطل على دبلوماســى مصرى. فكما يسجل إلياهو ساســون نفسه فى رســالته الرابعة (٤ أغسطس ١٩٤٩) إلى وزير خارجيته شاريت. فيقول «إن عبــد المنعــم مصطفى لا ينكر أنه قال لنــا فى محادثات رودس. إنــه ليس لبلده أية مطامع إقليمية فى فلســطين. لايزال هذا الموقف قائمــا. لكن العبرة التى انتهى إليها بلده من اشــتراكه فى حرب فلســطين. تحتم عليه الاهتمام بأمنه. وقد أجرت حكومته خلال الأشــهر الستة الماضية استشارات بهذا الشأن مع عدد من الخبراء العسكريين – أمريكيين وبريطانيين وفرنسيين وبلجيكيين وسواهم – فقالوا جميعا إن على بلده :

أ- الاستمرار فى الاحتفاظ بقطاع غزة.

ب- توسيع مساحة هذا القطاع من الجنوب والشمال على طول الحدود المصرية.

ج- توسيع حدوده حتى البحر الميت. بناء على خط يشمل المجدل وبئر السبع.

د- أن يضم إليه النقب الجنوبى.

إن بلده بحاجة إلى (ج) و (د) لأغراض أمنية. وللاتصال المباشر أيضا بالأردن وبقية الدول العربية....» .

وبالطبع. رفض المفاوضون الإســرائيليون المبدأ من أساســه – مبدأ خروجهم من صحراء النقب التى احتلوها بقوة السلاح. ومن ثم كان الرد الإسرائيلى على رئيس الوفد المصرى هو أن مصر ليســت فى حاجة لكى تضمن أمنها من جانب إســرائيل و «أن الطريق السليم إلى ذلك هو : اتفاقية عسكرية بين مصر وإسرائيل» .

بكلمــات أخــرى : إن الانهيار الذى وقع فــى الأمن المصرى.. علاجــه هو المزيد من الانهيار فى الأمن المصرى !

من هنا – يسجل إلياهو ساسون – فإن عبد المنعم مصطفى «ثار قليلا. وقال : فلتفهموا أن مصر لا تريد حدودا مشتركة مع إسرائيل. ولو لم تقم إسرائيل لكانت مصر سعيدة. وقد فعلت كل ما فى وسعها لتحول دون قيامها. وهى مقتنعة بأن دولة إسرائيلية غريبة عن العرب فى كل شىء. داخل المحيط العربى. ستبقى حتما عاملا دائما للنزاعات والتعقيدات وعدم الاستقرار فى الشرق. وأضاف : ربما كانت مصر مخطئة فى تقديراتها لطبيعة إسرائيل ونواياها. لكن من المستحيل أن يقتلع. بالكلام فقط. اعتقاد مصر الخاطئ. على الأقل خلال فترة قصيرة.. كما أنه شرح للأمريكيين أن على الولايات المتحدة. إذا أرادت أن تعيد ثقة العالم العربى بها وتوفر الاستقرار فى الشرق الأدنى على مدى الأيام. الاهتمام بألا تصبح إسرائيل دولة كبيرة. وألا تكون قوية. وألا يكون فيها عدد كبير من السكان اليهود. كما شرح لهم أن مصر لن تشعر. فى قرارة نفسها. بأنها آمنة ومحصنة. وعلى حدودها فى النقب ثلاثة أو أربعة ملايين يهودى. كلهم ذو ثقافة ومبادرة. وكلهم مستعدون للتضحية بأنفسهم» .

وهنا رد عليه ساسون بأنه لا يوجد أى أساس لمخاوف مصر. ولا يوجد خطر اجتماعى أو عسكرى أو اقتصادى عليها من إسرائيل.

لكن الدبلوماسى المصرى قال بوعى عميق وتنبؤ صحيح بالمستقبل: «إن المستقبل وحده سوف يثبت ذلك. لكن على مصر. كدولة مستقلة. أن تأخذ فى الحسبان. ليس فقط «الاحتمالات المضيئة» . بل «الاحتمالات المظلمة» أيضا. وإلا فإنها ستخطئ بحق نفسها وأمام التاريخ» .

من هنا قام ساسون. فى رسالته التالية. بإخطار وزير خارجيته فى القدس بأنه «..واضح من هذا الوضع. أنه ليس ثمة ما يبرر تسرع (الملك) فاروق لعقد حلف مع إسرائيل بصورة أو بأخرى».

لقد فشلت إسرائيل فى استدراج دبلوماسى مصرى. يفهم جيدا عمله ومسئوليته. إلى فخ «التعاون المشترك» الذى قصدت به من البداية «التحالف المشترك» . تحالف تريد به إسرائيل أن تعزل مصر أولا عن عالمها العربى. قبل أن تخترق مصر نفسها.

فشلت إسرائيل. لكنها لم تيأس. ففى نفس اللحظة التى كانت تجرى فيها تلك المباحثات الإسرائيلية العربية فى لوزان. كانت إسرائيل. وبنفس الأشخاص المفاوضين عنها. تجرى محاولة أخرى للاتصال السرى مع الملك فاروق. وكما فى كل مرة. كانت إسرائيل تختار جيدا من البداية نوع الأشخاص الذين تركز تعاملها معهم. وتخترق السلطة السياسية عن طريقهم. إسرائيل كانت تسعى دائما إلى هذا النوع من الأشخاص.. وهم أيضا كانوا يسعون إليها.

فبينما كان إلياهو ساسون يتفاوض فى لوزان مع الوفد المصرى الرسمى تحت إشراف «لجنة التوفيق الدولية». كانت هناك مفاوضات سرية أخرى يجريها. ويخطر بها أولا بأول وزير خارجيته موسى شاريت فى القدس. وكانت تلك المفاوضات السرية تجرى مع أقرب شخص إلى الملك فاروق. إنه مستشاره الصحفى والإعلامى كريم ثابت !

إن كريم ثابت هو مجرد صحفى أفاق. من النوع الذى يحتاج إليه دائما كل حاكم فاسد يحيط نفسه بحاشية شرهة ومرتشية. وفى كتابه «فاروق ملكا» يرسم لنا أحمد بهاء الدين صورة دقيقة لكريم ثابت بقوله : «كان كريم ثابت صحفيا بالوراثة.. اشتهر بأنه نشأ فى دار المقطم. التى كانت لسان حال دار الحماية والمندوب السامى البريطانى.. كما اشتهر بعبقريته فى الكتابة عن الموضوعات التافهة! وكانت غزواته الصحفية الخالدة أن يعرف أصناف الأكل التى يحبها ملك إيطاليا. ونوع السجاير التى يدخنها ملك الأفغان! وفى سنة ١٩٢٧. وفاروق فى السابعة من عمره. بدأت صلة كريم ثابت «الروحية» به! فقد كتب كريم ثابت مقالا حماسيا خطيرا بعنوان ضخم يقول: نريد أن نرى الأمير فاروق!! وفى المقال. قال إن الشعب يشكو مر الشكوى. لأنه: حتى الآن لم ير صورة الأمير فاروق. ولم ير الأمير نفسه.. ولم يعرف بالدقة ماذا يأكل الأمير. وكيف يلعب الأمير. وإلى أى الهوايات يميل!!

«ولم يثمر المقال غايته المرجوة. وجاءت سنة ١٩٢٨. وكانت مصر كلها فى ثورة تطالب بدستورها المعطل. وفى غمار هذه الثورة استطاع كريم ثابت فى مقابلته مع شاهين باشا طبيب القصر أن يعرف بعض التفصيلات عن الأمير فاروق. فأسرع بنشرها فى مقال عريض».

«واستدعى فؤاد شاهين باشا. وزأر فى وجهه: أنت قرأت مقال كريم ثابت عن فاروق»؟

وتحللت مفاصل الباشا وهو يرتجف خوفا وقال بصوت مرتعد : ليه.. هو وحش؟..

«فقال الملك : بالعكس.. ده كويس قوى»..

«وتنفس الباشا الصعداء. وأسرع يقول : ده أنا أعطيته المعلومات يا مولانا» !

«وأصبح كريم ثابت اسما قريبا إلى قلب السراى» !

«ومرت السنوات. وأصبح فاروق ملكا. وكريم ثابت مازال يذرع الأرض جريا وراء معرفة أمزجة الملوك وهواياتهم.. وكأنه كان يستعد لليوم العظيم. والرسالة الكبرى.. حين تصبح مهمته إرضاء مزاج الملك فاروق وهواياته» !..

وبدأ كريم ثابت نشاطه «العلنى» بإصدار كتاب عن الملك فاروق.. نجتزئ من الكلام عنه بنقل فهرسه كاملا لترى - أيها القارئ - عبقرية كريم ثابت فى نفاقه مولاه.. وكيف استطاع أن يقدم سيده الجاهل الفاسق إلى الناس فى صورة العالم الديمقراطى الصالح.

الفصل الأول : كيف تشرفت بمعرفة الملك فاروق. الفصل الثانى : رحلات جلالته الصحراوية.. الفصل الثالث : كثرة معلومات جلالته وحبه للاطلاع والقراءة.. الفصل الرابع : ديمقراطية جلالته.. الفصل الخامس : فى غيرة جلالته على الدين.. الفصل السادس : فى عطف جلالته على الطبقات العاملة والصغيرة والمحرومة.. الفصل السابع : الملك الرياضى. وفيه يتحدث عن روح جلالته الرياضية وحبه للرياضة.. الفصل الثامن : فاروق المعتز بمصريته ومصر المعتزة به والتفاف الشعب حوله...

«ويقرأ الناس الكتاب الرائع وصاجوا : سبحان الله.. ما هذا بشر» !!

«وأصبح كريم ثابت من حاشية الملك. ثم أصبح مستشارا صحفيا له. ثم جعله باشا. وقبل سقوطه بأسبوعين جعله وزيرا ! وأصبحت مهمة كريم ثابت «العلنية» أن يسير خلف مولاه. ليحصى مناقبه. ويسجل للتاريخ حسناته. وينشرها على الناس فى كل حين» !

«.. وسافر الملك فى رحلة ماجنة إلى البحر الأحمر. فكتب كريم ثابت : إنه سافر لكى يبحث عن الثروة المعدنية ويدرس الجزر الصخرية !.. وضبط الملك مرة عائدا من سهرة ليلية فى شوارع القاهرة. فكتب كريم ثابت بالنص : كلما سمح الوقت لجلالته خرج من القصر متنكرا. وركب أول مركبة يصادفها فى طريقه. وطلب من سائقها أن ينطلق بها فى الأحياء الوطنية. وهناك يعكف

علـى درس حالـة الطبقات الفقيرة. التى لم تفتأ تلقى من عطفه وبره ما يعجز البيان عن وصفه ! ودعى الملك لزيارة مطار «بانيفيلد» الأمريكى أثناء الحرب. فكتب المستشـار الصحفى يقول : إنه أذهل الخبراء الأمريكان بعلمه عن فن الطيران !.. وسبحانه وتعالى. يؤتى العلم من يشاء !» .

ويسجل حسن يوسف وكيل الديوان الملكى فى تلك الفترة أن الملك فاروق طلب فى سنة ١٩٤٦ تعيـين كريم ثابت رئيسـا لتحرير جريدة الأهرام. وبالطبـع. كانت الفكرة فى ذلك هى أن كريم ثابـت يريد أن يضمن للملك جريدة كبرى تنافقه وتطبل له كل صباح. ولكن مجلس إدارة الأهرام رفض ترشيح الملك من أساسه.

وفى مذكرات محمد حسـين هيكل يسجل لنا: أنه فى السنوات الأخيرة من حكم فاروق كان كريـم ثابـت قد أصبح ذا نفوذ عظيـم.. يتقرب منه الوزراء والكبراء للحصـول على خدماته التى يقدمها إلى من يشاء حسب هواه.

لم يكـن فاروق مجرد ملك.. ولكنه كان لصا فاسـدا. والأفاقون واللصوص يعرفون دائما طريقهم إلى بعضهم البعض. ولم يكن كريم ثابت بنفاقه الملك يؤدى دورا لحسـاب نفسـه فقط.. ولكنه كان من البداية يؤدى دورا لحسـاب الحركة الصهيونية. حتى من قبل قيام إسرائيل رسميا كدولة.

فلقد سـافر مبكرا فى سـنة ١٩٣١ إلى فلسـطين مدعوا لزيارة المسـتعمرات الصهيونية هنـاك. وباعتباره صحفيا فى جريدة «المقطم» لسـان حال الاحتـلال البريطانى فى مصر. ومن هناك بدأ يكتب فى جريدة «المقطم» (عدد ٢٥ ديسـمبر ١٩٣١) عن تلك الظاهرة التى أثارت إعجابه وانبهاره : أولئك الشبان الوافدون إلى فلسطين. من بنى إسرائيل. ويجوبون الشـوارع. شوارع القدس فى نشاط وحيوية. ثم شيوخهم وكهولهم اليهود يبكون مجد بنى إسـرائيل وهيكل سـليمان. ويصلون متوسلين أملين أن تسـتجاب صلواتهم لإحياء المجد الغابر - مجد بنى إسرائيل !

ثم يواصل إعجابه وانبهاره قائلا: إن هؤلاء الشبان اليهود يعملون بهمة ونشاط من أجل تحقيق ما يصلى له كهولهم. فالقوم بين الأمل والعمل يعيشون !

وهذا الذى يدعو كريم ثابت إلى الإعجاب به كان ١٢٤ مستعمرة صهيونية تمت إقامتها

على أرض فلسطين حتى تلك السنة. وهذا «الأمل» الذى يعيشون من أجله هو إقامة دولة يهودية صهيونية على أرض فلسطين. وجثة شعب فلسطين ! إن كريم ثابت يحاول الترويج لدى القراء المصريين أن أولئك الصهيونيين الوافدين لاستعمار فلسطين هم مجرد قوم مساكين بلا مأوى. وعلى الفلسطينيين أن يكونوا كرماء وأسخياء فيفسحوا لهم أرضهم وبلادهم. أما المصريون. فعليهم أن يدركوا أن الصهيونيين قوم متحضرون. وبدلا من العرب المتخلفين يجب على مصر أن ترتبط ببنى إسرائيل فى سلام وود وصداقة. لأنه.. إذا جاملهم المصريون. فإن العالم المتحضر سوف يجامل المصريين ! ليس هذا فقط. بل إن بنى إسرائيل سيغدقون أموالهم على المصريين. صغيرهم وكبيرهم !

وهنا لم يكن كريم ثابت يتكلم من فراغ.. فلقد كانت الحركة الصهيونية تغدق عليه الأموال سرا ليكون مندوبها داخل القصر الملكى. وعينها على الملك فاروق !

إن هذا يعيدنا من جديد إلى الدور الذى لعبه كريم ثابت داخل مصر لحساب إسرائيل. بعد أقل من سنة واحدة على قيام إسرائيل كدولة فى فلسطين. فمن لوزان بسويسرا. يرسل إلياهو ساسون برسالة أولى إلى موسى شاريت وزير خارجيته فى القدس. يخطره فيها بالاتصالات السرية الأخرى التى تجرى مع كريم ثابت. المستشار الصحفى للملك فاروق. ومندوبه المشرف على دار الإذاعة المصرية. ولأهمية مضمون الرسالة. فإن من المفيد أن نقرأ النص الكامل لها. هذا هو :

«٣١ يوليو ١٩٤٩»

«موسى العزيز»

«تحياتى..»

« فور وصوله إلى أوروبا منذ عشرة أيام. طلب سلفاتور شيكوريل (رجل أعمال يهودى مصرى) من أميل نجار (كان رئيسا لاتحاد صهيونى مصر من سنة ١٩٤٣ إلى ١٩٤٧. ثم هاجر إلى إسرائيل وأصبح فيما بعد سفيرا لإسرائيل لدى إيطاليا) أن يبحث عنى ويصلنى به فى أقرب وقت ممكن. وأكد أنه يحمل لى رسالة من القاهرة.» يوم الأربعاء الماضى. جاء أميل نجار إلى لوزان. واصطحبنى إلى شيكوريل فى إيفان. لقد ذكر شيكوريل أنه غادر

القاهرة في طريقه إلى الولايات المتحدة لأغراض تجارية. ولكنه دعي قبل سفره ببضعة أيام إلى لقاء عاجل مع كريم ثابت مستشار الملك لشئون الإعلام. وكان (المستشار) أيام حرب فلسطين. وسيطا بين القصر والحكومة. وبين الجالية اليهودية في مصر. ساعد على مسائل كإخلاء سبيل. وغير ذلك. وحصل على أجر سخي مرة ٣٠ ألف جنيه مصرى. ومرة أخرى ٤٠ ألف جنيه مصرى.. إلخ. قال المستشار لشيكوريل إن الملك سمح بسفره إلى الغرب. ويريد الاستعانة به على نقل رسالة إلى أحد اليهود الصهيونيين ويدعى إلياس (إلياهو) ساسون. الموجود اليوم على حد علمه في باريس أو لوزان. وأضاف (المستشار) أن ساسون هذا معروف في مصر والعالم العربي كصديق للعرب. وكباحث عن طرق لإحلال السلام بين شعبه والشعوب العربية. وأجاب شيكوريل أنه لا يعرف ساسون. وأنه لم يمارس السياسة على الإطلاق، لا المصرية ولا العربية ولا الصهيونية. ولكنه مستعد لأن ينفذ، بطيبة خاطر وبأمانة. أية مهمة يكلف بها، خصوصا إذا كانت هذه رغبة الملك. الذى لولا عطفه وحمايته لكان جميع يهود مصر اليوم في عالم الفناء.

«قال المستشار (كريم ثابت) إن الرسالة قصيرة وتساعد على : أولا- تحسين وضع يهود مصر. ثانيا- التمهيد للتفاهم بين مصر وإسرائيل. ويرغب الملك في أن تنقل إلى ساسون قرار حكومته بأن تفعل كل ما تستطيع لتحسين وضع يهود مصر. ومنحهم من جديد الحرية التى كانوا يتمتعون بها سابقا. والإفراج تدريجيا عن المعتقلين وعن أملاكهم. كذلك قررت حكومة مصر النظر بجد إلى الوضع الذى قام في فلسطين. مقابل ذلك. يطلب الملك أن تتوقف الإذاعة والصحافة الإسرائيلية عن مهاجمته ومهاجمة حكومته وشعبه. وأن تستخدم إسرائيل كل قوتها ونفوذها لوقف الحملات على مصر في الصحافة الغربية. وخصوصا في الصحافة الأمريكية.

«واختتم (المستشار) قائلا : هذه هى الرسالة التى يطلب منك الملك أن تنقلها إلى ساسون. وإذا لم تجده في أوروبا لسبب ما. حاول أن تجد شخصية صهيونية مسئولة أخرى تنقل بواسطتها هذه الرسالة إلى حكومة إسرائيل».

«وفى نهاية حديثه صافح (المستشار) شيكوريل. وتمنى له باسم الملك وباسمه رحلة طيبة وموفقة».

«سأل شيكوريل. بعد أن أنهى حديثه. ما إذا كان بإمكانه اعتبار مهمته منتهية. وأضاف أن (المستشار) لم يطلب منه أن يكتب له عن نتائج اجتماعاته بساسون أو ١٤٨بشخصية صهيونية أخرى. وهو يفضل. بعد أن يكون سلم الرسالة. أن ينفض يده من المهمة كلها».

«وفى ردى. حدثته عن الفائدة التى ستعود على يهود مصر نتيجة أى تقارب بين بلدهم وإسرائيل. وأوضحت له أنه لا يجوز إضاعة مثل هذه الفرصة. بل على العكس. ينبغى استغلالها قدر المستطاع. ومن حقه أن أذكر أنه وافق على كل كلامى. وقال إنه مستعد للقيام بأية خدمة أكلفه بها. وقال إنه عطف دائما على مشروعنا. ولم يوافق أبدا على إصدار أى تصريح ضد الصهيونية. وتحدث أيضا عن علاقته الحسنة برجال القصر والسياسيين ورؤساء الأحزاب. وأكد أنه سيكون سعيدا بتقديم أية مساعدة.

وبعد ما تشاورنا نحن الثلاثة – شيكوريل. ونجار. وأنا – تم الاتفاق على :

١ – أن يؤخر شيكوريل سفره إلى الولايات المتحدة بضعة أيام.

٢ – أن يكون مستعدا للعودة إلى مصر لبضعة أيام إذا طلب منه ذلك.

٣ – أن يرسل برقية إلى (المستشار كريم ثابت) يطلعه فيها على اجتماعه بى. وعن تسلمى الرسالة. وعن المعاملة الإيجابية والودية التى لاقيته بها. وأن يبلغه أيضا. أن ردى يحتم ردا من جانبهم. وأن يطلب السماح له بالعودة لبضعة أيام إلى مصر من أجل ذلك. وقد تم وضع نص البرقية فى الحال. وأرسلت. وإذا حصلنا على رد إيجابى. فسأزوده بكل ما هو مطلوب بناء على تعليماتك. والواقع أن هذا الأمر. بحد ذاته.هام جدا.

تحية وسلاما.

إلياس (إلياهو) ساسون

إن تلك الرسالة. التى بعث بها إلياهو (إلياس) ساسون إلى وزير خارجيته موسى شاريت فى ٣١ يوليو سنة ١٩٤٩ تثير عدة نقاط.

فأولا– فيما يتعلق بسلفاتور شيكوريل نفسه. رجل الأعمال اليهودى المصرى الذى أصبح مليونيرا فى مصر بسبب الأموال التى حصل عليها من محلاته المعروفة باسمه فى مصر – أى من المستهلك المصرى والمشترى المصرى – إنه مع كريم ثابت فى القصر الملكى

بالقاهرة يناقش أمرا سياسيا. برغم أنه «لم يمارس السياسة على الإطلاق. ولا المصرية ولا العربية ولا الصهيونية» !

وهذا مبدئيا غير صحيح. فسيلفاتور شيكوريل تولى رئاسة نادى المكابى فى مصر. وهو جمعية مسجلة رسميا باسم «الاتحاد الرياضى والأدبى-المكابى» كانت قد تشكلت منذ سنة ١٩١٠ فى الإسكندرية. ولم يكن الهدف من هذا النادى. وسلسلة النوادى التى أقيمت فى مصر على غراره بعد ذلك. هو مجرد نشاط رياضى أو أدبى كما يوحى اسمه. لقد أعلن اليهود منذ تأسيسه أن برنامجه هو «إيقاظ الوعى القومى اليهودى. وتنمية الروح المعنوية. وتقوية أبدان الشبيبة. وخلق إحساس التضامن فى نفوسهم» . وتسجل دراسة نشرها السيدان / أحمد أبو كف وأحمد محمد غنيم عن دار الهلال بالقاهرة. إن نادى المكابى بالإسكندرية قد «ساهم مساهمة فعالة فى استقبال المهاجرين اليهود الذين وفدوا إلى المدينة عام ١٩١٤... واستغل القائمون على أمر النادى هذه الفرصة ليعمقوا فى نفوس الأعضاء الشبان الإيمان بفلسطين كوطن قومى لليهود. وليشجعهم على دراسة اللغة العبرية» .

وبرغم أن مصر قد فتحت أسواقها وصدورها أمام سيلفاتور شيكوريل. فأنعمت عليه برتبة الباكوية فى سنة ١٩٣٧. وأوفدته ضمن البعثة الاقتصادية التى سافرت إلى السودان. فإن ولاءه للحركة الصهيونية كان أكبر من ولائه إلى مصر نفسها التى يحمل جنسيتها. لقد كان من مؤسسى جماعة «أصدقاء الجامعة العبرية» التى أقامها الصهيونيون بالقدس. وعضوا فى جمعية التدريب المهنى. التى تأسست بتبرعاته وتبرعات سالمون شيكوريل. لتدريب المهاجرين اليهود الجدد. قبل تهجيرهم إلى المستعمرات الصهيونية فى فلسطين.

أكثر من ذلك. فإنه يقرر هو نفسه أمام إلياهو ساسون أنه «عطف دائما على مشروعنا - بإقامة الدولة اليهودية فى فلسطين - ولم يوافق أبدا على إصدار تصريح ضد الصهيونية» . وحينما تقرر أن يكتب برقية من لوزان إلى المستشار الإعلامى للملك فاروق بالقاهرة عن نتائج «مهمته» فإن البرقية يتم وضعها فى حضور. وباشتراك. الطرف الإسرائيلى نفسه الذى يمثله إلياهو ساسون وأميل نجار.

أما بالنسبة للوسيط الآخر فى هذه «المهمة». كريم ثابت. فإن الأمر هنا يبدو أكثر

غموضا وإثارة وريبة. فأولا ـ تبدو العلاقة الوثيقة بين إسرائيل وبين هذا الرجل من خلال وقائع محددة. هى توسـطه للإفراج عن مسـجونين سياسـيين صهيونيين فى القاهرة. وكانت رشوته فى مرة هى ثلاثين ألف جنيه مصرى. وفى مرة أخرى أربعين ألف جنيه مصرى.. إلى أخره على حد تعبير ساسـون ـ الأمر الذى يبين طبيعة وحجم تلك العلاقة الخفيـة. وإذا كان هـذا الجزء فى علاقـة كريم ثابت بالصهيونية خفيا. فإن مشـاعره السـابقة نحو الاسـتعمار الصهيونى فى فلسطين منشورة ومعلنة قبل سنوات طويلة. مع ذلك فإن فاروق. كملك فاسـد وفاسق. اصطفاه ليكون مستشارا إعلاميا له ومشرفا باسمه على دار الإذاعة المصرية.

إن الخونة دائما يتجمعون معا.. ويشمون رائحة بعضهم البعض !

ولقد اسـتطاع كريـم ثابت بمركزه الخطير هذا – المستشـار الصحفـى والإعلامى لملك مصر– أن يفعل كل ما فى استطاعته للإضرار بأمن مصر. وما كان فى استطاعته.. كثير.

إنه هنا يكلف سـيلفاتور شـيكوريل بمهمة باسـم الملك فاروق. ولكن ما سرده الدكتور محمد حسـين هيكل قبل ذلك يؤكد أن تلك المهمة. برغم كل فسـاد فاروق. لا يمكن أن تكون بعلمه على الإطلاق ! فلو كان فاروق راغبا حقا فى تهدئة الهجوم عليه فى الصحف الأمريكية. فالأقرب إلى المنطق عقلا أن يتحدث فى ذلك إلى السفير الأمريكى بالقاهرة. وقد كان صديقا شخصيا له. ولو كان فاروق راغبا فى التوصل إلى مشروع سلام مع إسرائيل. فقد أبلغه الدكتور محمد حسين هيكل بمشروع السلام الذى تعرضه إسرائيل عليه. ولكن الملك لم يشـجعه على الاستمرار. ولو أن الملك فاروق يريد أيضا التوصل إلى إبرام معاهدة رسمية مع إسرائيل. فالأجدر به أن يكون وسيطه هو إبراهيم عبد الهادى رئيس ديوانه الذى تلقى أولا مشـروع المعاهدة الإسـرائيلية. وأصبح الآن رئيسا للوزراء.. أو أن يكون الدكتور هيكل نفسه الذى اجتمع مع ساسون من قبل وتربطه به معرفة شخصية.

ولكن فاروق. برغم فسـاده. أدرك أن إسـرائيل لا تفكر فى سلام مع مصر. وإنما تفكر فقط فى عزل مصر وذبحها. ولهذا فإنه لم يجرؤ على المضى فى هذا الطريق.

أما مستشاره الصحفى والإعلامى. كريم ثابت. فلا يعنيه هذا الطريق. إن كل ما يعنيه

هو أن يحصل على عمولته كسمسار. لقد كوفئ جيدا من الصهيونيين من قبل. مرة ثلاثين ألف جنيه. ومرة أربعين ألف جنيه.. إلخ. وفى اللحظة التى يستكشف فيها كريم ثابت هذا الطريق الجانبى «للتفاهم» مع إسرائيل. والوسيلة السرية للاتصال معها. فإن كل الأطراف تعرف أنه سمسار يريد أن يساهم فى المهمة - مهمة بيع مصر إلى دولة معادية فى حالة حرب معها. إلياهو ساسون يعرف.. وموسى شاريت يعرف.. وأميل نجار يعرف.. وسيلفاتور شيكوريل يعرف.

ولكن مصر نفسها.. لا تعرف. وسوف يمر بعض الوقت. فنحن الآن فى ٣١ يوليو سنة ١٩٤٩. قبل أن يفتح مواطن مصرى واحد ثقبا واحدا فى حائط السرية. لكى ترى منه مصر فساد كريم ثابت - المستشار الصحفى والإعلامى للملك فاروق. سوف تمر عشرة أشهر تقريبا. قبل أن تسجل مضبطة مجلس الشيوخ المصرى نص استجواب موجه من العضو مصطفى مرعى إلى «حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس مجلس الوزراء. عن تصرفات بدت من الحكومة كان لها أثرها فى استقالة الرئيس السابق لديوان المحاسبة» .

إن تاريخ الاستجواب هو ١٨ مايو سنة ١٩٥٠. والمناقشة بدأت فى ٢٩ مايو. وللوهلة الأولى لا تبدو للمسألة كلها علاقة بكريم ثابت. ولكن. حيث يوجد الفساد.. لابد أن يكون هناك فاسدون.

من هنا تبين بعد قليل. أنه «ذهب رجال الديوان - ديوان المحاسبة - لأداء واجبهم.. فإذا بهم يجدون خمسة آلاف من الجنيهات تخرج من مال هذا المعهد الخيرى - مستشفى المواساة - الذى تعينه الحكومة. وتعينه البلدية. ويعينه الخيرون من الناس. صرف هذا المبلغ بتحويل على بنك مصر تاريخه ١٤ يناير سنة ١٩٤٨. لشخص معين هو كريم ثابت باشا. ورقم هذا الشيك هو ١٥٢١٢. وفى دفتر الصرف ذكر مقابل هذا المبلغ الذى تسلمه الباشا إنه للدعاية والنشر. الخاصين باليانصيب والإعانات» .

إن الباشا.. مرتشى. و «الباشا» يقتطع رشوته من أموال خيرية. مخصصة لأغراض خيرية. وتستخدم فى علاج المرضى من الفقراء المحتاجين. إنها قضية ساخنة إذن. وملتهبة. وتثير أكبر ضجة - وقد أثارت فعلا.

ولكن مصر لا تعلم بعد أن «الباشــا» الذى ضبط متلبسا بالرشوة على حساب المرضى من الفقراء أبناء مصر.. فقد كان فى نفس اللحظة تقريبا متلبســا بالرشــوة على حساب شهداء مصر فى فلسطين ! إن مصر تعلم فقط أن كاتبا شجاعا. هو إحسان عبد القدوس. كتب فى مجلة «روز اليوســف» عن جريمة كبرى هى : الأســلحة الفاسدة التى تم توريدها ليحارب بها الجيش المصرى فى فلسطين. ومصر تعلم فقط أن سياسيا شجاعا. هو مصطفى مرعى. قد بدأ يفجر قضية كبرى فى مجلس الشيوخ. بالأرقام والإحصائيات : لقد تم توريد خمسة آلاف طلقة مضادة للدبابات إلى مصر.. ثبت فسادها. ومع ذلك فقد تتابع التوريد من إيطاليا حتى صار مجموع ما أرســل أكثر من ١٦ ألف قذيفة. ثم ٢٣ ألف قذيفة. وقد تم هذا كله برغــم أن الجيــش المصرى كتب رسميــا يطلب إلغاء العقد وإيقــاف الصفقة. ولكن الصفقة لم تلــغ.. والعقد لم يتوقف تنفيذه. بل أكثر من ذلك. تتابعت صفقات أخرى تلقى الجيش المصرى بمقتضاها أسلحة فاسدة أخرى ليواجه بها إسرائيل فى فلسطين.

وأصبح الســؤال هو : من الذى يملك هذه الســلطة ؟ ومن الذى يملك الدافع أصلا لقتل أبناء مصر بسلاحهم أمام عدوهم ؟

إن كل فضيحة تجر إلى فضيحة أكبر. وكل مرتش يشير إلى مرتش أكبر. وفى وسط هذا كله يظهر لنا من جديد : كريم ثابت !

إنه نفس كريم ثابت الذى كتب من فلســطين ســنة ١٩٣١ فى جريدة «المقطم» بالقاهرة يحى الاستعمار الصهيونى فى فلسطين. وهو نفسه الذى يشترك فى توريد الأسلحة الفاسدة للجيش المصرى. وهو نفسه الذى يبحث الآن عن طريق خلفى للاتصال والتفاهم مع إسرائيل من خلف ظهر الحكومة المصرية. إنه يفعل ذلك الآن وهو يشغل مركزا خطيرا ضخم النفوذ والتأثير هو : المستشار الصحفى والإعلامى للملك مصر.

الآن فقط أيضا. يبدو أن إســرائيل تختار عملاءها جيدا. والآن تكتشــف مصر أن الولاء لا يتجــزأ. فمــن لم يكن لديه ولاء لمصر فى ســنة ١٩٣١. لا يمكن أن يتولد فيه هذا الولاء فجأة فى سنة ١٩٤٩.

الآن فقط تكتشــف مصر. ليس فقط أنها نامت طويلا. وخدعت طويلا. ولكن أيضا أن

مصيرها موجود في أيدى مجموعة من السماسرة والمرتشين. ولم يكن كريم ثابت سوى مجرد نموذج لهم.

وكريم ثابت نفسه. وهو يتصل بالإسرائيليين عن طريق سلفاتور شيكوريل في لوزان يعرف جيدا أنه يرتكب خيانة عظمى ضد مصر. ولذلك فإنه لا يريد أن يضبط متلبسا. ولقد لاحظ ذلك أيضا إلياهو ساسون المسئول الإسرائيلي. فسجل في رسالته الثالثة التي بعث بها في أغسطس سنة ١٩٤٩ إلى وزير خارجيته موسى شاريت قائلا : «.. مرت ثمانية أيام منذ أرسل سيلفاتور شيكوريل البرقية إلى المستشار (كريم ثابت) ولم يصل حتى الآن أى رد. ولا يعرف شيكوريل معنى هذا الأمر. ولعل المستشار حذر إلى درجة أنه لا يريد أن يورط نفسه بأشياء مكتوبة» .

وكان هذا تحليلا واقعيا. فكريم ثابت. المستشار الصحفي والإعلامي للملك فاروق. يعرف أنه «متورط» .. وهو لا يريد أن يثبت على نفسه هذا «التورط» كتابة.. وهذا يؤكد مرة أخرى أن تورطه هذا يتم من خلف ظهر نفس الرجل الذى يفترض أنه يخدمه : الملك فاروق.

ولكن كريم ثابت لا يتصرف باعتباره رجل الملك فاروق. إنه يتصرف باعتباره رجل إسرائيل لدى الملك فاروق. لهذا، وبرغم أنه «حذر لدرجة أنه لا يريد أن يورط نفسه بأشياء مكتوبة» .. فإنه سرعان ما تلقى رسالة أخرى يبلغه فيها سيلفاتور شيكوريل بطلبات محددة قدمها إلياهو ساسون ممثلا للجانب الإسرائيلي. والطلبات هي :

أولا : يجب أن تتوقف الصحف المصرية عن حملتها ضد إسرائيل والصهيونية. وهذا ينطبق على الإذاعة المصرية أيضا. إلياهو ساسون «يلفت انتباهكم إلى هذا الأمر» .

ثانيا : يرجو إلياهو ساسون أن «توعزوا إذا أمكن، لرئيس الوفد المصرى فى لوزان، ليتعاون معه على نجاح المحادثات. الأمر الذى يعود بالخير على الطرفين» .

ثالثا : يعتقد إلياهو ساسون أنه «من المستحسن كثيرا أن ترسلوا تعليمات إلى جميع ممثليكم في المؤسسات الدولية والعربية. لوقف تهجمهم على حكومته-حكومة إسرائيل-وبلده».

رابعا : إن الياهو ساسون «مستعد للاجتماع بسرية بالغة. بأى شخص توفدونه إلى سويسرا أو فرنسا أو أى بلد محايد آخر» ..

تلك هى قائمة الطلبات التى أملاها إلياهو ساسون على سيلفاتور شيكوريل فى لوزان، لكى يرسلها بالنص إلى كريم ثابت فى القاهرة. فالمهم هو أن تسكت الصحافة والإذاعة فى مصر عن أهداف ومطامع إسرائيل. لقد قامت إسرائيل كدولة فى حماية غطاء من الصمت استمر لسنوات طويلة. والآن فإن يقظة الصحافة والإذاعة فى مصر يمكن أن تؤدى إلى تنبه الرأى العام والوعى القومى فى مصر.. وهو مالا تريده إسرائيل على الإطلاق. وسيلفاتور شيكوريل. وهو ينقل ذلك إلى كريم ثابت «باشا» المستشار الصحفى والإعلامى للملك فاروق فى القاهرة فإنه يبلغه بأن ساسون «يلفت انتباهكم إلى هذا الأمر» .

إن العملاء يجب لفت نظرهم بين وقت وآخر. والعملاء هم الذين يتم الاجتماع بهم وبمثليهم «بسرية بالغة» . والعملاء هم الذين يجب أن «يوعزوا» .. ليس فقط لأنهم لا يستطيعون أن يجاهروا. وليس فقط لأنهم عملاء. ولكن الأخطر والأهم هو أنهم عملاء.. فى المراكز العليا !

ولقد تأخرت يقظة مصر كثيرا عما يجرى فى فلسطين بسبب العملاء فى المراكز العليا. وسالت دماء الشهداء من أبناء مصر فى فلسطين هدرا بسبب العملاء فى المراكز العليا. إن خطورتهم لم تكن تكمن فقط فى أنهم عملاء بأنفسهم، ومن حيث هم. ولكن أيضا فى امتدادهم إلى آخرين من خلال نفوذهم. ففى تلك الفترة كتب الدكتور محمد حسين هيكل مثلا عن المدى الذى وصل إليه نفوذ كريم ثابت فقال : «أيا كان مصدر القوة التى تشع عن كريم (باشا) فإن نفوذه قد امتد إلى آفاق واسعة فى الدولة. فأغلب الوزراء يطمعون فى رضائه ويغتبطون بمودته».

كان كريم ثابت يعطى للحاكم سلعة تخصص فيها : النفاق. منتهى النفاق. وكان يحصل على الثمن عدا ونقدا.. من أموال مصر.. ودماء أبناء مصر. لقد كان مجرد واحد من سماسرة كثيرين. حاولوا من البداية تنويم مصر وتخديرها حتى لا تنتبه إلى الخطر القادم ضدها فى فلسطين. وحينما استيقظت مصر فى النهاية أصبح هزيمة هدفهم هو هزيمتها حتى تفشل فى مواجهة الخطر ضدها، بترويج الأفكار الفاسدة. وبتوريد الأسلحة الفاسدة.

إن تلك الصفقات. بتعبير إحسان عبد القدوس. كان «اليهود يحاولون بيعها إلى الجيش

المصرى ليحاربهم بها. وتلك الصفقات. على ما كشفت عنه دراسة «الرأسمالية اليهودية» لأنس مصطفى كامل. كانت للملك فاروق نفســه عمولاته الخاصة فيها. وقد لعبت الممثلة اليهودية المصرية وقتها كاميليا واسمها الحقيقى ليليان كوهين. دورا فى الاتصالات بشأنها بين مصر وإيطاليا. بل إن شركة يهودية فى مصر. كانت تسيطر على شركة الغاز المصرية وشــركة الغاز الأهلية. كانت تتعامل فى نفس الوقت مع المصانع الصهيونية بفلســطين. وتســتخدم إمكانيات الشــركة فى مصر لخدمة الصناعة الصهيونية فى حيفا وعكا وطبرية. وبعد تجميد نشــاطها فى مصر ســنة ١٩٤٨ تبين أنها قامت بتهريب مواد كيماوية هائلة استخدمها الصهيونيون فى الحرب ضد المصريين أنفسهم. وبلغ إجمالى قيمتها نصف مليون جنيه مصرى- بالقيمة النقدية لسنة ١٩٤٨ !

وهكذا اســتطاع النفوذ الصهيونى أن يبيع ويروج بين الشــعب المصرى أفكار سياســية فاســدة قبل قيام إسرائيل كدولة. ثم اســتطاع فى الحرب مع الدولة أن يبيع لمصر أسلحة فاســدة. والآن. بعد اتفاقيات الهدنة رأينا المعاهدة الرسمية الأولى لتحقيق الســلام و «الود والصداقة» مع مصر التى لم يجرؤ حتى الملك فاروق، على فســاده. على مجرد أن يبحثها كمشــروع رسمى. ثم أصبحنا نرى محاولة إســرائيل. من خلال كريــم ثابت. على تكميم الصحافة والإذاعة فى مصر. وإشــاعة مناخ من التعتيم الإعلامى حول سياســة إســرائيل وأهدافهــا بالمنطقــة. مناخ كان يفــترض أن «يوعز» به كريم ثابت نفســه من خلال مركزه ونفوذه.

والواقــع أن كريــم ثابت لم يكن شــخصا. كان ظاهرة. إنه مجرد واحد من الحاشــية المحيطــة بفــاروق والدائرة القريبة منه. دائــرة كانت تتكون من إليــاس أندروس. وكريم ثابت. وإدجار جلاد. وأنطوان بوللى.. إلخ. دائرة من أناس ليس لديهم أى انتماء إلى مصر أو ارتباط مع شعبها. وهم لم يكونوا يلتفون حول الملك ليلا إلا حول مائدة قمار. حيث كان الملك فى سنواته الأخيرة مقامرا مريضا ومواظبا.ولكن اللعب بالنقود على مائدة قمار شىء.. واللعب بمصير شــعب وبلد بالكامل.. هو شىء آخر. وفى هذه اللعبة الأكبر والأخطر. فإن فاروق لم يكن سوى أداة. وكريم ثابت ليس أكثر من رمز.

لقد بدأت المقامرة مبكرا.

بدأت يوم تهاون أول سياسى فى فهم طبيعة الاستعمار الصهيونى فى فلسطين. ويوم سكت أول قلم عن التنبيه إلى هذا الخطر الصهيونى فى فلسطين. يوم تكاسل أول مسئول عن قراءة البرامج الصهيونية. حتى المعلنة منها. بشأن فلسطين. برامج لم تكن أسرارا ولا طلاسم. ولم تكن تحتاج فى تفسيرها ومعرفة نتائجها إلى قراءة كف أو رصد نجوم.

إن الأهداف الصهيونية كانت متاحة ومعلنة لمن يريد أن يعرفها. وكانت متاحة هنا فى مصر. تحت سمع ونظر الجميع. ولكن أحد لم يقرأ. وأحدا لم يستوعب. وأحدا لم يتنبه أو يتحرك فى الوقت المناسب. ليس فى مصر فقط. ولكن فى العالم العربى بأسره. إن مصر هنا هى مجرد صورة مكبرة. لمجرد أنها الأكبر حجما والأكثر قدرة على فهم حدود الخطر قبل غيرها.

ومسئولية مصر هنا هى نحو أبنائها بالدرجة الأولى. لقد كانت هناك أخطاء. بل خطايا. ارتكبها ذلك الفريق من السياسيين فى فلسطين وسوريا والعراق وشرق الأردن ولبنان. وتلك الخطايا. قد تخفف منها ظروف كانت قائمة فعلا. على رأسها الاحتلال الأجنبى -احتلال فرنسى فى سوريا ولبنان. وبريطانيا فى مصر والعراق وفلسطين.

وهذا الاحتلال يخفف. ولكنه لا يلغى مطلقا. تلك الخطايا. والخطيئة الكبرى هى أنهم ساهموا. بسلبية أو إيجابية. فى عملية التخدير المستمر للرأى العام. هذا التخدير أتاح للحركة الصهيونية وقتا وموارد كانت فى أمس الحاجة إليها. وعندما صدر وعد بلفور فى سنة ١٩١٧ أخذه الجيل العربى المسئول وقتها باستخفاف أو بجدية أقل من خطورة الموقف. بل وأعطى أذنيه أحيانا لأصوات تقول له : ما لنا نحن بفلسطين ؟ مالنا وقيام وطن قومى صهيونى فى فلسطين ؟ إنهم قوم جاءوا إلى فلسطين فقط لكى يبحثوا عن «مأوى» لهم-وهذا كل شىء.

ولقد ظلت تلك النظرة هى السائدة. مع أنه كان يمزقها بين وقت وآخر أصوات فاهمة وواعية وقلقة على وطنها حقا. وهكذا مثلا. رأينا أحمد ذكى يرفض دعوة للذهاب للاشتراك فى افتتاح الجامعة العبرية بالقدس. ورأينا محمد على علوبة يذهب إلى فلسطين

ســنة ١٩٢٩ صارخا بأن ما يجرى فى فلســطين هو خطر حقيقى موجــه إلى مصر. ورأينا إبراهيم عبدالقادر المازنى يكتب فى أغسطس سنة ١٩٣٥ قائلا : «لقد فشلت الثورة المصرية (١٩١٩) لأننا أحطنا قوميتنا بمثل صور الصين. ذلك لأنى أؤمن بما أسميه القومية العربية. وأعتقد أنه من خطأ السياســة وضلال الرأى أن تنفرد كل واحدة من الأمم العربية بســعيها غير عابئة بشقيقاتها» . ورأينا هدى شعراوى تقيم فى سنة ١٩٣٨ مؤتمرا نسائيا عربيا فى القاهرة لنصرة فلســطين. ورأينا مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد يكلف وليم مكرم عبيد أولا بجولة إلى فلســطين والمشــرق العربى فى ســنة ١٩٣١. ثم يكلفه بكتابة مقال فى عدد شــهر أبريل ســنة ١٩٣٩ فى مجلة الهلال مسجلا فيه : «ليس من حق المصريين أن يديروا ظهورهم للعرب متمسكين بصلتهم بالمدينة الفرعونية التى انقرضت إلى غير رجعة. فالعربية ليست جزءا من ماض محنط، إنها جزء من حاضر حى» .

بل إننا رأينا مصطفى النحاس نفسه. وهو رئيس للوزراء فى سنة ١٩٣٧. يبلغ السفير البريطانى فى القاهرة بقلق مصر من حركة الاســتعمار الصهيونى فى فلســطين. ويقول له ببصيرة نافذة : من يدرينا ألا يأتى إلينا هؤلاء القوم يوما ما فى المســتقبل لكى يســتعمروا ويحتلوا سيناء نفسها ؟

كانت هناك صحوة أحيانا. وأصوات فاهمة وواعية أحيانا. وكان هناك أيضا من يكتبون تلـك الصحوة ويحاصرون تلك الأصوات. والذين حاربــوا الصحوة كانوا ينتمون فى جميع الأحــوال للأقلية المتحالفة مع الاحتــلال البريطانى فى مصر. أو مع النفوذ الصهيونى فى مصر أيضا. هكذا نستطيع أن نرى مواقف جريدة «المقطم» و «السياسة» و «الاتحاد» وغيرها. وهكذا نســتطيع أن نفسر مواقف توفيق نســيم ومحمد محمود فى سنة ١٩٢٥. وإسماعيل صدقى فى ســنة ١٩٢٩. ومحمود فهمى النقراشى فى ســنة ١٩٤٨، وإبراهيم عبدالهادى فى سنة ١٩٤٩.

وكان هنــاك أيضا كتاب ظلوا يحســنون الظن بالحركة الصهيونية فى فلســطين حتى اللحظة الأخيرة. كتاب مثل أحمد لطفى السيد «الذى امتلك شجاعة الاعتذار عن حضوره

افتتاح الجامعة العبرية، ومحمد حسين هيكل وسلامة موسى. كتاب كانوا يخوضون فى بحر لم يتدربوا على السباحة فيه. لقد كانوا أدباء أو مفكرين أو كتابا.. ولكنهم خاضوا أحيانا فى أفكار سياسية بغير إدراك كامل للإطار السياسى الذى يجب أن تتحرك فيه. وتعبر عنه. مصالح مصر وأمنها. لقد كانت فلسطين بالنسبة لهم جزءا من القضية العربية. بينما على مصر أن تنتمى إلى أوروبا كما حاول بعضهم الترويج أحيانا. أو تنعزل عن المحيط العربى أحيانا أخرى. أو تدعوا إلى الفرعونية أحيانا ثالثة. كانوا ضحايا لتشويش كبير. وهو فى حد ذاته تعبيرا عن قصور الوعى السياسى القومى.

لقد كانوا يريدون السلامة لأنفسهم وبلادهم. ولكن الخطأ كان يكمن فى الأسس التى أقاموا عليها من البداية فهمهم لتلك «السلامة» نفسها. لقد أفاق كثيرون بعد ذلك. ولكن هذا حدث بعد أن ضاع وقت طويل مخصوم منا ومضاف إلى رصيد الجانب الآخر. ولأن التشويش لم يتولد فى لحظة.. فإن إزالته لم تكن ممكنة فى لحظة.

لقد اعتمد هذا التشويش طويلا على خرافة : ما لنا وفلسطين ؟ !

وهذا التشويش ظل قائما وسائدا. منذ سنة ١٩١٧ إلى سنة ١٩٤٨ على الأقل. بغير أن يبذل أحد مجهودا لكى يتأكد بنفسه من أى شىء. لم يكن الأمر شاقا ولا عسيرا أبدا. لم يكن يحتاج إلى أكثر من رحلة - بالقطار من القاهرة إلى القدس مباشرة.. أو بالطائرة من القاهرة إلى اللد أو الرملة - حتى يرى الجميع أن ما يجرى إقامته هناك ليس مجرد «مأوى» ليهود «مساكين».. ولكنه بناء لدولة جديدة مسلحة فى فلسطين. مسلحة ضد من ؟ لم يفكر أحد. لم يسأل أحد. ربما يكون هذا السلاح لحفظ النظام ؟ لحماية الماشية ؟ لتهديد اللصوص؟ ومن هم اللصوص؟ لا أحد أخذ الأمور بجدية. لقد ظل الحال كذلك لإحدى وثلاثين سنة على الأقل سابقة على سنة ١٩٤٨. بل إنه عندما نشبت الحرب فعلا سنة ١٩٤٨ كانت المنظمة الصهيونية لا يزال لها فرع مسجل رسميا بالقاهرة. والصحف اليهودية تصدر فى القاهرة لتدعوا إلى التبرع لبناء المستعمرات بفلسطين.

وهكذا. عندما أصبح على جيل الأبناء أن يذهب محاربا إلى فلسطين فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨. كان قد تقرر على أرض فلسطين فعلا واقعا جديدا. لقد قامت بالفعل دولة

صهيونية ذات أنياب ومخالب. على مرأى ومسمع من جيل الآباء. واكتشف الأبناء فى أرض القتال أن عليهم أن يسددوا فاتورة الحساب ليس فقط لأنها تستحق الدفع. ولكن لأنها محوله إليهم من ذلك الفريق من سياسى الأقليات السياسية والفكرية.

لقد دخل الأبناء حرب ١٩٤٨. وشيئا فشيئا اكتشف الجميع أنهم خسروا الحرب. إنهم لم يخسروا لأنهم يمثلون الباطل وعدوهم يمثل الحق. ولكنهم خسروها لأنهم وضعوا فيها إمكانيات أقل مما يجب، وكان استعدادهم لها متأخرا عما يجب. وفى وقت أقصر مما يجب. لقد استعدوا لها فى ثلاثة أيام !

والجيش المصرى لم يكن معدا من البداية لخوض الحرب. وبلسان اللواء أحمد المواوى القائد الأول للقوات المصرية فى حرب ١٩٤٨، كانت مهمة الجيش فى تلك الفترة هى الاشتراك فى كسوة المحمل والمولد النبوى. ومقاومة الفيضانات، وحراسة الوزارات. وقمع المظاهرات ! مع ذلك. وبرغم هذا التواضع الشديد للغاية فى استعداد وكفاءة وحجم الجيش (لم يشترك فى حرب فلسطين من الجبهة المصرية سوى عشرة آلاف جندى وضابط).. وبرغم أن أول كتيبة عسكرية مصرية دخلت أرض فلسطين كانت تحملها عربات أتوبيس تم استئجارها من أحد المقاولين، وبرغم خيانات ارتكبها نورى السعيد فى العراق والملك عبد الله فى شرق الأردن ضد القيادة العسكرية الموحدة. برغم هذا كله.. كانت إمكانيات مواجهة الخطر الصهيونى فى فلسطين من الجبهة المصرية ممكنة -إذا كان الهدف هو الحد من هذا الخطر وليس إزالته. بل إن الجيش المصرى وصل بالفعل إلى عشرين كيلو مترا من تل أبيب.

ولكن. جاءت الهدنة الأولى فى ١١ يونيو سنة ١٩٤٨. التى قبلتها الجامعة العربية لأربعة أسابيع. لقد كانت تلك الهدنة هى البداية الحقيقية للهزيمة فى الحرب. وقبول الهدنة هو قرار سياسى. وقبول السياسيين المصريين المسئولين حينئذ للهدنة هو التعبير الطبيعى عن تواضع وعيهم السياسى. الذى أدى من قبل إلى عدم التنبه للخطر الصهيونى فى فلسطين. ثم إلى عدم الاستعداد لمواجهته. بل ولعدم إيمان رئيس الحكومة نفسه.. محمود فهمى النقراشى.. بضرورة مواجهته. والآن سوف يؤدى إلى الفشل فعلا فى مواجهته.

ففجأة. أدرك جيل الأبناء أنه قد خسر الحرب. ليس لأنه تأخر فى مواجهتها فقط. ولا لأن السلاح فى يده كان فاسدا جزئيا فقط. ولكن أيضا لأن ما بلغه عن تلك الدولة فى فلسطين كان أقرب إلى الإشاعات منه إلى الحقيقة. وأنه قد تم تضليله على امتداد سنوات طويلة سابقة عن حجم وفداحة الخطر الذى يتم بناؤه فى فلسطين. فعلى السطح. بدت المواجهة فى الحرب ١٩٤٨ / ١٩٤٩ وكأنها بين دولة واحدة فى جانب هى إسرائيل. وبين خمسة دول عربية فى جانب.. هى مصر والأردن وسوريا والعراق ولبنان.

ولكن. فى التقييم الفعلى. بدت الأمور عكس ذلك على طول الخط. لقد كانت نسبة التفوق العسكرى الإسرائيلى. إلى هذا المجموع العربى. هى ٣ : ١ وفى مذكراته التى نشرها فى لندن بعنوان «جندى مع العرب» يقول جون باجوت جلوب. الضابط البريطانى الذى قاد الجيش الأردنى فى حرب فلسطين. إن القوة القتالية فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨. من حيث الأفراد. كانت كما يلى :

مصر	١٠٠٠٠ مقاتل
الأردن	٤٥٠٠
سوريا	٣٠٠٠
العراق	٣٠٠٠
لبنان	١٠٠٠
المجموع الكلي	٢١٥٠٠ مقاتل
إسرائيل	٦٥٠٠٠ مقاتل

ليس هذا فقط. بل إن «جون باجوت جلوب» وهو لا يمكن اتهامه بأى حال بأنه ممالئ للعرب - يضيف معلقا بالأرقام السابقة فيقول : «إن من الأمور المعتادة أن نضيف القوة الإجمالية لكل الجيوش العربية. ثم نقارنها مع القوة الإجمالية التى تملكها إسرائيل.. بغير أى اعتبار لعامل المسافة. إن أحدا لا يدرك أن المسافة من بغداد إلى حيفا هى سبعمائة ميل بقدر المسافة من كاليه إلى فينا. أو من لندن إلى برلين. أكثر من ذلك. فإن الجزء الأكبر من تلك المسافة هو عبر صحراء بلا ماء» .

ويضيف جالوب : «أما اليهود فكانوا. بعكس ذلك. يديرون عملياتهم فوق منطقة صغيرة. هى نفسها مزودة بشبكة ممتازة من الطرق التى أنشأها البريطانيون. إن معظم الوحدات كانت. فى حرب ١٩٤٨. تعمل على مسافة عشرة أو خمسة عشر ميلا من مستودعاتها. إن هذا أعطى ظروفا مثالية لنقل القوات بسرعة من جبهة إلى جبهة. ولضرب أعداء مختلفين بالتتابع. الحقيقة أن الجيوش العربية كانت تقترب من اتجاهات مختلفة ومن بلاد بعيدة لابد فى جميع الأحوال أن تؤدى إلى مشاكل اتصال عميقة» .

ولكن أحدا لم يستعد لذلك.. لأن أحدا لم يفكر أصلا فى ذلك ! لقد قال ديفيد بن جوريون رئيس الوزراء الأول الإسرائيلى. فيما بعد : نحن لم نهزم الجيوش العربية لأننا أتينا بعجائب.. ولكن لأننا اعتمدنا عل أخطائهم هم - أخطاء العرب !

لقد بدأت أخطاء العرب أولا من عدم التنبه فى الوقت المناسب. ولأن هذا الكتاب ليس فحصا شاملا لأخطاء العرب، ولكنه أساسا لفحص الأخطاء السياسية المصرية داخل حدود مصر ومسئوليتها نحو شعبها قبل أى اعتبار آخر. فإن جيل الأبناء دفع فى حرب ١٩٤٨/١٩٤٩ ثمن خطايا سابقة، ظل ارتكابها قائما لسنوات طويلة سابقة.

إن هزيمة فلسطين الأولى. فى سنة ١٩٤٨. لم تكن هى السبب. ولكنها كانت النتيجة. إنها نتيجة سنوات وسنوات من عدم فهم الحدود الحقيقية لأمن مصر ومصالحها الحيوية. خارجيا وداخليا. وعدم فهم حقيقة جوهرية هى : ارتباط هذا الأمن بما يجرى فى المنطقة كلها. وارتباطه على وجه الخصوص بالأمن العربى.

لقد دقت الهزيمة الأجراس إلى الخطايا السابقة. والأجراس حينما تدق. فإنها لا تقتل مريضا. ولكنها فقط تعلن موته. وهزيمة ١٩٤٨ أعلنت موت جيل كامل سياسيا. إنها لم تتسبب فى سقوط جيل الآباء... ولكنها سجلته فقط. لقد سجلت نهاية طريق.. وبداية رحلة. سجلت نهاية للقصور السياسى. والاتجاه إلى الانعزال. والدعوة إلى عدم عروبة مصر. والترويج لمفهوم كاذب بأن أمن مصر ينتهى عند حدودها. لقد عادت الحقيقة الأساسية تتأكد من جديد : إن أمن مصر يبدأ من حدودها.

أما إسرائيل. فإنها من جانبها. ومن لحظة ولادتها الأولى فى فلسطين. فقد أدركت

هـى أيضـا ذلك المفتاح إلى أمن مصر. ومن هنا أقامت إسـرائيل مشـروعها للمعاهدة الأولى للسـلام «المـودة والصداقة» الذى قدمته إلى مصر فى ديسـمبر ١٩٤٨. أقامته على أسـاس عدم السـماح لمصر بأن تسـتوعب مستقبلا الدرس الأساسى فى أمنها. الآن.. تريد إسرائيل أن تكون الدولة العظمى المسـيطرة فى المنطقة.. ومصـر تابعة لها. ولا يرتبط أمنها بقوتها الذاتية. ولكن مصر تستعير أمنها من نوايا إسرائيل.. وجدول أعمال إسرائيل !

إن الدكتور محمد حسين هيكل سجل عند قراءته لنصوص المعاهدة الأولى التى قدمتها إسـرائيل أن «المشـروع لم يجرؤ أحد على إرساله إلى مصر» .. وأنه «أشد وطأة على مصر من معاهدة سـنة ١٩٣٦» مع إمبراطورية بريطانيا العظمى. الآن أصبح هناك من يجرؤ. وأصبحت هناك إسـرائيل تحاول أن «تملى على مصر ما هو أقسـى مما ورد فى معاهدة سنة ١٩٣٦» .

وشيء آخر أكثر أهمية وخطورة : ففى نفس اللحظة التى قدمت فيها إسرائيل مشروعها لمعاهدة السـلام «المودة والصداقة» مع مصر. وتسـلمه إبراهيم عبد الهادى ومحمد حسـين هيكل. فى نفس تلك اللحظة كانت تدبر لمحاولة جديدة لغزو مصر. سـلوك سـوف يكون فيما بعد سمة مميزة لكل تحرك إسرائيلى نحو السلام مع مصر.

لقد خرجت إسرائيل من الهدنة الأولى (التى فرضت فى ١١ يونيو سنة ١٩٤٨) بمكسب أساسى. هو تثبيت قيامها كدولة. وخرجت من الهدنة الثانية (التى فرضت فى ١٨ يوليو سـنة ١٩٤٨) وقد اسـتولت على ألف كيلو متر مربع إضافية فى الجزء الفلسـطينى الذى خصصه قرار التقسيم للعرب. وكانت حصيلتها فى هذه الجولة القتالية تعادل ثلاثة أمثال ما حصلت عليه فى الجولة الأولى.

ولكـن إسـرائيل لم تكتف بذلك. لقد أصبح لها هدفان محـددان فى الجولة الثالثة من القتال : تدمير القوات المسـلحة المصرية لإخراجها من الحرب لعشـر سـنوات تالية على الأقـل بتعبـير ديفيد بن جوريون.. وضـم منطقة النقب لفصل المشـرق العربى عن المغرب العربى ومصر نهائيا.

لقد أصدر بن جوريون الأمر إلى إيجال آلون بتنفيذ الخطة المقررة فى ٢١ ديسـمبر سـنة

١٩٤٨. وهكذا تحرك طابور إسرائيلى معتمدا فى تسليحه على الرشاشات الخفيفة والثقيلة والمدافــع المضادة للدبابات. تقدم مهاجما القوات المصريــة من جناحيها. فى نفس الوقت بــدأت الطائرات الإســرائيلية تضرب غزة ورفح. حيث كانت غــزة مقدمة ارتكاز القوات المصرية. ورفح مؤخرتها. وفجأة اندفع طابور إسرائيلى ثان. وانحدر على الحدود المصرية فى اتجاه قاعدة العوجة وقام باحتلالها. إنها مقدمة لأسلوب الحرب الخاطفة الذى ستتبعه إسرائيل بعد ذلك دائما مع العرب. وكانت الخطة الإسرائيلية على هذا النحو هى الاتجاه إلى العريــش. ومنها شمالا إلى رفح وغزة. وبذلك يتــم حصار الجيش المصرى ويمكن إبادة قواته تماما فى حركة التفاف سريعة.

وكان هذا كله يجرى بينما تتحدث إســرائيل مع الدكتور هيكل فى باريس عن مشــروع معاهــدة «المودة والصداقة» مع مصر. وفى فجر يــوم ٤ يناير. أى بعد أربعة أيام من تقديم صورة المعاهدة المقترحة إلى هيكل فى باريس. أصبحت القوات الإسرائيلية على بعد سبعة أميــال من مركز القيــادة المصرية فى العريش.فى نفس الوقت تقدم طابور إســرائيلى ثالث لمســافة ثمانين كيلو متر من قناة السويس. إن إسرائيل تستعد لضربتها الأخيرة فى سيناء. وهــى الضربة التــى تجعل إيجال آلون واثقا تماما من أنها ســتقضى على مصر عســكريا لسنوات عديدة تالية.

وفجــأة وصلــت الأوامر من تل أبيب إلى إيجال آلون فى ســيناء بوقــف العملية كلها. واســتقل إيجال ألون طائرة إلى تل أبيب ليعرف ســر هذا التغيير المفاجئ. وهناك أخبرته قيــادة الجيش بأن التغيير جاء بعد تدخل شــخصى من موســى شــاريت وزير الخارجية لأسباب اقتنع بها. ووافق عليها ديفيد بن جوريون رئيس الوزراء.

إن ما حدث هو أن السفير الأمريكى فى تل أبيب طلب اجتماعا عاجلا لأمر خطير مع موســى شــاريت وزير الخارجية. وتم الاجتماع فجر اليوم نفسه - ٤ يناير. وفى الاجتماع أبلغ الســفير الأمريكى إنذارا بريطانيا إلى إســرائيل : إن الولايات المتحدة لن تستطيع أن تمنع الجيش البريطانى فى قاعدة قناة الســويس من التدخل ضد إســرائيل. إذا لم توقف إسرائيل هجوم الإبادة ضد الجيش المصرى. واقترابها من قناة السويس. والولايات المتحدة.

قـد علمت أن الجيش البريطانى سـوف يتدخل بفرقتين قوامهما أربعـون ألف مقاتل إذا تقدمت العمليات العسكرية الإسرائيلية خطوة واحدة أكثر من ذلك.

وهكذا، اجتمع مجلس الوزراء الإسـرائيلى على الفـور. وقرر وقف العملية كلها. وفى نفس اليوم بدأت القوات الإسرائيلية تتراجع، مدمرة كل ما يصادف طريقها داخل الأراضى المصرية فى سيناء.

لقد فشـل الجزء العسـكرى فى الهدف الإسرائيلى، لأسـباب لا تتعلق بنوايا إسرائيل نفسها. ولكن.. بقى الجزء السياسى.

بقيـت المعاهـدة التى تريد إسـرائيل أن تمليها على مصر. ومعاهـدة تريد، وأكرر، أن «تملى على مصر ما هو أقسـى مما ورد فى معاهدة سـنة ١٩٣٦» مع بريطانيا العظمى. إن تلك المعاهدة واضحة فى أهدافها. فهى تريد سـوقا اقتصاديا مفتوحا داخل مصر، وتعاونا عسكريا، وتراجعا سياسيا.. وكلها أشياء تفرضها دولة منتصرة على دولة مهزومة.

كانت المعاهدة مجرد «فاتورة» تسجل هزيمة طاقم كامل من السياسيين. ففى السياسة، كما فى الحياة، لا تستطيع أن تحصل من الإناء إلا ما سبق أن وصببته فيه. وجيل الأبناء حينما ذهب إلى فلسطين، لم يحصل إلا على ما سبق أن صبه السياسيون وأعدوه له.

وكان لابد من جيل جديد يملك الإرادة لكى يرفض الضعف والتخاذل والتراجع، ليس فى مصر فقط، ولكن فى سوريا والأردن والعراق أيضا. وبالفعل.. بدأت الانقلابات تتوالى – بدءا من سوريا – فى احتجاجات عملية وعصيبة على كل ما جرى لسنوات طويلة سابقة.

وفى مصر كان هذا الجيل الجديد هو نفسـه الذى عاد من جبهة القتال فى فلسـطين، لكـى يعلن رفضه عمليا فى القاهرة. جيل بدأ برفض فاروق، وحاشـية فاروق، وحكومات فـاروق، والسياسـات التى عاصرت فاروق، والسياسـيون الذين كانوا تعبيرا عن الفسـاد السياسى فى عقل مصر وسلطاتها الحاكمة.

لقد استولى الجيش على السلطة فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢. ولأن الثورة لم تكشف عن وجهها كله من أول لحظة، ولأنها بدت باعتبارها مجرد «حركة مباركة» لتطهير الجيش وبضعة طلبات إدارية أخرى، فقد جاءت التهنئة لها من أخر مصدر توقعته. جاءت من إسرائيل!

إن ديفيد بن جوريون. رئيس وزراء إسـرائيل. أذاع فى ١٨ أغسطس سنة ١٩٥٢ بيانا يهنـئ فيه اللواء محمد نجيب القائد العام الجديد للقوات المسـلحة. ووجه الثورة المعلن. بيان تهنئة يحمل فى مضمونه حيثيات تلك التهنئة. إن رئيس وزراء إسرائيل يتمنى لمصر أن تتفـرغ الآن لشـئونها. وتنفق أموالها على شـعبها. الذى يحبه بـن جوريون كل هذا الحب. حيث هو فقير ومحتاج لكل شىء ما عدا الوقوف فى وجه إسرائيل.

فى هذه الحالة. إذا اتبعت مصر الثورة روشـتة العلاج هذه التى يصفها بن جوريون. فإن إسرائيل تبشر مصر بالسلام و «المودة والصداقة» .

ويومها لم يكشف رئيس وزراء إسرائيل عن نوع «السلام والمودة والصداقة» الذى عرضته إسرائيل فى معاهدتها الأولى المقترحة ـ وتحتفظ به للمستقبل.

وأدرك رئيس وزراء إسـرائيل فى حينها أنه لفرض ذلك المشروع لمعاهدة السلام و«المودة والصداقة» لم يكن يكفى أن تصاب مصر بهزيمة عسـكرية. ولا أن يكون هناك حاكم فاسـد مثل فاروق. أو حاشية فاسدة تحيط به. فحتى فاروق على فساده هذا كله. لم يستطع أن يواجه برلمانه بمشروع إسرائيل للسلام.

لقد كانت إسرائيل تحتاج إلى حجم أفدح من الفساد فى مصر. قبل أن تجرؤ من جديد على التحدث عن «السلام والمودة والصداقة» مع مصر !

وعندمـا حـدث ذلك.. كانت مياه كثيرة قـد عبرت نهر النيل. لقـد وقعت أحداث. وتغـيرت وجوه. وانقلبت سياسـات. ووقع الزلزال الذى حصلت إسـرائيل بمقتضاه فى النهاية على حلمها المبكر بحذافيره : معاهدة للسلام والصلح المنفرد مع السادات.

ولم يكن الأمر مجرد صدفة أن يكون أول سـفير لإسـرائيل بمصر. تنفيذا للمعاهدة مع السادات. هو واحد من أبرز رجال المخابرات الإسرائيلية : إلياهو بن إليسار.

ولم يكن الأمر صدفة أيضا حينما اختارت إسرائيل موشى ساسون – ابن إلياهو ساسون إياه ـ ليكون سفيرها الثانى لدى السادات.

وعندما ذهب موشـى ساسـون لكى يقدم أوراق اعتماده إلى السـادات فى ٢٠ مايو سنة

١٩٨١ . ألحت على ذهن السفير الإسرائيلى الجديد مجموعة من المفارقات ذات المغزى المعبر عن التحولات الجديدة.

كانت المفارقة الأولى هى أن السادات يستقبل السفير الإسرائيلى موشى ساسون. ويرحب به . فى قصر عابدين ـ نفس قصر الملك فاروق الذى اختاره السادات ليكون مقرا رسميا له . لأول مرة منذ طرد الملك فاروق وإسقاطه فى سنة ١٩٥٢.

أما المفارقة الثانية فهى أنه بينما عجز إلياهو ساسون الأب عن أن يشق له طريقا إلى داخل هذا القصر طوال سنتى ١٩٤٩ و ١٩٥٠ . فإن موشى ساسون الابن يدخل الآن قصر عابدين : فى سيارة تحمل علم دولة إسرائيل.. ووسط الحراسة المسلحة التى ضمنتها له معاهدة إسرائيل مع السادات !

يومها تحدث هذا السفير الإسرائيلى الجديد فى القاهرة أمام السادات عن السلام والود والصداقة. وبعد أسبوعين اثنين كانت الطائرات الإسرائيلية تشق طريقها إلى جنوب مدينة بغداد .. لكى تدمر المفاعل النووى السلمى العراقى عن آخره.. !

□□□□

الجزء الثانى

السلام الإسرائيلى

" ينبغي أن نوسع مجال الاهتمام الاستراتيجي والأمن الإسرائيلي، بحيث يشمل في سنوات الثمانينات دولا مثل تركيا وإيران وباكستان، ومناطق مثل الخليج الفارسي، وأفريقيا.. "

أريل شارون - ديسمبر ١٩٨١

الفصل الرابع

معنى الأمن.. وحدود السلام الإسرائيلي

الدولة فى مفهوم القانون الدولى. تقوم على ثلاثة أركان : الشـعب.. والإقليم.. والسيادة. بكلمـات أخرى تكون الدولة. بالتعريف، شـعب محدد.. يعيش فوق أرض محددة.. وتوجد بالنسـبة لها سـلطة عليا تتم ممارسـتها على المواطنين والرعايا.. وتصبح مهمة الأمن القومى بالتالى هى تأمين وحماية هذه الركائز الثلاث.

ولكن إسرائيل لم تقم فى منطقتنا كدولة. وإنما قامت. وتستمر. كظاهرة !

فبادئ ذى بدء ليس هناك عنصر «الشـعب المحدد». فإسـرائيل لا تعتبر مواطنيها هم فقط الذين يعيشون داخل حدودها التى أقامتها بقوة السلاح.. وإنما مواطنيها هم يهود العالم كله. يهود «الشتات» .. الذين تعتبرهم جميعا فى حالة هجرة مؤقتة. وعليهم فى النهاية أن يعودوا بعدها إلى أرض وطنهم إسرائيل.

والركـن الثانـى. وهو الإقليم أو الأرض المحـددة. غير قائم أيضا. فقـد طالبت الحركة الصهيونيـة أولا بكل فلسـطين. ثم. حتى عـام ١٩٤٧ لم يكن اليهود قد اسـتطاعوا بعد أن يتملكوا سـوى ٦.٥ ٪ من الأراضى. ومع ذلك فقد قبلوا بقرار ٢٥ نوفمبر سـنة ١٩٤٧ الذى أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة بتقسـيم فلسـطين. وكان ذلك القرار يكفل لهم الحصول على ٥٥ ٪ من مسـاحة فلسـطين كإقليم محـدد تقوم فوقه دولة إسـرائيل. مقابل ٤٥٪ من المسـاحة للدولة العربية فى فلسـطين. بعدها خرجت إسـرائيل من حرب ١٩٤٨/١٩٤٩ وقد استولت على ٧٧٪ من أراضى فلسطين. بحيث لم يعد أمام الشعب الفلسطينى سوى أن يختصر أماله وحياته القومية فوق ٢٣ ٪ منها.

الآن فإنه. حتى هذه الـ ٢٣ ٪. فإن إسـرائيل تسـيطر عليها بقوة الاحتلال العسكرى وتقيم فوقها المستوطنات المتتالية. وتعلن بألف طريقة وطريقة أنها لن تخرج منها إلى الأبد وستحتفظ بسيادتها الكاملة عليها. وفوق ذلك تريد معاهدات صلح تفتح أمامها حدود الدول العربية الأخرى.

وهكذا لم نعد فقط أمام شعب غير محدد للدولة الجديدة.. وإنما نحن أيضا بصدد إقليم غير محدد لها. وهو أيضا نفس ما ينطبق على الركيزة الثالثة لقيام الدولة فى مفهوم القانون الدولى - ركيزة السيادة.

فإســرائيل لا تمد ســيادتها الآن فقط إلى الضفة الغربية وقطاع غزة. الخمس الباقى من فلســطين. وإنما هى تحقق ســيادة عسكرية وسياســية فعلية داخل الأردن بإصرارها على ألا يتجاوز التسليح الأردنى مستوى محدد. وعلى أن سماح الأردن بدخول أية قوات عربية لحمايته هو سبب كاف لشن الحرب ضده.

وإســرائيل تريد أن تمتد ســيادتها العســكرية أيضا إلى الجزء الشــمالى من السعودية. بإصرارها على ألا تضع السعودية فى ذلك الجزء أية طائرات أو أسلحة بعيدة المدى. ونفس الشــىء تفعله إســرائيل بالنســبة لمصر. بإصرارها على تقييد مصر بنزع سلاح شبه جزيرة ســيناء. وبألا تتجاوز التحصينات والمنشآت العســكرية المصرية نطاق خط قناة السويس.. إلخ. ونفس الشىء ستفعله إسرائيل فى الجزء المحتل من سوريا - إذا قبلت إسرائيل مطلقا أن تنسحب منه.

وإسرائيل تمارس سيادة أخرى. سياسيا وعسكريا. داخل لبنان. بما تشترطه من سيطرة الأقلية المارونية فى لبنان على الأقلية المسلمة. ومن معاهدة صلح وسلام تتضمن نزعا لسلاح الجنوب اللبنانى بعمق يتجاوز أربعة كيلومترا.

ولنلاحظ هنا أن المناطق التى تشــترط إســرائيل تفريغها من السيادة العسكرية العربية. وهى الأردن وســيناء والجزء الشمالى من السعودية والجنوبى من لبنان. هى بذاتها الأجزاء التى يعتبرها الفكر الصهيونى المبكر أجزاء من أرض فلسطين Eretz isreal التى يجب أن تكون جزءا من الدولة اليهودية.

ولا يتوقــف الأمــر عند هذا الحــد. فبالإضافة إلى ذلك يقوم «الســلام الإســرائيلى» .. أو مفهوم إسرائيل للسلام فى منطقة الشرق الأوسط بأسرها.. على أن تمارس إسرائيل وظيفة أساســية. ودورا متفوقا. يجعلنا فى النهاية أمام قوة مســيطرة على المنطقة بالفعل.. بغير حاجة ماسة إلى احتلال كل متر فيها.

وهكــذا نصــل فى النهاية إلى الظاهــرة التى تمثلها : فهى دولة.. لها شــعب مطلق.. وإقليم مطلق.. وتمارس سيادة مطلقة. ومن هنا فقط نستطيع أن نفهم لماذا انطلقت إسرائيل بطائراتها ٨٠٠ كيلومتر إلى الشرق فى يونيو ١٩٨١ لكى تدمر المفاعل النووى السلمى العراقى

جنوب العاصمة بغداد، ولماذا تهدد بنفس الشيء بالنسبة لليبيا، بل وحتى الباكستان، ولماذا هي تضع الآن معظم العواصم العربية داخل نطاق طائراتها وقذائفها بعيدة المدى.

وفى سبيل تحقيق إسرائيل لغايتها هذه من فرض «السلام الإسرائيلى» على المنطقة بأسرها. فإنها فى الواقع تستخدم كل وسيلة متاحة لديها من القوة المباشرة. إلى التخريب الداخلى، إلى الخداع الدبلوماسى، إلى التنفيذ على مراحل. إلى التخدير بشعار مطاط وغامض تستخدمه هو «السلام» .. إلى إبرام التعهدات وخرقها فى أول فرصة بالغش والخديعة والقوة.

وقد كان الجنرال السويدى «كارل فون هورن» كبير مراقبى الهدنة السابق هو الذى سجل فى مذكراته خلاصة عمله قائلا : «إن العرب يمكن أن يكونوا صعابا. وقليلى الاحتمال. وفى الواقع أحيانا يكونوا مستحيلين. ولكن قاموسهم فى السلوك كان على مستوى أسمى وأعلى من الإسرائيليين بلا نهاية. وأكثر تحضرا... إن كل مراقبى الهدنة التابعين للأمم المتحدة توصلوا إلى تلك الخلاصة دائما. وفى كل مرة سألتهم عما يحبونه أقل بالنسبة لعملهم ومهمتهم فإننى كنت دائما أحصل على نفس الإجابة : الغش والخداع المستمرين من جانب الإسرائيليين» .

ولأن الأمن القومى بالنسبة لأى دولة مهمته حماية وتأمين وجود الدولة. ولأن الركائز الثلاثة لإسرائيل مطلقة كما رأينا لتونا. فقد أصبح مفهوم الأمن الإسرائيلى بدوره طليقا.. يستهدف فى النهاية تأمين المثلث الإسرائيلى : تهجير يهود الشتات إلى إسرائيل. وتوسيع حدود الدولة مرحلة بعد مرحلة.. وفرض السيادة الإسرائيلية والسلام الإسرائيلى على المنطقة.

لقد قامت الدعوة من البداية لفكرة وجود إسرائيل كدولة على أساس عنصرى ذى طابع دينى. فالشعب اليهودى هو «شعب الله المختار» الذى سيقيم دولته فى فلسطين محتفظا بنقائه اليهودى.. وسط عالم عربى متخلف، وأقل تجانسا ومرتبة.

والطابع اليهودى هنا ليس هدفا فى حد ذاته. ولكن هو غطاء دينى إلى هدف سياسى.. تماما مثلما جاءت أوروبا إلى فلسطين فى القرن الثانى عشر حاملة على صدرها شعار الصليب.

وحتى قيام إسرائيل كدولة فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨. وبرغم التخطيط والعمل المستمرين لأكثر من نصف قرن قبلها. لم يكن عدد السكان اليهود الذين أمكن استقدامهم إلى فلسطين يزيد على ٦٥٠ ألف نسمة. وفى سنة ١٩٥٠ أصدرت إسرائيل «قانون العودة» بهدف فتح أبوابها أمام هجرة يهود «الشتات» حول العالم إليها. وبنص القانون نفسه فإن دور إسرائيل هو «جمع المتغيبين. إذ أن الدولة لا تمن على أى يهودى بمنحه حق الإقامة فى إسرائيل – هذا الحق الذى ورثه من يهوديته» .

ولكن. حتى لا يتصور أحد أن إسرائيل تريد قدوم أى يهودى إليها لمجرد أسباب دينية. فإنها وضعت قواعد صارمة تحدد نوع من تريد من يهود العالم. وبمقتضى تلك القواعد يسمح للأغنياء اليهود أولا بالهجرة إلى إسرائيل. بغير شروط تتعلق بالسن أو العدد. أما غير الأغنياء فيجب أن يكون ثمانون بالمائة منهم على الأقل شبابا تحت سن الخامسة والثلاثين (أو عائلات لا يزيد سن عائلها كذلك عن الخامسة والثلاثين).. وأن يتعهد من يقع عليه الاختيار بالعمل فى الزراعة لمدة سنتين.

أما الذين تزيد أعمارهم عن الخامسة والثلاثين فيجب ألا تتجاوز نسبتهم أكثر من عشرين بالمائة من الأعداد المسموح بها سنويا. وبشرط أن يكونوا من عائلات لها عائل قادر على العمل. أو يكون لهم أقارب فى إسرائيل يتعهدون بالإنفاق عليهم.

بمعنى آخر. فإن إسرائيل تفتح أبوابها لقدوم كل يهودى قادر على أن يمثل موردا بشريا أو ماليا لها كدولة. والمورد المالى مفهوم.. أما المورد البشرى فبهدف تمكين إسرائيل من احتلال مزيد من الأرض وإقامة مزيد من المستوطنات. فطبقا لتعبير ديفيد بن جوريون أول رئيس وزراء لإسرائيل فإن «المستعمرات والبلدان المقامة على الحدود بواسطة المهاجرين سوف تصبح الحائط الأول للدفاع عن الدولة الإسرائيلية. وهو حائط بشرى من لحم ودم. وليس حائطا من الحجارة».

من البداية فإن قدوم المزيد من المهاجرين إلى إسرائيل لا يستهدف فقط احتلال أرض قائمة. وإنما يستهدف أساسا القفز لاحتلال أرض جديدة. أو بتعبير تيودور هرتزل فى مذكراته : «إن المساحة المطلوبة من الأراضى سوف تزداد مع زيادة المهاجرين» .

كان هرتزل يســجل تلك الكلمات عندما كان مشروع إقامة إسرائيل كدولة مازال مجرد حلم وطيف يتم الســعى نحوه. وبمجرد تحول الطيف إلى دولة تحولت خطط جلب المزيد من المهاجرين إلى سياسة مقررة بإصدار «قانون العودة» .

وفــى ســنة ١٩٦٨ كان ليفى أشــكول رئيس وزراء إســرائيل يخاطب أعضــاء المؤتمر الصهيونى السابع والعشرين بقوله : «ساعدونا لكى نكسب معركة تهجير الأعداد اليهودية إلى إسرائيل. إن القوة الحقيقية هى قوة الأرقام. وحق الحركة الصهيونية فى الحياة يرتبط –ارتباطاً مباشرا– بنجاح هذه الحركة فى ميدان التهجير» .

وفــى نفس المؤتمر قال ناحوم جولد مان الرئيس الســابق للمنظمة الصهيونية العالمية : «إنه لمن دواعى الانحراف أن يكون خمس يهود العالم فقط ضمن دولة إسرائيل. وهذه حالة لن تحتمل ولن تطاق فى المدى البعيد» .

ولقد احتاجت الحركة الصهيونية. قبل قيام إســرائيل كدولة. إلى خمســين سنة لكى تصل بعدد اليهود فى فلســطين إلى ثلثى مليون. لكن. بمجرد قيام إســرائيل كدولة. فإنها احتاجت إلى عشرين سنة فقط لكى تهجر إليها مليون يهودى من دول العالم. ثم احتاجت إلى عشر سنوات فقط بعد ذلك لكى تهجر إليها المليون الثانى.

وهكذا أصبحت إســرائيل تقترب الآن من ثلاثة ملايين.. بغير أن يبدو مطلقا أن خطط وبرامج تهجير يهود العالم إليها قد تراجعت أو انكمشت. بل على العكس من ذلك. كلما قفزت إسرائيل إلى مرحلة أخرى من التوسع. كلما قفزت إلى الأمام ببرامجها لتهجير يهود العالم إليها. وهكذا نجد مثلا أن أريل شارون يعلن فى سبتمبر ١٩٧٧. وكان وقتها وزيرا للزراعة. إن «المشروع الإسرائيلى الخاص بإقامة سلسلة جديدة من المستوطنات الإسرائيلية فى الأراضى العربية المحتلة. وخاصة فى الضفة الغربية المحتلة لنهر الأردن. يقصد منه توفير الظروف اللازمة لزيادة ســكان إســرائيل إلى ســتة أو ثمانية ملايين نسمة فى نهاية القرن الحالى.. إذ ينبغى أن يصبح الهدف الأساسى لإسرائيل هو مضاعفة عدد سكانها».

ومن المهم هنا أن نلاحظ العلاقة التنظيمية المســتقرة بين إســرائيل وبين يهود العالم فى

هذا المجال، فعندما أصدرت إسرائيل فى ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٥٢ «قانون الحالة» أصبحت المنظمة الصهيونية العالمية هى نفسها الوكالة اليهودية لفلسطين، على أن يقسم العمل بينهما، فتعمل الأولى خارج إسرائيل، بينما تعمل الثانية فى داخلها.

وعلى هذا الأساس فإن يهود العالم، الذين يمثلون خط العمق الأساسى بالنسبة للدولة اليهودية إنما يقومون بمهمة ثلاثية الأبعاد بالنسبة لإسرائيل. فهم أولا يمثلون عمقا بشريا، يمد إسرائيل بالمزيد من الشبان الذين تحمل مجتمع آخر تكاليف تعليمهم. ويأتون ليوفروا إمكانية لتوسعها الاقتصادى والعسكرى. وهم ثانيا يمثلون عمقا سياسيا، يتولى توفير النفوذ السياسى داخل المجتمعات التى يعيشون فيها، خصوصا فى الغرب. وهم أخيرا يمثلون بعدا اقتصاديا بتقديمهم الدعم لإسرائيل، الذى يمكنها من الحصول على أداة التمويل الاقتصادى والعسكرى.[1]

وقد أصبحت هذه العلاقة التنظيمية بين إسرائيل ويهود العالم تكفل لها، فوق سيل المهاجرين، تدفقا منتظما من الاستثمارات ورؤوس الأموال. بحيث إنه فى مطلع الثمانينات أصبح متوسط ما تحصل عليه إسرائيل من هذا المورد يصل إلى خمسمائة مليون دولار فى المتوسط سنويا.

وإسرائيل تعتبر أن يهود العالم الذين يعيشون خارجها هم يهود «الدياسبورا» أو يهود الشتات. وبينما هى تضم ما يقل عن ربع العدد الإجمالى ليهود العالم، فإن حوالى ١٠.٦ مليون يهودى يعيشون فى الشتات، ولهم وظائف منتظمة فيما يزيد عن ثمانين بلدا، أهمها الولايات المتحدة، حيث تضم ٥.٧ مليون يهودى، أى أكثر من نصف يهود العالم – أكثر من إسرائيل نفسها، ويليها الاتحاد السوفيتى الذين يصل عددهم إلى نحو ٢.٤ مليون.

(١) فى عشية حرب يونيو ١٩٦٧ مثلا قامت المنظمة الصهيونية العالمية بتنظيم المظاهرات المؤيدة لإسرائيل وتسجيل آلاف المتطوعين اليهود فى سفارات إسرائيل بأوروبا وأمريكا. كما سافرت لجنة من الحكومة الإسرائيلية للاجتماع سرا مع أربعين مليونيرا يهوديا فى فندق بيت مايكل فى لندن، حيث دفعوا خمسة ملايين جنيه ونصف المليون جنيه إسترلينى. كما ساهم اللورد روتشيلد البريطانى بمليون جنيه إسترلينى. كما حصلت اللجنة على ٣٥ مليون جنيه إسترلينى عندما اجتمعت بأصحاب رؤوس الأموال اليهود فى قاعة خاصة بمطار أورلى بباريس.

وبينمـا اليهود الأمريكيون هم الأكثر تنظيما، وهم المصدر الأساسـى لدعم إسـرائيل بالأموال، إلا أن يهود الاتحاد السـوفيتى أصبحوا فى السبعينات مصدرا للإمدادات البشرية. فخلال سنوات السـتينات وافق الاتحاد السـوفيتى على هجرة نحو تسـعة آلاف يهودى فقط. ولكن، مع الضغط الأمريكـى فى السـبعينات، وانحسـار القوة العربية، قفـز عدد اليهود الذيـن سمح لهم الاتحاد السوفيتى بالهجرة خلال سنوات تلك الحقبة إلى ٢٢٥ ألفا، ذهب منهم إلى إسرائيل نحو ١٥٠ ألفا.

ويتم تنظيم عملية التهجير هذه على أسـاس أن يصل المهاجرين اليهود السـوفيت إلى فينا أولا، حيث يقوم باسـتقبالهم ممثلون للوكالة اليهودية. فمن يريد الاستمرار فى رحلته إلى الغرب (الولايات المتحدة أساسـا) تقوم منظمة يهودية أخرى اسمها (هياس) بترحيلهم إلى روما، حيث تقوم اللجنة الأمريكية المشـتركة للتوزيع، ومنظمة «أورت» ، بمسـاعدتهم على المضى فى رحلتهم إلى الولايات المتحدة. وهناك تسـتقبلهم منظمات الطائفة اليهودية المحلية وتقدم لهم المسـاعدات المالية وغير المالية فـى بناء حياة جديدة، يرتبط كل منهم خلالها بتقديم المساهمات المالية لصالح إسرائيل.

أما الذين تنجح الوكالة اليهودية فى إقناعهم بالهجرة إلى إسرائيل، فيتم ترحيلهم إليها وتسكينهم فى المستوطنات القائمة أو الجديدة، والتى بدورها يتم تأسيسها من الأموال التى تجمعها الوكالة اليهودية من يهود العالم، خاصة اليهود الأمريكيون.

وعلى حد تعبير الدراسـة التى ناقشها المؤتمر اليهودى العالمى بالقدس (كانت إسرائيل قد شـكلت لجنة تضم ٣٤ من كبار الشخصيات اليهودية فى الخارج برئاسة البارون جى. دى روتشـيلد، وعضوية مجموعة من رؤسـاء البنوك وأسـاتذة الاقتصاد والعلوم السياسية ورؤسـاء مؤسسات الاسـتثمار اليهودية فى الخارج، وذلك لإعداد تقرير عن «الآثار المترتبة على السلام العربى الإسرائيلى فيما يتعلق باليهودية العالمية» . وقد عرضت نتائج الدراسة فى الاجتماع الموسـع الـذى عقده المؤتمر اليهودى العالمى فى القـدس- يناير ١٩٨١) فإن «... يهود الشـتات يعدون بمثابة المصدر للمسـاندة الاقتصادية والمعنوية والسياسـية التى لا غنى عنها، ومصدرا لا غنى عنه للهجرة التى ترغبها إسـرائيل بشـدة، ومصدرا للموارد الثقافية والعلمية والتكنولوجية. إن الاعتماد المتبادل بين إسـرائيل ويهود الشـتات، ولزوم

كل منها للأخر، لا يتطلب أى تأكيد. فالعلاقة لا تقدر، وهى حيوية لكل منهما» .

وحتى عام ١٩٧٢ كانت التبرعات والقروض التى تجمعها اليهودية العالمية لصالح إسرائيل تبلغ أكثر من نصف مجموع رؤوس الأموال الخارجية التى تحصل عليها إسرائيل. ومع اتجاه المساعدات الأمريكية لاسرائيل إلى التزايد فى مطلع الثمانينات، أصبحت تلك المساهمات المالية اليهودية تمثل ثلث الإجمالى الذى تحصل عليه إسرائيل من رؤوس الأموال الخارجية.

وتمتد مساهمات يهود العالم إلى كل نواحى الحياة فى إسرائيل، وليس فقط إلى بناء المستوطنات الجديدة أو المساهمة فى ميزانية المدفوعات. ففى عام ١٩٧٧ مثلا أعلن عن «مشروع التجديد» . حيث بمقتضاه تم رصد ١٣٥٠ مليون دولار خلال السنوات الأربع التالية، تستخدم فى تمويل إقامة مساكن جديدة داخل إسرائيل. وتقرر وقتها أن تساهم اليهودية العالمية بنصف هذا المبلغ.

ومرة أخرى، على حد تعبير دراسة المؤتمر اليهودى العالمى، فبالنسبة ليهود العالم فإن إسرائيل «تتوقع منهم أن يكونوا جبهة موحدة تأييدا لها فى مواجهة حكوماتهم» . وقد حاول المؤتمر اليهودى العالمى فى اجتماعه بالقدس زيادة فاعلية «الاتصالات» المشتركة، والتوصيل إلى وحدة التفكير بالنسبة للمفاهيم التى تكون رموزا أساسية لدى الطرفين. فعبارة «مركزية إسرائيل» مثلا تعنى أن على كل يهودى أن يرى إسرائيل باعتبارها مركز حياته وتفكيره وبقائه، حيث «... الجهود المبذولة من أجل الدولة هى الحفاظ الأول لهؤلاء اليهود» . وعبارة «نحن واحد» تعنى أن كلا من الإسرائيليين ويهود الشتات متفقون على أن كافة اليهود، أينما يعيشون، يكونون شعبا واحدا، ومفهوم «جدول الأعمال المشترك» يعنى أن «اليهود الإسرائيليين والطوائف اليهودية الأمريكية يشاركون فى جدول أعمال ذى اهتمامات مشتركة، ويتطلب حسما مشتركا ومتبادلا» ... الخ

على أى حال. فإن ما يعنينا هنا من هذه العلاقة التنظيمية هو ما يتعلق فى الأساس بالضلع الأول من مثلث الأمن الإسرائيلى ـ وهو تنشيط وتدفق الهجرة اليهودية الخارجية إلى إسرائيل. إنه أمر جوهرى.. لعلاقته الوثيقة بالضلع الثانى فى هذا الأمن، وهو التوسع الجغرافى.

لقد قامت فكرة الدولة اليهودية من البداية كمجرد مشروع استعمارى واستثمارى. لا يرتبط حتى بأرض فلسطين على وجه الضرورة. فى الواقع إن الحركة الصهيونية قامرت من البداية على إقامة تلك الدولة فى الأرجنتين بأمريكا الجنوبية. كما تروى لنا مذكرات تيودور هرتزل نفسه. مؤسس الحركة الصهيونية الحديثة.

لكن. إزاء عقم تلك المحاولة. بدأ هرتزل يفكر فى جزيرة قبرص كبديل ثان يمكن أن يكون خطوة أولى. ومع انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول فى سنة ١٨٩٧ تحدد الهدف باستعمار فلسطين. وإزاء بطء وتعثر المفاوضات مع بريطانيا العظمى. عاد هرتزل فى سنة ١٩٠٣ يتفاوض مع الإمبراطورية العثمانية للسماح بإقامة مستعمرات يهودية فى العراق كحل بديل. ثم عاد يتفاوض مع بريطانيا من أجل السماح لليهود باستعمار سيناء المصرية. وجاء هرتزل فعلا إلى مصر وقتها للتفاوض مع بطرس غالى باشا رئيس وزراء مصر المحتلة حينئذ. ومع اللورد كرومر ممثل الاحتلال البريطانى. حول إمكانية نقل مياه النيل إلى سيناء لهذا الغرض. ولكن. إزاء معارضة كرومر لهذا المشروع من أساسه. عرض وزير المستعمرات البريطانى أن تتوجه حركة الاستعمار الصهيونى إلى أوغندا. فى شرق أفريقيا. كبديل.

ويقول هرتزل فى مذكراته : «لقد انطلقت من اقتراح أوغندا الذى تقدم به تشمبرلين ووصلت إلى موزمبيق. إننى سوف أحاول الحصول على هذه الأرض الخاملة من الحكومة البرتغالية. التى هى فى أشد الحاجة إلى المال. على أننى أريد الحصول على موزمبيق بقصد المقايضة فقط. وسوف احصل من الحكومة البريطانية. لقاء تنازلى لها عن موزمبيق. على شبه جزيرة سيناء برمتها مع مياه النيل صيفا وشتاء. وربما حصلت على قبرص أيضا - وكل ذلك مقابل لا شىء» .

بعبارة أخرى. كان هرتزل يتفاوض على بدائل ثلاثة فى وقت واحد بأمل التمكين فى النهاية من أحدها. فهو يتفاوض مع الحكومة التركية لاستعمار العراق. ومع الحكومة البريطانية لاستعمار أوغندا. ومع الحكومة البرتغالية لاستعمار موزمبيق. وكل تلك المفاوضات تستهدف فى النهاية الحصول على أى بديل ممكن. لمقايضته على فلسطين وسيناء.

لقد كان اسم فلسطين يطلق وقتها على كل المنطقة التى تشمل الآن كلا من: فلسطين ولبنان والأردن وسوريا. ويضيف هرتزل إليها أيضا سيناء المصرية التى يسميها هو «فلسطين المصرية»! إنـه. باختصار. يحدد موقع الدولة اليهودية الجديدة على النحو التالى: «المساحة: من نهر مصر إلى الفرات. ولابد من فترة انتقالية لتثبيت مؤسساتنا. يكون فيها الحاكم يهوديا... وما أن تصل نسبة السكان اليهود إلى الثلثين حتى تفرض الإدارة اليهودية نفسها سياسيا».

وكانت الفكرة مازالت طيفا يتم التفاوض بشأنه مع الدول الكبرى عندما توفى هرتزل فى سنة ١٩٠٤. حيث كانت القيادة الصهيونية التالية المؤثرة هى حاييم وايزمان، الذى وضع عينيه بمجرد نشوب الحرب العالمية الأولى على بريطانيا العظمى. وفى تلك الفترة قال وايزمان: «إننى أعلم أن الله قد وعد بنى إسرائيل بفلسطين. ولكننى لا أعرف الحدود التى رسمها. إننى أعتقد بأنها أوسع من الحدود المقترحة الآن. وربما ضمت شرقى الأردن. فإذا حافظ الله على وعده لشعبه فى الوقت الذى يختاره فإن واجبنا هو إنقاذ كل ما يمكننا إنقاذه من بقايا إسرائيل». !

ومع تطور الحرب العالمية الأولى لصالح بريطانيا العظمى وفرنسا. أصدرت المنظمة الصهيونية نشرة فى لندن باسم «فلسطين». وفى ١٥ فبراير سنة ١٩١٧ حددت النشرة المساحات التى يريدها الصهيونيون لدولتهم المقترحة فى فلسطين. وهنا يقول «إسرائيل سيف» السكرتير السياسى لحاييم وايزمان مفسرا: «لقد أضفنا خريطة تفصيلية للحدود المقترحة... ففى تلك الفترة كنت قد انتهيت من دراسة وثيقة لمشكلة الجغرافيا السياسية لفلسطين. ولقد وصلنا إلى خلاصة أن الحدود الشمالية (للدولة اليهودية المقترحة بفلسطين) يجب أن تكون إلى الشمال من صيدا. ثم تتحرك لكى تضم مرتفعات الجولان وحوران. أما الحدود الشرقية فيجب أن تسير بموازنة سكة حديد الحجاز. ما بين عشرة وعشرين ميلا شرق خط السكة الحديد. إن هذا يعنى أن تضم الدولة داخل حدودها. أفضل جزء من منطقة سقوط الأمطار. والذى سمى فيما بعد بشرق الأردن. أما بالنسبة للحدود الجنوبية فقد نشرنا مقالا منفصلا بحيث ركزنا بقوة على ضرورة إدماج وضم شبه سيناء إلى فلسطين (اليهودية) وذلك لهدفين: الدفاع عن قناة السويس. وضمان الأمن الأكبر لفلسطين».

بكلمــات أخرى : يريد الصهيونيون أن تمتد دولتهم المقترحة من جنوب مدينة بيروت في الشمال (حتى تشمل صيدا ومنابع نهر الليطانى) ثم تمتد بطول عشرين ميلا شرق خط ســكة حديد الحجاز، فتضم مرتفعات الجولان وحوران. والضفتين الشرقية والغربية لنهر الأردن. وشبه جزيرة سيناء.

علــى أية حال. أصدرت الحكومــة البريطانية فى ٢ نوفمبر ســنة ١٩١٧ وعد بلفور. والذى ســجلت فيه أنها «تنظر بعين العطف إلى تأســيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلســطين» . لكــن.. بعد أن حصلــت المنظمة الصهيونية على وعد بـــ «وطن قومى» قفزت خطوة أخرى إلى الأمام. ففى اجتماع للجنة الوزارية البريطانية لبحث المســألة الشــرقية. الذى عقد فى ٥ ديســمبر ١٩١٨، كان أعضاء اللجنة مازالوا تحت هذا الانطباع. كما أنهم لم يكونوا راغبين فى وجود التزام بريطانى محدد للحركة الصهيونية بينما الحرب العالمية مازالت قائمة. وبريطانيا مازالت فى حاجة ماسة إلى المساعدة العربية لها ضد تركيا. ولذلك فــإن اللورد جورج كورزون عضو مجلس الحرب البريطانى (ووزير الخارجية فيما بعد) بدأ الاجتماع قائلا لزملائه من الوزراء : «إن عليكم أن تقرأوا فقط نشــرتهم الدورية» فلســطين وتصريحاتهــم فــى الصحف، لكى تروا أن برنامجهم يمتد ويتســع من يــوم إلى يوم. إنهم يتحدثون الآن عن دولة يهودية. أما السكان العرب (فى فلسطين) فهم ينسونهم ويتجاهلون تماما»!

يســتحق الذكر أن نسجل هنا أن ســكرتير هذا الاجتماع الذى سجل مناقشات اللجنة هو أرنولد توينبى، المؤرخ الشــهير فيما بعد. والذى كتب مرارا أن فكرة إســرائيل كدولة قد ولدت كمشــروع استعمارى بحت للســيطرة على العالم العربى. ومن ثم فمن المستحيل استمرار مثل تلك الدولة المصطنعة.

لقد كانت تلك هى فترة المد الاســتعمارى من جديد. ومع هزيمة الإمبراطورية العثمانية فى الحرب. كان واضحا أن عملية التقســيم الكبرى لأراضيها بين المنتصرين قد أصبحت وشــيكة. ولأن الحركة الصهيونية قد قامرت على المنتصــر الأكبر. بريطانيا العظمى. فقد بدأت تقنعها بحاجتها الماسة إلى لقمة أكبر فى فلسطين. وهكذا كتب حاييم وايزمان رسالة

توسل إلى ديفيد لويد جورج رئيس الوزراء البريطانى فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩١٩ بدأها بقوله : «فى اللحظة التى توشك أن تشترك مع زملائك فى المفاوضات النهائية التى سيتوقف عليها مصير فلسطين. تود المنظمة الصهيونية أن تتوجه إليك فى موضوع يسبب لها أعمق القلق. وهو مسألة حدود فلسطين الشمالية. لقد وضعت المنظمة الصهيونية. منذ البدء. الحد الأدنى من المطالب الأساسية لتحقيق الوطن القومى اليهودى. ولا داعى إلى القول بإن الصهيونيين لن يقبلوا. تحت أية ظروف. خط «سايكس - بيكو» حتى كأساس للتفاوض. لأنه لا يقسم فلسطين التاريخية ويقطع منبع المياه الذى يزود الليطانى والأردن فحسب. بل يفعل أيضا أكثر من ذلك كثيرا» .

فالحركة الصهيونية تعترض على الصفقة السرية التى توصلت إليها بريطانيا وفرنسا لتقسيم مناطق النفوذ بينهما فى فلسطين والشام. إنها تريد نصيبا أكبر لبريطانيا. لأنها متفقة مع بريطانيا على إقامة «وطن قومى» يهودى فى فلسطين يحقق مصلحة الطرفين. ولذلك يشرح حاييم وايزمان لرئيس الوزراء البريطانى أهمية توسيع رقعة فلسطين لتضم منابع نهر الليطانى ونهر الأردن. وهو يختم رسالته فى النهاية قائلا : «... لهذه الأسباب. نرى من الضرورى أن يضم حد فلسطين الشمالى وادى الليطانى إلى مسافة نحو ٢٥ ميلا فوق المنحنى. ومنحدرات جبل حرمون الجنوبية. لضمان السيطرة على منابع الأردن. وإتاحة إعادة تخريج هذه المنطقة».

إن من المهم هنا أن نلاحظ أن عمق الـ ٢٥ ميلا داخل لبنان الذى يطالب بها حاييم وايزمان بضمه إلى الدولة اليهودية المقترحة فى سنة ١٩١٩. هو نفسه عمق الأربعين كيلومترا داخل لبنان الذى طالب به مناحم بيجن رئيس وزراء إسرائيل. تحت اسم «منطقة أمن» فى سنة ١٩٨٢.. بعد أن قام ١٢٠ ألف جندى لغزو لبنان. وفرض الشروط الإسرائيلية عليه.

ومن البداية أطلق الصهيونيون على أطماعهم تلك عبارة «فلسطين التاريخية».. وتقدموا فعلا بتلك الحدود التى يسعون إليها فى مذكراتهم الرسمية إلى مؤتمر السلام الذى أعقب الحرب العالمية الأولى. وتسجل المذكرة : «إن حدود فلسطين. يجب أن تسير وفقا للخطوط العامة المبينة أدناه. تبدأ فى الشمال عند نقطة على شاطئ البحر الأبيض

المتوسط بجوار صيدا. وتتبع مفارق المياه عند تلال سلسلة جبال لبنان حتى تصل إلى جسر القرعون. فتتجه منه إلى البيرة. متبعة الخط الفارق بين المنحدرات الشرقية والغربية لجبل الشيخ (حرمون) حتى جوار بيت جن. وتتجه منه شرقا بمحاذاة مفارق المياه الشمالية لنهر مغنية. حتى تقترب من سكة حديد الحجاز وإلى الغرب منه. حتى ينتهى فى خليج العقبة. وجنوبا. حدود يجرى الاتفاق عليها مع الحكومة المصرية. وغربا. البحر الأبيض المتوسط» .

ولقد أدت التطورات التالية إلى الحد من إمكانية تحقيق كل هذه الأطماع الصهيونية دفعة واحدة. فمن ناحية. اضطرت بريطانيا إلى التسليم لفرنسا بلبنان وسوريا. الأمر الذى أخرج بالتالى منابع الليطانى ومرتفعات الجولان من وصاية بريطانيا. ومن ناحية أخرى أقامت بريطانيا إمارة شرقى الأردن وفصلتها عن فلسطين.. الأمر الذى أثار احتجاج الحركة الصهيونية على هذا التطور. الذى اعتبرت أنه «حرم فلسطين من ثلثى مساحتها بضربة واحدة»!

وإذا أضفنا إلى ذلك رفض بريطانيا من قبل السماح بالاستيطان اليهودى فى سيناء. نجد فى النهاية أن الحركة الصهيونية قد وجدت نفسها مضطرة إلى الاكتفاء «بفلسطين الصغرى» على حد تعبيرها. كمساحة أولية تتغلغل إليها لإقامة قاعدة الدولة اليهودية الجديدة. ولكن. برغم كل التطورات ستظل الفكرة الصهيونية مرتبطة دائمة بالتطلع إلى الاستيلاء على كل تلك الأراضى التى سعت إليها مبكرا داخل شرقى الأردن ومرتفعات الجولان ومنابع نهر الليطانى وشبه جزيرة سيناء.

لقد ركزت الحركة الصهيونية على أن تقوم إسرائيل كدولة أولا – حتى ولو على الجزء الذى تعتبره هى «فلسطين الصغرى» . وهكذا قبلت بقرار تقسيم فلسطين الذى أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة عام ١٩٤٧ كمجرد خطوة أولى وهو قرار كفل لها ٥٥ فى المائة من أراضى فلسطين – أو نحو ١٤.٣٠٠ كيلومتر مربع ثم خاضت الحرب بعدها عامى ١٩٤٨ و١٩٤٩ لكى تضم فعلا ٧٧ فى المائة من الأراضى – أو نحو ٢٠.٨٠٠ كيلومترا مربع.[1]

(١) تم قبول إسرائيل كدولة فى منظمة الأمم المتحدة فى ١١ مايو. أيار. ١٩٤٩. ويلاحظ أنها الدولة الوحيدة التى تم قبول

بعدها بدأت إســرائيل كدولة تستعد للمرحلتين التاليتين : المرحلة الأولى هى ابتلاع الـ ٢٣٪ الباقية مما تعتبره فلســطين الصغــرى (الضفة الغربية وقطاع غزة).. والمرحلة الثانية هى التوســع إلى فلســطين الكبرى. أو ما أصبحت تسميه «فلسطين التاريخية».. أو Eretz Yisrael.

وهكذا نجد أن أحلام التوسع المبكرة لم تكن مجرد بند فى برنامج للمساومة. لقد أصبحت جزءا أساســيا من جدول أعمال دولة قائمة بالفعل.. هى اســرائيل. من هنا فإن ديفيد بن جوريــون. أول رئيس وزراء للدولة الوليدة. رفض الالتزام بأية حدود دولية لإســرائيل من البداية. مســجلا فى الكتاب السنوى الحكومى لإسرائيل عام ١٩٥٢ أن «إسرائيل كدولة. قد قامت فى الجزء الغربى من ارض إسرائيل. فقد حصلنا على استقلالنا فى جزء فقط من أرضنا الصغرى» . وحينما قبلت الحركة الصهيونية بمشــروع تقسيم فلسطين إلى دولتين – عربية ويهودية – فإن الأمر على حد تعبير بن جوريون وقتها : «لم يكن التصويت على جزء من فلسطين أو كل فلسطين. فالصهيونيون لا يرضون إلا فلسطين كلها. وإنما كان التصويت علــى أى مــن الطريقين أســرع للوصول إلى الهدف الذى يجمعنــا. وهو الحصول على كل فلسطين : هل أخذها على دفعات ؟ أو الانتظار حتى حين موعد أخذها دفعة واحدة ؟».

فى نفس الوقت. قرر حزب «حيروت» بزعامة مناحم بيجن «أن الوطن القومى اليهودى. الذى يشمل ضفتى الأردن. يشكل وحدة تاريخية وجغرافية كاملة. وتقسيم الوطن هو عمل غير مشــروع. وأية موافقة على التقسيم لا تعتبر مشروعية أو ملزمة للشعب اليهودى. ومن

عضويتها بشروط محددة ينص عليها القرار بقوله : «.... ومع الأخذ بعين الاعتبار. إعلان دولة إسرائيل أنها سوف تقبل دون تحفظ التزامات الأمم المتحدة التى نص عليها الميثاق، وتقيدها بواجباتها. منذ اليوم الأول الذى تصبح فيه عضوا فى هذه المنظمة.

، ومع الأخذ بعين الاعتبار. التصريحات والشروح التى قدمها ممثلو حكومة إسرائيل أمام اللجنة السياسية الدائمة. والتى تعهدوا فيها بتنفيذ قرارات الأمم المتحدة المتخذة فى التاسع والعشرين من نوفمبر. تشرين الثانى ١٩٤٧ (المتعلقة بالحدود) وفى الحادى عشر من ديسمبر. كانون الأول ١٩٤٨ (التقسيم أو التعويض للاجئين)..

فإن الجمعية العامة تقرر قبول إسرائيل فى عضوية الأمم المتحدة

واجب هذا الجيل أن يعيد الأجزاء المتقطعة من الوطن إلى حياض السيادة اليهودية».

ثم عاد بيجن يعلن من جديد فى ٧ ابريل سنة ١٩٥٠ : «لن يكون سلام لشعب إسرائيل. ولا لأرض إسرائيل. ولا حتى للعرب. مادمنا لم نحرر وطننا بأجمعه بعد. حتى ولو وقعنا (مع العرب) معاهدة صلح» .

وهكذا بدأت إسرائيل منذ لحظاتها الأولى فى خرق اتفاقيات الهدنة التى وقعت عليها. فاحتلت بلدة «أم رشراش» المصرية على خليج العقبة (أصبحت فيما بعد ميناء إيلات). ثم قامت فى سبتمبر ١٩٥٥ باحتلال منطقة العوجة التى كانت اتفاقيات الهدنة تقرر أنها منزوعة السلاح.

وقد سجل داج همرشولد السكرتير العام للأمم المتحدة وقتها خطورة الخطوة الأخيرة لإسرائيل بأنه تتلخص الأهمية الاستراتيجية للطرق المتفرعة منها (إلى الغرب فى اتجاه مصر) فى أنه إذا فكر أحد الفريقين فى عدوان على نطاق واسع على أراضى الفريق الأخر. فان طرق مواصلاته الرئيسية والفرعية اللازمة للعملية العدوانية. يجب أن تمر فى هذه المنطقة المنزوعة السلاح» .

وهذا هو ما حدث بعد ذلك بالضبط. عندما بادرت إسرائيل فى سنة ١٩٥٦ بشن غزوها لسيناء المصرية ضمن مؤامرة العدوان الثلاثى. وفى هذه المرة فسر همرشولد الأمر فى تقرير رسمى له بقوله : «إن ثمة مجموعة ضخمة من الأدلة... تؤكد أن بن جوريون وعددا من مستشاريه كانوا يعدون العدة لاحتلال سيناء منذ أشهر طويلة. بل منذ سنوات. قبل أن يشنوا هجومهم الفعلى» ...

ولم يكن بن جوريون وحده فى ذلك. ففى ١٢ أكتوبر ١٩٥٥ وقف الإرهابى السابق مناحم بيجن. ورئيس وزراء إسرائيل فيما بعد. لكى يعلن فى الكنيست الإسرائيلى عن «إيمانه العميق بضرورة شن حرب وقائية ضد الدول العربية دون أى تردد حتى تستطيع إسرائيل أن تقضى على القومية العربية. وأن توسع حدودها» .

إن التوسع بقوة السلاح أصبح عقيدة أساسية تمثل الضلع الثانى من مثلث الأمن الإسرائيلى. بحيث أن إسرائيل قضت سنوات لكى تستعد لشن حرب ١٩٥٦ ضد مصر.

ثم قضت سنوات أخرى تستعد لشن حرب ١٩٦٧ ضد مصر وسوريا والأردن. وقد لخص ديفيد بن جوريون تلك العقيدة فى حديث نشرته له جريدة «ها آرتس» الإسرائيلية فى ٣ أكتوبر ١٩٦٧ بقوله : «علينا أن نتخذ من الفتوحات العسكرية أساسا للاستيلاء. وواقعا يجبر الجميع على الرضوخ والانحناء أمامه» .

ومن هنا فإن إسرائيل. حينما قررت ضم القدس العربية المحتلة إلى أراضيها. وحينما قررت ضم مرتفعات الجولان رسميا فى سنة ١٩٨١. ثم حينما كررت دائما أن سيادتها على الضفة الغربية وقطاع غزة هى سيادة نهائية، وحينما قامت فى يونيو ١٩٨٢ بغزو لبنان وأصرت على منطقة أمن بعمق يتراوح بين ٤٠ و ٥٠ كيلومترا داخل لبنان. فانهالا تفعل ذلك لمجرد التعجيل بمعاهدات صلح مع العرب كما يتوهم البعض. ولكنها تستكمل تنفيذ جدول أعمال فعلى قررته الحركة الصهيونية منذ عام ١٩١٧. جدول أعمال أصبح يمثل جزءا جوهريا من مثلث الأمن الإسرائيلى. مثلث. ناقشنا الامتداد البشرى باعتباره ضلعه الأول.. ثم التوسع الجغرافى باعتباره ضلعه الثانى. والآن ننتقل إلى الضلع الثالث. وهو فرض «السلام الإسرائيلى» على العالم العربى.

ومن الناحية المبدئية، فإن «السلام» هو مجرد كلمة محايدة تماما. والأسوأ من ذلك. أنه كلمة لا تملك قدرة ذاتية على أن تفرض نفسها على الواقع بالعدل والقسطاس على طرفين متناقضين.

والسلام يختلف مضمونه من طرف إلى طرف. بحسب تصور كل الأطراف لنوع المصالح الحيوية التى يريد أن يكفلها بالسلام لنفسه. فالمعتدى والمعتدى عليه. والظالم والمظلوم. وقوة الاحتلال والشعب المتعرض للاحتلال. والقوى والضعيف. كلهم يتحدثون عن «السلام» وليس هناك قاموس دولى سياسى محايد ومسلم به نستطيع أن نحصل منه على تعريف مطلق وملزم ونهائى لكلمة «السلام» . ومن هنا يصبح من الجوهرى تماما أن نفرق بين ما يعنيه كل طرف من «السلام» فى مواجهة الطرف الأخر.

وحينما تتحدث إسرائيل عن السلام فإنها تعنى «السلام الإسرائيلى» أو «السلام بشروط إسرائيلية» . الذى يمثل بدوره الضلع الثالث فى مثلث الأمن الإسرائيلى.

لقد جاءت إسرائيل إلى منطقتنا كدولة. مستوعبة تماما دروس الحروب الصليبية فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر. ومن هنا جاء احتلالها للأرض فى فلسطين احتلالا استيطانيا. جاء ليبقى ويمارس وظيفة محددة. وربما متكاملة. يريد أن يقوم بها. ومن البداية لم يكن يريد أن يقوم به ضد إرادة شعب فلسطين فقط. ولا حتى ضد إرادة العالم العربى فقط. وإنما ضد إرادة المجتمع الدولى كله. فمنذ لحظة قيامها الأولى انتهكت إسرائيل أساس مشروعيتها التى منحها لهــا المجتمع الدولى بقرار قبولها عضوا فى منظمة الأمــم المتحدة. ومن يومها أصدرت المنظمة الدولية. المعبرة عن المجتمع الدولى. ٥٢٢ قرارا ومشروع قرار، صدرت من مجلس الأمن الدولى أو الجمعية العامة. بغير أن تمتثل إسرائيل لقرار واحد من بينها طوال ٣٥ عاما.

ذلك لأن الســلام الذى تســعى إليه إســرائيل. ليس هو الســلام الذى يقصده المجتمع الدولى، انه سلام فريد للغاية، ومن ثم فلا سبيل أمامه للتحقق إلا بقوة السلاح.

علــى أن الســلاح وحده لا يكفــى. فالحروب تبــدأ وتنتهى لتحقيق هدف سياســى. وما لم يتحقق هذا الهدف.. تظل هناك دائما إمكانية حرب جديدة. لكى تحصل بالقوة على ما لم تحصل عليه بالدبلوماســية. وقد كان «أبا أيبان» وزير خارجية إسرائيل مدركا لذلك. وهو يصرح فى ١٩ ســبتمبر ســنة ١٩٦٧ فى أعقاب نشوة إســرائيل بانتصارها العسكرى. معترفا: «إن النصر العسكرى لا يستقر ولا ينجح. إلا إذا دعمه صلح» .

فبرغم الانتصار العســكرى الســاحق الذى خرجت به إســرائيل فى يونيو ١٩٦٧ على ثلاث دول عربية. إلا أن هدفها السياسى لم يتحقق مطلقا، وهو فرض «السلام الإسرائيلى» علــى العــرب بالقوة. والأكثر من ذلــك أهمية. أن الطرف العربى الأساســى، وهو مصر. لم يكتف بمجرد رفض هذا «السلام الإسرائيلى» .. ولا بمجرد رفض التسليم بقبول الهزيمة أمــام القوة العســكرية الإســرائيلية. وإنما بدأ على الفور مجهودا خارقــا لإعادة بناء القوة العسكرية الكفيلة بمواجهة إسرائيل فى ميدان القتال. وتحرير الأرض بالقوة.

والصراع العربى الإسرائيلى هو من البداية صراع تحقيق «السلام» . فالطرف العربى يريد سلاما بشروط عربية.. والطرف الإسرائيلى يريد سلاما بشروط إسرائيلية.

ولذلك فإن فرض السلام الإسرائيلى على العرب بالقوة هو الضلع الثالث الجوهرى فى مثلث الأمن الإسرائيلى. وهذا «السلام الإسرائيلى» يقوم على أساس قبول العالم العربى بدور خاص ومتميز ومسيطر لإسرائيل فى المنطقة. دور له أبعاد سياسية وعسكرية واقتصادية سنناقشها تفصيلا بعد قليل. إنما الذى يعنينا الآن. فى المفهوم الشامل لهذا «السلام الإسرائيلى» أن نقرر اختصارا إنه يستهدف فى النهاية أن تصبح لإسرائيل اليد العليا المسيطرة على المنطقة بأسرها.

وإذا عدنا من جديد إلى مفهوم «أبا أيبان» وزير الخارجية الإسرائيلى الأسبق. وهو من يحلو لبعض العرب أن يعتبروه من «المعتدلين» داخل الخريطة السياسية الإسرائيلية. فإننا سنجده يعبر عن هذا المعنى بقوله : «إن ما تطمح إليه علاقاتنا مع العرب. ليس من نوع العلاقات بين لبنان وسوريا مثلا. بل العلاقات بين الولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية. القائمة على التبادل الاقتصادى من خلال فوارق تاريخية ولغوية وثقافية» .

بكلمات أخرى. فإن الولايات المتحدة هى بالنسبة لدول أمريكا اللاتينية القوة العظمى المهيمنة. والجار المسيطر. على دول أمريكا اللاتينية سياسيا واقتصاديا وعسكريا. إنها علاقة يعرف فيها الجميع أن دول أمريكا اللاتينية تقبل التسليم بكونها منطقة نفوذ مفتوحة أمام هذا الجار الشمالى القوى. إنها دول مستقلة. ولها جيوش وأعلام وسفارات وسياسة خارجية وداخلية. ولكن مفاتيح مصيرها وسياساتها وأحوالها موجودة هناك فى الولايات المتحدة. بل أحيانا موجودة لدى شركة واحدة بالولايات المتحدة. بغير أن يضطر الجيش الأمريكى إلى احتلال شبر واحد منها !

وهكذا فإن التفكير الإسرائيلى لا يريد علاقة تقوم بين دول مستقلة متساوية ومتعادلة. كلبنان وسوريا. ولكنه يريد علاقة هيمنة ونفوذ وسيطرة فى اتجاه واحد. تنتحل إسرائيل لنفسها فيها دور القوة العظمى المسيطرة. ويقنع العرب لأنفسهم فيها بالحياة داخل دول مستقلة شكلا وخاضعة موضوعا. مثل جمهوريات الموز فى أمريكا اللاتينية.

ومرة أخرى. يكتب أبا أيبان مقالا مطولا. بمناسبة توصل إسرائيل إلى اتفاقيتى كامب ديفيد مع الرئيس السابق أنور السادات. قائلا فى مجلة «الشئون الخارجية» الأمريكية

- عدد شتاء ٧٨ / ١٩٧٩ : «..... فبالنسبة لهم (أى العرب) فإن الشرق الأوسط بالمعنى السياسى هو وحدة واحدة متراصة إسلامية اللون. وبالنسبة لنا هو نسيج من ألوان متعددة. حيث الخيط البارز فيها قد نسجته الخبرة اليهودية قبل قرون» !

هذا «الخيط البارز» أو الدور «المهيمن» .. عبر عنه بشكل أكثر وضوحا مناحم بيجن رئيس وزراء إسرائيل فى كلمته أمام السادات فى الكنيست الإسرائيلى، أثناء وجود الأخير إبان «مبادرته بالذهاب إلى هناك فى نوفمبر ١٩٧٧. لقد قال بيجن إن مستقبل الشرق الأوسط يتوقف على التعاون بين «العبقرية الإسرائيلية» .. ورأس المال العربى !

هكذا. بكلمات واضحة قاطعة، يعتمد مفهوم «السلام الإسرائيلى» على أن تحتجز اسرائيل لنفسها دور العقل المفكر و «العبقرى» الذى يسلم به العرب. ويقنعون لأنفسهم بدور مورد المال (ماليا وبشريا).. ومن هنا يتشكل مستقبل الشرق الأوسط !

إن المفهوم هو نفسه لدى أيبان. قطب حزب العمل المعارض. وبيجن. قطب «ليكود» الحاكم. مفهوم علاقة إسرائيلية عربية تقوم على أساس التفوق والتخلف.. السيطرة والخضوع.. الهيمنة والاستسلام. ولأن إسرائيل قد اختارت لنفسها التفوق والسيطرة والهيمنة.. فلا يبقى أمامها سوى إرغام العرب على التخلف والخضوع والاستسلام. بالدبلوماسية والتفاوض.. أو بالقوة.

والقوة ليست فقط مجرد مفهوم عسكرى. وإن كان هو الأساس. إنها مزيج استراتيجى من القوة العسكرية.. والحرب النفسية.. والصراع بين إرادتين متناقضتين. هذا المزيج هو الذى يحدد معنى ومضمون إستراتيجية «السلام الإسرائيلى»

إن الاستراتيجية. بتعريف الجنرال اندريه بوفر. هى «فن الجدل بين إرادتين متعارضتين. تستخدمان القوة لحل الخلاف» . وفى هذا الصدام بين الإرادتين «.. يتم التوصل إلى قرار حينما يفرض أحد الطرفين على العدو تأثيرا نفسيا معينا. فيجعله يقتنع بأنه لا فائدة من بدء الصراع أو. بدلا من ذلك. لا فائدة من الاستمرار فى الصراع» .

والاستراتيجية الإسرائيلية. بتعريف أبا أيبان الذى سجله مبكرا فى سنة ١٩٦٥ كوزير لخارجية إسرائيل تعتمد على «إن لسياستنا فى التطويق والردع هدفين.... فهى بالمعنى الدقيق للأمن تهدف إلى حماية أراضينا وأرواحنا. وهى من ناحيتها السياسية تهدف إلى إدخال تيارات فكرية جديدة فى العقل العربى. نريد أن نخلق الشك... وبالتالى الاستسلام واليأس. من حلم العرب بهزيمة إسرائيل» .

بعدها بعشر سنوات كان هنرى كيسنجر ينجز لإسرائيل اتفاقيات فض الاشتباك بناء على رأيه المسبق. الذى سجله بقوله : يجب أولا أن يصاب العرب باليأس الكامل. قبل أن يبدأ التفاهم معهم (على السلام الإسرائيلى).

وقد رفضت إسرائيل أن تفصح بشكل مفصل عن استراتيجيتها الكاملة للسلام. وتصورها المحدد لنوعه مع العرب. إنها قد تعلمت من تجربتها الأولى. فى مشروع المعاهدة الأولى للسلام مع مصر الذى قدمته فى سنة ١٩٤٨. إن نجاحها فى فرض «السلام الإسرائيلى» على العرب لا يعتمد فقط على شروط محددة تقررها من جانبها. ولا فقط على هزيمة عسكرية فادحة توقعها بالعرب. ولكنه يعتمد أساسا على خلق مقدمات نفسية كافية لدى العرب. تجعلهم مستعدين لتقبل وابتلاع هذا السلام عندما يتم طرحه. هذه «المقدمات» تقود إلى إصابة العرب بيأس كامل من جدوى مواجهتهم لإسرائيل.. قبل أن يبدأ حتى تفاوضهم مع إسرائيل.

ولقد جاءت نتائج حرب يونيو ١٩٦٧ بفرصة ذهبية كبرى لكى تمارس إسرائيل ضغطها النفسى هذا على العرب (وبالذات مصر). ولكن إسرائيل. بينما حققت فى تلك الحرب انتصارا عسكريا ضخما. إلا أنها أصيبت فى نفس الوقت بهزيمة سياسية كاملة عندما رفض العرب «السلام الإسرائيلى» وهم منهزمون فى ميدان القتال.

لقد بدأ التمهيد لترويج فكرة «السلام الإسرائيلى» بالترويج لمطلب المفاوضات المباشرة. ولقد رفض العرب من البداية. بشكل قاطع. مجرد مناقشة هذا الاحتمال.

بعدها. ابتداء من سنة ١٩٧١ . بدأت إسرائيل تتحدث عن حاجتها إلى «الأمن» وإلى

«حدود آمنة» . وبدلا من أن تصبح القضية هى : الانسـحاب الاسـرائيلى.. مقابل السلام العربى، أصبحت القضية هى : الأمن الإسـرائيلى.. مقابل السـيادة الناقصة للعرب على أراضيهم.

وبمقتضى هذا المفهوم، الذى نصح به هنرى كيسـنجر وبدأت إسرائيل تروج له، يصبح مـن الممكن عند الضرورة أن تعود السـيادة الناقصة للعـرب على بعض أراضيهم المحتلة.. بغير أن يقترن ذلك بممارسة حقوق السيادة الأساسية نفسها. فحينما تعود سيناء إلى مصر، أو الجولان إلى سـوريا مثلا وهى منزوعة السـلاح، تصبح السيادة العربية هنا مجرد مفهوم شكلى وعاجز، يخلو من أى مضمون.

على أن القضية الأكثر شمولا كانت هى : استراتيجية السلام. لقد بلورت إسرائيل من البداية مفهومها للسـلام، وبدأت تروج له، بل تمارسـه فعلا، وأصبح تقبله عربيا يعتمد على نجاح إسرائيل فى خلق الظروف التى تصيب العرب باليأس الكامل فى مفهوم هنرى كيسنجر، وبالشك والاستسلام بمفهوم أبا أيبان، وبأنه «لا فائدة من الاستمرار فى الصراع» بمفهوم الجنرال بوفر.

وكان شمول مفهوم «السـلام الإسـرائيلى» يرجع إلى أن إسرائيل تريد بالسلام أن تحقق نفس ما كانت تريده بالحرب. إنه أيضا أكثر تحديدا لأن تحقيقه يحتاج إلى مراحل زمنية متتابعة، أو متوازية، تبدو كل منها وكأنها منفصلة عن الأخرى وتتم مستقلة عنها.

وفيمـا بين حربى ١٩٦٧، ١٩٧٣ لم يكن المقابـل العربى المطروح ليزيد مطلقا عما تضمنه قـرار مجلـس الأمن رقم ٢٤٢ الصـادر فى نوفمبر ١٩٦٧، أى : إنهـاء حالة الحرب. لكن، فى أعقاب حرب ١٩٧٣ بدأت بعض الأطراف تتقبل فكرة «السـلام» بغير أن تتفحص مطلقا مضمون هذا السلام الإسرائيلى، وبغير حتى أن يتبلور المفهوم المضاد - مفهوم «السلام العربى» . بمعنى أخر، لم تتم أبدا من جانب الأصوات التى بدأت تبشر بإمكانية التحدث مع إسرائيل عن «السـلام» .. أية دراسات موضوعية جادة لما تعنيه إسرائيل بهذا السلام، وللاستراتيجية التى تسعى بها إسرائيل نحو هذا السلام. وحتى عندما قام أنور السادات بما سماه «المبادرة» لزيارة إسـرائيل والتفاوض المباشر مع حكومتها لتحقيق «السلام» .. حتى عندما بدأ التفاوض

فعلا.. لم يكن هذا نتيجة أية دراسات سابقة لنوع ومدى واحتمالات «السلام» الممكن. لقد بدت الفكرة لديه باعتبارها شيئا - أو وحيا - هبط عليه فجأة فى لحظة تجلى مدهشة - بحيث أنه يكفى ترديد كلمة «السلام» لكى يجد الجميع أنفسهم متفقين فورا.

وأبسط نموذج لذلك هو أنه - فى وسط فترة التفاوض - بل فى الواقع بعد سنة من التفاوض المباشر هذا - نقلت وكالة أنباء اليونايتد برس فى نوفمبر سنة ١٩٧٨ خبرا من حيفا يقول : «أعلن متحدث باسم جامعة حيفا الإسرائيلية اليوم أن الجامعة ستبدأ بإدخال برامج دراسية جديدة - يطلق عليها اسم دراسات السلام - وذلك فى ضوء احتمالات توقيع اتفاق السلام المصرى الإسرائيلى. وقال المتحدث إن هذه البرامج ستركز على تعميق فهم الأسلوب السلمى كوسيلة لحل الصراعات الدولية» .

فالفهم الإسرائيلى للسلام هو أنه مجرد وسيلة أخرى لإدارة الصراع العربى الإسرائيلى. وهو شىء مختلف تماما عن مجرد الكلمة الرومانسية التى بدأ الترويج لها فى الجانب العربى. وقد أصبح هذا المفهوم الإسرائيلى يعنى، قبل أى طرف أخر، مصر التى يدير السادات - باسمها - مفاوضات مباشرة - مع إسرائيل من قبلها بسنة. ومع ذلك.. لم تنشر الخبر فى القاهرة سوى صحيفة واحدة. وهى - حتى فى نشرها له - وضعته فى صفحة الأخبار الخارجية، جنبا إلى جنب مع أخبار مساندة الصين لكمبوديا، وجهود أمريكا للوفاق مع موسكو، وتجدد المعارك فى تشاد !

وبرغم أن الخبر القادم من حيفا يشير إلى أن «السلام» قد أصبح موضوع دراسة أكاديمية يتم إعداد الطلبة لها فى الجامعة الإسرائيلية - إلا أن الحكومة الإسرائيلية كانت قد بدأت مبكرا فى إعداد دراستها الخاصة على ضوء تقديرها لنوع الإشارات التى خرجت بها من سلوك السادات وتصريحاته عقب حرب ١٩٧٣. وقد تمت أولى تلك الدراسات فى يناير ١٩٧٤ - أى فى أعقاب الاتفاقية الأولى لفض الاشتباك مع مصر - وقامت بها مجموعة اقتصادية برئاسة افرايم دوفرات المستشار الاقتصادى لوزير المالية الإسرائيلى. وحينما أشار المسئول الإسرائيلى إلى تلك الدراسة - فإنه فعل ذلك فى ٢١ ديسمبر سنة ١٩٧٧. حيث قال فى تصريحاته التى نقلتها وكالات الأنباء : «إن اسرائيل يمكنها أن تجنى بعض

الثمار من جراء تحقيق السلام. فسوف تفتح أسواقا جديدة مع الدول العربية. هذا بالإضافة إلى دول العالم الثالث التى قطعت علاقاتها مع إسرائيل. ثم أن السلام سيكون من شأنه إنهاء المقاطعة العربية لإسرائيل. وبالتالى ستعمل شركات جديدة على استثمار أموالها فى إسرائيل. وهى تلك التى كانت تخشى العرب... ونحن قد درسنا إمكانية الدخول فى مشاريع تنمية مشتركة مع العرب. وسوف يدرج مثل هذا الأمر ضمن مفاوضات السلام. وتلك المشروعات من بينها إقامة محطة مصرية إسرائيلية للطاقة الذرية. بالإضافة إلى استغلال كل من الأردن وإسرائيل للبوتاس الذى يتم استخراجه من البحر الميت. وكذلك زيادة استثمار مصادر المياه فى وادى الأردن. وكذلك فى مجال استكشاف البترول...» .

وكان هذا هو ما جاء معلنا من إسرائيل فى ٢١ ديسمبر ١٩٧٧. ومع ذلك فلم يطلب السادات اى دراسة جانبية، بل وحتى لحظة التفاوض الأخيرة قبل التوقيع مع إسرائيل رسميا فى كامب ديفيد. كان يرفض الاستماع لمشورة المستشارين والمساعدين الذين اختارهم هو. وفى مذكرات جيمى كارتر (١٩٨٢) التى روى فيها قصة أيام التفاوض تلك فى كامب ديفيد، فإنه أسرف بشدة فى مدح «مرونة» السادات وثقته بنفسه وتجاوزه للتفصيلات.. الخ. لكنه فى النهاية. عندما بدأ يذكر الوقائع، سجل أنه «.. عندما كان السادات فى كامب ديفيد كان يريد أن يتخذ بنفسه كل قرارات مصر. ولم يكن يحب وجود مساعديه معه عندما كان يجتمع معى، بل كان يبدو عليه شىء من عدم الراحة عندما يكونون حوله. وكان أقرب مستشاريه وهما نائب الرئيس ورئيس الوزراء فى القاهرة يشرفان على تصريف شئون مصر. ولم يكن الرئيس السادات يقضى وقتا طويلا مع مساعديه طوال إقامتنا فى كامب ديفيد. وفى مقابل ذلك. كان (بيجن يعتمد اعتمادا كبيرا على مساعديه ومستشاريه» .

بل إن كارتر يسجل فى مذكراته واقعة أكثر غرابة. فقد كان مارا ذات صباح بالقرب من «الشاليه» الذى يقيم به السادات فى كامب ديفيد، حينما سمع نقاشا يدور بصوت عال بين السادات ومساعديه. وتوجس كارتر شرا. خوفا على السادات من مساعديه، فأمر بمضاعفة الحراسة حول السادات !

وما يعنينا هنا. هو أنه بينما التوصل إلى سلام. ومعاهدة سلام. تمثل بالنسبة لطرف أساس الصراع بحيث إنه لابد أن يكون مضمون السلام مدروسا بدقة تامة. وتشاور داخلى مستمر. وقضية تتعلق بدولة.. فإنه بالنسبة لطرف آخر كان مسألة شخصية. ينفرد فيها وحده بالتفاوض بعيدا عن المساعدين الذين اختارهم بنفسه لهذه اللحظة. ويتقرر فيها مصير أجيال تالية. ومقدرات دولة. فى غياب أى شهود محتملين. أو مساعدين درسوا مسبقا مصالح بلدهم.

ولقد كانت إسرائيل تريد من البداية مضمونا اقتصاديا للسلام الإسرائيلى. فوق مضمونه العسكرى والسياسى. وهذا المضمون الاقتصادى يعتمد على جسور مفتوحة بتعبير شيمون بيريز.. وعلى استيراد أيدى عاملة رخيصة من مصر بتعبير رئيس اتحاد الصناعات الإسرائيلى.. ومشروعات مشتركة بتعبير جاكوب جافيتز صوت إسرائيل فى مجلس الشيوخ الأمريكى، و.. و.. لكن الجانب الاقتصادى، مع أهميته القصوى لإسرائيل. لم يكن هو الجوهر الوحيد لـ «السلام الإسرائيلى» . أو السلام بشروط إسرائيلية. إنه. مرة أخرى. مفهوم شامل خاضت إسرائيل الحروب لكى تفرضه على العرب. إنه ليس مفهوما رومانسيا يعتمد على أن يستريح طرف من القتال وينتهى الأمر. إنه هو نفسه «قتال».

وإذا كان القتال فى الحرب يستهدف غزو أراضى. فإن القتال فى السلام يستهدف غزو مجتمعات. لهذا فإن للسلام الإسرائيلى مفهوما قتاليا. وهدفا قتاليا. ويحتاج هو الأخر إلى مناخ شامل يرتبط به ولا ينجح إلا من خلاله. وحينما تصر إسرائيل من البداية على أن تكون العلاقات الاقتصادية مثلا. وكذلك العلاقات الثقافية وأشكال محددة من المشروعات. جزءا من الاتفاق السياسى على السلام، فإنها لا تفعل ذلك عبثا. إنها تمهد الطريق لكى تطبق بعد ذلك هذا المفهوم القتالى للسلام.

لهذا يصبح من المهم للغاية أن نناقش أولا المفهوم الإسرائيلى للسلام بشكل تشريحى. إنه مفهوم مترابط. وإنه كان يبدو فى شريط التناول منفصلاً والأضواء تسلط واقعيا على بعض جوانبه دون الأخر. إنه كبناء شامل يرتكز على أعمدة محددة. يجب أن نفحصها واحدا بعد الأخر بطريقة مجردة. قبل أن نعود إلى رؤيته فى النهاية بطريقة شاملة.

لقد ناقشنا فى البداية أضلاع مثلث الأمن الإسرائيلى ـ الامتداد البشرى.. والتوسع الجغرافى.. وفرض «السلام الإسرائيلى» على العرب. ومثلث الأمن هذا يمكن أن يسمى «الاستراتيجية العليا» .. أو ما نسميه نحن هنا «السلام الإسرائيلى» . وبالطبع يحتاج فرض هذا «السلام الإسرائيلى» على العرب إلى وسائل وأدوات ومفاهيم وقدرات وأسس سياسية وعسكرية واقتصادية. وفى التطبيق تتداخل تلك الوسائل معا، وأحيانا تصبح لكل منها نتائج مختلفة، وأحيانا تطغى بعضها على الأخرى. ولكننا هنا سنلجأ إلى تحليل أسس السلام الإسرائيلى بحسب طبيعتها الجوهرية، بادئين بالأسس ذات المضمون السياسى.

أ ـ المضمون السياسى للسلام الإسرائيلى

أولا : العمل لحساب قوة كبرى من خارج المنطقة :

فى دراسة عن ما «الذى تمثله إسرائيل بالنسبة لأمريكا» «يقول الدبلوماسى اليهودى الصهيونى الأمريكى» بوجين روستو[1] : «بقدر ما يتعلق الأمر بإسرائيل. فإن لنا مصلحة مزدوجة: أن ننجز السلام بين إسرائيل وجيرانها العرب.. وأن نحافظ على إسرائيل باعتبارها قلعة يؤدى وجودها وقوتها إلى إضعاف وتثبيط الاندفاعات الاستعمارية من جانب مصر وسوريا. أو من العراق. ولوقت طويل. فقد فهم السعوديون والإيرانيون (قبل سقوط الشاه) جيدا أن إسرائيل هى وحدها التى منعت مصر فى ظل ناصر من غزو وإخضاع المملكة العربية السعودية ودول الخليج العربى. وإذا اضطررنا. كما يحتمل أن يحدث. إلى الدخول يوما ما فى مواجهة مع الدول المنتجة للبترول. فإن إسرائيل سوف تكون حليفا لا يعوض بالنسبة لها» .

(١) بوجين روستو كان وكيلا لوزارة الخارجية الأمريكية للشئون السياسية من سنة ١٩٦٦ إلى ١٩٦٩. وقد لعب دورا حاسما فى المساعدة الأمريكية لإسرائيل إبان وبعد حرب يونيو ١٩٦٧. جنبا إلى جنب مع شقيقه والت روستو الذى كان مستشارا للرئيس جونسون للأمن القومى. ودراسته هذه نشرت فى مجلة كومنترى - إبريل ١٩٧٧

وهذه الرؤية الصهيونية الأمريكية، تطرح إسرائيل باعتبارها الحليف القادر على إنجاز ثلاث وظائف أساسية للولايات المتحدة:

أولا: منع أية اتجاهات وحدوية عربية قد تقودها مصر أو سوريا أو العراق - وهى اتجاهات وحدوية يراها «روستو» باعتبارها «اندفاعات استعمارية» !

ثانيا: منع أى سياسى عربى، من طراز جمال عبد الناصر، من غزو وإخضاع السعودية أو دول الخليج العربى - هذا على افتراض صحة ما يزعمه «روستو» من أن عبد الناصر كانت لديه مثل تلك الأفكار على الإطلاق.

ثالثا: ضرب السعودية ودول الخليج نفسها لحساب الولايات المتحدة، إذا أرادت الأخيرة أن توجه ضربة تأديبية إلى الدول العربية المنتجة للبترول.

والواقع أن الهدف الأخير يتزايد أهميته مع سنوات الثمانينات، وسنعود إلى مناقشته بشكل مستقل فيما بعد، إنما يعنينا الآن هو الفهم الإجمالى لوظيفة إسرائيل كدولة فى المنطقة. فإسرائيل من البداية قدمت نفسها كفكرة باعتبارها حصنا متقدما للمصالح الغربية (بريطانيا أولا، ثم بريطانيا وفرنسا، ثم الولايات المتحدة أخيرا) وسط منطقة معادية للغرب، وأن على الغرب، إذا كان يريد الاحتفاظ بمصالحه، أن يستخدم إسرائيل ويعتمد عليها لإنجاز تلك المهمة.

لقد كان هذا هو الفكر الصهيونى فى الأربعينات، ثم أصبح هو الفكر الإسرائيلى فى الخمسينات والستينات، وبلورته حربى ١٩٥٦، ١٩٦٧. وعندما كتبت صحيفة «عل همشمار» الإسرائيلية فى ١٤ فبراير سنة ١٩٧٩ تقول بمناسبة الثورة الإسلامية فى إيران: «إن انتصار الإسلام الشيعى الراديكالى فى إيران، لا يعنى فقط اضطراب ميزان القوى فى المنطقة، بل أيضا تشجيع الحركات الروحية الإسلامية الراديكالية فى الدول العربية. لقد أصبح واضحا الآن أن انتصار خومينى، فى إيران، معناه اضطراب ميزان القوى بين القوى الموالية للغرب، والقوى المضادة له. ومن جانب آخر يعنى هذا تعريض نظم الحكم لخطر عدم الاستقرار» .

عندما كتبت الصحيفة الإسرائيلية ذلك، فإنها كتبته فى سياق مطالبة الولايات المتحدة باستثمار إسرائيل أكثر وأكثر، باعتبارها حصن الدفاع عن المصالح الغربية فى المنطقة.

ولقد كان هذا هو نفسه خط الدفاع الأخير الذى استخدمته إسرائيل فى معارضتها لصفقة الطائرات الأمريكية «أف - ١٥» إلى المملكة العربية السعودية. عندما عرضت على لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكى. إن هدف الصفقة هو تقوية الإمكانيات العسكرية للسعودية. جنبا إلى جنب مع تقوية إسرائيل نفسها. ولكن إسرائيل رأت المبدأ نفسه خطيرا. فهى تريد تركيزا أمريكيا على إسرائيل وحدها - إسرائيل فقط - ولا تريد أبدا حصول السعودية على إمكانية عسكرية للدفاع عن نفسها.

ففى جلسة ٥ مايو سنة ١٩٧٨ استمعت اللجنة إلى صوتين. أولهما يمثل المصالح الأمريكية وهو «جورج بول» الوكيل الأسبق لوزارة الخارجية الأمريكية. الذى جاء ليؤيد الصفقة.. والآخر يمثل المصالح الإسرائيلية. وهو «عاموس بيرلميوتر» عضو لجنة الأبحاث الذرية الإسرائيلية. الذى جاء ليعارض الصفقة.

وفى الجلسة دار هذا الحوار بين أعضاء اللجنة وبين الصوتين المتعارضين :

سناتور كليفورد كيس : أتمنى أن نتحدث بعض الوقت. بالقدر الذى تشاء (يامستر جورج بول). عن السبب الذى يجعلك لا تعتقد أن وجود إسرائيل (فى الشرق الأوسط) نافع (لأمريكا) لأغراض استراتيجية...

جورج بول : حسنا. أريد أن أوضح تماما إننى لا أقترح بأى معنى أن علينا أن نتخلى عن أصدقائنا.

سناتور كيس : أعرف ذلك إننى لا أقول إنك تقول ذلك.

جورج بول : إذا سألتنى السؤال الاستراتيجى المباشر. فسوف أقول هذا.. إن وجود صراع دائم بين العالم العربى وإسرائيل. أدى كثيرا جدا إلى عدم الاستقرار فى الشرق الأوسط. ويخلق مشاكل ضخمة، ويتيح فرصة للاتحاد السوفيتى لكى ينشر نفوذه فى الشرق الأوسط. الأمر الذى أعتقد أنه لم يكن ليحدث لو كانت الصورة مختلفة. يجب أن أقول هذا بكل صراحة. إن هذا لا يفيد بأى معنى القول. أو الاقتناع. بأنه علينا ألا ندعم إسرائيل.

سناتور كيس: لقد أردت إجابتك الصريحة. إننى أريد أن أقول أن اختفاء التوترات بين التطلعات والمصالح القومية لكل من العرب وإسرائيل. لم يكن ليجعل الموقف أقوى بالنسبة للغرب. و (بعكس ذلك) كانت ستصبح هناك فوضى كاملة (فى الشرق الأوسط) إذا لم تكن هناك دولة قوية مثل إسرائيل. لكى تمنع العرب من تدمير أنفسهم.

جورج بول: بكل صراحة يا سيدى.. أنا أشك فى ذلك..

سناتور كيس: من الذى سيتولى (الأمور فى الشرق الأوسط) إذا حدث هذا ؟

جورج بول: حسنا. إن العرب لديهم مشاكلهم مع بعضهم البعض لفترة طويلة جدا. مع ذلك فإننى أقول إن العنصر الموحد. أو العنصر الذى يوحد بينهم ويجعلهم قوة عدوانية. هو إسرائيل. وأنه لو لم تكن إسرائيل هناك. فإن فرصة السوفييت لإساءة السلوك فى الشرق الأوسط كانت ستصبح ضئيلة جدا.

سناتور كيس : هذه نقطة مثيرة جدا للاهتمام. وسوف أكون مسرورا بسماع رأى الدكتور عاموس بيرلميوتر حولها..

عاموس بيرلميوتر : ماذا ترغبه منى.. ياسناتور ؟

سناتور كيس : إننى أضع السؤال لك فى هذا الشكل.. هل لوجود إسرائيل قيمة. وأنا أعتقد أنها قيمة فائقة. بالنسبة للغرب فى ذلك الجزء من العالم ؟ وإذا لم تكن إسرائيل هناك (فى الشرق الأوسط) هل تزيد فرصة السوفييت فى عرقلة مصالح الغرب ؟

ـ عاموس بيرلميوتر : حسنا. أولا. إننى أعتقد أن إسرائيل هى شىء أساسى للغرب بطرق عديدة. إنها أولا ديمقراطية. إنها دولة مستقرة. وهى أيضا أكثر حليف يمكن الاعتماد عليه. وهى الدولة الوحيدة القادرة فعلا. وعن حق. على مقاومة أى نوع من عدوانية وخديعة الاتحاد السوفيتى. إننى أتفق معك، ياسناتور. بالنسبة لذلك. إننى أيضا أريد أن أشير إلى، وربما أصحح، مفهوم مستر (جورج بول) الاستراتيجى. إن الاستراتيجية ليست اهتماما مستقبلا بذاته. إن الاستراتيجية تتصل بالسياسة. والآن. فالنقطة هى أنه من الناحية الاستراتيجية فإن إسرائيل مهمة استراتيجيا للغرب. ليست المسالة هى فقط أنها تمتلك قوة عسكرية. لأن هذه القوة يمكن أن تجئ وتروح. وكما أشرت من قبل.. فإن

السعودية ليست لديها قوة عسكرية. إن الاستراتيجية تعنى أنها فى تطابق مع . وتحالف مع . وتوازى مع . نوع المصالح والترتيبات والتطلعات الموجودة لدى الشعب الأمريكى. وفى هذا الخصوص فإنها (إسرائيل) مهمة استراتيجيا. وبالمعنى العسكرى. من المؤكد أنها مهمة استراتيجيا. لأنه إذا لم يكن بسبب إسرائيل. فإن كثيرا من الدول العربية لم تكن ستصبح موجودة اليوم. إننى أشك فى أن الأردن كانت ستصبح موجودة اليوم. إننى أشك فى وجود عدد من الدول العربية إذا لم يكن بسبب وجود إسرائيل.. ليس بسبب مصلحة إسرائيل فى وجودهم.. ولكن بسبب الأهمية الاستراتيجية لإسرائيل فى المنطقة كقوة تحقق الاستقرار» .

مرة أخرى. تلك هى الوظيفة التى تطرحها إسرائيل لنفسها داخل الولايات المتحدة. طرحتها فى سنة ١٩٧٨ أثناء مناقشة صفقة طائرات (الـ اف - ١٥).. وطرحتها مرة أخرى فى سنة ١٩٨١ أثناء مناقشة إمداد السعودية بأربع طائرات أمريكية للإنذار المبكر. والمهم فى الحالتين ليس أن كل صفقة قد مرت فى النهاية داخل مجلس الشيوخ. ولكن المهم هو حقيقة الاعتراض الإسرائيلى فى كل مرة. لأن إسرائيل تقيم نفعها للمصالح الأمريكية على أساس أنها هى وحدها التى يجب أن تتولى حماية المصالح الأمريكية فى المنطقة. لحسابها ولحساب الولايات المتحدة.

بالإضافة إلى هذا التصور للوظيفة الإسرائيلية فى المنطقة. فإن السياسة التى روج لها وباشرها هنرى كيسنجر. إبان عمله كمستشار للرئيس الأمريكى لشئون الأمن القومى. وكوزير للخارجية. قامت على أساس افتراض جوهرى هو أن إسرائيل هى التى تقوم بحماية المصالح الأمريكية. ليس فقط ضد التطلعات القومية العربية. ولا فقط ضد السوفييت. ولكن أيضا ضد مصالح دول أوربا نفسها. الحليفة للولايات المتحدة. بعد أن أصبحت الأخيرة تريد أن تحتكر المنطقة لنفسها تماما.

والواقع أنه. منذ كان المشروع الصهيونى مجرد فكرة ضبابية لدى حفنة قليلة من اليهود الأوربيين. كان الجميع متفقون على أنه لا توجد على الإطلاق أية فرصة عملية لنجاحه إلا إذا تم ربطه بمصالح أوربية كبرى تكون لها مصالح فى الشرق الأوسط. وهكذا فكر الصهيونيون أولا فى فرنسا النابليونية. ولكن غزا نابليون لمصر. وبالتالى أحلامه بالبقاء فى الشرق. لم تستمر أكثر من ثلاثة سنوات. انسحب بعدها إلى بلاده.

ولكـن. بمجرد أن أصبحـت لبريطانيا العظمى مصالح اسـتعمارية كبرى فى الشـرق الأوسط، قفز الصهيونيون على الفور إلى القطار البريطانى. محاولين تحقيق ارتباط مصلحة بين مشروعهم الذى يحتاج إلى حماية سياسية عسكرية. وبين مصالح بريطانيا الاستعمارية التى تحتاج إلى ركيزة محلية بالمنطقة. وهكذا جرت المحادثات بين اللورد أشيلى. وموسى حاييم مونتفيور. وبين بالمرسـتون وزير الخارجية البريطانى فى سـنة ١٨٣٨ وما بعدها. لإقامة «مسـتعمرة يهودية فى فلسـطين» . وكان إبان سعى بريطانيا الحثيث لإخراج مصر بأى ثمن من فلسطين.

ثم تحول المشروع الصهيونى إلى جهاز تنظيمى فعال مع انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول سنة ١٨٩٧ بقيادة تيودور هرتزل. ومن البداية جربت الحركة الصهيونية التفاوض وعرض مشـروعها على كل قوة دولية موجودة على المسـرح الدولى. لقد تفاوضت مع الامبراطورية العثمانية.. ومع الامبراطورية الروسية.. ومع الامبراطورية البريطانية..

وجـاءت الحرب العالمية الأولى. التى خاضتها روسـيا وألمانيا وتركيا فى جانب.. ضد بريطانيا وفرنسا فى الجانب الآخر. مع ذلك ظلت الصهيونية تعرض خدماتها سرا على كل طرف على انفراد. حتى تضمن لمشـروعها النجاح مع الطرف الذى يصل إلى فلسـطين قبل الآخـر ! وقد خرجت الصهيونية من الحرب العالمية الأولى بوعد بلفور البريطانى فى يدها اليمنى كغطاء سياسـى وعسكرى. وبرنامجها العملى للهجرة والاستيطان بفلسطين كالتزام واقعى. ولأن بريطانيا العظمى كانت لها مصالح أكبر بسـبب وجودها العسكرى فى الشرق الأوسط. واهتمامها بحماية طرق مواصلاتها إلى مستعمراتها بالهند. فقد كانت هى الطرف الأكثر قدرة. والأكبر مصلحة. فى تغطية التسلل الصهيونى الاستعمارى إلى فلسطين.

مع ذلك. فمما يلفت النظر أن الحركة الصهيونية لم تضع بيضها كله فى سلة واحدة حتـى النهاية. فمع نشـوب الحرب العالميـة الثانية كان ميزان القـوى العالمية يتجه إلى التغـير. إن بريطانيا مازالت هى القوة الأوربيـة الأولى. ولكن فى مقابل ذلك كانت هناك الولايات المتحدة، القوة العظمى النامية. وكانت هناك أيضا اليابان، القوة العظمى الوليدة فى آسيا.

وقررت الحركة الصهيونية أن تعرض خدماتها. حتى على اليابان. فكما كشف كتاب صدر مؤخرا للحاخام الأمريكى «مارتين توكير»[1] .. تبين أن المنظمة الصهيونية عرضت على اليابان إنشاء دولة لليهود فى منشوريا قبيل الحرب العالمية الثانية لقد عرف هذا المشروع باسم «مشروع فوجو» .. وقد عرض اليهود فيه أن تساعدهم اليابان على الاستيطان فى منشوريا (التى عرفت باسم ماندشوكو خلال الاحتلال اليابانى لها من ١٩٣١ إلى ١٩٤٥). وذلك بهدف أن تكون تلك المنطقة هى بمثابة «دولة حاجزة» تعمل لحساب اليابان ضد أى تهديد سوفيتى محتمل.

وطبقا للوثائق السرية التى اطلع عليها المؤلف لتلك الفترة فى أرشيف وزارة الخارجية اليابان فإن المفاوضات سارت على أساس توطين خمسين ألف يهودى ألمانى فى منشوريا. تكون ألمانيا النازية سعيدة بالتخلص منهم. وتكون اليابان سعيدة لأنهم سيعملون لحسابها. وقد سارت المفاوضات حثيثة مع «ستيفان وايز» رئيس المؤتمر اليهودى العالمى. إلا أن الأخير كان يرى المقامرة على الحصان الأمريكى فى إقامة الدولة اليهودية بالشرق الأوسط هو أكثر ضمانة من المقامرة على الحصان اليابانى لإقامة «إسرائيل الآسيوية» هذه. وعلى أى حال. فإنه أبلغ الزعماء اليهود فى طوكيو فى يونيو ١٩٤٠ باستعداده لتأييد إنشاء «إسرائيل الأسيوية» إذا أعلنت وزارة الخارجية الأمريكية تأييدها لهذا المشروع. وبالطبع توقف كل شىء مع دخول اليابان فى الحرب ضد الولايات المتحدة بهجومها على بيرل هايبر فى ديسمبر ١٩٤١.

والذى يعنينا هنا هو فكرة «الدولة العازلة الحاجزة» وهى الفكرة التى عرضت بها الحركة الصهيونية مشروعها للدخول فى مصلحة مشتركة مع القوى الامبراطورية.

وأهمية هذه الفكرة تكمن فى الدور المحورى الذى تلعبه فى وظيفة إسرائيل كدولة أقيمت بالفعل فى قلب العالم العربى. أولا بتحالف مع بريطانيا العظمى فى فترة التأسيس. ثم بتحالف مع بريطانيا وفرنسا فى فترة التثبيت. ثم بتحالف مع الولايات المتحدة فى فترة التوسع. وفى المرحلة الثالثة كانت وظيفة «الدولة العازلة. هى محور الهدف المشترك بين المشروع الصهيونى وبين القوة العظمى الخارجية».

(١) نقلت وكالة الأنباء الفرنسية مقتطفات من الكتاب فى ١٩٧٩/١٩٥.

فمع نشــوب الحرب العالمية الأولى. ودخول بريطانيا وفرنسا الحرب ضد تركيا وألمانيا وروسيا. كان حاييم وايزمان هو القيادة الصهيونية التى قدر لها النجاح أكثر من القيادات الأخــرى. بحكم علاقاته التى أتاحتها له وظيفته كمدير لمعمل البحوث فى وزارة البحرية البريطانيــة. وبحكم علاقاتــه داخل الحكومة البريطانية نفســها. وبحكم وجود أكثر من يهودى فى عدد من المناصب الرسمية الكبرى فى تلك الفترة.

وأحد هؤلاء الذين تفاوض معهم وايزمان بشــأن إقامة الدولة اليهودية فى فلســطين كان ديفيد لويد جورج. الوزير بالحكومة حتى سنة ١٩١٦. والذى أصبح رئيسا للوزراء بعدها. وكان أساس ترويج مشروع الدولة الصهيونية هو وظيفة «الدولة الحاجزة» التى يحتاج إليها الطرفان : الصهيونيون لكى يســتعمروا فلسطين. وبريطانيا العظمى لكى تستخدم فلسطين اليهودية هذه فى فصل المشرق العربى عن المغرب العربى لحسابها.

وفــى الأيام المبكرة للحرب. فى نوفمبر ســنة ١٩١٤. صرح لويد جورج لرئيس تحرير جريــدة «المانشســتر جارديان» بأنه لن يعتبر أن الحرب قــد نجحت إلا إذا تم إخراج كل العناصر غير التركية من الامبراطورية العثمانية. أو - بكلمات أخرى - تقسيم الامبراطورية العثمانيــة. فالروس ســوف يأخذون أرمينيا والقســطنطينية.. والأنجليز يأخذون العراق.. والألمان يحتاجون إلى «عظمة من نوع ما من الجثة التركية» . ومن ثم يمكن إعطاؤهم باقى آسيا الصغرى. أما فلسطين. مازال الكلام للويد جورج. فربما يمكن إعطاؤها لليهود لتكون منطقة عازلة بين النفوذ الألمانى فى آسيا الصغرى. والنفوذ البريطانى فى مصر.

ثم تقرر. فى الاجتماع الذى عقده المجلس الوزارى البريطانى للحرب فى مارس ســنة ١٩١٥. إعداد الدراســات التفصيلية لتقسيم الامبراطورية العثمانية. وفى هذا الاجتماع قال لويد جورج إن الاستيلاء على فلسطين أصبح بالتحديد يمثل مصلحة بريطانية.

فى نفس الشهر. مارس ١٩١٥. قام «هربرت إسكويث» رئيس الوزراء البريطانى بعرض مذكــرة علــى مجلس الوزراء كان قد قدمها إليه قبل أربعة أشــهر «هربرت صمويل» الوزير بالحكومة. وكانت المذكرة تناقش مستقبل فلسطين فيما لو احتلتها بريطانيا. إن صمويل كان وزيرا يهوديا (وهو الذى ســيعين فيما بعد أول حاكم بريطانى لفلسطين تحت الانتداب)..

وقد سجل صمويل فى مذكرته أنه أعد مذكرته تلك بالاتفاق مع حاييم وايزمان.

وفى تلك المذكرة يقول صمويل إن إقامة دولة يهودية فى فلسطين سيكون منحة تقدمها بريطانيا إلى اليهود.. مقابل أن يقوم اليهود بخدمة المصالح البريطانية فى بلاد المشرق العربى. أما فى المداولات بين الصهيونيين أنفسهم. فقد كان هناك اتجاه لا يريد أن تتصور بريطانيا أنها ستعطى للصهيونية شيئا بلا مقابل محدد. بل يريد ضبط العلاقة بين الطرفين مبكرا على أساس أن الأمر ليس أكثر من صفقة متوازية : بريطانيا ستعطى. ولكنها أيضا ستتلقى مقابلا معادلا لما ستعطيه. هكذا. مثلا. كتب «إسرائيل سيف» السكرتير السياسى لحاييم وايزمان رسالة تلقاها الأخير فى ٧ فبراير سنة ١٩١٧ يقول له فيها: إن على الصهيونيين أن يتفاوضوا مع الحكومة البريطانية. ليس باعتبارهم متسولين لكرم بريطانيا.. ولكن كطلاب لعملية «تلاؤم سياسى» يأملون بها إعادة التسديد لبريطانيا العظمى فيما بعد بطريقة أكثر ثراء!

لقد كان كل واحد من الطرفين يريد أن يوفق بين مصلحته ومصلحة الطرف الآخر فى المدى البعيد. ولم تكن بريطانيا العظمى بأقل رغبة فى إجراء عملية «التلاؤم السياسى» هذه.. إلا إنها كانت تضع فى حساباتها توازنات أخرى يتطلبها مجرى الحرب بالنسبة لروسيا وألمانيا.. وبالنسبة للعرب الذين تحتاج إليهم بريطانيا فى شق جبهة قتال ثانية ضد الاتراك.

وفى سنة ١٩١٧ أصبحت تلك التوازنات أقل أهمية لسببين: فأولا خرجت روسيا من الحرب وتدهور الاندفاع العسكرى الألمانى. ومن ثم أصبح الميزان يميل بالتدريج لمصلحة التحالف البريطانى الفرنسى. وثانيا. بدأ الشريف حسين أمير مكة ثورته ضد تركيا بتحريض من بريطانيا. ولم يعد يملك التراجع.

وهنا أصدرت بريطانيا وعد بلفور فى ٢ نوفمبر ١٩١٧. والذى تعد فيه اليهود بأنها «تنظر بعين العطف إلى إقامة وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين» . وقام بلفور وزير الخارجية البريطانى باختيار ضابط اتصال سياسى متعاطف مع الهدف الصهيونى. ليكون ممثلا له فى التفاوض مع اللجنة الصهيونية برئاسة حاييم وايزمان. وكان ممثل بلفور هذا هو «ويليام أورمسبى - جور» الوكيل المساعد لمجلس الحرب البريطانى.

وفى ١٩ إبريل سنة ١٩١٨ أعد «ويليام جور» مذكرة أرسلها إلى موريس هانكى سكرتير المجلس الوزارى البريطانى للحرب قال له فيها : «إن بريطانيا (بعد أن احتلت فلسطين) أصبحت لها مصلحة فى أن تكون فلسطين موالية لها. وهذه المهمة لن ينجزها سوى الصهيونيين. وصحيح أن حاييم وايزمان يكون أحيانا متعصبا جدا. وغير متهاون. ولكنه يسير بخطى طيبة» .

ثم يختتم «جور» مذكرته قائلا : «يجب ألا تغيب عن بالنا هذه الحقيقة : كلما كان الفاصل والحاجز بين فلسطين ومصر أكثر عمقا. كلما كان هذا أفضل بالنسبة لكل من فلسطين. والامبراطورية البريطانية» .

وقد تبين فيما بعد أن مذكرة «ويليام جور» هذه قد تم وضعها. مرة أخرى. بالتنسيق مع حاييم وايزمان. وأن الهدف منها كان جزئيا هو الغالب على معارضة جناح من العسكريين البريطانيين. الذين كانوا أكثر معرفة بفلسطين وسكانها. وبالتالى أقل حماسا من السياسيين لإعطاء فلسطين لليهود.

فى نفس الفترة كتب «جلبرت كلايتون» رئيس المكتب السياسى البريطانى فى فلسطين إلى السير «كليف ويجرام» السكرتير الخاص المساعد لملك انجلترا. على أساس أن يستحث الأخير على المساهمة بنفوذه فى الإسراع بدفع المشروع الصهيونى. وفى الرسالة يقول كلايتون: «إننى شخصيا أحبذ تماما هذه السياسة الصهيونية. فمن وجهة النظر الامبراطورية سوف تؤدى تلك السياسة. إذا نفذت بطريقة ملائمة. إلى خلق حاجز وعازل قوى موالى لبريطانيا فى الشمال من مصر وقناة السويس».

إن عملية «التلاؤم السياسى» إذن التى سعت إليها الحركة الصهيونية مع بريطانيا العظمى قد استقرت عند الهدف المشترك : تحويل فلسطين إلى دولة عازلة بين كل المشرق العربى والمغرب العربى. وهى لن تكون كذلك إلا إذا أصبحت يهودية. وحينما تصبح يهودية تكون الصهيونية قد أقامت لنفسها دولة.. وتكون بريطانيا العظمى قد أقامت لنفسها قاعدة لخدمة مصالحها فى المنطقة.

وبقيام إسرائيل فى المنطقة فى سنة ١٩٤٨. وقع الانفصال البرى لأول مرة بين المشرق العربى والمغرب العربى. بكيان أجنبى غريب عن المنطقة. متحالف مع قوة عظمى من خارج المنطقة لتحقيق مصالحها داخل المنطقة - التى هى بالضرورة مصالح متعارضة مع مصالح العالم العربى.

ولقد أصبح هذا أساسا سياسيا فى قاعدة الأمن الإسرائيلى. لأن إسرائيل فى الواقع لا تستطيع التمدد والتوسع داخل المنطقة إلا بوجود مثل هذا الشريان الحيوى الذى يحمى أهدافها.

وعندما خرجت بريطانيا العظمى من الحرب العالمية الثانية أقل قوة. لجأت إسرائيل أولا إلى توسيع قاعدة ارتباطها. فحصلت أولا على «البيان الثلاثى» فى سنة ١٩٥١. من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بضمان وجودها. ثم عرضت خدماتها على بريطانيا وفرنسا عندما نشأت لدى الدولتين أسبابهما الخاصة لضرب مصر. كانت بريطانيا تريد معاقبة مصر على تأميمها قناة السويس.. وفرنسا تريد ضرب مصر بسبب مساندتها لثورة الجزائر من أجل الاستقلال.

ولأن العمل لحساب قوة كبرى من خارج المنطقة هو أساس سياسى فى قاعدة الأمن الإسرائيلى. فقد كانت إسرائيل أكثر من مستعدة لتأدية المهمة التى أوكلت لها فى غزو مصر سنة ١٩٥٦ بالاشتراك مع بريطانيا وفرنسا. ثم مرة أخرى فى يونيو ١٩٦٧ لتحقيق نفس الهدف. لحسابها ولحساب الولايات المتحدة فى هذه المرة.

وبرغم أن إسرائيل نقلت تحالفها مع الولايات المتحدة. إلا أن الأخيرة ظلت لسنوات عديدة محجمة عن إعطاء مشروعية تنظيمية علنية للدور الإسرائيلى فى الشرق الأوسط. لقد كانت إسرائيل هى التى عرضت على الولايات المتحدة فى الخمسينات إعطاءها تسهيلات عسكرية. والأخيرة هى التى رفضت. بعدها اكتفت الولايات المتحدة بتحالف واقعى مع اسرائيل دون أن تعطيه شكلا تنظيميا رسميا ومعلنا. وذلك حتى لا تضر الولايات المتحدة بمصالحها وتثير العداء ضدها فى العالم العربى.

ولكن اعتبارا من سنة ١٩٧٩ رأت الولايات المتحدة أنها لم تعد فى حاجة إلى تلك الضوابط السابقة على ضوء التطورات السياسية الجديدة بالمنطقة.. كما أن إسرائيل رأت من جانبها أن تستثمر تلك التطورات من أجل تعميق الالتزام الأمريكى السياسى والعسكرى بها. ففى ٢٦ مارس سنة ١٩٧٩. نفس اليوم الذى وقع فيه مناحم بيجن رئيس وزراء إسرائيل معاهدته للسلام مع السادات فى واشنطن. وقعت إسرائيل مع الولايات المتحدة

مذكــرة تفاهــم تتعهــد فيها الأخيرة باتخاذ خطــوات جديدة تؤدى إلى مزيــد من التحول الجوهرى فى ميزان القوى بالمنطقة لصالح اسرائيل. تعهدات تشمل:

١ – أن الولايات المتحدة على استعداد لاتخاذ التدابير التى تراها مناسبة فى حالة انتهاك معاهدة السلام (مع مصر) والتى قد تتضمن تدابير دبلوماسية واقتصادية وعسكرية.

٢ – وبتأييد أية إجراءات تتخذها اســرائيل إزاء أية انتهاكات محتملة (من جانب مصر) لإتفاق السلام بين مصر وإسرائيل.

٣ – والتزام الولايات المتحدة بالامتناع عن تقديم أسلحة لدول (عربية) قد تستخدمها ضد أســرائيل. وبأن تحول دون قيام الدول التى تتلقى أسلحة أمريكية بنقلها إلى أطراف ثالثة قد تستخدمها ضد إسرائيل.

٤ – والتزام الولايات المتحدة بتقوية الوجود الأمريكى فى المنطقة.

وكانــت خطورة تلك التعهــدات الأمريكية تكمن فى أنها تحمل موافقة أمريكية ضمنية على قيام إســرائيل باتخاذ تدابير ضد مصر. ومن بينها التدابير العســكرية. على أســاس افتراض حدوث مخالفات. أو تهديد بمخالفات لمعاهدة الســلام (لقد هددت إسرائيل فعلا بذلك لمنع مصر من تصعيد موقفها ضد الغزو الإسرائيلى).

للبنــان ومذبحة بيروت فى ســبتمبر ١٩٨٢[1] كما أنها تعطــى تعطى للولايات المتحدة الحق فى أن تفرض وجودها العسكرى فى المنطقة لدواع تتفق عليها مع إسرائيل. وهو أمر يتضمن تحولا أكثر فداحة لصالح أسرائيل وضد مصر.

وبرغم أن رئيس وزراء مصر فى حينها قد ســجل اعتراضه على هذا التطور. معتبرا أنه بمثابة تحالف إســرائيل أمريكى ضد مصر. إلا أن الســادات مضى فى توقيع المعاهدة مع مناحم بيجن فى واشنطن.

(١) فى ١٦ /١١ / ١٩٨٢ أذاع راديو إسرائيل أن شيمون بيريز رئيس حزب العمل المعارض قد اتهم رئيس الوزراء الإسرائيلى بيجن بأنه خلال الحرب فى لبنان هددت إسرائيل مصر تهديدا عسكريا بقيام الجيش الإسرائيلى باستخدام الحرب إذا حاولت مصر قطع العلاقات الدبلوماسية مع إسرائيل.

ومع عدم وجود اعتراض مصرى أو عربى فعال ضد هذا التصعيد فى العلاقة الأمريكية الإسرائيلية. فقد توصلت فى عام ١٩٨١ إلى ما سمى بـ «اتفاق التعاون الاستراتيجى» مع الولايات المتحدة - وهى تسمية لا تخفى مضمونه من حيث هو تحالف عسكرى رسمى لأول مرة وإن كانت تخفف من واقعه على الحكام الأصدقاء لأمريكا بالمنطقة.

وطبقا للمعلومات المنشورة فإن هذا «التعاون» يستهدف تدعيم فاعلية قوات الانتشار السريع التى أعدتها الولايات المتحدة للتدخل عند الضرورة فى منطقة الشرق الأوسط. وذلك عن طريق:

١ - إقامة مخازن للأسلحة والمعدات الأمريكية فى إسرائيل. وصيانتها بواسطة فنيين إسرائيليين.

٢ - تخويل الولايات المتحدة حق استخدام القاعدتين الجويتين الجديدتين فى صحراء النقب. اللتين أقامتهما على نفقتها لإسرائيل.

٣ - قيام الطائرات العسكرية الإسرائيلية بعمليات النقل الجوى للقوات الأمريكية.

٤ - تقديم ميناءى حيفا واسدود كمركزى صيانة للسفن الأمريكية.

٥ - الاشتراك الإسرائيلى مع الأسطول السادس الأمريكى. ويتمثل ذلك فى ربط شبكة الإنذار المبكر للأسطول السادس مع شبكة الإنذار المبكر فى إسرائيل.

٦ - القيام بمناورات بحرية وبرية مشتركة.

وبوجود هذا الاتفاق. وغياب أية إجراءات مضادة من أى طرف عربى. يكون عمل إسرائيل لحساب قوة كبرى من خارج المنطقة قد انتقل إلى مرحلة جديدة تماما. لم تعد فيها إسرائيل مجرد عميل. ولكنها أصبحت الشريك السياسى والعسكرى للولايات المتحدة. الشريك الذى يجب أن تمر المصالح الأمريكية من خلاله.[٢]

(٢) بعد أن تجمد الاتفاق لفترة بسبب قيام اسرائيل بإعلان ضم مرتفعات الجولان. كانت الولايات المتحدة هى التى سعت إلى تجديده. وهكذا أعلنت إسرائيل وأمريكا فى أول ديسمبر ١٩٨٣ عن النطاق الجديد لاتفاق التعاون الاستراتيجى وبمقتضاه تبدأ منطقة تجارية حرة بين البلدين. وتصبح القروض العسكرية والاقتصادية لإسرائيل منحا لا ترد. ويتم إمداد إسرائيل بالتكنولوجيا الأمريكية لصناعة أسلحة متطورة - كطائرات «لافى» كما تتلقى إسرائيل مساعدات أمريكية لتسويقها.

ثانيا : ضرب أى محاولة لوجود قوة عربية موحدة :

رأينا فى الصفحات السابقة كيف أن الوظيفة الأولى التى حصلت بمقتضاها فكرة إسرائيل كدولة على أوراق اعتمادها من القوى الكبرى. كانت هى قيامها بدور «الدولة العازلة» بين المشرق العربى والمغرب العربى. وبقيام إسرائيل بالفعل فى مايو ١٩٤٨ أصبحت «الدولة العازلة» موجودة بالفعل. إلا إنه بقى على إسرائيل نفسها أن تضيف إلى هذا العازل المادى. عازلا آخر سياسيا وعسكريا. وهذا العازل الأخير لا يتحقق إلا بمنع وضرب أى محاولة جادة لوجود قوة عربية موحدة. وكذلك ضرب الدول العربية بعضها ببعض.. وكلاهما وجهان لنفس الأسلوب فى السلوك السياسى الإسرائيلى.

ومن الناحية المبدئية فإن الفكرة التى تروج لها إسرائيل فى الغرب. هى أن العالم العربى لا يمثل مفهوما سياسيا، وإنما هو مجرد مفهوم جغرافى. إن العالم العربى لا يمثل أبدا لغة مشتركة وثقافة مشتركة وتاريخا مشتركا وباختصار : لا يمثل قومية واحدة. إنه مجموعة كيانات منفصلة تصادف أن جمعتها منطقة جغرافية واحدة. ليس أكثر !

والمصلحة الأمنية الكبرى لإسرائيل فى ترويج هذه الفكرة واضحة بقدر ما هى طبيعية. فوجود اتجاه قومى وحدوى يجمع العالم العربى. أو أجزاء مؤثرة منه. يعنى عمليا تنبه العرب إلى مصادر قوتهم وتنسيقها معا. حتى بغير وحدة سياسية اندماجية. فى هذه الحالة سيعمل العرب معا على علاج نقطة الضعف الأولى التى فرضت عليهم فى فلسطين لتكون عازلا فاصلا بين يدهم اليمنى ويدهم اليسرى.

والمفهوم غير السياسى للعالم العربى ليس مجرد فكرة تحاول إسرائيل الترويج لها فحسب. وإنما هو فى الواقع نتيجة تسعى إلى تحقيقها. وترى فيها ضمانا لأمنها. وإنما تحتاج إلى مجهود إيجابى من أجل الوقيعة وتعميق الخلافات بين الدول العربية وبعضها البعض. بهدف منع أى احتمال لوجود دولة قوية من بينها. أو مجموعة متفاهمة من الدول. وخصوصا تلك المجاورة لها مباشرة أو القريبة منها. وقد اعتبرت إسرائيل وحدة مصر وسوريا سنة ١٩٥٨ كارثة كبرى بالنسبة لها. بقدر ما اعتبرت انهيار تلك الوحدة فى سنة ١٩٦١ فالا طيبا لمستقبلها.

وفى ١٩٦٧ عجلت إسـرائيل بعدوانها ضد مصر وسـوريا والأردن بمجرد بدء التنسـيق العسـكرى للأردن مع مصر. كما أنها اشـترطت فى سـنة ١٩٧٩ أن تكون التزامات مصر التى ارتبط بها السادات فى معاهدته مع إسرائيل. سابقة لالتزامات مصر فى أية اتفاقيات أخـرى وتعلو عليها وتلغى كل ما يتعارض معها. وبإصرار إسـرائيل على ذلك التعهد (فى المادة السادسة من المعاهدة فإن عينها كانت على إلغاء اتفاقية الدفاع العربى المشترك عمليا).

والواقع أن هذا كله يمثل أساسا جوهريا فى القاعدة الأساسية (وكذلك العسكرية) لمفهوم الأمن الإسـرائيلى. وفى أول ديسـمبر سـنة ١٩٦٦ حدد ابان ايبان وزير خارجية إسرائيل وقتها. العامل والضمانات التى تعطى لإسرائيل «أملا فى البقاء» وفقا للترتيب التالى :

أولا : استمرار المساعدات العسكرية الأمريكية المباشرة التى بدأت بصواريخ «هوك» .

ثانيا : استمرار حماية الدول الكبرى للوضع الراهن بالمنطقة.

ثالثا: استمرار الخلافات العربية. لأنه لو اتحد العرب لما بقى أحد يهتم بنا. ولسهل عليهم إذابة كياننا. لأننا سنبقى دائما شوكة فى الجسم الذى يحتوينا.

وفضلا عن الطاقات العربية التى يتم إهدارها بسـبب تغذية وتنمية التناقضات فيما بين القوى المؤثرة فى العالم العربى. فإن إسـرائيل تسـتخدم هـذه الخلافات أيضا فى الترويج لفكرتها الأساسـية. من محاولة إبعاد أى اهتمام دولى عن بؤرة الصراع العربى الإسرائيلى. وهى القضية الفلسطينية. وتحاول إسرائيل التظاهر دائما بأن «توترات المنطقة ترجع جذورها إلى المنافسات السياسية. والدينية. والقومية. والسلالية. والعسكرية. التى لا تتصل بالصراع العربى الإسرائيلى إلا اتصالا هامشيا فقط» . من هنا فإن إسرائيل يهمها دائما الترويج لأفكار على هذا النحو : إن العرب مختلفون معا بغير وجود إسرائيل وكل طرف عربى له خلافاته مع طرف آخر. ولذلك فإن على الغرب أن يجعل إسرائيل أكثر قوة لأنها هى التى تستطيع فى هذه الحالة ترجيح طرف عربى على آخر. لمصلحة الغرب وإسرائيل معا.

وهنرى كيسـنجر مثلا. وهو اليهودى الصهيونى الأمريكى المتعصب تماما لإسـرائيل. ينطلـق فى مذكراته فيزعم أنه لولا وجود إسـرائيل القوية لاختفت من على الخريطة دول عربية «معتدلة» بمقاييسه فى الاعتدال بالطبع !

وإسـرائيل تحاول أولا أن توجه أنظار الدول العربية المؤثرة إلى اتجاه آخر. ولكنها بمجرد أن تنجح فى ذلك. فإنها توجه ضربتها على الفور. فبعد أسـبوع واحد من قيام العراق بشـن حربـه ضد إيران فى سـبتمبر ١٩٨٠ . حاولت مجموعة من الطائـرات المعادية. التى تحمل الشـعار الإيرانى. مهاجمة وضرب المفاعل النووى العراقى جنوب بغداد. وقد تبين فيما بعد أنها كانت طائرات إسرائيلية تم طلاؤها بالشعار الإيرانى للتمويه ولم يكتشف ذلك إلا بعد أن نجحت إسرائيل بالفعل فى تدمير المفاعل بغارة جوية مفاجئة فى يونيو ١٩٨١.

لقد حاربت إسـرائيل دائما. ليس فقط حصول أى دولة عربية على معرفة تكنولوجية متطـورة كمـا فى حالة العراق فى الثمانينات. ولكن أيضـا مجرد تطور اقتصادى عصرى كما فى حالة مصر فى الخمسـينات. فخلال سـنتى ١٩٥٥ و ١٩٥٦ قامت إسرائيل بتعبئة أنصارها داخل الكونجرس الأمريكى لمنع وعرقلة تقدم الولايات المتحدة بعرضها للاشـتراك فى تمويل مشروع بناء السد العالى. الذى كان مشروعا حيويا أساسيا للاقتصاد المصرى. كما شـهدت سنة ١٩٥٥ أيضا ذروة المحاولات الإسرائيلية لعرقلة انسحاب القوات البريطانية من قاعدتها فى قناة السـويس تنفيذا للاتفاق المبرم مع مصر. وتفسـيرا لذلك. فإن موشـى شـاريت رئيس الوزراء الإسـرائيلى قال حينئذ إنه «.. كان ينبغى على بريطانيا أن تجعل عقد اتفاق قناة السـويس مشـروطا بعقد صلح مصرى مع إسـرائيل. أو أن تعطى لإسرائيل على الأقل معونة تتوازن مع الفائدة التى حصلت مصر عليها بعد سيطرتها على القناة» !

وقد يبدو الأمر لأول وهلة هنا متعلق بمصر. باعتبارها دولة مواجهة ذات حدود مشتركة مع فلسطين. ولكن الحقيقة فى التفكير الإسرائيلى ليست على هذا النحو.

ففى سنة ١٩٥٤ قامت الولايات المتحدة بتزويد العراق بشحنات محددة من الأسلحة. والعراق ليست له حدود مشتركة مع إسرائيل. ومع ذلك فقد اعتبرت إسرائيل أن هذا يمثل تهديدا لأمن المنطقة ـ أى تهديدا لأمن إسـرائيل ذاتها. ولم تهدأ إسرائيل إلا بعد أن تلقت تأكيدات أمريكية بأن تلك الأسـلحة هى لإغراء العراق على الدخول فى تحالف غربى ضد السـوفييت. ولم تهدأ تماما إلا بعد أن أعلنت بريطانيا. على لسان أنتونى أيدن فى ٣٠ مارس سنة ١٩٥٥ . بأن إدخال العراق فى حلف بغداد. الهدف منه صرف نظر العراقيين إلى اتجاه آخر (غير إسرائيل).

أيضا. فى سنة ١٩٧٠. وليبيا ليست ذات حدود مشتركة مع إسرائيل. ومع ذلك فإن إسرائيل اعتبرت أن موافقة الولايات المتحدة على الجلاء عن قاعدة «هويلس» فى ليبيا هى عمل ضار بأمن وسلامة إسرائيل !

وفى سنة ١٩٧٨ حاولت إسرائيل أن تعترض على قيام الولايات المتحدة بيع ستين طائرة «اف - ١٥» للسعودية لأن هذا يتعارض مع الأمن الإسرائيلى. ثم كررت اعتراضها أيضا على قيام الولايات المتحدة فى سنة ١٩٨١ بيع أربع طائرات للإنذار المبكر من طراز «أواكس» للسعودية ـ وهى طائرات ليست قتالية. وإنما كل مهمتها هى أن توفر كشفا مبكرا ضد أى اختراق معاد للأجواء السعودية. وعندما عجزت إسرائيل عن وقف الصفقة بدأت تطالب بما يعوضها عن هذا التحسن فى القدرات الدفاعية السعودية !

وفى نفس السنة. فى يونيو ١٩٨١. قامت الطائرات الإسرائيلية بخرق ثلاث دول عربية هى الأردن والسعودية والعراق. لكى توجه ضربتها المدمرة أخيرا إلى المفاعل النووى العراقى جنوب بغداد. مدعية إنه يمثل تهديدا لأمن إسرائيل. برغم حقيقة أن إسرائيل ذاتها تملك قوة ذرية غير مدنية. قوة عسكرية هجومية. منذ وقت طويل.

هكذا فإن الأمر لا يقتصر بالمرة على الدول العربية ذات الحدود المشتركة مع فلسطين. ولا يقتصر أيضا على القدرات العسكرية لتلك الدول. وإنما يمتد إلى ضربها مدنيا وعسكريا أيضا. وقد رأينا من قبل كيف أن الفكر الصهيونى يرى أن من الوظائف الحيوية لإسرائيل كدولة. منع أى اتجاه وحدوى عربى. تقوده مصر أو سوريا أو العراق مثلا. بحجة أنه يمثل «اندفاعات استعمارية» خطرة !

ثالثا : السلام المنفرد.. والحرب المنفردة :

ظل أحد الأسس التطبيقية الدائمة فى مفهوم الأمن الإسرائيلى هو عدم التعامل مع العرب مطلقا باعتبارهم طرفا واحدا أو مصلحة واحدة. وإنما كعدة أطراف مستقلة عن بعضها البعض. وذات مصالح يجب أن تجعلها إسرائيل متناقضة مع بعضها البعض. إن هذا المدخل يجعل أولا كل دولة عربية أضعف فى مواجهة إسرائيل مما لو كانت جزءا

مــن جبهة عربية متحدة.. وهو ثانيا يعطى لإســرائيل فرصة الوقيعة بين الأطراف العربية ذاتها. وتنمية متناقضاتها مع بعضها البعض.

ولقد ارتبط هذا الأســلوب بإسرائيل من اللحظة الأولى لقيامها بالمنطقة. فرغم أن جيوش خمس دول عربية هى التى دخلت حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ كطرف واحد. إلا إنه حينما حانت لحظة التفاوض من أجل الهدنة أصرت إســرائيل على التفاوض مع كل دولة على حده. وهكذا (مع امتناع العراق) أصبحت هناك اتفاقية هدنة مصرية إسرائيلية.. وسوريه إسرائيلية.. ولبنانية إسرائيلية.. وأردنيةإسرائيلية.

من لحظتها حرصت إســرائيل على ضرب كل طرف عربى بالآخر. فأبلغت الســوريين مثلا بـ «إننا نعتبر أن ســوريا هى الركيزة فى هذا الشــرق الأوسط. ونرى إننا إذا كنا على وفاق مع سوريا. فإننا معا يمكن أن نجعل من هذه المنطقة قوة ثالثة فى العالم. ونحن ندعو سوريا إلى عهد من الوفاق تكون معنا ونكون معها. لنؤلف معا مستقبل القوة فى العالم» .

فى نفس الوقت كانت إســرائيل تحاول الاتصال ســرا بمصر من خلف ظهر ســوريا. مؤكدة لمصر أن قبولها لسلام منفرد مع إسرائيل قبل العرب الأخرين. سيخلق تعاونا مصريا إســرائيليا يضطر المنطقة بأســرها إلى الخضوع له والسير فى طريقه. ولأن إسرائيل ترى أن مصر هى وحدها التى تمثل شــيئا هاما فــى المنطقة من دون الدول العربية الأخرى. فإنها تبادر إلى تقديم هذا العرض المدهش للسلام المنفرد معها !

نفس الشىء فعلته إسرائيل مع الأردن.. ومع لبنان. وبرغم أن أى طرف عربى لم يقبل وقتها أن يقع فى هذا الفخ الإســرائيلى المنصوب له. إلا أن إســرائيل ظلت تحرص دائما على أن تتعامل مع العرب منفصلين وليســوا متحدين. وعلى ألا تتعامل هى معهم مطلقا. حربا أو ســلاما. كقوة متحدة. أو كجبهة واحدة. فنفس الأســلوب الذى مارسته إسرائيل فى التفاوض من أجل اتفاقيات الهدنة ســنة ١٩٤٩. مارســته أيضا فى التفاوض من أجل الســلام فى مؤتمر جنيف فى ديســمبر ١٩٧٣. ثم حاولت أن تفرضــه أيضا فى التحضير لاستئناف مؤتمر جنيف ١٩٧٧. لقد أصرت على الدخول فى مفاوضات منفصلة مع مصر. ومع سوريا. ومع الأردن. وظل الأمر كذلك إلى أن تم نسف فكرة مؤتمر جنيف نهائيا بعد

نجاحها فى التفاوض مباشرة مع مصر بمفردها عقب مبادرة السادات بالذهاب إلى القدس. وبدء طريق الصلح الثنائى بينه وبين إسرائيل.

ويقول الصحفى اليهودى الفرنسى «إريك رولو» المتخصص فى شئون الشرق الأوسط بجريدة «لوموند» الفرنسية : «منذ حرب ١٩٦٧ وأنا أسمع كثيرين من المسئولين الإسرائيليين أن السلام المنفرد مع مصر هو هدفهم وحلمهم. لأنه يعنى خروج مصر من الصراع. والآن - فى نوفمبر ١٩٧٨- فإننى أتذكر إننى التقيت عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣ بالجنرال بارليف. الذى أدهشنى بأن قال لى إن لدى إسرائيل علامات ودلائل قوية للغاية على أن هناك فرصة طيبة للتوصل إلى سلام منفرد مع مصر. ولم أستطع أن أصدقه وقتها» .

وقد سجلت صحيفة «الفايننانشيال تايمز» البريطانية فى نفس الفترة أنه «كان من أهداف السياسة الخارجية الإسرائيلية على المدى البعيد بصفة دائمة التعامل مع مصر على نحو ثنائى. إن الاتفاق المنفصل مع مصر هو حلم إسرائيل الدائم. لأن هذا يعنى عدم تكرار التحالف العربى الفعال. كالذى تم فى أكتوبر سنة ١٩٧٣. ومن ثم يعنى نهاية الصراع العربى الإسرائيلى» .

والواقع إن إسرائيل حاولت باستماتة تقديم هذا الإغراء مبكرا إلى مصر فى أعقاب هزيمة يونيو ١٩٦٧ مباشرة. وقد مارست كلا من أسلوب الإغراء وأسلوب الضغط عسكريا وسياسيا بالاشتراك مع الولايات المتحدة لإقناع مصر بالخروج من الصراع مقابل استعادة سيناء كاملة، وبغير أى قيود تستلزم نزع سلاحها، بلا جدوى. وقد كشف جمال عبد الناصر عن ذلك مرة فى لقاء مع أساتذة وطلاب الجامعات فى نهاية سنة ١٩٦٨، عقب مظاهرات الطلبة الشهيرة وقتها.

قال عبد الناصر : إننى أستطيع أن أستعيد لكم سيناء كلها غدا إذا أردتم.

ثم سكت عبد الناصر لحظة قليلة قبل أن يضيف قائلا : ولكن أحدا منكم لم يتساءل عن ثمن ذلك. إن الثمن هو أن يكون هذا سلاما منفصلا لمصر مع إسرائيل. وتخليا مصريا عن القضية القومية. وانفصالا كاملا لمصر عن العالم العربى. فهل أنتم مستعدون لكل تلك النتائج ؟.

وبالطبع رفض الجميع وقتها تسديد مصر هذا الثمن تحت أى ظرف. وبرغم أى ضغط. والواقع أن عبد الناصر كان لديه وقتها عرض أمريكى رسمى بعودة إسرائيل إلى حدود ٤ يونيو ١٩٦٧ بالنسبة للجبهة المصرية وحدها. وقد رفضه عبد الناصر رسميا أيضا لأنه حل منفصل مع مصر وحدها. ولأنه رأى أن مصلحة مصر تحتم الإصرار على التسوية الشاملة التى تعيد إسرائيل إلى حدود يونيو على الجبهات السورية والأردنية والمصرية معا. وليس على الجبهة المصرية وحدها.

والواقع أن الضغط الأمريكى الإسرائيلى على مصر من أجل قبول الحل المنفصل وصل إلى ذروته سنتى ١٩٦٨ و ١٩٦٩ بالغارات الإسرائيلية المروعة ضد المدنيين المصريين. وفى نفس الوقت كان الضغط العسكرى مصحوبا بإغراء آخر على الجبهة الدبلوماسية. جوهره الاستعداد لانسحاب إسرائيل من غزة وسيناء. بغير أية طلبات لنزع سلاح الأخيرة.

وهكذا أعلن ليفى أشكول رئيس وزراء إسرائيل صراحة فى حديثه مع مجلة نيوزويك الأمريكية (١٧ فبراير ١٩٦٩) قائلا : «خلال الحقبتين الأخيرتين كررنا دائما قولنا بإننا مستعدون لمناقشة مشاكلنا مع ناصر. إننى مازلت مستعدا لأن أطير إلى القاهرة غدا. إننى لا أريد أن أتحدث معه باعتبارى غازيا أو منتصرا.. إننى أستطيع أن أضمن بكلمتى لناصر بأن «إسرائيل الكبرى» لم تكن ولن تكن مطلقا هى سياستنا. إننى مستعد لمقابلته فى أى مكان. وأى وقت. ولن أنازع فى إجراءات أو جدول أعمال أو فى شكل المائدة» .

وبعد تلك الكلمات المعسولة التى تفيض رقة وعذوبة. يأتى دور الإغراء الجاد. فإسرائيل كما يسجل رئيس وزرائها فى حديثه إلى المجلة الأمريكية. مستعد لإعادة شبه جزيرة سيناء كاملة إلى مصر. وبلا أية قيود. حيث «إننا لم تكن لنا فى أى وقت طلبات من أجل نزع سلاح سيناء» على حد تعبيره.

«أما بالنسبة لمرتفعات الجولان» ... هنا بدأت الشروط وبدأ الثمن.. «فإننا ببساطة لن نتنازل عنها. ونفس الشىء بالنسبة للقدس. فهنا. لا مرونة على الإطلاق» . فبصريح العبارة. رئيس وزراء إسرائيل مستعد لإعطاء مصر كل ما تريده. إذا كانت هى مستعدة

للانفصال عن القضية القومية والتخلى عن القضية الفلسطينية والانفصال عن سوريا ومطالبها بضرورة استعادة الجولان المحتلة.

ومن وجهة نظر إسرائيل. فإن هذا المدخل المنفصل إلى السلام. هو المقدمة الأساسية والشرط الجوهرى للبدء فى إقامة «السلام الإسرائيلى» فى المنطقة بأسرها. إنه أولا يجعل العرب يبدأون سلامهم مع إسرائيل بانقسام خطير يسهل فيما بعد مهمة التغلب عليهم واحدا بعد الآخر. وثانيا فإنه ينمى التناقضات العربية محولا لها إلى صدامات عربية. تجعل من المستحيل أن يوجد فى السلام موقف عربى موحد. بمثل ما يوجد فى الحرب موقف موحد. وأخيرا فهو ممارسة إسرائيلية لمبدأ «فرق.. تسد» مع كيانات عربية تكون هى بنفسها قد قضت على احتمالات تكاملها الاقتصادى فى المستقبل.

وفى الإصرار على المدخل المنفرد إلى السلام مع العرب. لا يوجد فى إسرائيل معتدل ومتطرف. إن أحد «المعتدلين» الذين صدرتهم إسرائيل إلى العالم العربى هو «يورى أفينيرى» الذى يحلو للبعض أن يعتبروه من الحمائم فى إسرائيل. وفى مقال نشره أفينيرى فى مجلة «الشئون الخارجية» الأمريكية. عدد خريف ١٩٧٨. نجده أولا فى الثلث الأول من المقال يرفض بشدة مفهوم التسوية الشاملة للصراع العربى الإسرائيلى. ويهتف بأكثر الكلمات حرارة لأسلوب الاتفاقيات الجزئية والمنفردة الذى اتبعه هنرى كيسنجر. إن هذا الاسلوب. فى رأى أفينيرى. هو الذى أدى إلى «ترويض» كل من مصر وسوريا. وجعل مصر تغير أولوياتها السياسية. فتتحول من «التورط» فى الخارج إلى الاهتمام بالداخل. كما أنه هو الأسلوب الذى جعل سوريا تتورط فى لبنان.

بعدها يوجه أفينيرى هجوما عنيفا إلى الرئيس الأمريكى جيمى كارتر بسبب اتجاهه فى البداية إلى انعقاد مؤتمر جنيف. وهو المؤتمر الذى كانت إسرائيل ستضطر بمقتضاه إلى تقديم تنازلات أساسية حتى من قبل انعقاده. فاضطرار إسرائيل إلى التعامل مع العرب كجبهة موحدة. كما بدأ الموقف العربى فعلا حتى أكتوبر ١٩٧٧. لم يكن فى رأى أفينيرى سيؤدى إلا إلى نهاية واحدة هى: إضعاف إسرائيل. وتقوية «المتطرفين» العرب وفى مقدمتهم الفلسطينيون. إن كارتر اضطر إلى تغيير تناوله «العاجز» هذا مع مطلع سنة ١٩٧٨ (بعد

مبادرة الســادات) عائدا مرة أخرى إلى الأسلوب «المثالى» الذى هو فى رأى أفيتيرى التركيز علــى ســلام منفرد مع مصر. وحتى فى الطريق إلى هذا الســلام فــإن كارتر لم يتفهم جيدا هدف إســرائيل الاستراتيجى فى خلق عازل بين سيناء المصرية... وبين الشعب الفلسطينى فى غزة.

ونفــس هذا المفهوم كتبه المعلــق الصهيونى الأمريكى «جورج ويل» فى الأســبوع التالى مباشرة لمبادرة السادات بالذهاب إلى القدس. لقد كتب يقول إن كارتر أخطأ فى سعيه فى البداية إلى تســوية شاملة. وفى وضعه القضية الفلسطينية فى قمة – بدلا من قاع – جدول الأعمال. إن الســعى إلى تسوية شاملة يفترض أن هناك إسرائيل. ثم هناك الطرف الآخر. ولكــن كلمة «الطرف» هى غير ملائمة. إنها تفترض اتفاق المصالح العربية. وهذا يضر بأمن إسرائيل. وهكذا يكتب «جورج ويل» لأنه ليس هناك شىء «اسمه العالم العربى» فهذا مجرد تعبير جغرافى وليس تعبيرا سياسيا.

ثم يستخلص المعلق الصهيونى الأمريكى نتائجه قائلا : «يجب ألا تكون هناك جنيف. إن على أمريكا أن تعطى لإسرائيل ومصر وقتا كافيا لكى يتفقا. ولحظتها سوف تنتهى أزمة الشرق الأوسط. ولا تصبح هناك بالتالى ضرورة لأى تسوية شاملة» !

وفى النهاية نجد خلاصة للموقف الإسرائيلى كله فى محاضرة الدكتور «كلينتون بيلى» بجامعة تل أبيب. حينما قال فى ٨ ديسمبر ١٩٧٨ : «.... مع وضع مثل هذه الحقائق فى الاعتبار. تصبح الأهداف الرئيسية للسياسة الإسرائيلية واضحة بما فيه الكفاية... ألا وهى ســلب الفلســطينيين أملهم فى أن تكون لهم دولة. وخلق صراع مصالح بين الدول العربية الرئيسية ـ التى هى مصر وسوريا ـ وبين القضية الفلسطينية... ويعتبر إعادة فرض السيادة المصرية على سيناء. والسورية على الجولان. مصلحة قومية فى نظر كل من مصر وسوريا. أما القضية الفلســطينية فتعتبر مصلحة قومية إضافية. وبوســع إسرائيل أن تضع الاختيار أمام كل من مصر وســوريا على هذا الأســاس.إذ باستطاعة كل منهما استعادة أراضيها من خلال إبرام ســلام منفرد مع إســرائيل. والتخلى عن حق الفلســطينيين فى إقامة دولتهم. هذا وإلا. فليس أمام كل منهما ســوى أن يواصل الدعوة إلى إقامة دولة فلســطينية مخاطرا

بإشعال مزيد من الحروب. وعدم استرداد أرضه على الإطلاق... فإذا اتضح للشعب المصرى أولا. ثم للشعب السورى بعد ذلك. إن فى إمكانه استرداد سيناء. ثم الجولان أو الجزء الأكبر منها. عن طريق التخلى عن تأييد حق الفلسطينيين فى إقامة دولتهم. فإن زعماء مصر وسوريا سوف يتعرضون فى النهاية إلى ضغط لحملهم على الموافقة على هذا العرض. إن هذا سوف يصبح مستحيلا فى حالة واحدة فقط : إذا أصر العرب على التفاوض مع إسرائيل كطرف واحد» .

ومن الملفت أن نرى تلك الرؤية الإسرائيلية الواضحة والمعلنة بعد أقل من عشرين يوما من ذهاب السادات إلى القدس. ونرى أيضا إلى أى حد دخل البعض إلى هذا الفخ بقدميه.

رابعا : لا دولة فلسطينية:

هناك زاويتان فى الرؤية الإسرائيلية للقضية الفلسطينية : زاوية سياسية. وأخرى جغرافية.

فالزاوية السياسية تمثلها الكلمات الشهيرة لجولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل فى سنة ١٩٦٨. عندما قالت : لا يوجد شىء اسمه شخصية فلسطينية.. أو قضية فلسطينية.

بالطبع جولدا مائير كانت تعلم دائما. وإسرائيل تعلم دائما. أن هناك شعبا فلسطينيا كاملا طردته إسرائيل من أربعة أخماس أرضه. وتحتل الآن خمسها الآخر. ولكن الرؤية الإسرائيلية هنا هى : أن هناك حركتين قوميتين تتصارعان على نفس المنطقة من الأرض.. قومية إسرائيلية. وقومية فلسطينية. ولا حل أمام إحدهما سوى ذبح الأخرى.

و «الذبح» الإسرائيلى للقضية الفلسطينية يكون أولا بتحويلها إلى مجرد قضية لاجئين. ثم فى اللحظة التالية تطالب إسرائيل بأن يتم تسكين أولئك اللاجئين فى أى مكان. بتوطين بعضهم فى البلاد العربية. وبعضهم الآخر بالتهجير إلى كندا واستراليا مثلا. لقد كانت تلك هى الرؤية الإسرائيلية منذ ديفيد بن جوريون. إلى ليفى آشكول. وجولدا مائير. وإسحاق رابين. وانتهاء بمناحيم بيجن وإسحاق شامير.

وعندما قدم مناحيم بيجن مشروعه الشهير «السلام» إلى السادات فى اجتماع الإسماعيلية (ديسمبر ١٩٧٧) باعتباره الاستجابة الإسرائيلية لقيام الأخير بالذهاب إلى القدس. فإن المشروع يحكم على الشعب الفلسطينى باختصار بأن يختار بين : جواز سفر إسرائيلى.. أو جواز سفر أردنى. بكلمات أخرى : على الشعب الفلسطينى أن يذوب تحت جلد شعب أخر. وبذلك لا يصبح هناك «شىء» اسمه شخصية فلسطينية أو قضية فلسطينية.

أما الجانب الآخر فى هذه الرؤية الإسرائيلية فهو الجانب الاستعمارى البحت: إن إسرائيل تريد الاستيلاء نهائيا على الخمس الباقى من فلسطين. بقوة الغزو العسكرى.

وفى شهر إبريل سنة ١٩٧٨ كان عيزرا وايزمان وزير الدفاع الإسرائيلى يقول: إن الضفة الغربية لنهر الأردن لم تكن أبدا جزءا من الأردن. وقطاع غزة لم يكن جزءا من مصر. إن مصر لا تريد قطاع غزة ولا تدعيه. والرئيس كارتر يقول إن مصر لا تريد دولة فلسطينية فى الضفة الغربية. إذن. لمن يجب أن نعيدها ؟ لماذا لا نتحدث عن نوع المجهود المشترك من أجل حكم وإدارة الضفة الغربية ؟

بعدها بأربعة أشهر كان موشى ديان وزير الخارجية الإسرائيلية يقول: إننا. كحكومة وحزب العمل كمعارضة. متفقان على عدم قبول دولة فلسطينية. وعدم العودة إلى حدود ٤ يونيو ١٩٦٧. وعدم التفاوض مع منظمة التحرير. وعدم إيقاف المستوطنات.

وفى سنة ١٩٨٢ أعلن كل من إسحاق شامير. وآريل شارون. وزيرى الخارجية والدفاع الإسرائيليين : أنه إذا كان ولابد من إقامة دولة فلسطينية. فالجميع أمامهم الأردن. فليذهبوا إليها ويعلنوها دولة فلسطينية هناك !

ومن البداية قال مناحيم بيجن نفس الشىء عمليا فى مشروعه الذى قدمه إلى السادات فى الإسماعيلية أثناء اجتماعه به فى ديسمبر ١٩٧٧ : هناك حكم ذاتى. إدارى. للفلسطينيين فى الضفة الغربية. هناك انتهاء للحكم العسكرى. ولكن.. تظل السيادة والأمن هما وظيفة إسرائيل.

وقبل ذلك كان أقصى ما طرحته حكومة حزب العمل الإسرائيلى هو «خطة ألون» .. وبمقتضاها يتم اقتسام الضفة الغربية مع الأردن: الثلث المزدحم بالسكان الفلسطينيين يعود

إلى الأردن.. والثلثان الآخران يتم تفريغهما من الفلسطينيين لكى تستولى عليه إسرائيل نهائيا. مع حزام إضافى من المستوطنات الإسرائيلية بحذاء نهر الأردن.

بكلمات أخرى: إما أن يتم تقسيم جغرافى للأرض. الثلث للأردن والثلثان لإسرائيل. وإما أن يتم تقسيم وظيفى على كل الأرض : فبعض المرافق المدنية. ورصف الطرق وكنس الشوارع يكون من نصيب الفلسطينيين... والسيادة الأمنية والعسكرية. بل وحتى التعليمية وكذلك السيادة النهائية. من نصيب الإسرائيليين.

وبالطبع ينتهى بنا كلا الحلين إلى نفس النتيجة ـ وهى إعدام القضية الفلسطينية بل والشخصية الفلسطينية من أساسها.

وحتى بعد توقيع اتفاقيتى كامب ديفيد بين إسرائيل والسادات. كان إلياهو بن إليسار المدير العام لمجلس الوزراء الإسرائيلى «أول سفير إسرائيلى إلى السادات فيما بعد) يقول : ليس هناك أى أمل فى أن يتحول الحكم الذاتى الذى وقعت إسرائيل عليه (فى الاتفاقية) إلى الاستقلال. لن تكون هناك دولة فلسطينية فى الضفة الغربية فى أى وقت. ولا فى ظل أية ظروف ولا توجد حكومة إسرائيلية تستطيع أن تتعدى هذا الخط الأحمر.

وخرج مناحم بيجن يقول : إنه إذا تصور المجلس الإدارى (الذى يفترض أن يقوم تنفيذا لكامب ديفيد) فى الضفة الغربية وغزة لحظة واحدة. إن الحكم الذاتى الإدارى سيتحول إلى مفهوم سياسى. فإننا سنعيد الحكم العسكرى على الفور. وسوف يكون هذا أول وأخر إعلان له. لقد التزمنا فقط بمجلس إدارى للحكم الذاتى. وهذا يعنى إنه إدارة فقط ولا شىء غير ذلك. ويوجد فارق بين الحكم الذاتى والسيادة. فلا طابع بريد ولا علم ولا جيش سوى الجيش الإسرائيلى.

بعدها بأسبوعين نشر الصحفى الإسرائيلى «أمنون كابيلوك» واقعة ذات دلالة نقلا عن موشى ديان نفسه الذى قال : «لابد من الاستيلاء على مزيد من الأراضى بواسطة الحكومة العسكرية (فى الضفة الغربية وقطاع غزة) ولابد أن يصدر رئيس الوزراء أوامره إلى عيزرا وايزمان وزير الدفاع. الذى ينبغى عليه بدوره أن يأمر بإقامة سور حول المساحات اللازمة. كما يتعين على «إيرليخ» وزير المالية أن يمدنا بالمبالغ التى نحتاجها» .

وسأله صحفى : ماذا لو اعترض المصريون والأمريكيون على ذلك ؟

رد دايان قائلا : نحن لسنا على استعداد لتوقيع معاهدة سلام تلائمهم وحدهم. وإذا رفضوا التوقيع فلا يهم.. فماذا يستطيعون أن يفعلوه لنا ؟ أن يطردوننا ؟ لقد قلت ذلك منذ ثلاثة أشهر للسفير الأمريكى. وأنا على استعداد لتكراره !

ولكن الذى حدث بعد ذلك فعلا. هو أن إسرائيل حصلت على المعاهدة التى تريدها تنفيذا لاتفاقيتى كامب ديفيد. ووقعها السادات مع مناحم بيجن وحضور جيمى كارتر فى واشنطن - مارس ١٩٧٩.

ووقتها قدم إسحاق موراى وزير الطاقة الإسرائيلى إيضاحاته لما سيحدث. فى حديث نشرته صحيفة «معاريف» الإسرائيلية. فقال إن الحكومة (الإسرائيلية) لن تلغى. ولكن مثلما جاء فى اتفاقيتى كامب ديفيد. فإنها «سوف تنسحب» فقط ولكنها ستظل مصدرا للسلطة المحلية.

وسأله الصحفى : أى أنها ستصبح وزارة للمستعمرات ؟

رد الوزير الإسرائيلى : ولماذا نستخدم هذا التعبير.. مستعمرات ؟ إن يهودا والسامرة (الضفة الغربية) وغزة ليست مستعمرات. ولكن..

– لكن ماذا ؟

– إنها مناطق نملك عليها حق السيادة.

والواقع إنه من الملفت هنا أن نرى جرأة إسرائيل فى إقامة سلسلة كثيفة من المستوطنات بالضفة الغربية وغزة. والجولان وسيناء. ولم تبدأ فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧ مباشرة. إن برنامج الاستيطان الإسرائيلى لم يأخذ دفعته الكاملة إلا اعتبارا من سنة ١٩٧٥. بتوقيع إسرائيل اتفاقية فض الاشتباك الثانية مع مصر. وهى الاتفاقية التى التزم فيها السادات عمليا بإنهاء حالة الحرب. وبأن تظل هذه الاتفاقية سارية حتى تحل محلها اتفاقية أخرى. وهى أيضا الاتفاقية التى حصلت إسرائيل معها على مذكرة تفاهم بينها وبين الولايات المتحدة. تعهد فيها هنرى كيسنجر باسم الولايات المتحدة. بعدم التفاوض مع. أو الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية إلا إنها إذا اعترفت الأخيرة بالقرار ٢٤٢. وبشرط التشاور المسبق مع إسرائيل!

واعتبارا من يونيو ١٩٦٧. وحتى إبريل سـنة ١٩٧٥. لم تكن إسـرائيل قد أقامت فى الأراضى العربية المحتلة كلها سوى ٤٤ مستوطنة : ثمان منها فى سيناء. وأربع فى قطاع غزة. و ١٥ فى الضفة الغربية. و ١٧ فى الجولان.

أمـا فى الفترة من ١٩٧٥ حتى ١٩٧٧. أى خلال سـنتين فقط. فقـد ارتفع العدد إلى ٨٦ مستوطنة. أى أن عددها تضاعف تقريبا مع تأكد الاتجاه العربى إلى السلام.

وفيما بعد، واعتبارا من سـنة ١٩٧٩. زاد من جديد معدل إقامة المستوطنات الجديدة. بحيث إنها أصبحت ١١٥ مسـتوطنة فى تلك السنة. زادت إلى ١٤٨ مستوطنة فى نوفمبر من السنة التالية من بينها ١٠٧ فى الضفة الغربية و ٣٠ فى الجولان و ١١ فى قطاع غزة. فى نفس الوقت بدأت إسرائيل التخطيط لزيادة مستوطنيها فى الضفة الغربية إلى ١٦٤ قبل عام ١٩٨٧.

هذا يعيدنا من جديد إلى القضية الفلسطينية.

والقضية الأولى التى تروج لها إسـرائيل. كمبرر لاسـتحالة انسـحابها من الضفة الغربية وقطـاع غزة. هى أن هذا يمثل خطرا شـديدا على أمنها. وهـو خطر يصبح أكبر وأضخم فى حالـة وجـود أى احتمال لقيام دولة فلسـطينية بالضفة الغربية والقطـاع. وقد بلغ من نجاح إسرائيل فى ترويج حجة «الأمن» هذه لرفض قيام الدولة الفلسطينية. أن بعض الأصوات فى الجانب العربى قد تقبلت تلك الحجة وبدأت هى الأخرى ترددها. بتخاذل. أو بسوء معرفة.

ونسـتطيع هنا أن نعرف القيمة الفعلية لتلك الحجة الإسـرائيلية الملفقة. والتى تخفى مجرد أطماع مباشرة فى الأراضى العربية. من خلال دراستين تناولتا هذه النقطة بالذات : هل يمثل قيام الدولة الفلسطينية بالضفة والقطاع أى خطر على الإطلاق على أمن إسرائيل؟

ولنبدأ بالدراسـة الأولى. وهى دراسـة نشـرت فى مجلة «ويرلد فيو» الأمريكية سـنة ١٩٧٨. وكتبها «جيرالد هيمان» الأستاذ بكلية سميث.

يرد الأسـتاذ الأمريكى أولا فى دراسته على مزاعم مناحم بيجن رئيس وزراء إسرائيل. بأن بنى إسرائيل هم أصحاب الأرض فى الضفة الغربية وقطاع غزة وفلسطين كلها. فيقول:

«إن اســتخدام رئيس الوزراء مناحم بيجن للتاريخ كمبرر ليس كافيا. فأولا : إن قوة الجدل التاريخــي. مــن أخذ ماذا من مــن ؟ من الذى فقد الأرض ومتى. مــن الذى تكون مطالبه مشروعة.. إلخ يمكن أن تقودنا فقط إلى طريق مسدود. لأن الجدل كله يعتمد على : من أين يبدأ العد والحســاب. ولكن مهما بدأنا من عدة آلاف من الســنين فى الماضى. فإن حقيقة اســتقرار العرب. ولا نقول ملكيتهم. هى (بالنســبة لفلسطين) ليست محل نزاع أو جدل طوال المائة جيل السابقة على سنة ١٩٤٨ أو سنة ١٩٦٧. وأيا كانت شرعيتهم. فإن وجود اللاجئين والمقيمين بالضفة الغربية. سمها جوديا وساماريا فالنتيجة واحدة. يشكل حقيقة لا جدل فيها. إن دول المواجهة (العربية) ليست راغبة فى إقامة سلام بغير تسوية مقبولة للقضية الفلســطينية. ليس هذا فقط. بل إن تلك الدول. حتى لو أرادت غير ذلك. فليس من الواضح مطلقا ما إذا كانت تســتطيع أن تفعل. وأن ما يزيد على مليونين ونصف مليون فلسطينى عربى يعيشون فى دول المواجهة تلك. وحتى فى ظل أكثر خطط الليكود تفاؤلا. فإن مليونا منهم سوف يصبحون.. إما مواطنين فى إسرائيل. أو رعايا تستعمرهم إسرائيل. وإذا تمت الحالة الأولى فإنها ستشــكل تهديدا لاســتقرار – هو الآن مقلقل – فى أى دولة (عربية) يتوطنون فيها. وفى الحالة الثانية. فإنهم سيشكلون تهديدا عسكريا وديموجرافيا لإسرائيل ذاتها» .

ثم يضيف الأستاذ الأمريكى قائلا : «إن الاقتراح الذى يطرحه رئيس وزراء إسرائيل هو امتصاص هذه الملايين من الفلســطينيين فى الدول العربيــة التى يقيمون فيها نتيجة للغزو الإســرائيلى لأراضيهم. وهو اقتراح أجوف. بقدر ما هو غير واقعى. وفى النهاية لن يقبل هذا التشتت الفلسطينى بأقل مما هو كيان سياسى لهم. وهو ما يعنى فى النظام السياسى الجارى.. دولة مستقلة.

ثم يقول الأســتاذ الأمريكى : إننا لو نحينا مشــروعية هذا الهدف الفلســطينى جانبا. فإن إسرائيل نفسها سوف تكسب من قيام دولة فلسطينية بأكثر مما ستخسر. فقيام الدولة الفلســطينية هو أبعد ما يمكن عن دمار إسرائيل. بل إنه سوف يساعد فى تأمين مشروعية وجود إسرائيل ذاتها. وهذا سوف يتحقق من ثلاثة نواح على الأقل:

فأولا: إن قيام الدولة الفلسطينية فى الضفة الغربية وقطاع غزة سوف يركز اللاجئين (الفلسطينيين) داخل منطقة واحدة. إنهم الآن منتشرون فيما بين لبنان والضفة الغربية وغزة وسوريا و - منذ «الأيام السوداء فى سبتمبر» فى الأردن بدرجة أقل. وطالما هم يشكلون تهديدا لاستقرار هذه الدول المجاورة لإسرائيل. فإنها ستكون أكثر هدوءا إذا غادروها.. إن لم تصبح أكثر أمنا أيضا. وفى السنوات الثمانى الماضية وحدها كان الفلسطينيون سببا فى قيام حربين أهليتين. وغزوتين (أصبحت ثلاثة بعد الغزو الإسرائيلى الجديد للبنان - يونيو ١٩٨٢). لقد كان الفلسطينيون مصدرا لمعارضة العرش الهاشمى منذ قيام شرقى الأردن بضم الضفة الغربية فى سنة ١٩٤٨. وإذا كان هناك شىء يتفق فيه اللبنانيون. فهو أن «اللاجئين» الفلسطينيين الذين يتراوح عددهم ما بين ٤٠٠ ألف و ٦٠٠ ألف. يجب أن يغادروا لبنان بعد التوصل إلى اتفاق سلام.

والفلسطينيون الآن هم عنصر متطاير ومتبخر فى منطقة سهلة الاشتعال. إن القضاء على سبب تبخرهم سوف يؤدى إلى استقرار المنطقة كلها. وإذا لم يحدث ذلك. فإن تركزهم سوف يجعل السيطرة على تبخرهم أكثر سهولة. فبدلا من العمل السرى البشع فى تنظيمات مسلحة تحت الأرض. ورحلات طليقة سهلة عبر حدود دولية. وترحيب بهم فى منازل أمنة داخل أربع دول. وازدراء للسيادة الوطنية. والاتفاقيات الدولية. سيتم احتواء الفلسطينيين فى دولة واحدة.

ثانيا: إن وجود مثل هذه الدولة يؤدى إلى نتائج معينة. فربما يخلق الفلسطينيون نوعا جديدا من الدولة. وربما لا تتطابق دولتهم مع النموذج العام الذى مازال يميز معظم الدول. بالرغم من الإعلانات الثورية المثالية. وربما لا تخضع ثورتهم. والرؤيا التى تهتدى بها للفكر الروتينى والبيروقراطى والطبيعى إلى حد ما. وربما تكون هذه الدولة الفلسطينية ثورية بحق. ولكن حتى الآن. ليس هناك سبب لكى نتوقع مثل هذا الانفصال والابتعاد عن النموذج العادى للدول. إن حكومة هذه الدولة الفلسطينية سوف تكون قلقة بشأن أمنها الداخلى وسيادتها الوطنية ومواردها المحلية والتنمية الاقتصادية وأراضيها وعلاقاتها الدولية.

ولأن هذه الدولة سوف تحكم مساحة لا تزيد على ٣٣٠٠ ميل مربع. وسيتراوح سكانها ما بين مليون ونصف إلى ثلاثة ملايين ونصف مليون من السكان. بمتوسط دخل لا يزيد على ٣٥٠ دولارا للفرد سنويا. فليس من المحتمل أن تبدد طاقتها في التحريض على الثورات بين. أو الحروب مع. جيرانها الأكثر قوة. وإذا حدث و بددت طاقتها بهذا الشكل. فإنها بالضرورة سوف تدفع الثمن.

فعلى المستوى العسكرى والاقتصادى والسياسى. سيكون الانتقام من دولة. أسهل كثيرا منه ضد حركة تحت الأرض ومجموعة غير محددة من معسكرات اللاجئين. إن إسرائيل نفسها كانت لديها دائما مشكلة مستمرة من توجيه ردودها إلى الفدائيين. بينما قدرتها على الانتقام ضد الدول المجاورة قد ضمنت لها درجة من التعايش معهم. وحتى على أساس اعتبارات الأمن الإسرائيلى. فإن التعايش مع دولة فلسطينية سيكون حينئذ أسهل من التعايش مع حركة فلسطينية. إن أى رد انتقامى مطلوب سيمكن توجيهه ضد الطرف الملائم. بغير أن يكون هناك حاجة بالضرورة إلى توريط وإقحام طرف ثالث – سواء كان هذا الطرف لبنان أو الأردن أو حتى سوريا. وبدلا من وجود شبكة أميبية.. سيكون هناك بناء إقليمى.. دولة.. هدف واضح وغير غامض وله موارد ثمينة.

ثالثا: هذه الدولة. على الأقل فى الضفة الغربية التى هى مكان القلب فيها. سوف تكون مغلقة بريا. إنها سوف تكون محاطة تماما بإسرائيل الأكثر إحكاما. وبالأردن المتنبه واليقظ والقلق. إنها لن تكون لها حدود مشتركة مع أى دولة تقوم. فى الوقت الحاضر على الأقل، بتشجيع السلوك «المغامر» . إن كل جيرانها سيكون لديهم ما يخسروه بأكثر مما يكسبوه من حصول الدولة الفلسطينية على أى قدرة عسكرية أو سياسية.

ولكى نكون متأكدين – هكذا يستمر الأستاذ الأمريكى فى دراسته – فإن غزة سوف تمثل منفذا محددا إلى البحر، ومن ثم إلى الإمدادات العسكرية. ولكن الطريق البرى الوحيد بين غزة والضفة الغربية يمر عبر إسرائيل. إن غزة ليس بها ميناء ذو تسهيلات ملموسة. وحتى لو وجد بها مثل هذا الميناء (مستقبلا) فليس من المحتمل أن تسمح إسرائيل بقدوم سفن إمدادات حربية إليه.

أما المنافذ الوحيدة الأخرى فستكون.. إما بالجو. أو سيناء المجردة من السلاح. أو عبر خليج العقبة.. ثم من العقبة إلى مسافة ٣٠٠ ميل عبر الأردن إلى عمان، وهو طريق سيكون من السهل رصده ومنعه فى ظل الاتفاقيات الدولية الملائمة. وبالطبع سيكون ممكنا إمداد الضفة الغربية بالجو مباشرة. ولكن هذا سيكون باهظ التكاليف ومن السهل رصده. فلا طائرات تستطيع أن تصل إلى الضفة الغربية بغير أن تطير فوق إسرائيل أو فوق الأردن. وهكذا فإن نشوء ونمو تهديد عسكرى ملموس ضد إسرائيل أو الأردن هو أمر لا يحتمل أن يحدث، وهو بالتأكيد لن يحدث بغير إنذار مبكر كاف.

مع ذلك فإن الإسرائيليين قلقون مما هو أكثر من وجود قوة عسكرية حديثة. إن تل أبيب على بعد ثمانية أميال فقط من الحدود الغربية للضفة الغربية. والقدس تقع على تلك الحدود مباشرة. وقد أشار مستر بيجن إلى أن كلتا المدينتين ستكونان عرضة لمجرد إرهابى واحد مسلح يحمل قاذفا للصواريخ على كتفه. وهو يجادل بأن أحد لا يمكن أن يضمن أمن الأهداف الإسرائيلية داخليا من هذا المدى القريب.

ومع أن هذا أكثر صعوبة بالتأكيد فإنه يمكن الآن لإرهابى مشحون بالتصميم إطلاق صاروخ من كتفه وهو فى الضفة الغربية. إن الأربعين ميلا الأخرى على الحدود الغربية للضفة الغربية تمثل أمنا ضعيفا، إذا كانت تمثل أى أمن على الإطلاق. فأى شخص يستطيع أن يقيم قاذفا متحركا للصواريخ مداه ثمانية أميال سيكون قادرا على أن يقيم قاذفا أخر. ربما أكثر تعقيدا قليلا. بمدى عشرين أو حتى خمسين ميلا.

أكثر من ذلك، فإن نفس الاعتبارات التى تدعم الرغبة الإسرائيلية من أجل منطقة حاجزة فاصلة فى الشرق سوف تجعل من الضرورى أيضا وجود خيارات إسرائيلية إضافية من الأراضى فى الشمال. إن حيفا تقع على بعد عشرين ميلا فقط من الحدود اللبنانية. وبينما لعبت إسرائيل دورا مباشرا فى توازن القوى داخل جنوب لبنان. إلا إنه لم تكن هناك حتى مارس ١٩٧٨ أية ادعاءات رسمية بأن الأمن الإسرائيلى يتطلب ضم أراضى لبنانية. وحتى غزو ١٥ مارس (١٩٧٨) كان موجها إلى معسكرات منظمة التحرير الفلسطينية. كرد انتقامى على غارة فدائيين ضد أتوبيس. وليس كضربة وقائية لضمان هامش إضافى من الأمن لمدينة حيفا.

وبينما تزعم إسرائيل الآن أنها ترفض الدولة الفلسطينية حتى لا تجعل سكان حيفا وتل أبيب يصبحون رهائن للفلسطينيين.. فإن السكان الفلسطينيين للدولة الفلسطينية هم الذين سيصبحون فى الواقع. وبدرجة مشابهة. رهائن لإسرائيل. وأى حركة مغامرة بواسطة الفلسطينيين ستكون عرضة للانتقام من نفس النوع.

مع ذلك. فليس هناك شك فى أن أى تنازلات سياسية أو إقليمية فى الضفة الغربية أو أى مكان آخر هو أمر يشكل تهديدا إضافيا لإسرائيل. ولكن الاحتفاظ بالضفة الغربية. لو كان هذا ممكنا أصلا. سوف يحمل فى ثناياه تهديده الخاص. والتهديد الأكثر وضوحا هنا هو التهديد المستمر بالحرب. إن إسرائيل قد يكون لديها الآن التفوق العسكرى. ولكن لا يمكن استمرار بقاء تلك الفجوة. إن الإسرائيليين أنفسهم يشيرون إلى أن العرب يستطيعون أن يخسروا حروبا عديدة. ولكنهم لا يستطيعون خسارة حرب واحدة. ويواجه الإسرائيليون تفوقا عدديا ضدهم. والنسبة التى تطرح عادة هى ٦٠ إلى واحد. برغم أنه ليس من الواضح مطلقا من أين جاء هذا الرقم ـ ووجود المساندة المالية للسعودية وليبيا والإمارات تعنى أنهم يواجهون أيضا تفوقا فى التمويل ضدهم. وحتى لو وقفت أوروبا وأمريكا الشمالية مع إسرائيل بصلابة. وهذا افتراض غير محتمل بالمرة. فإن هذه العوامل يجب أن تؤتى نتائجها سريعا

ولكن لو نحينا مؤقتا مسألة الحرب ـ يقول الأستاذ الأمريكى ـ فإن قيام إسرائيل بضم الضفة الغربية له تكاليف محددة ويفرض تهديدات محددة. فمن الناحية الديموجرافية. فإن الفلسطينيين يفوقون الآن بالفعل الإسرائيليين عددا. والسكان الفلسطينيون يتزايدون بمعدل ثلاثة ونصف فى المائة سنويا. أى إنهم يتضاعفون عدديا كل عشرين سنة أو نحو ذلك. إن هذا يعنى أنهم يفوقون معدل تزايد الإسرائيليين بنسبة أربعين فى المائة.

وبصرف النظر عن نحو مليون فلسطينى يعيشون اليوم فى الضفة الشرقية. وبعضهم سيكون قادرا على العودة إلى الضفة الغربية حتى فى ظل الشروط التى أعلنها رئيس الوزراء بيجن. فإن المليون ونصف مليون فلسطينى فى غزة والضفة الغربية. وإسرائيل ما قبل ١٩٦٧. سوف يفوقون الإسرائيليين عددا فى وقت ما خلال الستين سنة القادمة. أى معدل حياة الجيل الإسرائيلى الحالى.

واحتفاظ إسـرائيل بالضفة الغربية وغزة سيجعلها شـيئا مختلفا جدا عنها اليوم. لبنان أخـرى. ولكن أسـوأ. إن المبـدأ الوحيد الذى يجعله بيجن غير قابـل للتفاوض. وهو بقاء إسـرائيل. سوف يصبح حينئذ مجرد مسـألة ثقل ووزن انتخابى وعوامل ديموجرافية. هذا بالطبع. إلا إذا تم إنكار ومنع حقوق المواطنة على سكان تلك المناطق التى تم إدماجها حديثا (بغير أن نقول تم ضمها). ومنع حقوق المواطنة عليهم فى أى دولة - إسرائيلية أو مستقلة - وفى مثل تلك الحالة فإن إسرائيل ستصبح. ليس لبنانا أخر. ولكن روديسيا أخرى.

وعسـكريا فإن نتائج «الاندماج» قد ترجح الكفة أيضا ضد إسرائيل. فمقابل تكاليف حراسة حـدود ما قبل ١٩٦٧. وهـى الحدود الأطول والأقل تنظيما. هنـاك تكاليف الاحتفاظ بجيش احتلال. وفى مقال أخير عن هذه المسـألة بالذات قال الجنرال «ماتيتياهو بيليد» إن الدفاع عن الحدود الجديدة يتطلب عشـرات الألوف من الجنود. مقابل آلاف قليلة فيما قبل ١٩٦٧. وأن التحصينات الحديثة تحتاج إلى «بلايين الجنيهات الإسـرائيلية» .. بينما فيما قبل ١٩٦٧. لم تكن هناك ضرورة إلى سنت واحد يتم إنفاقه على مثل هذا المشروع الذى لا طائل منه. وأن نفقات الدفـاع كانـت تمثل ١٢ ٪ من إجمالى الدخل القومى قبل سـنة ١٩٦٧. بينما هى الآن تحتاج إلى ٣٦ ٪. و «حتى هذا القدر من الصعب اعتباره كافيا لمواجهة احتياجات الدفاع الحالية» .

وعلـى أية حال. فـإن الجنرال بيليد يجادل بأنه لا شـىء من كل هـذا الإنفاق. أيا كان حججه. أدى إلى زيادة الأمن الإسـرائيلى. وقيام دولة فلسـطينية. يفترض أنها سيتم منعها من الاحتفاظ بالفرقتين المسـلحتين اللتين كانت الأردن تحتفظ بهما فى السابق على الضفة الغربية. وسوف يكون مطلوبا منها أن تحافظ على نفس القيود الواقعة على التسليح وإمـدادات الدفاع التى كانت مصر تفرضها فـى غزة والأردن وتفرضها فى الضفة الغربية. بمـا يجعل مثل هذه الدولة عرضة للضربات الانتقامية. والحرب عند الضرورة. بواسـطة إسرائيل إذا سمحت تلك الدولة لقوات عصابات بالعمل من أراضيها. وهذا الأمر لن يكون متمشـيا أساسا مع طبيعة الدولة الفلسـطينية من بدايتها. والجنرالات الإسرائيليون الآن. حتى أولئك الذين هم على شـاكلة الجنرال بيليـد. لا تعرف عنهم الرغبة فى التفريط فى مثل هذه المزايا الاستراتيجية لحدود إسرائيل فيما قبل يونيو ١٩٦٧.

بكلمات أخرى، تريد هذه الدراسة الأمريكية أن تقول بالدليل إنه إذا كانت المسألة مسألة أمن.. فإن إسرائيل تعرف أن حدود ما قبل ١٩٦٧ هى الأكثر أمنا. والأقل تكلفة. فوجود حجة بتهديد خارجي للأمن الإسرائيلى فى حالة قيام الدولة الفلسطينية هو إذن حجة غير صحيحة بالمرة. حجة ملفقة.

والواقع أن هناك ما هو أكثر. فالأستاذ الأمريكى يضيف فى دراسته قائلا : إن ما لم يأخذه الجنرال (الإسرائيلى) فى الاعتبار وهو يثبت أن الدفاع عن حدود إسرائيل ما قبل ١٩٦٧ أقل تكلفة، هو دوريات الحراسة الداخلية. وتكاليف الاحتلال بعيدا عن الحدود ذاتها. فبالإضافة إلى التكاليف العادية للأمن الداخلى فى دولة لا جدل فى مشروعيتها، فإن الأمن الداخلى فى منطقة متنازع عليها تكاليف أكبر بدرجة ضخمة، وقد أثبت ذلك ربع قرن من الحرب فى فيتنام.

وعلى المستوى الأكثر وضوحا. فإن استمرار الاحتلال الإسرائيلى (للضفة الغربية وغزة) سوف يؤدى بالتأكيد إلى احتضان حركة عصابات مضادة. إن التقدير القياسى للمحافظة على الأمن فى هذه الحالة هو عشرة جنود نظاميين مقابل كل عضو واحد فى حركة العصابات. برغم أن هذا رقم تخمينى. لكن، لا حاجة للتخمين حول حرب العصابات داخل المناطق «المندمجة» وداخل إسرائيل ذاتها، فالأمر فى هذه الحالة مؤكد. إن ما ستجريه إسرائيل هو نمو حركة معادية للاستعمار تكمل وتتمم نوع الإرهاب الذى كانت (منظمة) الأرجون رائدة له حينما كان رئيس الوزراء بيجن على رأسها. إن كل صندوق بريد، كل سوق، كل ناصية شارع. كل أتوبيس وسيارة ومرفق عام، سوف يكون فخا عاما محتملا، أو فخا حقيقيا فى الأغلب. إن كل سكان إسرائيل سوف يكونون رهائن لهذه الحركة. وسوف تكون هناك شبكة من الجواسيس. والجواسيس المضادين، والشرطة العسكرية. وعمليات الاستصلاح. وبالطبع – سوف يؤدى جنود الاحتلال إلى تحويل إسرائيل من ديمقراطية إلى معسكر مسلح، و مثل هذا سيكون معسكرا مسلحا، وتحت الحصار أيضا.

يقول الأستاذ الأمريكى فى دراسته : إن هذا التحول سوف يكون فقط جزءا من الثمن السياسى الذى ستدفعه إسرائيل فى حالة ضمها للضفة الغربية وقطاع غزة. إن الجدل

الداخلى حول الاستعمار. والجنسية. والهوية. ونمو السيطرة العسكرية. سوف يتكاثر بفعل المساندة الدولية المتلاشية. والعزلة المتزايدة. وسيكون هناك نتيجة لذلك شعور نام بجنون الاضطهاد. فى النهاية. يستطيع المرء أن يتنبأ بحدوث يقظة وتنبه داخل المجتمع الإسرائيلى للضحايا المدنيين لحرب عصابات طويلة وممتدة. وربما تصاعدا فى المعدل الحالى للهجرة من إسرائيل. وهو معدل يعكس حتى الآن فسادا اقتصاديا وسياسيا. إن المجتمع الإسرائيلى.. سوف يكون مضطرا إلى قبول تآكل مستمر لموارده الخاصة. وإلى تخصيص ثلث دخله القومى الإجمالى سنويا وحوالى نصف ميزانيته. والتضخم الذى لا يمكن تفاديه. وتزايد الدين الداخلى. والخوف المستمر من أن تخسر إسرائيل الحرب يوما ما. و - بالطبع - الثمن السيكولوجى الشامل لعقلية الحياة داخل الحصار. والسؤال هو : أى نوع من الناس سيكون الإسرائيليون. إذا تغذى جيل بعد جيل بمثل هذا النوع من البيئة؟.

يجيب الأستاذ الأمريكى على هذا السؤال الذى يطرحه. بقوله : إنه إذا كانت التكاليف المعنوية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية للاحتفاظ بالضفة الغربية وقطاع غزة تمثل هذا الارتفاع. واحتمال استمرار نجاح إسرائيل فى الاحتفاظ باحتلال شعب رافض له. وله حلفاء أقوياء. هو يمثل هذا الانخفاض. يكون هناك إذن اختياران اثنان واضحان فقط. وكل منهما بسيط الاختلاف عن الآخر : الاختيار الأول هو إقامة دولة فلسطينية مستقلة. والثانى هو نوع من «العلاقة» بين «كيان» فلسطينى وبين الأردن. إنهما اختياران بسيطا الاختلاف لأن الاختيار فى النهاية سيرجع إلى فلسطين. فالأردن لن تريد. ولا حتى ستستطيع طويلا. أن تفرض اتحادا فيدراليا. أو كونفيدراليا. أو حتى علاقة. ضد رغبة الفلسطينيين.

فأولا: أى «علاقة» تحمل مخاطرة للأردن نفسه. لأن الفلسطينيين يفوقون غير الفلسطينيين عددا فى مثل هذا الكيان أيا كان بناؤه السياسى. والفلسطينيون يفوقون غير الفلسطينيين عددا فى الضفة الشرقية وحدها. وستكون النسبة ٢ : ١ إذا أضفنا الضفة الغربية. وبالطبع. فإن الأرقام ليست هى العنصر الوحيد للقوة والسيطرة. ولكن. حينما تتمتع أغلبية سلالية متحمسة بمثل هذه الميزة. فلا يمكن تجريدها منها بسهولة. وستكون

تلك هى الحال، خاصة وأن الحكم الهاشمى للملك حسين يقوم أساسا على ولاء جنوده من البدو ومن غير الفلسطينيين. وإضافة مليون على الأقل إلى مليون ونصف مليون فلسطينى سيكون له بعض التأثير فى عدم استقرار الأردن.

ومن ناحية أخرى، فإن هؤلاء الفلسطينيين إذا تم إرغامهم على «علاقة» مع الأردن.. فإنهم سوف يأخذون أزمة الهوية التى يعانون منها معهم. ولا يبدو محتملا أن يتمكن الأردن، أو يستمر طويلا، فى إنكار المطالبة الفلسطينية بالاستقلال الوطنى. إن قبول الملك حسين لقرارات الرباط ورجوعه المستمر إليها يجعل من أى إصرار على السيادة الأردنية يبدو كأطماع توسعية، إن لم تكن احتلالية. ولكن لو نحينا الرباط جانبا. فسيكون شيئا باهظ التكاليف، فى الأرواح والأموال، ومفرط الصعوبة إن لم يكن مستحيلا، الاحتفاظ بالفلسطينيين مغفلين داخل بناء سياسى يعتبرونه أجنبيا، أو احتلاليا، أو غير مشروع. والملك حسين من جانبه لا يبدو من المحتمل أن يريد للأردن وضعها مكان إسرائيل.

وبالنظر أماما إلى امتداد حقبة أو حقبتين ويكون من الصعب أن نرى كيف تستطيع أى تسوية تتم بالتفاوض، أن تنكر التزاما وإصرارا فلسطينيا بالهوية السياسية المنفصلة. إن القومية، مهما كان مستقبلها مبهما فى عالم يتجه إلى البلقنة، فإنها لم تزح من طريقها امبراطوريات أوربية قوية فحسب، ولكنها حديثا جدا مزقت باكستان وأثيوبيا. ولو لم يكن الضغط الدولى القوى، لكانت مزقت أيضا نيجيريا. أما يوغوسلافيا، والهند، والفيلبين، وعدد آخر من الدول الأفريقية، وحتى كندا، فهى تعيش على أرض قلقة، وإذا استمر الفلسطينيون يطلبون دولة، فليس من الواضح كيف تستطيع إسرائيل أن تمنعها، معنويا أو عسكريا أو سياسيا، ولا يبدو حتى إن من مصلحة إسرائيل أن تفعل ذلك.

مع ذلك، فإن إسرائيل هى، بالضبط، تمنع قيام الدولة الفلسطينية، ملفقة حجة أن فى قيام هذه الدولة خطرا مدمرا على أمن إسرائيل ؛

وهنا ينهى الأستاذ الأمريكى دراسته بقوله : إن الفرصة المتاحة للسلام موجودة الآن. وفى مقابل فرصة الحياة فى أمن وسلام، التى ستحصل عليها إسرائيل، فإن أقصى ما ستفعله إسرائيل هو العودة إلى حدود كانت هى نفسها أكثر من راغبة فى قبولها قبل حرب

الأيام الستة فى (١٩٦٧). وقبول مبدأ تقرير المصير فى أراضى كانت الأردن تسيطر حينئذ - تقرير مصير. لم تكن إسرائيل لتستطيع أن تفعل إزاءه شيئا لو أن الملك حسين أتاحه. وقبله الفلسطينيون. فى مايو ١٩٦٧. إنها ستكون قصة ساخرة محزنة لو أن إسرائيل رفضت الآن الاعتراف العربى بالأمر الواقع، واعتبرته شيئا قاصرا تماما.. فى الوقت الذى كانت سترحب به قبل حرب يونيو ١٩٦٧، وتعتبره أعجوبة الأعاجيب» !

هذه هى النقطة التى ينتهى إليها الأستاذ الأمريكى فى دراسته عن الدولة الفلسطينية. وهى تكاد تكون نفس النقطة التى يبدأ منها أستاذ فلسطينى دراسته عن نفس الموضوع. دراسة كتبها الدكتور وليد الخالدى، ونشرتها مجلة «الشئون الخارجية» الأمريكية فى نفس السنة - ١٩٧٨.

يقول الأستاذ الفلسطينى فى دراسته : خلال حياة معظم القراء. فإن الكلمات التالية وجهها اللورد «بيل» إلى الفلسطينيين العرب عام ١٩٣٧ (أثناء ممارسة بريطانيا لسلطة الانتداب على فلسطين).. وهو يلخص لهم تقريره الذى يوصى فيه بتقسيم فلسطين (بين الفلسطينيين واليهود) : «لو أنكم أخذتم فى الاعتبار، ماذا تعنى إمكانية وجود ملجأ فى فلسطين لآلاف عديدة من اليهود الذين يعانون (من الاضطهاد فى أوروبا). فهل الخسارة التى يتسبب فيها التقسيم لكم، على ما هى من الضخامة، أكثر مما يستطيع أن يتحمله الكرم العربى ؟

ولقد كانت إسرائيل تحلم أولا بتقسيم فلسطين بينها وبين الفلسطينيين.. بينما رفض العرب. فإذا كان العرب اليوم يقبلون بتقسيم فلسطين راضين بأن تكون للشعب الفلسطينى مساحة أصغر كثيرا مما كانت فى ظل أية صيغة سابقة للتقسيم. فإن هذا تطور هام طال انتظاره من جانب الإسرائيليين، وكذلك من جانب المراقبين الخارجيين. وسيكون الأمر مأساويا إذا لم يتم الاعتراف بهذا التطور حينما وقع . وسيكون مأساويا إذا تم الاعتراف به.. وإنكاره.

إن قرار تقسيم فلسطين الذى أصدرته الأمم المتحدة عام ١٩٤٧ قد كفل لإسرائيل نحو ٥٥ ٪ من فلسطين، وللفلسطينيين ٤٥ ٪ ولكن، حتى ٤ يونيو ١٩٦٧ كانت إسرائيل قد قفزت بالأرض التى استولت عليها إلى ٧٧ ٪ من فلسطين. ولم يبق سوى الضفة الغربية وغزة، التى تمثل الآن مجرد ٢٣ ٪ من فلسطين.

هل يمكن أن يكون حقيقيا.. مرة أخرى.. ماتزعمه إسرائيل من أن قيام دولة فلسطينية بالضفة الغربية وقطاع غزة. خطر عليها ؟

هنا يبدأ وليد الخالدى بالجانب العسكرى. فيقول إنه ليس من المتصور أن تكون الدولة الجديدة مسلحة بأكثر الأسلحة تطورا فتصبح خطرا. ليس متصورا أيضا أن تكون مجردة تماما من السلاح. فتصبح عاجزة عن حماية أمنها لمنع الغزوات المسلحة من المجموعات الإسرائيلية المتطرفة التى تسعى لإقامة مستوطنات. إن المقصود إذن هو مستوى من القوة المسلحة يتفادى هذين الاحتمالين.

من هنا يطرح وليد الخالدى تصورين عمليين لما سيكون عليه الموقف على الطبيعة من حيث مقارنة مستويات القوة المفترضة للدولة الفلسطينية. وبين كل من جارتيها : إسرائيل والأردن. وذلك بناء على الأرقام المعروفة دوليا وقت الدراسة.

والتصوران هما . أن تكون للدولة الفلسطينية نصف قوة الأردن حاليا. أو ثلث تلك القوة. وطبقا لذلك نستطيع أن نعرف على وجه الدقة مدى الجدية فى زعم إسرائيل بخطر الدولة الجديدة عليها مثلا. إن القوة الجوية للأردن (وقت الدراسة) تبلغ ٧٨ طائرة مقاتلة. فإذا سمح للدولة الفلسطينية بامتلاك نصف قوة الأردن. فهذا يعنى أن تكون لديها ٢٦ طائرة فى الضفة الغربية و ١٣ طائرة فى قطاع غزة. أما إذا امتلكت ثلث قوة الأردن. فستصبح لديها ١٨ طائرة مقاتلة فى الضفة. وثمانى طائرات فى غزة. وكل هذا فى مقابل إسرائيل. التى لديها ٥٧٤ طائرة مقاتلة !

بالنسبة لطائرات الهليكوبتر مثلا. تمتلك الأردن ١٨ طائرة. فإذا كان للدولة الفلسطينية نصفها تكون النتيجة أن تصبح لها ست طائرات فى الضفة وثلاث فى غزة. أما إذا كان للدولة الفلسطينية ثلث القوة الأردنية. فسيصبح لها أربع طائرات فى الضفة وطائرتان فى القطاع. وفى المقابل تمتلك إسرائيل ١٨٦ طائرة هليكوبتر !

فى الدبابات مثلا. إذا امتلكت الدولة الفلسطينية نصف قوة الأردن. فهذا يعنى أن تكون لديها ١٧٤ دبابة فى الضفة. و ٨٦ دبابة فى القطاع. فإذا امتلكت ثلث قوة الأردن. يصبح لديها ١١٥ دبابة فى الضفة. و ٥٧ دبابة فى القطاع. وفى المقابل لدى إسرائيل ٣٠٦٥ دبابة !

فـى العربـات المدرعة.. نصف قوة الأردن يعنى أن تكون للدولة الفلسـطينية ٤٧ عربة مدرعـة فى الضفـة الغربية. و ٢٣ فى القطاع. أما ثلث قوة الأردن فمعناه أن تمتلك الدولة الفلسطينية ٣٠ عربة مدرعة فى الضفة الغربية و ١٥ فى القطاع. وفى المقابل تمتلك إسرائيل ٣٦٠٠ عربة مدرعة !

وهذان التصوران العمليان اللذان يطرحهما الدكتور الخالدى فى دراسـته. يؤكدان معا كذب إسرائيل المطبق فى ادعاء الخطر من قيام الدولة الفلسطينية.

ثم تقول الدراسـة إن الدولة الوليدة سـوف تواجه أولا ضرورة السماح لأعداد كبيرة من اللاجئين الفلسـطينيين المشتتين بالاستقرار فى الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس الشرقية. وفى هذا المجال سـوف يكون التعاون مع الأردن ضروريا. إلا إنه رغم هذا سـتظل الدولة الجديدة عاجزة عن امتصاص كل اللاجئين الفلسـطينيين. وهنا لابد من تطبيق القرار ١٩٤ الـذى أصدرته الجمعية العامة للأمم المتحدة سـنة ١٩٤٨. وأعـادت تأكيده مرات عديدة تالية. وهو قرار أيدته الولايات المتحدة. إنه يتيح الاختيار أمام اللاجئين ما بين العودة إلى فلسطين. أو قبول التعويض.

من هنا لابد من إزالة المسـتوطنات الإسـرائيلية تماما فى الضفة الغربية وقطاع غزة. فهنـاك سـبب عملى. وهـو أن الدولة الوليدة سـتحتاج إلى كل بوصة فـى أراضيها لحل مشـكلة اللاجئين. وهناك سبب سيكولوجى. لأن استمرار المستوطنات الإسرائيلية سيكون سـببا للسخط من جانب أولئك الفلسطينيين الذين ستعجز الدولة الجديدة عن استيعابهم. ثم أخيرا سـبب سياسـى. هو عدم التقليل من سـلطة الحكومة الفلسطينية الجديدة. ومن استقرار التسوية.

فإذا لم تكن الدولة الفلسطينية خطرا عسكريا على إسرائيل. ولا خطرا اقتصاديا. إذن.. هل يمكن أن تكون خطرا سياسـيا ؟ هل تتحول الدولة الفلسـطينية إلى بؤرة راديكالية فى المنطقة كما تزعم إسرائيل ؟

هناك ثلاثة أسباب تثبت أن هذا غير صحيح:

فأولا: سيكون قيام الدولة الفلسطينية ضمن إطار دولى للتسوية. يتضمن بالضرورة كلا من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى.

وثانيا: سيكون هناك أيضا الإطار الإقليمى للتسوية. فمع انسحاب إسرائيل من أراضى مصر وسوريا. لن تحتاج أى منهما إلى وضع قوتها على الحدود. وبالتالى يمكن الاتفاق على ضمانات عربية جماعية.

ثالثا: دعنا ننظر مرة أخرى إلى الميزان العسكرى. للمقارنة بين إسرائيل والدولة الفلسطينية. إن علينا هنا إذن أن نلاحظ عدم الاستمرار الإقليمى فى الدولة الجديدة. فقطاع غزة ستفصله عن الضفة الغربية أراضى إسرائيلية بعرض ما بين ٢٠ و ٣٥ ميلا. وحتى باستعادة القدس الشرقية. فإن القدس الغربية (الإسرائيلية) ستظل مسيطرة على الطريق الرئيسى الذى يربط بين نابلس فى الشمال.. والجليل فى الجنوب.

ويلاحظ أيضا حالة التطويق حول الدولة الجديدة. فكل من قطاع غزة والضفة الغربية محاط بالكامل تقريبا بواسطة إسرائيل. الأول من الشمال والشرق. والثانى من الشمال والغرب والجنوب الشرقى.

ونلاحظ كذلك طبيعة المنافذ التى ستكون متاحة إلى أراضى الدولة الفلسطينية. فإذا كانت تل أبيب تبعد ١٥ ميلا من الضفة الغربية. فإن الضفة الغربية هى أيضا على نفس المسافة من تل أبيب. إن المنافذ ليست فقط مسألة مسافة. إنها أيضا مسألة مساحة منظورة. أو مزروعة. أو طرق مواصلات وقدرات على التنقل. وفوق كل شىء هى وظيفة ميزان قوى.. يضاف إليها الرؤية بالعين المجردة كميزة إضافية. فقطاع غزة يتراوح عرضه ما بين خمسة وعشرة أميال وطوله ثلاثون ميلا. وهكذا. فكل ياردة مربعة يمكن اختراقها من الجانب الإسرائيلى سيرا على الأقدام خلال ساعة. وبالسيارة خلال دقائق، وبالطبع لا يحتاج الأمر لأى وقت إضافى للإنذار بالنسبة للطائرات. أما الضفة الغربية فطولها ٨٥ ميلا. وأعرض منطقة فيها أقل من أربعين ميلا. بينما أضيق منطقة هى عند القدس. حيث

تبلغ أقل من عشـرين ميلا. وهكذا. فإنه ليست هناك نقطة على الضفة الغربية تقع خارج نصف قطر ٢٥ ميلا من أقرب نقطة على الحدود الإسـرائيلية. ومعظمها يقع داخل نصف قطر ٢٠ ميلا من الحدود. وليسـت هناك زراعة عائقة أو مانعة. أو بيئة يصعب اختراقها فتمنـع القدوم من الحدود الإسـرائيلية إلى أى مكان فى الضفـة الغربية. على الأقدام فى سـت سـاعات. وبالسيارة خلال ساعة. ولا وقت بالطبع لإنذار مبكر ضد قدوم الطائرات. وبالإضافة إلى كل ذلك. فليست هناك غابات كثيفة تغطى أى جزء من الضفة الغربية.

أما عن منافذ اتصال الدولة الفلسـطينية الجديدة بالعالم الخارجى. فإن المطار الوحيد فى قطاع غزة هو على مرمى حجر من إسرائيل. والميناء الوحيد صغير ومجرد مخرج مؤقت. ومقارنة القوات الفلسـطينية التى ستكون موجودة بالقطاع مع القوات الإسرائيلية. هى مقارنة تتحدث عن نفسها. وبالإضافة إلى ذلك فإن الأسطول الإسرائيلى متاح أيضا لمراقبة ساحل قطاع غزة.

بالنسـبة للضفـة الغربية فليس لها منفذ-إلى البحر. إن بهـا مطارا واحدا شمال القدس محدود المقدرة. إنها داخل مرمى مدافع المورتار والمتوسـطة. والحدود الإسرائيلية. وبالعين المجردة من داخل إسـرائيل يمكن رؤية أى طائرة قادمة إليها أو خارجة منها. والاتصال البرى للضفة مع العالم العربى يمر عبر الأردن. والعبور بالسيارات من وإلى الأردن يتم عبر طريقين رئيسيين بنقطتى عبور على نهر الأردن. إن الطريقين المؤديين إلى العبور من الجانب الأردنى يمران خلال سـهل مفتوح وضيق. وحينما نصل إلى الجانب الفلسـطينى يبدآن فى صعود جبال نابلس والقدس. ومع مراعاة التفوق الجوى الإسرائيلى. فإن مثل هذه الأرض على كلا جانبى نهر الأردن هى مقبرة نموذجية للمدرعات.

والأردن. باعتباره طرفا فى التسوية. سيكون حريصا على مراقبة القوات المسلحة للدولة الفلسـطينية. إن موقعه يجعله مسـيطرا على طرق النفاذ إلى الدولة. وأيضا على الاتصال الوحيد للدولة من خلال أراضى عربية (العقبة الأردنية) يمكنه من ممارسة سيطرة فعالة على مرور كل المركبات إلى الدولة الفلسطينية. إن هذا يمكن تدعيمه أيضا بتفتيش من الأمم المتحدة عند نقطتى العبور على نهر الأردن. ونفس الشىء فى مطار القدس. وهكذا فإن كل الفتحات يمكن إغلاقها عند الضرورة.

والضفة الغربية بها تناسق من التخوم المنتفخة على إسرائيل. بقاعدتها على نهر الأردن. وطول هذه القاعدة من الشمال إلى الجنوب ٤٥ ميلا. وهناك طريق يسير موازيا للنهر من الحدود الإسرائيلية قرب بحيرة طبرية. إن جيشا يعبر الصحراء السورية فى اتجاه المنافذ الأردنية إلى الضفة الغربية سيكون عليه أن يسير مئات الأميال قبل أن يصل إلى الحدود الشرقية للأردن والتى هى نفسها على بعد مئات الأميال من نهر الأردن. وفى مقابل ذلك فإن أى رتل اسرائيلى مدرع يتجه من بحيرة طبرية جنوبا.. يستطيع فى أقل من ساعتين أن يقطع كل اتصال للدولة الفلسطينية مع العالم العربى. وإسرائيل تستطيع أيضا أن تأتى بلواءاتها الخمسة للمظلات. والـ ١٨٦ طائرة هليكوبتر (بغير أن نضيف ٥٧٤ طائرة مقاتلة) للاستيلاء على نقطتى العبور على نهر الأردن.

وهكذا. ففى الخلاصة. فإن أى قيادة للحكومة الفلسطينية فى الدولة الجديدة. أى قيادة تتولى مسئولية الحكم. سوف تكون لديها أوهام قليلة عن فاعلية النضال المسلح فى أية مواجهة مع إسرائيل. إنها ستكون متنبهة بشدة إلى الثمن الباهظ لمثل هذه المواجهة.

ويختتم وليد الخالدى دراسته قائلا: «إن مشكلة الأمن الحقيقية التى يفرضها قيام الدولة الفلسطينية هى: كم من الوقت سيكون الجنرالات الإسرائيليون قادرين على رفع أيديهم عن مثل هذه البطة الشهية الجالسة ؟» .

والآن. من هاتين الدراستين التفصيليتين. الأولى أمريكية والثانية فلسطينية. نستطيع أن نخرج بمجموعة من الحقائق.

فأولا: ليس صحيحا مطلقا ما تروج له إسرائيل من أن فى قيام الدولة الفلسطينية خطرا على وجودها وأمنها. لا عسكريا. ولا سياسيا. ولا اقتصاديا.

وثانيا: إن محاولة الترويج لحجة احتياج إسرائيل إلى الأمن. ليس إلا تورية واضحة للرغبة فى التوسع الجغرافى. فإسرائيل تريد ابتلاع الـ ٢٣ ٪ الباقية من فلسطين. قبل أن تقفز إلى خارجها.

وثالثا: إن القضاء على الشخصية الفلسطينية من حيث هى. هو هدف إسرائيلى شامل. يمثل أساسا سياسيا ثابتا فى «السلام الإسرائيلى» الذى تريد إسرائيل فرضه على العالم العربى.

وإســرائيل حينما تقيم المســتوطنات بكثافة فى الضفة الغربيــة. فإنها فى الواقع تعمل بثبات وانتظام على تهويد الأرض. ورئيس وزراء إسرائيل مناحم بيجن لم ينكر فى أى وقت أطماع إســرائيل الصريحة فى الضفة الغربية. وفى الوقت الذى تواجه إســرائيل فى داخلها أزمة كبرى لتوفير اســتثمارات للإســكان. وتواجه ارتفاعا مســتمرا فى ديونها الخارجية. فإنهــا تخصص الأموال لإقامة المزيد من المســتوطنات. لقد وصل نصيب الفرد الإســرائيلى الواحد من الدين الخارجى الإسرائيلى فى سنة ١٩٧٩ إلى ٣٥١٣ دولارا. وفى العام التالى قفز هذا الرقم إلى ٣٩١٨ دولارا. ومن المتوقع أن يرتفع فى مطلع عام ١٩٨٤ إلى ٥٢٦٨ دولارا.

وبرغم هذا كله. وبرغم التضخم. ورفع أســعار الســلع الأساســية. وزيادة الضرائب. فــإن البرنامج الوحيد الذى لم ينكمش. بل يتوســع دائما. هو برنامج إقامة المســتوطنات الإسرائيلية الجديدة فى الضفة الغربية وقطاع غزة.

وفــى البداية كانت إســرائيل ترفض التفاوض مع منظمة التحرير الفلســطينية بحجة أنها تريد تدمير إسرائيل (برغم حقيقة أن لدى المنظمة اعترافا من ١١٢ دولة. ولديها مكاتب تمثيل رسمية فى أكثر من تســعين دولة. فوق تمثيلها كعضو مراقب فى الأمم المتحدة). لكن بعد ذلك أعلن رئيس وزراء إسرائيل إن إسرائيل لن تعترف بالمنظمة.. حتى لو اعترفت المنظمة بإسرائيل.

ذلك لأن القضية بالنســبة لإسرائيل ليست قضية اعتراف.. وإنما قضية أرض. والمسألة ليســت فى خطورة ملفقة للدولة الفلســطينية تدعيها إســرائيل.. وإنما المســألة رغبة فى التوسع.. وابتلاع المزيد من الأراضى العربية.

خامسا : عزل مصر عن العالم العربى :

برغم أن هذا العامل الأساسى فى الأمن الإسرائيلى يخضع لدراسة تفصيلية فى تحليلنا لإطار الأمن المصرى. إلا إنه نظرا لجوهريته بالنســبة للأمن الإســرائيلى فإننا سنتناوله هنا بشىء من التركيز :

فخلال الفترة الأولى مباشــرة لتطبيع العلاقات رسميا بين إسرائيل ومصر تنفيذا لمعاهدة السادات مع إسرائيل. قام ثلاثة من الأساتذة الإسرائيليين فى معهد «شيلواح» بجامعة تل

أبيب بزيارة مصر. فى مهمة لجمع المعلومات من على الطبيعة. تساعدهم فى استكمال دراساتهم السابقة عن الرأى العام فى مصر.

وعندما نشروا النتائج الأولى لدراستهم تلك فى مطلع سنة ١٩٨٠ سجلوا تلك الملاحظة: إنهم اتجهوا إلى إحدى دور السينما فى القاهرة لمشاهدة فيلم سينمائى سمعوا أنه الأكثر شعبية فى ذلك الوقت. وكان الفيلم فى جوهره يتضمن نقدا لاذعا ضد نظام عبد الناصر. لكن «الأمر المذهل» على حد تعبيرهم هو أنه فى المشهد الوحيد الذى يستعين فيه الفيلم بصورة وصوت جمال عبد الناصر فى لقطة تسجيلية لم تستغرق سوى ثوان معدودة. انطلقت الجماهير فى قاعة السينما تصفق بحماس منقطع النظير للزعيم الذى مضى على وفاته أكثر من عشر سنوات» .

ويقول الإسرائيليون الثلاثة : «لقد خرجنا بإحساس أنه. بالسماح بإطلاق القيود.. والحرية المحددة التى اتبعها السادات. سوف نصل إلى نقطة يمكن أن تكون خطيرة. إن معارضة تطبيع العلاقات (مع إسرائيل) أصبحت فى هذه اللحظة أكثر من معارضة معاهدة السلام» .[1]

فالإسرائيليون الثلاثة يرون فى حماس الجماهير المصرية لجمال عبد الناصر هو بمثابة نقطة خطر - من وجهة نظرهم طبعا . خطر يستدعى من السادات تقييد الحريات بما يكفل السيطرة على هذا الحماس. لقد كان هذا قبل نحو سنة ونصف من الإجراءات القمعية الشهيرة التى اتخذها السادات ضد المعارضة المصرية وكل من يختلف معه فى معاهدته مع إسرائيل -وهم الذين اعتبرتهم إسرائيل فى حينها معوقون لتطبيع العلاقات معها. ولعبت هى نفسها دورا فى قمعهم. على اعتبار أن هذا يمثل ضمانا «لتعميق» التطبيع !

والواقع أن إسرائيل لم تنكر فى أى وقت عداءها لسياسات عبد الناصر. فجولدا مائير أعلنت عدة مرات خلال رئاستها لمجلس الوزراء الإسرائيلى أنه لا يمكن لإسرائيل التوصل إلى سلام فى ظل وجود عبد الناصر. وطوال غارات العمق الشهيرة التى قامت بها إسرائيل

(١) جريدة "معاريف" الإسرائيلية ١٩٨٠/١/٢٥.

ضد مصر سنتى ١٩٦٩ و ١٩٧٠ . أعلن موشى ديان صراحة أن الهدف من تلك الغارات هو إقناع الشعب المصرى بضرورة التوقف عن التمسك بزعامة عبد الناصر.

ومــن هنا. فإنه بمجرد وفــاة عبد الناصر. أصبح «حاييم بارليف» رئيس أركان الحرب الإسرائيلى قادر على أن يخاطب طلبة الكلية الحربية الإسرائيلية فى نوفمبر ١٩٧٠ قائلا: «إنه بموت عبد الناصر أصبح «المستقبل مشرقا أمام إسرائيل» .

ومــن بين كل ردود الفعل الأجنبية لوفــاة عبد الناصر المفاجئة . كان ملفتا للنظر صوت مناحم بيجن بالذات. الذى خرج وقتها ليصرح علنا بأن وفاة عبد الناصر إنما تعنى بالنسبة له وفاة عدو مرير. حيث إن عبد الناصر ـ والكلمات مازالت لمناحم بيجن ـ كان أخطر عدو لإســرائيل ـ ولهذا الســبب فإن إسرائيل لا تستطيع أن تشارك فى هذا الحديث الذى يملأ العالم كله عن حكمة عبد الناصر وزعامته وقدرته.

وفى مذكرات هنرى كيســنجر وزير الخارجية الأمريكية الأســبق. يســجل إنه عارض مبادرة روجرز الأمريكية الشــهيرة لأنه كان يرى دائما أن على الولايات المتحدة ألا تتقدم بأى مبادرات للســلام فى الشرق الأوســط إلا بعد تحقيق ثلاثة شروط. أولها «القضاء على عدوانية عبد الناصر» .. وإسقاطه.

ولقــد عبر المؤلف الإســرائيلى. وعضو الكنيســت «أمنــون روبن إشــتاين» عن الرؤية الإســرائيلية فى هذا الصدد بقوله : «إن مصر يجب ألا تكون طرفا فى الصراع الإســرائيلى العربى. إن تورط مصر الكبير فى النزاع اليهودى العربى تمخض بصفة خاصة عن سياســة ناصــر. التى كانــت تقوم على أساســين تنقصهما الحكمة. ويتمثلان فــى إمكانية وجود وحدة عربية تخضع للسيطرة المصرية. ومعاداة الغرب. والآن بعد أن تم القضاء على هذين المبدأين. انهار كل مبرر لحرب مصرية طويلة ومكثفة ضد إسرائيل» .

والواقع أن تلك الرؤية الإســرائيلية. التى كتبها المؤلف الإســرائيلى للقارئ الفرنســى فــى مجلة «لوموند دبلوماتيك» . عدد ينايــر ١٩٧٨ . تتضمن الدقة فى التعبير عن الموقف الإســرائيلى بقدر ما تتضمن من المغالطة فى تسمية الحقائق. إما المغالطة فتكمن أولا فى أن

عبد الناصر لم يكن هو الذى قام «بتوريط» مصر فى النزاع «اليهودى العربى» . لقد دخلت مصر حرب فلسطين الأولى عام ١٩٤٨. فى ظل حكم ملكى من قبل أن يقوم عبد الناصر بثورته بأربع سنوات. وبقرار من البرلمان المصرى المعبر عن كل فئات السلطة السياسية فى حينها.

بل إن مصر رأت الخطر الشديد عليها فى حركة الاستيطان الصهيونى لفلسطين. من قبل حتى أن تقوم إسرائيل كدولة رسميا. لقد كان مصطفى النحاس زعيم حزب الوفد ورئيس الوزراء هو الذى أثار مع السفير البريطانى بالقاهرة قلق مصر من هذا الخطر مبكرا. وفى سنة ١٩٣٧.

أيضا من المغالطة تصوير الأمر على أساس أن سياسة عبد الناصر كانت تقوم على «إمكانية وجود وحدة عربية تخضع للسيطرة المصرية» : فالمؤلف الإسرائيلى لم يوضح متى. وأين. سعت مصر على الإطلاق إلى فرض سيطرتها على أى دولة عربية. والحالة الوحيدة لقيام وحدة اندماجية عربية كانت هى حالة مصر وسوريا التى قامت فى فبراير ١٩٥٨. وهى وحدة لم يكن عبد الناصر هو الذى سعى إليها. وإنما قبلها تحت إلحاح القيادات العسكرية والسياسية السورية فى حينها. ومع كل الأخطاء التى شابت تلك الوحدة. فإنه عندما وقعت المؤامرة لضرب تلك الوحدة (سبتمبر ١٩٦١) فإن عبد الناصر لم يحاول «فرض السيطرة المصرية» على الوضع الانفصالى الوليد.

لم يكن هناك وجود إذن. لا قبل ولا أثناء عبد الناصر. لمثل تلك السيطرة المصرية على حد تعبير إسرائيليين مثل «أمنون روبنشتاين» .. أو يهود صهيونيين مثل «يوجين روستو» الذى رأيناه من قبل يسمى أية اتجاهات وحدوية استعمارية تقوم بها مصر أو سوريا أو العراق «اندفاعات استعمارية».

والواقع أن تلك التسميات روجت لها دائما كل قوة استعمارية كانت لها أطماعها الخاصة فى العالم العربى. ابتداء من بريطانيا فى القرن الماضى. إلى فرنسا فى منتصف خمسينيات هذا القرن. والاتحاد السوفييتى فى أواخر الخمسينات. والولايات المتحدة فى الستينات. وإسرائيل منذ قيامها.

ولقد كانت هناك تحت قيادة عبد الناصر ـ وهذه هى عقدة المسألة كلها – سياسة

عربية وفهم كامل لمسئوليات مصر ودور نشط لتجميع إمكانيات القوة العربية. وهذا الدور كان يسعى إلى بناء وحدة عربية ضد أطماع إسرائيل بالمنطقة. وإسرائيل. مثل كل قوة استعمارية. رأت مثل هذا الاتجاه خطرا عليها. فإذا أضفنا إلى ذلك أن إحدى الوظائف الأساسية التى سعت إليها الدولة الصهيونية من البداية هى وظيفة «الدولة العازلة الفاصلة» بين مشرق العالم العربى وغربه.. تصبح لدينا الحقيقة المتكاملة : إن عزل مصر عن العالم العربى ليس أساسا عابرا فى الأمن الإسرائيلى. ولكنه فى الواقع أساس ملازم للدولة ذاتها وقدرتها على الوفاء بوظيفة أساسية لها. وظيفة تمثل جزءا من فاعلية إسرائيل كنقطة وثوب للمصالح الخارجية عن المنطقة.

فلقد ارتبط قيام إسرائيل كدولة منذ لحظتها الأولى بنشوء واقعة مادية أولية. هى أن مصر. ومن خلفها المغرب العربى كله. أصبحت منفصلة بريا لأول مرة عن المشرق العربى. وعلى الفور بدأت إسرائيل كدولة تحاول تطوير هذا الانفصال الجغرافى السياسى. إلى انفصال معنوى واقتصادى واستراتيجى.

وعندما قام «مردخاى تسيبورى» نائب وزير الدفاع الإسرائيلى بتحليل المزايا التى ستعود على إسرائيل من توصلها إلى معاهدة السلام مع السادات. قال[1] إنه فى أحسن الأحوال سوف تؤدى المعاهدة إلى أن تصبح مصر خارج أى حرب تنشب بين إسرائيل وأية دولة عربية. وحتى إذا لم يتحقق ذلك. فإن مصر سوف تتردد قبل أن تقرر التدخل. مما يعطى إسرائيل فسحة من الوقت تستطيع خلالها أن تركز قواتها المسلحة على حدود الدول العربية الأخرى. أما فى أسوأ الأحوال. فإن مصر قد تشعر بأنها مضطرة للتدخل. ولكن حينئذ فإن السلام وتجريد سيناء من السلاح سيؤجلان قيامها بذلك لعدة أيام لها وزنها. ولا تحتاج إسرائيل لأكثر منها.

بكلمات أخرى : فإن إسرائيل تريد من البداية تحييد مصر عندما تقوم بشن حروبها التالية ضد كل دولة عربية على حده. وفى أسوأ الأحوال لن تكون هناك إمكانية عملية لتدخل مصر. فيما لو قررت ذلك. فى عصر أصبحت نتيجة الحروب تتحدد فيه خلال يومين أو ثلاثة. وأحيانا خلال ساعات.

(١) جريدة "الجيروزالم بوست" الإسرائيلية ١٩٧٨/١٢/٧.

ولا تقتصر الرؤية الإسرائيلية على القيام بفصل مصر والمغرب العربى. عن المشرق العربى. بالمعنى الجغرافى السياسى أو العسكرى فحسب.. ولكن تطلعات إسرائيل تقدمت لما هو أبعد فى السنوات الأخيرة. لقد قامت إسرائيل بتجربة مبكرة فى هذا الشأن فى أعقاب حرب يونيو ١٩٦٧ مباشرة. حينما بدأت ما سمته بسياسة «الجسور المفتوحة» بين الضفة الغربية المحتلة وبين الأردن. فالسياسة الإسرائيلية التى بدأت بمحاولة تصريف منتجات الضفة الغربية فى سوق الضفة الشرقية. انتهت خلال سنوات قليلة إلى تصريف جزء من منتجات إسرائيل نفسها إلى كلا الضفتين. بل وتسربت إلى دول عربية أخرى على أساس أنها إنتاج فلسطينى. ونفس الشىء بدأت إسرائيل تعد له عقب غزوها الشامل للبنان فى يونيو ١٩٨٢.

وفيما يتعلق بمصر بالذات. فإن عزلها ماديا وعسكريا عن المشرق العربى يؤدى فى النهاية إلى عزلها سياسيا. وعلى حد تعبير الصحفى الفرنسى «إريك رولو» فإن «مرجع قوة مصر ليس هو فقط موقعها الجغرافى وكثافتها السكانية. وإنما هو أيضا زعامة مصر التقليدية للعالم العربى. وحينما تتجرد مصر من القدرة على ممارسة هذه الزعامة. فإن هذا يعنى تقليل قيمتها إلى قوة صغرى. صحيح أنها ستظل قوة هامة. لكنها قوة صغرى» .

إن موقع مصر لن يتغير على الخريطة. ولكن دلالة هذا الموقع. وفاعليته السياسية. هى التى ستتغير. وليس التغير متعلقا فقط بسلبية جديدة فى الدور المصرى. ولكنه يتعلق بحرية جديدة. ويد طليقة. يكتسبها الدور الإسرائيلى فى المنطقة.

وعندما قال مناحم بيجن «ان السلام بين مصر وإسرائيل معناه السلام» .. وابا ايبان عندما كتب بعدها نفس الشىء. فإن كليهما يعبر فى النهاية عن حرية عمل. ويد طليقة. اكتسبتها إسرائيل فى المشرق العربى. ولم تكن لتتوفر لها مطلقا فى ظل وجود القدرة المصرية حرة فى الساحة العربية. وطبقا «للسلام الإسرائيلى» فإنه فى اللحظة التى يتم فيها تحييد مصر عسكريا تصبح إسرائيل أقوى مما كانت عليه عشر مرات. والدول العربية فى المشرق أضعف مما كانت عليه عشر مرات.

وطبقا للرؤية الإسرائيلية فإن الأمر يتجاوز مجرد ميزان القوى العسكرى. إنه يتعلق أيضا بسعى إسرائيل إلى أن تسرق موقع مصر وأهميتها. فالمشروع الإسرائيلى بشق قناة منافسة لقناة

السويس تبدأ من ايلات فى خليج العقبة وتنتهى إلى البحر الابيض المتوسط. وكذلك خط أنابيب البترول الذى أقامته بالفعل. هما خطوتان عمليتان فى هذا الاتجاه. ومحاولة إسرائيل إقناع الولايات المتحدة. عقب توقيع إسرائيل على معاهدتها مع السادات فى مارس ١٩٧٩. بأن تربط المعونات الاقتصادية لمصر بدخول مصر فى تعاون اقتصادى مع إسرائيل. ونفس التوصية انتهى إليها المؤتمر اليهودى العالمى فى اجتماعه بالقدس فى يناير ١٩٨٠. تمثل فى الواقع محاولة لجعل إسرائيل هى البوابة التى يجب أن يمر منها رأس المال الأمريكى.

والواقع أن مناحم بيجن رئيس وزراء إسرائيل لم يكن غامضا وهو يعلن فى أعقاب توقيع المعاهدة الإسرائيلية مع السادات: إن المادة السادسة فى المعاهدة. وبالذات الفقرة الخامسة تمثل بالنسبة لإسرائيل جوهر المعاهدة مع مصر.

وذلك لأن تلك الفقرة الخامسة التى يعنيها بيجن تنص على : «مع مراعاة المادة ١٠٣ من ميثاق الأمم المتحدة. يقر الطرفان بأنه فى حالة وجود تناقض بين التزامات الأطراف بموجب هذه المعاهدة وأى من التزاماتها الأخرى. فإن الالتزامات الناشئة عن هذه المعاهدة هى التى تكون ملزمة ونافذة» . وبالنسبة لإسرائيل فإن هذا يعنى إلغاء التزامات مصر نحو العالم العربى طبقا لاتفاقية الدفاع العربى المشترك. بمعنى آخر. يعنى عزل مصر عن العالم العربى. وهو الأساس الجوهرى فى مفهوم «السلام الإسرائيلى» .

سادسا : استخدام الأقليات فى العالم العربى سياسيا :

هناك أربع حالات مؤكدة. توضح بشكل عملى الرؤية الإسرائيلية للأقليات الدينية فى العالم العربى فى ضوء «السلام الإسرائيلى» الذى تسعى إسرائيل إلى فرضه على المنطقة.

الحالة الأولى من الجزائر. فعندما جاء الزعيم الفرنسى الراحل شارل ديجول إلى السلطة فى فرنسا عام ١٩٥٨. واقتنع بحتمية جلاء فرنسا عن الجزائر. وبدء التفاوض لاستقلالها. واجه معارضة شديدة من بعض المنظمات العسكرية الفرنسية مع الجزائر وفرنسا. وعلى رأسها الجيش السرى O. A. S التى خاضت ضد الجنرال معارك ضارية بهدف منع الجزائر من الحصول على استقلالها. لأنها فى رأيهم أرض فرنسية.

ولكن الملفت فى الأمر أنه تم تعبئة الأقليات اليهودية فى الجزائر ضد الجنرال وسياسته . منضمين إلى الجنرالات الذين يحاربونه ويحاربون حصول الجزائر على استقلالها. بل إن السلطات الفرنسية اكتشفت وجود فرع لمنظمة الجيش السرى بين اليهود. ثم اكتشفت أن إسرائيل قد ساهمت بالسلاح والمال والتنظيم فى مساندة هذا التمرد العسكرى لمنع استقلال الجزائر. وطلبت من اليهود فى الجزائر الانضمام إلى المتمردين الفرنسيين ضد كل من ديجول فى فرنسا. والثورة الجزائرية فى الجزائر. وخلال هذا كله قام «جاك سوستيل» زعيم المتمردين العسكريين بعدة زيارات سرية إلى إسرائيل لأجراء مزيد من التنسيق.

ويقول «بيير جالانت» فى كتابه «الجنرال» : إن ديجول ظل إلى أخر أيام حياته مشحونا بالمرارة بسبب هذا الموقف الإسرائيلى المتآمر ضده.

أما الحالة الثانية فهى من مصر. وبرغم قلة البيانات المنشورة عن هذه الواقعة. إلا إنها كافية فى دلالتها السياسية. فمع أن مصر لم تكن مطلقا من بلاد الفتنة الطائفية. إلا إنه مع قدوم سنة ١٩٧٢ فوجئ المصريون جميعا بأنهم يتم ضربهم لأول مرة بسلاح الفتنة الطائفية على حين غرة.. لقد كانت هناك فى البداية مظاهرات طلابية تضغط من أجل شن الحرب التى طال الاستعداد لها لتحرير سيناء من الاحتلال الإسرائيلى. لكن. فجأة. وخلال وقت وجيز عقب المظاهرات. استقبلت صناديق البريد المنزلية لعدد معروف من الشخصيات العامة منشورات تطالب لأول مرة بحقوق سياسية للأقلية القبطية فى مصر. بدعوى أنها أقلية تتعرض لاضطهاد من الأغلبية المسلمة.

كان ظهور تلك النغمة نشازا بالمرة بالنسبة لبلد مثل مصر. والأهم من ذلك أن الانشغال بها يمكن أن يطغى على المظاهرات الحقيقية التى قامت تطالب بالتحرك العسكرى ضد الاحتلال الإسرائيلى فى سيناء. وكانت المنشورات التى ألقيت فى صناديق البريد تطالب بمزيد من الوجود «القبطى» فى الإعلام المصرى والقوات المسلحة ومجلس الوزراء.. إلخ. وكان بعض تلك المنشورات يحمل اسم منظمة مريبة هى مجلس الكنائس العالمى. وبعضها يحمل أسماء فريق من الأقباط المهاجرين فى كندا واستراليا والولايات المتحدة. لكن النسبة الكبرى من المنشورات لوحظ إنها مطبوعة بحروف.

وعلى ورق، ليس من الأنواع التى تستخدم فى مصر أو تنشر فى مطابعها، وبالاستمرار فى البحث تبين أنها مطبوعة فى إسرائيل، وقد سربها إلى مصر عملاء لجهاز المخابرات الإسرائيلى «الموساد» . وهو الأمر الذى سجلته لجنة تقصى الحقائق التى شكلها مجلس الشعب فى حينها.

ولم يكــن الأمر يتعلق فى الواقع بوضع الأقباط كأقلية دينية فى مصر. وإنما الخطير فــى الأمــر، وهو ما يتردد لأول مرة فــى التاريخ المعاصر لمصر، هــو الدعوة إلى مطالب سياســية للأقباط فى مواجهة الأغلبية المســلمة. والدعوة إلى وجود «تمثيل قبطى» فى المراكز الأساســية للســلطة وفى الصحافة والإعلام المصرى. وفى المؤسســات التعليمية والأمنية!

ولأن الأمر لم يعالج بحسم وحزم فى تلك المرة الأولى. ولأنه لم يتم التوعية بدرجة كافية بدور المخابرات الإسرائيلية. فإن هذه «الفتنة الطائفية» سرعان ما عادت تتكرر بعدها بفترة وجيزة وخاصة بعد أن أصبحت الرغبة فى تمزيق مصر من الداخل أكثر إلحاحا.

(وفى شــهر يوليو ١٩٨٢ نشــرت الصحف الفرنســية أحاديث لبشــير الجميل القائد العســكرى لحرب الكتائب اللبنانى المتحالف مع إســرائيل. يكرر فيها مطالبه بالنســبة للأقليات فى مصر. مكررا محاولة إسرائيل السابقة تحويلها إلى قضية سياسية).

فى نفس الوقت كان يجرى شىء آخر مع العراق فى هذه المرة. فالعراق تضم أقلية كردية تصل فى بعض التقديرات إلى مليونين ونصف المليون. وفى ســبتمبر ســنة ١٩٧٠ توصلت الحكومة العراقية إلى تفاهم مع المتمردين منهم. وبدأت بالفعل فى برنامجها لتعمير المناطق الفقيرة التى يسكنونها.

لكــن. فجاة. عاد التمرد الكردى إلى الظهور بعد أن اتخذ فى هذه المرة شــكل المقاومة المسلحة المنظمة بدقة. وباعداد كبيرة من المتمردين وصلت أحيانا إلى مائة ألف. وبمطالب سياسية لا تقل عن الانفصال وإقامة دولة كردية مستقلة شمال العراق.

وللوهلــة الأولى لم يكــن يبدو أن لإســرائيل دخلا من قريب أو بعيــد بهذا كله. وكل

ما بدا هو فقط وجود مساعدة إيرانية للمتمردين الأكراد. لقد بدا هذا منطقيا. حيث تميزت علاقات شاه إيران وقتها مع العراق بتوتر وصل إلى درجة العداء. وهو عداء أصبح يفرض على العراق أن يستخدم الجزء الأكبر من جيشه لقمع التمرد الكردى المسلح فى حدوده الشمالية خلال فترة حاسمة (سنتى ١٩٧٢ و ١٩٧٢) فى الجهود العربية لتشكيل جبهة شرقية تتكون من العراق وسوريا والأردن لمواجهة الاحتلال الإسرائيلى.

واستمرت المقاومة الكردية المسلحة تتصاعد بزعامة الملا مصطفى البرزانى. وطوال ثلاث سنوات بدا العراق أن جزءا من شعبه يوشك فعلا على تحقيق الانفصال بالقوة. وبدا أيضا أنه كلما قضى العراق على طابور مسلح من المتمردين. يفاجأ بعدها بطوابير أخرى أكثر عددا وأقوى تسليحا. وأصبحت الدلائل تشير إلى أن الأكراد يحصلون على تمويل وصل إلى مائة مليون دولار سنويا. فضلا عن المعونات العسكرية. وكلتهما يتم الحصول عليه «من الخارج» .. وهذا هو كل شىء !

ثم فجأة. توقف التمرد الكردى الانفصالى. بعد مفاوضات إيرانية عراقية جزائرية. أدارتها الجزائر أثناء انعقاد مؤتمر منظمة الدول المصدرة للبترول (أوبيك) الذى انعقد بالجزائر فى مارس سنة ١٩٧٥.

فى نفس الوقت نشبت أزمة سياسية حادة بين الولايات المتحدة وإسرائيل.. بسبب الأكراد فى العراق !. هنا فقط تبين الدور الإسرائيلى من البداية. فالعراق هو العمق الأساسى لتدعيم سوريا عسكريا ضد إسرائيل إذا فكرت سوريا فى عمل جبهة شرقية فعالة لتحرير أراضيها من الاحتلال الإسرائيلى. وهو الأمر الذى كان يسير على قدم وساق فى سنتى ١٩٧٢ و ١٩٧٣. ولكن قدرة العراق العسكرية تصاب بشلل بالطبع. إذا تم امتصاصها فى إخماد تمرد داخلى مسلح. على النطاق الواسع الذى أصبح عليه الأكراد. وهكذا بدأت إسرائيل تستثمر أقلية عراقية موجودة فعلا. وتحول مطالبها الاقتصادية إلى مطالب سياسية. وتمدها بالمال والسلاح. جنبا إلى جنب مع شاه إيران الذى كانت خصومته مع العراق جزءا من أحلام الهيمنة على المنطقة. وبالذات دول الخليج العربى. لصالح الولايات المتحدة.

ولكن. بمجرد أن توقف التمرد الكردى فجأة. بدأت تتسرب المعلومات عن حقيقة وحجم الـدور الإسـرائيلى. وكان أخـر ما تسـربت من تلـك المعلومات هو ذلك الذى نشـرته مجلة «نيوزويك» الأمريكية فى عددها الصادر فى ٧ ابريل سـنة ١٩٧٥. وتقول فيه : «أحد أسباب الغضب الإسرائيلى وافتقاد الثقة خلال مفاوضات الشرق الأوسط الأخيرة. يرجع إلى حقيقة أن الأمريكيين عرفوا مقدما بالقرار المفاجئ لشاه إيران بإيقاف مساعدة المتمردين الأكراد فى العراق. ورغم هذه المعرفة المسـبقة. إلا أن الأمريكيين لم يخبروا حكومة إسـرائيل بقرار الشـاه. فلمدة خمس سـنوات. كانت إسـرائيل تمد الاكراد بالأسلحة والمستشارين العسكريين. فى ترتيبات ثلاثيـة مع الولايـات المتحدة وإيران. لقد كان الشـاه فى ذلك الوقت يسـاند الأكراد. ولكن شحنات السلاح الأمريكية إلى إيران لم تكن تكفى لكى يمد المتمردين بحاجتهم.» لهذا. أصبح دور إسرائيل هو أن تحصل على الأسلحة وتشحنها إلى المتمردين الأكراد. مع «المستشارين» عن طريق إيران. لكى يتم استخدامها ضد الحكومة العراقية. و «قد علم الإسرائيليون بتغيير موقف الشاه. من الشاه نفسه. بعد أيام عديدة من معرفة واشنطن بهذا التغيير».

والواقع أنه فى تلك الفترة نشأ تفاهم مشترك وتنسيق بين دوافع الشاه ودوافع الولايات المتحدة. فبالنسـبة للشـاه. مثل الاتفاق مع العراق أغراء خاصا له. لأنه بمقتضى الاتفاق حصـل من العراق على تنازلات إقليمية فى شـط العرب أصبـح يحتاج معها إلى تثبيتها.. لفترة. وبالنسـبة للولايات المتحدة. كانت ترى أنه بعد أن انتهت حرب أكتوبر قبل سـنة ونصف. وبعد أن تمت الاتفاقية الأولى لفض الاشـتباك مع السـادات. وتفاوضه من أجل الاتفاقية الثانية التى تضمن لإسـرائيل عمليـا إنهاء الحرب من جانبه. فإنه لم تعد هناك إمكانيـة عملية لقيام حرب عربية ضد إسـرائيل لتحرير الأراضى المحتلة. وبغياب مصر. سـيكون الميزان العسـكرى لصالح إسرائيل تماما ومختلا بشـدة ضد سوريا. بما يجعل فى النهاية قيام جبهة شرقية أمرا مستحيلا عمليا. ومن هنا فلن تكون هناك خطورة عسكرية من انضمام العراق إلى سوريا فى مجهود عسكرى مشترك لتحرير الأراضى السورية المحتلة. وهكذا حصل التفاهم الأمريكى المشترك مع الشاه. الذى أعطاه الضوء الأخضر لكى يتفق مع العراق. وبهذا انتهى التمرد الكردى فجأة.. بمثل ما بدأ فجأة.

لكن. فى نفس التوقيت.. بدأت فى لبنان أزمة أخرى فجأة. سرعان ما سيتم جرجرة سوريا إليها. ففى شهر ابريل سنة ١٩٧٥ بدأ التمرد المارونى فى لبنان ضد الوجود الفلسطينى!.

إن الصورة السياسية فى لبنان تقوم على أسس طائفية منذ سنة ١٩٤٣ (وإن كانت جذورها ممتدة تاريخيا إلى أبعد من ذلك). وقد كان جوهر الاتفاق بين القوى الوطنية اللبنانية الذى تم التوصل إليه فى تلك السنة هو : استقلال لبنان... فالمسلمون فى لبنان يلتزمون بعدم السعى إلى وحدة عربية مع سوريا. ومقابل ذلك يلتزم المارونيون اللبنانيون بعدم الاعتماد على حماية خارجية من فرنسا. ولكى يضاعف المسلمون من طمأنة المارونيين. فقد وافقوا على أن يكون للمارونيين منصب رئيس الجمهورية. بينما رئيس الوزراء يجب أن يكون مسلما سنيا. ورئيس مجلس النواب مسلما شيعيا.. وهكذا. ولم تكن تلك إلا صورة هشة لنوع التوازن الذى ستسير به لبنان منذ الاستقلال فصاعدا. وهو نوع من التوازن أصبحت مؤسسات الدولة تعكسه بوضوح.

مع ذلك. كانت بذور الفتنة الطائفية فى لبنان موجودة دائما. وجاهزة للتفجير بين وقت وأخر. إن ما ساعد على ذلك هو أن المسلمين فى لبنان. مع أغلبيتهم العددية. أصبحوا يزدادون فقرا.. بينما المارونيون. رغم كونهم أقلية. يزدادون ثراء.. وذلك بسبب استخدامهم السلطة التى يتيحها منصب رئيس الجمهورية فى أحيان عديدة لتنمية مناطق فى لبنان دون غيرها. وشيئا فشيئا بدأ الخلل السياسى يدعم نفسه بخلل اقتصادى.

وبرغم أن لبنان كان إحدى دول المواجهة العسكرية مع إسرائيل فى الحرب الأولى (١٩٤٨) إلا أن الاتفاق الصامت الذى سارت على أساسه السياسة اللبنانية بعد ذلك كان هو الحد الأدنى من الالتزامات السياسية مع العالم العربى. حتى لا «تتورط» لبنان فى التزامات عملية معادية لإسرائيل. هكذا أصبحت السياسة اللبنانية فيما يتعلق بالصراع العربى الإسرائيلى هى أقرب ما يمكن إلى الحياد الفعلى. الذى تؤكده مظاهر عملية محددة. فى مقدمتها عدم الأخذ بنظام التجنيد الإجبارى. والقيادة المارونية للجيش. وتحول الجيش نفسه إلى قوة رمزية أقرب ما تكون لاعتباره قوة لحفظ الأمن الداخلى.

وفى ســنة ١٩٥٨ تفجرت فى لبنان أزمة سياسية كبرى. إبان وجود كميل شمعون فى منصب رئيس الجمهورية. بسبب اتجاهه إلى تعديل الدستور اللبناني لكى يسمح له بإعادة ترشــيح نفسه لمنصب الرئاسة لست سنوات أخرى. وكانت أهمية تلك العملية هو ارتباطها بهدف أخر يســعى إليه شمعون. وهو انضمام لبنان إلى حلف بغداد – الحلف الذى رفضه العالم العربى بأسره ما عدا العراق تحت الحكم الملكى.

وقتها بدأت أزمة سياسية كبرى. سرعان ما تحولت إلى حرب أهلية أدت فى النهاية إلى تدخل أمريكى مسـلح بنزول القوات الأمريكيــة فى لبنان بناء على طلب شمعون. وفى النهاية تم حل الأزمة على أســاس عدم تعديل الدســتور وعدم تجديد مدة كميل شمعون. وبالتــالى عدم انضمام لبنان إلى أية أحلاف خارجيــة. وذلك.. من جديد.. فى مقابل عدم مطالبة المســلمين اللبنانيين بتعاون أوثق مع الوحدة السورية المصرية التى كانت قد أعلنت رسميا فى فبراير من تلك السنة – ١٩٥٨.

وفى كل الأحوال كانت إســرائيل تتابع ما يجرى فى لبنان عن قرب. ولكن تلك المتابعة لم تتحول إلى تدخل نشط وكثيف فى أى وقت بسبب توازن القوى الذى يحكمه الدور العربى النشــط الذى تمارســه مصر فى المنطقة. ومع أن المارونيين اللبنانيين كانوا أول من عقد اتفاقية مع الوكالة اليهودية فى ســنة ١٩٣٨. أى قبل قيام إسرائيل كدولة بعشر سنوات. إلا أن هذا التعاون المعلن انتهى بقيام إسرائيل.

ولكن حرب يونيو ١٩٦٧ جاءت لكى تخل بتوازن القوى فى المنطقة إخلالا شــديدا. ضد العرب ولصلحة إســرائيل. وبرغم أن الهزيمة العربية الفادحة أدت إلى تركيز مصر على إعادة البناء العســكرى لإزالة أثار العدوان. إلا أن النفوذ السياســى المصــرى فى المنطقة كان لايزال قويا بما سمح له باحتواء أية اتجاهات انقسامية أو انفصالية فى العالم العربى. وهكذا. مثلا. اســتطاعت مصر أن تقوم بدور نشــط فى حل الصدام المارونى الفلسطينى داخل لبنان ١٩٦٩. وهو الدور الذى جاء بمقتضاه إلى القاهرة كل من ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية والعماد البســتانى قائد الجيش اللبنانى. وتم توقيع «اتفاقية القاهرة» التى تنظم العمل بالنسبة للمقاومة الفلســطينية فى لبنان.

فى السنوات التالية أصبح الصدام المارونى الفلسطينى داخل لبنان أكثر تفجرا. لأن نشاط المقاومة الفلسطينية من الجبهة اللبنانية مع إسرائيل يهدد بتحول لبنان تدريجيا إلى دولة مواجهة فعلية مع إسرائيل. فضلا عن أن المتعصبين من المارونيين وجدوا أن فى الوجود المسلح للفلسطينيين ما يقوى المسلمين فى مواجهة «الميلشيات» المسلحة التى كان حزب الكتائب قد شكلها. مع ذلك. ظلت الأزمات الصغيرة المتتابعة قابلة للاحتواء بالموقف العربى العام.

وفى تلك المرحلة كان الصراع فى المسرح اللبنانى يقوم على مستويين :

● فهناك صراع لبنانى - لبنانى.. أساسه الخلل السياسى الاقتصادى لصالح المارونيين وضد المسلمين فى لبنان.

● وهناك صراع مارونى - فلسطينى.. أساسه تضامن المسلمين مع المقاومة الفلسطينية. بينما القيادات المارونية تريد إغلاق الجبهة اللبنانية أمام المقاومة الفلسطينية. وتجريد المخيمات الفلسطينية من أية حماية مسلحة ضد الغارات الإسرائيلية.

وحتى تلك النقطة كان العمل السرى هو وسيلة إسرائيل فى التدخل. وهو عمل كان يعتمد أساسا على التجسس وجمع المعلومات والإعداد العسكرى للمتطرفين المارونيين استعدادا للمواجهة المسلحة. وأصبحت القراءة الإسرائيلية للموقف الشامل بالمنطقة تشير إلى خلل أضخم لصالحها وضد الأطراف العربية. فلقد رأت إسرائيل فى اتجاه السادات بمصر إلى عقد اتفاقية ثانية لفض الاشتباك معها. ابتعادا أخر لمصر عن الساحة العربية. وبالذات عن سوريا. وضعفا أخر فى الموقف السورى نتيجة انهيار التضامن مع مصر.

وهكذا. فى ١٣ ابريل ١٩٧٥. وقعت مذبحة مروعة فى عين الرمانة. عندما قامت ميلشيات حزب الكتائب المارونى بمهاجمة سيارة أتوبيس تقل عددا من اللاجئين المدنيين الفلسطينيين بعد مشاركتهم فى الاحتفال بذكرى دير ياسين. وقد ترتب على هذا الهجوم مقتل ٢٦ فلسطينيا وجرح تسعة وعشرين آخرين. وقد أعلن تقي الدين الصلح رئيس وزراء لبنان حينئذ رسميا. وكذلك الشيخ حسن خالد مفتى الجمهورية اللبنانية. بل وبعض القيادات المارونية نفسها. الإدانة الكاملة لحزب الكتائب عن تلك المذبحة التى لم يكن هناك من تفسير لها سوى بدء حرب أهلية فى لبنان.

وبالفعل، ســرعان ما تصاعدت الأحداث لتصبح حربا أهلية كاملة. تحالفت فيها القوى اللبنانية مع الفلســطينيين. فــى مواجهة حزب الكتائب والمتطرفــين المارونيين. ومع مطلع ســنة ١٩٧٦ تحولت معونات الســلاح الإسرائيلية إلى تحالف معلن مع حزب الكتائب. وبعد أن كانت «الكتائب» ترفع فى البداية شــعار ترويض المقاومة الفلســطينية. أصبحت تطالب بإخراجهــا من لبنــان بالكامل. ثم فى النهاية أصبحت تدعو إلى تقســيم لبنان وإقامة الدولة المارونية. ومع تلك التطورات. كان يتطور أيضا مســتوى الدعم الإسرائيلى.. بحيث تضاعفت شــحنات السلاح. ثم قامت إسرائيل بفرض حصار بحرى على لبنان لمنع وصول الأسلحة إلى المســلمين اللبنانيين. أو الفلسطينيين. وأخيرا قامت إســرائيل بغزو عسكرى شامل للجنوب اللبنانى فى مارس ١٩٧٨. وبدأت تعلن بصراحة عن مساندتها لقيام دولة مارونية فى لبنان. ولم تســتطع قوات الردع العربية (وهى قوات تتكون أساسا من قوات سورية. كانت الجامعة العربية قد قررت فى ١٩٧٦ إرســالها إلى لبنان فى محاولة لاحتواء الموقف) أن تواجه الغزو الاسرائيلى. نتيجة لأن تلك المواجهة سوف تصبح أساسا مواجهة بين إسرائيل وسوريا ذاتها.

ومع أن فرنسا ربطتها دائما علاقات خاصة كقوة حماية للمسيحيين فى لبنان. إلا أنها رأت فى التحالف الإســرائيلى الكامل مع المتطرفين من المارونيين اللبنانيين خطرا شديدا. جعل وزير خارجيتها يدين علنا هذا التحالف فى أكتوبر سنة ١٩٧٨. ويعلن : إن إسرائيل هى المسئولة عن الحرب المارونية فى لبنان.

ولقــد تمخضت الحرب الأهلية عن تقســيم فعلى للبنان. بمناطــق للمارونيين وأخرى للمسلمين. بل إن العاصمة بيروت أصبح نصفها الشرقى مارونيا خاضعا لسيطرة الكتائب. بينما نصفها الغربى مسلما خاضعا لسيطرة القوى الوطنية المتحالفة. بميناء «جوبه» عاصمة عســكرية للفريــق الأول.. وميناء «صيدا» عاصمة عســكرية للفريق الثانــى. وبالإضافة إلى ذلك فإن الغزو الإســرائيلى الشــامل للجنوب اللبنانى فى مارس ١٩٧٨ قد أسفر عن تفريغ الجنوب من ســكانه. وتسليم مســاحة منه لعميل جندته إسرائيل، رائد منشق اسمه سعد حداد، ليكون تحت الإشــراف الإســرائيلى الفعلى. بجسور مفتوحة مع إسرائيل. وإذاعة مستقلة، ومجموعة من المرتزقة جندتهم إسرائيل ليعملوا معه.

أخيرا. وكان هذا فى ٢ مارس سنة ١٩٧٩، أعلن عيزرا وايزمان وزير الدفاع الإسرائيلى حينئذ. بأن إســرائيل قد اعتمدت ثلاثين مليون دولار سنويا لدفع مرتبات ميلشيات سعد حداد فى الجنوب اللبنانى.

وفى نفس الوقت كانت إسرائيل مستمرة فى إمداداتها العسكرية لحزب الكتائب، الذى أصبحت قواته تتلقى تدريباتها برئاسة بشير الجميل فى إسرائيل.. استعدادا لمعركة فاصلة ضد الوجود السورى الفلسطينى فى لبنان. وبالفعل، فى يونيو ١٩٨٢ قامت إسرائيل بغزو شامل جديد للبنان، بقوات زادت فى مجموعها عن ١٢٠ ألفا مدعمين بحرا وجوا.

وفى البداية زعمت إســرائيل أن الهدف هو خلق منطقــة أمنه بعمق أربعين كيلوا مترا داخــل الجنوب اللبنانى. وأعلنت الولايات المتحدة تفهمها وتأييدها لهذا الهدف ! (رغم حقيقة ســريان الوقف الكامل لإطلاق النار فى الجنوب طوال الأحد عشــر شهرا الأخيرة. باتفاق ســاهمت فى التوصل إليه الولايات المتحدة نفســها). وبعد قليل. قفزت إســرائيل بغزوها إلى هدف أخر لم يكن أقل من الوصول إلى بيروت الشرقية بالتحالف مع ميليشيات الكتائب. ومن هنا استكملت إسرائيل حصارا محكما ضد بيروت الغربية. مقررة أن هدفها الآن هو تدمير البناء العســكرى لمنظمة التحرير الفلسطينية نهائيا. وأنها تصر على إخراج كل المقاتلــين من لبنان بأكمله. وتوقيع معاهدة ســلام مع لبنان تكون هى الثانية مع دولة عربية (بعد اتفاقية إسرائيل مع السادات).

ولقد اســتمر الحصار الإسرائيلى ضد هذا النصف الغربى من العاصمة اللبنانية، بمن فيه من مســلمين لبنانيين ومن فلسطينيين. لسبعة وســبعين يوما. حصارا استخدمت فيه إسرائيل كل الوسائل. من الغارات الجوية الوحشية المتواصلة، إلى قطع إمدادات المياه والكهرباء والطعام عن السكان. فى أول مرة تصل فيها إسرائيل إلى ضرب ومحاصرة عاصمة عربية منذ سنة ١٩٤٨.

وهكــذا بدأ مبعوث للرئيــس الأمريكى. هو فيليب حبيب. يتوســط للتوصل إلى اتفاق يحقق لإسرائيل بالدبلوماسية ما عجزت هى عن تحقيقه بالغزو العسكرى. ونتيجة الاتفاق، خرجت قيادات ومقاتلو منظمة التحرير (٧ آلاف) من بيروت. ليتم توزيعهم على عدد من

الدول العربية. وبمجرد أن تتحقق ذلك. نفذت إسرائيل هدفها التالى. وهو فرض حليفها بشير الجميل القائد العسكرى لحزب الكتائب. ليصبح رئيسا للجمهورية اللبنانية.

وأصبح مقررا أن يمارس بشير الجميل سلطاته. كرئيس للجمهورية. اعتبارا من ٢٣ سبتمبر ١٩٨٢. ولكن فجأة. وفى الأسبوع السابق على توليه الرئاسة رسميا. جرى اغتيال الجميل. داخل معقله الحصين - مقر حزب الكتائب - الذى هو بدوره داخل بيروت الشرقية. معقل حزب الكتائب.

كانت المشكلة هى أن انتخاب بشير الجميل رئيسا للبنان تحت الاحتلال الاسرائيلى. تتويجا لسنوات سابقة من التحالف المشترك بينه وبين إسرائيل. أصبحت لإسرائيل خلالها استثمارات ضخمة فى حزب الكتائب. بحيث وصلت قيمة الأسلحة التى حصل عليها الحزب مجانا من إسرائيل إلى مائتين وخمسين مليون دولار. وبعد أن أنفقت إسرائيل فى غزوها ما يزيد على ألفى مليون دولار. وتعرضت لإدانة العالم كله خصوصا بعد حصارها لبيروت الغربية. أصبحت إسرائيل تريد الحصول على المكاسب الأساسية التى طال انتظارها: إخراج الفلسطينيين والسوريين بالكامل من لبنان.. علاقات طبيعية وحدود مفتوحة للبنان مع إسرائيل.. هيمنة إسرائيلية على الشئون اللبنانية.. ثم توقيع معاهدة سلام رسمية بين لبنان وإسرائيل.

وفى كل تلك الأهداف كان بشير الجميل أكثر من متعاون مع إسرائيل. لكنه رأى. إزاء المعارضة الإسلامية اللبنانية لانتخابه رئيسا للبنان.. وإزاء حاجته للأموال العربية فيما بعد. أن يطلب فسحة من الوقت قبل التوقيع على معاهدة رسمية للسلام مع إسرائيل. وهنا. لم يكن مناحم بيجن رئيس وزراء إسرائيل فى حالة تسمح له بتحمل تلك المماطلة من حليفه الصغير داخل لبنان. لقد استدعى بشير الجميل إلى اجتماع سرى معه فى إسرائيل (وكان ذلك قبل اغتيال الجميل بأسبوعين) لكى يوبخه على تردده هذا. ولكى يفهمه صراحة أنه لن يحصل على المهلة التى يريدها. بعدها صرح وزير الخارجية الإسرائيلية بأن على بشير الجميل أن يلتزم بتطابق الأهداف مع إسرائيل. يعنى : لقد صنعناك لكى تفعل ما نريده نحن.. وليس ما تريده أنت أو تفكر فى أن تريده :

فى نفس الوقت كان الرئيس الأمريكى رونالد ريجان قد أعلن فجأة فى أول سبتمبر عن مبادرة خاصة به للسلام فى الشرق الأوسط بعد إخراج منظمة التحرير من بيروت، وتتعلق بإنهاء السيادة الإسرائيلية على الضفة الغربية وقطاع غزة، وإدخال الأردن كطرف مفاوض يمكن أن يرتبط بمستقبل كلا من المنطقتين. وبرغم أن مبادرة ريجان حكمت على الشعب الفلسطينى بالحرمان من حقه فى إقامة دولته الخاصة، وحرمته، حتى، من حقه الطبيعى فى تقرير مصيره إلا أن إسرائيل اعتبرت أن المضى مع ريجان فى مبادرته تلك سيحرمها من جنى ثمار غزوها للبنان، فرفضتها على الفور.

ولأن إسرائيل كانت قد دربت ونظمت قوات حزب الكتائب اللبنانى طوال السنوات السابقة، وأمدتها بأسلحة تجاوزت ٢٥٠ مليون دولار، ولأنها تريد الحصول على مكسب ملموس ودائم ومحدد من غزوها هذا للبنان، ولأنها تريد ألا يكون هناك أى طرف أخر مؤثر داخل لبنان غيرها، حتى ولو كان هذا الطرف هو الولايات المتحدة، ولأنها تريد أن تسد الطريق أمام مبادرة ريجان للضفة الغربية.. لهذا كله، بدا لها أن العمل الوحيد الذى يكفل لها هذا كله هو أن تغتال حليفها المتردد هذا بشير الجميل !

فإسرائيل، إذا كانت قد حركت الأقلية المارونية فى لبنان، وأمدتها بالتخطيط والتدريب والسلاح طوال ثمانى سنوات، فلكى تحقق أهدافها هى، وليس أهداف حزب الكتائب اللبنانى. بالطبع يستطيع حزب الكتائب أن يحقق لنفسه بضعة مكاسب هامشية فى الطريق، ولكن حتى هنا، يجب أن تكون تلك المكاسب متلائمة ومتمشية مع الأولويات الإسرائيلية. وهكذا، فحينما تردد بشير الجميل فى التسليم ببعض تلك الأولويات.. تخلصت منه إسرائيل على الفور.

والواقع أن الأولويات الإسرائيلية بالنسبة للبنان، لم تكن وليدة عام ١٩٨٢، ولكنها ارتبطت بالأفكار الصهيونية ذاتها، حتى من قبل قيام إسرائيل كدولة. لقد رأينا مبكرا كيف أن الحركة الصهيونية طالبت فى سنة ١٩١٧ بأن تضم الدولة الصهيونية المقترحة جزءا من لبنان الحالى يتجاوز مدينة صور اللبنانية، حتى تضم لنفسها مياه نهر الليطانى (وهى منطقة بعمق ٤٠ كيلومترا داخل لبنان - نفس العمق الذى أعلنت إسرائيل فى سنة ١٩٨٢ أنه يلزمها كمنطقة أمن).

ورأينا أيضا كيف أن الوكالة اليهودية كانت قد أبرمت إتفاقية مع المارونيين اللبنانيين مبكرا فى سنة ١٩٣٨. ورغم أن هذا التعاون قد توقف بقيام إسرائيل كدولة فى سنة ١٩٤٨. إلا أن أطماع إسرائيل فى لبنان لم تتوقف. وبالتالى فإن تفكيرها فى استخدام الأقلية المارونية فى لبنان لحسابها لم يتوقف.

لقد كتب ديفيد بن جوريون، أول رئيس وزراء لإسرائيل، فى مفكرته الشخصية عام ١٩٤٨ أنه ينبغى الإطاحة بالحكومة اللبنانية وإقامة دولة مارونية فى لبنان تكون حدودها الجنوبية عند نهر الليطانى. وبعد ذلك بثمانى سنوات أكد أنه يجب على إسرائيل أن تمد حدودها حتى نهر الليطانى – الأمر الذى يتضح معه أنه يفكر فى الدولة المارونية باعتبارها نصف الطريق إلى الاستيلاء الإسرائيلى الكامل.

والواقع أن بن جوريون، ورئيس أركان حربه حينئذ موشى ديان، كانت تستبد بهما فكرة التدخل فى لبنان إلى درجة حاول فيها أن يفرضها على الواقع حينئذ. ويكفى هنا أن نعيد قراءة ثلاثة رسائل، نشرتها جريدة «دافار» الإسرائيلية فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٧١، وهى رسائل متبادلة بين كل من ديفيد بن جوريون.. وموشى شاريت وزير خارجية إسرائيل فى حكومة بن جوريون، والذى كان حينئذ رئيسا للوزراء أثناء التقاعد المؤقت لبن جوريون (١٩٥٤ - ١٩٥٦).. الياهو ساسون، الذى قام بدور بارز فى المفاوضات سنتى ١٩٤٨ و ١٩٤٩ أثناء وبعد اتفاقية الهدنة الإسرائيلية مع الدول العربية.

ولقد جرى تبادل تلك الرسائل أثناء تقاعد بن جوريون فى مستعمرة «سديه بوكر» سنة ١٩٥٤. ووجود موشى شاريت فى مقعد رئيس الوزراء.

<u>الرسالة الأولى</u>

«من بن جوريون إلى شاريت»

سديه بوكر– ٢٧ / ٢ / ١٩٥٤

«بعد أن تنحيت عن الحكومة قررت فى قرارة نفسى ألا أتدخل ولا أبدى رأيا فى شئون سياسية جارية. وبما أننى دعيت من جانبكم. فقد وجدت أنه من واجبى أن

استجيب لرغبتكم. وخاصة لرغبتك كرئيس للحكومة. لذلك أسمح لنفسي بالعودة إلى موضوع لا يروقك. وأن أركز عليه محددا. ألا وهو موضوع لبنان.

«بدون ما صلة بالإحداث الجارية (كان فى تلك الأثناء قد عين محمد نجيب من جديد رئيسا للدولة. فى مصر. وهذه خطوة حكيمة لا مثيل لها من جانب ناصر أو جماعته – صحيفة دافار) فإنه من الواضح أن لبنان هى أضعف حلقة فى سلسلة الجامعة العربية. لكن مصر هى الدولة الأشد تماسكا ورسوخا بين الدول العربية. والأغلبية العظمى كتلة متراصة مكونة من جلدة عرقية واحدة وموحدة فى الدين واللغة. والأقلية المسيحية لا تمس سلامة الدولة والأمة. وهذا الوضع لا ينطبق على المسيحيين فى لبنان. فإنهم أغلبية. ولهذه الأغلبية تقاليد وحضارة تختلف كلية عن تقاليد وحضارة باقى بلاد الجامعة العربية. وإنشاء دولة مسيحية هنا هو شيء طبيعى له جذور تاريخية. وسيلقى تأييد قوى كبيرة فى العالم المسيحى. سواء الكاثوليكى أو البروتستانتى.

«وهذا الأمر لا يكاد يكون فى حيز الإمكان فى «الأيام الهادئة» أولا لغياب المبادرة والجرأة من جانب المسيحيين. ولكن فى وقت البلبلة والاضطرابات والثورة أو الحرب الأهلية يتغير الوضع فيقول الضعيف أنا بطل. إن هذه الساعة هى الساعة المواتية للعمل على إقامة دولة مسيحية بجوارنا. فبدون مبادرتنا ومساعدتنا الفعالة لن يتم الأمر. ويبدو لى أن هذه المهمة الرئيسية الآن. أو على الأقل. إحدى المهام الرئيسية لسياستنا الخارجية. ويجب بذل الإمكانيات والوقت والجهد والعمل بجميع السبل التى من شأنها أن يؤدى إلى تغيير جذرى فى لبنان».

« وإذا تطلب الأمر مالا. فيجب ألا نبخل بالدولارات. حتى ولو جازفنا بالمال مجازفة. فإنه يجب التركيز على هذا الموضوع بكل قوانا. فهذه فرصة تاريخية لا يمكن اغتفار تبديدها. ولسنا فى حاجة بالمرة إلى عمل شيء لحساب الغير. ولكن فى رأيى يجب عمل كل شيء بسرعة وبأقصى الاندفاع. والأمر لا يتحقق أبدا بدون اجتزاء حدود لبنان. ولكن إذا عثر على الأشخاص والمهاجرين فى لبنان ليتطوعوا لإقامة دولة مارونية فإنهم ليسوا فى حاجة إلى حدود موسعة وجمهور إسلامى كبير. ولن يكون هذا حجر عثرة.

« لا أدرى ما إذا كان لنا أشـخاص فى لبنان. لكن هناك شـتى أنواع السبل. إذا كان فى النية القيام بهذه المحاولة المطروحة»

المخلص – د. بن جوريون

الرسالة الثانية

«من شاريت إلى بن جوريون – القدس ـ ١٨ / ٣ / ١٩٥٤»

«حضرة السيد بن جوريون. التمس عفوك ألف مرة على تأخر ردى على رسالتك الخاصة بلبنـان. صحيح إننى قدمت على التو ردى السـلبى على الفكرة التى طرحتها فى حديثنا بمنزلك فى تل أبيب. ولكن على اثر الحديث قلت لنفسـى إنه ينبغى دراسـة الموضوع. فعهدت إلى قسـم الأبحاث بوزارتى ليضع دراسـة أساسية خاصة بالمحاولات التى بذلت فى السـابق من أجل أن تضفى على لبنان صفة «جمهورية مسيحية». والاحتمالات الماثلة الآن لحركة تنشأ. إذا نشأت. لإحراز هذا الهدف. «ونظرا لضيق الوقت فإنه لم يعد لدى متسع لدراسة معطيات. وللاستئناس برأى أحد. بل أكتب طبقا للذاكرة فقط».

«قبـل كل شـىء يتوجب علىَّ أن أحدد افتراضا جذريا اتبعـه دائما. وهو أنه إذا كان هناك أحيانا سـبب ومصلحة لعنصر خارجى فى أن يتدخل فى الشـئون الداخلية لأى بلد لتأييد حركة سياسية تتآمر من داخله سعيا وراء هدف. فإنه من قبيل الصدفة فقط أن تبدى هذه الحركة أى نشـاط ذاتى ينطوى على احتمال لتصعيدها أو اكتسـابها نجاحا بواسطة تشـجيع ودعم من الخارج. لا جدوى ولا فائدة فى محاولة إثارة حركة من الخارج إذا لم يكن لهذه الحركة وجود فى الداخل».

«وبقدر ما أعلم لا توجد فى لبنان الآن حركة تنوى تحويل البلاد إلى دولة مسـيحية. تكون السلطة الحاسمة فيها بأيدي الطائفة المارونية. ومن الجائز أن يكون قد انطلقت ذات مرة شعار كهذا فى لبنان. ومن الجائز أيضا أن يكون فى لبنان أشخاص رفعوا هذا الشعار. لكن حتى فى هذه الحالة فإن الأمور لم تصل إلى درجة الحركة الجادة. ولم تجعل الموضوع عملية دائبة ومنظمة. ولكن على مر الزمن سكتت حتى هذه الأصوات.

«ولا عجب فى الأمر. فإن تحويل لبنان إلى دولة مسيحية هو واحد من المستحيلات إذا كان المقصود جهدا مدبرا وموجها لهذا الغرض. وأنا أتحفظ فى قولى «جهدا مدبرا» لإننى لا استبعد احتمال تحقق الأمر على اثر سلسلة من الهزات تمر بالشرق الأوسط تحزم الأمور وتلقى بالأنماط السائدة إلى بوتقة الصهر لتخرج منها قوالب جديدة. أما فى لبنان الحالى كما هو مصاغ فى مساحته وتركيبه السكانى وعلاقاته الدولية. فإنه لا يتصور أى مبادرة جادة فى هذا الاتجاه».

إن سكان لبنان المسيحيين ليسوا أغلبية. ولا هم حتى يشكلون مجموعة متماسكة داخل نفسها. ولا من ناحية دينية. ولا من ناحية سياسية. أما عن المارونيين فإن أغلبهم يؤيدون منذ عدة سنين نفس الأشخاص العاملين من أعضاء الزعامة السياسية فى طائفتهم. الذين تخلوا عن حلم إعادة المسيحية. ووجهوا كل همهم إلى خلق ائتلاف مسيحى إسلامى داخل لبنان. ولقد أدرك هؤلاء الزعماء بأنه لا أمل فى أن يعيش لبنان المارونى فى سلام. وأن مصلحة هذه الطائفة تستدعى قبول أهون الشرور. وهذا معناه : مشاركة المسلمين فى الحكم ودخول لبنان جامعة الدول العربية. على أمل وعلى افتراض أن تردع هذه التسوية مسلمى لبنان عن حنين الاتحاد مع سوريا. وتنمى فيهم نوازع الاستقلال اللبنانى.

«لذلك فإن الأغلبية العظمى من أبناء الطائفة المارونية المنقادة فى هذا الاتجاه ستعتبر كل محاولة لرفع راية الانزواء والتعاظم المارونى، مؤامرة خطيرة على مركز الطائفة كلها ومساسا بأمنها وكيانها، وستبدو مثل هذه المبادرة فى نظرها وخيمة العواقب. إذ أنها ستمزق دفعة واحدة نسيج المشاركة المسيحية الإسلامية فى إطار لبنان الحالى، الذى نسج بعمل دؤوب، ومن خلال بذل تضحيات غالية على مر جيل من السنين».

«قد تقول إن هذه الاعتراضات على المشروع لا تليق بجوهره. إذ أنه يقوم على سلخ تلك المناطق التى يرجح سكانها كفة الميزان لصالح الإسلام وضد المسيحية. أى منطقة صور والبقاع وطرابلس. ولكن من يضمن أن هذه المناطق ستتخلى بسهولة عن انتمائها إلى لبنان. وعن صلتها السياسية والاقتصادية ببيروت؟».

«بعد كل هذه الأمور فإننى لا أعارض فقط. بل كنت أوافق حتما على تقديم مساعدة فعالة لأى غليان يحدث بين الطائفة المارونية بهدف انفصالها. حتى لو كان هذا الغليان يتم بدون أى أمل فى إحراز الهدف. كنت سأجد فى هذا الغليان فى حد ذاته فائدة. وكنت سأجد خيرا فى زلزلة الاستقرار الذى كان مرتبطا به. وفى المتاعب التى كان سيثيرها فى وجه الجامعة العربية، وفى تحويل الأذهان عن العقدة الإسرائيلية العربية. وفى مجرد إشعال جذوة مطالب الاستقلال لدى المسيحيين».

«ولكن ماذا أفعل إذا كان هذا الغليان لا وجود له كما سبق وذكرت فى بداية كلامى، وفى مثل هذه الحالة أخشى أن أية محاولة من جانبنا لإثارة المسألة ستؤخذ على أنها مساومة عنترية على سلامة وكيان الآخرين، واستعدادا للتضحية بمصالحهم الأساسية. من أجل كسب ميزة مساوية مؤقتة لإسرائيل.

«أضف إلى ذلك أنه إذا لم يحتفظ بالموضوع فى الكتمان وافتضح أمره. وهذه مجازفة لا يجوز ب بأى حال تجاهلها فى أوضاع الشرق الأوسط. فإنه لا يمكن تقدير الضرر الذى يصيبنا تجاه الدول العربية والدول الغربية العظمى فى آن واحد، وهو ضرر لن يعوضنا عنه حتى نجاح الخطة».

«أسف إن كنت قد أثقلت عليك فى إطالة التحليل. لكنى أردت أن أعرض أمامك رؤيتى للمشكلة بأقصى قدر من الكمال».

موشيه شاريت

الرسالة الثالثة

من ساسون إلى شاريت - روما - ٢٥ / ٣ / ١٩٥٤

«إلى رئيس الوزراء ووزير الخارجية، القدس، من ١ - ساسون - روما».

«قرأت بإمعان الرسالتين المتبادلتين بين السيد د. بن جورين بشأن مشروع دولة مسيحية/مارونية فى لبنان. واستأذنكم فى إبداء بعض الملاحظات لإكمال الصورة وتوضيح الأمور:

١- من الصعب الاعتراض على افتراضك القائل أنه لا معنى ولا مصلحة فى إثارة حركة من الخارج، إذا لم تكن هذه الحركة قائمة فى الداخل. لكن الوضع فى لبنان أبعد من أن يكون

على هذا النحو فى نظرى. إننا نجانب الحقيقة إذا حددنا بشكل قاطع بأن جميع المارونيين بما فيهم أهالى «بكركى» مقر الزعامة الروحية ورئاسة الكنيسة المارونية سلموا بالوضع القائم من صميم قلوبهم. فلو كان الأمر كذلك فلماذا لانزال نرى معارضة مارونية شديدة لكل مشروع عراقى أو سورى لا يتحدث عن الوحدة العربية أو اتحاد فيدرالى عربى وحسب. بل عن شىء أكثر وتواضعا ؟ من مجرد مزيد من التقارب بين البلاد العربية ؟ !

٢- لن نساير الحقيقة إذا قلنا أن جميع الزعماء المارونيين تخلوا عن أحلام إعادة لبنان المسيحى إلى سابق عهده. وأدركوا أن مصلحة طائفتهم تستدعى اختيار «أهون الشرين» ومعناه مشاركة مع المسلمين ودخول الجامعة العربية. ونسمع حتى يومنا هذا هجمات مارونية على أولئك الذين يفكرون فى إمكان قيام اتحاد اقتصادى مع سوريا، ولا نزال نقرأ حتى الآن على صفحات الصحف المارونية تحذيرات للرئيس المارونى لئلا يتمادى فى المشاركة مع المسلمين.

٣- اتبع العاملون من بين الساسة المارونيين سياسة اختيار أهون الشرور بعد أن هجرهم أصدقاؤهم الفرنسيون والصهيونيون وكذلك البريطانيون. إن حقيقة بحث هؤلاء العاملين عن طريق الاتصال بالولايات المتحدة لان بواسطة عقد اتفاقات عسكرية واقتصادية منفردة. تدل على أنهم لا يؤمنون بأن دخولهم الجامعة العربية يضمن لهم سيادة وحرية واستقلال لبنان زمنا طويلا.

٤- صحيح أنه لا يوجد غليان ظاهر للعين بين الطائفة المارونية. ولو كان له وجود لوجدنا فيه خيرا. ورأينا المنفعة فى خلخلة الاستقرار التى تواكبه، وفى المتاعب التى سيحدثها هذا الغليان للجامعة العربية.. الخ. ولكن فى رأيى ليس من الصعب خلق الغليان المطلوب لوجود أسس لإثارته.. صحيح أن الأرض تميد تحت أقدام المارونيين. إلا أن هذه الحقيقة كان يجب أن تفتح عيون كل مارونى لاحداث الغليان المطلوب.

٥- لكن إذا سألتنى. أهناك فرصة لمثل هذا الغليان إذا حدث وسار على ما ينبغى لبلوغ الهدف ؟ أرد عليك بلا تردد ردا سلبيا :

- فلا أجد لدينا الأشخاص المناسبين والمؤهلين والقادرين على الانصراف كلية إلى هذا العمل.

• ومنذ قيام دولتنا قطعنا كل الاتصالات التى كانت لنا مع العالم العربى ومع لبنان بصفة خاصة. وليس من السهل علينا تجديد ذلك فى وقت قصير.

• لا أجد المبالغ الكثيرة اللازمة لمثل هذا العمل. وهى أموال ستلقى فى ساحة المقامرة.

• أشك فيما إذا كان المارونيون أنفسهم سيكونون مستعدين للإخلاص لمثل هذا الموضوع حتى النهاية. إذ أنه لا يجوز وضع الثقة حتى فى كتائب «بيير الجميل». فاللبنانى المارونى ليس برجل نضال ولا برجل التضحية. فهو يتحمس بسرعة. ويبرد بسرعة. إنه بطل فى الكلام وضعيف فى ساعديه.

• بالطبع لن يظل الموضوع طى الكتمان. بل سيفتضح. لكنى لا أقدر أنه سيسبب لنا فى الظروف الراهنة ضررا كبيرا تجاه الدول العربية. فهذه الدول تنسب إلينا ألوانا من الخطط الخيالية والنوايا الغريبة والأنشطة الهدامة. ثم. لماذا يحق لها أن تتعرض لنا ولا يحق لنا ذلك ؟ لماذا يحق لها أن تتحدث فى اجتماعاتها وفى المساجد وعلى صفحات الجرائد عن رغبتها فى مهاجمتنا وفى تجويعنا وإلقائنا فى البحر. ويحرم علينا أن نقوم بأى عمل من شأنه أن يخلخل استقرارها ويحبط خطط وحدتها. ويعرضها أمام العالم على أنها دول متنازعة تحاول الواحدة منها ابتلاع جارتها ؟

ومع ذلك فإننى أقرك تماما فيما يتعلق بالضرر الذى يقع علينا إذا افتضح الأمر من ناحية الدول الغربية العظمى. رغم أنها هى ذاتها تفعل ذلك فى عدة أماكن.

آسف إذا كنت قد أثقلت عليك فى الإفاضة بالكلام. لكننى أردت أن أسهم بقسطى المتواضع لتوضيح الأمور وإكمال الصورة.

الياهو ساسو

ooo

ومن متابعة الرسائل الثلاثة. نستطيع أن نخرج بما يلى :

أولا : إن هدف إقامة الدولة المسيحية فى لبنان. هو شىء يراه الفكر الإسرائيلى مهما وأساسيا وضروريا لأمن إسرائيل.

ثانيا : إن إسرائيل. فى سبيل انجاز هذا الهدف. يجب أن تبذل المال. وتعثر على

الأشــخاص المناسبين والأدوات المناسبة داخل لبنان، الذين يمكن أن يتلاءم وطموحهم مع تجزئة لبنان.

ثالثا: إن اعتراضات موشــى شــاريت والياهو ساســون على ما يريده بــن جورين لم تكن اعتراضات على الهدف ومكاســبه لإســرائيل.. وإنما هى اعتراضــات على فرصة تنفيذه، وحجم المتاعب المحلية والدولية التى ســيواجهها التنفيذ. مع ذلك فالجميع اتفق على أن مجــرد إثارة الغليان فى لبنان للتجزئة، حتى ولــو لم تقم الدولة المارونية فى النهاية. هو أمر مفيد ومطلوب إسرائيليا.

رابعا: إن ما رآه موشى شاريت رئيس وزراء إسرائيل فى سنة ١٩٥٤ غير ممكن عمليا، رآه اســحاق رابين رئيس وزراء إسرائيل فى سنة ١٩٧٥ ممكنا. ورآه مناحم بيجن رئيس وزراء إســرائيل فى سنة ١٩٧٧ ملحا وممكنا معا. ورآه اسحاق شامير فى سنة ١٩٨٣ أمرا حيويا من الناحية الاستراتيجية.

والواقع أنه إذا كانت إســرائيل قد زاولت نشــاطها فى لبنان ســرا من البداية، إلا أن مناحم بيجن كان واضحا تماما، خاصة بعد الغزو الإسرائيلى الشامل الأول للبنان فى مارس ١٩٧٨، بحيث أنه أعلن فى ٩ أغســطس من نفس الســنة، وبصراحة كاملة، إن إسرائيل «ستقوم من الآن فصاعدا بحماية الطائفية المارونية فى لبنان».

ولم تكن المســألة هى «من الآن فصاعدا» فقط، ولكنها كانت تنفيذا لجدول أعمال جرى التفكير فيه بالفعل من قبلها بـ ٢٢ ســنة. ففى ســنة ١٩٥٥ قال موشــى ديان. وقتها كان رئيسا لأركان حرب الجيش الاسرائيلى ـ إن الشىء الوحيد المطلوب هو الحصول على ضابط لبنانى، ولو حتى برتبة رائد، إما بشــرائه أو بكســب وده. يقبل أن يعلن من نفسه منقذا للشــعب المارونى، وحينئذ سيدخل الجيش الإسرائيلى لبنان ويحتل الأرض اللازمة ويقيم دولة مارونية تتحالف مع إسرائيل.

وكما رأينا فقد تأجل التنفيذ فقط لصعوبات عملية. فالأقلية المارونية كانت تسيطر على لبنان بفعل الانتداب الفرنســى منــذ عام ١٩٢٠، ولذلك فهى لم تكن تميل إلى تشــجيع الاتجاهات المتطرفة التى يمثلها حزب الكتائب الفاشى، وهو حزب تشكل عام ١٩٣٦ عقب عودة مؤسسة

من زيارة لألمانيا النازية حينذاك، مشحونا بالتعصب الطائفى العنصرى. ومع قيام إسرائيل، أصبح هناك مجال مشترك لتبادل الغزل. ولكن التيار القومى العربى كان لايزال قويا بما يمنع مثل هذه التفجيرات الطائفية فى جسده. ثم، مع الانقضاض على التيار القومى أصبحت هناك إمكانية لبروز اتجاهات التعصب الطائفى بصوت عال وهكذا. بدأت تنمو فى لبنان تلك الأفكار شديدة التعصب التى طرحها أمثال شارل مالك، وسعيد عقل، وكمال الحاج، وأمين ناجى.. الخ. أفكار تمهد الطرق للتعامل بالرصاص فى الداخل، والاعتماد على إسرائيل باعتبارها الجواد الرابح فى الخارج. وبالنسبة لذلك الاتجاه المتطرف داخل المارونيين اللبنانيين فإن لبنان هو حضارة مستقلة بذاتها، و «فى البدء كان لبنان» و «لبنان وطن الله» وهو «ثلثا الحضارة» و «لبنان يجب أن يعلن استقلاله عن العرب» و لبنان مستقلا. لم يكن يكتفى بتقرير مصيره، بل كان يقرر مصير الكون» و «لبنان من دول الجودة لا الكثرة» .. و «الكثرة» هم بالطبع العرب المتخلفون. أما «الجودة» فهم الأقلية المارونية التى يجب أن تواجه «البربرة» حولها.. إلى أخر نفس القاموس الذى استخدمته إسرائيل من قبل لكى تنتحل لنفسها دورا داخل المنطقة. قاموس، يقوم أساسا على تعظيم الذات واستعارة الشعور الفوقى على الآخرين لا يكتمل إلا بتحقير أولئك الآخرين.

وقد ذعر أحد الصحفيين الأوربيين مرة عندما قال له مسئول فى حزب الكتائب مرة : «لا تتوهموا أن العرب قد نسوا بواتيه.. وسيأتي يوم يهاجمون فيه أوروبا نفسها» ! «لقد كان يشير بذلك إلى المعركة التى جرت فى مدينة «بواتيه» فى جنوب فرنسا، والتى أوقفت الزحف العربى على أوروبا من ناحية اسبانيا عام ٧٣٢. هناك خطر عربى إذن لا يهدد لبنان المارونى فحسب، ولكنه يهدد أوروبا وحضارتها. وعلى الغرب المتحضر أن يؤيد المارونيين فى وقوفهم ضد البرابرة المسلمين العرب !

والواقع أن مثل تلك الأفكار، التى يروجها حزب الكتائب مكررا تجربة إسرائيل من قبل، لم تجد من يتصدى لها بين المسلمين اللبنانيين فقط، ولكن بين المارونيين أيضا، الذين رأوا فيها أفكارا عنصرية سوداء تنذر بمستقبل عاصف من الخطر. لكن، إزاء لغة الرصاص التى بدأ استخدامها، وإزاء الدور المكثف الذى بدأت تقوم به إسرائيل، والفرصة التى يمثلها التراجع العربى العام، أصبح ممكنا للبرنامج أن يمضى قدما حتى النهاية.

وهكذا أصبح الدور الذى قامت به فرنسا، ثم الولايات المتحدة، هو دور تريد إسرائيل أن تقوم به لحسابها هذه المرة. وأصبح لابد أن نفهم هذا الدور فى إطار المفهوم الإسرائيلى للسلام فى المنطقة.

إن ايجال آلون كتب من قبل فى كتابه «بناء الجيش الإسرائيلى» إن على إسرائيل أن تتبنى فلسفة : تفضل قيام دولة مستقلة للدروز تكون حاجزا بين إسرائيل وكل من سوريا والأردن. وشيمون بيريز سجل فى كتابه «تسليح إسرائيل» إن على إسرائيل أن تتبنى فلسفة «الأقليات الدينية» فى العالم العربى باعتبارها أحد الخطوط المرشدة فى برنامجها السياسى والعسكرى. والمحللون السياسيون الإسرائيليون. خصوصا بعد حرب يونيو ١٩٦٧. سجلوا سعى إسرائيل إلى تكوين «رأى عام صهيونى» مساند لإسرائيل داخل العالم العربى «تكون الأقليات الدينية ركيزة له. والتفكير الإسرائيلى اعتمد كثيرا على المناداة بإقامة دولة طائفية فى المنطقة ـ دولة للأكراد فى العراق. وللدروز فى سوريا. وللمارونيين فى لبنان. كجزء من حزام الأمن الإسرائيلى. بل إن كثيرين فى الجانب الإسرائيلى طالبوا بتوسع هذا المفهوم لكى يشمل دولا عربية أخرى. فى مقدمتهم مصر والسودان

وفى وثيقة بعنوان «استراتيجية إسرائيل فى الثمانينات» نقرأ بصراحة ووضوح ما يلى: «إن مصر. إذا ما قسمت. فإن بلادا مثل ليبيا والسودان. وحتى الدول الأكثر بعدا. لن تستمر فى البقاء بصورتها الحالية وسوف تلحق بسقوط وتفسخ مصر. إن وجود دولة قبطية مسيحية فى صعيد مصر إلى جانب عدد من الدويلات الضعيفة ذات السلطة المحلية جدا وبلا حكومة مركزية ـ كما هو قائم حتى الآن هو المفتاح لتطور تاريخى.. يبدو فقط حتميا على المدى البعيد. إن الجبهة الغربية. التى تبدو على السطح أكثر إشكالية. هى فى الحقيقة أقل تعقيدا من الجبهة الشرقية التى تشهد أهم الأحداث الرئيسية حاليا. فانقسام لبنان تماما إلى خمسة أقاليم يقدم سابقة للعالم العربى كله. بما فى ذلك مصر وسوريا والعراق وشبه الجزيرة العربية. وتقسيم سوريا والعراق فيما بعد إلى وحدات عرقية أو دينية مثلما يحدث فى لبنان. وهو هدف إسرائيل الأول على الجبهة الشرقية فى المدى البعيد. بينما يظل هدفها القريب تفسخ القوة العسكرية لهذه الدول»[(١)]

---

(١) نشرت تلك الوثيقة أولا بالعبرية فى فبراير ١٩٨٢ بمجلة «كيفونيم» التى تصدر عن أدارة الاستعلامات بالمنظمة الصهيونية

ولقد رأينا حتى الآن أربعة نماذج تطبيقية لهذا المفهوم الإسـرائيلى فى كل من الجزائر ومصر والعراق ولبنان. ومن وجهة النظر الإسرائيلية فإن هذا التوظيف لدور الأقليات الدينية فى المنطقة. وتحويله إلى دور سياسـى. يسـتطيع أن يحقق عدة أهدافا. فهو يؤكد شرعية إسرائيل فى المنطقة. حيث فى هذه الحالة لن تصبح هى الدولة الوحيدة القائمة على أساس دينـى. بل سـتكون إلى جانبها دويلات أخرى فى الجانب العربـى. وهو ينقل المواجهة الإسـرائيلية العربية إلى داخل الجبهة العربية نفسـها. فكما تسعى إسرائيل دائما إلى نقل كل حرب عسـكريا إلى الأرض العربية تحت شعار «الحرب الوقائية» كذلك تسعى إلى نقل الحرب سياسيا إلى الأرض العربية تحت شعار «الحرب الدينية» .

وثالثا تتيح لإسـرائيل حلفاء جـددا ضد القضية العربية من بين العرب أنفسـهم. حلفاء. يمكن لقضيتهم أن تغطى على القضية الأسـاسـية التى هى الصراع العربى الإسـرائيلى. ثم انه يفتـح شـهية المتطرفين داخل الأقليـات الدينية العربية لتحويل الكيـان الدينى لها إلى كيان سياسـى. وفى هذه الحالة سـوف يصبح على الأغلبية داخـل المجتمعات العربية أن تخضع لابتزاز سياسـى مسـتمر. حتى لا تقبل فـى النهاية الاعتراف بالاتجاهـات الانفصالية. إن الانفصال الوظيفى سوف يصبح بديلا عن الانفصال السياسى الجغرافى. والبدائل التى تستطيع الأغلبية فى هذه الحالة أن تختار بينها سوف تنحصر بين بديلين اثنين : فإما أن تقبل الموت بالرصاص.. أو تقبل الموت بالسم. وفى كلتا الحالتين سوف يصبح الموت مسألة وقت.

إن المجتمعات العربية تميزت طوال تاريخها كله بتسـامح كامل مع الأقليات الدينية. ولكنها لم تسمح مطلقا بأن تتحول الأقليات الدينية إلى أقليات سياسية. وفى اللحظة التى كان يحدث فيها ذلـك. فإنـه كان يتحول إلى مقدمة أكيدة لانهيارها واحتلالها. بل إن كل قوى الاحتلال الأجنبية كانت تسـتخدم دائما هذا السـلاح للتمكين من احتلالها للأراضى العربيـة. هكذا فعل الصليبيون مثلا فى القرن الثانى عشـر. وفرنسـا فى لبنان وسوريا فى القرن العشرين. ثم فرنسا فى مصر فى القرن الثامن عشر وبعدها بريطانيا فى القرن العشرين. ثم فرنسا فى الشمال الإفريقى العربى.. الخ.

العالمية. ثم أعيد نشرها باللغة الانجليزية بإصدار خاص من جمعية الخريجين العرب من الجامعات الأمريكية.

وإسـرائيل. بجعلها «حماية الأقليات» أساسا سياسـيا لأمنها. لا تنتحل لنفسها دورا ملفقـا. وإنمـا هى فى الواقع تضرب الأغلبية بالأقلية معـا. الأغلبية لأنها تفاجأ بالحرب وقد انتقلت مدنيا إلى أرضها. والأقلية لأنها تكتشف بعد فوات الأوان أن ما تفعله إسرائيل إنما تفعله لحسـابها هى. وليس لحسـاب أقلية هنا أو أقلية هناك. ولعل فى اغتيال بشير الجميل بلبنان نموذجا لما تفعله إسرائيل فى اللحظة التى يتصور فيها الحليف الصغير أنه يستطيع التمتع بهامش ضئيل من المناورة، أو حرية الإرادة.

سابعا : السيطرة على البترول فى الثمانينات :

فى منتصف أغسـطس سـنة ١٩١٨. أى فى المرحلة الأخيرة من الحرب العالمية الأولى. قال جيمس بلفور وزير الخارجية البريطانى لزملائه أعضاء المجلس الوزارى للحرب : «إننى لا يهمنى فى ظل أى نظام أن نحتفظ بالبترول. لكننى واضح فى أنه من اللازم والمهم لنا تماما أن يكون هذا البترول متاحا لنا» .

إن البترول المقصود هنا. الذى يعنيه بلفور بكلماته تلك. هو بترول الشـرق الأوسـط. وقتها كانت بريطانيا إمبراطورية عظمى. وكانت هى بذاتها موجودة كقوة احتلال فى الشرق الأوسط .

ولكن، بعدها بنصف قرن. اختلفت الصورة. لقد انسحب الوجود العسكرى البريطانى من الشـرق الأوسط. وبريطانيا نفسها تخلت عن زعامتها للغرب إلى الولايات المتحدة. والبترول ذاته أصبح أكثر أهمية وحيوية فى الصراع العالمى من أجل الطاقة والموارد الأولية.

وعندما بدأ الحديث فى الولايات المتحدة. قبل حرب أكتوبر بفترة طويلة، عن احتمالات مواجهـة الغرب لأزمة فى الطاقة. كانت العناصر الصهيونية فى الولايات المتحدة هى التى تقلـل من هذا الاحتمال. بـل وكررت دائما قولها إن الحديث عن احتمال مواجهة أزمة فى الطاقة هو مجرد إنذارات مزيفة تطلقها وتروجها شـركات استخراج البترول نفسها من وقت لأخر. للتأثير على السياسة الأمريكية فى الشرق الاوسط. حتى تكون أقل انحيازا لإسرائيل.

لكن، سرعان ما تبين أن الحديث عن أزمة الطاقة هو حديث جاد تماما. واحتمال قائم بالفعل. اعتبارا من سـنة ١٩٧٢. وفى العام التالى مباشـرة جاء الحظر البترولى العربى لكى يزيل أية أوهام عن حجم الأزمة واحتمالاتها. وهكذا بدأ الغرب كله. بقيادة الولايات المتحدة. ينتبه إلى حقيقة أن

البترول العربى لن يظل محايدا سياسيا إلى ما لا نهاية فى الصراع العربى الإسرائيلى. وأنه فضلا عن الأهمية الاستراتيجية التى كانت للبترول دائما. فقد نشأ لأول مرة احتمال قيام الغرب بعملية مقايضة تعتبرها إسرائيل خطرا عليها. فمقابل عودة إسرائيل إلى حدود ٤ يونيو ١٩٦٧ وإقامة الدولة الفلسطينية. يمكن للغرب أن يضمن عدم استخدام البترول سياسيا ضده مرة أخرى.

وكان العامل الأساسى فى الموقف هو أن أهمية البترول الاستراتيجية تتزايد بالنسبة للغرب سنة بعد أخرى. وفى سنة ١٩٤٧ مثلا كانت الولايات المتحدة تستورد فقط ٨,١٪ من احتياجاتها البترولية. وفى سنة ١٩٧٣ ارتفعت تلك النسبة إلى ٣٦,١٪ وبالإضافة إلى ذلك فإن أهمية منطقة الخليج العربى على وجه الخصوص تزايدت بعد الثورة الإسلامية فى إيران وموقفها المعادى للسياسات الأمريكية. وفى سنة ١٩٨٢ أصبحت الولايات المتحدة تحصل من منطقة الخليج على أكثر من ٢٠ ٪ من احتياجاتها البترولية. بينما تحصل أوروبا الغربية على ٥٦٪ من وارداتها البترولية، واليابان على ٦٨٪ من احتياجاتها من منطقة الخليج العربى وحدها.

وبرغم أن منظمة الدول المصدرة للبترول «أوبك» قد تكونت فى سنة ١٩٦٠ وتضم ١٣ دولة منتجة، هى السعودية والعراق والكويت وإيران وفنزويلا والجزائر وليبيا وقطر والإمارات العربية ونيجريا وجابون واندونيسيا وإكوادور. إلا أن قوتها التفاوضية مع الشركات كانت تقترب من نقطة الصفر حتى قيام حرب أكتوبر ١٩٧٣. هنا فقط تغير ميزان القوى جذريا، بحيث أنه فى اجتماع واحد عقدته المنظمة فى طهران، وبقرار واحد فى ٢٢ ديسمبر ١٩٧٣، أصبحت دول المنظمة قادرة على أن ترفع سعر البترول الخام الذى تنتجه إلى ١١,٦٥ دولارا للبرميل ـ أى نحو أربعة أمثال سعره السابق.

وبالطبع كان للولايات المتحدة خططها الخاصة لتحييد البترول العربى سياسيا فى المستقبل. وكذلك للسيطرة على قدرة الدول المنتجة فى رفع الأسعار. ولكن ما يهمنا هنا هو التفكير الإسرائيلى الذى استدار ١٨٠ درجة كاملة بعد الحظر البترولى العربى: من تقليل أهمية البترول كسلاح سياسى. إلى المبالغة فى التخويف منه. واستثمار مخاوف الغرب القائمة بالفعل من استخدامه سياسيا مرة أخرى فى المستقبل.

ولقد قامت إســرائيل. كفكرة وكدولة. على ربط نفسها بالمصالح الاستعمارية فى الشرق الأوسط. وفى السبعينات كان هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكى الصهيونى هو الذى قال فى مذكراته إنه كلما زاد الالتزام بالمصالح الاستراتيجية الأمريكية. وكلما ربطت نفسها بتلك المصالح فى الشــرق الأوســط. كلما أدى هذا إلى مزيد من العمق فى العلاقة الأمريكية الإسرائيلية.

وبالطبع. لم تكن إســرائيل فى انتظار هذه النصيحة لكى ترشــح نفســها للقيام بدور فى الخطط التى بدأت دراســتها بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ لأحكام الســيطرة الأمريكية على المنطقة. وكما هى الحال فى كل مرة. كان لإســرائيل مصلحتها الخاصة فى تجريد العرب من ورقة الضغط البترولية القوية فى أيديهم. وأصبح عليها أن تلائم بين هذه المصلحة. وبين المصلحة الأمريكية فى ضمان التدفق البترولى. بســعر مناسب. إليها وإلى الغرب. وهكذا. مع مطلع الثمانينات. بدا الاتجاه يتزايد لإدخال السيطرة على البترول العربى كأساس فى الأمن الاسرائيلى لابد من بنائه بحذر. وبالتدريج. وبفاعلية.

والولايات المتحدة من جانبها لا تســتطيع فى كل مرة المجىء بقواتها العســكرية إلى الشــرق الأوسط مباشــرة لكى تقوم «بتحجيم» دول البترول العربى. رغم إنها هددت بذلك فعلا كاحتمال وارد ســنة ١٩٧٥. تهديدا علنيا. الولايات المتحدة لا تســتطيع. حتى إذا جاءت بقواتها. أن تحتفظ بها طويلا. برغم أنها بدأت تخطط فى ســنة ١٩٧٩ لبناء قوة عســكرية قادرة على الانتشار الســريع فى الشرق الأوسط للسيطرة على منابع البترول. لقد بدأت تلك القوة بالفعل مناوراتها العسكرية بالمنطقة عام ١٩٨٠. وهى تعتمد على تشكيلات مشــتركة. بحرية وجويــة وبرية. ووفقا للبيانات الأمريكية الرسميــة فإن مهمة تلك القوة هى «ضمان تدفق البترول بلا عوائق» و «ردع العدوان من الخارج» أى خارج منطقة الشرق الأوســط. «ومساعدة بلدان المنطقة فى ردع العدوان». وعلينا أن نلاحظ هنا أن تشكيل تلك القوة لم يتقرر إلا بعد سقوط الشاه ونجاح الثورة الإسلامية فى إيران.

مع ذلك. تظل قدرة الولايات المتحدة على التدخل عســكريا بقوة الانتشار السريع تلك مرتبطة باعتبارات ســياسية أخرى. منها مثلا مدى تعاون دول فى المنطقة. من بينها مصر

والسودان والصومال وعمان. فضلا عن دول البترول العربى نفسها. ومنها التكلفة السياسية المحتملة فى مواجهة القوى العظمى الأخرى. والتكلفة الاقتصادية لنقل تلك القوة. وبعض وحداتها يجب نقلها من كاليفورنيا فى أقصى الغرب من الولايات المتحدة ـ نصف الطريق حول العالم ـ إلى الشرق الأوسط.

فى مقابل ذلك. هكذا يسير المنطق الإسرائيلى الجديد. هناك إسرائيل موجودة فى المنطقة بالفعل. ويتم دعمها للقيام بمثل هذه المهام كلما تطلب الأمر ذلك. وهكذا بدا الأمن الإسرائيلى فى محاولة بلورة دور لنفسه. فى الصراع من أجل البترول العربى. وخاصة بعد سقوط الشاه فى إيران وقيام الثورة الإسلامية هناك ـ المعادية بطبيعتها للسياسات الأمريكية.

ويقول المؤلف اليهودى الصهيونى الإنجليزى «جون كيمش» : «إن إسرائيل. بنجاحها فى إقامة قوة عسكرية ـ قوة حقيقية ـ فى الشرق الأوسط. أصبحت بطبيعتها عنصرا محورياً ومركزيا فى تأمين إمدادات بترول الشرق الأوسط إلى الولايات المتحدة وأوروبا الغربية واليابان... لقد أصبحت هى العقاب الممكن الوحيد الذى يستطيع الأمريكيون والأوروبيون واليابانيون تطبيقه فى مواجهتهم ضد بارونات البترول العرب والدوليين... الذين ستظل إمدادات البترول تعتمد على حسن نواياهم» .

ثم يضيف «جون كيمش» فى كتابه «فلسطين.. أو إسرائيل» وهو كتاب موجه للقارئ الغربى : «إن حكام إيران. والعربية السعودية. والكويت. وليبيا. والعراق. وسلاطين ومشايخ الخليج... يمسكون بأوروبا كرهائن فى أيديهم. وأيضا الولايات المتحدة إلى درجة ما. إن لديهم البترول.. بينما الآخرون يحتاجون إليه.. واعتماد العالم الغربى واليابان على بترول الشرق الأوسط لا يعادله فى الواقع سوى اعتماد حكام الشرق الأوسط على أموال البترول التى يحصلون عليها من شركات البترول الغربية و ـ ليس هذا عاملا دنيئا ـ الوجود العسكرى الإسرائيلى فى الشرق الأوسط» .

بعبارة أخرى : إن إسرائيل هى الرادع النهائى الذى يجب أن يعتمد عليه الغرب فى تأمين تدفق البترول العربى. أكثر من ذلك. يقول جون كيمش. فإنه «مع إعلان أزمة الطاقة الأمريكية فى شتاء سنة ١٩٧٢. جاء إعلان إعادة استعمار الشرق الأوسط

بواسـطة القوى الأعظم» . فإذا كان الاتجاه هو إلى «أعادة اسـتعمار» الشـرق الاوسـط فإسرائيل أكثر من مسـتعدة للمشاركة، لحسابها ولحساب الآخرين، كما فعلت دائما من قبل.

ولقد رأينا من قبل فكرة استخدام إسرائيل ضد دول البترول العربى. هى إحدى ثلاث مهمات لوجود إسـرائيل فى الثمانينات كما حددها «بوجين روستو» الوكيل الأسبق لوزارة الخارجية الأمريكية للشـئون السياسية. وهو نفسـه يهودى صهيونى متعصب لإسرائيل. عندمـا كتـب فى ابريل ١٩٧٧ يقـول إنه «.. إذا اضطررنا. كمـا يحتمل أن يحدث. إلى الدخول فى مواجهة يوما ما مع الدول المنتجة للبترول. فإن إسـرائيل سـوف تكون حليفا لا يعوض بالنسبة لنا» .

فى نفس الوقت يسجل تقرير المؤتمر اليهودى العالمى الذى عقد بالقدس فى يناير ١٩٨١ أن الحظر البترولى العربى فى أواخر سنة ١٩٧٣ و «.. ما صحبه على الفور من قيام منظمة الأوبك. وبشـكل انتهازى. برفع سعر البترول إلى إضعاف ما كان عليه قبل الحرب» هذا الحظـر البترولى هو واحد مـن أهم ثلاثة متغيرات فى الوضع العالـى منذ الحرب العالمية الثانية».

ثم يسـجل التقرير امتعاضه الشـديد من «القبول السـلبى لقرارات الأوبك بشأن أسعار وإنتاج وإمدادات البترول من جانب الدول الصناعية» لأن هذا أدى إلى «منح نفوذ سياسـى هائل للدول المنتجة للبترول. خاصة دول الشرق الأوسط... وقد أمكن تلك الدول من ممارسة نفوذ كبير على صانعى القرار السياسى فى الدول المستوردة للبترول» .

فالدول العربية البترولية إذن تمارس سلوكا «انتهازيا وضاغطا» يتيح لها «نفوذا سياسيا فـى عواصـم الدول الصناعية الكبرى فـى الغرب» وتلك علامة خطـر كبرى يحذر المؤتمر اليهودى العالمى من تأثيرها على مستقبل إسرائيل.

ثـم انتقـل التقرير إلى علامة الخطـر الثانية وهى «تحركات القـوة الخبيثة من جانب الاتحاد السوفيتى فى أفريقيا. باستخدام وكلائه الكوبيين والألمان الشرقيين... ثم استخدام القوات المسلحة السوفيتية مؤخرا فى أفغانستان. حتى يتحقق للسوفيت تحكم استراتيجى

فى تدفق البترول من الخليج الفارسى إلى الدول الصناعية» . ولذلك. فعلى الولايات المتحدة خصوصا أن تتحرك قبل أن يتحرك الاتحاد السوفيتى. وذلك حتى لا يتم. قطع شرايين البترول عن العالم الغربى وخنق اقتصادياته. بحيث إنه يصعب فهم السلبية التى سمح بها الغرب بقيام هذا الوضع المتسم بالفوضى المتزايدة. والذى يجنح نحو قيام أنظمة حكم هدفها العمل من أجل أن يخبو نجم العالم العربى وينهار» .

وهكذا. فإن تقرير المؤتمر اليهودى العالمى. بعد أن يصيح «الذئب.. الذئب !» . يقدم الحل المثالى لمنع العالم العربى من الانهيار. والحل هو : الاعتماد على إسرائيل ! فعلى حد تعبير التقرير. فإنه وسط هذه الفوضى المهددة للغرب «.. يصبح لإسرائيل أهمية إيجابية عظمى بالنسبة للغرب. ويتضح التسليم بهذه الحقيقة من معاداة الاتحاد السوفيتى لإسرائيل. ودعمه للعداء العربى ضدها. ومساندته لإدانة دول العالم الثالث لها» .

فإذا كان لإسرائيل أن تقوم بهذا الدور إذن. فلابد أن يكون ذلك لحساب الولايات المتحدة على وجه الخصوص. لأن «الولايات المتحدة هى الوحيدة. فيما يبدو. من بين القوى الغربية الكبرى التى تعترف بالأهمية الجيوبوليتيكية لإسرائيل فى منطقة الشرق الأوسط» . لكن المشكلة التى يجب التغلب عليها هى أنه «حتى الولايات المتحدة نفسها تبدو متأرجحة بين الاعتراف بذلك. وبين الاعتماد الخطير على المملكة العربية السعودية. كحصن يضم قوة موالية لها وللاستقرار فى المنطقة» .

والواقع أن إسرائيل تخشى تماما من ازدياد حاجة الولايات المتحدة على وجه الخصوص إلى البترول العربى. لأن هذا يجعل الأخيرة أكثر اهتماما بالتوصل إلى تسوية مقبولة للصراع العربى الإسرائيلى. وقد عكس الاهتمام المتزايد من الصحافة الإسرائيلية بالأثر السياسى المحتمل للبترول العربى. القلق الكامن من احتمال خروج إسرائيل من «اللعبة القادمة» .. ومن ثم فهى تريد أن تحجز لنفسها من الآن دورا فيها.

وطبقا لما نشرته المصادر الإسرائيلية[1] فإن الاحتياطى المؤكد للبترول لدى الولايات المتحدة يشكل فقط ٦.٤ ٪ من احتياطى البترول العالمى. ولو استمرت الولايات المتحدة

(١) جريدة "هآرتس" الإسرائيلية ١٩٧٩/٣/٢٩

فى اسـتخراج البترول من مصادرها بمسـتوى سنة ١٩٧٥ مثلا (حوالى ١٧.٣٪ من الإنتاج العالمى) فإن هذا يعنى أن احتياطيها من البترول سـيكفيها لمدة ثلاث عشـرة سنة ونصف سـنة فقـط. إى حتى سـنة ١٩٩٢ تقريبا. فى مقابل ذلك نجـد أن احتياطى البترول فى الشرق الأوسط يقدر بحوالى ٥٥ ألف مليون طن. ولو استمر الإنتاج بمعدل سنة ١٩٧٥ (وكان ٩٨٣ مليون طن) فإن دول الشـرق الأوسط تستطيع إذن أن تستمر فى استخراج البترول من حقولها لمدة ٥٦ سنة أخرى.

من هنا فإن التفكير الإسرائيلى بدأ يتطلع، مع أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات، إلى محاولة أن تختلس إسرائيل لنفسها دورا يفرضها فرضا كطرف فى معادلة البترول.

وقد سبقت إسرائيل ذلك بالحصول على الأسلحة والقدرات العسكرية طويلة المدى التى تضع عددا أكبر من البلاد العربية داخل نطاق تخطيطها العسـكرى، ومن بينها بالطبع البلاد العربية البترولية.

وطبقـا لتقرير أمريكـى متخصص أعده معهـد «أميريكان انتربرايز» بواشـنطن[1] فإن: «.. زيادة عدد البلاد التى تصيب فيها إسرائيل أهدافا فى صراع مستقبل، أو أى حرب مستقبلة، لا يجب أن يكون مفاجئا، على ضوء التحذيرات التى أعلنها بالفعل القادة الإسـرائيليون، إن دولا عربية أخرى من بينها بالتأكيد الدول العربية البترولية يجب أن تدرك أنها أيضا قد تكون معرضة لأعمال إسرائيلية عقابية» .

ثـم يضيف التقرير قائلا : «وفى هذا المجال يجب ملاحظة اسـتخدام إسـرائيل للطائرات من طراز (سـى -١٣٠) كحاملة لجنود المظلات، بما يتمشـى مع الهدف الإسـرائيلى المقرر لتشـكيل وبناء قوة ضاربة قادرة على ضرب الأعداء المحتملين فى مسـافات بعيدة، مثل الكويت أو ليبيا».[2]

---

(1) Implicaton of The 1976 Arab. Israeli Military Status : J. Pranger & Daie R. Tahtinen J American Enterprice Institute Washington

(٢) المرجع السابق. وبالاضافة إلى ذلك فقد ورد ايضا فى:
Aviation Week & Space Technology ١٩٧٦/٢/٢٣

وحينما أقام مركز الدراسات الاستراتيجية فى تل أبيب ندوة عن مشكلات إسرائيل الاستراتيجية فى الثمانينات. جاءت كلمة أريل شارون وزير الدفاع الإسرائيلى لكى تتضمن[٣] إنه «ينبغى أن نوسع مجال الاهتمام الاستراتيجي والأمن الاسرائيلى. بحيث يشمل فى الثمانينات دولا مثل تركيا وإيران وباكستان. ومناطق مثل الخليج الفارسى. وأفريقيا...».

والواقع أن السلوك الإسرائيلى فى السنوات الأربع الأخيرة على وجه الخصوص يشير إلى مجموعة خطوات قد تبدو منفصلة عن بعضها البعض. ولكنها تبدو أيضا متكاملة إذا أخذنا عنصر البترول العربى فى الحسبان. إن قصف إسرائيل للمفاعل النووى السلمى العراقى. وضمها للقدس. ثم الجولان. ثم منطقة أمن بعمق ٤٠ كيلومترا داخل لبنان. ثم غزو لبنان ووضعه بأكمله تحت الوصاية الإسرائيلية. وإعادة الفلسطينيين إلى المخيمات كلاجئين ينتظرون الإحسان من السماء والأمم المتحدة. وإصابة سوريا بالشلل عسكريا. والتهديد بأن تكون الأردن هى نفسها الدولة الفلسطينية.. كل هذا هو إعداد للمسرح الجغرافى والسياسى بالمنطقة لما هو أهم.

هذا الأهم والأخطر سوف يكون فى النهاية هو منابع البترول العربى فى الخليج. وستكون الحجة وقتها هى أن تأمين إمدادات البترول يتم لحساب الغرب الصناعى. ولمنع أى قوة معادية. محلية أو خارجية. من استخدام البترول سياسيا ضد الولايات المتحدة.

وفى سعى إسرائيل لذلك. فإنها فى الواقع لا تحتاج بالضرورة إلى احتلال كل متر فى الخليج العربى. بل وربما لا تحتل مترا واحدا على الإطلاق. ولكنها يكفى أن تكون قد أثبتت للجميع أنها قوة عظمى بما فيه الكفاية. وأن تجعل قوتها فى المنطقة محل تصديق من يعنيهم الأمر. أما الباقى فيمكن التوصل إليه بتغذية وتنمية اضطرابات داخلية تجعل التدخل ممكنا فيما بعد. فما فعلته إسرائيل فى لبنان لم يبدأ فى سنة ١٩٨٢. وإنما بدأ بعمل «سلسلة من الهزات» وتغذية «غليان» و «خلخلة الاستقرار» على حد تعبير موشى شاريت الياهو ساسون قبلها بسنوات طويلة.

---

(٣) جريدة "معاريف الاسرائيلية" - ١٨ / ١٢ / ١٩٨١

وفى سعى إسرائيل إلى انتحال دور لنفسها فى معادلة البترول العربى فإنها تريد أن تضرب عصفورين بحجر واحد.

فأولا: هى تريد أن ترشح نفسها للغرب على هذا النحو، كوكيل عنه فى ضمان وحماية إمداداته من البترول العربى، خصوصا إذا ظلت الدول العربية البترولية عارية من أى نظام دفاعى عربى قابل للتصديق ولا يترك ثغرة أمام الولايات المتحدة. بكلمات أخرى، تريد إسرائيل أن تقول إنه لابد من أن تذهب الولايات المتحدة بنفسها إلى الخليج عسكريا، وعليها فقط أن توكل المهمة إلى السمسار الإسرائيلى، مقابل العمولة السياسية والعسكرية الكافية. ومن ناحية ثانية فإن وجود هذا الخطر الإسرائيلى، مرئيا وواضحا وقابلا للتصديق، هو أيضا سلاح كاف للابتزاز ضد دول الخليج نفسها.

وهكذا يصل مثل هذا السيناريو فى النهاية إلى أن يصبح حزام الدول العربية البترولية تحت حماية ووصاية الوكيل الإسرائيلى، ويدافع له الجزية أيضا.

أما بالنسبة لإسرائيل نفسها فالمكاسب واضحة ومغرية، لعل أهمها هو أن تحقق إسرائيل لنفسها مزيدا من الارتباط مع المصالح الاستراتيجية للغرب، وللولايات المتحدة على وجه الخصوص.. التى ستقول فى تلك اللحظة نفس ما قاله جيمس بلفور وزير الخارجية البريطانى فى سنة ١٩١٨ : «اننى لا يهمنى فى ظل أى نظام نحتفظ بالبترول.. ولكن من اللازم والمهم لنا تماما أن يكون هذا البترول متاحا لنا» .

ب ـ المضمون العسكرى للسلام والأمن الإسرائيلى

مع التبلور المبكر لمفهوم «الأمن الإسرائيلى» و «السلام الإسرائيلى» .. ومع جوهرية الأداء الوظيفى لإسرائيل لأنه يرتبط بفكرة قيام إسرائيل نفسها كدولة عازلة وسط العالم العربى، كان من الواضح أن الوسيلة الوحيدة لإقامة مثل هذا السلام هو فرضه على العالم العربى بالقوة العسكرية. فالذى سيأتى بالعرب إلى مائدة المفاوضات للتوقيع على شروط «السلام الإسرائيلى «لن يكون هو الاقتناع. بل الخوف.. والذى يجعل العرب يتكيفون مع تلك الشروط لن يكون ترك الأمور على ما هى عليه.. بل الهزيمة.

وإذا كان قد بدا على الدولة الوليدة بعض درجات الهدوء في السنوات القليلة التالية مباشرة على قيامها في سنة ١٩٤٨، فإنها كانت مرحلة تثبيت وجود الدولة، وامتصاص واستيعاب الأراضي التي خرجت بها من حرب ١٩٤٨ / ١٩٤٩، فضلا عن احتمائها خلف غطاء دولي غربي هو «البيان الثلاثي» الذي أعلنته الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا سنة ١٩٥١.

ولكن. بمجرد أن انتهت إسرائيل من مرحلة «التثبيت» هذه.. انطلقت على الفور في محاولتها لفرض «السلام الإسرائيلي» على العالم العربي. وهكذا فإنها. اعتبارا من سنة ١٩٥٣ بدأت تستعد لغزو سيناء. الذي قامت به فعلا ضمن «العدوان الثلاثي» مع بريطانيا وفرنسا في سنة ١٩٥٦.

ولكن. بمجرد أن اضطرت إسرائيل إلى الانسحاب من سيناء في مارس ١٩٥٧ بدأت تستعد لحرب يونيو ١٩٦٧. التي احتلت بها أراضي ثلاث دول عربية. ثم. بمجرد أن توصلت إلى معاهدة مع السادات لتحييد مصر وضمان السلام على جبهتها الجنوبية. استدارت إسرائيل إلى لبنان لكي تغزوها وتفرض عليها شروطا أمنية تخل تماما بسيادة لبنان وعروبته.

فالهدف السياسي الإسرائيلي الشامل هو فرض السلام الإسرائيلي «على المنطقة. ولكي يكون هذا ممكنا. كان من الضروري أن نتأمل ونحلل مضمونه العسكري. ومجموعة الأسس التي يقوم عليها هذا المضمون.

أولا : إسرائيل هي القوة العسكرية الرادعة :

الردع بالمفهوم الشامل يعني إقناع الخصم بأنه لا جدوى من المقاومة. ولا مفر من الإذعان والقبول بما يفرضه الطرف الأخر. وبهذا المفهوم فإن «الردع» يمكن إذن أن يتضمن وسائل سيكولوجية واعلامية ودبلوماسية وسياسية واقتصادية. بقدر ما يتضمن بالطبع وسائل عسكرية. ولأننا نقتصر الآن على بحث الجانب العسكري فقط. فإن الردع يستلزم توفير القوة العسكرية القادرة أولاً على اقناع الخصم بأنه لا جدوى من المقاومة ولابد من الإذعان. والقادرة ثانيا على تحقيق كل هدف سياسي يدخل في ايطار الأمن الإسرائيلي.

وهكذا. فإن الحكومة الإسـرائيلية قامت مبكرا فى سنة ١٩٥٣ بوضع برنامج لبناء قوة عسـكرية رادعة. وتبلورت عقيدتها العسـكرية فى مفهوم شن الحرب الوقائية. أو ضربة الإجهاض. لمنع أى احتمال بتحسـن القوة العربية كما ونوعا. مع ذلك. أصرت إسـرائيل فى سـنة ١٩٥٦. أثناء التخطيط البريطانى الفرنسـى المشترك لضرب مصر عسكريا. على الحصـول على تعهد بضرب المطارات المصرية وحماية إسـرائيل جويا. قبل أن تتقدم هى لغزو سـيناء. إلا أنه رغم «انتصار» إسـرائيل عسـكريا فى حربى. ١٩٥٦ و ١٩٦٧. فإنها أصيبت بهزيمة سياسية كبرى فى كلتا المرتين. إن فرض «السلام الإسرائيلى» على الحرب لم يتم. والهزيمة العسكرية لم تجعل العرب اقرب إلى قبول هذا السلام. بل إنها فى الواقع جعلتهم أكثر إصرارا على قبول التحدى الإسرائيلى وأكثر جدية فى الاستعداد لمواجهته.

وفى طريق إسرائيل للتحول إلى بناء قوة عسكرية رادعة. فإنها استثمرت كل شىء. ابتداء من العلاقة الخاصة مع فرنسـا فى الخمسينات. ثم مع ألمانيا الغربية بدرجة ما. والولايات المتحدة بدرجة اكبر فى الستينات. وأخيرا مع الولايات المتحدة وحدها فى السبعينات.

ولقد جعل التوازن بين أمريكا والاتحاد السوفيتى من المستبعد التورط فى مواجهات عالميـة. ولكن سـرعان ما بلورت الولايات المتحدة لنفسـها بعد ذلـك مفهوم «الحرب المحـدودة» كبديـل عن عدم اسـتخدام الرادع النووى. ولأن المواجهـة بين القوتين قد تحولت إلى تعايش سلمى ثم إلى وفاق فى النهاية. فإن إسرائيل أصبحت تقوم بالوكالة بتنفيـذ مـا تعجز عنه القوى الخارجية فى المنطقة. وأصبح هدف تحويل إسـرائيل إلى قوة عسـكرية رادعة وكبرى بالمنطقة لا يرتبط فقط بأهداف إسرائيلية، بل ويرتبط أيضا بدور تريد الولايات المتحدة أن تلعبه بغير أن تتحمل هى مباشـرة وزر المسـئولية عنه فى التوازن الدولى. ولقد سـاعد هذا الاتجاه. عدم وجود عمل عربى فعال. خاصة بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣. لإحباط هذا المستوى الجديد فى العلاقات الأمريكية الإسرائيلية. أو حتى مجرد الاعتراض عليه.

ولقد حدث مثلا. أثناء نظر مجلس الشـيوخ الأمريكى لصفقة عسـكرية أمريكية جديدة إلى إسـرائيل. إن وجه أحد أعضاء المجلس سـؤاله إلى هنرى كيسنجر عن تقديره لاحتمال

أن تؤدى الصفقة إلى استفزاز العرب وإثارة غضبهم. فرد عليه كيسنجر : إن العرب لن يحتجوا.. لأنهم فى الواقع لن ينتبهوا !

وهكذا. فإن رغبة الولايات المتحدة فى حماية مصالحها. والتى منعتها من أن تكون موردا مباشرا للسلاح إلى إسرائيل طوال الخمسينات. وحتى سنة ١٩٦٧. قد تحولت إلى تعامل محدود بعد حرب يونيو. ثم إلى تعامل ضخم ابتداء من سنة ١٩٧١. ثم أخيرا إلى تعامل أوسع نطاقا منذ سنة ١٩٧٥.

وهكذا. فإنه لم تزد قيمة صادرات السلاح الامريكى إلى إسرائيل فى سنة ١٩٦٨ و ١٩٦٩ و ١٩٧٠ عن ٢٥ و ٨٥ و ٣٠ مليون دولار على التوالى.. فإنها ارتفعت من ثلاثين مليون دولار إلى ٥٤٥ مليون دولار مرة واحدة فى سنة ١٩٧١. ثم ٣٠٠ مليون دولار فى ١٩٧٢. ثم ٣٠٧.٥ مليون دولار فى سنة ١٩٧٣. وفى سنة ١٩٧٤. وكنتيجة مباشرة لتعوض خسائر إسرائيل فى حرب أكتوبر. قفزت إلى ٢٤٠٠ مليون دولار. وخلال أقل من خمس سنوات من حرب أكتوبر «منحت الولايات المتحدة لإسرائيل مساعدات بلغت قيمتها عشرة بلايين دولار. أكثر من نصفها معدات عسكرية» .[1]

مع ذلك. فقد كان التطور الأكثر خطورة هو ما فعلته إسرائيل فى أعقاب حرب أكتوبر ١٩٧٣. فتجربة الجسر الجوى والبحرى الأمريكى لإنقاذ إسرائيل أثناء الحرب وبعدها. قد جعلت إسرائيل تركز فى اتفاقياتها مع الولايات المتحدة على الحصول على حقوق تصنيع بعض المعدات العسكرية المتطورة كجزء من زيادة قدراتها على الاستقلال العسكرى وتوسيع القاعدة المحلية لإنتاج السلاح. وكانت أخر خطوة فى هذا الاتجاه هى موافقة الولايات المتحدة على تمويل مشروع إنتاج الطائرة «لافى» فى إسرائيل بمبلغ ٥٥٠ مليون دولار فى سنة ١٩٨٤ وإنتاجها بالتكنولوجيا الأمريكية.

ولم يرتبط حجم ومستوى القوة العسكرية الرادعة لدى إسرائيل بوجود سلام رسمى مع العرب من عدمه. فبينما هى توقع الاتفاق الثانى لفض الاشتباك مع مصر فى سنة ١٩٧٥. كانت

(١) مجلة "تايم" الأمريكية - ١٩٧٨/٣/٦.٧

تعلم أن خطر وجود حرب عربية قد أصبح بعيدا جدا. بعد أن تلاشت علاقة مصر العسكرية بالاتحاد السوفيتي، وبعد أن تعهدت مصر فى الاتفاقية بعدم استخدام القوة أو التهديد بها مع إسرائيل. وبأن تظل الاتفاقية سارية المفعول إلى أن تحل محلها اتفاقية سلام نهائية.

مع ذلك. بل وربما لهذه الأسباب نفسها. فإن إسرائيل ضاعفت جهدها لدعم وتطوير قوتها العسكرية. وهكذا كان فى مقدمة «الثمن» الذى أعطاه هنرى كيسنجر لإسرائيل فى الاتفاقية هو كميات أضخم وأكثر تطورا من السلاح. من بينها صاروخ «بيرشنج» طويل المدى. وطائرات «أف - ١٦» والتفاوض للحصول على حق تصنيع أسلحة متطورة جديدة. والتعهد للحصول على إمدادات عسكرية منظمة وأوسع نطاقا لمدى طويل زمنيا - قدرته إسرائيل بعشر سنوات.

ومرة أخرى نشأت تطورات سياسية جديدة أدت إلى القضاء نهائيا على احتمال حرب عربية - على الأقل فى المدى القريب أو المتوسط. وكان أبرز تلك التطورات هو قيام الرئيس المصرى السابق أنور السادات بالذهاب إلى القدس والتفاوض المباشر على صلح منفرد. وهو ما تم التوصل إليه مع إسرائيل بالفعل فى كامن ديفيد. فى سبتمبر ١٩٧٨. مع ذلك ظل بناء القوة العسكرية الإسرائيلية الرادعة يسير قدما. وعلى نطاق أضخم. وتقدمت إسرائيل إلى الولايات المتحدة ببرنامج كامل للمشتريات العسكرية أسمته «ماتمون - سى» لتمويل مشتريات إسرائيل العسكرية لمدة تسع سنوات تالية. وبمقتضى ذلك البرنامج فقد وضعت إسرائيل خطة لدعم قوتها العسكرية يتكلف تنفيذها ثلاثة عشر بليون ونصف بليون دولار. ومدتها تسع سنوات، وتطلب من الولايات المتحدة زيادة معونتها العسكرية لإسرائيل من ألف إلى ١٥٠٠ مليون دولار سنويا.

وكان هذا طبيعيا تماما.. لأن القوة العسكرية الرادعة لا تريد بها إسرائيل مجرد تفادى الحرب مع العرب. أو حتى مجرد الانتصار عليهم فى حرب جديدة. وإنما تريد بها أساسا فرض «السلام الإسرائيلى» على المنطقة بأسرها.

والواقع إن المعونات العسكرية الأمريكية التى تلقتها إسرائيل منذ قيامها بلغت ١٨ ألف مليون دولار (من بينها ١٧٠٠ مليون دولار فى ميزانية ١٩٨٣. الثلث منحة لا ترد. والثلثان

في شـكل قروض ميسرة على ٣٠ سنة). وهذه المعونات هى بخلاف المعونات الاقتصادية. التى بلغت ٨٠٦٠ مليون دولار لنفس الفترة. وفى ديسمبر ١٩٨٣ أعلن أن الولايات المتحدة قررت تحويل كل معوناتها العسكرية الإسرائيلية. وبالكامل. إلى منح لا ترد.

وقد أصبحت إسرائيل. وفى ظل معاهدتها للصلح مع مصر. تنفق ما قيمته ٥٥٠٠ مليون دولار سنويا على مشتريات السلاح. يمثل النصيب الأمريكى منها نحو الثلث. وقبل الغزو الإسـرائيلى الشـامل للبنان فى يونيو ١٩٨١ كانت القوة الجوية الإسرائيلية قد وصلت إلى ٦٠٢ طائرة حديثة ومتطورة / ٨٥ ٪ منها أمريكى الصنع. وبالإضافة إلى ذلك. ففى الأسبوع الـذى جرى فيه الغزو نفسـه كانـت الحكومة الأمريكية قد قـررت التقدم إلى الكونجرس بمشروع صفقة جديدة لإمداد إسرائيل بـ ٧٥ طائرة جديدة من طراز «أف ـ ١٦» تبلغ قيمتها ٢٥٠٠ مليون دولار.

وإسـرائيل هى إحدى خمس دول يسـمح لها بأن تصرف أموال المعونة الأمريكية خارج أمريـكا. كما أنها تحصل علـى امتيازات أخرى من الحكومة الأمريكيـة من بينها القيام بتنفيـذ عقود دفاعية أمريكية وحق امتلاك أحدث الأسـلحة الأمريكيـة المتطورة بما فيها الأجهزة الالكترونية. وقد استطاعت مثلا شركة «تاديران Taderan» وهى شركة إسرائيلية أمريكية فى تل أبيب. إن تنتزع عرضا من شركة أمريكية هى شركة «دالاس للالكترونيات» لتنفيـذ عقد قيمتـه ٤٠ مليون دولار لتزويـد الدبابات والمصفحات فـى الجيش الأمريكى بأحدث أجهزة الراديو. كما تقوم شـركة «برانت وهوايتى» بتزويد الطائرات الإسـرائيلية الصنع «ليفى» بأحدث الأجهزة الالكترونية الأمريكية. وإما الطائرة الإسرائيلية طراز «كفير» فهي تستخدم دينامو وآلات جنرال إليكترونيك الأمريكية.

والواقع إن إسـرائيل تشترى مباشرة ما قيمته ٥٠٠ مليون دولار أجهزة عسكرية سنويا من خمسـة عشـر ألف شـركة أمريكية. وهو الأمر الـذى يثير أحيانا سـؤالا لدى بعض الأمريكيين هو : هل تؤدى هذه المعونات الأمريكية والقروض طويلة الأجل. وحق الشـراء المباشـر من الشـركات الأمريكية. إلى تحكم الولايات المتحدة فى سياسة إسرائيل.. أو أن الأمر يصبح أحيانا عكس ذلك ؟

وقد رد مرة أحد مسئولى وزارة الدفاع الأمريكية على ذلك بقوله : «ليست المسألة هى أننا لا نستطيع التحكم فى سياسة إسرائيل. وإنما المسألة هى أننا اخترنا بمحض إرادتنا ألا نقوم بممارسة أى نوع من التحكم على إسرائيل» !

والواقع أن هذا التضخم المفاجئ فى العلاقة العسكرية بين إسرائيل وأمريكا لم يحصل على فرصته كاملة إلا فى سنوات غياب رد الفعل العربى ولمزيد من السخرية المحزنة أيضاً.. سنوات توجه السادات إلى الصلح مع إسرائيل.. وإذا نحينا الجانب السياسى فى العلاقة الأمريكية الإسرائيلية جانبا. يظل الأمر المجرد أمامنا هو الحقيقة التى بدأت إسرائيل تروج لها عشية وأثناء غزوها الشامل للبنان فى سنة ١٩٨٢ : إن إسرائيل أصبحت القوة العسكرية الرابعة فى العالم.

ويعتمد جوهر القوة العسكرية الرادعة لإسرائيل. خصوصا بعد سنة ١٩٧٧. على جعل كل العواصم العربية المؤثرة داخل نطاق سيطرتها العسكرية. ومن هنا اختارت إسرائيل أسلحة دون أخرى. وفضلت طرازا من الطائرات على الآخر. يجعل بغداد والخرطوم والقاهرة وطرابلس والرياض. فضلا عن دمشق وعمان وبيروت. فى نطاق قدراتها على الردع العسكرى. وقد حصلت إسرائيل على تلك الأسلحة والطائرات والصواريخ طويلة المدى علنا وفى وضح النهار. وطبقا لتخطيط لم تنكره هى فى أى وقت. وتنفذه وتسير فيه قدما سنة بعد أخرى. وهكذا. فحينما تحدث أريل شارون وزير الدفاع الإسرائيلى عن استراتيجية إسرائيل فى الثمانينات فإنه لم يخف امتداد هذه القوة العسكرية الرادعة حتى الخليج العربى والباكستان شرقا. والدول العربية فى الشمال الإفريقى غربا.

ويسجل أحد التقارير الأمريكية المتخصصة [1] أنه : «بالنظر إلى أنواع المعونات العسكرية (الأمريكية) التى تزايد تفضيل إسرائيل لها... فإن المرء يستخلص وجود تركيز أساسى فى التخطيط العسكرى بالشرق الأوسط على نمط الحرب التى تخوضها

(1) Implications of The 1976 Arab J Israeli Military Status : American Enterprise InstituteJ Washington J 1976

قوات لا تشـتبك مباشـرة فى قتال الخط الامامى للجبهة. ومثل هذه الحرب سـتكون موجهة ضد أهداف وراء خطوط القتال ـ أهداف اقتصادية فى البنية الأساسـية. مثل مراكز المواصلات والسـكة الحديد والنقل والموانئ والسـدود. وأيضا ضد أهداف مدنية بالكامل بهدف إشاعة حالة من الهلع والرعب» .

ويسـجل التقرير أيضا أن إسرائيل قد لجأت إلى هذا الأسلوب عندما قامت بضرب أهداف مدنية بالعمق المصرى كرد على حرب الاسـتنزاف التى شـنتها مصر سـنتى ١٩٦٩ و ١٩٧٠. ثم كررت ذلك بضربها الأهداف المدنية فى العمق السورى أبان حرب أكتوبر سـنة ١٩٧٣. ولذلك فانه «منذ حرب أكتوبر أصبح فى مقدمة قوائم الأسـلحة التى تطلبها إسـرائيل وتحصل عليها. تلك الأسـلحة التى تكفل لها توجيه ضربات وقائية اجهاضية فعالة ضد أهداف فى المؤخرة والعمق بكل من مصر وسوريا – أهداف كالمطارات ومراكز الإمداد والتموين ومراكز القيادة ومراكز الدفاع الجوى ـ وهى أهداف يمكن أن توجد منتشـرة بامتداد البلد كله فى كل حالة. وهذه الأسـلحة (التى تحصل عليها إسـرائيل منذ حرب أكتوبر) تتضمن الصواريـخ أرض – أرض. وجو – أرض. والقنابل الموجهة بأشـعة ليزر. وأسـلحة مثل هذه يمكـن إطلاقها من الأرض أو الجو أو البحر» .

وقد «زادت إسـرائيل بالتحديد من قدرتها على شن حرب وقائية واجهاضية فعالة ضد كل من مصر وسوريا. خصوصا ضد الأهداف المدنية الاقتصادية ومراكز المواصلات والسكة الحديد والتنقل التى تشكل البنية الأساسية فى كل من البلدين» .

إن التقرير يسـتخلص أن دروس حرب أكتوبر التى خرجت بها إسـرائيل «قد لا يكون بالضرورة فى الاتجاهات السـلمية» لان إسـرائيل بدأت على الفور تعيـد بناء قوتها على الردع المسبق. بنظم أكثر تطورا. وبحيث تكون قادرة. حينما يناسبها ذلك. على أن تبادر بالحرب. خصوصا ضد مصر أو سوريا. وأن تصيب العمق فى كل من البلدين بأسلحة تكون خارج نطاق الدفاع الجوى المصرى أو السـورى. أسـلحة كالطائرات التى يتم توجيهها من الأرض أو الجو. والقنابل الموجهة لاسـلكيا. والصواريخ. و «كلها يمكن أن تنجز مهمات

فى الحرب الاجهاضية المسبقة كان مستحيلا بالنسبة لإسرائيل حتى الآن أن تقوم بها».

ومن المهم هنا أن ندرك. أن إسـرائيل كانت تفعل ذلك. فى نفس الوقت الذى يتجه فيه السادات نحوها من اجل السلام. ويكفى هنا أن نشير إلى ضخامة السلاح الذى حصلت عليه إسـرائيل من الولايات المتحدة فى أعقاب الاتفاقية الثانية لفض الاشـتباك مثلا مع مصـر. فمـع أن مصر تعهدت فى تلك الاتفاقية بإنهاء حالة الحرب عمليا مع إسـرائيل. إلا أن إسـرائيل حصلـت بعدها على ارتباط امريكى بأسـلحة وصلـت قيمتها فى بعض التقديرات إلى ١٥ بليون دولار.[1]

ولا يفيد فى الرد هنا أن الولايات المتحدة وضعت فى سيناء طبقا للاتفاقية محطات للإنذار المبكـر. لان «هـذه المحطات قد فقدت صلاحيتها بفعل نفس الأسـلحة التى حصلت عليها إسـرائيل بواسطة نفس الاتفاقية لفض الاشـتباك... وبهذا الشكل تكون الولايات المتحدة قد وضعت نظاما للإنذار للحرب السابقة. وأمدت (إسرائيل) بأسلحة من اجل الحرب القادمة» !

كذلك فإن إسرائيل تزيد كل يوم من عدد البلدان العربية التى تدخل فى نطاق نيرانها وقدرتها على التدمير.. خصوصا بالطائرات والصواريخ بعيدة المدى (الصاروخ بيرشنج مثلا تبلغ سرعته ثلاثة ماخ. أو مائة ميل فى الدقيقة تقريبا) وبحيث لا يستطيع الطرف العربى الدفاع ضدها. إلا بان يبادر بالهجوم. وهو ما تعرف إسـرائيل انه غير محتمل وغير وارد فى برنامج اى طرف عربى !

ثانيا : المبادرة بالحرب دائما إلى الأراضى العربية :

منذ لحظات الولادة الأولى. اعتنقت إسرائيل العقيدة الهجومية فى الحرب. بما يسمح لها بالاحتفـاظ فى يديها دائما بزمام المبادرة العسـكرية. وهو أمر يوفر لها من البداية مزايا عديدة ضد أى طراف عربى تواجهه.

(١) اشار الرئيس الامريكى جيرالد فورد وقتها إلى ان قيمة الاسلحة التى ستحصل عليها إسرائيل «ملحوسة جدا» . بينما اشارت جريدة «الواشنطن بوست» فى ٢١ / ٩ / ١٩٧٥ إلى ان القيمة خمسة عشر بليون دولار.

فمنـذ الهدنة الأولى التى تم التوصل إليها مع إسـرائيل. كانت هـى التى تبادر دائما إلى خـرق الهدنة ضد الجانب العربى. فى الوقت نفسـه كان فيـه الجانب العربى يعتقد أن الطابع الدولى للاتفاق سـيردع إسرائيل من خرقه. وهكذا. ففى ظل هذا الخرق المفاجئ للهدنة. زادت إسـرائيل من مسـاحة الأرض التى اسـتولت عليها. بحيث أصبحت فى حينها ٧٧ ٪ من أراضى فلسطين. بينما كفل لها قرار التقسيم ٥٥ ٪ فقط. وميناء «إيلات» الإسـرائيلى الحالى هو نفسـه نموذج حى لذلك. فهو أصلا بلدة «أم رشرش» المصرية. وقد استولت عليه إسرائيل خرقا للهدنة.

ومن البداية لخص ديفيد بن جوريون أول رئيس لوزراء إسرائيل عقيدة إسرائيل بالمبادرة بالحرب ونقلها إلى الأراضى العربية خرقا لأى تعهدات دولية بكلماته هذه : إن المهة الأولى لوزارة الخارجية الاسرائيلية هى تبرير اعمال وزارة الدفاع الاسرائيلية !

وقال موشـى شـاريت وزير الدفاع الاسـرائيلى: إننى أفضل ان نهاجم العرب ويديننا العالم.. عن ان ننتظر الهجوم ويؤيدنا العالم.

ولم يحدث أن بادر العرب بالحرب سوى مرة واحدة هى حرب أكتوبر ١٩٧٣. ومن هنا كان النجاح المصرى فى العبور مثلا. ومع ذلك فبمجرد أن تم العبور لجأت مصر بناء على تعليمات السـادات إلى التوقف والدفاع الثابت. بما أدى فى رأى المحللين العسكريين إلى ضياع فرصة ذهبية من مصر للتقدم فى سيناء بعد الانهيار العسكرى الإسرائيلى هناك خلال الأيام الأولى. وهذا الموقف جعل إسـرائيل تركز أولا على ضرب الجبهة السـورية. وعندما عـادت إلى الجبهة المصرية. فإنها عادت مـرة أخرى وقد تمتعت بالقدرة على المبادرة فى اختيار مواقع ومدى وأهداف هجومها.

على أن المبادرة بالحرب. فضلا عن عنصر المفاجأة واكتساب مراكز أفضل من البداية. تتيح لإسـرائيل مزايا أخرى أساسية. فى مقدمتها نقل الحرب إلى الجانب العربى. فضلا عن أن هذا يجعل إسـرائيل ذاتها أمنة. فإنه يمتص طاقة الجانب العربى ويحول رده إلى مجرد حرب دفاعية داخل أراضيه هو. متحملا فى ذلك خسائر ضخمة فى موارده ومنشآته فضلا عن الخسائر العسكرية ذاتها.

وفى ظل استسلام عربى غريب لهذا المبدأ. بحجة أن الوضع الدولى لا يسمح بمهاجمة إسرائيل ذاتها. فإن إسرائيل تمكنت دائما من احتلال المزيد من الأراضى العربية الإضافية فــى كل مرة. تصبح هى فى حد ذاتها ورقة المســاومة الجديدة والضغط من أجل مرحلة أخرى فى «الســلام الاسرائيلى» . فإما القبول بكل هذا التوسع الجغرافى الإسرائيلى من جانــب العرب. وإما القبول بجزء منه. مع إعطاء تنازلات سياســية وعســكرية تجعل إسرائيل فى موقف اقوى فى حربها التالية !

وهكذا فإن إســرائيل حينما واجهتها مصر بحرب اســتنزاف ســنتى ١٩٦٩ / ١٩٧٠ لجأت إســرائيل إلى شن الغارات الجوية فى العمق المصرى. وعندما غزت إسرائيل لبنان فــى يونيو ١٩٨٢ قالت فى البداية إن هدفها تامين مســاحة فى الجنوب اللبنانى بعمق ٤٠ كيلومترا. وقبل أن يفيق أحد لهذا المطلب العدوانى. قامت إســرائيل بحصار بيروت الغربية. وقبل أن يفيق أحد مرة أخرى لهذا التطور الجديد قامت إســرائيل بغزو بيروت الغربية. وفى النهاية. لم تعد القضية هى قيام إسرائيل بغزو لبنان أصلا. وإنما أصبحت مجرد إخراج إســرائيل من بيروت الغربية ! إما أخراجها من لبنان فلابد من المســاومة بشأنه للحصول على تنازلات سياسية وأمنية.

ومبادرة إســرائيل بالحرب تســمى أحيانــا «الحرب الوقائيــة» أو «ضربة الإجهاض» أو «الحرب الدفاعية» كما يطلق مناحم بيجن على غزو إســرائيل فى ١٩٦٧ لأراضى ثلاثة دول عربية. وكل تلك التسميات هى فى النهاية تعبيرات مختلفة ومتكررة للحرب العدوانية.

وإســرائيل. بحرصها الدائم على المبادرة بالحرب. لا تفعل ذلك فقط ضد قوة عربية قائمة. ولكن أيضا ضد قوة عربية محتملة. فعندما بادرت إســرائيل فى يونيو ١٩٨١ إلى تدمير المفاعل النووى الســلمى العراقى جنوب بغداد. لم يكن هناك أى خطر محتمل من العراق على إســرائيل. بل كانت العراق ممتصة تماما بحربها الدامية مع إيران. ولم يكن المفاعل نفسه عسكريا. وإنما للإغراض السلمية ويخضع للتفتيش الدولى (وهو ما لم تخضع له إســرائيل بالنســبة لمفاعلاتها) فضلا عــن أن العراق وقعت على اتفاقية منع انتشــار الأســلحة النووية (بينما لم تفعل إســرائيل ذلك). ومع هذا كله. اعتبرت إســرائيل أن

مجرد حيازة العراق لمعرفة تكنولوجية متقدمة على هذا المستوى هو خطر على أمنها. ومن ثم بادرت بشن الهجوم على أرض العراق نفسها.

ثالثا : إسرائيل قوة نووية ـ أو الرادع الشامل :

فى ١٣ يونيو ١٩٥٢ تألفت لجنة الطاقة الذرية فى إسرائيل. ضمن إطار وزارة الدفاع الإسرائيلية. وفى النصف الأول من سنة ١٩٥٣ وقعت إسرائيل مع فرنسا اتفاقا للتعاون المشترك فى مجال الذرة. ولم يتم الكشف عن هذا الاتفاق إلا فى نوفمبر سنة ١٩٥٤. حينما كشف «جون موك» ممثل فرنسا فى الأمم المتحدة ووزير دفاعها السابق. فى نيويورك عن وجود هذا الاتفاق. وفى نفس الشهر اضطر ممثل إسرائيل إلى تأكيد النبأ. قائلا إن هناك وحدة تجريبية لإنتاج الماء الثقيل فى إسرائيل. وان العملية قد «عدلت وطبقت فى فرنسا» . ثم أعلن موشى شاريت رئيس وزراء إسرائيل بعدها أمام الكنيست الاسرائيلى أن فرنسا وإسرائيل قد عقدت اتفاقا للتعاون فى مجال البحث الذرى ينص على تبادل المعلومات فى ميدان الذرة.

وقد أتاح هذا التعاون الذرى مع فرنسا لإسرائيل أولا أن تحصل على ثروة من المواد والمعلومات العلمية. فضلا عن تدريب العلماء والفنيين الاسرائيلى فى منشات أكثر تطورا وتقدما. ثم اختصار الوقت اللازم للتوصل إلى المعرفة الذرية المطلوبة.

وفى سنة ١٩٥٧ قرر ديفيد بن جوريون رئيس وزراء إسرائيل أن الوقت قد حان لكى تمتلك إسرائيل السلاح الذرى. وكان رأيه وقتها هو «إن إمكانية السلام بين إسرائيل والشعوب العربية تتوقف إلى حد كبير على قوة إسرائيل العسكرية... على قوة كافية لتكون رادعا فعلا. وعلى احترام مركز إسرائيل الدولى. فإذا اقتنع الحكام العرب بأنهم لا يستطيعون تصفية إسرائيل. سواء بالإجراءات العسكرية. أو بمحاصرتها وعزلها. فإنهم سيدركون ضرورة السلام والتعاون مع إسرائيل» .

بكلمات أخرى يريد بن جوريون أن يقول إن العرب سيأتون إلى إدراك «ضرورة» السلام مع إسرائيل عندما يقتنعون بأنه لا جدوى من المقاومة. ولا بديل عن الإذعان.

ولكن. هل السلاح الذرى لإسرائيل له دور في تحقيق هذا "الإذعان" العربي ؟. إن الإجابة العملية هي ما قامت به إسرائيل فعلا. ففي سنة ١٩٦٤ حصلت على مفاعل نووي إقامته في "ديمونا" بصحراء النقب. وقوته ٢٤ مليون وات حراري. يبلغ انتاجه السنوى ٨٧٦٠ جراما من البلوتونيوم. أى ما يكفى لانتاج قنبلة ذرية. سرعان ما ستتضاعف خلال عشر سنوات لكى تصبح ما يكفى لانتاج عش قنابل ذرية صغيرة.

وقد أعلنت إسرائيل رسميا أن الهدف من أبحاثها هو استخدام الذرة في الإغراض السلمية. فبغير ذلك لا تستطيع إسرائيل تحمل المسئولية الدولية المترتبة على أن تكون هي أول من يدخل هذا السلاح الخطير إلى الشرق الأوسط. بل إن إسرائيل. مبالغة في السرية. زعمت للولايات المتحدة في البداية أن ما يقام في "ديمونة" هو مجرد مصنع للنسيج. ومع ذلك رفضت إسرائيل طلبا أمريكيا بالتفتيش على مركز "ديمونة" وعادت من جديد في سنة ١٩١٦ ترفض طلبا تقدم به وفد الكونجرس الأمريكي برئاسة السناتور نيبوكوف بزيارة منطقة ديمونا كلها. واعتبارا من سنة ١٩٧١ أوقفت إسرائيل حتى زيارات العلماء الأمريكيين لمركز ديمونة.

والواقع كان لهــا علاقتها الذرية الخاصة مع الولايات المتحدة نفسـها. بالتوازى مع العلاقة الفرنسـية. ففي يوليو ١٩٥٥ عقدت إسرائيل اتفاقية مع الولايات المتحدة لتبادل المعلومـات الخاصة بالمفاعلات المتخصصة في مجال البحـث العلمى. وحصلت بمقتضاها على ٦٥٠٠ تقرير من "لجنة الطاقة الذرية الأمريكية". كما أسهمت الحكومة الأمريكية في إقامة مفاعل إسرائيل في "ناحال سوريك". أصبح قادرا على استخدام ١٠ كيلوجرامات من اليورانيوم. وابتداء من سنة ١٩٦٥ أسقطت إسرائيل من الاتفاقية شرط الإشراف الدورى الامريكي للتحقق من انه لا يستخدم بقصد صنع أسلحة نووية. مكتفية بتقديم تقرير دورى إلى "لجنة الطاقة الذرية الأمريكية".

مع ذلك بدأت تتسـرب بواسطة إسرائيل نفسها معلومات عن قدرتها الذرية. بعد أن تحولت سياستها من الانكار الكامل إلى "نصف إنكار.. ونصف إعلان". ومن هنا نستطيع أن نفهم تصريح "افراييم كاتزيم" رئيس إسرائيل في أول ديسمبر ١٩٧٤ حينما قال: "إن إسرائيل لديها إمكانية ذرية". وقد لا تعنى كلماتـه بالضرورة قنابل ذرية. ولكنها تعنى

بالتأكيد القدرة على إنتاجها. ومن ناحية أخرى فإن مصادر المخابرات الأمريكية تعتقد أن إسرائيل يمكن أن يكون لديها الآن ما يتراوح بين ١٠ و ٢٠ قنبلة ذرية صغيرة[1] قد لا تكون من أحدث طراز ولكنها ذات قوة تدميرية كافية بمقاييس الشرق الأوسط.

وربما يكون التصور المنتشر أن الاستخدام الوحيد للسلاح النووى هو فى حالة الردع الشامل، أو كمجرد رادع استراتيجى. لكن ما يتم إغفاله غالبا هو أنه بالنسبة لدولة تقوم عقيدتها العسكرية على الهجوم المسبق فإنه «... سيكون هناك اتجاه لتحريك الأسلحة الذرية إلى خارج نطاق الردع.. وإدخالها فى استراتيجية الهجوم نفسها. بكلمات أخرى : حيث توجد الحرب الحقيقية. فإن الأسلحة الذرية سوف تستخدم تدريجيا» على حد تعبير المحللين الأمريكيين «روبرت برانجر» و «ديل تاهينين» .

والواقع أنه بغير حتى أن تنتظر إسرائيل لحظة الاستخدام الفعلى لقدرتها النووية. فإن مجرد وجود تلك القدرة لدى إسرائيل وحدها، ووجود الجانب العربى عاريا منها -متصورا أن فى الضمانات الدولية ما يكفيه- يعنى أن تمتلك إسرائيل قدرة على ابتزاز العالم العربى كله سياسيا. ومن هنا فقط نستطيع أن نفهم إصرار إسرائيل على تدمير المفاعل النووى السلمى العراقى فى يونيو ١٩٨١، رغم فشلها فى محاولتها الأولى لتدميره فى سبتمبر ١٩٧٩. وبقاء الجانب العربى مجرد من «التوازن» مع إسرائيل فى هذا المجال. يمكن إسرائيل من استخدامه بالفعل كرادع نفسى وسياسى يضعف تماما القدرة العربية على الصمود أمام محاولة إسرائيل فرض «السلام الإسرائيلى» على المنطقة.

رابعا : حلف عسكرى بزعامة إسرائيل

مع مطلع عام ١٩٧٩ بدأت تتردد اقتراحات تجريبية عن الحاجة إلى استخدام وسيلة حديثة لضمان المصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط. وتصاعدت تلك الاقتراحات مع زيارة وزير الدفاع الأمريكى لبعض دول المنطقة، ولإسرائيل، فى فبراير من تلك السنة. وفى نفس

(١) جريدة «بوسطن جلوب» ٣١ / ٧ / ١٩٧٥ - «الواشنطن بوست» ١٥ / ٣ / ١٩٧٦ - «النيويورك تايمز» ١٦ / ٣ / ١٩٧٦.

الوقت صرح السناتور «هنرى جاكسون» الذى اعتبر طويلا صوت إسرائيل الأول فى مجلس الشيوخ. مطالبا بضرورة قيام حلف عسكرى فى منطقة الشرق الأوسط يتكون من الولايات المتحدة وإسرائيل ومصر والمملكة العربية السعودية.

وفى مقال كتبه إسحاق رابين رئيس وزراء إسرائيل الأسبق فى صحيفة «جويش كرونيكل» البريطانية فى ٢٦ يناير سنة ١٩٧٩ كتب بصراحة : «إنه يجب إبرام معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية على وجه السرعة من أجل إقامة جبهة إسرائيلية مصرية مشتركة موالية للغرب» . وقبل ذلك كتبت صحيفة «يديعوت احرونوت» الإسرائيلية فى ١٤ ديسمبر سنة ١٩٧٨ تقول : «إن مصر الآن فى حاجة إلى عقد حلف عسكرى مع إسرائيل. لكى تتمكن مصر من حماية منابع النيل ضد الخطر السوفيتى»

والواقع أن تلك الفكرة كانت تعكس تصورا إسرائيليا محددا. كانت قد أشارت إليه وكتبت عنه من واشنطن بالتفصيل فى مقال لى بجريدة «الأخبار» القاهرية فى ٤ أغسطس سنة ١٩٧٨ تحت عنوان «السلام على الطريقة الإسرائيلية» : العقل من إسرائيل. والمال من السعودية. والأيدى العاملة الرخيصة من مصر. فيتكون حلف عسكرى فى الشرق الأوسط» !

والمفهوم الإسرائيلى فى هذا الاتجاه عبر عنه مقال أبرزته جريدة «النيويورك تايمز» الأمريكية فى ٣ يوليو ١٩٧٨. وكتبه «إدجار برونجمان» رئيس فرع أمريكا الشمالية للمؤتمر اليهودى العالمى. بعنوان «نحو منظمة دفاعية فى الشرق الأوسط» .

والكاتب اليهودى الصهيونى يبدأ بالتقرب من القارئ الأمريكى. فيقول : «إن الرغبة فى إبعاد الروس من منطقة الشرق الأوسط هى عامل موضوعى يجمع بين دول الشرق الأوسط (بما فيها إسرائيل).. ثم يجمع بينها وبين الولايات المتحدة. وتلك هى الحقيقة الرئيسية التى تغيب عن الجميع وسط الجمود الحالى (فى عملية السلام) بالشرق الأوسط.. إن مثل تلك الرغبة الجماعية (فى إبعاد الروس) هى التى ولدت بعد الحرب العالمية الثانية منظمة حلف شمال الأطلنطى. وهو معاهدة أمن مشترك تقوم على القوة العسكرية وإعادة البناء الإقليمى الذى يدل عليه مشروع مارشال. وفيما بعد تفتحت السوق الأوروبية المشتركة. وتلك العناصر أدت معا إلى نهضة أوروبا الغربية».

ثم ينتقل رئيس المؤتمر اليهودى العالمى لشمال أمريكا إلى فكرته الأساسية. فيقول : «أن هناك شيئا موازيا لذلك فى الشرق الأوسط. وهو منطقة رئيسية بالنسبة لمصالح الولايات المتحدة المعنوية والاقتصادية والاستراتيجية... إن الولايات المتحدة لديها التزام اخلاقى غير قابل للنقصان نحو إسرائيل.. إن لديها أيضا احتياجا متناقصا لمواد البترول العربية. والمطلوب الآن فى الشرق الاوسط هو شىء مشابه لحلف شمال الأطلنطى.. فالآن يمكن ربط الشرق الأوسط بمعاهدة مماثلة. ولنسمها منظمة الدفاع بالشرق الأوسط. ضد التهديدات الخارجية. والولايات المتحدة موجودة كشريك كامل».

ويواصل الكاتب الترويج للفكرة فيقول : «من الذى يشترك فى هذا المشروع ؟ إنهم : إسرائيل. ومصر. والسعودية. والأردن. ودولة الإمارات العربية. والكويت. والبحرين، وعمان. وقطر. وربما المغرب، وإيران. والسودان».

إن أحد أهداف الحلف سوف تكون. طبعا. هى إبعاد الروس عن الشرق الأوسط. ولكن ما هى أهدافه بالنسبة للمنطقة نفسها ؟ يرد رئيس المؤتمر اليهودى العالمى لأمريكا الشمالية فى مقاله قائلا : «فقط. فكروا فيما يحدث لو جمعنا معا : البراعة الإسرائيلية.. والأموال السعودية.. والأيدى العاملة المصرية» .

تلك إذن هى الفكرة الأساسية. فبعد أن يضم الكاتب الصهيونى معظم دول الجامعة العربية (التى لن يكون لها وجود فى تلك الحالة بالطبع) مضيفا إليها إسرائيل وإيران (قبل سقوط الشاه) فإن فكرته الأساسية هى : هناك تخلف عقلى تعانى منه كل من السعودية ومصر، بحيث إن كلا منهما لن يشفيه من هذا المرض إلا «البراعة» الإسرائيلية القادمة فى الطريق. إنها نفس الفكرة التى أعلنها مناحم بيجن رئيس وزراء إسرائيل بالكنيست فى مواجهة السادات من قبل. عندما تحدث عن الزواج بين «العبقرية اليهودية والأموال العربية».

مع ذلك فإن الكاتب الصهيونى لم ينته بعد من شرح كل «مزايا» فكرته. فهناك مزايا أخرى جانبية. هناك مزايا بالنسبة للعرب. ثم بالنسبة لإسرائيل. وهكذا يواصل ترويج فكرته أمام القارئ الأمريكى فيقول : «إن العالم الإسلامى المعتدل يستطيع ـ بهذا التحالف الجديد الذى سيحقق السلام ـ أن يجتاز توتراته الداخلية من أجل المنفعة المشتركة...

ثم هناك مزايا أخرى فى المدى القصير... مثلا وجود قاعدة عسكرية للحلف الجديد فى الضفة الغربية لنهر الأردن. وهى على بعد تسعة أميال فقط من البحر الأبيض. يمكن أن يسهل اتفاق الإسرائيليين والعرب.. وبنفس المعيار. فإن وجود قاعدة عسكرية للحلف الجديد تحل محل القاعدة الجوية الإسرائيلية الحالية فى سيناء يمكن أن يقضى أيضا على الشكوك الإسرائيلية المصرية» .

هكذا إذن. فى رأى رئيس المؤتمر اليهودى العالمى لشمال أمريكا. يخرج الجميع سعداء: إسرائيل سعيدة بالأرض بعد وضع علم أمريكى عليها. ومصر سعيدة بتشغيل وتأجير أيديها العاملة الرخيصة. والسعودية سعيدة بإزاحة هموم استثمار أموالها من صدرها. والولايات المتحدة سعيدة بقواعدها العسكرية الجديدة التى أصبحت متاحة لها على الأرض العربية.. وبالذات فى سيناء والضفة الغربية!.

ومرة أخرى لم تكن تلك الفكرة إلا عرضا جديدا لفكرة قديمة كانت إسرائيل تسعى إليها من البداية. فقبل هذا العرض الجديد بأربعة عشر عاما. طرح إيجال آلون نائب رئيس وزراء إسرائيل الأسبق فى كتابه«الصراع العربى الإسرائيلى» فكرة تقوم على «تكوين رابطة كومنولث إقليمية للتعاون الاقتصادى والسياسى والعلمى والثقافى. والتعاون فى مجال الأمن. تضم جميع دول المنطقة أو معظمها» .

وهى أيضا نفس الأفكار التى روج لها وزير الخارجية الأمريكى الأسبق فى منتصف السبعينيات فى «قمة الهجوم السياسى الأمريكى الذى قاده فى ذلك الحين» على حد تعبير المصادر الإسرائيلية[1] أثناء تفاوضه مع السادات. حيث إن كيسنجر «هو الذى أدى إلى انتقال مصر من الصيغة السوفيتية إلى الصيغة الغربية» . فمن أجل الترويج لمثل هذا الحلف. بدأت إسرائيل تروج لفكرة أن الإخطار السوفيتية تتزايد فى الشرق الأوسط. وخصوصا فى اثيوبيا واليمن الجنوبية و « .. فى الخليج الفارسى انتهى المعقل الهام الموالى للأمريكيين فى إيران. وفى شمال الشرق الأوسط. بتركيا. هناك أزمة اقتصادية صعبة وعدم استقرار. إن الولايات المتحدة تحاول أن تعمل على استقرار قلب الشرق الأوسط. كما تخلق فى هذه المنطقة حلفا مستقرا مواليا لها».

(١) جريدة "عل همشمار" الإسرائيلية ١٩٧٩/٢/١٤

وكان السـادات قد أعلن فى سنة ١٩٨١ . قبل شـهور قليلة من اغتياله . بأنه ربما يفكر فى إدخـال مصر فـى عضوية حلف شمال الأطلنطى. ولعله كان يجـس النبض نحو الفكرة الأصلية عندما ذكر ذلك. لأنه إزاء رد الفعل المضاد لفكرته . تراجع عنها فيما بعد. فلقد جاءت تصريحات السادات تلك فى أعقاب جولة قام بها ألكسندر هيج وزير الخارجية الأمريكى وقتها (وأحد أكبر أنصار إسرائيل داخل إدارة ريجان. إلى أن تمت أقالته) ساعيا إلى ترويج فكرة التوصل إلى إجماع اسـتراتيجى بين إسـرائيل ومصر والسـعودية وبعض دول المنطقة. إجماع . يتفق على أن الخطر الأول فى الشـرق الأوسط هو النفوذ السوفيتى وليس الصراع العربى الإسرائيلى واحتلال إسرائيل للأراضى العربية) وأنه فى سـبيل مواجهة هذا الخطر سـتقوم الولايات المتحدة بتعبئة ومساعدة أنصارها وأصدقائها بالشرق الاوسط.

وعلى أية حال فإنه. سـواء كانت التسـمية هى «حلف ثلاثى» .. أو «منظمة دفاعية للشرق الأوسط» .. أو «كومنولث إقليمى» .. أو «عضوية فى حلف الاطلنطى» .. أو «إجماع استراتيجى» .. فإن الهدف الإسرائيلى يظل قائما وواضحا فى جميع الحالات، وهو جرجرة مصر والسعودية علـى وجه الخصوص إلى مكان آخر واهتمامات أخـرى، وانفصال مصر عن العالم العربى، وعن قضيتها القومية. وعزل البترول العربى عن القضية الفلسطينية. إن لم يكن ما هو أبعد مدى.

ج- المضمون الاقتصادى للأمن و «السلام الإسرائيلى»

لم يكن مناحم بيجن يتكلم من فراغ عندما قال فى مواجهة السـادات إبان وجود الأخير فى الكنيست الإسرائيلى : إن منطقة الشرق الأوسط سوف تتحول جنة لو تحقق التعاون الكامل بين العبقرية اليهودية ورأس المال العربى.

وبصرف النظر عن المضمون السياسى لتلك النظرة التى تمجد الذات وتحقر الآخرين. فإن هذا التصور يمثل تطبيق مفهوم «حارة اليهود» على نطاق أوسـع وأكثر شمولا بمنطقة الشـرق الأوسط. إن إسرائيل. وقد أصبحت دولة. إنما أصبحت فى نفس الوقت هى «حارة اليهود» فى المنطقة. بحيث تسعى إلى أن تنام ليلا فى «حارة اليهود» الخاصة بها. ثم تنطلق صباحا لتمسك فى يدها بمفاتيح السيطرة الاقتصادية على العالم العربى. وهو جوهر الطموح الإسرائيلى لمرحلة ما بعد الحرب. أو مرحلة «السلام الإسرائيلى».

فحتى قيام إســرائيل كدولة فى سنة ١٩٤٨، كان يهود مصر مثلا يشكلون أقل من نصف فى المائة من الســكان. ومع ذلـك فإن الرأسماليين اليهود كانوا يســاهمون فى إدارة وتوجيه ١٠٣ شــركات من بين مجموع ٣٠٨ شــركات مصرية. وبالإضافة إلى ذلك فإن ثلث الأراضى المصرية كانت مرهونة فى البنوك العقارية المملوكة لليهود. وكذلك كان النشــاط اليهودى فى البورصة يحتل ٩٨ ٪ منه، وكان عدد كبير من شركات الأراضى الزراعية التى تمتلك الأراضى وتســتغلها وتضــارب فيها مملوكة ليهود. وكانت ضاحية المعــادى فى القاهرة. وسموحة فى الإسكندرية، مملوكة لليهود.

وبالطبــع فــإن وجه الخطورة هنا لا يكمن فى حقيقة كون المســيطرين مجرد يهود. ولكن فى حقيقة أن التصور الإسرائيلى يجعل لتلك السيطرة أهدافا سياسية. وليست مجرد أهداف اقتصادية.

وقــد رأينا مــن قبل، كيف أن إســرائيل، من قبل حتى أن تبدأ مع الســادات مفاوضات للســلام والصلح، كانت قد أعدت دراسات فعلية عن اســتراتيجيتها الاقتصادية فى مصر فى مرحلة ما بعد الســلام. وبدأت تعد العدة لمواجهة الآثار الجانبية التى يمكن أن تنشــأ عن تلك الاستراتيجية. فرئيس اتحاد الصناعات الإسرائيلية مثلا بدأ يتحدث عن إغراء استئجار الأيدى العاملــة الرخيصة من مصر، ويقول إن الحدود المفتوحة أمام العمال المصريين ســتمد الاقتصاد الإســرائيلى بحاجته إلى عدد كبير من العمال غير المؤهلين اللازمين لرصف الطرق! وعقد فى إســرائيل مؤتمر اقتصادى لبحث التحديات والمزايا بعد السلام، وهو مؤتمر أطلق عليه «عندما يحل الســلام» وكان يرى أن نجاح إســرائيل الاقتصادى فى مصر يرتبط بأن يتم نشر مراجع تعليميــة وثقافية مصرية جديدة «تجتث الاتجاه المعادى لإســرائيل والصهيونية فى مصر من جذوره»!

فى نفس الوقت صرح المســئولون فى بنك «ليومى إســرائيل» بأن الاحتمال الأكبر فى ظل الســلام هو أن تصبح إســرائيل هى المركز المالى الدولى فى منطقة الشرق الأوسط بأسرها. وعلى حد تعبيرهم فإن «رؤوس الأموال الأجنبية واليهودية التى ظلت حتى الآن محجمة عن استثمار أموالها فى الاقتصاد الإســرائيلى ســتندفع الآن إلى إسرائيل. والمليونيرات اليهود الذين اكتفوا

حتـى الآن بالتبرع لإسـرائيل مـن دخلهم فى الولايات المتحدة سـوف يتجهون بكل قوة إلى الاستثمار المباشر» .

وقد حدث فى نفس اليوم الذى اجتمعت فيه وفود مصر وإسـرائيل والولايات المتحدة فى كامـب ديفيد أن اجتمع فـى القدس عدد من المتخصصين فى معهد ترومـان التابع للجامعة العبرية . لدراسة الأهداف الإسرائيلية من التغلغل الاقتصادى فى مصر نتيجة لمعاهدة الصلح.[1]

ولقـد جـرى التركيز على خطورة «عنق الزجاجة» الاقتصادى الذى تمر به مصر. وان اجتياز عنق الزجاجة هذا يحتاج إلى أربعة مليارات من الدولارات سـنويا لكى «تسـتطيع مصر فقط أن تطفو فوق سطح الماء» . وحيث إن إسرائيل أصبحت لها مصلحة فى ترجيح كفة السادات فى مصر ضد خصومه. فإن الضرورة تفرض تعبئة جماعات الضغط اليهودى فى الولايات المتحدة من أجل هذا الهدف.

ولكن. وهنا يتم تناول المسألة بشكل محدد. لابد من أن يكون أساس العلاقة الأمريكية المصرية هو أن تشترط الولايات المتحدة وجود مشروعات إسرائيلية مصرية مشتركة حتى يستطيع رأس المال الامريكـى التقدم لتمويلها – على حد توصية المؤتمر اليهودى العالمى بالقدس فى يناير ١٩٨١. من هنـا يصبـح مفهوما اتجاه الضغط الصهيونى فى الولايات المتحـدة وحدوده. فهو ليس ضغطا على الولايات المتحدة لتقديم رؤوس أموال إلى مصر. وإنما هو فى الواقع اسـتخدام لرأس المال الأمريكى فى الضغط على مصر للدخول فى مشـروعات مشـتركة مع إسـرائيل. وأن يكون هذا مفهوما على أساس أنه جزء من عملية «تطبيع العلاقات» التى نصت عليها إسرائيل فى معاهدتها مع السادات.

فى نفس الوقت. قام الهسـتدروت اتحاد العمال الإسـرائيلى بدراسـة مجالات التغلغل الإسـرائيلى المكنة فـى الاقتصاد المصرى. وكان من بين المجـالات التى أوصى بها. مجال البترول. وقيام إسرائيل باستيراد سلع من بينها البرتقال المصرى لتصنيعه وإنتاج مركزات منه فى إسرائيل وتصديرها إلى الخارج. كنموذج لعلاقات مماثلة.. الخ.

بكلمات أخرى. تتفق كل الدراسات الإسرائيلية على نقطة أساسية : إن العلاقة الاقتصادية يجب أن يكون أساسـها هو أن مصر تقدم المواد الخام. وإسـرائيل هى التى تقوم بتصنيعها وتصديرها إلى الأسواق الخارجية !

---

(١) جريدة "عل همشمار" الإسرائيلية – ١٩٧٩/٢/٢٣

ومرة أخرى هو مفهوم «العبقرية اليهودية» مع «التخلف العربى» !

مـن ناحيـة أخرى. تمثل تجربة إسـرائيل فى «الحدود المفتوحة» مع لبنـان أثناء الغزو العسـكرى فى يونيو ١٩٨٢ مثلا واضحا. فطبقا لتصريحات المسـئولين الإسرائيليين أنفسهم. فإن البضائع التى سربتها إسرائيل إلى السوق اللبنانية خلال شهر واحد من الغزو فاقت قيمتها ما سربته إلى السوق المصرية خلال سنة كاملة.

ومن قبل. طبقت إسرائيل مسألة «الحدود المفتوحة تلك فى الضفة الغربية المحتلة منذ يونيو ١٩٦٧. واسـتخدمت إسـرائيل تلك التجربة لاستكشاف احتمالات التسـلل إلى السوق العربية الضخمة لاستهلاك منتجاتها على أساس أنها من إنتاج الأراضى العربية المحتلة نفسها.

وطبقا لمفهوم «السـلام الإسـرائيلى» فإن ما تطمح إليه إسـرائيل هو أن تكون هى الوسيط الاقتصادى بين الصناعات الأمريكية والأوروبية من ناحية. وبين السـوق العربية الاستهلاكية مـن ناحية أخرى. خصوصا على ضوء العلاقة مع الولايات المتحدة. وأيضا علاقة إسـرائيل المبكرة مع السـوق الأوروبية المشـتركة. ولذلك فإن فى مقدمة جدول الطلبات الإسرائيلية فى ظل اية اتفاقيات سلام. الإصرار على إلغاء المقاطعة الاقتصادية العربية. وهو مكسب أول. ثم فتح السوق التجارية العربية والنص على إقامة مشروعات مشتركة. وهو مكسب ثانى ايجابى.

وقد حدث. بمجرد توقيع اتفاقيتى كامب ديفيد بين إسـرائيل والولايات المتحدة والسادات. أن بدأت الأصوات اليهودية فى مجلس الشيوخ الأمريكى تدعو إلى تلك المشروعات الاقتصادية المشتركة بين إسرائيل ومصر باعتبارها أحد «الضمانات الأساسية للسلام» . وكما سبق القول. فإنها مشروعات يمكن أن تكون صبغتها هى: رأسمال أمريكى. وإدارة إسرائيلية. وأيدى عاملة مصرية رخيصة.

وفى السنوات الأولى من «السلام الإسرائيلى» قد يقتصر طموح إسرائيل على الدخول فى تلك المشـروعات مع وفى الدول العربية التى تقبل هذا السـلام. وذلك حتى يمكن للسـوق العربية أن تستوعب منتجاتها تحت لافتة الشريك العربى. ولكن الطموح النهائى فى المدى الطويل هو أن يكون نمط العلاقة الاقتصادية هو : منتج إسرائيلى.. ومستهلك عربى.

ومثلمـا ترى إسـرائيل بضرورة وجود «مجال حيوى» لتفوقها العسـكرى الـرادع فى المنطقة العربية. كذلك فإنها تطمح إلى وجود «مجال حيوى» لها بالمعنى الاقتصادى فى العالم العربى.

المجال الحيوى : نتيجة نهائية «للسلام الإسرائيلى»

تعبير «المجال الحيوى» استخدمه الزعيم النازى الألمانى أدولف هتلر فى العشرينات. ومارسه بالفعل بالغزو العسكرى فى الثلاثينات والنصف الأول من الأربعينيات فى محاولة لتبرير حاجة ألمانيا إلى مناطق نفوذ تسيطر عليها سياسيا وعسكريا واقتصاديا. تحقيقا لشعاره العنصرى العصرى «ألمانيا.. فوق الجميع» .

وإسرائيل تصر. عسكريا. على حاجتها لوجود مجال حيوى بحجة حاجتها للأمن ضد الدول العربية. وبمقتضى هذا المفهوم العسكرى للأمن الإسرائيلى. يصبح على مصر أن تنزع سلاح سيناء. وعلى لبنان أن تفرغ جنوبها من السكان المسلمين محتفظة فيه بالمارونيين فقط. وعلى الأردن ألا تسعى إلى أمن مشترك مع أية دولة عربية أخرى. بل حتى عليها ألا تحصل على صواريخ متحركة للدفاع الجوى عن نفسها. وعلى السعودية أن تحتفظ بطائراتها المقاتلة فى حدودها الشرقية مع الخليج وليس فى حدودها الشمالية. وعلى العراق ألا يفكر فى الحصول على معرفة علمية متطورة... فكل هذا تعتبره خطرا مباشرا على أمنها يستدعى من إسرائيل أن تشن الحرب.

وإسرائيل تريد سياسيا أن تبتعد الدول العربية عن بعضها البعض وتتناقض كل منا مع الأخرى. وألا تساند القضية الفلسطينية وأن تلغى مصر عمليا اتفاقية الدفاع العربى المشترك وأن تتحول الجامعة العربية إلى منظمة للتحالف الإقليمى تضم إسرائيل وتتحول كل أقلية دينية إلى أقلية سياسية متحالفة مع دولة أجنبية.

وإسرائيل تريد اقتصاديا أن تفتح كل دولة عربية سوقها أمام منتجاتها وأن تلتزم بالدخول مع إسرائيل فى مشروعات مشتركة لا يأتى رأس المال الأجنبى إلا عن طريقها... الخ.

وفوق هذا كله فإسرائيل تشترط من كل دولة عربية تريد سلاما معها. أو حتى تتفاوض. أن تمنع من إعلامها أية رؤية انتقادية للسياسات الإسرائيلية بحجة أن ذلك يمثل روحا معادية ضد أهداف إسرائيل (كما أعلن مناحم بيجن فعلا فى خطابه بالكنيست الإسرائيلى. يناير ١٩٧٨. كشرط لإعادة وفده العسكرى ـ وكما فعل بعد ذلك مرارا فى

طلباته من الســادات ضد من يعتبرهم بيجن معادين للسياســة الإسرائيلية) وتصر إسرائيل أيضا فى أى اتفاق ســلام على أن يتم تعديل المناهج التعليمية والبرامج الثقافية العربية بما ينفى تماما أى تناول للأهداف الإســرائيلية وللتاريخ الصهيونى تعتبره إسرائيل من جانبها تناولا «عدوانيا» .

والقبول بكل هذا هو قبول بـ «الســلام الإسرائيلى» . وهو قبول يتم تحت تهديد القوة العسكرية الرادعة. والتى تحرص الآن على وضع كل العواصم العربية فى مرمى نيرانها.

وحينما قال مناحم بيجن رئيس وزراء إسرائيل فى أغسطس ١٩٧٨ مشيرا إلى مفاوضاته مع الســادات : «لا أحد يستطيع أن يحصل على أى شىء مقابل لا شىء» فإنه كان يعنى بالفعل أن الأرض العربية هى رهينة لدى إســرائيل تريد مقابلها تنازلات إقليمية وسياسية واقتصادية. لأن هناك ثمنا لكل شــىء. طالمــا يأتى إليها الطرف العربى بعد أن اختار أن يتخلى عن ســلاحه ويستســلم لمجرى المفاوضات. نفس الشىء حدث وسيحدث كلما فكر العرب فى التفاوض بغير حلول بديلة يملكونها إذا فشل هذا التفاوض.

ورغم زوال خطر الحرب نهائيا من الجانب العربى ضد إسرائيل. ولو فى سبيل استعادة الأراضــى العربية المحتلة. فإن إســرائيل ســعت إلى الحصول على الصواريخ «بيرشــنج» والطائرات «أف - ١٦» و «أف -١٥» التى تنقل خطرها العســكرى إلى كل عاصمة عربية. وفى اللحظة التى كانت إســرائيل تحصل على معاهدة للصلح مع أكبر دولة عربية. وقعها معها الســادات. فإنها كانت تبدأ فى تنفيذ أكبر خطة عرفتها لمضاعفة قوتها العســكرية الرادعة - خطة وصلت تكاليفها إلى ثلاثة عشر بليون دولار.

إن من المدهش أن نرى تزايد الإنفاق العسكرى الإسرائيلى إلى هذا المستوى. فى الوقت الــذى بلغت فيه ديون إســرائيل الخارجية ما يتجــاوز ١٨ بليون دولار. وبلغ فيه نصيب الفــرد الواحــد من تلك الديون ٣٨١٨ دولارا. وســيرتفع فى مطلــع ١٩٨٤ مرة أخرى إلى ٥٢٦٨ دولارا. وإســرائيل تفعل كل هذا. مرة أخرى. برغم اضطرارها المســتمر لتخفيض قيمة عملتها. فالجنيه الإســرائيلى الذى كان يعادل أربعة دولارات عند قيام إســرائيل فى سنة ١٩٤٨ أصبح يساوى الآن مجرد أربعة سنتات. والمواطن الإسرائيلى يتحمل واحدا من

أعلى معدلات الضرائب فى العالم. وتشكل الضرائب التى يسددها نحو سبعين فى المائة من ميزانية الدولة (مقابل ٤٣٪ فى الولايات المتحدة مثلا).

وحينما تخصص إسرائيل ثلث ميزانيتها للإنفاق العسكرى. فإن هذا من أجل «الاحتفاظ بفرصة تحقيق نصر عسكرى واضح فى أى حرب جديدة خلال وقت معقول على حد تعبير رئيس أركان الجيش الإسرائيلى.

ولأن «السلام الإسرائيلى» هو مثل «الحرب الإسرائيلية» يمثل خطرا لا يقتصر على دولة عربية دون أخرى. ولأنه يمثل خطرا جماعيا مشتركا بالنسبة للعرب. فلابد لمواجهته. أو احتوائه على الأقل. من مجهود مشترك. ذلك لأن الأمن الإسرائيلى يعنى فى جوهره «عدم الأمن العربى» .

□□□□

"إن العرب قد يحتقروننا، أو يكرهوننا، أو يشمئزون وينفرون منا، ولكنهم تعلموا أنهم إذا أرادوا الحصول على تسوية.. فعليهم أن يأتوا إلينا، فلا أحد آخر يستطيع أن يعطيها لهم... فمن الناحية الاستراتيجية، يدنا قوية جدا إذا عرفنا كيف نلعب بها."

هنرى كيسنجر

٢٤ أكتوبر ١٩٧٣

الفصل الخامس

حالة للتأمل

قراءة فى مذكرات كيسنجر

كمـــا يحدث فى كل صراع دامى. يتبلور كل شــىء أحيانــا فى لحظات. ولحظات مضادة تعبر عن مغزى الصراع كله.

والاســتدارة الحادة فى الصراع العربى الإسرائيلى لا يمكن الحديث عنها إلا بالحديث عن هنرى كيســنجر. فلقد جاء الدور الذى لعبه كيســنجر فى الصــراع مفاجئا. وعاصفا. وملتويــا. بحيث إنه أولا كان منظورا لكل مــن يريد أن يرى. وممكنا إجهاضه تماما لكل من يملك الإرادة والإيمان بقضية بلدة وقوميته.

ولان هذا لم يحدث. فإن الغزو العســكرى الخاطف الذى قامت به إســرائيل فى يونيو ١٩٦٧. لم يكن ليحقق نتائجه السياسية مطلقا إلا بالسماح بالغزو السياسى الخاطف الذى قام به كيسنجر فى أكثر اللحظات حسما: حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣.

لم تكن الحرب وليدة لحظتها. فيوما بعد يوم. وساعة بعد ساعة. وشهيدا بعد شهيد. جــرت عملية إعادة بناء القوات المســلحة المصرية من الأنقــاض فى يونيو ١٩٦٧. لقد كان الهدف واضحا من البداية «فما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة» .. ولكن الأمر عندما تم فى النهاية كان أقرب إلى المعجزة. فالقوات المســلحة المصرية تم بناؤها تحت النيران. إنها لم تلتقط أنفاســها لتستريح. ولا كان الطريق معبدا أمامها لتتقدم. ولا السماء مفتوحة لتحلق. لقد كانت هناك عقبة فى كل لحظة.. وتضحيات فى كل دقيقة.. وغارة جوية معادية فى كل يوم.. ولكن كان هناك أيضا هدف واضح من البداية: تحرير سيناء بقوة السلاح.

لم تكن المســألة هى مجرد أرض ســيناء. ولكن استعادة الأرض مرتبط أشد الارتباط بوسيلة استعادتها. فكما أصبح معروفا الآن من الوثائق المنشورة. فإن مصر تلقت عروضا محددة باستعادة ســيناء. وأول عرض مبكر قدمته الولايات المتحــدة رسميا فى نوفمبر ١٩٦٨. نعم. فلتأخذ مصر ســيناء بغير نقطة دمــاء واحدة تريقها. ولكن بثمن آخر تدفعه هــو : قبولها الصلح المنفرد مع إســرائيل. ليس حتى الصلح المنفرد القائم على معاهدة ســلام تعاقدية. ولكن مجرد إنهاء حالة الحرب مع إسرائيل وترك الدول العربية الأخرى وحدها فى الساحة لا شأن لمصر بها.

وبالطبع رفضت مصر العرض فورا لأســباب عديدة. الســبب الأول منها هو أن الصلح المنفرد معناه نســف نهائى لجوهر أمن مصر واســتقلالها. ولأن مصر رفضت أن تدفع هذا

الثمن السياســى الفادح من البداية. فلم يكن أمامها ســوى أن تســتعد لكى تحارب. فى الواقع. إن مصر كانت تستعد وتحارب فى نفس الوقت.. وهذا ما جعل المجهود المطلوب خارقا.

لقد أعلنت مصر حرب الاســتنزاف ضد الاحتلال الإســرائيلى. وهى التى تعتبر عمليا الحرب الرابعة بين مصر وإسرائيل. وفى نفس الوقت. مع تطور القوة المسلحة المصرية يوما بيوم. تم التدريب على خطة عبور قناة السويس ـ فى تسع تجارب عملية على فرع دمياط من نهر النيل ـ وذلك فى سنتى ١٩٦٩ و ١٩٧٠. وكانت اللمسة الأخيرة فى الأعداد لحرب أكتوبر هى بناء «حائط الصواريخ» الشــهير بطول قناة الســويس. وهو الشــبكة الصاروخية الضخمــة التــى نجحت مصر فى إتمــام بنائها فى تمام الســاعة الواحدة مــن صباح يوم ٨ أغسطس سنة ١٩٧٠. فمنذ تلك اللحظة. أصبح ممكنا فى النهاية توفير الحماية الفعالة. -ضد تفوق إسرائيل فى الجو- للقوات المصرية التى ستعبر قناة السويس لتحرير سيناء.

وكان الموقف السياسى يتلخص فيما يلى :

إســرائيل أفلتــت من يديها فرصــة الضغط على مصر للدخول معهــا فى صلح منفرد. باعتباره المقدمة الضرورية لفرض الاستســلام على العالم العربى. وقد جربت إســرائيل كل ما تســتطيعه عســكريا. من ضرب فى العمق إلى الغارات على الأهداف المدنية إلى أكثر من ٧٥ غــارة بطائرات الفانتوم يوميا وآلاف الأطنــان من القنابل لمنع مصر بأى ثمن من إقامة حائط الصواريخ فى جبهة القناة. وفشــل هذا كله. وأصابت حرب الاستنزاف إسرائيل فى مرحلتها الأخيرة بخسائر فادحة جعلت وزير خارجية إسرائيل (أبا أيبان) يبلغ الولايات المتحدة بأن «سلاح الطيران الإسرائيلى قد بدأ يتآكل» . من هنا كانت إسرائيل تلهث وهى تستغيث أخيرا بوقف إطلاق النار. ومدير الإمدادات الإسرائيلية يقول علنا إن هذه هى أول حرب تهزم فيها الدولة الإسرائيلية.

والولايــات المتحدة رأت أن الموقف فى المنطقة يفلت مــن يديها تماما. فالعداء العربى لسياستها يتزايد يوما بعد يوم. والدعم السوفيتى لمصر وصل فى مستواه إلى أبعاد خطيرة. تضمنت وجود قوة قتالية لأول مرة فى العمق المصرى. واستمرار الموقف على هذا النحو فيه

خطـورة أكيدة على المصالح الأمريكية بالمنطقــة. ومن هنا تقدمت الولايات المتحدة بمبادرة روجرز التى تســتجيب أساســا للمطلب العربى بانسحاب إسرائيل إلى حدود يونيو ١٩٦٧ على جميع الجبهات. والتمهيد لذلك بوقف إطلاق النار لمدة ثلاثة شهور.

ومصر أصبحت تستطيع أن تسترد أنفاسها أخيرا لخمس دقائق. قبل أن تحسم أمرها. فإما أن تؤدى المبادرة الأمريكية فعلا إلى تسوية سلمية تعيد إسرائيل إلى حدود ١٩٦٧ على الجبهات المصرية والســورية والأردنية.. وإما أن يبدأ التلاعب بعد وقف إطلاق النار. وهو الاحتمــال الــذى كان مرجحا لدى جمال عبد الناصر. وفى هــذه الحالة لن تكون مصر قد خسرت شيئا بإتاحة مجرد ثلاثة شهور فقط كفرصة لاختبار مدى جدية المبادرة الأمريكية. وإنما تكون قد كسبت عسكريا وسياسيا. وبالتالى فإن الخطوة التالية مباشرة هى عبور قناة السويس لتحرير سيناء بالقوة ـ الأمر الذى تم فى النهاية جزئيا فى ٦ أكتوبر ١٩٧٣.

والاتحــاد الســوفيتى كان يدعم المطلب العربى الأساســى باســتعادة الأراضى المحتلة منــذ ١٩٦٧. وكان هذا الدعم سياســيا فــى مواجهة الولايات المتحدة. وعســكريا بإمداد مصر وســوريا بالســلاح فى مواجهة إسرائيل. ولم يكن الاتحاد السوفيتى يفضل اللجوء إلى الحرب.. حيثما ترك له العرب فرصة الاختيار. ولكن. كما أثبتت حرب الاستنزاف وبعد ذلك حرب أكتوبر. لم يكن أمامه مفر إذا بدأ الطرف العربى الحرب فعلا.. ســوى أن يمد العرب بالمزيد من السلاح.

فــى تلــك الفترة كانت ظروف عديدة تدفع بهنرى كيســنجر إلى بؤرة الأحداث. بحيث إنه عندما بدأت حرب أكتوبر. كان قد مضت عليه أسابيع قليلة فى منصبه الجديد كوزير للخارجية.

كان كيســنجر من البداية مستشــارا للرئيس الأمريكى للأمن القومى. جاء به ريتشارد نيكسون عندما تولى رئاسة الولايات المتحدة فى يناير ١٩٦٩. ولأسباب عديدة كانت وظيفة كيســنجر كمستشار تجعله بعيدا عن صياغة السياســة الأمريكية فى الشرق الأوسط. برغم تلهفه على هذه المهمة بالذات.

إن كيســنجر لم يكــن مجــرد يهودى أمريكى فقــط. ولكنه يهــودى أمريكى متعصب لإســرائيل إلى أقصى حد. وطبقا لكلماته هو «فإن ارتباطى بإســرائيل من البداية هو ارتباط

عاطفى» و «معظم قادة إسرائيل كانوا أصدقاء شخصيين لى» .. ولكن «امن إسرائيل يمكن المحافظة عليه فى المدى الطويل عن طريق جعله مرتبطا بمصلحة استراتيجية الولايات المتحدة. وليس بالمشاعر الشخصية» .. إلى أخر الأفكار والتعهدات التى قطعها على نفسه من الصفحة الأولى فى مذكراته «سنوات البيت الأبيض» .. و «سنوات الاضطراب» .. وهما مجلدان يتجاوزان ٢٥٠٠ صفحة.

من تلك المذكرات نفسها سنرى ما ساهم به كيسنجر. وبكلماته هو. فى قلب الصراع الدامى. سنرى ذلك بوضوح. مع مراعاة حقيقة أولية. وهى أن كيسنجر لا يعتبر تلك المذكرات ختاما لحياته السياسية. فهو مازال يتطلع إلى أدوار أخرى.. وبالتالى مازال حريصا على حجب جزء من الحقائق التى يمكن أن تثبت عليه نهائيا ولائه لدولة أخرى غير الولايات المتحدة التى يحمل جنسيتها.

يقول كيسنجر إنه من البداية كان ضد مبادرة وليم روجرز. وزير الخارجية الأمريكى (١٩٦٩ - ١٩٧٣).. وعندما فشل فى عرقلتها لجأ إلى «حرب مؤخرة» ضدها داخل الإدارة الأمريكية.

وكان كيسنجر يصوغ اعتراضاته على نحو فريد يمكن أن يلائم عقلية واهتمامات الرئيس نيكسون. فالهدف النهائى لمبادرة روجرز هو التسوية الشاملة التى تتطلب انسحاب إسرائيل إلى حدود يونيو ١٩٦٧. والسياسة الأمريكية تخطئ بهذا التفكير لأنها بذلك تكافئ العرب «الراديكاليين» على تشددهم. وعلى حصولهم على الدعم العسكرى من الاتحاد السوفيتى.. ثم إنها تضعف الحليف الوحيد لأمريكا فى المنطقة. وهو إسرائيل.. وتقوى نفوذ السوفيت.

طبعا من البداية. يتضح مدى الخداع والتحايل فى منطق كيسنجر هذا. فإذا كان يعتبر جمال عبد الناصر فى مصر مثلا «للراديكاليين» فى العالم العربى. ومن ثم لا يجب السماح له مطلقا باستعادة سيناء. فماذا عن الملك حسين فى الأردن ؟

إن كيسنجر يقرر أن الملك حسين من البداية هو «أكثر القادة العرب اعتدالا فى المنطقة. وهو صديق مخلص للولايات المتحدة» .. وفضلا عن ذلك فإنه لم يستعن بالسلاح السوفيتى

مطلقا لاستعادة أراضيه. بل لم يحارب أصلا بعد يونيو ١٩٦٧. معتمدا على الدبلوماسية.. فلماذا إذن لم يحاول كيسنجر، طوال خمس سنوات ونصف قضاها في السلطة أن يساعد الملك حسين في أسعادة الضفة الغربية المحتلة ؟

لم يجب كيسنجر على هذا السؤال. لكنه أجاب على أسئلة أخرى.

إنه من البداية قرر في مذكرة قدمها إلى الرئيس نيكسون، أنه قبل أن تتحرك الولايات المتحدة نحو الحل الشامل في الشرق الأوسط. لابد من حدوث ثلاثة تطورات أساسية :

أولا: إسقاط جمال عبد الناصر في مصر.

ثانيا: طرد الوجود السوفيتي في مصر.

ثالثا: القضاء على القوة العسكرية للفدائيين (الفلسطينيين).

ومع مطلع عام ١٩٧٣ كانت التطورات الثلاثة قد وقعت جميعا. ومع ذلك لم يطالب كيسنجر في أية لحظة بتحرك أمريكي نحو الحل. لقد اختفى جمال عبد الناصر. ليس بالإسقاط ولكن بالوفاة الطبيعية. وأصبح في السلطة أنور السادات الذي خلفه. وبدأ بعرض مشروع لاتفاقية جزئية مع إسرائيل في فبراير ١٩٧١ وليس بالتسوية الشاملة.. ثم قام بالفعل بطرد الخبراء السوفييت من مصر في صيف ١٩٧٢. والفدائيون الفلسطينيون كانوا قد تلقوا ضربة مدمرة أخرجتهم من الأردن في شهر سبتمبر ١٩٧٠.

أكثر من ذلك. فإن السادات بدأ في إجراء اتصالات مع الولايات المتحدة، ومع كيسنجر نفسه كمستشار للأمن القومي. من خلال قناة اتصال نظمتها المخابرات منذ نهاية يوليو ١٩٧٢. وأوفد بالفعل مستشاره حافظ إسماعيل للاجتماع مع كيسنجر مرتين. في محاولة لاستكشاف إمكانيات التوصل إلى حل بمساعدة الولايات المتحدة.

وفي فبراير ١٩٧٣ طلب الرئيس نيكسون من هنري كيسنجر مذكرة بالنقاط التي يقترحها كموضوع للمقابلة الوشيكة التي تحددت لحافظ إسماعيل بواشنطن مع الرئيس الأمريكي.

وأراد كيسنجر أن يكون حذرا. فكتب مذكرة لرئيسه يقول فيها : إن مصر عليها أن تقدم تنازلات لإسرائيل إذا كانت تريد الحصول على تسوية. وفي مدى التسوية هناك ثلاثة اختيارات أمام الولايات المتحدة:

أولا : عدم التحرك. وترك الأمور على ما هى عليه.
وثانيا : التحرك سعيا لتحقيق اتفاقية مؤقتة تنسحب إسرائيل بمقتضاها من ٣٠ إلى ٤٠ كيلو مترا إلى الشـرق فى سيناء. مقابل قيام مصر بتطهير وفتح قناة السويس (وهو المشروع الذى كانت إسرائيل نفسها أعلنت استعدادها له قبل ثلاثة أشهر).
وثالثا : العمل للاتفاق على المبادئ العامة التى تحقق التسوية الشاملة.

وقد جاءت تأشـيرات نيكسون على تلك المذكرة موحية ومعبرة عن أفكاره. ففى البديل الأول كتب نيكسون إنه غير ممكن لأن معناه أن الولايات المتحدة سوف تفاجأ يوما بنشوب حرب (وهو ما حدث بعد ذلك فعلا). أما عن البديل الثانى فلم يعلق عليه نيكسون. أخيرا البديل الثالث كتب نيكسون عنه : إن هذا هو الطريق الصحيح للعمل.

مع ذلك. لم يحدث شىء.

لقد كان كيسـنجر فى الواقع يصوغ أفكاره فى كل مرة على نحو مختلف حتى يحقق الهدف الحقيقى. وفى هذه المرة كانت الصيغة التى يبلورها فى ذهنه هى : يجب أولا أن يصاب العرب باليأس الكامل.. قبل أن يحدث أى تحرك (أمريكى).

المهم.. بدلا من أن يأتى هذا اليأس الكامل.. جاءت الحرب المفاجئة.

والواضـح أن مصر كانت سـتبدأ الحرب قبلها بسـنتين. فلقد تقـرر أخيرا أن يتحرك الجيش المصرى إلى سيناء فى نوفمبر ١٩٧١. لكن السادات أصدر فى اللحظة الأخيرة قرارا بتأجيل الحرب بسبب نشوب حرب أخرى بين الهند والباكستان. وكما ذكر السادات بعد ذلك. فإنه قرر تأجيل الحرب لأنه أدرك أن الاتحاد السـوفيتى سيكون مشغولا تماما فيها بمساعدة الهند.

على أية حال. قامت الحرب فى النهاية. وهى جاءت مفاجأة بسـبب عوامل عديدة. منها أن السادات نفسه قد هدد بالحرب مرات عديدة علنا طوال السنوات الثلاثة السابقة. بما جعل تلك التهديدات فى النهاية لا تؤخذ بجدية كافية. لكن العامل الأكبر الذى جعل الحرب غير متوقعة. هو أن إسرائيل حصلت فى سنتى ١٩٧١ و ١٩٧٢ على صفقات سلاح جديدة من الولايات المتحدة. زادت من تفوقها العسكرى.

وهكذا، فعندما أيقظوا هنرى كيسنجر فى الثامنة (بتوقيت نيويورك) من صباح ٦ أكتوبر ١٩٧٣ لكى يبلغوه بمفاجأة نشوب الحرب. كان كيسنجر قد مضى عليه أسبوعان فى منصبه كوزير للخارجية. الذى تولاه إلى جانب كونه مستشارا للرئيس للأمن القومى.

كان كيسنجر فى نيويورك لحضور اجتماعات الدورة السنوية للأمم المتحدة. بينما كان نيكسون فى فلوريدا. وقد بدأت الاتصالات على الفور بين كبار المسئولين فى الإدارة الأمريكية. كما بدأ كيسنجر فى إجراء اتصالات تليفونية مع أبا أيبان وزير الخارجية الاسرائيلى. والدكتور محمد حسن الزيات وزير الخارجية المصرى. ومع نائب وزير الخارجية السورى.. وكلهم فى نيويورك.

فى نفس الوقت بدأت تجتمع فى واشنطن «مجموعة العمل الخاصة» التى تضم كبار المسئولين فى وزارتى الدفاع والخارجية ووكالة المخابرات المركزية وهيئة أركان حرب القوات المسلحة الأمريكية.

أما كيسنجر. الذى أسرع خلال ساعات قليلة بالعودة إلى واشنطن، فلم يكن منزعجا من النتيجة العسكرية المحتملة للحرب. فكل تقارير المخابرات عن توازن القوى فى المنطقة، متفقة على أن التفوق العسكرى الإسرائيلى سيجعل مصر وسوريا – وقد بدأتا بالحرب من جانبهما – تتعرضان فى هذه المرة إلى ضربة إسرائيلية خاطفة وأكثر إيلاما ووجيعة من ضربة يونيو ١٩٦٧. ولحظتها ستكون مصر وسوريا هما اللتان ستلجآن إلى الأمم المتحدة ومجلس الأمن مستغيثتان بوقف إطلاق النار.

ومن هنا فإن كيسنجر ركز اهتمامه على الموقف السياسى : «.. كانت أول قضية بعد نشوب الحرب تتعلق بالتكتيكات فى الأمم المتحدة. إننا لم نكن نريد (إجراء) مناقشة فى الجمعية العامة. فهذا يعنى مساندة دول عدم الانحياز للموقف العربى المتطرف. والسوفييت يتصرفون كمحامى للعرب. وحلفاؤنا الأوربيون مضطرون على الأقل إلى التزام الصمت المحرج. بينما الولايات المتحدة (تقف) وحدها معزولة. إن موقفنا (سيكون) أفضل فى مجلس الأمن بالرغم من أننا هناك أيضا سنواجه مشاكل» .

لم يشغل كيسنجر باله لحظة واحدة لحقيقة أن هذه الحرب المصرية السورية هى

لاستعادة أراضيهما التى احتلتها إسرائيل فعلا منذ ست سنوات. ولا لحقيقة أن هناك قرارا من مجلس الأمن يحمل رقم ٢٤٢ وصدر فى نوفمبر ١٩٦٧ ملزما لإسرائيل بالانسحاب. وبعدم جواز احتلال الأراضى بالقوة. ولا لحقيقة أن الولايات المتحدة تملصت دائما من وعدها فى البداية بالعمل على تنفيذه. ولا لحقيقة أن المجتمع الدولى كله. بما فيه حلفاء الولايات المتحدة فى أوروبا الغربية. يرى ضرورة انسحاب إسرائيل الكامل من الأراضى العربية المحتلة كشرط أولى للسلام.

يقول هنرى كيسنجر أن أول شىء فكر فيه بعد أن تلقى مفاجأة اندلاع الحرب هو مطالبة كل من مصر وسوريا بالعودة إلى مواقعهما.. قبل الحرب ! ولكى يتم ذلك أصبح لابد فى رأيه من التقدم إلى مجلس الأمن بمشروع قرار أمريكى سوفيتى مشترك. لأن مثل هذا القرار سوف : «.. يمنع موسكو من مضايقتنا بمشروعات قرارات من جانبها. وربما يؤدى إلى الفصل بين موسكو وبين أصدقائها العرب... فإذا وافق السوفيت (على تلك الفكرة) وأذعن العرب يمكن حينئذ احتواء الحرب. إن خسائرنا (السياسية) فى العالم العربى حينئذ سوف توازنها الخسائر التى ستلحق بالسوفيت. الذين سيتصورهم العالم العربى فى هذه الحالة. كما حدث فى سنة ١٩٧٢. باعتبارهم يعطون أولوية لعلاقاتهم مع واشنطن. فإذا رفض السوفيت فكرة القرار المشترك. كما هو محتمل. فإننا نكون قد كسبنا الوقت لصالح إسرائيل لكى تتولى هى إعادة الحال إلى ما كان عليه قبل الحرب بالوسائل العسكرية. وعند تلك النقطة نستطيع أن نقبل مجرد وقف بسيط لإطلاق النار كحل. ونصر فى حينها على عودة إسرائيل إلى خطوط ما قبل الحرب إذا كانت قد تجاوزتها. وبمجرد أن نوضح موقفنا المتوازن على هذا النحو. فإن هذا سوف يهدئ من حماسة حلفائنا الأوربيون الذين قد يغريهم الأمر باتخاذ موقف منحاز لطرف واحد» !.

هكذا اتصل كيسنجر فى الساعة التاسعة و ٣٥ دقيقة (بتوقيت نيويورك) صباح يوم ٦ أكتوبر بالسفير السوفيتى فى واشنطن دوبرينين حيث قد «.. حذرته من أنه لو تصرف السوفييت على نحو متجرد من الشعور بالمسئولية فلن يكون أمامنا سوى أن نترك الطبيعة تأخذ مجراها. أى ببساطة تنتظر الانتصار الإسرائيلى الحتمى».

إن إسرائيل المنتصرة. والعرب المنهزمون. هو حكم من الأحكام الطبيعية وقدر لا فكاك منه- هكذا يرى كيسنجر !

أما إذا رفض السوفييت الانضمام إلى كيسنجر فى محاولته تلك المعادية لمصر وسوريا. فإن هذا سوف يؤثر كثيرا على العلاقات بيننا «هكذا قام كيسنجر بتحذير السفير السوفيتى».

وحتى لا يتعلل السوفيت ببطء الاتصالات أو أية عوائق أخرى. فقد عرض كيسنجر على السفير السوفيتى أن يتيح له الخط الساخن فى البيت الأبيض. المتصل مباشرة بالكرملين. لإبلاغ رسالته.

وبسرعة مماثلة اتصل كيسنجر فورا بكورت فالدهايم السكرتير العام للأمم المتحدة لكى يبلغه بمعارضة الولايات المتحدة لأى مناقشة قد يحاولها العرب للأزمة فى الأمم المتحدة.

ثم.. زيادة فى التأكيد.. عاد كيسنجر يتصل من جديد بالسفير السوفيتى. لكى يزعم له بأنه سمع إشاعة تقول إن مصر تنوى التقدم بنداء إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة. فإذا كان هذا صحيحا فـ «.. إننا سنقاوم مثل هذا الاقتراح الفادح» وعلى موسكو «.. ألا تدمر كل شىء أمضينا ثلاث سنوات فى بنائه» بالنسبة للعلاقة الأمريكية السوفيتية.

وبرغم أن تهديدات كيسنجر كانت تبدو عصبية وصريحة. إلا إنه فى النهاية كان يرى أنه إذا رفض السوفييت التعاون معه فى ردع المصريين والسوريين سياسيا فى مجلس الأمن فالحل هو : «.. إننا سوف ندع الإسرائيليين يضربونهم ليوم أو يومين. وهذا سوف يجعلهم يستسلمون... إن سلوكنا يجب أن يكون عنيفا وحازما» .

فى الساعة الثانية والنصف ظهرا. وبينما كيسنجر يعود بالطائرة إلى واشنطن. تلقى رد موسكو على رسالة الخط الساخن. إن الرد لا يشير من قريب أو بعيد إلى اقتراح كيسنجر الخاص بالتقدم إلى مجلس الأمن بمشروع مشترك.. إن كل ما ردت به موسكو هو أنها تفكر.. وعندما تنتهى إلى قرار فسوف تبلغ واشنطن !

ومع ذلك يتصل كيسنجر من جديد بالسفير السوفيتى لكى يحذره مرة أخرى من أية محاولة عربية لفتح مناقشة فى الجمعية العامة للأمم المتحدة. إن كيسنجر لم يكن يفعل ذلك من فراغ. ففى كل مرة يطرح فيها الصراع العربى الإسرائيلى للنقاش فى الجمعية

العامة تنتهى الولايات المتحدة إلى الوقوف بمفردها مع إسرائيل ضد العالم أجمع. والمجتمع الدولى أصبح يحفظ عن ظهر قلب حقيقة الأمر كله. والآن.. فإن كيسنجر يريد أن يحمى الدبلوماسية الأمريكية من فضيحة جديدة تتلبس بها.

وعلى الفور تم استدعاء «مجموعة العمل الخاصة» فى واشنطن إلى اجتماع طارئ. إن المجموعة تضم كيسنجر نفسه وكلا من نائبه كمستشار للأمن القومى ونائبه كوزير للخارجية. كما تضم أيضا وزير الدفاع شليزنجر ورئيس هيئة أركان الحرب المشتركة ورئيس وكالة المخابرات ومساعد وزير الخارجية للشرق الأوسط ومساعد وزير الدفاع للأمن الدولى. ومسئولين أمريكيين آخرين».

وفى الاجتماع الأول الذى رأسه كيسنجر لمجموعة العمل الخاصة مساء هذا اليوم الأول من الحرب ـ السبت ـ كانت المعلومات المتوافرة تجمع على أن إسرائيل سوف تكون لها اليد العليا فى مجرى الحرب خلال يومين أو ثلاثة على الأكثر. وإسرائيل نفسها أكدت ذلك بمعلومات من عندها.

ثم صدرت الأوامر إلى الأسطول الأمريكى السادس فى البحر الأبيض بالتحرك إلى مواقع أكثر قربا من مناطق القتال. ولم يكن التنفيذ السريع سهلا. فحاملتا الطائرات اللتان يضمهما الأسطول.. إحداهما فى اليونان والأخرى فى أسبانيا. فى نفس الوقت كان الأسطول السوفيتى فى البحر الأبيض يتخذ هو الآخر موقف الترقب. لقد كانت بعض وحداته مرابطة فى الإسكندرية وغادرتها فى اليوم السابق مباشرة على الحرب. لكن المعلومات الأمريكية سجلت أنها لم تتجه شرقا فى الطريق إلى بلادها. وإنما اتجهت غربا لتنتظر هناك فى عرض البحر. وفيما بعد تقابل الأسطولان قرب جزيرة كريت.

إن كل طرف يريد أن يقول للآخر إنه بعيد عن الأحداث بما يؤكد عدم تدخله.. ولكنه أيضا قريب منها بما يسمح له بالتدخل إذا نشأ أى طارئ. لقد كانت كل واحدة من القوتين العظميين تريد من القوة الأخرى أن تفهم إشارتها.. بغير كلمات !

وحتى التاسعة مساء كان كيسنجر يحاول تليفونيا إقناع الزيات. وزير الخارجية المصرى الموجود فى نيويورك. بفكرة الرضوخ لمشروع قرار بإعادة القوات المصرية إلى مواقعها.. قبل الحرب !

في نفس هذا اليوم الأول من الحرب. استدعى كيسنجر القائم بالأعمال الإسرائيلى فى واشــنطن – حيث لم يكن الســفير قد عاد بعد من إســرائيل – لكى يتلقى منه ويعطيه كل المعلومات المتوافرة لديه عن مصر وســوريا والســوفييت. وليقول له : «إننا بالتأكيد سنوافق لكم على المعدات العسكرية.. التى قد تحتاجون إليها»!.

فى صباح اليوم التالى. الأحد ٧ أكتوبر. كانت المعلومات الواردة إلى واشنطن قد بدأت تشير إلى تطورات مزعجة. فالمصريون أقاموا بالفعل خطا على الضفة الشرقية لقناة السويس بامتداد القناة وعرضه نحو خمســة أميال. والسوريون شــقوا طريقهم متقدمين إلى مرتفعات الجولان. وإسرائيل اعترفت بخسارتها لخمس وثلاثين من الطائرات الأمريكية ذات الأداء العالى. وقد كشــف هذا عن مدى قوة وفعالية الدفاع الجوى فى مصر وســوريا. وخصوصا حائط الصواريخ بامتداد قناة السويس ـ الذى كانت مصر قد أقامته فى أغسطس عام ١٩٧٠.

مــع ذلــك. لم يكن هناك مــا يغير من التقديــرات الأولى لدى كيســنجر: إن الهجوم الاســرائيلى المضاد على وشــك أن يبدأ بعد ٢٤ ساعة نتيجة اســتكمال التعبئة. وإسرائيل نفسها أخطرت الولايات المتحدة انه من بين أحد عشر جسرا أقامها المصريون للعبور على قناة السويس إلى الشرق. فان الطائرات الإسرائيلية قد دمرت تسعا منها.

وســرعان ما جاءت من جولدا مائير رئيســة وزراء إســرائيل رســالة حملت مزيدا من الاطمئنان إلى قلب كيسنجر. إلى درجة أنها ترجو كيسنجر أن يؤجل اى تصويت فى مجلس الأمن على مشروع القرار الذى يعده. وذلك حتى يوم الأربعاء أو الخميس (١٠ و ١١ أكتوبر) حيث ســتكون إســرائيل وقتها فى موقف الهجوم على الجبهتين المصرية والســورية معا. لكن. فقط من باب الاحتياط. فان إســرائيل تريد بعض المعدات المتطورة عســكريا من نوع خــاص. خصوصا الصواريخ الالكترونية «ســايد ويندر» المضادة للطائــرات. وجولدا مائير تخطر كيســنجر بان هناك طائرة جامبو ٧٤٧ من طائرات شركة «العال» المدنية الإسرائيلية هى الآن فى طريقها إلى نيويورك لشحن ما يمكن الحصول عليه !

ويقرر كيسنجر هنا أنه بالنسبة للإمدادات الحربية فإن وزارة الدفاع الأمريكية قررت أن

إســرائيل ليســت فى حاجة مطلقا إلى أية إمدادات أمريكية أضافية عاجلة. بل أن جيمس شــليزنجر وزيــر الدفاع رد على كيســنجر بكلمات ذات مغزى عندما قال له: إن شــحن أية معدات حربية (أمريكية) إلى إســرائيل الآن.. ســوف ينسف أية صورة لنا كوسيط بين الطرفين فى المستقبل بعد وقف القتال.

وهكذا فإن كيســنجر هــو الصوت الوحيد المؤيــد لطلبات إســرائيل داخل اجتماعات مجموعة العمل الخاصة. التى تضم كبار المسئولين الأمريكيين فى مجال الدفاع والخارجية والمخابرات.

ويحــاول كيســنجر هنا أن يبرر موقفه. فيســجل فى مذكراته أنــه كان يريد أن يخلق لدى إســرائيل الحافز لكى تكون معتدلة فى طلباتها الإقليمية – أى طلباتها من الأراضى العربية– بعد الحرب!.

لكن كيســنجر فى الواقع يخادع القارئ الأمريكى فى هذه النقطة كما ســيفعل فى نقاط عديدة تالية. إنه يعرف جيدا أن شــحن سلاح امريكى لإسرائيل بعد ٢٤ ساعة من نشوب الحرب يمكن أن يكون رادعا سياســيا للعرب فوق قيمته كرادع عسكرى. وهو إشارة مبكرة تعنى أن الولايات المتحدة تلقى بثقلها مع إسرائيل فى تمسكها بالأراضى العربية المحتلة. لهذا فان كيسنجر لم ينتظر حتى أن تحتاج إسرائيل إلى أسلحة. فكما رأينا من قبل. فإنه أبلغ الإسرائيليين من اللحظة الأولى بأن الولايات المتحدة ستمد إسرائيل بالمعدات والأسلحة «.. التى قد تحتاج إليها» !

لكن. ها هو كيســنجر يفاجأ بأن أحدا لم يؤيده فى اجتماع «مجموعة العمل الخاصة» الذى يتم تحت رئاســته. مع ذلك فإن هذا لم يمنعه من الحصول على مســاعدة ألكســندر هيــج. كبير موظفى البيت الأبيض. فى إقناع الرئيس نيكســون بشــحن طائرات شــركة «العال» المدنية الإسرائيلية بصواريخ «سابدويندر» الإلكترونية من قاعدة فارجينيا ـ واشترط نيكســون أن تزيل تلك الطائرات أولا علاماتها المميزة. وهكذا حصلت إســرائيل فعلا على جسر جوى أمريكى متنكر اعتبارا من اليوم الثانى للحرب !

وكمــا رأينا من قبل فإن كيســنجر. منذ اللحظة الأولى لنشــوب القتال. لم ينقطع عن

الاتصال بالسفير السوفيتي دوبرينين. متعجلا رد موسكو على فكرة إعادة الأطراف المتحاربة إلى مواقعها قبل الحرب. ويسـجل كيسـنجر الآن أنه فى كل مرة كان السـفير السوفيتى يخطـره بان رد بريجينيف قادم بعد ساعتين. ثم بعد سـاعة.. الخ. أخيرا جاء الرد فى الثالثة والنصف عصرا من اليوم الثانى للحرب) على رسالة نيكسون التى أبلغت له صباح اليوم السابق. والرد هو : إن الاتحاد السوفيتى مستعد للمساهمة مع الولايات المتحدة بجهد مشـترك إذا كان الهدف هو انسـحاب إسـرائيل من جميع الأراضى العربية المحتلة. بعد ذلك. لم يرد برسالة بريجينيف شىء مطلقا عن مشروع القرار المشترك الذى اقترحته عليه الولايات المتحدة بإعادة الدول المتحاربة إلى مواقعها قبل الحرب.

وطوال تلك الساعات والدقائق. كان اتصال كيسنجر مستمرا بالقائم بالاعمال الإسرائيلى. ليبحث معه أولا التطورات الجارية وشحنات السلاح السرية لإسرائيل. وليخطره أول بأول بكل المعلومات الواردة إليه كمستشـار للأمن القومى ووزير للخارجية معا. وكان هناك منذ سـنوات طويلة اتفاق أمريكى – إسرائيلى بتبادل المعلومات. وبمقتضى ذلك الاتفاق كانت كل المعلومات التى تحصل عليها الولايات المتحدة عن دول الشـرق الأوسط يتم إبلاغها إلى إسرائيل أوتوماتيكيا.

وهنا يذكر كيسـنجر أن صديقه الحميم «سـيمحا دينتز» السفير الإسرائيلى فى واشنطن قد عاد لتوه من إسرائيل. وبعد أن شرح كيسنجر طوال صفحتين جذور علاقته الحميمة مع السـفير الاسـرائيلى. يسجل أنه تلقى من السفير بشرى طازجة : إن إسرائيل تحتاج الآن إلى ٤٨ ساعة فقط «لإنهاء العمليات الحربية لصالحها على الجبهتين المصرية والسورية» .

وكيسنجر هو الآخر يبلغ السفير الإسرائيلى ببشرى طازجة : إن طائرات شركة «العال» تستطيع أن تزيد ما تشحنه من صواريخ «سايد ويندر» الإلكترونية إلى ثمانين صاروخا. إلى جانب المعدات الأخرى.

فـى نفس اليوم – الأحد ٧ أكتوبر – تلقى كيسـنجر أول رسـالة مـن الرئيس المصرى السـادات أثنـاء الحرب.. لقد جاءت الرسـالة عـبر قنوات الاتصال السـرية التى كانت المخابرات قد نظمتها من قبل. وفى الرسـالة يقوم حافظ إسماعيل (مستشـار السـادات)

بإخطار هنرى كيسنجر بشروط مصر لإنهاء الحرب الدائرة الآن. فيقول إن الشروط مازالت هى نفسها المعروفة من قبل. وهى أن إسرائيل عليها أن تنسحب من كل الأراضى المحتلة. مع موافقة مصر على وجود قوات دولية فى شرم الشيخ مؤقتا.

وهنا يضيف كيسنجر في مذكراته مسجلا : «كان من الواضح أن هذه الشروط هى مجرد موقف افتتاحي. فمن اتصالاته المبكرة معنا كان السادات متنبها تماما إلى أننا نعتبر مثل هذه الشروط غير قابلة للتحقيق». ولكننى لا اعتقد أن السادات فى هذه المرحلة كان يسعى إلى اتفاق. لقد كان يسعى إلى إجراء حوار.

ثم يشرح كيسنجر أن اهتمام السادات بإرسال تلك الرسالة فى مثل هذه الظروف التى تدور فيها الحرب كان بالنسبة له. أى بالنسبة لكيسنجر. أهم من المضمون. لكن. إلى جانب ذلك. فإن الرسالة نصت أيضا على إقرار من السادات بنواياه من الحرب. حيث جاء بالرسالة بالحرف الواحد : «.. أننا لا ننوى تعميق القتال أو توسيع المواجهة (العسكرية)..».

وهنا يعلق كيسنجر بقوله : «إنه إذا كان لتلك الجملة أى معنى. فهو أن مصر لا تنوى المضى فى العمليات الهجومية ضد إسرائيل بما يتجاوز (شريط) الأراضى التى استولت عليها فعلا حتى الآن (الأحد ٧ أكتوبر).. كما لا تنوى استخدام الولايات المتحدة باعتبارها حاملة للكرباج ضد إسرائيل ـ بمثل ما فعل عبد الناصر عام ١٩٦٧.

ويضيف كيسنجر معلقا بقوله : «إننى لم أكن آخذ السادات بجدية من قبل. إلى أن جاءتنى منه تلك الرسالة. فبسبب تهديداته السابقة بالحرب. وهى التهديدات التى لم ينفذها. فاننى استبعدته تماما على أساس أنه ممثل بأكثر مما هو رجل دولة. أما الآن فقد بدأت افهم... وفجأة بدا قرار السادات قبل ١٦ شهرا بطرد المستشارين السوفييت من مصر يتخذ بالنسبة لى أهمية جديدة. فحينما اتخذ السادات ذلك القرار واجهتنى مشكلة فهم لماذا لم يسع السادات إلى التفاوض معنا مسبقا بشأن رحيل المستشارين السوفييت. بدلا من أعطائه هذا التنازل إلى الولايات المتحدة بلا مقابل».

الآن. فى الساعة الرابعة عصرا يوم الأحد ٧ أكتوبر. وفقط بعد ورود تلك الرسالة من السادات عن طريق حافظ إسماعيل. وبعد أن أفصح السادات عن نواياه غير المعلنة من

الحرب. فإن كيسنجر يسجل أنه بدأ يأخذ السادات بجدية لأول مرة !

إن تلك الرسالة كانت بالنسبة لكيسنجر أكثر أهمية ودلالة من طرد الخبراء السوفييت من مصر - هكذا يوضح كيسنجر بلا لف ولا دوران.

مع ذلك. فقد قرر كيسنجر أن يؤجل الرد على رسالة السادات حتى اليوم التالى. لكنه الآن قرر الاجتماع بالسفير الإسرائيلى فى واشنطن. سيمحا دينتز. العائد لتوه من إسرائيل!.

وعندما اجتمعت «مجموعة العمل الخاصة» بواشنطن مرة أخرى فى الساعة السادسة مساء نفس اليوم - الأحد ٧ أكتوبر - اتفق رأى الأعضاء (ومن بينهم وزير الدفاع شليزنجر) على أنه من الصعب تصور أن ينجح الجيش المصرى فى عبور قناة السويس بهذا الأداء. ثم يكتفى بان يجلس هناك.

وكان أصحاب ذلك الرأى يعلمون أن كل حرب لها فرصتها الذهبية التى تتاح مرة واحدة ويتوقف عليها مصير كل شىء بعدها. الآن خلق الجيش المصرى تلك الفرصة بالأداء المرتفع لمقاتليه. ومن هنا اجمع كل الأعضاء فى «مجموعة العمل الخاصة» بواشنطن على أن مصر ستستمر فى التقدم بسيناء.

.. ما عدا كيسنجر بمفرده ! لقد وجد كيسنجر نفسه الآن فى موقف جعله يرد عليهم بقوله : «إننى متأكد من أن السادات. بعد أن عبر القناة بجيشه. سيجلس هناك.. فقط. إننى لا اعتقد أنه سيتقدم (داخل سيناء) أكثر من ذلك» .

ولحظتها لم يسأله زميله وزير الدفاع شليزنجر. من أين له بهذا «التأكيد» وهو ليس رجلا عسكريا ـ كما أن كيسنجر نفسه لم يكشف عن ما يعرفه. فى اليوم التالى - الإثنين ٨ أكتوبر - رد كيسنجر على رسالة السادات عن طريق حافظ إسماعيل. ويقول كيسنجر إن هدفه فى الرد كان مجرد كسب للوقت وعدم تقديم أى التزام. لذلك فإنه يطلب من السادات أن يوضح بعض الغموض فى : «.. رسالة تلقيناها عن طريق شاه إيران. يخبرنا فيها بان مصر راغبة فى السماح بتواجد (قوات من) الأمم المتحدة فى الأراضى التى تجلو عنها إسرائيل» بسيناء.

وكما يقرر كيسنجر فإن هدفه من استهلاك الوقت كان هو الانتظار على أحر من الجمر الاكتساح الإسرائيلى المنتظر. وقد قررت إسرائيل الآن أن تركز هجماتها بعنف طوال الثمانى والأربعين ساعة القادمة على القوات السورية لمنع تقدمها. أما فى الجبهة المصرية فقد استعدت إسرائيل لوقف الجيش المصرى عند النقطة التى وصل إليها. والآن فإن السفير الإسرائيلى دينتز يخطر كيسنجر بأن : «هناك إمكانية طيبة فى أننا سوف ندفع السوريين خلفا كل المسافة (التى تقدموها) إلى ما وراء خط وقف إطلاق النار قبل الحرب. ونحن أيضا نخرج القوات المصرية من سيناء».

مرة أخرى فان كيسنجر يخطر السفير الاسرائيلى بكل ما لديه من معلومات أولا بأول. حتى ما لم يتأكد منها بعد. مثل معلومات وردت بأن الملك فيصل وحافظ الأسد والسادات يحثون الملك حسين على الدخول فى الحرب.

ولضمان سرعة التدفق المستمر فى المعلومات دقيقة بدقيقة. يسجل كيسنجر أنه استدعى «سكوكروفت» نائبه كمستشار للأمن القومى وقال له أمام السفير الإسرائيلى بالحرف الواحد: أعطهم (للإسرائيليين) كل ذرة معلومات لدينا من أجهزة المخابرات بمجرد وصولها».

ومرة أخرى كان معنى هذا فى الواقع أن كيسنجر قد جعل من جهاز الأمن القومى الأمريكى يعمل رسميا لحساب إسرائيل. فكل معلومة سياسية وعسكرية عن تحركات ونوايا مصر وسوريا. والدول العربية الأخرى. وعن التحركات السوفيتية. وعن صور الاستطلاع التى تلتقطها الأقمار الصناعية والطائرات الأمريكية للمنطقة. وكذلك الاتصالات الدبلوماسية. تسلم إلى إسرائيل أولا بأول!.

فى الوقت نفسه وردت إلى الرئيس الأمريكى نيكسون رسالة من بريجينيف يقول له فيها : «لقد اتصلنا بالحكومات العربية الصديقة. وتشاورنا مع زعمائنا حول مسألة وقف إطلاق النار (الذى كانت أمريكا اقترحته) ونحن ننتظر منها ردا سريعا. إننا نأمل أن يستمر التعاون بيننا وبين واشنطن حفاظا على السلام العالمى» .

وهنا يعلق كيسنجر قائلا : «إن رسالة بريجينيف جاءت فى وقتها. فمع انتظارنا للضربة الإسرائيلية الحاسمة أصبحت خططنا (الآن) هى تأجيل اجتماع مجلس الأمن إلى

أن تسيطر إسرائيل على الموقف عسكريا. حينئذ ندعو مجلس الأمن إلى الانعقاد ونطالب وقتهـا بعـودة الأطراف المتحاربـة إلى مواقع ما قبل الحرب.. وهو ما تريده إسـرائيل. ونكـون بذلك قد أصبنا عصفورين بحجـر واحد : الإيحاء للحكومات العربية بأنه «لولا الضغوط الأمريكية لما توقف زحف الجيش الإسرائيلى. بينما نكرر على إسرائيل أنه لولا مساعدتنا وإخلاصنا لها لما تمكنت هى من السيطرة عسكريا على الموقف» .

وفجأة. فى الساعة الثانية إلا الربع من صباح الثلاثاء ٩ أكتوبر. استيقظ كيسنجر على مكالمة تليفونية من صديقه السفير الاسرائيلى دينتز.

ويقول كيسنجر إن المكالمة. فى هذه الساعة المتأخرة. بدت محيرة له. فحسب التقديرات التى كان السفير الإسرائيلى نفسه قد أخطره بها قبل ساعات قليلة. فإن المعركة يجب أن تكون الآن فى طريقها إلى التحول لنصر إسـرائيلى حاسـم. ما هى المشكلة إذن ؟ ما الذى يدعو إلى التعجل؟ إن طلبات إسـرائيل من السـلاح انحصرت حتى الآن فى أنواع معينة من الذخيرة والمعدات الإلكترونية. وتقريبا كل طلبات إسـرائيل تمت الاسـتجابة لها. لقد كان هناك بعض التململ والمماطلة والبيروقراطية من جانب وزارة الدفاع (الأمريكية). ولكن إسرائيل حصلت بالفعل على صواريخ «ساندو يندر» .. وحصلت أيضا على موافقة بالإسراع فى تسليمها طائرات فانتوم إضافية. لكن الإسرائيليين يريدون التزاما أمريكيا بمعدل محدد فى التوريد. وطلب منه كيسنجر أن يتحدثا فى هذا الموضوع مبكرا فى الصباح.

لكن السفير الإسرائيلى عاد يوقظ كيسنجر من جديد فى الثالثة صباحا. إنه يكرر نفس الرسـالة. وكيسـنجر يسـتجيب فى أغرب علاقة بين وزير خارجية دولة عظمى وسـفير اجنبى.

فى الثامنة صباحا اجتمع كيسنجر بالسفير الإسرائيلى دينتز. وتم الاجتماع فى «غرفة الخرائـط» بالطابـق الأرضـى من البيت الأبيـض ـ وهو المكان الذى يجرى فيه كيسـنجر مقابلاته السرية.

لقد صحب السـفير معه الجنرال «موردخاى جور» الملحق العسـكرى بسفارته. والإثنان يخبران كيسـنجر بأن إسرائيل قد خسرت حتى الآن ٤٩ طائرة. من بينها ١٤ فانتوم. إن

هذا الرقم كان مرتفعا ولكنه لم يكن مفاجئا طالما أن مصر وسوريا فى حوزتهما أعداد كبيرة من صواريخ أرض/جو السوفيتية المتطورة. لكن الصدمة الحقيقية كانت فى تطور آخر : فإسرائيل خسرت حتى الآن خمسمائة دبابة. من بينها ٤٠٠ دبابة على الجبهة المصرية وحدها.

ثم قال السفير الإسرائيلى لكيسنجر : إن هذه الأرقام يجب أن تبقى سرية. لأن الدول العربية التى مازالت تختار لنفسها موقف التحفظ حتى الآن قد تنضم إلى المعركة لو عرفت بحجم النجاح المصرى السورى.

ثم قال السفير الإسرائيلى إنه حتى بالنسبة للحكومة الأمريكية نفسها «.. لا يجب أن يعرف احد مطلقا بهذه الأرقام» . إنها أرقام سرية جدا ويجب أن يبقيها كيسنجر كذلك ولا يطلع عليها أحدا سوى الرئيس نيكسون وحده.

إن إسرائيل تريد أن تذكر كيسنجر مرة أخرى بأنه رجلها الأول داخل الإدارة الأمريكية. رجلها الذى لا تثق فى أحد سواه.

وشىءآخر : إنه إذا أمكن إمداد إسرائيل بالطائرات بسرعة.. فإن إمدادها بالدبابات لن يكون كذلك. والطائرات المدنية السبع لشركة «العال» .. التى تشكل جسرا جويا يشحن لإسرائيل يوميا المزيد من المعدات الإلكترونية.. لن تفى بالغرض. هل يمكن شحن دبابات من القواعد الأمريكية فى أوروبا لإسرائيل ؟ إن هذا أيضا يحتاج إلى وقت. الأمر إذن يتطلب تحركا سريعا لإنقاذ الموقف. أما الآن ـ يقول السفير الإسرائيلى «.. فإننا نركز على إحراز نصر سريع فى الجبهة السورية» .

ثم شىء ثالث. لقد انتحى السفير الإسرائيلى بكيسنجر جانبا. وبدأ يهمس فى أذنه برسالة شفوية عاجلة كلفته جولدا مائير رئيسة الوزراء بإبلاغها إلى كيسنجر بمفرده شخصيا. الرسالة الهامسة هى: إن رئيسة وزراء إسرائيل تعرض القدوم سرا إلى واشنطن للتوسل إلى الرئيس نيكسون حتى يمد إسرائيل بمساعدات عسكرية عاجلة. أكبر وأضخم. فبما يشير كيسنجر على رئيسة الوزراء ؟

يقول كيسنجر : إننى رفضت الفكرة فى التو واللحظة. وبغير تشاور مع الرئيس ! لكن

لماذا هذا الرفض القاطع. وفورا ؟

بكلمات كيسنجر الحرفية فإن التفسير هو : «إن مثل هذه الزيارة سوف تأخذ جولدا بعيدا عن إسرائيل لمدة لا تقل عن ٣٦ ساعة. فإذا غادرت جولدا إسرائيل بينما تدور معركة كبرى. فإن هذا سيكون علامة على الرعب والفزع. بحيث إنها يمكن أن تؤدى إلى انضمام كل الدول العربية التى مازالت على الهامش. إلى المعركة. إنها سوف تترك إسرائيل بلا قيادة. فى أكثر الأوقات احتياجا لشجاعة جولدا التى لا تهاب.. واحتياجا للقرارات التى لابد من اتخاذها.... ففى نفس تلك اللحظة كان دايان (وزير الدفاع الإسرائيلى) يوصى بانسحاب إسرائيل شرقا فى سيناء (للابتعاد عن مرمى النيران المصرية).. ولأن الزيارة لا يمكن المحافظة على سريتها. فسوف نكون مضطرين لإعلان سياسة إمدادات عسكرية ضخمة لإسرائيل... إن العالم العربى سوف يشتعل ضدنا. والاتحاد السوفيتى ستكون الأرض ممهدة أمامه» .

إذن.. ما العمل ؟

لا شىء سوى أن تبقى «جولدا الشجاعة التى لا تهاب» فى مكانها.. وسوف يتكفل كيسنجر. رجل إسرائيل الأول فى الإدارة الأمريكية. بالأمر كله. فخلال دقائق. استدعى كيسنجر. «مجموعة العمل الخاصة» إلى اجتماع عاجل لا يحضره «سوى أكبر المسئولين فى الوزارات والأجهزة المختصة. ولا أحد غيرهم ضمانا للسرية» .

ثم يشرح كيسنجر ما حدث فى الاجتماع بقوله «إننى رويت حديث دينتز وجور معى. بعد أن حذفت أرقام الخسائر فى الدبابات. وشعر زملائى بالتشكك. لقد أفاد كولى (مدير المخابرات المركزية) بأن إسرائيل تتقدم على الجبهة السورية. ومتماسكة فى سيناء. والمسألة ببساطة هى أن إسرائيل تحاول الحصول منا على القدر الأقصى من المساعدة العسكرية قبل النصر. كعلامة على الدعم غير المحدود. من أجل الحرب.. وفترة ما بعد الحرب أيضا» .

وقال جيمس شليزنجر وزير الدفاع : إنه لابد من التفرقة بين الدفاع عن بقاء إسرائيل.. والدفاع عن غزوات إسرائيل (الناتجة عن حرب ١٩٦٧). إن التدخل بدعم أمريكى

لإسـرائيل. فى الوقت الذى لا يسـعى فيه العرب إلا لتحرير أراضيهم المحتلة. سـوف يؤدى إلى إفساد علاقات أمريكا بالعرب..

وهكذا. وجد كيسـنجر نفسـه مرة أخرى وحـده.. بينما كل أعضـاء مجموعة العمل الخاصة ضده !.

لكن رجل إسرائيل المخلص لم ييأس. فمرة أخرى. هو يعلم تماما أن أهمية السلاح الأمريكى المعلن لإسـرائيل أثناء الحرب لا تكمن فقط فى قيمته العسـكرية. وهى كبيرة. ولكنها تكمن فى الدرجة الأولى فى قيمته كرادع نفسـى وسياسى لمصر وسـوريا. فإذا تقدمت أمريكا بدعم عسكرى معلـن لإسـرائيل. فإن هذا يجعل النفـوس الانهزامية بين العرب تجاهر علـى الفور بتراجعها. ومتعللة بان العرب أصبحوا يحاربون أمريكا.. وليس إسرائيل !

لقد قال مدير وكالة المخابرات المركزية لكيسنجر إن إسرائيل لديها من الذخيرة والمعدات ما يكفيها للاستمرار فى الحرب لمدة أسبوعين آخرين على الأقل. ولكن كيسنجر يتشبث برغم هذا بضرورة الدعم العسكرى الأمريكى المباشر لإسرائيل. و «.. لأسباب سيكولوجية بقدر الأسباب العسكرية» .

وعندمـا وجد كيسـنجر أن الجميع ضـده. تراجع نصف خطوة إلى الخلـف. مقترحا وضع مجموعة من البدائل المتاحة.. وترك القرار للرئيس نيكسون.

هكذا اجتمع كيسـنجر بنيكسـون فى الخامسـة إلا الربـع عصر اليوم نفسـه - ٩ أكتوبر- بعـد أن صحب معه إلكسـندر هيج كبير موظفى البيت الأبيض. ونائبه سـكوكروفت. وزيجلر. وعرض كيسنجر البدائل المتاحة على الرئيس. وكانت تتراوح بين استمرار الوضع الحالى (الجسر الاسرائيلى).. وبين القيام بجسر جوى أمريكى مباشر.

واتخذ نيكسون قرارا متحفظا - مازال فى صالح إسرائيل ولكن ليس إلى المدى الذى يطمح إليه كيسـنجر. إن كل ما يمكن إبلاغ إسـرائيل به هو التزام الولايات المتحدة بتعويض خسـائرها فى الحرب. ورفض نيكسون الموافقة على طلبين بالذات : أن يتم إمداد إسرائيل بقنابل اللازر.. وأن يتم شحن المعدات على طائرات أمريكية.

لكن كيسـنجر يعلم أن عليه أن يتحرك وسـط مآزق عديدة. فكما صرح هو من قبل «إذا انتهى كل شىء كما أتوقع. وتحاشينا الصدام مع السوفييت. وغضبة العرب. نكون قد قمنا بمعجزة!».

فى نفس اليوم أشارت التقارير إلى أن الزعيم السوفيتى بريجينيف قد وجه رسالة إلى الزعيم الجزائرى هوارى بومدين يحثه فيها على انضمام الجزائر إلى المعركة. كما أفاد السفير الأمريكى بالأردن بأن السوفييت كما يبدو يحاولون نفس الشىء مع الملك حسين.

وثارت ثائرة كيسنجر. وأمسك بالتليفون بعصبية لكى يتحدث مع السفير السوفيتى دوبرينين. يحذره من قيام موسكو بتشجيع بلاد أخرى على دخول المعركة ضد إسرائيل. وفى نفس الوقت بادر كيسنجر بكتابة رسالة إلى الملك حسين. محاولا أن يرشوه فيها بالكلمات المعسولة. والوعود الغامضة. وهو الأسلوب الذى ستلاحظه على كيسنجر دائما كلما كان بصدد المطالبة بمكاسب لإسرائيل.

إنه يناشد الملك حسين باعتباره «رجل دولة» ألا يدخل فى المعركة الجارية. وحتى تكون الكلمات أكثر وقعا.. فإنه يلوح للملك حسين بأنه فى حالة التزامه بعدم دخول المعركة. ستتاح له المكافأة التى قدر بعد ذلك ألا يحصل عليها الملك حسين مطلقا: «إننى أعد جلالتك بجهد أمريكى نشط (لاستعادة الضفة الغربية) بمجرد أن تتوقف الحرب»!

فى نفس الوقت قرر كيسنجر أن يرد على أخر رسالة من السادات وردت عن طريق حافظ إسماعيل. إن السادات أرسل يشكر الولايات المتحدة على «حسن نواياها».. ويعرب عن تقديره «للنوايا الطيبة» للحكومة الأمريكية.

ويقول كيسنجر: «إننى فى ردى على حافظ إسماعيل ذكرت فى غموض أن أفعالنا (لتعويض إسرائيل خسائرها العسكرية) إنما تمثل الحد الأدنى الذى يتحمله الرأى العام.. وبذلك أعطى مصر صيغة لإنقاذ ماء وجهها تسمح لها بأن تذعن لتلك الخطوات (التى تم الإعلان عنها). وقد أكدت على أن الولايات المتحدة تفهم الآن بوضوح الموقف المصرى بالنسبة للتسوية السلمية. لكننى تجنبت أى تعليق على (نوع ومدى) هذه التسوية. وفى العرف الدبلوماسى. فقد كانت كلماتى هذه تساوى الإشارة إلى أن الموقف المصرى لا يصلح كبداية».

كانت أنظار الجميع. وفى مقدمتهم كيسنجر. مركزة أساسا على الموقف العسكرى. لأن هذا هو الذى سيحسم فى النهاية نوع ومدى التسوية القادمة. وهكذا. فعندما تلقى كيسنجر فى صباح الأربعاء ١٠ أكتوبر رسالة من السوفييت موجهة إلى نيكسون تخطره بأن موسكو

لن تعترض الآن على مشروع أمريكى إلى مجلس الأمن بوقف إطلاق النار فى المواقع القائمة لحظة سـريان القرار. أما إذا أصرت واشـنطن على عودة القوات المتحاربة إلى مواقعها قبل الحرب. فإن المندوب السوفيتى سوف يستخدم حق الفيتو.

كان المفروض أن يكون هذا الموقف السـوفيتى الجديـد مرضيا للولايات المتحدة. ولكنه بالنسـبة لكيسـنجر لم يكن كذلك. إنه يعلل ذلك بقوله : «لو كان السـوفييت قد تقدموا بمشروع قرار على هذا النحو إلى مجلس الأمن فعلا.. فإنه كان سيحصل على شبه أجماع. بمـا فـى ذلك موافقة حلفائنا الأوروبيين. ولو أننا سـايرنا السـوفييت فـى خطتهم هذه. فإن الحرب كانت سـتنتهى إلى نصر واضح وقاطع للقوات العربية التى تحارب بالسـلاح السـوفيتى.. وموقف الولايات المتحدة فى دبلوماسـية ما بعد الحرب كان سـيصبح ضعيفا تماما.. ومسـألة أننا وحدنا من بين الدول العظمى الذين نسـتطيع أن نحقق تقدما كانت ستنسف تماما أيضا» .

وحتى لا يفاجئ السـوفييت الولايات المتحدة بمثل هذا الموقف. اختار كيسـنجر فى هذه المرة أن يماطلهم. لقد اتصل بالسفير السوفيتى دوبرينين وأخبره بان الاقتراح السوفيتى «بنـاء».. ولكنه يحتاج إلى وقت لدراسـته. بعدها اسـتمهله من جديـد بحجة أن الرئيس نيكسون سيبت فى الأمر بعد أن يفرغ من مقابلة اليوم مع موبوتو سيسيكو رئيس زامبيا..!

وكان كيسـنجر فى نفس اليوم أيضا (١٠ أكتوبر) قد صحا على أنباء «منذرة بالسـوء» . السـوفييت قد بدأوا فى إقامة جسـر جوى لإمداد سـوريا بالأسلحة وقطع الغيار. إن نحو عشرين طائرة نقل سوفيتية هى الآن فى طريقها. عبر المجر ويوجوسلافيا. إلى دمشق.

وكالعادة. كان كيسـنجر يتشـاور مع السفير الإسـرائيلى دينتز ويبلغه بكل التطورات أولا بـأول. إنـه الآن يطلب منـه أن يبلغ حكومته. وقد ضمنت تعويضا أمريكيا عن خسـائرها فى الحرب. أن تنطلق بأقصى ما تستطيع.. ولا تختزن احتياطيات من الذخيرة أو المعدات. وحتى تستوعب إسرائيل الموقف تماما. فإن كيسنجر يقرر للسفير بمنتهى الوضوح بأن «كل شيء يعتمد الآن على قيام الإسـرائيليين بدفعهم – اى المصريين والسـوريين – إلى الخلف بأسرع ما يمكن. بهدف إعادتهم إلى خطوط ما قبل الحرب أو ما خلفها ولو حتى. فى جبهة واحدة على الأقل».

ومرة أخرى ترجمت إسـرائيل الإشـارات.. إلى موقف عملى للغاية : مزيد من التركيز على الجبهة السورية.. !

أما داخل الحكومة الأمريكية نفسـها فقد كان الانشـقاق مستمرا. فالمسئولون الآخرون. بخلاف كيسـنجر. يؤمنون بأن المصالح الأمريكية لها الأولوية على المصالح الإسـرائيلية.. ومن هنا فإنهم يخشون تماما من تزايد الشعور العربى بالعداء نحو السياسة الأمريكية كلما طال أمد الحرب.

لقد اتصل جيمس شـليزنجر وزير الدفاع تلفونيا بكيسـنجر لكى يخبره بتطور مزعج : إن الملك فيصل، ملك السعودية. بعد أن ماطله الملك حسين فى الموافقة على تحريك اللواء السـعودى المرابط فى الأردن إلى سـوريا. قرر إرسـال لواء مسـلح من السعودية مباشرة إلى الجبهة السورية ليشترك فورا فى القتال ضد إسرائيل.

وقد بلغ من انزعاج شـليزنجر من هذا التطور السـعودى أنه حث زميله كيسنجر على ضرورة التوصل فى مجلس الأمن بسـرعة لتحقيق وقف إطلاق النار. مباشـرة وفورا. وإذا راوغت إسرائيل فى التنفيذ فإن من الممكن إرسال قوات أمريكية مقاتلة لفرض القرار عليها بالقوة.

ولكن كيسـنجر لم يكن ليستسـلم بسـهولة. إنه، بكلماته، قال لزميله وزير الدفاع : «بالنسبة لهذا الشىء السعودى، أعتقد أنه على كل شخص الآن أن يلتزم فقط بالهدوء. إن لواء سـعوديا يتحرك اليوم معناه أن أمامـه يومين قبل أن يكون قادرا على الوصول إلى أى مكان قريب من الأحداث. وربما يحرك الأردنيون أيضا لواء إلى هناك. وهذا طيب لأنه أقل ما يستطيعون عمله. إننا سوف نستمر فى التمسك بطريقتنا ليوم آخر أو نحو ذلك... ولست أعتقد أننا فى حاجة إلى قوات (أمريكية) لاحتلال أى شىء الآن» .. !

كان هدف كيسنجر هو أن يجنب إسرائيل بأى ثمن الالتزام بوقف إطلاق النار من موقع الهزيمة الكاملة. ويبدو أن باقى الأجهزة الأمريكية كانت تشعر بأن كيسنجر يستغل تماما انشـغال الرئيس نيكسون فى وقائع فضيحة ووترجيت. التى كانت قد بدأت تقترب منه. لقد قبل نيكسـون منذ ساعات قليلة اسـتقالة نائبه سيبرواجنيو. والأمور تسير بالنسبة له

داخليا من سيء إلى أسوأ.. وبالتالى فإنه لا يتابع سوى الخطوط العريضة للسياسة الأمريكية نحو الحرب العربية الإسرائيلية.

لكن. إذا كانت تلك الخطوط منحازة إلى إسرائيل مرة. فإن كيسنجر يريدها أن تصبح فى التنفيذ منحازة إلى إسرائيل عشر مرات. من هنا كان واضحا أن أجهزة الحكومة. خصوصا وزارة الدفاع. تحاول أن تماطل وتسوف فى تنفيذ طلبات كيسنجر.. الأمر الذى دعاه إلى أن يبدأ اجتماع «مجموعة العمل الخاصة» بقوله محذرا : «إننى. باسم الرئيس. أطلب استقالة أى مسئول غير راغب فى مساندة الإجراءات التى اتخذناها لدعم إسرائيل عسكريا. إننا نحتاج إلى توصيل تلك المعدات فى الوقت الذى تشن فيه إسرائيل الهجوم... وليس حينما نريد من الدبلوماسية العمل. فإذا شعرت إسرائيل بأننا تخلينا عنها.. وإذا أعتقد العرب بأنهم فعلوها بأنفسهم.. فإننا نكون قد غرقنا» .

إن رجل إسرائيل الأول فى الإدارة الأمريكية يشعر بأن كل ساعة تمر لها ثمن. ولذلك فهو لا يريد أن يفرط فى استثمار دقيقة واحدة لصالح إسرائيل. بل إنه. أكثر من ذلك. فإن إسرائيل أخطرت كيسنجر بأنه من المقبول لها الآن المضى فى مجلس الأمن من أجل وقف إطلاق النار. مع ذلك يسجل كيسنجر فى مذكراته : «كنت أستطيع التصرف بناء على هذا التأكيد. ولكننى، زيادة فى التأكيد، طلبت من الحكومة الإسرائيلية أن توضح لى التوقيت الملائم لها.. لكى نتقدم نحن فيه بهذا المشروع إلى مجلس الأمن» !

فى نفس الوقت ظلت موسكو فى انتظار رد نيكسون على اقتراحها بوقف إطلاق النار، ولكن فى كل ساعتين أو ثلاثة. يطلب كيسنجر السفير السوفيتى دوبرينين لكى يعده بأن الرد يجرى إعداده، بعدها يطلبه ليحذره من استمرار الجسر الجوى لإمداد مصر وسوريا بالسلاح. فهذا سلوك يتسم بالتجرد من الشعور بالمسئولية. وأخيرا طلبه فى العاشرة إلا الربع مساء ليقول له: اناتولى.. نحن لن نكون قادرين على إعطائك إجابة قبل الغد..

وفهم دوبرينين تماما مغزى سلوك كيسنجر، فقال له على الفور : إنك تلعبها جيدا..! لا تبالغ إذن فى اللعب على نغمة تجردنا من الشعور بالمسئولية!.

فى اليوم التالى عقد كيسنجر مؤتمرا صحفيا. هاجم فيه قيام الاتحاد السوفيتى بإمداد

العرب بالسلاح. وقيام بريجينيف بمناشدة الرئيس الجزائرى بومدين بالانضمام إلى مصر وسوريا فى القتال.. وعموما فإن بيانات السوفيت المؤيدة للجانب العربى ليست عاملا مساعدا فى رأى وزير الخارجية الأمريكى.

خلال ساعات جاءت مذكرة غاضبة من موسكو : كيف تشكو الولايات المتحدة من بيانات السوفييت المؤيدة للعرب ؟ ألا يقوم المسئولون الأمريكيون. وفى مقدمتهم كيسنجر شخصيا. بإصدار بيانات مؤيدة لإسرائيل..؟.

ثم قال دوبرينين. لكيسنجر. إن الاتحاد السوفيتى لن يتخذ موقف اللامبالاة إزاء تهديدات إسرائيل لدمشق. فإذا استمرت إسرائيل فى تقدمها. فقد تفلت الأمور فى النهاية.

وبالطبع لم يرد كيسنجر. لكنه توجس شرا من التهديد الضمنى الذى ذكره له السفير السوفيتى دوبرينين. خاصة بعد أن أخبره الأخير بأن هناك رسالة رسمية قادمة من بريجينيف خلال ساعات إلى الرئيس نيكسون. وكعادة كيسنجر. فإنه أطلع السفير الإسرائيلى دينتز فورا على كل كلمة قالها دوبرينين.

وأسرع السفير الإسرائيلى إلى الخط التليفونى المباشر الذى يربط سفارته بإسرائيل. ثم عاد يتصل بكيسنجر فى الثامنة إلا الربع مساء ليبلغه برسالة شخصية عاجلة من جولدا مائير.

إن رئيسة وزراء إسرائيل مهتمة للغاية بالتهديدات الضمنية التى ذكرها السفير السوفيتى «دوبرينين» اليوم. ولذلك فإن جولدا مائير تفوض هنرى كيسنجر شخصيا بالتقدم إلى مجلس الأمن هذا المساء بمشروع قرار لوقف إطلاق النار.. إذا كان كيسنجر يعتقد أنها خطوة حكيمة.

كانت هذه الرسالة الواردة من رئيسة وزراء إسرائيل فى الثامنة إلا الربع مساء ١٢ أكتوبر تعكس بالفعل ضراوة القتال الذى تواجهه إسرائيل على أرض المعركة. وهى تعكس أيضا الصورة الحقيقة التى ترى بها إسرائيل مجرى الحرب. لكن إسرائيل يهمها ألا تتسرب حقائق تلك الصورة مطلقا. ولذلك فهى. مرة أخرى. لا تأتمن عليها سوى رجلها فى واشنطن: هنرى كيسنجر!.

وفى نفس الوقت تلقت واشنطن من موسكو رسالتين بدلا من رسالة واحدة. وكلتاهما كانتا احتجاجا على ضرب إسرائيل للمدنيين فى مصر وسوريا. وعلى ضربها لسفينة تجارية فى ميناء سورى. لكن الأهم من ذلك. بالنسبة لكيسنجر. كان هو حقيقة أن ٨٤ طائرة شحن سوفيتية قد نقلت معدات حربية إلى مصر وسوريا خلال الأيام الثلاثة الأخيرة.

ثم جاء اليوم التالى – ١٣ أكتوبر – ليكون حاسما من نواح عديدة.

فمن ناحية. حركت مصر الفرقة ٢١ المدرعة إلى شرق القناة. ورصدت الأجهزة الأمريكية فرقة أخرى تستعد للعبور. إن السادات. بعد أن اختار التوقف فى مكانه أياما عديدة. يبدو الآن إنه غير رأيه.

وإسرائيل غيرت من تكتيكاتها. وقد ساعدها على ذلك ما أسماه كيسنجر «الحماقة الاستراتيجية المصرية. والتأثير النفسى لإعادة إمداد إسرائيل بالسلاح والذخيرة من جانب الولايات المتحدة» .

ومن ناحية ثالثة. فإن إسرائيل رغبة منها فى شحن أكبر كمية من السلاح الأمريكى إليها فى أقصر وقت. لم تكتف بطائرات «الجامبو» المدنية السبع لشركة «العال».. وإنما بدأت تسعى إلى استئجار طائرات «تشارتر» مدنية أمريكية لتحمل المعدات إليها. ولكن شركات الطائرات رفضت التعاون مع إسرائيل خوفا من المقاطعة العربية. فى نفس الوقت شحنت الحكومة الأمريكية عشر طائرات «سى – ١٣٠» العملاقة بالمعدات الحربية إلى إسرائيل. إلى جانب إصرار كيسنجر على أن تقوم طائرة أمريكية عسكرية أخرى بشحن جزء من المعدات إلى جزر الازور فى الأطلنطى. حتى تأخذها إسرائيل من هناك. فتستفيد من قصر المسافة وتعدد رحلات الشحن. لقد بدأ أخيرا الجسر الجوى الأمريكى المباشر إلى إسرائيل. بعد أن استمر أسبوعا بشكل غير مباشر.

ومن ناحية رابعة. فقد رصدت أجهزة المخابرات الأمريكية فى هذا اليوم وحده ٦٧ شحنة عسكرية سوفيتية تم نقلها جوا إلى الجانب العربى. ومعظمها إلى مصر.

من ناحية خامسة رفض شاه إيران التصريح للطائرات السوفيتية بالاتجاه إلى سوريا عبر إيران. مضاعفا بذلك صعوبات الإمداد السريع لتعويض الجبهة السورية التى عانت خلال الأيام الأخيرة من تركيز إسرائيل هجماتها عليها. إن الشاه حليف مخلص لإسرائيل يريد أن يساعد بأى شكل فى هزيمة العرب.

أما فى الميدان الدبلوماسى. فقد كان كيسنجر ينتظر رد بريطانيا على طلبه فى الليلة السابقة بأن تتقدم إلى مجلس الأمن بمشروع القرار المقترح لوقف إطلاق النار. إن وزير الخارجية البريطانى. سير إليك دوجلاس هيوم. اتصل بكيسنجر ليخطره (بناء على الاتصال مع القاهرة) بأن السادات يرفض مجرد وقف أطلاق النار. وهو لن يقبل أى شىء أقل من التزام إسرائيل بالانسحاب إلى حدود ٤ يونيو ١٩٦٧. أما إذا كان كيسنجر يرفض ذلك. فإن الفرصة الوحيدة لفرض وقف إطلاق النار على مصر لن تأتى إلا إذا ضغط السوفييت على السادات بوقف إمداداتهم العسكرية. وهو لا يعتقد أن السوفييت يمكن أن يذهبوا إلى هذا المدى.

أخيرا طرح وزير الخارجية البريطانى فكرته على كيسنجر : لماذا لا نتقدم إلى مجلس الأمن بمشروع قرار يتضمن. إلى جانب وقف إطلاق النار. تشكيل قوة بوليس دولى تتسلم الأراضى العربية المحتلة وتبقى فيها إلى أن ينعقد مؤتمر دولى للسلام..؟

وعلى الفور.. رفض كيسنجر الاقتراح البريطانى.. !

وتفسيرا لذلك يقول كيسنجر : «إن هذا المشروع البريطانى بالنسبة لإسرائيل أسوأ من مشروع السادات. فبعد كل شىء. فأن تقديم فكرة القوة الدولية معناه الافتراض مسبقا أن تنسحب إسرائيل فورا إلى حدود ٤ يونيو ١٩٦٧. بينما السادات (من خلال اتصاله بكيسنجر عبر القناة السرية للمخابرات) لم يعد يطلب الآن سوى مجرد موافقة إسرائيل على مبدأ الانسحاب. لذلك. فإننى قلت لوزير الخارجية البريطانى إننا لن نؤيد مثل هذا المشروع» !

وبمجرد أن وضع كيسنجر سماعة التليفون. استبعد بريطانيا على الفور من ذهنه كشريك محتمل معه يسعى إليه. وبدأ يفكر فى... استراليا !

إن كيسنجر يكرر فى مذكراته مرة بعد مرة فكرة «إننا لا نستطيع أن ندع إسرائيل

تخسر الحرب» .. متجاهلا حقيقة الأرض التى يجرى عليها القتال هى أرض مصرية وسورية تحتلها إسرائيل بالفعل منذ ست سنوات. وكيسنجر لا يريد أن يذهب بأفكاره تلك صريحة إلى مجلس الأمن ضمن مشروع أمريكى. لأن هذا سيؤدى إلى تصاعد العداء العربى ضد الولايات المتحدة. الأمر الذى سيؤدى بدوره إلى إضعاف موقف كيسنجر داخل الإدارة الأمريكية نفسها. وترجيح كفة كل الآخرين الذين يطالبون بموقف امريكى متوازن.

لذلك فإن كيسنجر يريد أن يشق طريقه وسط الواقع الدولى الذى يدركه أمامه لأنه «..إذا دفعنا الأمور إلى مواجهة تكشف فيها كل الأطراف عن نفسها. فإننا سنكون وحدنا مع إسرائيل. ومن المحتم أننا سنصبح معزولين فى الأمم المتحدة.. لقد كان واضحا أننا نواجه مزيجا من الضغوط العربية. والمخاوف الأوروبية. والانتهازية السوفيتية... إن مصر وسوريا ستكونان قادرتين على الحصول على الأغلبية من أجل وقف إطلاق النار حينما تصبح الأشياء ساخنة جدا. ونحن لن نكون قادرين على وقف هذا لأى مدة طويلة بغير تكاليف سياسية ضخمة» .

ماذا يفعل رجل إسرائيل الأول فى الإدارة الأمريكية ؟

إنه يستصرخ إسرائيل قائلا لسفيرها دينتز : «الآن وقد قررنا أن نرفع الجسر الجوى إلى قدرته القصوى. وبالطائرات العسكرية الأمريكية. دعنى أحثكم على الإسراع بهجماتكم العسكرية بحيث يمكن إتمامها خلال ٤٨ ساعة من ذهابنا إلى مجلس الأمن حينما يحدث ذلك. إننا لا نستطيع تجميد الأمور (فى مجلس الأمن) أكثر من ذلك. ولن نكون قادرين على تبرير اعتراضنا على شىء – يقصد وقف إطلاق النار – تعرف دول عديدة أننا كنا نريده وندعوا إليه منذ أيام قليلة» .

والصورة – يقول كيسنجر – هى إنه منذ بدأت الحرب فأن كلا من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى كان يسعى إلى استراتيجية مشابهة. فكل منهما يسعى إلى تمكين أصدقائه من أن تكون لهم اليد العليا فى المعركة. وحينما تتطور الأمر «بدأ كل جانب فى تعويض أصدقائه عن خسائرهم. فنحن بدأنا مبكرين. من اليوم الثانى للحرب مباشرة (بالسماح بجسر طائرات العال بالعمل).. ثم قفز السوفييت بجسرهم الجوى يوم الأربعاء

(١٠ أكتوبر) . وكان من المقرر أن نحقق نحن أيضا نفس القدر من اليوم التالى لولا الصعوبات التى واجهناها من الشركات المدنية لطائرات الشحن. ولكننا أخيرا (بعد التحول إلى جسر أمريكى مباشر) سرعان ما سبقنا السوفييت وتجاوزناهم فى إمداداتهم بمجئ يوم الأحد ١٤ اكتوبر».

ثم يضيف كيسنجر قائلا: «لقد كان لدينا مصدران للقوة. إن حليفنا فى النهاية أقوى وأكثر قدرة على الاستفادة من إعادة إمداده. ثم أننا مستعدون للمغامرة والمجازفة بأكثر مما كانت موسكو مستعدة. فمجرد أن أصبح المأزق واضحا فإننا تحركنا بطريقة حاسمة. بل حتى بطريقة قاسية ووحشية. لكى نكسر هذا المأزق» .

والآن فإن كيسنجر. بعد أن رفضت بريطانيا أفكاره بالنسبة لمجلس الأمن. ورفضت موسكو اختيار استراليا كبديل. فإنه بدأ يلجأ إلى تخدير موسكو سعيا إلى تحييدها. لقد قال للسفير دوبرينين : إننا الآن سوف نغسل أيدينا من الأمر كله.. وندع الطبيعة تأخذ مجراها!.

كانت الجملة الأخيرة قد تكررت من قبل فى أحاديث كيسنجر وأفكاره.. فهو بكلماته. يعتبر أن انتصار إسرائيل وهزيمة العرب هو بمثابة حكم من أحكام الطبيعة.. وشىء لا فكاك منه لأنه إرادة القدر ومشيئة السماء التى لا ترد..!.

وكما سنلاحظ فى مراحل عديدة تالية. فإن كيسنجر هنا كان فقط يخادع الآخرين ويحتال عليهم. لكنه فى قرارة نفسه كان يعرف على وجه الدقة أين توجد الحقيقة.

فمباشرة بمجرد أن انتهى من توجيه تحذيره هذا إلى السفير السوفيتى. استدعى سكوكروفت نائبه فى مجلس الأمن القومى ليصدر إليه تعليماته «.. بشحن السفن الأمريكية بالمعدات (الحربية) إلى إسرائيل. بحيث إنه حينما يجئ وقف إطلاق النار ويوقف الجسر الجوى لكل جانب.. لا ينقطع فجأة شريان الحياة لإسرائيل».

إن أى تقدم تحرزه إسرائيل فى ميدان القتال إذن ليس لأن «الطبيعة تأخذ مجراها».. ولكنه بفضل شريان الحياة هذا الذى يستميت كيسنجر نفسه للإبقاء عليه ممدودا لإسرائيل. بل إنه. مع ضمان كيسنجر لفعالية «شريان الحياة» هذا.. ومعرفته بتفوقه حجما ونوعا عن

الجسر السوفيتى لكل من مصر وسوريا.. إلا أن كيسنجر مازال يريد مزيدا من الضمانات لصالح إسرائيل التى «يرتبط بها عاطفيا وعقليا» . لقد وجه رسالة إلى شاه إيران. الصديق والحليف الوحيد لإسرائيل بالمنطقة. يشكره فيها على موقفه. الذى رفض حلفاء أمريكا بأوروبا الغربية اتخاذ مثله. إن الشاه رفض التصريح بالمرور الجوى لطائرات الجسر الجوى السوفيتى المتجه إلى مصر وسوريا. حتى يعطل من إمكانية تعويض المقاتلين المصريين والسوريين بالسلاح. وبالإضافه إلى ذلك اتخذ الشاه إجراءات أخرى على الحدود الإيرانية العراقية لشغل أكبر عدد من القوات العراقية فتنخفض قدرة العراق على نجدة سوريا إلى أدنى مستوى. موقف يستحق الشكر من كيسنجر كما فعل فى رسالة منه إليه. يحث فيها الشاه على الاستمرار فى موقفه لأن الشاه يدرك أن أى انتصار عربى فى هذه الحرب هو انتصار للراديكالية العربية..!

وباعتبار أن الشاه هو أسوأ حاكم مستبد شهدته إيران فى تاريخها. فإن بدنه يقشعر دائما من كل شىء فيه شبهة راديكالية.. أو إشاعة راديكالية! ثم أن الشاه قامر من البداية على إسرائيل ضد العرب أجمعين.. ولم يعد أمامه. مثل كل مقامر. إلا أن يستمر فى الرهان. مهما كان الثمن.

وفى الوقت الذى أدى فيه موقف الشاه هذا إلى زيادة المسافة التى يجب أن تقطعها طائرات الإمداد السوفيتية (بعد أن أصبحت الآن ١٤٠ طائرة يوميا) إلى كل من مصر وسوريا. ومن ثم جعل الأمر أكثر صعوبة.. كان الجسر الجوى الأمريكى يأتى إلى إسرائيل يوميا بألف طن من الأسلحة والمعدات. بل إن تركيا واليونان واسبانيا. وكل أعضاء منظمة حلف شمال الأطلنطى ما عدا البرتغال وهولندا. أعلنوا رفضهم التام لاستخدام أراضيهم فى نقل المعدات لإسرائيل. أو حتى خروج الطائرات الأمريكية من أراضيهم للاستطلاع فوق مناطق القتال بالشرق الأوسط.

وخشية أن تثير الدول العربية المتاعب لأمريكا بسبب الجسر الجوى لإسرائيل (فقد كان كيسنجر يعرف من قبل أن عدم وجود غضبة عربية سيكون معجزة) فإنه بعد التشاور مع نيكسون بدأ بالكتابة إلى السادات فى مصر والملك فيصل فى السعودية.

وكان كيسنجر يعلم أن حججه التى يبديها فى تلك الرسائل غير مقنعة لأحد. فالجسر

الجوى الأمريكى لإسرائيل لم يكن أبدا ردا على الجسر الجوى السوفيتى لمصر وسوريا.. لأن الأول بدأ فعلا قبل الأخير بأربعة أيام كاملة. ثم أن كيسنجر فى رسائله تلك كان يختلق لنفسه الحق فى ضرب القوات المسلحة بمصر وسوريا.. كما لو كان هذا شرطا ضروريا للدور الدبلوماسى الأمريكى بعد وقف القتال.. !

على أية حال. لقد بدأ السادات دفع القوات المصرية الجديدة إلى سيناء يوم ١٤ أكتوبر كما هو متوقع. وكان كل من نيكسون وكيسنجر لا يتوقعان أن تستمر المعركة المصرية الإسرائيلية فى سيناء طويلا الآن على ضوء الظروف الجديدة. وبالفعل جرت معركة الدبابات هذه بحيث اشترك فيها من الجانبين ألفى دبابة. فى واحدة من أكبر معارك الدبابات فى التاريخ.

وهكذا. كما يسجل كيسنجر فى مذكراته. فإنه مع بزوغ فجر يوم الإثنين ١٥ أكتوبر كان مجرى القتال قد بدأ يتحول قليلا إلى صالح إسرائيل. ومن ناحية أخرى - يقول كيسنجر - بدأ السوفييت «يقضمون طعمنا» . إن كيسنجر رفض من قبل اقتراحهم بأن ينص مشروع قرار مجلس الأمن على التزام إسرائيل بالعودة إلى حدود يونيو ١٩٦٧. وبدلا من ذلك فإنه إبلغهم بأن أقصى ما يمكن هو ربط وقف إطلاق النار فى المشروع المقترح بإشارة إلى قرار مجلس الأمن ٢٤٢ (لسنة ١٩٦٧).. الذى يعتبره كيسنجر محتاجا إلى التفسير فى حد ذاته. الآن.. يقول السوفيت إنهم يدرسون اقتراح وزير الخارجية الأمريكى.

فى نفس الوقت بدأت ترد إلى واشنطن فى ١٥ أكتوبر ردود على الرسائل التى تم توجيهها فى اليوم السابق لعدد من الحكام فى الشرق الأوسط. وبكلمات كيسنجر فإن هذه الردود «.. قد أدهشتنى. إن الدول العربية المختلفة قد لا تكون استوعبت بعد حجم الجسر الجوى (الأمريكى لإسرائيل) لكنها تعرف على الأقل أنه ملموس. مع ذلك فإن ردود الفعل جاءت أكثر اعتدالا مما توقعنا» .

ومبدئيا فإن شاه إيران قال فى رده إنه طالما حذر من قبل من تأثير السماح للسلاح السوفيتى بتحقيق نصر حاسم فى المنطقة. بكلمات أخرى. فإن الشاه يغمز لكيسنجر

بعينه : إن الحجة التى تروج لها.. مقبولة. فلتوافق السـماء إذن مستر كيسنجر فى تحقيق انتصار إسرائيلى حاسم على مصر وسوريا.. !

أما السـادات. فقد أرسـل ردا. عن طريق حافـظ إسماعيل وقناة المخابرات السـرية. كان الجديد فيه من وجهة نظر كيسـنجر ثلاثة أشـياء : فأولا : لا يوجد أى طرف آخر يتكلم باسم مصر. بكلمات أخرى على كيسنجر ألا يلقى بالا بما يقوله الاتحاد السوفيتى فى واشنطن. ثانيا : السـادات يقدر مجهود الولايات المتحدة لوقف إطلاق النار كإجراء «تمهيدى» لتسـوية سياسية. بكلمات أخرى - إن الشـروط التى سـبق لوزير خارجية بريطانيا أن أبلغها لكيسنجر باعتبارها معبرة عن موقف مصر لم تعد الآن قائمة. ثالثا : السادات يدعو كيسنجر لزيارة مصر..!

ويعبر كيسـنجر عن سـعادته بهذه التطورات بقوله : «لقد كان السـادات يعرف إننا نعمل على إحباط خططه العسـكرية. لقد كان يستطيع بسهولة أن يستخدم الجسر الجوى (الأمريكى) كعذر للنكسات التى جعلت الهزيمة فى سيناء حتمية. وكان يستطيع أن يطلق الغوغاء فى العالم العربى ضدنا. كما فعل عبد الناصر مع اسـتفزاز أقل سـنة ١٩٦٧. ولكن السادات كان متعبا من إراقة الدماء فى سبيل قضايا عديمة الجدوى. لقد كان مستعدا لأن ينبـذ اتخـاذ مواقف.. من أجل تقدم ممكن. وبعكس عبد الناصر. فإن السـادات رأى أنه لا مسـتقبل لـه فى أن يكون قائدا للعرب الراديكاليين الذيـن يخلطون الانحياز بالخطابة الرنانة. لقد اخذ السادات قدرا من الدعم السوفيتى.. يكفى غالبا للاحتفاظ بالتوتر مرتفعا.. ولكنه غير كاف مطلقا للتوصل إلى تسوية» !

لكن الرد السـعودى جاء. فى رأى كيسـنجر. أكثر تعقيدا. فالرد الأول جاء من الأمير فهد نائب رئيس الوزراء. على رسـالة كيسـنجر. ويقول فيه : إن الموقف يتدهور.. وإنه يشعر بأن أصدقاء أمريكا هم الآن فى موقف بائس.

أما الرد الثانى فقد جاء من الملك فيصل ردا على رسالة نيكسون إليه. لقد أرسل فيصل بـرده فى ١٧ أكتوبر. وكانت كلماتـه مختصرة.. ومركزة.. وحاسمة. فالملك فيصل يطالب أولا بانسـحاب إسـرائيل من جميع الأراضى العربية المحتلة بما فيها القدس. وهو يحث على وقف كل شحنات الأسلحة الأمريكية إلى إسرائيل. لكنه لم يحدد سوى عقوبة غامضة

وغير مباشرة لو لم تذعن أمريكا : فإذا لم تنه الولايات المتحدة دعمها لإسرائيل.. فإن العلاقات السعودية الأمريكية سوف تصبح «فاترة» .

وكان التحليل الذى قدمه كيسنجر هو : إذا كانت المسألة فى النهاية ستصبح مجرد علاقة «فاترة» مقابل كل هذا الدعم بالسلاح الأمريكى لإسرائيل.. فإن الأمر بالتأكيد يستحق المخاطرة.

هكذا طمأن كيسنجر نفسه. ورئيسه. إلى موقف الملك فيصل.. مؤقتا.

لكن. فى اليوم السابق - أى ١٦ أكتوبر - كان السادات قد وجه نداء مفتوحا إلى الرئيس نيكسون فى خطاب عام ألقاه فى القاهرة. وبعدها بعث كيسنجر برسالة إلى السادات عبر القناة السرية للمخابرات. ذكر له فيها إنه «.. فيما عدا العمل على التوصل لوقف إطلاق النار. فإننى لم اعد السادات بشىء أكثر من العمل على تحقيق تسوية تتمشى مع القرار ٢٤٢ بكل أجزائه. بما فيها «انسحاب قوات كما يتصورها ذلك القرار» .

أما الذى يتصوره كيسنجر نفسه. أو الموقف الأمريكى فى هذه المرحلة. فلا شىء محدد. إن كيسنجر يعتمد على جهود إسرائيل فى ميدان القتال لكى «تردع» العرب عن التمسك بمطالبهم حتى يقتنعوا أنها قضايا «عديمة الجدوى» . بكلمات أخرى : لابد من أن يصاب العرب باليأس الكامل قبل التحرك نحو أى تسوية - نفس منطق ما قبل الحرب- لذلك فإن كيسنجر يطلب من وزارة الدفاع الأمريكى أن تضع فى اعتبارها أن يكون حجم الجسر الجوى الامريكى أعلى من نظيره السوفيتى للعرب بنسبة ٢٥ ٪ .

فى نفس اليوم تلقت واشنطن معلومات مباشرة من إسرائيل بأن الموقف العسكرى يتحسن تماما لصالحها على الجبهتين المصرية والسورية (وهنا يحذف كيسنجر حقيقة أن إسرائيل تلقت قبل أيام صورا للجبهة المصرية التقطتها طائرات استطلاع أمريكية.. الأمر الذى كان وراء عبور ٢٥ دبابة إسرائيلية - كبداية - إلى الضفة الغربية للقناة. فيما سيعرف تدريجيا باسم «الثغرة» ..

ثم وردت معلومات أخرى إلى واشنطن بأن رئيس الوزراء السوفيتى أليكسى كوسيجين قد ألغى اجتماعا له مع ضيفه رئيس وزراء الدنمارك. واستقل الطائرة من موسكو إلى القاهرة مباشرة للتباحث مع السادات. ولم يأخذ كيسنجر هذا التطور بانزعاج. ولكن بارتياح. لأن

المهمة الوحيدة التى يستطيعها رئيس الوزراء السوفيتى فى القاهرة هى الضغط على السادات لقبول وقف إطلاق النار - وهو ضغط لابد سيصيب العلاقة المصرية السوفيتية بالمرارة.

فى اليوم التالى ١٧ أكتوبر. توجه أربعة من وزراء الخارجية العرب إلى واشنطن. يمثلون السعودية والجزائر والمغرب والكويت. حيث اجتمعوا بكيسنجر أولا ثم بالرئيس نيكسون.

وكان هناك اختلاف ذو مغزى فى لهجة كل من المقابلتين. فبالنسبة لكيسنجر. فإنه حذر الوزراء العرب الأربعة من أن يتجاوزوا فى طلباتهم التزاما عاما بالقرار ٢٤٢. وألا يسعون للحصول على التزام إسرائيلى مسبق بالعودة إلى حدود ١٩٦٧ لأنه «.. إذا أصررتم على كل شىء كشرط مسبق قبل وقف إطلاق النار. فإن الحرب سوف تستمر». لقد كان كيسنجر يحاول أن يمزج أفكاره الخاصة للوزراء العرب بأفكار السياسة الأمريكية.

أما نيكسون. فبرغم التزامه بإسرائيل كحليف للولايات المتحدة.. إلا إنه لم يكن يعتبر نفسه رجل إسرائيل فى أمريكا. لذلك قال للوزراء العرب : «إننى سأعمل على وقف إطلاق النار. ليس لكى أوقعكم فى خديعة التوقف عند خطوط وقف إطلاق النار. ولكن لكى استخدمه للذهاب من هناك إلى تسوية على أساس القرار ٢٤٢... إننى أضمن لكم ذلك» .

والفرق بين كلمات كل من كيسنجر ونيكسون قد يبدو طفيفا لأول وهلة.. لكنه فارق ذو مغزى. سرعان ما ستزداد أهمية هذا المغزى شيئا فشيئا مع تطور الأحداث.

لكن الآن. فى ١٧ أكتوبر. كان كيسنجر يستطيع أن يطمئن رئيسه إلى شىء هام : إن هدوء الوزراء العرب الأربعة. جنبا إلى جنب مع رد الملك فيصل بأن كل ما سيحدث هو «فتور» العلاقات السعودية الأمريكية.. كل هذا يؤكد أن رد الفعل العربى للموقف الأمريكى جاء أكثر اعتدالا بمراحل.. مما كان يتوقعه نيكسون ويخشاه كيسنجر.

وبكلمات كيسنجر فى مذكراته : «فإن الجسر الجوى الأمريكى لإعادة إمداد إسرائيل بالأسلحة لم يلحق بنا أضرارا.. بل وربما زاد من اقتناع العرب بأن الولايات المتحدة هى المفتاح الحقيقى إلى تحقيق تسوية سلمية» .

لقد روج كيسنجر من البداية لفكرته الأساسية طوال الحرب : إن اللهجة الخشنة مع العرب.. والدعم غير المحدود لإسرائيل.. هما اللذان سيحسمان الموقف. والآن فكل الدلائل

تشير إلى صحة تنبؤات كيسنجر.

... إلا دليلا واحدا.

فلقد اجتمع وزراء البترول العرب لتوهم فى الكويت. وأصدروا قرارا بالإجماع بتخفيض إنتاج البترول العربى بنسبة خمسة بالمائة فورا. ثم نسبة مماثلة شهريا. إلى أن تنسحب إسرائيل إلى حدود ١٩٦٧. أكثر من ذلك. اتخذت الدول العربية الست الأعضاء فى منظمة «الأوبك» قرارا برفع سعر البترول بنسبة ٧٠ ٪. من ٣.٠١ دولار إلى ٥.١٢ دولار للبرميل الواحد.

كان هذا تطورا ثوريا أبرز تماما قيمة البترول العربى فى دعم القضية القومية.. ونقل المعركة إلى مستوى دولى يتجاوز كثيرا ميدان القتال والشرق الأوسط كله.

فأوربا الغربية. واليابان. تعتمد على البترول العربى تماما فى اقتصادها.ولقد كانت أوربا الغربية. منذ بداية حرب أكتوبر. ترفض الاشتراك فى لعبة كيسنجر.. وتحث الولايات المتحدة على سياسة أكثر توازنا فى الاعتراف للعرب بحقهم فى استعادة أراضيهم المحتلة. أما الآن فلم تعد أوروبا ترفض داخل المكاتب المغلقة. أو أروقة مجلس الأمن. من الآن فصاعدا ستحرص أوروبا الغربية. دولة دولة. على أن يكون انفصالها عن السياسة الأمريكية واضحا. وقاطعا. ومعلنا. ويضع أوروبا الغربية على أبعد مسافة ممكنة من الولايات المتحدة فى الساحة الدولية.

ومن الآن فصاعدا لن يستطيع كيسنجر أن يخدع أحدا بأن المواجهة هى بين سلاح سوفيتى.. وآخر أمريكى. إن المواجهة هى بين إسرائيل كقوة احتلال.. والعرب كأصحاب حق فى استعادة أراضيهم. بعد أن راوغتهم السياسة الأمريكية طوال ست سنوات. فطوال تلك المدة لعبت أمريكا لحساب إسرائيل.. والآن فإن أوربا الغربية ستدفع الثمن.

ومن الملفت هنا أن كيسنجر يقفز فى مذكراته قفزا بالنسبة لعلاقة هذا التطور الخطير بحرب أكتوبر. إنه يتناوله فى أقل من نصف صفحة. محيلا قارئه الامريكى إلى فصل آخر فى المذكرات يتناول فيه «أزمة الطاقة» . بالطبع كيسنجر يهمه لأسباب ذاتية التقليل تماما. وأحيانا إجهاض. حقيقة أن هذا الموقف العربى البترولى جاء نتيجة حتمية لحرب أكتوبر.. التى جاءت بدورها نتيجة حتمية لما دعا إليه كيسنجر من البداية : إنه يجب أن يصاب العرب أولا باليأس الكامل.. قبل التحرك نحو أى تسوية.. !

وقد رأينا أنه طوال الحرب كان كيســنجر يختلس لدعم إســرائيل العسكرى حجة انه لا يجب السماح للسلاح السوفيتى بالانتصار على السلاح الأمريكى.

الآن ســيختلس حجة أخرى : إنه لا يجب الســماح للعرب بالحصول على أراضيهم المحتلة بممارسة الضغط البترولى على أمريكا..!

إن كيســنجر سيروج لتلك الحجة داخل وخارج الإدارة الأمريكية قدر استطاعته. ولأن المواجهة السياســية هى كالمواجهة العســكرية.. تحتاج إلى طرفين وليس إلى طرف واحد.. فانه ســيبقى على الطرف العربى أن يســعى لهزيمة أهداف كيســنجر.. أو يستسلم ويمهد لنجاحها. وإذا كان كيســنجر يمثل اتجاها قائمــا بالفعل داخل الإدارة الأمريكية.. إلا أن هنــاك دائما اتجاها آخر أكثر صرامة فى الالتزام بالمصــالح الأمريكية. والطرف العربى هو الذى يملك فى النهاية أن يرجح كفة أحدهما على الآخر.

ولكن هذا كله لن يحســمه إلا دبلوماســية ما بعد الحرب. أما الآن فبعد أن وردت إلى واشنطن قرارات مؤتمر وزراء البترول العرب. فإن كيسنجر يكرر. من خلال السفير دينتز. حثه للحكومة الإسرائيلية للإسراع بحسم الموقف العسكرى لصالحها.

فى اليوم التالى. الخميس ١٨ أكتوبر. أعلنت إســرائيل أنها تقوى رأس الجســر الذى أقامتــه عبر القناة إلى الضفــة الغربية. والذى أصبح الآن بعرض ثمانية أميال إلى الشــمال وأربعة أميال إلى الجنوب.

فى نفس اليوم جاء رد الملك فيصل على رسالة الرئيس نيكسون (الذى تمتصه فضيحة ووترجيــت يومــا بعد يوم). إن فيصل يذكر فى رســالته أن هذه الحرب الجارية لا يمكن إنهائها إلا إذا عادت إسرائيل إلى حدود ١٩٦٧. لكن «.. إذا استمرت الولايات المتحدة فى الوقوف جنبا إلى جنب مع إسرائيل. فإن هذا سيضعف من الصداقة السعودية الأمريكية».

وفــى هــذه المرة. وحتى يتأكد الملك فيصل أن كلماته لن تؤخذ باســتخفاف كما حدث فى الرســالة الســابقة. فإنه اتخذ موقفا عمليا للغاية فى نفس اليوم : إن السعودية قررت خفض انتاجها بنسبة عشرة بالمائة شهريا. وليس مجرد الخمسة بالمائة التى أعلنها وزراء البترول العرب فى اليوم الســابق. ثم : حذرت الســعودية من أنها قد توقف تماما شــحن

البترول السعودى إلى الولايات المتحدة إذا لم يتم التوصل إلى «نتائج سريعة ملموسة» بالنسبة للمطالب العربية.

ثم جاء السفير الإسرائيلى دينتز فى نفس المساء إلى كيسنجر برد جولدا مائير على فكرة ربط وقف إطلاق النار بالقرار ٢٤٢. إن كيسنجر لا يريد أن تتقدم الولايات المتحدة إلى مجلس الأمن بأى شــىء إلا إذا ضمن مســبقا انه مُرض لإسرائيل. الآن. وقد أدركت إسرائيل من رجلها فى واشنطن أنها تستطيع أن تقرر للسياسة الأمريكية ما يحلو لها. فإن جولدا مائير تعترض ! لقد كان القرار ٢٤٢ بمثابة «الكتاب المقدس» الذى تتمسك به إسرائيل طوال ست سنوات سابقة. بكلمات كيسنجر. وتفسره على هواها. لكن الآن.. فطالما هى تمتلك الاختيار.. فإن جولدا مائير تبلغ كيسنجر بأن القرار ٢٤٢ «كان نتيجة لحرب ١٩٦٧ ولا علاقة له بالحرب الحالية» !

وفى تلك اللحظة لم يتذكر كيسنجر إنه وزير خارجية دولة عظمى اسمها الولايات المتحدة. ولكنه تذكر فقط انه رجل إسرائيل فى واشنطن. لذلك. فبدلا من أن ينهر السفير الإسرائيلى. فإنه ألح بأن يحث حكومته مرة أخرى وأخرى. على أن تســتكمل عملياتها الحربية القاضية ضد المصريين والسوريين خلال ٤٨ ساعة.. !

إن اســتمرار السماح لإسرائيل بالتقدم العســكرى. بفعل الدعم العسكرى والغطاء السياسى الأمريكى يمكن. بكلمات كيســنجر نفســه. أن «يعرض للخطر علاقاتنــا مع أوروبا واليابان. ويدفع (العرب) إلى حظر بترولى. وإلى مواجهة مع السوفييت. وتحدى الباقين لنا من أصدقائنا العرب» . إن كيسنجر يعرف المخاطر إذن. ولكنه مع ذلك يحاول الاستمرار فى تغطية إسرائيل سياسيا ضد هذا كله..!.

وكان يمكــن أن يســتمر الأمر على هــذا النحو طويلا.. لولا أن كيســنجر ليس هو اللاعب الوحيد على المســرح. ففى الســاعة التاسعة والربع من نفس المساء. الخميس ١٨ أكتوبر. جاء السفير السوفيتى برسالة عاجلة من بريجينيف إلى الرئيس نيكسون. إن السوفييت أعدوا مشروع قــرار لتقديمــه إلى مجلس الأمن ينص على ثلاثة نقاط : وقف إطلاق النار.. ونداء بانســحاب إسرائيل فورا من الأراضى العربية المحتلة تنفيذا للقرار ٢٤٢.. ونداء لإجراء المشاورات الملائمة بهدف التوصل إلى سلام عادل.

وأبلغ كيسنجر السفير السوفيتي باعتراضه التام على النقطة الثانية.. أما النقطة الثالثة فتحتاج إلى إيضاح. ويا حبذا.. لو قصد بها مفاوضات مباشـرة بين إسرائيل والعرب (وهو مطلب إسرائيلى رفض العرب الاستسلام له فى قمة هزيمتهم عام ١٩٦٧).

ثم اتصل كيســنجر بالرئيس نيكسون يبشــره بقوله : إن السوفييت كما يبدو. قادمون إلينا فى طريقنا.. !

بعدها اتصل بالســفير الإسرائيلى دينتز لكى يطلعه على موقف نيكسون. والسوفييت. وكل المعلومات الواردة إلى واشنطن كما هى العادة.

لكن. مازال كيسنجر يحتاج إلى ستارة دخانية لكى يحجب مغزى حركته.. أو بالأدق.. عدم حركته. لهذا فإنه يكتب إلى الملك حســين رسالة يبشره فيها بأنه بمجرد وقف إطلاق النار فإن مصالح الأردن سوف توضع بالطبع.. فى الاعتبار.

ما هى هذه المصالح ؟ وكيف يفهما كيسنجر على وجه الخصوص ؟ لم تحدد الرسالة.

رســالة أخرى إلى السادات. عبر القناة السـرية للمخابرات : إن كيسنجر يكرر الأمل فى وقف إطلاق النار.. !

لكن. لماذا لا يذهب كيسنجر إلى مجلس الأمن ؟ لماذا. حتى. لا يتوقف عن عرقلة جهود الآخرين للذهاب إلى مجلس الأمن ؟ إن كيسنجر نفسه يقرر أن السوفييت لو تقدموا بمشروعهم إلى مجلس الأمن فإنه «ســوف يمر بالتأكيد لأنه ســيحظى بمساعدة أصوات أوروبا ودول عدم الانحياز. بل وحتى الصين قد تؤيده. فباســم أى شــىء سنعترض نحن لحظتها على القرار ؟ وإذا اعترضنا. فإننا ســوف نكون بمفردنا فى الأزمة التى تتبع ذلك. دافعين الســوفييت إلى تهديدنا. والأوربيين إلى الانفصال عنا. والراديكالية العربية إلى التحريض ضدنا» .

ولم يوضح كيسنجر لقارئه الأمريكى أبدا ما الذى يقصده هنا بهذه «الراديكالية العربية» هل هى الســادات الذى – حتى فى هذه المرحلة – يعتبره كيســنجر «نصف خصم.. فى طريقه إلى أن يصبح صديقنا» أو الملك حسين ؟

لقد كانت تكتيكات كيســنجر تســتهلك نفســها الواحد بعد الأخــر. والأزمة تتصاعد أبعادها الدولية يوما بعد يوم. بل ســاعة بعد ســاعة. وإســرائيل. برغم محاولتها للتقدم

فى الجبهتين المصرية والسورية. إلا إنها تدفع فى تلك المحاولة ثمنا ضخما أمام ضراوة المقاتلين فى الجبهتين. وبرغم كل مراوغات كيسنجر وحيله منذ بدأت الحرب. إلا أن الـ «٤٨ ساعة أخرى» لم تتحقق أبدا. ونجاحها النهائى ليس مضمونا مطلقا بفضل حقيقتين برزتا على المسرح الدولى لأول مرة : الأداء العصرى الحديث والمتطور للمقاتل المصرى والسورى.. والموقف العربى الصلب الذى أعطاه سلاح البترول أبعادا دولية ضخمة النتائج.. وبدأت تلزم جميع الأطراف بتحديد موقفها بوضوح.

إن كيسنجر يجهد نفسه فى البحث عن تكتيكات جديدة. أملا فى أن تتحقق المعجزة «خلال ٤٨ ساعة» لا تأتى أبدا. لقد أصبح للإسرائيليين ٣٠٠ دبابة على الضفة الغربية لقناة السويس. وهم يحاولون الاتجاه إلى الإسماعيلية شمالا وإلى البحيرات المرة جنوبا، لكن الانهيار الذى يسعون إليه فى جبهة القتال لم يحدث أبدا.. لا فى مصر.. ولا فى سوريا.

ولأن عنصر الوقت أصبح حاسما لجميع الأطراف.. فقد اتخذ السوفييت خطوة جديدة. لقد وجه بريجينيف رسالة عاجلة إلى الرئيس الأمريكى نيكسون. يطلب فيها منه إيفاد وزير خارجيته هنرى كيسنجر إلى موسكو غدا. ٢٠ أكتوبر. بسلطات كاملة. للتشاور فى الموقف. ورآها كيسنجر فرصة جديدة لكسب الوقت..!

لكن نيكسون لم يرها كذلك. فمصالح الولايات المتحدة أوسع نطاقا وأكثر شمولا من إسرائيل. وإذا كان نيكسون. فى غياب أية ضغوط مضادة. سوف يميل إلى دعم إسرائيل. إلا إنه فى ظل موقف دولى يحتم علية الاختيار.. فإنه سيعطى لمصالح أمريكا الأولوية على أطماع إسرائيل.

والخطر على مصالح الولايات المتحدة يزداد مع استمرار الحرب ساعة بعد ساعة. فالدول العربية المنتجة للبترول أعلنت حظرا شاملا على تصدير البترول إلى الولايات المتحدة. والسوفييت الآن بدأوا يفقدون صبرهم على مراوغات كيسنجر. وحلفاء أمريكا فى أوروبا الغربية واليابان يسجلون علنا اختلافهم القاطع من السياسة الأمريكية فى الأزمة.

من هنا لم يتردد نيكسون لحظة واحدة فى الاستجابة لدعوة السوفييت. فكلف كيسنجر بالسفر إلى موسكو فى الموعد المحدد. وخرج كيسنجر محاولا التفاهم مع السفير السوفيتى

دوبرينين. إنه يريد أن يضمن ألا يتخذ السوفييت عملا منفردا. بالذهاب إلى مجلس الأمن مثلا. أثناء تواجده فى موسكو. إنه سيسافر فى صباح السبت (٢٠ أكتوبر) فيصل إلى موسكو فى المساء. لكنه يرجو إلا تبدأ المباحثات ألا فى صباح اليوم التالى.

لم يوضح كيسنجر السبب. لكن كان واضحا تماما أن كلا من القوتين العظمتيين تفهم تماما لعبة القوة الأخرى. فالسوفييت يقيمون جسرا جويا لإمداد القاهرة ودمشق بالأسلحة. لكنهم عاجزون عن التأثير الدبلوماسى فى العاصمتين لقبول وقف إطلاق النار. والولايات المتحدة تقيم جسرها الجوى والبحرى إلى إسرائيل ولكنها تريد أولا أن تضمن تحول الموقف العسكرى بحسم لصالح إسرائيل قبل أن تتدخل دبلوماسيا. وكيسنجر يشرح هذا مرة أخرى بوضوح للسفير الإسرائيلى. ويبشره بأن رحلته إلى موسكو تعنى ثلاثة أيام إضافية لإسرائيل لعلها تفعلها هذه المرة وتحسم الموقف العسكرى.

إن كيسنجر يشق طريقه وسط هذه الشبكة المتقاطعة بطريقة ماهرة. وإن لم تكن نتيجتها مضمونة. فكسب الوقت والمراوغة والتحايل قد يحقق لإسرائيل موقفا عسكريا أفضل. لكن العبرة ستظل فى نهاية المطاف. بعد هذه المواجهة العسكرية. متوقفة على من الذى سينتصر سياسيا على الآخر.

ولم يكن كل هذا يخفى على كيسنجر. لذلك فقد كانت أهمية حسم إسرائيل للموقف العسكرى تكمن بالنسبة له فى محاولة المساومة فيما بعد بثمن سياسى لصالح إسرائيل. انه الآن يكرر إلحاحه على السفير الإسرائيلى بحسم الموقف العسكرى. ويطلعه على أخر التطورات فى موقف جميع الأطراف لحظة بلحظة. إنه يريد من الحكومة الإسرائيلية إخطاره أولا بأول. وبالتفصيل. بمجريات الحرب على الجبهتين. يريد ثلاثة تقارير على الأقل يوميا طوال الأيام الثلاثة التى ستستغرقها رحلته إلى موسكو. واستجابة لرغبة جولدا مائير. فإن كيسنجر يخطر السفير الإسرائيلى بأنه سيعارض فى موسكو محاولة ربط وقف أطلاق النار بتنفيذ القرار ٢٤٢. ولكنه إذا فشل فى ذلك. فسوف يعارض على الأقل افتراض بان القرار ٢٤٢ يعنى انسحابا فوريا وكاملا لإسرائيل من الأراضى العربية المحتلة. وفى جميع الأحوال فلن تصل المباحثات مع السوفيت إلى نتائج قاطعة قبل مساء الأحد. إننا

الآن يوم الجمعة. وأمام إسـرائيل ٧٢ ساعة أخرى يجب أن تحقق خلالها أقصى مكاسب عسكرية فى ميدان القتال. أقصى مكاسب. مفهوم ؟.

لم تكـن إسـرائيل فى حاجة إلى مزيد مـن الفهم للقاموس الذى يتكلـم به رجلها فى واشـنطن. فجسـر المعلومات والاتصالات ممتد بينهما ٢٤ سـاعة يوميا وإسرائيل تحصل بانتظـام. منـذ اليوم الأول مـن الحرب علـى «كل ذرة معلومات» فى تقاريـر المخابرات والاسـتطلاع التى يتلقاها كيسـنجر كمستشـار للأمن القومى. وكذلك المعلومات عن نوايا الآخرين التى يعرفها كوزير للخارجية.

لكن. مع اقتراب طائرة كيسـنجر من موسـكو مسـاء السـبت (٢٠ أكتوبر) كان هناك تطـوران هامان. الأول هو تقرير أرسـلته إسـرائيل إليـه فى الطائرة. بـه مواقع القوات الإسرائيلية بالتحديد فى كل من جبهتى القتال. ثم -وهذا هو التطور المزعج تماما بالنسبة لكيسنجر- تقرير تفيد فيه إسرائيل أن قواتها المسلحة قد وصلت حاليا إلى درجة من الإعياء والإجهاد فى ميدان القتال أمام القوات المصرية والسورية.. بحيث أن هذا العامل وحده هو الذى سـيضع فى اى لحظة حدا لمحاولة التقدم الإسـرائيلى.. بصرف النظر عما يجرى أو لا يجرى من مباحثات فى موسكو. إن إسرائيل تعانى لأول مرة. فى سيناء والجولان. من مسـتوى قتالى عربى لم تعرفه منذ قيامها. إن إسرائيل تحاول.. ولكنها لا تضمن الاستمرار فى المحاولة.

أمـا التطور الآخر فقد كاد يقلب خطط كيسـنجر كلها رأسـا على عقـب. فإذا كانت تطـورات فضيحة ووترجيـت قد امتصت من البدايـة جزءا كبيرا مـن اهتمامات الرئيس نيكسـون السياسية.. إلا أن الأبعاد الدولية الخطيرة لما يجرى فى الشرق الأوسط. عسكريا وسياسيا. بدأت تفرض علية ضرورة أن يستعيد الخطوط فى يديه حتى لا يفلت الموقف.

لقد أعد نيكسون مسودة رسالة إلى الزعيم السوفيتى بريجينيف. ينوى إرسالها إليه عن طريق السـفارة السوفيتية فى واشنطن. ويخطره فيها بأن وزير خارجيته قادم إلى موسكو. وهو مفوض منه تماما. أى من نيكسـون. بسلطات كاملة. وأن «الالتزامات التى قد يرتبط بها (كيسنجر) فى مجرى مناقشاتكم معه تتم بمساندتى ودعمى الكاملين».

ثم استرسل نيكسون مواصلا نداءه إلى بريجينيف من أجل «التزام صلب من كلينا بأن نكرس جهودنا الشخصية لتحقيق هذا الهدف.. السلام النهائى.. وأن نعبر عن القيادة القوية التى سيجدها أصدقاؤنا فى المنطقة مقنعة. إننى بعثت برسالة إلى الدكتور كيسنجر. لينقلها إليكم شفويا. بالتزامى القوى فى هذا الصدد» .

ويصف كيسنجر شعوره بمجرد أن قرأ رسالة رئيسه بقوله «لقد شعرت بالرعب والفزع. إن الرسالة تعنى أننى قد تجردت من أى قدرة على التسويف والمماطلة (مع السوفييت). إن إخطارهم فى موسكو بأننى مفوض بـ «سلطة كاملة» يجعل من المستحيل على أن ازعم لهم بحاجتى إلى مراجعة الرئيس فى واشنطن للحصول على موافقته. ولو فقط لاستهلاك الوقت من أجل التشاور مع إسرائيل. أكثر من ذلك. فإن الرسالة تتضمن أننا والسوفيت سوف نفرض تسوية شاملة على الأطراف المعنية فى الشرق الأوسط. واننى مفوض لمناقشة هذا الموضوع أيضا.. وهو تنازل (أراه) مضادا تماما لاستراتيجيتنا حتى الآن. والتى سعت إلى فصل وقف إطلاق النار عن التسوية السياسية» .

وأرسل كيسنجر على الفور. من طائرته المتجهة إلى موسكو. إلى نائبه فى مجلس الأمن القومى يرجوه إبلاغ الرئيس نيكسون برأيه فى ضرورة وقف هذه الرسالة عن المضى فى طريقها. لكن الرد جاء سريعا إلى كيسنجر فى الطائرة. لقد تم تسليم الرسالة إلى السفارة السوفيتية فى واشنطن رسميا فعلا. فى الساعة الحادية عشر و ٢٥ دقيقة صباح اليوم السبت ٢٠ أكتوبر.

ولم يعد أمام كيسنجر من حيلة سوى أن يدبر أموره فى موسكو. لقد كان قد تم التفاهم من قبل على ألا تبدأ المباحثات إلا فى صباح اليوم التالى. ولكن الآن. بعد وصوله إلى موسكو بالفعل. فإنه تلقى دعوة لتناول العشاء مع بريجينيف.

وكان من الطبيعى أن يبدأ بريجينيف مناقشة. قال إنها «غير رسمية» .. مع كيسنجر. لقد قال بريجينيف لوزير الخارجية الأمريكى أن خطر هذه الحرب كان كامنا فى الشرق الأوسط طوال السنوات الأخيرة.. وإنه لو كان الرئيس نيكسون. وكيسنجر معه. قد استمعوا إلى نصيحته فى يونيو الماضى.. لما كانت هذه الحرب قد نشبت.

وكان بريجينيف. كما يشير كيسنجر هنا فى مذكراته. قد حاول إقناع نيكسون أثناء اجتماعهما معا فى سان كليمنت بالولايات المتحدة فى يونيو الماضى. بعرض متكامل لحل الأزمة فى الشرق الأوسط. إن العرض هو أن تشترك الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى معا فى فرض تسوية سلمية على كل من العرب وإسرائيل حتى لا تنشب الحرب من جديد. وهذه التسوية. كما حددها بريجينيف وقتها. تقوم على أساس انسحاب إسرائيل الكامل من جميع الأراضى العربية المحتلة منذ يونيو ١٩٦٧. مقابل التزام العرب بإنهاء حالة الحرب.

ويومها قال بريجينيف لنيكسون : فليكن اتفاقنا هذا سريا.. أو علنيا.. كما تشاء. ولكنى أرى أن هذه هى التسوية الوحيدة الممكنة للنزاع.

ولكن نيكسون رفض هذا العرض فى لحظتها.. مفضلا ترك الأمر ليتابعه بعد ذلك وزير خارجيته كيسنجر.. الذى لم يتابع أى شيء بالطبع.

والآن. فى مساء ٢٠ أكتوبر. وبعد أن قامت الحرب فعلا. فإن بريجينيف يذكر كيسنجر بعرضه هذا.. وبأنه مازال قائما. لكن كيسنجر يقول له : لقد جئت لمناقشة وقف إطلاق النار.. وليس لمناقشة التسوية السياسية.. !

وقال له بريجينيف : كيف يتمشى هذا مع رسالة نيكسون بإنك مفوض بسلطات كاملة؟

يسجل كيسنجر فى مذكراته. إنه عند تلك النقطة جرى بعض التشاحن. لكن بعدها تم الاتفاق على تأجيل المناقشة إلى المباحثات الرسمية فى الصباح التالى.

ويقول كيسنجر. إننى مقتنعا بأننا فى موقف قوى لتحقيق الشروط التى نسعى إليها. وهى : وقف إطلاق النار. والربط بطريقة غامضة بينه وبين القرار ٢٤٢. وفتح الطريق أمام مفاوضات بين إسرائيل والعرب.. تكون هى أول مفاوضات مباشرة بين الدولة اليهودية منذ قيامها وبين العرب. لكن كيسنجر عاد من عشائه مع بريجينيف إلى بيت الضيافة. لكى يجد مفاجأة فى انتظاره. وفى هذه المرة جاءت المفاجأة من رئيسه هو.. !

فقد أرسل إليه الرئيس نيكسون التعليمات التفصيلية التى كان قد أشار إليها من قبل فى رسالته إلى بريجينيف. فى هذه المرة التعليمات حاسمة. وواضحة. وقاطعة. يحدد فيها نيكسون رؤيته لأبعاد الأزمة وكيفية حلها.

يقول نيكسون فى تعليماته إلى وزير خارجيته إنه أصبح مقتنعا الآن بأن على الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى أن يشتركا معا فى استخدام نهاية هذه الحرب الدائرة الآن لفرض تسوية شاملة فى الشرق الأوسط.

وأضاف نيكسون فى تعليماته القاطعة لوزير خارجيته : «إن النجاحات (العسكرية) الإسرائيلية الحالية يجب ألا تصرفنا عن المضى فى تحقيق تسوية عادلة.. الآن». ويقر نيكسون إنه أدرك متأخرا جدا صحة أراء بريجينيف التى أدلى بها إليه فى سان كليمنت عند اجتماعهما معا فى شهر يونيو الماضى. والمتعلقة بضرورة وأسس التسوية العادلة.

ثم. فى إشارة من نيكسون إلى الضغوط اليهودية المحتملة داخل الولايات المتحدة ضد مثل هذه التسوية الشاملة. يقول بالحرف الواحد : «إن الاعتبارات السياسية داخل الولايات المتحدة لن يكون لها مطلقا. وأكرر : لن يكون لها مطلقا. تأثير على قراراتنا فى هذا الصدد. إننى أريدك أن تعرف أننى مستعد للضغط على الإسرائيليين إلى المدى المطلوب. بصرف النظر عن النتائج السياسية الداخلية» .

كانت هذه أول صحوة حقيقية للمصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط منذ عام ١٩٧٠ عندما تقدمت الولايات المتحدة بمبادرة روجرز. فالعرب من البداية يريدون التسوية الشاملة القائمة أولا على إعادة إسرائيل إلى حدود ١٩٦٧.. بينما تريد إسرائيل الصلح المنفرد مع مصر فقط. لأن هذا يعزل مصر عن العالم العربى أولا. ويطلق يد إسرائيل وأطماعها ضد الشعب الفلسطينى والأراضى العربية والمنطقة كلها ثانيا.

إن هذا فى الواقع جوهر الصراع الدائر منذ يونيو ١٩٦٧. وهو أيضا المبرر الوحيد لكل التضحيات التى تحملتها مصر وسوريا. وكل التضحيات التى تقدمها القوات المسلحة فى كل من مصر وسوريا الآن منذ بدأت حرب أكتوبر. فمصر وسوريا لم تعدان لهذه الحرب من البداية من أجل اتفاقيات جزئية أو منفردة. وإنما بالضبط من أجل هذه التسوية الشاملة.

وإذا كان الرئيس الأمريكى نيكسون قد وصل. لأسباب خاصة بمصالح بلاده. إلى نفس النتيجة الآن عبر طريق آخر.. فإن هذا يعنى أن الطرف العربى يستطيع بمزيد من الصمود تحقيق الهدف السياسى الشامل. انه نجاح حتمى. إذا عرفت الأطراف العربية – مصر

وسوريا على وجه الخصوص - كيف تدير الآن المواجهة السياسية التى أصبحت على وشك أن تبدأ. وتضحيات ســت سنوات سابقة. بالمال والجهد والرجال والصمود والمناورة والمناورة المضادة والمقاومة والتخطيط والمواجهة والإصرار.. كل هذا تم تسديده مقدما بالفعل.. من أجل هذه اللحظة الفاصلة التى تحتاج قبل كل شيء إلى التمسك بالهدف الشامل المقرر من البداية.

وكان كيسنجر يدرك هذا كله.. ويدرك أن العوامل المضادة له ضخمة وفى صالح العرب على طول الخط.. من هنا كانت مراوغاته ومحاولاته التى تحركها رغبته الدائمة من البداية من: إنه يجب أن يصاب العرب أولا باليأس الكامل.. قبل أن يبدأ أى تحرك.

وكيســنجر فى ذلك كان يمثل مجرد اتجاه واحد داخل السياسة الأمريكية. لكن.. فى مقابــل ذلك.. كان هناك الاتجــاه الآخر. الذى يرى أن السياســة «المتوازنة» هى الضمان الحقيقى فى المدى الطويل للمصالح الأمريكية بالشرق الأوسط. وبالتالى فإنه لابد من موقف حازم ضد أطماع إسرائيل فى المنطقة.

الاتجاه الأول يريد الدفاع عن بقاء إسرائيل.. وغزواتها أيضا.. بينما الاتجاه الثانى يريد الدفاع عن بقاء إسرائيل.. فحسب.

والذى يجعل الاتجاه الأول قوة راجحة داخل السياســة الأمريكية هو عدم وجود ضغط عربــى حقيقى على الولايات المتحــدة. أما فى حالة وجود ضغط جاد. مصحوب بالإصرار العربى. فإن هذا يؤدى فورا إلى ترجيح الاتجاه الثانى.

من هنا يجئ اتجاه نيكســون أخيرا فى تلك اللحظات الحرجة من حرب أكتوبر. لقد وجد أن الاتجاه الأول لم يؤد فى النهاية إلى استســلام المقاتل المصرى أو الســورى.. كما لم يؤد إلى حماية المصالح الأمريكية.. بل وجد أن الخطر يتزايد أمامه على هذه المصالح نفسها.

هكذا فإن كيسنجر. فى ليلته الأولى هذه فى موسكو. كان يدرك أن قدرته على المناورة تنخفض.. ورئيســه الآن مســتعد لدفع كل ثمن سياسى من أجل ما وجد أنه لا مفر منه : التسوية الشاملة.. العادلة.. وأوروبا الغربية تضغط على حليفتها. والاتحاد السوفيتى لم يعد يحتمل المزيد من المراوغة. وإسرائيل ذاتها تعترف فى برقيتها السرية بأن قوتها ستفقد كل قدرة على التقدم فى أى لحظة.

ويقول كيسنجر : اننى خرجت لتوى من مباحثات «غير رسمية» مع بريجينيف رفضت فيهـا بالضبط ربط وقف إطلاق النار بالاتفاق على التسوية السياسية. والآن فأن جهلى ساعتها بتعليمات الرئيس نيكسون جاء نعمة !

ثم يسرع كيسنجر بتلفيق المبررات لقارئه الأمريكى : فما يتصوره الرئيس نيكسون الآن هو مفاوضات مطولة نقوم بفرض نتائجها على إسرائيل. بينما الفصل الأخير من الحرب يتم خوضه بسلاح سوفيتى فى الجانب العربى. إن العرب (لو مضينا فى الطريق الذى يريده نيكسون) سوف ينسبون إلى موسكو فضل إرغامنا على السير فى طريق تفاديناه حتى الآن. وسوف يختفى نفوذنا فى الدول العربية. وسوف يميلون إلى الاعتماد على الاتحاد السوفيتى إلا إذا كان السوفييت مستعدون للانفصال عن البرنامج العربى المتشدد (أى انسحاب إسرائيل إلى حدود ١٩٦٧).. وهو الأمر الذى لم نرى حتى الآن مطلقا أى ذرة دليل عليه..!!

وأسرع كيسنجر بإرسال برقية إلى سكوكروفت نائبه كمستشار للأمن القومى لإبلاغ مضمونها إلى الرئيس نيكسون. قال فيها : «إن الرسالة التى بعث بها الرئيس نيكسون إلى بريجينيف قد استخدمت ضدى بالفعل. فالسكرتير العام (بريجينيف) رفض أن يسلم بصحة حجتى عندما قلت له على أن أرجع بأى مشروع إلى واشنطن للدراسة. ونود بحقيقة أن لدى بالفعل سلطات كاملة خولها لى الرئيس. وكنتيجة لذلك فإن موقفى هنا يبدو بلا حل. فإذا نفذت خطاب التعليمات التى بعث التى بها الرئيس. فإن هذا سيؤدى إلى التدمير التام لقدرتى الضئيلة التى مازالت لدى على المساومة. إن هدفنا الأول يجب أن يكون وقف إطلاق النار. إن هذا سيكون من الصعب بما فيه الكفاية إقناع الإسرائيليين بقبوله. وسيكون مستحيلا كجزء من اتفاق عالمى. وإذا استمرت الحرب. فالنتائج لا يمكن التنبؤ بها. إننا نستطيع سلوك الطريق الموجود فى ذهن الرئيس بعد التوصل إلى وقف لإطلاق النار يكون مقبولا لإسرائيل. ولكن.. ليس قبل ذلك..»

ولأن كيسنجر يريد أن يضمن وصول وجهة نظره إلى الرئيس نيكسون بصيغة مناسبة يمكن للرئيس أن يقبلها. فإنه لم يكتف ببرقيته تلك إلى نائبه. وإنما اتصل تليفونيا بأكثر

الأشـخاص قربا مـن الرئيس بحكم منصبه: ألكسـندر هيج كبير موظفـى البيت الأبيض. وقال له هيج : أرجوك أن تحل عن أكتافي.. فلدى الرئيس هنا فى واشـنطن ما يكفيه من المتاعب..! وكان هيج يشير بذلك إلى التطورات الجديدة المتلاحقة بشأن فضيحة ووترجيت.

على أية حال. فقبل المضى مع كيسـنجر فى مذكراته. علينا أن نلاحظ هنا كذبه فى نقطتين جوهريتين:

أولاـ بالنسـبة لوقف أطلاق النار الذى «سـيكون من الصعب بما فى الكفاية إقناع إسرائيل بقبوله» . فكيسـنجر نفسه أول من يعلم من الرسالة السرية التى تلقاها فى الطائرة من السفير الإسـرائيلى دينتز بأن إسـرائيل تتعجل التوصل إلى وقف إطلاق النار. بل إن موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى نفسه أعلن فى اليوم التالى أن إسرائيل ليست فى موقف يسمح لها بمعارضة وقف إطلاق النار.

وثانياـ فإن النقطة الأخرى التى يكذب فيها كيسنجر على رئيسه هى زعمه «نستطيع سلوك الطريق الموجود فى ذهن الرئيس بعد التوصل إلى وقف إطلاق النار..» . فالتسـوية الشـاملة إذن يمكن السـعى إليها بعد وقف إطلاق النار.. وهو الأمر الذى لن يسـعى إليه كيسـنجر مطلقا. بل سيحاول عرقلته قبل وبعد وقف إطلاق النار.. !

المهم. بدأ صباح ٢١ أكتوبر والقتال مسـتمر بضراوة على الجبهتين المصرية والسورية.. وكيسنجر فى موسكو يحس أنه أصبح محاصرا بين السوفييت أمامه.. والرئيس نيكسون من خلفه.. بعد أن أصبح كلاهما مقتنعا بأن الطريق الصحيح هو التسـوية الشـاملة (التى تقوم أساسا على أعادة إسرائيل إلى حدود ١٩٦٧).. وأن الخطوة الأولى هى ربط وقف إطلاق النار على الأقل بتلك التسوية بشكل جاد وواضح.

وبينما كيسنجر فى هذه الورطة. وقبل أن يتجه إلى الجلسة الأولى من المباحثات الرسمية مع ليونيد بريجينيف.. وردت إلى كيسنجر رسالة من حافظ إسماعيل فى القاهرة عبر القناة السرية للمخابرات.. بعثت بها واشنطن إليه.

وبكلمات كيسـنجر فإن الرسـالة «.. تشير لأول مرة إلى أن السادات قد يكون راغبا فى فصل وقف إطلاق النار عن التسـوية الشـاملة. وأن القاهرة سـوف تكون قانعة بعقد مؤتمر

للسلام. مع ضمان من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى لوقف إطلاق النار. وأن يلى ذلك الإسراع بانسحاب القوات الإسرائيلية» .

ثم يعلق كيسنجر قائلا : «إننا لم نكن فى أى موقف لنعطى مثل هذا الضمان. ثم.. من الناحية الأخرى. فإننى لم اعتبر أن رسالة حافظ إسماعيل هى الكلمة الأخيرة (لـ مصر) فى هذا الصدد» !

لقد ذهب كيسنجر يتفاوض مع بريجينيف من موقف قوى إذن. وعندما طرح السوفييت مشروعهم ذو النقاط الثلاثة لوقف إطلاق النار بدأ كيسنجر بمعارضته. إن الولايات المتحدة توافق على النقطة الأولى ـ التى هى مجرد وقف إطلاق النار. أما النقطة الثانية. وهى التى تطالب بانسحابا إسرائيليا فوريا من جميع الأراضى العربية إلى خط ٤ يونيو ١٩٦٧ بما يتمشى مع القرار ٢٤٢. فقد رد كيسنجر بإنه لم يحدث اتفاق بين العرب وإسرائيل على مثل هذا الخط. أما النقطة الثالثة. وهى المتعلقة بضرورة إجراء «مشاورات ملائمة. فقد طلب كيسنجر تطوير المعنى بحيث يصبح التزاما واضحا على العرب بالتفاوض المباشر مع إسرائيل.. !

وحتى لا يتناقض كيسنجر مع المشروع السوفيتى. فقد قدم مشروعا مضادا من جانبه والمشروع ينص فى نقطته الأولى على وقف إطلاق النار. أما النقطة الثانية فتفادى تماما أى ذكر لكلمة «انسحاب» .. وتطلب من الأطراف فقط أن تبدأ تنفيذ قرار مجلس الأمن السابق رقم ٢٤٢ بكل أجزائه. ثم النقطة الثالثة. وتطلب التفاوض العاجل بين الأطراف المعنية فى ظل «الإشراف الملائم» .

يقول كيسنجر : «بينما اعتاد الاتحاد السوفيتى دائما على المساومة طويلا عند كل نقطة.. إلا إنهم فى هذه المرة. ولدهشته الشديدة. فوجئ بهم يوافقون على المشروع الأمريكى فى جوهره. مع تعديلات طفيفة فى الصياغة. ثم طلبوا وجود تفاهم سوفيتى أمريكى محدد على معنى «الإشراف الملائم» .. فاتفق الطرفان على أن المعنى هو رعاية وإشراف أمريكى سوفيتى مشترك.. ويكون بوجود دبلوماسيين أمريكيين وسوفييت عند بدء المفاوضات. وبعد ذلك فقط حينما تناقش القضايا الأساسية.

ويقول كيسنجر : إن انتهائنا إلى الاتفاق على الرعاية والإشراف الملائم. وإن الإشراف أمريكي سوفيتي. كان يعني ميزة منع تطفل أطراف أخرى في عملية التفاوض. وهي أطراف ستكون ضاغطة إلى الولايات المتحدة. وأقصد بذلك حلفاءنا الأوربيين..!

إن أوروبا الغربية. التي يعتمد اقتصادها كله على البترول العربي. هي مجرد متطفلة في رأى هنري كيسنجر..! بقى شيء آخر لابد من الاتفاق عليه في موسكو. وهو توقيت تقديم المشروع إلى مجلس الأمن.. فالواضح أن السوفييت في هذه المرة كانوا يريدون تحديد كل شيء مقدما. وبدقة. حتى لا يتركوا بعد ذلك أية احتمالات مفتوحة للتهرب أو المراوغة والمماطلة. إن رأيهم هو أن مجلس الأمن يمكن أن يجتمع الآن.. في هذه الدقيقة.. ويسرى وقف إطلاق النار من لحظة صدور القرار.. أى الآن أيضا.

ولكن كيسنجر يريد شيئا آخر. إنه يريد أن توجه الدعوة لانعقاد المجلس في الساعة السادسة مساء اليوم (٢١ أكتوبر) لكن الاجتماع ذاته يتم بعد ثلاثة ساعات بحجة المشاورات. ثم لا يسرى وقف إطلاق النار إلا بعد التصويت باثنتى عشرة ساعة أخرى.. ! وكان هذا يعني عمليا الحرص الشديد من كيسنجر على إتاحة ٢٨ ساعة كاملة أخرى أمام إسرائيل.. لعلها تسجل مزيدا من التقدم في جبهتا القتال.. !

وأذعن السوفييت لكل هذه الطلبات. لكنهم. في رأى كيسنجر. لجأوا إلى حيلة أخرى. فلقد قاموا بالتشويش الشديد. الذى لا يستطيع كيسنجر التأكد من وجوده أبدا على أجهزة الاتصال في طائرته الرابضة في مطار موسكو. وهم يعرفون بالقطع أنه سوف يستخدمها في نقل الجدول الزمني الجديد إلى إسرائيل على وجه الخصوص. وهنا يعبر كيسنجر في مذكراته عن الغيظ الشديد من إنه نتيجة لذلك فقد حرمت إسرائيل طوال أربع ساعات (إلى أن غادر هو موسكو) من معرفة الجدول الزمني المتفق عليه في موسكو. وهي ساعات كانت ستستفيد بها في تنظيم مجرى عملياتها العسكرية لتحقيق مكاسب سريعة في جبهتي القتال قبل وقف إطلاق النار..!.

ولكن كيسنجر لم يكتف بكل هذا «القتال» في موسكو من أجل ساعات إضافية لإسرائيل. فمن خلف ظهر السوفييت بالطبع أرسل برقية إلى جون سكالى المندوب الأمريكي

في مجلس الأمن يقول له فيها : إننا لسنا بقدر حرص الاتحاد السوفيتى على صدور القرار من مجلس الأمن فى منتصف الليلة كما يتضمن اتفاقى مع بريجينيف.

وفهم المندوب الأمريكى المغزى من كلمات وزير خارجيته. وبالرغم من أنه لم ينجح فى تعطيل التصويت على القرار نتيجة لذلك أكثر من خمسين دقيقة.. إلا أن كيسنجر اعتبرها انجازا هاما لصالح إسرائيل.. !

لقد صدر قرار مجلس الأمن أخيرا. حاملا رقم ٣٣٨. وأثناء ذلك أبرقت جولدا مائير إلى كيسنجر في موسكو تطلب منه القدوم إلى إسرائيل قبل عودته إلى واشنطن. إن رئيسة وزراء إسرائيل تريد أن تعتصر بنفسها «كل ذرة معلومات» لدى رجل إسرائيل الأول.. ! وعلى الفور.. غير كيسنجر من مسار الرحلة كلها. مع ما صاحب هذا من صعوبات عملية فى الحصول على تصريحات بالمرور فى أجواء دول جديدة فجأة.. لكى يستجيب لطلب رئيسة وزراء إسرائيل.

وبرغم كل مشاعر وانحياز وولاء هنرى كيسنجر لإسرائيل. إلا إنه يصف لحظة وصوله إلى مطار «بن جوريون» بإسرائيل فى الساعة الواحدة ظهرا يوم ٢٢ أكتوبر على النحو التالى : «لقد كتب الكثير فيما بعد عن كيف أن إسرائيل كانت تتلهف على الاستمرار فى الحرب. وكيف كان وقف إطلاق النار بالتالى مؤلما لها. لكن. لا أحد كان سيخمن ذلك من استقبالنا. إن الجنود والمدنيين (الإسرائيليين) رحبوا بالسلام القادم باعتباره أكبر نعمة. لقد كانت إسرائيل بطولية. ولكن ثباتها واحتمالها كان يصل إلى نقطة الانهيار. إن أولئك الذين جاءوا للترحيب بنا بدوا شاعرين بعمق بكيف أصبحوا قريبين من الهاوية. وكيف أن أسبوعين من الحرب قد استنزفتهم. إن مجموعات صغيرة من الجنود والمدنيين كانوا يصفقون بالدموع فى عيونهم. إن تعبيرهم أظهر درجة من التعب والإرهاق تشير بشكل ملموس إلى حدود الاحتمال الإنسانى. لقد كان الشعور بالوهن والانهاك طاغيا على إسرائيل. بصرف النظر عما تظهره الخرائط العسكرية» .

ويواصل كيسنجر كلماته قائلا : «إن نفس الشعور كان سائدا فى هرتز يليا. قرب تل أبيب. فى المبنى العصرى الغامض المسمى بيت الضيافة. على قمة تل. حيث استقبلتنى جولدا مائير و وزراؤها. لقد كان محاطا بالأسلاك الشائكة. والأمن كان صارما.

إن الحجرات كانت مؤثثه بأسلوب عصرى لا يرتفع تماما إلى مستوى الأناقة. لقد زرت هذا المبنى فى مناسبات عديدة أخرى. والغرض الواضح الوحيد لهذا المبنى هو أنه لم يستخدم مطلقا لإيواء «الضيوف» . لقد كان مكانا آمنا للاجتماعات السرية مع الضيوف الأجانب.

«لقد قام بتحيتنا كل من جولدا مائير. ودايان. وديفيد اليعازر رئيس أركان الحرب. وضباط ووزراء آخرون بمن فيهم إسحاق رابين. الذى لم يكن يشغل منصبا رسميا فى ذلك الوقت. وجلس خلال المناقشات مبهما لا يقول شيئا. إن الإجهاد والتعب. جسمانيا ونفسيا. كان مطبوعا على كل وجه. إن المظهر الإسرائيلى المميز بالتفاخر والتظاهر بالشجاعة لم يكن غائبا. ولكن الأمر تطلب مجهودا ضخما بحيث بدا مجهدا للمشاركين بأكثر مما بدا درعا لهم. لقد تحدثوا عن انتصارات وشيكة. ولكن بغير اقتناع. وكما لو كانوا يدعمون بذلك صورة مناعتهم. لقد كانت هناك دمدمات عن كيف كان من المحتمل أن يحاصروا الجيش المصرى الثالث تماما ويتم تدميره خلال ثلاثة أيام أخرى من القتال. ولكن هؤلاء كانوا نفس القادة الذين كانت لهم من قبل تنبؤات متكررة عن «نحن نحتاج إلى ثلاثة أيام أخرى» .. وثبت باتساق أنهم مفرطون فى التفاؤل.. وإلى جانب ذلك.. لم يكن هناك سيناريو يمكن به إعطاء إسرائيل ثلاثة أيام أخرى بغير المخاطرة بأزمة بين القوتين العظميين وتدمير مراكز الولايات المتحدة فى العالم العربى.. وقادة إسرائيل يعرفون ذلك» .

ويضيف كيسنجر : «على أية حال. فإن الجيش الثالث (المصرى) لم يتم التلويح به فى مناقشاتنا ببيت الضيافة. وحينما سألت جولدا.. ماذا كان سيصبح هدف إسرائيل التالى إذا لم يكن قد تم التوصل لوقف إطلاق النار.. فإنها ذكرت لى بور فؤاد فى أقصى الطرف الشمالى للقناة. فى منطقة الجيش الثانى (المصرى) – أبعد ما يمكن عن الجيش الثالث. وإذا كان هناك شىء واحد واضح فى إسرائيل فى يوم إعلان وقف إطلاق النار. فهو أنها تلقت ما يكفيها من الإصابات. إن قتلاها الألفين يعادلون مائتى ألف قتيل بالنسبة للولايات المتحدة.

«أما فى أعماقهم. فإن الإسرائيليين يعرفون أنهم. بينما كسبوا المعركة الأخيرة. فإنهم فقدوا هالة المناعة. إن الجيوش العربية (فى مصر وسوريا) لن يتم تدميرها. والدول

العربية لم تكسب. ولكنها لم تعد تحتاج إلى أن تجبن أو تخور أمام المقدرة الإسرائيلية. إن إسرائيل. بعد أن تجنبت بالكاد كارثة. قد تغلبت عسكريا. لقد انتهت بأراضى عربية أكثر مما خسرتها. ولكنها كانت مقبلة على مستقبل موحش وغير مؤكد. معتمدة على دائرة متقلصة من الأصدقاء» .

لم يكن أول سؤال وجهته جولدا مائير إلى كيسنجر عندما انفردت به فى غرفة خلفية متعلق بالحرب. ولكن بالكابوس الذى تحسه هى من المستقبل : هل هناك اتفاق سرى أمريكى سوفيتى لفرض الانسحاب على إسرائيل إلى حدود ١٩٦٧ ؟

يقول كيسنجر فى مذكراته : «إننى أنكرت هذا بقوة.. فسألتنى : إذن. هل هناك اتفاق لفرض أية حدود أخرى على إسرائيل ؟ لقد أنكرت لها هذا أيضا. وبينما هى تستكشف كل الاحتمالات الممكنة للخديعة الأمريكية. فإنها كانت تضرب نموذجا للشعور بعدم الأمن الكامن فى الموقف الإسرائيلى الجغرافى والديموجرافى واعتمادها الكامل على الولايات المتحدة. فطوال أسبوعين وقفنا إلى جانب إسرائيل ومددناها بالعتاد والأسلحة. وخاطرنا ثم عانينا أخيرا من حظر بترولى. ومن الضغوط الدبلوماسية. وأنجزنا فى القرار ٣٣٨ أكثر بكثير مما كان ممكنا التنبؤ به فى الأسبوع الأول (من الحرب) حينما لم تكن المفاوضات المباشرة بين العرب وإسرائيل محل اعتبار أو تصور مطلقا» .ثم يضيف كيسنجر «لقد ذهب جزء كبير من الوقت فى (المناقشة) ما إذا كانت الفقرة الثانية لقرار وقف إطلاق النار. وهى التى تضمن تنفيذ القرار ٢٤٢. كانت مرتبطة عضويا بالمفاوضات المباشرة فى الفقرة الثالثة من القرار. بكلمات أخرى : هل المفاوضات المباشرة ستقتصر على تنفيذ العودة إلى حدود ١٩٦٧. أو هل سيكون لإسرائيل الحق فى طرح تفسيرها الخاص للقرار ٢٤٢ ؟ أننى أكدت من جديد لجولدا مائير وزملائها أنه لم تكن هناك اتفاقات سرية (فى موسكو) ولا أى قيود على ما يمكن طرحه من أى طرف».

والواقع إن كيسنجر يقدم هنا اعترافا خطيرا جدا. فبصريح العبارة هو يعطى الضوء الأخضر لإسرائيل لكى ترفض العودة إلى حدود ١٩٦٧ ! وهو يعطيها هنا الضوء فى إطار مؤتمر السلام الذى يفترض عقده بعد الحرب تنفيذا للقرار ٣٣٨ الذى صدر لتوه من مجلس

الأمـن. أيضا. هو يعطى لهـا الضوء الأخضر برغم معرفته المسـبقة بالاقتناع الأخير الذى توصل إليه رئيسـه نفسـه. ريتشارد نيكسون. بضرورة عودة إسـرائيل إلى حدود ١٩٦٧. وبفرض ذلك عليها بالعقوبات والضغوط الأمريكية المباشرة لو لزم الأمر.. !

لكن هذا التصرف الخطير من جانب كيسنجر لن يكون الوحيد فى تلك المرحلة الحاسمة من الصراع العربى الإسرائيلى. فى الواقع سيكون هناك ما هو أخطر.

فقبل أن يغادر كيسنجر إسرائيل. تلقى تقرير عسكريا إسرائيليا بالمواقع الدقيقة للقوات الإسرائيلية لحظة سريان وقف إطلاق النار. وأهدافها. على الجبهتين المصرية والسورية.

فى نفس الوقت. قامت واشـنطن بإبلاغ كيسـنجر بوصول رسـالة جديـدة من حافظ إسماعيل فى القاهرة. من خلال القناة السـرية للمخابرات. تدعوه باسـم السادات لزيارة القاهرة فى طريق عودته من إسـرائيل إلى واشـنطن. ويقول كيسـنجر إنه استنتج من ذلك تلهـف مصر على التفـاوض. ولذلك «.. رفضت هذه الدعوة بـأدب» .. زاعما فى رده أن الدعوة قد وصلت إليه بعد مغادرته للمنطقة متجها إلى لندن.. ! فى لندن قال السير إليك دوجلاس هيوم وزير الخارجية البريطانى لكيسنجر إنه غير متأكد من استمرار وقف أطلاق النار. فلديه معلومات تشير إلى أن الرئيس حافظ الأسد يخطط لهجوم يبدأ فى اليوم التالى ضد القوات الإسرائيلية على الجبهة السورية.

وبمنتهى الهمة والنشـاط، وحتى «.. لا يضيع الوقت فى إجراء اتصالات عن طريق واشنطن» بادر كيسنجر على الفور، من طائرته فى مطار هيثرو بلندن، فى إجراء مكالمة تليفونية مع السـفير السـوفيتى بلندن. لكى يملى عليه رسالة تحذير إلى موسكو ضد نوايا الرئيس الأسد، فإذا «بدأت سوريا فى شن هجوم.. لن نكون مسئولين عن النتائج» .

والواقـع إنـه تم فعلا خرق وقف إطلاق النار.. ولم تكن سـوريا هى التى فعلت ذلك.. وإنما إسـرائيل. فقد عاد كيسـنجر إلى واشنطن فجر الثلاثاء ٢٣ أكتوبر. وفى الصباح وجد فى انتظاره رسـالتين : الأولى من حافظ إسماعيل بالقاهرة تخبره بأن إسـرائيل قد خرقت وقف إطلاق النار وتحاول احتلال مواقع جديدة. وهو يسـتفهم عما تفعله الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى للتأكد من إذعان إسرائيل لقرار مجلس الأمن.

أما الرسالة الثانية فهى من السفير الأمريكى فى إسرائيل. كينيث كيتنج. إن جولدا مائير دعت السفير إلى تناول الغداء معها (بعد ساعات قليلة من مغادرة كيسنجر لإسرائيل). وأثناء الغداء اشتكت له من أن القوات الأردنية فى الجبهة السورية لم تتلق بعد التعليمات بالامتثال لقرار وقف إطلاق النار. وطالما أن جولدا مائير - يقول السفير - تجنبت تماما الحديث عن جبهة قناة السويس. فإنه لابد أن يذكر لوزير خارجيته كيسنجر أن العسكريين الإسرائيليين زعموا له مبكرا وجود خرق مصرى لوقف إطلاق النار. إن السفير يسجل تشككه فى صحة ذلك. وجولدا مائير أقرت بأن القادة العسكريين لديها يتوسلون السماح لهم بيومين أو ثلاثة أيام أخرى لإتمام محاصرة الجيش الثالث (المصرى) فى الجنوب.. ولكن مجلس الوزراء رفض هذا الطلب ولسوء الحظ. هكذا يكمل السفير رواية جولدا مائير. فإن المصريين بدأوا بهجوم كبير أثناء الليل. ولذلك فإنها - تقول رئيسة وزراء إسرائيل - أمرت الجيش الإسرائيلى بالاستمرار فى القتال إلى أن يتوقف المصريون!

إن السفير الأمريكى فى إسرائيل يبلغ وزير خارجيته فى واشنطن. بطريقة مهذبة تماما. انه يتشكك فى صحة ما تقوله رئيسة وزراء إسرائيل.

هنا فقط يتذكر هنرى كيسنجر. بطريقة عابرة تماما. شيئا هاما كان قد نسيه.. ! إنه الآن يسجل بكلماته إنه حينما كان «.. فى إسرائيل. ولكى أحظى بمساندتهم. فإننى أشرت لهم إلى أننى سوف أتفهم الأمر إذا أفلتت ساعات قليلة من موعد سريان وقف إطلاق النار. وأن تفلت تلك الساعات بينما أكون عائدا بطائرتى - إلى واشنطن» .

اعتراف خطير آخر من كيسنجر !

فأولا. هو لم يكن فى حاجة إلى أى مجهود لكى «يحظى بمساندتهم» فى إسرائيل لوقف إطلاق النار. هو نفسه ذكر قبل قليل كم كانت إسرائيل متلهفة. حتى من قبل محادثات موسكو. لوقف إطلاق النار. بل هو أيضا ذكر حالا.. إنه وجد لحظة وصوله لإسرائيل واجتماعه برئيسة وزرائها أن احتمال إسرائيل «كان يصل إلى درجة الانهيار» .

وثانيا. فإن هنرى كيسنجر هنا استثمر منصبه كوزير لخارجية الولايات المتحدة الأمريكية. لكى يعطى إسرائيل ضوءا أخضر. قاطعا تماما.. بل ومحرضا فى الحقيقة.. لكى

تخرق وقف إطلاق النار. وصفاقة كيسنجر وحدها هى التى تجعله يكتب فى مذكراته قائلا إنه كان يســتهدف بذلك «تعويض إسرائيل عن الساعات الأربع التى ضاعت بسبب انهيار وسائل الاتصال فى موسكو. ولكن هذا القتال الجديد يستمر أبعد كثيرا من الهامش الإضافى الوجيز الذى تضمنته كلماتى. فنحن الآن تجاوزنا وقف إطلاق النار بعشرين ساعة» !

إن كيســنجر. باعترافه هو. كان محددا فى تحريضه لإســرائيل على خرق وقف إطلاق النار. وكان محددا مرة أخرى فى أن هذا الخرق يجب أن يبدأ بعد مغادرته لإسرائيل و«بينما أكون عائدا بطائرتى - إلى واشنطن» ولم يكن كل هذا يحتمل أى شك. حيث كان وقف سريان وقف إطلاق النار قد حان فعلا، ونفذ فعلا. أثناء وجود كيسنجر فى إسرائيل..!

على أى حال، يقول كيسنجر فى مذكراته إنه كان واضحا لديه أن موسكو لم تستوعب بعد حجم ونطاق هذا الخرق الإســرائيلى الكامــل لوقف إطلاق النار على الجبهة المصرية. لأنه فى الســاعة الســابعة والدقيقة العشــرين من صباح نفس اليوم (٢٣ أكتوبر) أبلغته الســفارة السوفيتية فى واشنطن برد موسكو على رسالة كيسنجر إليها فى اليوم السابق من مطار لندن. والرد هو أن معلومات موســكو تؤكد أن الرئيس حافظ الأســد لا يخطط لهجوم حسب مزاعم كيسنجر.

أما بالنسبة للجبهة المصرية فمن الواضح أن موسكو لم تكن تعرف بعد بالقتال الإسرائيلى والهجوم واسع النطاق الذى بدأته إسرائيل أثناء الليل.

والآن، فــى التاســعة والنصف صباحا، يتصــل كورت فالدهايم الســكرتير العام للأمم المتحدة من نيويورك بكيســنجر تليفونيا.. ليخطره بأن مصر قد اشــتكت رسميا من الخرق الاســرائيلى لوقف إطــلاق النار. وأنه، أى فالدهايم. يقترح إيفــاد قوة دولية لمراقبة وقف إطلاق النار. لكن كيسنجر يرد عليه بأنه يحتاج إلى وقت إضافى للتشاور مع زملائه. ومع السوفييت !

ولم يكن كيســنجر هو الذى يحتاج فى الواقع إلى وقت للتشــاور. إن إســرائيل هى التى تحتاج إلى وقت للتقدم. فعندما اتصل كيسنجر بالسفارة السوفيتية لكى «يتشاور» كان كل ما اقترحه هو أن يجتمع مجلس الأمن لكى يكلف فالدهايم بإصدار «نداء» للأطراف المعنية بوقف

إطلاق النار. وأثناء هذا كله تكون إسرائيل قد «أفلتت» بساعات أخرى إضافية.. وفى النهاية لن يوقفها عن الهجوم مجرد «نداء» يصدره إليها فالدهايم من مكتبه فى مدينة نيويورك.

لكن. بمجرد أن أغلق كيسنجر السماعة مع القائم بالأعمال السوفيتى (فلم يكن السفير دوبرنين قد عاد بعد من موسكو).. عاد القائم بالأعمال يتصل به لينقل إليه تطورا خطيرا فى الاتجاه المضاد.

يقول كيسنجر : «لقد كانت هناك مذكرة من بريجينيف موجهة إلىّ ـ وهذا إجراء غير عادى بالمرة حيث هناك عادة لم تتبدل فى الماضى بأن يتوجه بريجينيف فى مخاطباته إلى الرئيس نيكسون ـ وفى الرسالة يخبرنى بريجينيف بأن القوات الإسرائيلية تتحرك جنوبا بمحاذاة الضفة الغربية لقناة السويس» .

ويذكر بريجينيف فى رسالته العاجلة هذه أن تلك الأخبار قد وردت إلىّ موسكو «من مصادرها الخاصة المعتمدة». وبكلمات أخرى ـ هكذا يفسر كيسنجر – فإن موسكو لم ترد إليها تلك المعلومات من مصادر مصرية. ولكن من طائرات الاستطلاع (ميج – ٢٥) فوكسبات السوفيتية التى توجد للسوفيت فى مطار غرب القاهرة وتقوم بمهمات استطلاعية.

وبريجينيف يسجل فى رسالته أن هذه الأعمال الإسرائيلية «غير مقبولة» وتمثل «خداعا وتحايلا فاضحا» .. وهو يقترح اجتماعا عاجلا لمجلس الأمن ظهرا. أى خلال ساعتين. لإعادة تأكيد وقف إطلاق النار. وإصدار أمر للقوات الإسرائيلية بالعودة إلى المواقع التى كانت عليها لحظة صدور القرار ٣٣٨ فى اليوم السابق – ٢٢ أكتوبر.

إن بريجينيف إذن لن يكفيه مجرد «نداء» .. إنه يريد إجراء محددا. ويريد أساسا إجبار إسرائيل على العودة إلى خط ٢٢ أكتوبر.

كان هذا سلوكا غير عادى بالمرة من جانب بريجينيف. مع ما عرفت به موسكو من بطء فى التصرف وفى اتخاذ القرارات. ومن حرص شديد على تفادى الدخول فى مواجهة مباشرة مع الولايات المتحدة. ولذلك فإن الأمر يستحق وقفة هنا لفهم هذه السرعة المفاجئة التى بدأ بريجينيف يتصرف بها.. لأنها جزء من فهم القاموس غير المكتوب الذى تتعامل

به القوتان العظميان.. ولخطورة النتائج الدولية التى أخذ بها السوفييت سلوك كيسنجر معهم.. ومع إسرائيل.

فالاتحاد السوفيتي. كقوة عظمى. يعرف بلا شك جوهر اللعبة القائمة. حتى وإن أغمض عينه عنها أحيانا. أو بدا عاجزا فيها أحيانا أخرى. أكثر من ذلك يدلنا سلوك السوفييت على أنهم كانوا يعرفون من البداية أن كيسنجر يراوغ ويماطل أملا فى أن تحقق إسرائيل مكسبا عسكريا يحسن من موقفها السياسى حينما تبدأ المساومات. ولبعض اللحظات بدا على الاتحاد السوفيتى أنه لا يواجه مناورات كيسنجر بما يكفى من الحزم. لقد أصر كيسنجر فى موسكو على جدول زمنى لوقف إطلاق النار. كان القادة السوفييت يعرفون بالتأكيد أنه ليس فى مصلحتهم.

ولكن.. بمجرد أن تم الاتفاق رسميا بين الطرفين.. اختلف الأمر. لم تعد المسألة هنا هى مصر وسوريا فى جانب.. ثم إسرائيل فى جانب آخر. لم تعد أيضا قيام طرف بإغماض عينيه عن مراوغات طرف آخر. لقد أصبح هناك اتفاق محدد بين القوتين العظميين مباشرة. ووحدهما. وأى خداع فى التنفيذ لن يؤخذ كمراوغة أخرى.. ولكنه سيؤخذ كخداع فى الاتفاق نفسه.

لقد خرجت المسألة عن نطاقها المحلى. مصر وسوريا وإسرائيل. وخرجت أيضا عن علاقة السوفييت بالعرب.. أو علاقة الولايات المتحدة بإسرائيل. لقد تحول الأمر الآن إلى خداع وغش مباشر تتعرض له أحدى القوتين من القوة الأخرى. لا مجال إذن لإغماض العين. أو غض الطرف. أو التظاهر بأن الأمر قابل للعلاج.

من هنا أولا وجه بريجينيف. وهو الذى يحتم عليه العرف الدبلوماسى أن يتخاطب مع الرئيس نيكسون. رسالته إلى كيسنجر مباشرة. يريد أن يقول له بطريقة محددة للغاية: إننى أعرف أنك أنت الذى تغش فى قواعد اللعب.

ومن هنا أيضا جاءت مطالبة بريجينيف باتخاذ إجراءات محددة. وللتوصل إلى نتيجة محددة - هى العودة إلى خط ٢٢ أكتوبر. بكلمات أخرى يريد بريجينيف أن يقول لكيسنجر: لقد رضينا بإصرارك على استبعاد الربط الصريح لوقف إطلاق النار مع التسوية الشاملة.

ورضينا بالتغاضي عن ٢٨ ساعة فرصة إضافية لإسرائيل قبل وقف أطلاق النار. لقد رضينا في النهاية باتفاق مجحف. ولكن.. طالما اتفقنا في النهاية. فيجب الالتزام بالاتفاق.. حرفيا.

وسـوف يكون ملفتا هنا، أن نرى فيما بعد الاختلاف الجذرى بين نيكسـون وكيسنجر في الفهم والتصرف. فكيسنجر يريد مكاسب أضافية لإسرائيل مهما كان الثمن، والأسلوب رخيصا. أما نيكسـون، وبحكم أنه المسئول الأول عن صورة الولايات المتحدة كقوة عظمى، فقد كان فهمه للمسـألة على نفس النحو الذى يفهمها بريجينيف بها.. بالضبط. هناك اتفاق تم ويجـب احترامـه. وهناك التزامات تحددت ولابد مـن الوفاء بها.. بلا غش في قواعد اللعب. أو تحايل لن تخفى دوافعه أبدا عن الطرف الآخر.

لكن حتى الآن فإن كيسنجر كان يقامر على شىء واحد : إن السوفييت سيذعنون في النهاية لأنهم من البداية لا يريدون مواجهة مباشرة مع الولايات المتحدة. ومن ثم تستطيع إسرائيل أن تخرج سليمة بما يمكن أن تكون قد اختلسته من مكاسب إضافية من الأراضى المصرية والسورية.

ومبدئيا. كان أول ما فعله كيسنجر بمجرد تلقى رسالة بريجينيف. هو الاتصال بالسفير الإسـرائيلى في واشـنطن لإبلاغه بهذا التطور. وخلال دقائق.. كانت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل تطلب كيسنجر على سماعة التليفون.

ماذا يقول لها وزير خارجية الولايات المتحدة ؟

لقـد أخبرهـا أولا بأن الولايات المتحدة لن تتمكن من الاعتراض على مشـروع يتقدم به الاتحاد السوفيتى إلى مجلس الأمن يطلب فيه عودة القوات المتحاربة إلى خطوط ٢٢ أكتوبر وفق القرار ٣٣٨. الذى يعلم الجميع أن أمريكا نفسها هى الراعية له من البداية.

ثم. بكلمات كيسنجر نفسها. قال لها بالحرف الواحد : «إننى اقترح عليك أن تنسحب إسـرائيل. في هذه الحالة. مئات قليلة من الياردات من أى مواقع تكون قد وصلت إليها الآن (نتيجة لخرق وقف إطلاق النار) ثم تقفين وتقولين إن هذا هو خط ٢٢ أكتوبر» !

وأضاف كيسـنجر يقول متهكما لرئيسـة وزراء إسرائيل : كيف يمكن لأى شخص أن يعرف مطلقا أين يوجد خط (٣٣ أكتوبر) في الصحراء؟!.

في هذه اللحظة كانت جولدا مائير هى الأكثر ذكاء من كيسنجر. بعد أن التقطت فورا المعنى الخفى فى كلماته عبر التليفون. فقد قالت له على الفور : حسنا.. إنهم سيعرفون أين سيكون خطنا.. الآن !

لقد فهمت جولدا مائير معنى الضوء الأخضر الجديد من كيسنجر. لأن الأمور سيكون حلها بسيطا لو تأزمت : تنسحب قوات إسرائيل مئات قليلة من الياردات وتقول جولدا مائير : هذا هو خط ٢٢ أكتوبر. ومن لا يصدق. فليثبت العكس.. !

لقد كان هنرى كيسنجر. وزير خارجية قوة عظمى تعرف بوسائلها فى الاستطلاع الجوى. أين بالضبط يوجد خط ٢٢ أكتوبر. وكان كيسنجر. على وجه الخصوص. يعرف من التقرير العسكرى الذى أعطته له إسرائيل قبل مغادرته لها أين يوجد خط ٢٢ أكتوبر. والآن فهو نفسه أيضا الذى يقول لرئيسة وزراء إسرائيل متهكما أن أحدا لن يعرف مطلقا أين كان يوجد خط ٢٢ أكتوبر !

ضوء أخضر صريح أخر إلى إسرائيل.. من رجلها فى واشنطن-يقول كيسنجر : «لقد أدركت أننا بصدد أزمة بعد محاصرة الجيش الثالث (المصرى).. وكان أول مجهود لى هو بهدف كسب الوقت لنزع الفتيل. وهكذا اتصلت بالقائم بالإعمال السوفيتى فى الساعة الحادية عشر و ٣٢ دقيقة صباحا لكى أخبره بأننا لن نمانع فى دعوة مجلس الأمن للانعقاد ظهرا (أى بعد نصف ساعة) ولكننا لن نكون مستعدين للتصويت إلا فيما بعد. وفى جميع الأحوال فأننا لن نوافق على الانسحاب إلى خط ٢٢ أكتوبر»!.

كان كيسنجر يعرف أنه – شاء أو لم يشأ فإن الولايات المتحدة ستوافق فى النهاية على ضرورة العودة إلى خط ٢٢ أكتوبر، لأن الأمر متعلق باتفاق مباشر بين موسكو وواشنطن وليس بمجرد قرار لمجلس الأمن. ومع معرفته تلك فلا بأس من البدء بإثارة الجدل لبعض الوقت مع موسكو أملا فى ساعات إضافية تحصل عليها إسرائيل فى ميدان القتال. إن أهمية هذه الساعات بالذات ربما تعادل أهمية الحرب كلها، لأن هدف إسرائيل الآن هو محاصرة الجيش المصرى الثالث الموجود فى الضفة الشرقية للقناة عن طريق التقدم جنوبا إلى السويس وقطع طريق الإمدادات عنه من الضفة الغربية. فلو استطاعت إسرائيل تحقيق تلك

الخبطة فى ثلاثة أيام أخرى. أو ثلاث ساعات أخرى. فإنها تكون قد حصلت فى يدها على ورقة ضخمة للمساومة بعد ذلك. فليكن هناك غش إذن. أو تحايل أو كذب أو خداع. لا يهم.. وإنما المهم ورقة ضخمة تستر عورات إسرائيل التى كشفها المقاتل المصرى فى سيناء والسورى فى الجولان. ومهمة كيسنجر فى هذه الحالة هى تغطية إسرائيل سياسيا لأى وقت إضافى ممكن.

ولكن. فى خلال أقل من ساعة من رسالة كيسنجر إلى موسكو. وردت من موسكو فى الساعة الثانية عشر ظهرا والدقيقة ٣٦ رسالة من بريجينيف إلى نيكسون. وعلى غير العادة. بدأت الرسالة بعبارة «السيد الرئيس المبجل» . ليس هناك «عزيزى» .. وليس هناك أصلا اسم نيكسون. إن السوفييت يريدون للرسالة طابعا رسميا صارما من بدايتها.

ثم يقول بريجينيف فى رسالته إن الاتحاد السوفيتى يرى أن خرق وقف إطلاق النار هذه المرة هو «خيانة» فى ظل «ضمان» كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى لوقف إطلاق النار. لذلك فإن بريجينيف يطلب «اتخاذ أكثر الإجراءات حسما «بصفة» مشتركة «وبغير» أى تأخير لفرض وقف إطلاق النار.

وأصبح لابد أن يتولى الرئيس نيكسون بنفسه الرد على رسالة بريجينيف العاجلة. ولكن نيكسون يعرف قواعد اللعبة جيدا. ويعرف أيضا أن الولايات المتحدة كقوة عظمى قد تجاوزت مرحلة الغش الرخيص طالما أن هناك اتفاقا تم بالفعل. لذلك فإن نيكسون لا يتهرب فى رده ولا يراوغ. لقد أقر بالمسئولية الكاملة للولايات المتحدة عن التزام إسرائيل بوقف إطلاق النار. إن اتفاق موسكو قائم إذن. والضمان الامريكى للتنفيذ شىء لا يجادل فيه الرئيس الأمريكى. لهذا يؤكد نيكسون فى رده موافقته على ضرورة إعادة إسرائيل إلى خط ٢٢ أكتوبر.

وضاقت فرصة كيسنجر فى المناورة. لقد أبلغ كيسنجر موسكو قبل ساعة بأن الولايات المتحدة -فى جميع الأحوال- لن توافق على العودة إلى خط ٢٢ أكتوبر. والآن. بعد أقل من ساعة. يتدخل الرئيس نيكسون لتصحيح قواعد اللعبة.

وكيسنجر لا يريد أن يتم ضبطه متلبسا بعدم تنفيذ أوامر رئيسه. لذلك فإنه ينفذ. لكن هذا لم يمنعه ـ خارج سياق الموضوع – من محاولة اختلاس مكسب. أى مكسب.

لإسرائيل. لذلك فإنه. بعد أن أبلغ القائم بالأعمال السوفيتى برسالة الرئيس نيكسون يقول له إنه لو أن مصر. فقط. أفرجت عن أسـرى الحرب الإسـرائيليين لديها فإن هذا «سـيجعل الأمور أسهل كثيرا» بالنسـبة للعودة إلى خط ٢٢ أكتوبر «.. ! إنه بالطبع ليس طلبا رسميا أمريكيا. ولكنها إضافة شـخصية من كيسـنجر لعله ينجح فى تجريد مصر من ورقة قوية تملكها لحظة المساومة. لعل.. وعسى !

كان واضحا أن السـوفييت لن يكتفوا فى هذه المرة برد الرئيس نيكسـون. فالعبرة بالموقف الحقيقى فى ميدان القتال. وحينما وجدوا أن إسـرائيل مسـتمرة فى محاولتها للتقدم، اتخذ بريجينيف خطوة «لم يسـبق السماع بمثلها» على حد تعبير كيسنجر فى مذكراته.

لذلك فإنه فى الساعة الثانية والدقيقة ٢٦ (مازلنا فى يوم ٢٣ أكتوبر) بعث بريجينيف رسـالة جديدة إلى الرئيس نيكسـون. أصبحت هى الرسالة الثانية خلال أقل من ساعتين. لابد أن القائم بالإعمال السـوفيتى نقل إلى موسـكو حديث كيسـنجر الشـفوى معه بشأن استحسـان قيام مصر بالإفراج عن أسـرى الحرب الإسـرائيليين. ولابد أنهم ازدادوا شكا نتيجة لذلك فى الدوافع الأمريكية.

إن إسـرائيل. التـى كانت مرتعدة واحتمالها «كان يصـل إلى درجة الانهيار» قبل ٢٤ سـاعة فقط. اكتسبت الآن شـجاعة مفاجئة وشهية متفتحة لاقتناص هذه الورقة المحتملة بأى ثمن. ورقة استكمال حصار الجيش المصرى الثالث. بل إنها الآن تتطلع إلى حلم آخر: تدمير الجيش الثالث!

لكن المسـألة كانت قـد خرجت من يد كيسـنجر. بالإضافة إلى ذلـك أصبحت هناك اعتبـارات أخرى يصوغها كيسـنجر على النحو التـالى : «.. لم تكن لنا مصلحة فى رؤية السـادات يتم تدميره. وبالـذات عن طريق انهيار وقف إطلاق النار الذى كنا شـركاء فى رعايته.... فإذا سـقط السـادات فإن المرجح هو انه سـيحل محله قائد راديكالى يميل إلى السـوفييت. وسوف تقوم الأسـلحة السوفيتية فى وقت قياسـى بإعادة تشكيل ما يعادل الجيش الثالث. ثم عاجلا ستكون هناك حرب أخرى».

لكن الأمور، بتعبير كيسنجر، بدت مختلفة فى القاهرة بشكل درامى. ففى الساعة الثالثة والربع عصرا وصلت، عبر القناة السرية للمخابرات، رسالة عاجلة من السادات إلى الرئيس الأمريكى نيكسون، تدلل على فداحة الموقف. لقد عرض السادات اقتراحا غير عادى هو أن الولايات المتحدة - التى لا توجد لها أصلا علاقات دبلوماسية مع مصر منذ ست سنوات - أن «.. تتدخل بفاعلية، حتى لو تطلب هذا استخدام قوات مسلحة (أمريكية) لكى تضمن التنفيذ الكامل لقرار وقف إطلاق النار تماشيا مع الاتفاق الأمريكى السوفيتى» .

ثم يضيف كيسنجر معلقا : بالرغم من أنه، أى السادات، هدد بنهاية العلاقة المصرية الأمريكية الوليدة، إلا أن الرسالة تنتهى بـ «مع أحر تحياتى» !

ثم يتساءل كيسنجر فى تهكم : كيف تصور السادات إمكانية أن نرسل قوات أمريكية ضد حليفتنا إسرائيل ؟

فى الخامسة والربع مساء تم إبلاغ بريجينيف بأن واشنطن توافق على التقدم بمشروع أمريكى سوفيتى مشترك إلى مجلس الأمن لإعادة وقف إطلاق النار ومطالبة القوات المتحاربة بالعودة إلى خط ٢٢ أكتوبر، وهكذا صدر فعلا القرار ٣٣٩ من مجلس الأمن، على أن يكون ساريا اعتبارا من الساعة الواحدة صباحا بتوقيت واشنطن - الساعة السابعة صباحا بتوقيت القاهرة (الأربعاء ٢٤ أكتوبر).

وفى هذه المرة أعلنت سوريا رسميا قبولها لوقف إطلاق النار، حيث لم تكن قد أعلنت ذلك من قبل.

قبل أن تمر ساعات على سريان وقف إطلاق النار الجديد، تلقى كيسنجر رسالة من حافظ إسماعيل فى القاهرة تفيد بأن «الإسرائيليين قد استأنفوا هجماتهم» . بعدها رسالة أخرى من السادات، عبر القناة السرية للمخابرات، إلى الرئيس نيكسون، حيث «يتوسل إلى نيكسون مرة أخرى بأن تتدخل الولايات المتحدة، حتى على الأرض، لإرغام إسرائيل على الإذعان لوقف إطلاق النار» .

وهنا فإن ما يشغل كيسنجر هو : «إننا إذا تركنا هذا يستمر، فإن المواجهة مع السوفييت ستكون حتمية» .

وكالعادة، طلب كيسنجر السفير الإسرائيلى دينتز ليتشاور معه، خاصة على ضوء البيان الرسمى الذى صدر قبل ساعات قليلة من موسكو بتحذير إسرائيل «بأفدح النتائج» إذا لم توقف عدوانها.. وعلى ضوء معلومات أخرى تلقتها واشنطن بإعلان حالة التأهب فى القوات السوفيتية المحمولة جوا، وتزايد قطع الأسطول السوفيتى فى البحر الأبيض، مع ازدياد الانغماس الشخصى للزعيم السوفيتى ليونيد بريجينيف فى الموضوع كله.

وأضاف كيسنجر فى مكالمته مع السفير الإسرائيلى قائلا : «إنه وبرغم كل صداقتنا مع إسرائيل. فإن هناك حدودا لا نستطيع أن نتجاوزها. وأحد هذه الحدود هو ألا نجعل زعيم القوة العظمى الأخرى يبدو كما لو كان معتوها. فإذا طلب السادات من السوفييت. كما فعل معنا. استخدام قوتهم فى فرض وقف إطلاق النار. فإن إسرائيل سوف تفيق إلى رشدها على الفور».

فى تلك اللحظات بدأ كيسنجر يركز انتباهه على الاتجاه الآخر مستغربا : لماذا سكت السوفييت فجأة خلال الساعات القليلة الأخيرة ؟ إن ما يقلق كيسنجر هو خشيته من أن يكون هذا هو الهدوء الذى يسبق العاصفة. ولذلك قرر كيسنجر، من باب الاحتياط، أن يبادر هو بالاتصال بهم لجس النبض.

ففى العاشرة إلا الربع صباحا (ونحن الآن فى ٢٤ أكتوبر) اتصل كيسنجر بالسفير السوفيتى دوبرينين العائد لتوه من موسكو.

وقال له كيسنجر : يبدو أن أولئك الناس فى الشرق الأوسط قد فعلوها من جديد ! ! وحتى لا يضع كيسنجر نفسه فى موقف الدفاع فإنه أضاف قائلا : «فى هذه المرة ربما يكون المصريون هم الذين بدأوها.. لسنا متأكدين بعد.. إننى أريدك فقط أن تعرف ما نفعله».

ولم يعلق السفير السوفيتى. فالموقف الآن أصبح اخطر كثيرا من العاب كيسنجر الصغيرة هذه.

ثم تلقى السادات. عبر قناة المخابرات السرية. ردا على رسالته الأخيرة إلى نيكسون. والرد يقول : «لقد أخطرتنا رئيسة الوزراء الإسرائيلية لتوها بأنه تم صدور تعليمات صارمة إلى القوات الإسرائيلية لكى تبقى فى مواقف دفاعية. ولا تطلق النار إلا إذا تعرضت للنيران».

ويقول كيســنجر : «إن تلك الرسالة كانت وسيلة غير مباشرة من جانبنا لمنع السادات لبعض الوقت من التفكير في مبادرات أخرى من جانبه» أى منعه من الاستعانة بالسوفييت.

وحتى يهدأ الســادات.. فإن كيســنجر يعده بأنه قادم إلى مصر يوم ٧ نوفمبر (أى بعد ١٤ يوما)!.

ثم أرســل كيسنجر إلى السفير السوفيتى بصورة من رد الرئيس نيكسون على السادات. ليضرب بذلك عصفورين بحجر واحد : فالولايات المتحدة تريد أن تثبت لبريجينيف حسن نيتها.. ومن ناحية أخرى تريده بالطبع أن يدرك المدى الذى يقامر إليه الســادات عليها هى. فليهدأ بريجينيف إذن هو الآخر !

مع ذلك فإن كيسنجر مازال قلقا من انكشاف هذا كله. وأخيرا وقع فعلا ما كان يرتاب فيه ويخشــاه. ففى العشــرة و ١٩ دقيقة اتصل به السفير الســوفيتى دوبرينين لكى يخطر كيسنجر بقدوم رسالة من بريجينيف.

إن الرســالة تبدأ بكلمة «السيد الرئيس» .. فحتى كلمة «المبجل» اختفت هى الأخرى. إن بريجينيف أولا يبلغ نيكســون بتفاصيل الهجمات الإسرائيلية ضد الجيش المصرى على جانبى قناة الســويس. بعدها يقول بريجينيف : «نحن بالطبع لدينا تســاؤلات عما يوجد وراء هــذا كله. إننى أريد أن أقول بصراحة. ياســيادة الرئيــس. إننا واثقون من أن لديك إمكانيات التأثير على إســرائيل بهدف وضع حد لمثل هذا الســلوك الاستفزازى من جانب تل أبيب. ونحن نأمل أن يلتزم كل منا بالصدق فى كلمته. والصدق فى تنفيذ التفاهم الذى توصلنا إليه (فى موســكو). وســوف أقدر قيامكم بإخطارى بخطواتكم نحو إذعان إسرائيل بصرامة لقرارى مجلس الأمن الصادرين فى ٢٢ و ٢٣ أكتوبر» .

وعلى الفور. فى العاشرة والنصف من صباح ٢٤ أكتوبر هذا. أى بعد ١١ دقيقة فقط من وصول رسالة بريجينيف. عقد كيسنجر اجتماعا طارئا برئاسته لمجموعة العمل الخاصة.

وفى الاجتماع كشــف كيســنجر بوضوح عما فى داخل نفسه.. فقال بكلماته هو : «إن العــرب قد يحتقروننا. أو يكرهوننا. أو ينفرون ويشــمئزون منــا. ولكنهم تعلموا أنهم إذا أرادوا تســوية فعليهم أن يأتوا إلينا. فلا أحد آخر يســتطيع أن يعطيها لهم. لقد اعتمدوا

على السلاح الروسى ثلاثة مرات. وثلاثة مرات خسروا. لذلك فمن الناحية الاستراتيجية. فإن يدنا قوية جدا. إذا عرفنا كيف نلعب بها» .

إن اليد القوية التى يقصدها هنا هى إسرائيل بالطبع. وهو هنا يريد أن يوضح من جديد وظيفتها بشكل يجعلها متسقة مع المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة.

من ناحية أخرى فإن إسرائيل تناور من جديد لاستكمال المهمة التى لا يبدو أنها تتم أبدا - مهمة استكمال حصار الجيش المصرى الثالث. بقطع كل طرق إمداده من الضفة الغربية للقناة. إن إسرائيل تواجه مقاتلا مصريا ضاريا فى كل متر وكل بوصة. والساعات تمر فى جبهة القتال بغير أن تنكسر مطلقا إرادة هذا المقاتل المصرى فى الميدان. وكلما ازدادت ضراوة المقاتل المصرى فى الجيش الثالث وصموده. كلما أدى هذا إلى تجميع مزيد من السحب فى الساحة الدولية فى اتجاه المواجهة التى يزداد قلق كيسنجر منها دقيقة بدقيقة. إن كل متر يصمد فيه هذا المقاتل المصرى الضارى يحرك جبالا من الضغوط فى واشنطن وموسكو معا.

وهنا بعث السادات برسالة جديدة إلى نيكسون. يصفها كيسنجر بقوله : «إن السادات يسجل موافقته (فى الرسالة) على شىء لم نعرضه عليه مطلقا. وهو موافقته على إرسال مراقبين أمريكيين وقوات أمريكية لتنفيذ وقف إطلاق النار فى الجانب المصرى. أما الجديد فهو ما كنت أخشاه قبل ثلاثة ساعات. حيث يخبرنا السادات (الآن) بأنه يوجه نفس الطلب رسميا إلى السوفييت» !

بعد قليل أذاعت القاهرة أنها طلبت اجتماع مجلس الأمن لكى تطلب منه إرسال «قوات» أمريكية وسوفيتية مشتركة إلى الشرق الأوسط.. !

وهنا يعلق كيسنجر بقوله : «نحن لم نكن مستعدين لإرسال قوات أمريكية إلى مصر. ولا نحن سنقبل أيضا إرسال قوات سوفيتية. إننا لم نعمل طوال السنوات الأخيرة على تخفيض الوجود السوفيتى العسكرى فى مصر. لكى نتعاون (الآن) فقط فى إدخاله (من جديد) بقرار من الأمم المتحدة ! ولا نحن سنشارك فى قوة مشتركة مع السوفييت. لأن هذا يحقق مشروعية لدورهم فى المنطقة ويقوى العناصر الراديكالية. إن الدول المعتدلة

المعادية للسوفيت – مثل السعودية والإمارات والكويت والأردن – قد ينتابها الرعب والهلع إزاء هذا المظهر من التعاون الأمريكى السوفيتى. إن القوة السوفيتية قد يثبت استحالة إخراجها (فيما بعد) وسوف تكون أمامها أعذار لا تنتهى لكى تتدخل فى أى نقطة ضد إسرائيل. أو ضد الحكومات العربية المعتدلة فى هذا الشأن» .

وبالطبع كيسنجر هنا يزيف الحقائق الأساسية أمام القارئ الأمريكى لمذكراته. فواحدة من تلك الدول العربية «المعتدلة» التى يشير إليها. وهى الأردن. كانت فى تلك اللحظة تقف فى مواجهة إسرائيل على الجبهة السورية. والدول الثلاثة الأخرى. السعودية والإمارات والكويت. قد أعلنت حظرا كاملا على تصدير بترولها إلى الولايات المتحدة بسبب دعمها لإسرائيل.

إن إسرائيل إذن. وليس السوفييت. هى مصدر الخطر من البداية. لكن كيسنجر يريد اختلاس الصفحة الأخيرة بمفردها. قاطعا كل صلة لها بأسبابها. إنه يريد صرف انتباه قارئه الأمريكى إلى اتجاه آخر.. إلا إسرائيل.

لكن الأمور لا تسير على هوى كيسنجر.. تماما.

ففى الساعة الثالثة و ٣٥ دقيقة بعد الظهر بدا السوفييت يتحركون فى توتر. لقد وردت رسالة. هذه المرة من وزير الخارجية السوفيتى أندريه جروميكو. يبلغ فيها قرينه الأمريكى كيسنجر بأن التأكيدات الإسرائيلية اليوم بالالتزام بوقف إطلاق النار. والتى زعمت واشنطن أنها تلقتها من إسرائيل. هى تأكيدات مزيفة.

ثم : لا تهديد ولا وعيد ولا كلمات رنانة. فقط.. موسكو تطلب إبلاغ الرئيس الأمريكى ريتشارد نيكسون برأيها هذا.

وفكر كيسنجر فى معنى ذلك : هل ينزعج.. أو لا ينزعج ؟ يقلق.. أو لا يقلق ؟ فى النهاية قرر ألا يقلق. فبالتوقيت المحلى فى موسكو تكون الآن قد تجاوزت منتصف الليل. لابد إذن أن القادة السوفييت قد ناموا. وبالتالى فلن يتحركوا من جديد قبل الصباح التالى. هناك أذن تسع ساعات متاحة من الهدوء فى موسكو.. والفرصة لإسرائيل.. والتهنئة الذاتية لكيسنجر.

لكن فجأة. فى الساعة السابعة وخمس دقائق بتوقيت واشنطن. الثانية وخمس دقائق

صباحـا بتوقيت موسـكو. قرر القادة السـوفيت الدخول فى مواجهـة حاسمة. لقد اتصل السفير السـوفيتى دوبرينين بكيسـنجر لكى يخبره بأن جاكوب مالك (المندوب السوفيتى فى مجلس الأمن) قد تلقى تعليمات بتأييد أى مشـروع قرار يطلب إرسـال قوات سوفيتية وأمريكية إلى الشرق الأوسط. إذا تقدمت به اى دولة.

وبلغة القوى الكبرى فهم كيسنجر على الفور مغزى هذا التطور. فمن السهل دائما على قـوة عظمى أن تجد داخـل الأمم المتحدة دولة أخرى تتقدم باسمها بأى مشـروع قرار إلى مجلس الأمن. وفى هذه الحالة القائمة على وجه الخصوص فإن مصر أعلنت من قبل فعلا عن نيتها فى هذا الاتجاه.

هنا فقط أدرك كيسنجر أخيرا أن الأزمة التى كان يأمل من البداية فى تفاديها أصبحت ماثلة بطريقة قاطعة. إن معنى هذا التطور هو أن السـوفييت قد قرروا بالفعل اسـتعدادهم لإرسـال قوات سـوفيتية إلى مصر لفرض الامتثال لوقف إطلاق النار. برغم معرفتهم المؤكدة بـأن هذا يعنى المواجهة المباشـرة مـع الولايات المتحدة. الآن فقط لم يعـد هناك مفر أمام كيسـنجر مـن الاعتراف بـ «إننـا مقبلون على ما يمكن أن يصبح أفدح أزمة فى السياسـة الخارجية تواجه رئاسة نيكسون. لأنها تتضمن مواجهة مباشرة بين القوتين العظميين» .

وخلال الدقائق العشـرة التالية بدأ كيسـنجر يحتاط بسـرعة لمثل هذا التطور الفادح. وبالطبـع هو اتصل بالرئيس نيكسـون. الـذى كان «مهتاجا كما لم يحـدث من قبل» .. فامتصاص نيكسون فى تطورات قضية ووترجيت هو الذى أوصل الأمور إلى هذه الدرجة. ثم اتصل كيسـنجر بسـفير الصين أملا فى ضمان الفيتو الصينى ضد مشروع القرار الذى يؤيده السـوفييت. ثم اتصل بالمندوب الأمريكى فى مجلس الأمن.. ثم بالسـفير الإسرائيلى.. ثم بالسـفير البريطانى لحث بلاده على التضامن مع الولايات المتحدة.. ثم بالسفير السوفيتى دوبرينـين، محاولا تهدئتـه وراجيا له ألا تدفع بلاده الأمور إلى هـذه الدرجة الخطيرة.. عارضا عليه التعاون فى إرسال المزيد من مراقبى الأمم المتحدة.

ولكن السفير دوبرينين قال لكيسنجر : لقد أصبحوا فى موسكو غاضبين إلى درجة إنهم يريدون الآن إرسال قوات. وليس مجرد مراقبين. للتأكد من انصياع إسرائيل.

وقال له كيسنجر : إننا فى جميع الأحوال لن نوافق على ذهاب قوات سوفيتية.. فأرجوك لا تجعلوا المواجهة بين بلدينا حتمية بإصراركم هذا.

ومرة أخرى رد عليه دوبرينين فى برود قائلا : إذا كان لديك ما تريد إبلاغه إلينا.. فتفضل. ولكنى متأكد من أنهم فى موسكو قد درسوا كل الاحتمالات قبل الإقدام على هذه الخطوة.

وهنا وضع كيسنجر سماعة التليفون متأكدا من أن الموقف فى هذه المرة أصبح أكثر جدية مما تخيل.. وأكثر خطورة.

بعد قليل عاد كيسنجر يتصل بالسفير السوفيتى من جديد. للمرة الثانية خلال أقل من ساعة. ويسجل كيسنجر فى مذكراته أنه قال للسفير إنه يبلغه رسميا بأن القتال متوقف الآن فى الشرق الأوسط. لكن دوبرينين رد عليه ببرود وعدم اكتراث قائلا : إذا كانت لديك معلومات محددة.. فقلها لى حتى أنقلها إلى موسكو رسميا. وبالطبع لم يعلق كيسنجر !

ثم يسجل كيسنجر فى مذكراته : «وسط هذه المواجهة المتزايدة. جاءتنى برقية متنافرة (مع تصاعد الأحداث) رسالة من حافظ إسماعيل بقبول السادات لاقتراحى زيارة القاهرة فى السابع من نوفمبر» .. ! ! ثم تلقت واشنطن أنباء بأن محمد حسن الزيات وزير الخارجية المصرية الموجود فى نيويورك قد تحدث فى مجلس الأمن مطالبا الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى رسميا بإرسال قوات !

وهنا لم ينتظر كيسنجر حتى يتحول طلب مصر إلى مشروع قرار رسمى. لقد بادر إلى كتابة رسالة تحذيرية إلى السادات فى القاهرة. بعثها باسم الرئيس نيكسون. وتقول الرسالة : إن واشنطن ستعارض إرسال أى قوات (أمريكية أو سوفيتية).. وإن السادات لو تمسك بطلبه فإن وزير الخارجية كيسنجر سوف يلغى زيارته المقررة إلى القاهرة بعد أسبوعين. إن واشنطن - وقد أدركت مدى تلهف السادات على مقابلة كيسنجر فى القاهرة - تنذره بأن مستر كيسنجر لن يأتى إلا إذا سحب السادات طلبه الذى أعلنه فى القاهرة ونيويورك ! والآن يجب أن ننتظر قليلا إذن لنعرف مدى فاعلية هذا الإنذار الغريب.

فى التاسـعة و ٣٥ دقيقة مساء بتوقيت واشـنطن (الرابعة و ٣٥ دقيقة صباحا بتوقيت موسـكو) وردت رسـالة عاجلة جديدة من بريجينيف إلى الرئيس نيكسون. ويقول كيسنجر أن تلك الرسـالة لم تكن بأقل من إنذار صريح. فهى: «تقترح إرسـال قوة سوفيتية أمريكية مشتركة لكى تنفذ. ليس فقط وقف إطلاق النار. ولكن تنفذ أيضا التفاهم الذى توصلنا إليه معكم بالنسبة لضمان تنفيذ قرار مجلس الأمن» .

بكلمات أخرى - وهذا كيسـنجر يفسـر - فإن بريجينيف. يريد الآن فرض التسـوية الشـاملة. ثم يضيف فى رسالته إلى نيكسـون قائلا إنه : «.. من الضرورى أن ننضم معا. بلا تأخير. اننى أقولها بلا مواربة.. إنكم إذا وجدتم من المستحيل عليكم الاشتراك معنا فى هذا الخصوص. فسوف تواجهنا ضرورة اتخاذ الإجراءات الملائمة على وجه السرعة بشكل منفرد. إننا لا نستطيع السماح بالتعنت من جانب إسرائيل» .

ويعلق كيسـنجر هنا بقوله : إن هذه الرسـالة كانت تمثل واحـدة من أكثر التحديات خطـورة. التى يواجهها رئيس أمريكى من زعيم سـوفيتى.. ابتداء من جملتها الافتتاحية «السيد الرئيس» .. إلى جملتها الأخيرة التى تطلب «إجابة واضحة وفورية» .

وفى البداية لم يصدق كيسـنجر كلمات الرسـالة بينما السفير دوبرينين يمليها عليه فى التليفون.. فعاد كيسنجر يقرأها للسفير من جديد كلمة كلمة لكى يتأكد من عدم الخطأ.

ثم عاد كيسـنجر يقرأ الرسـالة من جديد بعد أن وضع سماعة التليفون. إن بريجينيف ينـذر الرئيـس الأمريكى بأنـه إذا لم يتعاون معه بإرسـال قوات مشـتركة. فإن الاتحاد السـوفيتى سـوف يتصرف بمفرده. ويعلق كيسنجر بأن هذه خطوة سـوفيتية : «لا يمكن التفكـير فيها. فإذا وافقنا على دور مشـترك مع الاتحاد السـوفيتى. فسـوف تعود قواته إلى داخل مصر مشـمولة ببركاتنا. فإما إننا سـنكون ذيلا للحدأة السـوفيتية فى لعبة قوة مشـتركة ضد إسـرائيل.. أو إننا سـننتهى بالصدام مع القوات السـوفيتية فى بلد (يقصد مصر) يتجه إلى مشـاركة الأهداف السوفيتية بالنسبة لوقف إطلاق النار.. أن الاستراتيجية التى اتبعناها بجهد وكدح خلال أربع سنوات من الدبلوماسية وأسبوعين من الأزمة سوف

تتحطم. إن مصر ســوف يتم اجتذابها من جديد فى الفلك الســوفيتى. والاتحاد السوفيتى وحلفائه الراديكاليين ســيظهرون باعتبارهم العامل المسـيطر فى الشـرق الأوسـط. والصين وأوروبا (الغربية) ستشعران بالصدمة من ظهور تعاون سوفيتى أمريكى فى مثل هذه المنطقة الحيوية. وإذا انهار المجهود المشترك وتحول إلى أزمة سوفيتية أمريكية -كما هو محتمل- فإننا سوف نكون بمفردنا» .

وهنـا نلاحـظ أن كيســنجر. مرة أخرى. يريـد أن يقول إن هذا كله بسـبب التدخل الســوفيتى. لكن. أليست أطماع إسرائيل وغزواتها هى التى أدت إلى احتمال هذا التدخل الســوفيتى ؟ أليس الضوء الأخضر من كيسنجر نفسه لإسرائيل. ومن قبله الدعم العسكرى والسياســى الأمريكــى لها. هــو الذى وصل بالموقـف الآن. فى تلك اللحظـة. إلى «أكثر التحديات خطورة» بين القوتين العظميين ؟ هنا يصمت كيسنجر تماما مكررا حجته بعد أن يحذف أسبابها المباشرة. لماذا إذن. كما يتوقع كيسنجر نفسه. إذا حدثت مواجهة مباشرة فعلا بين الولايات المتحدة والاتحاد الســوفيتى ستقف أوروبا الغربية ضد حليفها الولايات المتحدة ؟ هل أوروبا الغربية أيضا تدور فى الفلك السوفيتى ؟ هل الصين ؟ هل....

إن كيســنجر لا يرد لأنه من البداية يريد أن يزرع فى ذهن قارئة الأمريكى فكرة وجود تطابــق كامل بين المصلحة الأمريكية وإســرائيل . فإذا اســتقرت تلـك الفكرة يصبح على الولايات المتحدة -إذا أرادت أن تدافع عن مصالحها بالشرق الأوسط- أن تبدأ بالدفاع عن غزوات إسرائيل.

لكن الأحداث تتلاحق بسرعة. وهو أمر أصبح يفرض على كل الإدارة الأمريكية النتائج الفادحــة التــى يمكن أن تــؤدى إليها تلك المغالطـة الكبرى. إن كيســنجر. مبدئيا. يبلغ ألكســندر هيج ليقوم الأخير بإبلاغ الرئيس نيكسون. ولكن هيج يرى أن الرئيس قد نام فعلا وحالته النفسية سيئة.. فضلا عن أن هيج نفسه يعتقد أن السوفييت إنما يحاولون أن يبلفوا ويخادعوا الولايات المتحدة.. فليس من المعقول أن يرسلوا قوات فى نهاية حرب.

لكن سرعان ما أكدت المعلومات التالية جدية التهديد السوفيتى : فالمخابرات الأمريكية أفادت بتوقف الجســر الجوى الســوفيتى إلى مصر وســوريا فى نفس هذا اليوم برغم معرفة

السوفييت بأن الجسر الامريكى المماثل لإسرائيل مستمر ومتزايد. وكان هذا يعنى بوضوح بالنسبة لواشنطن أن الاتحاد السوفيتى يقوم بحشد وتجميع الطائرات لنقل بعض الفرق المحمولة جوا. والتى سبق رفع درجة استعدادها. أيضا. ارتفع عدد قطع الأسطول السوفيتى فى البحر الأبيض إلى ٨٥ (وبعد قليل ارتفع مرة أخرى إلى مائة قطعة بحرية).. ثم.. معلومات أخرى بأن أسطولا سوفيتيا صغيرا من ١٢ سفينة. ويتضمن سفينتى إنزال برمائيتين. يتجه نحو الإسكندرية.

وأخيرا.. رفع درجة الاستعداد للقوات السوفيتية فى ألمانيا الشرقية.

وعاد كيسنجر يتصل بالسفير السوفيتى دوبرينين ليخطره بأن رسالة بريجينيف تحت الدراسة. ويروى كيسنجر إنه كان فى الواقع يأمل من تلك المكالمة أن يقول له السفير إن الاتحاد السوفيتى لن يتصرف إلا بعد الحصول على الرد الأمريكى. وعندما لم يحدث هذا.. ازداد قلق كيسنجر.

لقد بادر كيسنجر أولا إلى شرح الموقف للسفير الإسرائيلى دينتز. ثم عاد يتشاور مع ألكسندر هيج.. واتفق الاثنان على ضرورة تحويل اجتماع مجموعة العمل الخاصة إلى اجتماع لمجلس الأمن القومى الأمريكى. على أن ينعقد الاجتماع فى «غرفة الخرائط» بالبيت الأبيض.

وبدأ الاجتماع فى الحادية عشر إلا الثلث ليلا بتوقيت واشنطن. وحضره إلى جانب كيسنجر كل من شليزنجز وزير الدفاع وكولبى مدير وكالة المخابرات المركزية والأدميرال مور رئيس هيئة أركان الحرب وألكسندر هيج كبير موظفى البيت الأبيض وعدد آخر من كبار المسئولين المدنيين والعسكريين.

واستمر الاجتماع حتى الثانية صباحا.

وفى البداية تم إعداد صيغة الرد الذى سيذهب إلى بريجينيف باسم الرئيس نيكسون. والرد هو : إن الولايات المتحدة لا توافق على الدخول فى قوة مشتركة تتجه إلى الشرق الأوسط. أما إذا قرر الاتحاد السوفيتى من جانب واحد إرسال قوة سوفيتية فإن الولايات المتحدة تعتبر هذا انتهاكا للوفاق بين القوتين العظميين. وانتهاكا لاتفاقية منع انتشار

الأسـلحة النووية. لكن.. الولايات المتحدة مسـتعدة. بل وراغبة. فى المشاركة فى قوة مراقبة حقيقية تابعة للأمم المتحدة. لضمان وقف إطلاق النار.

وحتى يتم سـحب السـجادة من تحت أقدام السـوفييت. تقرر توجيه رسـالة إلى السادات فى القاهرة تطلب منه سحب أى طلب له بإرسال قوات مقاتلة إلى مصر.

بعدها بقليل. فى السـاعة الواحدة و ٣٥ دقيقـة صباحا (وقد أصبحنا الآن فى ٢٥ أكتوبر) جاء السـفير الإسـرائيلى دينتز للمرة الرابعة خلال ساعتين ونصف. لكى يبلغ كيسـنجر رجاء جولدا مائير بألا تطلب منها الولايات المتحدة الانسـحاب إلى خط ٢٢ أكتوبر. ووعده كيسـنجر ثم سـأله بوضوح : فى حالة الضرورة.. كم يلزمكم من الوقت لتدمير الجيش (المصرى) الثالث ؟

بالطبع لو كانت إسـرائيل تسـتطيع ذلك لفعلته منذ وقـت طويل وانتهت من الأمر كله.. ولكن هذا السـؤال الذى يوجهه كيسنجر إلى السفير الإسرائيلى فى الساعة الثانية وتسع دقائق صباحا يعكس تماما مدى الغل والتربص الذى يفتك به نتيجة للضراوة التى يقاتل بها المصريون. فلو كانت إسرائيل انتهت من تلك المهمة. كما بشرت من قبل. لما وصل الأمر الآن إلى مثل هذه المواجهة مع السوفييت. إن كيسنجر لا يريد تقديرا شخصيا من السفير ولكنه يريد من حكومته إجابة تفصيلية محددة على وجه السرعة. كم يلزمها من الوقت لتدمير الجيش المصرى الثالث ؟

قبل ذلـك. وأثناء الاجتماع الطارئ فى البيت الأبيـض وردت معلومات جديدة بأن ثمانى من طائرات النقل السـوفيتية الضخمة انتينوف ٢٢ أصبحت مسـتعدة للإقلاع من بودابسـت إلى مصر خلال سـاعات قليلة. وقـدرت المخابرات الأمريكية أن السـوفييت أصبحوا قادرين الآن على نقل خمسة آلاف جندى بالجو إلى مصر.. يوميا.

وإزاء خطورة ومغزى هذه الإجراءات السوفيتية فى مجملها. فقد تقرر اتخاذ إجراءات أخـرى مضـادة من جانب الولايات المتحدة. اجراءات لا يتم اعل رسميا. لكن تسـتطيع موسكو أن تراها وترصدها فتدرك أن واشنطن جادة فى الذهاب إلى حد المواجهة المباشرة.

ولم تكن تلك الإجراءات بأقل من : إصدار الأمر إلى الفرقة ٨٢ الأمريكية المحمولة جوا بالاستعداد للتحرك.. وتحريك عدد إضافى من حاملات الطائرات لتنضم إلى الأسطول الأمريكى السادس فى البحر الأبيض.. وأخيرا وهذا هو ما شغل العالم طويلا بعدها. إعلان حالة التأهب فى جميع القواعد العسكرية الأمريكية حول العلم..!

لقد كان هذا الإجراء الأخير بالذات هو ما أثار ثائرة حلفاء أمريكا فى أوروبا الغربية حيث توجد قواعد لحلف الأطلنطى على أراضيهم أعلنت فيها الولايات المتحدة حالة التأهب بدون استئذانهم أو حتى التشاور معهم.. ! إن الحلفاء الشركاء مع الولايات المتحدة أدركوا أولا أن الولايات المتحدة لم تكلف خاطرها بالتشاور المسبق معهم علما بأنهم بعد هذا الإجراء يصبحون فى قلب المواجهة النووية مع الاتحاد السوفيتى. وثانيا فإن حكومات أوروبا الغربية وجدت شعوبها معرضة لخطر لم تكن أبدا طرفا فى أسبابه. وأخيرا. فمهما زعم كيسنجر وزير الخارجية الأمريكى بأن تلك الإجراءات موجهة لردع الاتحاد السوفيتى. إلا أن أوروبا الغربية تعرف تماما أن المستفيد الأول فيما يجرى هو إسرائيل.. والردع هنا موجه ضد الطرف العربى قبل السوفييت.

وفى المؤتمر الصحفى الذى اضطر إليه كيسنجر بعد ذيوع الخبر الخطير بإعلان حالة التأهب حول العالم. حرص وزير الخارجية الأمريكى على ألا يشير مطلقا إلى رسالة الزعيم السوفيتى بريجينيف التى هدد فيها نيكسون. ويقول كيسنجر إن ما دفعه إلى ذلك سببان.. فأولا ـ حتى لا يجعل المواجهة مع بريجينيف حتمية.. وثانيا- لأن «القوى العظمى تتحمل التزاما بألا تذل كل منهما الأخرى» .

ولم يكن كيسنجر يعرف بعد ماذا سيكون رد الفعل فى الجانب الآخر نتيجة لتلك الإجراءات التصاعدية. لكن الذى جعل الاطمئنان يراوده لأول مرة هو تطور جوهرى : فلقد رد السادات على واشنطن بأنه يسحب طلبه بإرسال قوة سوفيتية أمريكية مشتركة. ويستبدل بذلك قوة دولية. إن السادات لا يريد أن يفرط أبدا فى وعد مستر كيسنجر بالحضور إلى القاهرة بعد أسبوعين !

وهنا تنفس كيسنجر الصعداء لأول مرة. فبغير طلب رسمى من مصر لا يستطيع الاتحاد

السوفيتى إرسال قوات إلى هناك. وإذا حدث جدلا وغامر بذلك فسيكون من الأسهل كثيرا على الولايات المتحدة أن تقاومه ومعها العالم كله. وهكذا شعر كيسنجر بالارتياح مسجلا «.. أننا قد أصبحنا الآن على وشك كسب اللعبة السياسية.. والسادات بدا مراهنا بمستقبله على دعم الدبلوماسية الأمريكية بأكثر مما يراهن على الضغط العسكرى السوفيتى» .

ولكن، فى نفس الوقت صدر قرار مجلس الأمن رقم ٣٤٠ بناء على مشروع من دول عدم الانحياز وموافقة الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى بالطبع . ينص على زيادة عدد مراقبى الأمم المتحدة وتشكيل قوة دولية لمراقبة وقف أطلاق النار على الجبهة المصرية مع ضرورة عودة القوات المتحاربة إلى خط ٢٢ أكتوبر. الذى هو من الأساس مطلب مصرى.

أما بريجينيف. فقد وردت منه رسالة جديدة فى الثالثة إلا الثلث عصرا موجهة إلى نيكسون. لقد تجاهل بريجينيف فى رسالته أية إشارة إلى أزمة الليلة الماضية. لكنه يؤكد نيته فى إرسال سبعين مراقبا سوفيتيا إلى مصر للتأكد من ثبات وقف إطلاق النار هذه المرة.. ويطلب من الولايات المتحدة أن تفعل نفس الشيء.

ووافق كيسنجر على الطلب السوفيتى . وتم الاتفاق على تخفيض الرقم إلى ثلاثين مراقبا سوفيتيا ومثلهم من الولايات المتحدة. لكن. قبل أن يتم التنفيذ بالفعل. أعلن إسماعيل فهمى القائم بأعمال وزير الخارجية فى القاهرة أن مصر قررت الاستغناء عن هؤلاء الستين مراقبا. إنها لا تريدهم.. وليست فى حاجة إليهم.

وهنا كيسنجر نفسه على كل تلك التطورات الجديدة.. ثم يمضى فى مذكراته محاولا الرد على كل الأصوات الأمريكية والأوروبية التى اعتبرت إعلان حالة التأهب فى قواعد أمريكا حول العالم مبالغة شديدة فى رد الفعل وفشلا كاملا فى تقييم الموقف من أساسه.

فى نفس اليوم. وقد أصبحنا الآن ٢٦ أكتوبر ووقف إطلاق النار يبدو ثابتا وصلبا فى هذه المرة. جرى تبادل الرسائل مع السادات عبر القناة السرية للمخابرات. إنه يطلب من أمريكا مساعدته فى توصيل بلازما الدم والإمدادات الطبية الأخرى إلى الجيش الثالث المحاصر. إن إسرائيل-يقول كيسنجر-كانت ماتزال تأمل فى استسلام الجيش الثالث. ولذلك رفضت مرور قافلة الإمدادات الطبية المصرية المرسلة تحت رعاية الأمم المتحدة. بل ورفضت دخول مراقبى الأمم المتحدة أنفسهم إلى المنطقة.

وعاد السادات يشكوا من جديد إلى نيكسون فى رسالة منه إليه فى نفس اليوم. ذاكرا فيها إنه يعد الترتيبات من أجل زيارة كيسنجر المقررة فى ٧ نوفمبر. ويضيف «إننا نعد مشروعات شاملة نأمل أن تكون نقطة تحول فى الاتجاه إلى تسوية سلمية نهائية» .

ويعلق كيسنجر على هذه النقطة بقوله : «كان من الواضح أن كلا منا. نحن والقاهرة. نحاول استخدام رحلتى (المقررة) للمناورة من أجل موقف نتمكن فيه من دق إسفين بين الاتحاد السوفيتى ومصر. ولكى نمنع السادات من الاستغاثة بالمساعدات السوفيتية. أما بالنسبة للسادات فهو يستخدمها لإغرائنا بمنع إسرائيل من تدمير الجيش الثالث. وكما حدث فعلا. فإن تلك الأهداف قد اندمجت معا» .

وفيما يتعلق بإمدادات الجيش الثالث.. من الملفت هنا أن الرئيس الأمريكى نيكسون كان أكثر حزما فى مواجهة المشكلة. فقد طلب من وزير خارجيته كيسنجر إبلاغ الإسرائيليين «بشكل قوى» بضرورة الإذعان لوصول الإمدادات للجيش الثالث. فالموقف جاد و «.. لابد من أن نحافظ من جانبنا على الاتفاق» مع السوفييت. على حد تعبير نيكسون.

وكان كيسنجر يقف بمفرده فى محاولة دعم إسرائيل إلى أخر مدى أملا فى تحسين مركزها السياسى لحظة التفاوض فيما بعد. ولكن الإدارة الأمريكية كلها. ابتداء من الرئيس نيكسون فما يليه. لم تكن مستعدة على الإطلاق للدخول فى مواجهة بين القوتين العظميين من أجل الاستمرار فى الضغط على الجيش الثالث. لقد فشلت إسرائيل فى تدميره عسكريا.. والآن فى ظل وقف إطلاق النار تريد منع الإمدادات غير العسكرية عنه أملا فى أرغامه على الاستسلام بلا رصاصة واحدة.

ولذلك. بدأت وزارة الدفاع الأمريكية تدرس احتمالا آخر لتنفيذه فى حالة الضرورة: قيام الولايات المتحدة نفسها بتوصيل الإمدادات إلى الجيش الثالث. وبالقوة المسلحة الأمريكية مباشرة لو لزم الأمر. لقد وضعت الوزارة بالفعل خطة كاملة لعمل جسر جوى من طائرات «سى - ١٣٠» لحمل الإمدادات إلى الجيش الثالث.

ولذلك فإن ما يهم كيسنجر الآن. وما أبلغه فعلا إلى السفير الإسرائيلى دينتيز هو : ضرورة السماح بمرور الإمدادات الطبية والغذائية إلى الجيش الثالث.. فهو على هذا النحو لن يتحول إلى

قوة مقاتلة. وبذلك فإن استمرار الحصار سيعطى لإسرائيل قوة مساومة فى المفاوضات التالية.. بشرط أن يتم هذا بلا إذلال واضح حتى لا يضطر السادات إلى طلب المساعدة من السوفييت مرة أخرى.. وحتى لا يضطر نيكسون إلى موافقة وزارة الدفاع على المضى فى مشروعها.

إن رجـل إسـرائيل الأول يعطيهـا تقارير دقيقـة أولا بأول عن أفكار المطبـخ الداخل فى الحكومة الأمريكية.. ! والمطلوب من البداية هو ضرب وإذلال الجيش المصر.. بشرط الاحتفاظ بالسادات فى الحكم.

وإسرائيل. من قراءتها للصورة. ترى أن الفرصة ربما تكون مازالت أمامها لساعتين أخريين. أو لساعة واحدة أخرى. بل حتى لنصف ساعة أخرى. إنها تستمر إذن فى محاولة الهجوم. إن كيسـنجر يبلغها أولا بأول برسـائل السادات إلى واشـنطن عبر القناة السرية للمخابرات. والسـادات فى رسـالته الأخيرة يواصل الاستغاثة بنيكسـون قائلا له: «إننى فى اللحظة التى تسـلمت فيها رسالتك المشجعة بالنسبة لمستقبل السلام. يشن الإسرائيليون هجماتهم جوا وبرا ضد الجيش الثالث».

وعندما نقل كيسـنجر تلك التطورات إلى رئيسة وزراء إسرائيل فى التليفون. أجابته جولدا مائير بشكل قاطع بقولها: دعنى أخبرك بما يلى: «.. إنهم. أى الجيش الثالث. ليسوا فى موقف يائس.. لكن السادات وحده هو الذى فى موقف يائس !».

وكانت رئيسة وزراء إسرائيل جادة تماما فى كلماتها تلك التى قالتها لكيسنجر. ففى نفس ذلك اليوم (٢٦ أكتوبر) أعدت الحكومة الإسرائيلية تقريرا تفصيليا ردا على سؤاله فى الليلة السابقة بشأن كم يلزم إسرائيل من الوقت لتدمير الجيش الثالث.

وفى الرد تقرر الحكومة الإسرائيلية ما يلى بوضوح: إن الأمر يحتاج إلى ثلاثة أو أربع أيام أخرى من القتال الإسـرائيلى المتواصل.. والقتال لابد أن يشـمل الجبهة المصرية كلها وليس فقط الجيش الثالث.. وحتى فى هذه الحالة لن تفى إمكانيات إسـرائيل العسـكرية الحاليـة بالمهمة. ولابد من ضمانات أمريكية بتسـليم قـدر ضخم من المعدات المتطورة على وجه السرعة إلى إسرائيل.. !

إن قصة «الثلاثة أو الأربعة أيام الأخرى» هذه كانت أمنية إسرائيلية مستمرة منذ عشرين يوما ولكنها لم تتحقق أبدا. ولكن. حتى لو أخذنا هذه المرة على علاتها. فإنه لم تكن هناك إذن أقل فرصة للنجاح فى تدمير الجيش الثالث المصرى. والمهم أن إسرائيل كانت تعرف ذلك. والولايات المتحدة كانت تعرف ذلك أيضا. إذن. فإسرائيل باستمرارها فى القتال كانت فى الواقع تمارس ضغطا سياسيا على السادات بمفرده. بعد أن قدرت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل أن «السادات هو وحده الذى فى موقف يأس» .

ويعود كيسنجر لكى يروى أن السادات قد أرسل رسالة أخرى إلى واشنطن أبلغها كيسنجر إلى السفير الاسرائيلى. وفى الرابعة والربع عصرا بتوقيت واشنطن (العاشرة والربع بتوقيت القاهرة) رد السفير الإسرائيلى بأن حكومته مستعدة للاستجابة إلى السادات. ولكن فى مقابل ثمن سياسى جديد هو المفاوضات المباشرة.. ! إن إسرائيل. مرة أخرى تريد استثمار هذه الفرصة نتيجة لقراءتها للموقف السياسى. وليس العسكرى. وطالما أن السادات بهذا التلهف. إذن فليدفع الثمن تنازلا بعد تنازل.. بدءا من قبول المفاوضات المباشرة مع إسرائيل.. التى رفضتها مصر دائما. حتى فى ظل هزيمة ١٩٦٧ الفادحة.

وكيسنجر هنا يعلق قائلا : «إننى لو دفعت بهذا الطلب فى أجهزتنا البيروقراطية (يقصد وزارة الدفاع الأمريكية) فإن النتيجة المؤكدة هى البدء فورا فى عملية أمريكية لإعادة إمداد الجيش الثالث. وهو الأمر الذى كانت توصى به وزارة الدفاع» .

لذلك. أخفى كيسنجر تماما هذا الطلب الإسرائيلى عن زملائه !

لكن المشكلة هى أن مجلس الأمن سوف ينعقد فى التاسعة مساء - بتوقيت واشنطن. ولابد أن السوفييت سيتخذون فى الجلسة موقفا محددا وصلبا. وفضلا عن ذلك. كان «جون سكالى» المندوب الأمريكى فى مجلس الأمن قد أخطر كيسنجر بأن الولايات المتحدة إذا لم تتخذ خطوات ملزمة لإسرائيل فورا فإنه «لن يبقى لنا صديق واحد» فى مجلس الأمن والأمم المتحدة كلها. بكلمات أخرى : على وزير الخارجية الأمريكى أن يتحمل أمام الرئيس نيكسون مسئولية وقوف الولايات المتحدة وحدها أمام المجتمع الدولى إذا لم تتحرك قبل الساعة التاسعة.

من هنا كانت فرصة كيسنجر فى مساعدة إسرائيل على استثمار الموقف تنحصر فى ساعات قليلة. ولذلك فقد بادر إلى الكتابة إلى حافظ إسماعيل فى القاهرة يطلب إبلاغ السادات بأن الإسرائيليين يطلبون مفاوضات مباشرة لبحث مسألة إمداد الجيش الثالث. إن كيسنجر لم يقل أن هذا طلب أمريكى، فهو لا يجرؤ على أن يسجل على نفسه. ولكنه ذكر فقط انه اقتراح إسرائيلى.. لعل وعسى.. !

لكن كيسنجر لم يكن ساذجا. لقد كان يعرف أنه من غير أى تنازل سياسى يأتى من القاهرة، فإن الإمدادات ستصل إلى الجيش الثالث، شاءت إسرائيل أو لم تشأ.. وبالقوة العسكرية الأمريكية لو احتاج الأمر. وكيسنجر يريد أن يجنب إسرائيل بأى ثمن تلك الكارثة. لذلك فإنه فى التاسعة إلا الربع (حيث لم يصل بعد رد القاهرة) اتصل بالسفير الاسرائيلى وقال له : «إننى أتكلم معك الآن، ليس كوزير لخارجية الولايات المتحدة، ولكن كصديق. يبدو أن إسرائيل ترى أن اغتصابها أفضل من أن تتخذ هى قرارا من جانبها. إننى أرى أنكم ستذعنون بمجرد أن يبدأ الضغط. وأنا أريد لإسرائيل أن تتجنب هذا الموقف حتى لا تكون هذه سابقة تستخدم ضدكم فى المستقبل. إننى أريد من إسرائيل أن تقدم أفكارا تسمح بإضعاف المناقشات فى مجلس الأمن والتخفيف من حدتها.

فى النهاية قال كيسنجر لصديقه السفير الإسرائيلى : شىء واحد أعدك به وأسعى إليه.. إنكم لن تتعرضون للضغط لحظة واحدة قبل أن يصبح الضغط شيئا لا مفر منه..!

لكن، مرة أخرى، لا تسير الأحداث على هوى كيسنجر.. تماما. ففى التاسعة وردت رسالة من بريجينيف إلى نيكسون، وتحمل تحذيرا وتهديدا واضحين. قال بريجينيف فى رسالته : «إنكم وعدتم السادات بالتصرف خلال ساعات. ولكن الوقت قد مر بدون نتيجة. لذلك.. إذا لم ترد إلينا الأخبار خلال الساعات القليلة القادمة بأنكم اتخذتم الإجراءات الضرورية لحل المشكلة.. فسوف تصبح لدينا أخطر الشكوك فى نوايا الجانب الأمريكى. وسلوك إسرائيل هذا سوف يعرض السلام العالمى للخطر.

ويعترف كيسنجر فى مذكراته قائلا : «إننى ناورت طول اليوم - ٢٦ أكتوبر - لكى أمنع إعلان موقف أمريكى رسمى بالانفصال (سياسيا) عن إسرائيل».

لكن. بمجرد أن عاد خطر المواجهة بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة. انعدمت قدرة كيسنجر على المزيد من المناورة. فالذى سيتصرف هنا هو الرئيس الأمريكى وليس وزير خارجيته. وعند هذا المستوى فإن الذى سيملى السياسة هو المصالح الأمريكية. وليس الولاء الشخصى لإسرائيل.

من هنا قرر الرئيس نيكسون التصرف بحسم.. بحيث لم يعد أمام وزير خارجيته سوى أن ينفذ بلا لف ولا دوران. فورا. وبناء على ذلك. عاد كيسنجر يتصل بالسفير الإسرائيلى دينتز فى الساعة العاشرة والدقيقة ٥٨ بتوقيت واشنطن ليبلغه بما يلى : - «دعنى أعطيك رد فعل الرئيس «نيكسون» فى أجزاء منفصلة. أولا - هو يريد منى أن أوضح لكم بشكل قاطع أننا لا نستطيع أن نسمح بتدمير الجيش المصرى الثالث. فى ظل ظروف تحققت بعد التوصل إلى وقف إطلاق النار. وهو الموقف الذى تم التوصل إليه جزئيا بواسطة مفاوضات شاركنت فيها نحن. وبناء على ذلك فإن هذا الاتجاه ليس قائما بالنسبة للولايات المتحدة. ثانيا : هو (أى الرئيس نيكسون) يريد منكم. قبل الساعة الثامنة من صباح غد. الإجابة على الأسئلة المتعلقة بالإمدادات غير العسكرية للجيش الثالث والسماح بوصولها إليه. وإذا لم يكن فى استطاعتكم الموافقة على ذلك. فسوف يكون علينا أن نؤيد فى الأمم المتحدة قرارا يعالج فرض تنفيذ القرارين ٣٣٨ و ٣٣٩. لقد تم دفعنا إلى هذا متململين. بسبب عجزكم عن التوصل إلى قرار. وأيا كانت الأسباب. فهذا ما يريد الرئيس منى أن أخبركم بأنه موقفنا... إن على أن أكرر لكم. إن سلوككم هذا انتحارى. فلن يسمح لكم بتدمير هذا الجيش» .

لقد نفذ كيسنجر أخيرا تعليمات الرئيس نيكسون.. بغير أن يمنع هذا من حرصه على مسألة هامة للغاية. وهى المحافظة على سرية هذا الإنذار المحدد. ويروى كيسنجر نفسه فى مذكراته أنه أخبر السفير الإسرائيلى بأنه لن يدع القاهرة تعرف بهذا التحول الأمريكى.. كما لن يدع أى حكومة أخرى تعرف به أيضا. إن أى علانية ستسحب من إسرائيل فرصة الادعاء بأنها تتصرف باختيارها..

لكن من المهم أن ندرك فى هذه النقطة حقيقة متكررة : إنه حيثما تجد الولايات المتحدة نفسها فى مأزق حقيقى وجاد. فإن الرئيس الأمريكى يتصرف مضطرا طبقا لما تمليه عليه

المصلحة الأمريكية.. وليست الأطماع الإسرائيلية. وفى مثل هذا الموقف تنعدم تماما قدرة إسرائيل على المناورة والتلاعب. كما تنعدم فرصة أنصارها داخل الإدارة الأمريكية على مساعدتها. فمنطق الأزمة هنا هو الذى يرجح الفريق الأول على الفريق الثانى.. وكلاهما يمثل اتجاها كامنا فى السياسة الأمريكية كما سنلاحظ دائما. وقيام نيكسون بتوجيه هذا الإنذار القاطع إلى إسرائيل. وطلبه أن ترد عليه قبل الثامنة صباحا. لم يجعله محتاجا فى الواقع إلى أيه إجراءات أخرى كما سيتبين فيما بعد.

وإسرائيل من البداية كانت تعرف ذلك تماما.. ومناورتها كلها لم تكن فى الواقع موجهة ضد الجيش الثالث بعد أن عجزت عن جعله ينهار عسكريا. واعترفت فى تقرير رسمى بأن هذا لن يتاح لها مطلقا. لكن. من ناحية أخرى. كانت إسرائيل ترى «أن السادات هو وحده الذى فى موقف يائس» .. فلماذا إذن لا تجرب معه. أملا فى اختلاس أى مكسب سياسى فى اللحظة الأخيرة ؟ !

لقد قام نيكسون بإخطار بريجينيف. ردا على رسالته. بأنه ملتزم بإبلاغه خلال عشر ساعات. بالإجراءات العملية المحددة التى اتخذتها إسرائيل للإذعان لتوصيل الإمدادات إلى الجيش الثالث. وهكذا كان الموقف الاسرائيلى محسوما إذن بمجرد صدور الإنذار الأمريكى إليها.. ومحسوما أيضا بتعهد الولايات المتحدة لموسكو بموعد محدد لإبلاغها بالنتائج العملية.

هنا يقول كيسنجر فى مذكراته : «بينما كنت قد بدأت فى إعداد رسالة للرد على رسالة السادات الأخيرة. لكى أخطره بحل مشكلة الجيش الثالث نهائيا وتعهدنا بذلك.. قام السادات نفسه بحل المشكلة من أجلنا.. ففى الساعة الثالثة وسبع دقائق صباحا من هذا اليوم (٢٧ أكتوبر) تلقينا من حافظ إسماعيل (عن طريق القناة السرية للمخابرات) إن السادات قد وافق على إجراء مباحثات مباشرة بين الضباط المصريين والإسرائيليين برتبة عميد لمناقشة النواحى العسكرية فى تنفيذ قرارى مجلس الأمن ٣٣٨ و ٣٣٩ الصادرين فى ٢٢ و ٢٣ أكتوبر. إن المفاوضات يجب أن تتم تحت إشراف الأمم المتحدة. عند الكيلو متر ١٠١ من طريق القاهرة / السويس. والطلب الوحيد للسادات - كما يقول كيسنجر - هو أن يكون وقف إطلاق النار كاملا قبل الاجتماع بساعتين. وهو اجتماع من المقترح أن يتم فى

الثالثة عصرا من نفس اليوم. السبت. ومرور قافلة واحدة من الإمدادات غير العسكرية إلى الجيش الثالث تحت إشراف الصليب الأحمر والأمم المتحدة !

ولم يصدق كيسنجر نفسه. فهذا التنازل المفاجئ من السادات كان أكبر من كل ما تخيله!

من هنا يهنئ كيسنجر نفسه. ويهنئ إسرائيل. بهذا التطور المفاجئ. قائلا : «هكذا فإن إسرائيل أصبحت على وشك الدخول فى أول مفاوضات عربية إسرائيلية مباشرة منذ استقلالها. لقد احتفظت بالسيطرة على الطريق المؤدى إلى الجيش الثالث. بينما الأمم المتحدة كانت تضغط بالإجماع علينا لكى تنسحب إسرائيل إلى خط ٢٢ أكتوبر.. وكل هذا مقابل السماح بمرور قافلة واحدة من الإمدادات غير العسكرية» !

وبالطبع.. تم إخطار إسرائيل فورا بهذا التطور غير المتوقع.. وبالطبع رحبت إسرائيل بالموافقة على طلبات السادات فورا. وبالطبع.. لم يفت كيسنجر أن يستثمر هذا التطور لردع السوفييت عن مزيد من التدخل. فقد تم إبلاغ موسكو بأن كل ما طلبه السادات هو مرور قافلة واحدة.. وبأنه عرض التفاوض المباشر مع إسرائيل على المستوى العسكرى.. وبأن الترتيبات لتنفيذ هذا كله ستتم خلال ساعات. لماذا يريد السوفييت إذن أن يكونوا ملكيين أكثر من الملك – أكثر من السادات ؟ !

مع ذلك.. فلم يبدأ شىء فى الموعد المقرر !

فإسرائيل. قد وضعت هذه التنازلات الجديدة من السادات فى جيبها. وأرادت أن تعتصره حتى النهاية. فإذا كان باب التنازلات المصرية مفتوحا أمام إسرائيل بهذه السهولة والسرعة فلابد إذن من المزيد. لقد اتجه الوفد العسكرى المصرى نحو مكان الاجتماع فى الموعد المتفق عليه.. لكى يفاجأ بنقطة حراسة إسرائيلية تعترضه عند الكيلو ٨٥. وعندما أبلغ كيسنجر شكوى الجانب المصرى إلى جولدا مائير تليفونيا زعمت إنه كان هناك إهمال فى إبلاغ التعليمات الجديدة إلى الوحدات الإسرائيلية بالسماح لوفد عسكرى مصرى بالمرور..!

وسألها كيسنجر عن سبب عدم وجود ممثل للأمم المتحدة فقالت له : ياه.. لقد نسينا أيضا أن نبلغ الجنرال سيلاسفيو (كبير مراقبى الأمم المتحدة).. !

بالطبع تحدد موعد جديد، فبدلا من الثالثة عصر السبت ٢٧ أكتوبر أصبح الموعد هو منتصف الليل. وحينما جاء منتصف الليل، لم يبدأ الاجتماع إلا فى الواحدة والنصف من صباح الأحد ٢٨ أكتوبر، وبهدف مناقشة السماح بقافلة واحدة من الإمدادات غير العسكرية إلى الجيش الثالث !

إن إسرائيل - وقد لاحظت إلحاح السادات على مرور قافلة واحدة من الإمدادات إلى الجيش الثالث - استنتجت وقدرت على الفور أن هذا الجيش المصرى الثالث لابد أن يكون على وشك الموت عطشا وجوعا، بخلاف ما تراه أمامها فى ميدان القتال. لذلك قررت تعطيل مرور الإمدادات إليه أطول فترة ممكنة للضغط على أعصابه - أو أعصاب السادات - أيهما أسرع فى الانهيار.

ولم يكن هدف إسرائيل من المراوغة هو مجرد الحصول على تسع ساعات إضافية، وإنما الهدف السياسى الأهم هو شىء آخر. لقد يئست إسرائيل تماما من إمكانية زحزحة الجيش المصرى الثالث بوصة واحدة من مواقعه فى ظل الحصار الذى ألقت بثقلها كله لتحقيقه. إلا أن إسرائيل رأت طريقا آخر مفتوحا أمامها سياسيا، للحصول على تنازلات. لماذا إذن لا تعتصره ؟ لماذا لا تستثمره فى أن تحدد من البداية المناخ السيكولوجى الذى تسعى إلى فرضه فى المنطقة.. فإسرائيل هى التى تمنح وتمنع.. وهى التى توافق وترفض.. وعلى المفاوضات التى بدأت لتوها أن تعكس هذه الصورة.. يوما بعد يوم. إن هذا يدعم الصورة التى تروجها إسرائيل لنفسها من أنها خرجت منتصرة.. بينما مصر هى المهزومة ! !

أما كيسنجر، فإنه عند هذه النقطة يعلق قائلا : «إن التحول نحو المفاوضات (المباشرة) بين مصر وإسرائيل قد بدأ، وسرعان ما سيصبح اتجاها غير قابل للنقض أو الإلغاء» !

لقد توقفت المواجهة العسكرية إذن.. لكى تبدأ المواجهة السياسية. إن كلا من المقاتل، المصرى فى سيناء والسورى فى الجولان، قد أثبت صلابة وقدرة فائقين.. وأثبت أيضا أداء متطورا ومرتفعا للغاية ظل يستعد له طوال ست سنوات سابقة. وحطم على أرض الواقع كل الأساطير التى حاولت إسرائيل الترويج لها لشل القدرة العربية على الصمود والمقاومة.

وبالنسبة لمصر. فان المقاتل المصرى، وفى حدود الهدف الذى قررته له السياسة، ظل

لاثنـــين وعشـــرين يوما يقاتل بضراوة. وإيمان أكيد بالنصـــر. وثقة فى أن هذه الحرب هى الطريق الوحيد إلى تحقيق الهدف القومى المحدد منذ يونيو ١٩٦٧. وهو التســـوية الشاملة التى تعيد إسرائيل إلى حدود ١٩٦٧.

الآن توقفت المواجهة العســـكرية.. وأصبح على المواجهة السياســـية أن تبدأ. وفى هذه المواجهة السياســـية فإن مصلحة مصر تكمن في هدف أساســـى هو التسوية الشاملة.. بينما مصلحة إسرائيل كما هى من البداية : الصلح المنفرد مع مصر وحدها. والفصل بينها وبين سوريا.

وحرب أكتوبر، بكل ما حدث، جعلت مصر فى وضع يســـمح لها بأن تفرض ما تريده سياســـيا. بينما انخفضت قدرة إســـرائيل إلى حدها الأدنى. وعلـــى ذلك فمن الآن فصاعدا سوف يتوقف كل شىء على السؤال الكبير : هل ستدور المواجهة مع إسرائيل على المستوى السياسى بنفس الكفاءة والقدرة التى أديرت بها على المستوى العسكرى ؟

OOOO

فلنبدأ أولا بالصورة التى يرسمها هنرى كيســـنجر فى مذكراته تقييما للصورة السياســـية فى أعقاب الحرب مباشرة.

يقول كيســـنجر : «إننا نعرف أن إســـرائيل رفضت بصلابة العـــودة إلى حدود ١٩٦٧. بمـــا فى ذلك التخلـــى عن مدينة القديمة فى القدس، بينمـــا لا يوجد دولة عربية واحدة. حتى الأكثر اعتدالا، ســـتطلب أقل من ذلك فى إطار التســـوية الشـــاملة. إن إســـرائيل. وهى تعانى من الصدمة المذهلة للهجوم العربى كانت تتصرف كالمشـــلولة. إنها على وشـــك إجراء انتخابات، وهى تســـعى إلى اســـتعادة صورتها. و (ممارسة) الضغوط عليها من أجل مفاوضات شاملة كان من المرجح أن تؤدى إلى إجراءات يائسة مثل إنهاء وقف إطلاق النار. أو إلى انهيار نفسى. بأكثر مما يؤدى إلى تسوية».

«أما بالنسبة للعرب. ففى ظل مدخل شامل يصبح على كل الأطراف المعنية أن توافق. والعناصر الراديكالية فى العالم العربى ســـيكون لها الاعتراض. ومصر سوف تفقد السيطرة

على قراراتها هى. والاتحاد السوفيتى سوف يدخل نفسه كمحام عن الجانب العربى. يبرز برنامجا يقوم على الحد الأقصى. وهو برنامج علمتنا سنوات من التجربة أنه غير قابل للتحقيق. وسوف يقوم حلفاؤنا. فى أوروبا واليابان. بتأييد الموقف العربى. و (الجميع) تاركينا معزولين تماما».

وكيسنجر يسوق المبررات السابقة فى مذكراته فى إطار تبريره للسياسة التى سلكها فيما بعد. وهى سياسة «الخطوة خطوة» .. التى استهدفت من البداية نسف الطريق إلى التسوية الشاملة.

إن علينا أن نخصم من تقييم كيسنجر قاموسه الخاص الذى يلون به الحقائق. فحديثه عن «العناصر الراديكالية» فى العالم العربى هو حديث ملفق. طالما إن الدول الثلاثة التى تحتل إسرائيل أراضيها بالفعل هى مصر وسوريا والأردن.. ثم أنه يعترف بأن كل الدول العربية. حتى «الأكثر اعتدالا» من وجهة نظره.. كلها تصر على التسوية الشاملة – هى تسوية يعرف كيسنجر من البداية أن جوهرها هو إعادة إسرائيل إلى حدود يونيو ١٩٦٧. وفى هذه النقطة لا يوجد بالنسبة للعرب من هو راديكالى أو غير راديكالى.

علينا أن نخصم أيضا من تقييم كيسنجر الاحتمال الأول الذى رأى أن إسرائيل يمكن أن تسلكه. وهو قيامها بإنهاء وقف إطلاق النار. إن مثل هذه الخطوة. كما أقر كيسنجر نفسه فى أجزاء سابقة. لم تكن تتوقف مطلقا على مجرد رغبة إسرائيل. فهى كانت معرضة للانهيار العسكرى التام منذ الأسبوع الأول للحرب. إنما الأمر يتوقف على اعتبارات أخرى خارج نطاق الرغبة الإسرائيلية تماما. من هذه الاعتبارات : إلى أى حد تستطيع الولايات المتحدة أن تلتزم لإسرائيل بجسر جوى آخر لإمدادها بالأسلحة ؟ إلى أى حد سيستجيب الاتحاد السوفيتى لجسر مماثل للعرب ؟ إلى أى حد تستطيع الولايات المتحدة احتمال مواجهة أخرى مع الاتحاد السوفيتى ؟ و.. إلى أى حد أيضا. بل أساسا. ستسمح مصر وسوريا بذلك عسكريا ؟

فى هذه النقطة لا يبقى إذن سوى التفسير الآخر الذى طرحه كيسنجر نفسه. مبررا به عدم الاتجاه إلى التسوية الشاملة. وهو الخشية من إصابة إسرائيل بـ «انهيار نفسى» يمنعها من «استعادة صورتها» السابقة كذراع طويلة فى المنطقة.

ثـم نأتى إلى العوامل الموضوعية التى وضعها كيسـنجر نفسـه فى تقييمه. فإسـرائيل تحتاج إلى تفادى التسوية الشاملة فى هذه المرحلة لأنها : فى حالة شلل.. وتريد استعادة صورتها.. وحتى لا تصاب بانهيار نفسى. وكل تلك عوامل ضعف فى الموقف الإسرائيلى.

فى مقابل ذلك فإن العرب يحتاجون بالذات إلى التسوية الشاملة لأنهم : متفقون على ذلك بما فيهم الدول «الأكثر اعتدالا» .. ولأن الاتحاد السـوفيتى سـيناصرهم.. ولأن أوروبا الغربية واليابان سـتنضم إليهـم ضد الولايات المتحدة.. ولأن الولايات المتحدة سـتكون معزولة تماما إذا فكرت فى معارضة هذه التسوية الشاملة. وكل تلك العوامل هى قوة فى الجانب العربى.

لكن كيسنجر حذف عمدا عامل قوة آخر خرج به العرب من حرب أكتوبر - هو سلاح البترول. لقد اسـتخدمه العرب كسـلاح سياسى بفاعلية لصالح قضيتهم القومية لأول مرة.. وهو استخدام أدى إلى نتائج ضخمة على الجانب الدولى. وضاعف تماما من القدرة العربية على تعبئة المجتمع الدولى فى صف التسوية الشاملة. وضد أى شىء أقل منها.

إن كل المبررات القائمة إذن. فى أعقاب الحرب. هى مبررات تمكن العرب أخيرا من الحصول على حقوقهم الأساسـية. ومحورها إعادة إسـرائيل إلى حدود يونيو ١٩٦٧. وهى مبررات تعبر عن أسـلحة قوة. ولكنها أسـلحة ـ أيضا ـ لن تظل محتشدة فى حالة تجمع وتعبئـة إلى مالا نهايـة. فالفرصة الكبرى للعرب إذن للحصول على حقوقهم الشـاملة هى الآن.. فى أعقاب الحرب.. ولن تعود مثل هذه الفرصة مرة أخرى لسنوات طويلة تالية.

ولهذه الأسـباب بالضبط سيحاول كيسنجر منع الطرف العربى من تحقيق هذه التسوية الشاملة بأى ثمن ـ طالما كان هذا فى استطاعته. لكن. المواجهة السياسية تحتاج إلى طرفين علـى الأقـل. ولا تقوم على طـرف واحد. من هنا فإن أهداف كيسـنجر هذه لن يقدر لها النجـاح مطلقا.. إلا إذا وجد طرفا يقبل الانزلاق معـه إلى الفخ الذى ينصبه والهاوية التى يعدها ضد مصر وسوريا والفلسطينيون والعالم العربى بأكمله.

كانت العوامل التى يراها كيسنجر مساعدة له فى محاولة تحقيق هذا الاختراق السياسى عقب الحرب هى : «إننا أوشـكنا أن نصل إلى هدف اسـتراتيجيتنا. لقد انتهت الحرب. وانتهى معها الخطر الأكثر إلحاحا على الموقف الأمريكى فى الشـرق الأوسـط. لقد بدونا

باعتبارنا العامل المحورى فى الدبلوماسية. ومصر قد بدأت تتحرك فى اتجاهنا. الأمر الذى يخلق حافزا بالنسبة للنظم الراديكالية (العربية) لإعادة فحص المقدمات التى تعتمد عليها سياستها. والسادات أعطى بوضوح إشارات عن نيته لتغيير الطريق ـ فلا تفسير آخر يمكن أن يتلاءم مع سلوكه المنضبط. والمقيد تماما.. معنا. وكل هذا تم اتخاذه بينما وقفنا نحن إلى جانب أصدقائنا فى إسرائيل وقت الحرب. ومنها عزلتهم فى الدبلوماسية المشحونة بالفوضى حول وقف إطلاق النار» .

تلك هى العوامل التى سيقامر بها كيسنجر. فى رهانه الكبير لحظة أن تبدأ السياسة عملها.

مقابل ذلك، كانت هناك عوامل أخرى مضادة. فالجيش الثالث المصرى لن يظل ساكنا لمدة طويلة، والدول العربية جميعا اتخذت خطوات عملية بالفعل للتضامن مع مصر وسوريا عسكريا.. والحظر البترولى العربى مستمر ومرتبط بإعادة إسرائيل إلى حدود يونيو ١٩٦٧.. وأوربا الغربية واليابان تضغطان بقوة على الولايات المتحدة للاستجابة إلى هذا الحق العربى.. والاتحاد السوفيتى يزمجر فى محاولات أمريكا التقليل من نفوذه فى الشرق الأوسط.

ووسط هذا المناخ، يقول كيسنجر. كانت «العصبية العامة ضخمة فى القاهرة التى جعلت السادات غير قانع بانتظار وصولى إلى هناك (فى ٧ نوفمبر). إننا لم نكن ندرك هذا تماما بعد. ولكن كانت له مصلحة كبرى فى التدليل على الدور الحاسم لأمريكا.. بقدر ما لنا نحن مصلحة فى ذلك. وهكذا تم اخطارى فجأة فى ٢٨ أكتوبر بأن إسماعيل فهمى القائم بعمل وزير الخارجية المصرى قد تم إيفاده إلى واشنطن بواسطة الرئيس السادات. وبغير إخطار سابق لنا».

ويرى كيسنجر فى مذكراته أن خلاصة الانطباع الذى خرج به من مباحثاته مع إسماعيل فهمى (الذى عين وهو فى واشنطن وزيرا للخارجية بدلا من الزيات) هو أن السادات «.. لا يقبل قط بوجود إسرائيل.. ولكن فهمى لم يترك لدينا شك فى أنها – مصر – لن تدع الفلسطينيين يقفون فى طريق الحل ـ وهذا تغيير ملحوظ عن الموقف الذى اتخذه حافظ إسماعيل معى فى وقت مبكر من هذه السنة» .

وإذا كان لنا أن نقبل كلمات كيسنجر هنا، فإن هذا يعنى فى الواقع تحولا جذريا فى الموقف السياســى المصرى الثابت منذ يونيو ١٩٦٧، وهو أن التسوية الشاملة هى الهدف. ولا هدف غيره. إن الإشارة، حتى، باحتمال مثل هذا التحول ستكون نذيرا مبكرا بما سيلى من تطورات.. ولكنه ليس بعد نذيرا نهائيا.

فى الناحية الأخرى فإن جولدا مائير ذهبت هى أيضا إلى واشنطن يوم ٣١ أكتوبر. لكى تنسق خطواتها التالية مع الولايات المتحدة قبل أى تحرك. وكما يقر كيسنجر فى مذكراته فــان جولــدا مائير قالت لهم فى واشــنطن بوضوح ما يلى : «لقد جئت الآن لأن الأشــياء بلغت مرحلة يجب فيها الوضوح... إننا (أى فى إســرائيل) نحتاج إلى معرفة الخطط التى تناقش هنا. نحتاج إلى معرفة : هل سنعرف بالأشياء بعد عملها ؟ بعد أن ترسمها الأطراف الأخرى ؟.. ربما يكون على إسرائيل أن تفعل كل شىء تريده مصر. ولكن علينا أن نعرف ما الذى يتم تخطيطه بين كل الأطراف».

وكان أســلوب كيســنجر فى شرح الموقف هو أن يقول لجولدا مائير : «إذا لم نحقق أى تقدم، فلن يكون لدى العرب حافز للتعامل معنا، وســوف يصبح من المســتحيل فصل مصر عن الاتحاد السوفيتى. ولن يكون هناك بديل معتدل عن الراديكالية العربية» .

ولنلاحظ هنا مبدئيا أن ما يعنيه كيســنجر بـــ «الراديكالية العربية» هو كل من يطالب بإعادة إسرائيل إلى حدود ٤ يونيو ١٩٦٧.

فى مقابل ذلك، كانت اللهجة التى استخدمها الرئيس نيكسون مع جولدا مائير هى : «إن المشكلة التى عليكم التفكير فيها هى ما إذا كانت السياسة التى اتبعتموها - وتقوم على تجهيزكم بطائرات فانتوم وسكاى هوك - يمكن أن تنجح فى ظل عدم وجود التسوية. إن الســؤال هو ما إذا كانت سياسة كهذه.. تقوم فقط على الاستعداد للحرب هى كافية أم لا؟ إن هــذه الحرب الأخيرة تثبت النتيجة الطاغية.. وهى أن سياســة حفر الخنادق. حيث تقولون لنا إن علينا أن نعطيكم السلاح وأنتم عليكم الحرب.. لا يمكن أن تكون هى النهاية. إن سياستكم يجب أن تتحرك. بينما أنتم تتحركون نحو المحادثات» .

فلنلاحظ هنا أيضا الاختلاف الجذرى بين لهجة نيكسون ولهجة كيسنجر فى التعامل مع جولدا مائير.. لأن مثل هذا الاختلاف سوف تترتب عليه نتائج هامة فيما بعد.

في نفس الوقت يسجل كيسنجر أن صبر زملائه على إسرائيل كاد ينفد في الاجتماعات اليومية لمجموعة العمل الخاصة ويروى بوضوح أن «.. بعض زملائي كانوا ما يزالون يحثون على إعادة إمداد الجيش الثالث (المصرى) بواسطة جسر جوى أمريكي، وفي إحدى النقاط قامت وزارة الدفاع بالفعل بتحديد وتخصيص الطائرات من أجل إنجاز هذه المهمة».

ويسجل كيسنجر أنه بذل أقصى ما يستطيع من جهد لكي يعارض هذا الاتجاه بقوة.. راجيا من زملائه في المجموعة. وخصوصا جيمس شليزنجر وزير الدفاع. ألا يظهروا علنا أى استياء من إسرائيل.

ويبرر كيسنجر موقفه هذا بقوله : «إن نفوذنا في الشرق الأوسط يعتمد على أن يرى العرب إسرائيل باعتبارها حليفا وثيقا لنا. من الصعب تحريكه. إن حدوث شقاق منظور بيننا سوف يشجع الأوربيين والاتحاد السوفيتي ودول عدم الانحياز على الضغط علينا».

والنقطة الهامة والملفتة هنا هي أيضا حرص كيسنجر الشديد على أن يزرع في ذهن العرب صعوبة تحريك إسرائيل، وهي صورة سيجرب كيسنجر الترويج لها عند بعض الأطراف العربية. لأن هذا يؤدى إلى نتيجتين : تحقيق حالة من اليأس العربي تسمح بتنازلات لإسرائيل يسعى إليها كيسنجر من البداية.. ومنع تراكم ضغوط على أمريكا تؤدى بدورها إلى ضغوط على إسرائيل.

غادر كيسنجر واشنطن في اليوم الخامس من نوفمبر (١٩٧٣). لكي يتوقف فترات قصيرة في المغرب وتونس قبل أن يتجه إلى مصر. وبكلمات كيسنجر فإنه كان يحاول الترويج للمدخل الذى يمكن أن يعتمد عليه نجاح أو فشل الاتفاقات الجزئية التي يسعى إليها لإبعاد العرب عن تمسكهم بالتسوية الشاملة. هذا المدخل هو زرع فكرة أن : «الآخرين ـ يقصد السوفييت ـ يستطيعون إعطاء السلاح إلى العرب. ولكن الولايات المتحدة هي وحدها التي تستطيع أن تعيد إليهم الأراضي» .

وحذف كيسنجر حقيقة هامة أخرى، وهي أن السلاح أيضا يمكن أن يستعيد الأراضي المحتلة. بل إن هذا هو بالضبط الذى يرغم كيسنجر الآن على المجيء إلى القاهرة. إن قوة مصر هي التي أتت به. وليس ضعفها.

على أى حال. لم يكن ما يروج له كيسنجر يعبر بدقة عن السياسة الأمريكية فى تلك المرحلة.. بقدر ما كان يمثل حرصه هو على تحقيق أكبر قدر من المكاسب لإسرائيل على حساب العرب.

ففى السادس من نوفمبر. وبينما كيسنجر لم يصل بعد إلى القاهرة. تلقى من واشنطن تقريرا فى الطائرة عن نتائج اجتماع عقده الرئيس نيكسون لأعضاء حكومته فى نفس اليوم. لبحث مشكلة الطاقة نتيجة لاستمرار الحظر البترولى العربى.

ويسجل كيسنجر فى مذكراته أن التقرير يقول : «.. فى نهاية اجتماع الوزارة فاجأ الرئيس نيكسون كل شخص بحديث قصير عن الشرق الأوسط.. لقد قال الرئيس إنه لا يريد من أحد من الحاضرين تدوين ملاحظات. ولا يريد مناقشة لما سيقوله. ولكنه يريد من الحكومة أن تعلم أنه فيما يتعلق بالطاقة، فربما يكون ضروريا (للولايات المتحدة) ممارسة ضغط على إسرائيل لمنع حدوث نقص فى البترول. وقال الرئيس إن جولدا (رئيسة وزراء إسرائيل) قد أظهرت فى البداية بعض المرونة. ولكنها بعدها أصبحت متصلبة تماما. ومن الواضح أنها تعتقد أن الإسرائيليين يستطيعون مجرد الاحتفاظ بما فى حوزتهم الآن (من الأراضى العربية المحتلة). وقال الرئيس نيكسون إنه ربما يكون ضروريا بالنسبة للولايات المتحدة أن تذهب إلى الأمم المتحدة. وربما تمارس أنواعا أخرى من الضغوط على إسرائيل. إنه يأمل ألا يكون هذا ضروريا. ولكن إذا كان كذلك. فإنه يتوقع من الوزراء أن يتفهموا. وأن يساندوا. ما قد سيحدث».

ومرة أخرى يصاب كيسنجر بالفزع والهلع والذعر. مسجلا انتقاده للتفكير فى اعتصار إسرائيل لإنهاء الحظر البترولى العربى. مستخدما الحجج التالية :

أولا : إن هذا سيضع سابقة خطيرة لاستخدام البترول ضدنا مع ارتفاع المطالب العربية (ومن قبل - حينما وجه نيكسون إنذارا لإسرائيل بشأن إمدادات الجيش الثالث - قال كيسنجر للسفير الإسرائيلى إنه. كصديق. لا يريد أن يضع سابقة للضغط الأمريكى على إسرائيل).

ثانيا : إننا يجب أن نحرص على عدم تدمير سمعة إسرائيل من العناد. (لأن كيسنجر يريد الترويج لدى العرب بأنه فى حاجة إلى التنازلات منهم لصالح إسرائيل تساعده فى تخفيف هذا العناد الإسرائيلى المفترض).

وكالعادة، أسـرع كيسـنجر إلى الاتصال بألكسـندر هيج كبير موظفى البيت الأبيض. والجنرال سـكوكروفت نائبه للأمن القومى، يرجوهما العمل على منع تسـريب أية أخبار عن موقف الرئيس نيكسون هذا - لأن العرب لو أدركوا لحظة واحدة أن هذا موقف الرئيس نيكسون.. فلن ينجح كيسنجر فى أن يستخرج منهم التنازلات التى يريدها لصالح إسرائيل.

والمهم هنا أن نلاحظ أن هذه هى المرة الثانية التى يقرر فيها نيكسون استعداده للضغط علـى إسـرائيل بما فيه الكفاية. كلمـا حانت جولة حاسمة مـن المفاوضات نحو الحل النهائى. فالمرة الأولى كانت عندما اتجه كيسنجر إلى موسكو للتفاوض.. فأخطره نيكسون باستعداده الآن للضغط من أجل التسوية الشاملة (القائمة على إعادة إسرائيل إلى حدود ٤ يونيو ١٩٦٧).. وهذه هى المرة الثانية بينما يتجه كيسنجر إلى القاهرة للتفاوض من أجل السـلام. وإذا كان قد فات على الطرف العربى أن يسـتثمر المرة الأولى. فلعله لا يفرط فى هـذه الفرصة الثانية وقد هدأت جبهة القتـال. وأصبح ممكنا تحليل الموقف الدولى بدقة وروية.

ولم يكن موقف نيكسـون هو التطور الوحيد يوم ٦ نوفمبر. ففى نفس هذا اليوم أصدرت دول السـوق الأوربية المشـتركة بيانا عن الشـرق الأوسـط تطالب فيه بانسحاب إسرائيل العاجل إلى خط ٢٢ أكتوبر كوسـيلة لتثبيت وقف إطلاق النار. ثم بانسـحاب إسرائيل من جميـع الأراضى العربية المحتلـة وعودتها إلى حدود ٤ يونيو ١٩٦٧ كطريق إلى السـلام. لقد كانت هذه إشـارة محددة من دول أوروبا الغربية، الحليفة للولايات المتحدة. تسـجل فيهـا مقدمـا أنه فى ظل أى إصرار عربى على إعادة إسـرائيل إلى حدود يونيو ١٩٦٧ فإن أوروبا سـتقف مع الجانب العربى ضد إسـرائيل. وضد الولايات المتحدة لو لزم الأمر. وقد كان هذا تطورا أوروبيا إيجابيا فى الموقف الذى سـجلته منذ نشـوب حرب أكتوبر. حيث رفضت تركيا واليونان واسـبانيا وبريطانيا وايطاليـا. وباختصار كل أوروبا الغربية ما عدا هولندا والبرتغال السـماح للولايات المتحدة باستخدام قواعدها بأراضيها فى الجسر الجوى إلى إسـرائيل. لقد رفضت حتى السماح لطائرات الاستطلاع الأمريكى بالإقلاع من أراضيها إلى الشـرق الأوسـط. والآن فإن أوروبا الغربية، بعد أن رأت الأداء الضارى للمقاتل المصرى

والسورى فى ميدان القتال.. والتضامن العربى الشامل بحظر البترول. فإنها تبلور هذا كله فى موقف سياسى محدد وواضح.

لقد كان هذان التطوران الأساسيان يوم ٦ نوفمبر - إحدهما غير معلن وإن كان التحليل السياسى الصحيح للموقف كفيل بالتعرف عليه.. وهو استعداد نيكسون للضغط الحازم على إسرائيل. والتطور الأوربى الآخر معلن وواضح. وكلاهما يضاف إلى عناصر القوة الأخرى فى صالح مصر يبدأ كيسنجر جولته ومهمته : الحظر البترولى العربى.. المساهمة العربية الفعالة عسكريا بالإمدادات التى جاءت إلى مصر فعلا وأخذت مكانها فى جبهة القتال.. إعادة ترتيب الأوضاع العسكرية فى منطقة القناة.. ثم الدعم السوفيتى.

لقد كان هذا كله كفيلا بأن يكون الموقف الافتتاحى على الأقل فى التباحث مع كيسنجر هو الإصرار على التسوية الشاملة. ولنأخذ فى اعتبارنا هنا حقيقة جوهرية : إن كيسنجر حتى الآن ناور وخادع وكذب ولفق وماطل واختلس لإسرائيل فرصة أخرى.. ولكنه لم ينجح نهائيا بعد مطلقا. إن نجاحه لن يكون نهائيا إلا إذا ترجم مناوراته كلها إلى اتفاق سياسى يرجح كفته هو على باقى الإدارة الأمريكية كلها ابتداء من نيكسون فما يليه. لم ينجح كيسنجر سياسيا بعد إذن.. ومازالت كل أوراق القوة فى يد مصر، وفرصتها الآن فى استخدامها بمهارة هى الفرصة الكبرى. وفن التفاوض يقتضى على الأقل البدء بالإصرار على الحد الاقصى.

لقد وصل كيسنجر إذن إلى القاهرة فى أول زيارة له إليها. وفى صباح ٧ نوفمبر، قبل اجتماعه المقرر مع السادات. جاء إليه «آرنود دى بورشجراف» مراسل مجلة «نيوزويك» الأمريكية، وقال له :

- إن معلوماتى فى مصر تشير إلى أن ضباط الجيش المصرى يعتبرون أن استمرار الحصار الإسرائيلى للجيش الثالث هى إهانة لا تحتمل للكرامة المصرية. ولذلك فإنهم يضغطون على السادات بقوة كى يسمح لهم باستئناف الحرب والقضاء على الثغرة الإسرائيلية تماما. وأنا أتوقع أن يضطر السادات فى النهاية بالسماح لهم بذلك.

وهنا يعلق كيسنجر بقوله : «إنه بالرغم من أن بورشجراف تنبأ قبل ستة أشهر بنشوب هذه الحرب. وبالرغم من أن الأحداث أثبتت صحة تنبؤه. إلا أننى رأيت أنه فى هذه المرة

كان مخططا تماما.. لأسباب بسيطة. فالسادات كان مرنا ومنضبطا معنا تماما طوال الحرب برغم ما فعلناه.. ثم أنه ألح بشدة على مجيىء إلى القاهرة فى هذه الزيارة. ولو أنه كان يفكر حقا فى احتمال استئناف القتال (ضد إسرائيل) لما فعل هذا أو ذاك» .. ! !

تلك إذن كانت هى الفكرة المسبقة لكيسنجر عن السادات بعد أن حلل سلوكه. وها هو الآن يتجه إلى مقابلته وبداخله هذا الانطباع الخطير.

يقول كيسنجر : «عندما وصلت إلى قصر الطاهرة صباح يوم ٧ نوفمبر. وجدت فى انتظارى اثنين من معارفى السابقين.. إحدهما حافظ إسماعيل مستشار السادات. والآخر أشرف غربال.. لقد أسرعا بى عبر سلالم عريضة إلى أعلى. حيث المبنى الذى يطل على الحديقة الواسعة للقصر. وعند نهاية السلالم اكتشفت سبب هذا الصمت الغير طبيعى فى الحديقة» .

لقد كان السبب ببساطة هو أن السادات قد جمع كل الصحفيين والمراسلين الأجانب الذين تم العثور عليهم.. لكى يلتقطوا الصور الصحفية والتليفزيونية للقائه المنتظر مع كيسنجر.. !

وهكذا ظهر السادات، مرتديا بدلة عسكرية وبالطو على كتفيه.. ليقول لهنرى كيسنجر بود وحرارة : أهلا.. أهلا.. !

ويقول كيسنجر إنه فوجئ بهذا الود. خاصة وأن الجميع يعرفون الدور الذى لعبته الولايات المتحدة فى تسليح إسرائيل طوال الحرب. والمناورات التى قام بها كيسنجر نفسه فى محاولاته لتحريض إسرائيل على إبادة الجيش المصرى الثالث. ولذلك – يقول كيسنجر– فإنه قرر أن يتظاهر هو الآخر بالود والحرارة !

وبمجرد أن رأى السادات أن الصور قد تم التقاطها له مع كيسنجر بما فيه الكفاية. سحب كيسنجر من يده، متجها إلى غرفة واسعة مغلقة. لكى يتم الاجتماع بينهما على انفراد.

وقبل أن يعطى السادات لكيسنجر الفرصة ليعرض ما لديه. أو يطرح ما يحمله معه. انطلق السادات فجأة ليقول لكيسنجر : إن لدى خطة لك.. تستطيع أن تسميها «خطة كيسنجر» ..!

وتهيأ كيسنجر على الفور لكى يستمع إلى السادات وهو يعرض علية الموقف الافتتاحى لمصر فى هذه الجلسة الأولى من المفاوضات الحاسمة بعد حرب كبرى على الجبهتين المصرية والسورية. إن السادات سيبدأ بلا شك بالإصرار على انسحاب إسرائيل الكامل إلى حدود ٤ يونيو ١٩٦٧. والتمسك بالتسوية الشاملة على جميع الجهات - سيناء والجولان والضفة الغربية - فبعد كل شىء. كان هذا هو موقف مصر الذى تمسكت به منذ حرب يونيو ١٩٦٧ وحاربت من اجله. ثم إن مصر مرتبطة مع العالم العربى بأجمعه فى الإصرار على هذه المطالب المشروعة التى يؤيدها المجتمع الدولى. بل إن الشهداء المصريين الذين سقطوا فى حرب الاستنزاف. ثم الآن فى حرب أكتوبر. قد ضحوا بأرواحهم بالضبط من أجل التسوية الشاملة. وليس أى شىء آخر.

ولكن. بدلا من ذلك. نهض السادات واقفا. واتجه إلى مجموعة خرائط معلقة على الحائط. وبدأ يشير إلى كيسنجر إلى الخط الذى يطمح أن تنسحب إسرائيل إليه. قائلا إنه: خط العريش رأس محمد.. !

وتنفس كيسنجر الصعداء !

إن السادات لم يتحدث عن التسوية الشاملة. ولا حتى عن انسحاب إسرائيل من سيناء. ولكنه يتحدث فقط عن استرداد ثلثى سيناء. مع ترك الثلث الأخير إلى مفاوضات لاحقة !

وكانت المفارقة الكبرى هنا هى أن هذا كان هو نفس ما اقترحه السادات علنا فى فبراير سنة ١٩٧١ بعد أربعة شهور فقط من توليه الرئاسة. وقبل حرب أكتوبر. وحظر البترول العربى. بسنتين كاملتين.. ! بل إنه كان نفس ما أعلنه موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى فى ديسمبر سنة ١٩٧٠ فى أول محاولة لسبر غور السادات كرئيس جديد لمصر.. !

ومع التواضع الشديد فى اقتراح السادات هذا. وانفصاله الكامل عن الهدف المصرى المعلن لحرب أكتوبر نفسها، وعن الهدف العربى الرسمى فى فرض حظر البترول. وتجاهله الكامل للموقف على الجبهة السورية - شريك مصر فى الحرب - بل وللسياسة المصرية

كلها منذ يونيو ١٩٦٧. إلا أن كيســنجر فى الواقع أصبح يريد الآن أن يختبر الســادات أكثر وأكثر.

يقول كيســنجر فى مذكراته هذه: إننى لم أعتقد أن من الحكمة أن نبدأ برفض واحدة من أفكار السادات... لهذا قلت له : قبل أن نتحدث فى هذا الموضوع الذى تطرحه.. هل لك أن تروى لى كيف استطعت أن تحقق مثل تلك المفاجأة المذهلة يوم ٦ أكتوبر ؟

وابتسم السادات وبدأ يتحدث عن نفسه!.

بعدها شــكا السادات إلى كيســنجر من الاتحاد السوفيتى. إن السوفييت - هكذا يقول السادات لكيسنجر - يعطون لعلاقتهم بالولايات المتحدة الأولوية على علاقتهم بمصر. والدليل الذى يسوقه السادات على ذلك لكيسنجر هو البيان الأمريكى السوفيتى المشترك الذى كان قد صدر قبل سنة ونصف.. !

ثم بدأ الســادات يشكو إلى كيسنجر من العسكريين المصريين ! إن السادات يقول لكيســنجر : لقد كنت أريد أن أشــن هذه الحرب فى نوفمبر العام الماضى (١٩٧٢) ولكن العســكريين المصريين كانوا فى الواقع متشككين فى جدوى الخطة الموضوعة، بل وفى جدوى الحرب نفسها.. !

هنــا فقط يســجل كيســنجر أول انطباع له عن الســادات. والانطبــاع، بكلمات كيسنجر فى مذكراته هو : «إن السادات يمثل بالنسبة لى (كيهودى صهيونى أمريكى متعصب لإســرائيل) أفضل فرصة لكى نقلب المشــاعر والاتجاهات والمواقف العربية نحو إسرائيل، وهى فرصة تتاح لأول مرة منذ قيام إسرائيل كدولة» .

وهكذا، فعندما عاد كيسنجر إلى الحديث، استغرق نصف ساعة فى جس النبض بالنسبة لمجموعة المفاهيم الأساسية التى يريد البدء بها. ويروى كيسنجر أنه استخلص هذا الشــرح فى قوله للســادات : «ليس لدينا أى حافز لكى نكون مقبلين على دول زبائن للاتحاد الســوفيتى. إن سياســة (جمــال) عبد الناصر مــن محاولة اغتصاب تنازلات منا عن طريق تعبئة دول العالم الثالث ضدنا، مع الدعم السوفيتى، لم تثمر

فى الماضى، ولن نسـمح لها بأن تثمر فى المسـتقبل. إن السلام فى الشرق الأوسط لا يمكن أن يأتى بهزيمة حلفاء أمريكا (يقصد إسرائيل) كما أظهرنا لتونا.. !

لقـد كانـت هذه بداية موحية من كيسـنجر وزير خارجية الولايـات المتحدة – جاء يتفاوض بشـأن قرارات مجلس الأمن. فبدأ بالحديث عن سياسـات جمال عبد الناصر.. والعلاقة مع الاتحاد السوفيتى ودول عدم الانحياز.. وكلاهما يجب الابتعاد عنه..!

ويروى كيسنجر فى مذكراته أن السادات سأله بعد ذلك : ماذا عن إسرائيل.. ؟

وكيسنجر يرد عليه بقوله : إن مصر فقدت آلاف من القتلى فى قضية لم يتم تخفيضها أبدا فى شروط ربما كانت أمريكا تؤيدها... إن إسرائيل هى بالفعل عنيدة. وأحيانا تبعث على الحنق. ولكن... عليك أن تفهم سيكولوجية بلد لم يتمتع مطلقا بالحد الأدنى من صفة السيادة. والقبول. من جانب جيرانها.

ومـرة أخـرى كانت هذه بداية عصماء، يسـتمع إليها رئيس أكـبر بلد عربى. تحتل إسـرائيل فى هذه اللحظة ذاتها أرضها غرب قناة السـويس ! إسرائيل عنيدة.. ومعذورة.. وربما تسـتحق الشـفقة، ثم انزلق كيسـنجر بالحديث من هنا. إلى نقطة سوف تتردد بعد ذلك. لحظة التنازلات الكبرى لصالح إسرائيل.

ويروى كيسـنجر أنه قال للسـادات : «إننى اسـتحثك على التفكير فى السـلام مع إسرائيل.. على أساس أنه مشكلة نفسية. فإذا لم تكن إسرائيل تستطيع أن تقيم أمنها على الغلبة المادية، فإنها لا تستطيع أيضا أن تكون آمنه بغير ثقة.. وتلك هى المساحة المطلوبة من مصر، أكثر البلاد العربية مكانة ونفوذا. فإذا قدمت مصر هذا العنصر. فإننا سوف نبذل جهدنا للحصول على تغيرات إقليمية، بالرغم من أنها قد لا تكون بالضخامة الموجودة فى «خطة كيسنجر» التى اقترحتها أنت الآن».

لم تكـن تلك كلمات وزيـر خارجية الولايـات المتحدة. ولكنهـا أراء محامى انتدبته إسـرائيل ليروج للصورة التى تريدها لنفسها فى القاهرة. إن مصر. البلد الذى تعانى أرضه من احتلال إسرائيلى مضى عليه ست سنوات وأكثر. والبلد الذى مات أطفاله فى بحر البقر ودمرت قناطره النيلية فى نجع حمادى واستشهد عماله فى أبو زعبل بفعل غارات العمق

الإسرائيلية. مصر هذه هى المطلوب منها الآن أن توفر الثقة لإسرائيل - قوة الاحتلال!.

ولم تكن تلك مقدمة مفاوضات. ولكنها بداية خطيرة. من الملفت أن كيسنجر نفسه يقر بأنه لم يجربها مع أى بلد آخر. ولا مع أى رئيس آخر.

وكان من المهم للغاية. طالما تم السماح لكيسنجر بأن يذهب إلى هذا المدى. أن تتاح الفرصة لفحص أرائه تلك. أو محاولة نقضها على الأقل.

ولكن هذا لم يحدث. وبدلا من ذلك. يكتب كيسنجر فى مذكراته انه انطلق فى الحديث. مسجلا انه طرح على السادات اختيارين : «.. فباعتمادك على بيان السوق الأوربية المشتركة. وعلى الدعم السوفيتى. تستطيع إن تصر على (إعادة إسرائيل إلى) خط ٢٢ أكتوبر. انه سيكون أمرا صعبا. وربما مربكا. بالنسبة لنا. ولكن. بالتدريج. ربما يتم إغراؤنا على المضى فى هذا الطريق. وربما يحتاج الأمر إلى بضعة أسابيع لتحقيق ذلك. ثم.. من أجل أى شىء يصبح عليك أن تعبئ بكل هذه الضغوط ؟ لجعل إسرائيل تتراجع بضعة كيلومترات قليلة على الضفة الغربية لقناة السويس ؟ إنها عملية لابد من تكرارها بعد ذلك فى ظروف أكثر صعوبة للتوصل إلى فصل حقيقى للقوات يؤدى إلى تراجع إسرائيلى عبر قناة السويس».

ثم استرسل كيسنجر يعرض على السادات الاختيار الآخر : «إن الطريق الأفضل هو التعايش مع الأمر الواقع (الذى هو حصار إسرائيل للجيش المصرى الثالث). والذى يمكن تحمله بفعل نظام الإمدادات غير العسكرية للجيش الثالث. ومع نزع الفتيل من التوترات العاجلة. فإن الولايات المتحدة سوف تفعل كل ما فى وسعها لترتيب فض اشتباك حقيقى للقوات. يتحرك الإسرائيليون بمقتضاه خلفا عبر قناة السويس - برغم أنه لن يكون تحركا إلى المدى الذى تريده أنت (خط العريش/رأس محمد). ولا حتى ما يتجاوز مضايق سيناء. مع ذلك. فسوف يكون هذا أول انسحاب إسرائيلى من أرض عربية احتلت لفترة طويلة. إن هذا سوف يخلق الثقة من اجل خطوات أخرى.. وعليك أنت أن تختار. وسوف أفعل ما فى وسعى بالنسبة لأى من الطريقين».

ثم يقول كيسنجر فى النهاية معلقا : «إننى كنت فى الواقع أقول (للسادات) إن المفتاح الحقيقى إلى السلام هو تسليمه المستمر باستمرار الجيش الثالث محاصرا فى الصحراء

لأســابيع تالية. معتمدا فى ذلك على تقدير مســئول أمريكى قابله لتوه. ولا تجربة له فى دبلوماسية الشرق الأوسط.

ولنلاحــظ هنا مبدئيــا نقطة جوهرية للغاية : فكيســنجر. برغم كل ولائه لإســرائيل وحرصــه علــى اختلاس التنازلات لها بأى ثمن. لم يفكر أبدا أن إعادة إســرائيل إلى خط ٢٢ أكتوبر ممكنة. لقد اقر صراحة بان هذا ممكن ـ لان هذا فى الواقع هو التزام امريكى مع الســوفييت فضلا عن حق مصر فيه بمقتضى قرارات مجلس الأمن. إعادة إســرائيل ممكنة. فقط - وهذا هو كل ما اســتطاع كيســنجر أن يضيفه ـ فقط هذا يحتاج إلى أســابيع قليلة لإتمامه. فإذا أصر الســادات إذن على خط ٢٢ أكتوبر. فإن الولايات المتحدة لن تســتطيع أن تتنصل من تعهدها بذلك.

أما الاختيار الآخر الذى يطرحه كيســنجر على الســادات. فإنه لا يقول أن هذا موقف أمريكى. وإنما هو يطرحه فقط كمجرد اختيار آخر غير ملزم.

وهنــا. فلنلاحظ أيضــا أن إصرار مصر على إعادة إســرائيل أولا إلى خط ٢٢ أكتوبر ليس مجرد مطلب سياسى مشروع فقط. وإنما هو أيضا ضرورة عسكرية. فخط ٢٢ أكتوبر معناه فك الحصار الإسرائيلى على إمدادات الجيش المصرى الثالث وتخفيض الأداء العسكرى الإسرائيلى إلى مستواه الحقيقى مقارنة بالأداء المصرى. أما السكوت عن هذا الخط. فإنه يعنى قبول مصر التفــاوض فى ظل حصار إســرائيلى قائم بالفعل ضد الجيش الثالــث - وهذا هو الذى يعنيه كيسنجر فى الاختيار الثانى الذى يطرحه على السادات. وهو اختيار معناه السماح لإسرائيل بالاســتمرار فى إهانة الجيش المصرى الثالث والتشــهير به فى العالم كله. وتأكيد ما تروج له إسرائيل دعائيا من أنها تستطيع لو أرادت أن تقتل الجيش المصرى من الجوع !

مرة أخرى. نلاحظ أن كيســنجر يقول إنه لم يحاول إلزام الســادات بشىء. وإنما ترك له حرية الاختيار كاملة.

وهنا يستمر كيسنجر فى مذكراته قائلا : «.. ثم أدهشنى السادات حينئذ. إنه لم يجادل أو يســاوم. لم يناقــش التحليل الذى طرحتــه عليه. لم يقدم بديلا. لقد خالف الأســلوب المألوف فى الدبلوماســية.. الذى هو أن يرى المرء ما يستطيع استخراجه من الطرف الآخر

مقابل أى تنازل يقدمه إليه. إنه ببساطة قال لى إنه يوافقنى على كل التحليل الذى طرحته عليه. والمشروع الذى اقترحته. ولقد اقر السادات بأن الأمر كان حماقة وطيشا من مصر أن تسعى إلى تحقيق أهدافها من خلال تكدير ومضايقة الولايات المتحدة. وأن مصر قد خاضت ما يكفيها من الحروب»!.

إن الجملة الأخيرة وحدها تمثل «تعهدا» خطيرا يبلغه السادات إلى كيسنجر فى الوقت الذى توجد فيه إسرائيل غرب قناة السويس. مع ذلك فإننا سنراقب السلوك العملى أولا حتى نعرف ما إذا كان السادات يعنى ذلك.. أو لا يعنيه.

ومبدئيا. فإن منطق كيسنجر كان فيه من الخداع بقدر ما فيه من التناقض.

فأولا هو قد ذكر أن الضغوط القائمة لصالح مصر وإعادة إسرائيل إلى خط ٢٢ أكتوبر يجب ادخارها إلى ما هو أهم فيما بعد. لكنه يحذف أن مصر لن تبدأ الآن فى تعبئة تلك الضغوط. وإنما هى ضغوط قائمة بالفعل. ومعنى التفريط فيها الآن هو صعوبة تجميعها مرة أخرى فى المستقبل.. وإلا. فهل سيكون من الممكن على العرب إعادة الحظر البترولى فى كل مرة يحلو لهم ذلك مثلا ؟

إن هذا يعيدنا مرة أخرى إلى جوهرية الإصرار على إعادة إسرائيل أولا إلى خط ٢٢ أكتوبر قبل أية مساومات سياسية. فهذا المطلب المصرى هو أولا محل اتفاق بين القوتين العظميين. والولايات المتحدة لم تتنصل فى أى لحظة من مسئوليتها فى هذا الصدد. وإعادة إسرائيل أولا إلى خط ٢٢ أكتوبر يجعل موقف مصر التفاوضى أقوى بكثير فى المرحلة التالية. لأنه يخرج المساومة على الجيش الثالث نفسه من المفاوضات. خاصة وأنه لمنع مثل تلك المساومة كادت تقع مواجهة حقيقية بين القوتين العظميين. والصمود البطولى للجيش الثالث طوال حلم إسرائيل بمجرد «ثلاثة أو أربعة أيام أخرى» يجب ألا تذهب هدرا.

ثم. من ناحية أخرى. فإن الانتظار أسابيع قليلة لفرض الانسحاب الإسرائيلى إلى خط ٢٢ أكتوبر لم يكن يمثل أية خطورة عسكرية على الجيش الثالث نفسه مطلقا. فإذا كانت إسرائيل تحاصر هذا الجيش. حتى. من الغرب.. فإن قوات الحصار الإسرائيلية تلك ذاتها أصبحت بدورها محاصرة من المصريين هى الأخرى من الغرب. والقوات المصرية التى

تحاصر القوة الإســرائيلية الآن من الغرب ومن الشــرق أصبحت تستطيع أن تسحق الجيب الإسرائيلى كله وتحويله إلى مصيدة فعلية فيما لو لجأت مصر إلى القتال من جديد.

وبالإضافة إلى ذلك فإن إسرائيل. حتى بغير أن تعود مصر إلى القتال. كانت مضطرة إلى الاحتفاظ بحالة تعبئة كاملة. وخطوط إمدادات طويلة إلى غرب القناة - الأمر الذى هو فى حد ذاته عامل ضاغط جوهرى آخر على إسرائيل يجعلها ترضخ فى النهاية فيما لو حدث إصرار على إعادتها إلى خط ٢٢ أكتوبر. الذى ســيؤدى بدوره إلى إضعاف موقف إســرائيل العسكرى والتفاوضى فيما بعد.

لكن المســألة كلها في الواقع كانت ترتبط بتنازل خطير يسعى كيسنجر إلى الحصول عليه مبكرا.. الآن.. وقبل أى حديث فى تسوية سياسية شاملة. أو حتى مجرد مبدأ عودة إسرائيل إلى حــدود يونيــو ١٩٦٧. هذا التنازل هــو أن تفقد مصر من الآن عمليا أى اختيار عســكرى تضغط به على إسرائيل لتحرير أراضيها.. بحيث إنه من الآن لا يكون متاحا أمام مصر سوى مجرد العمل الدبلوماسى وحده الأمر الذى سيؤدى فى كل مرحلة إلى إلحاق المزيد من الضعف بالموقــف التفاوضى المصرى فى المرحلة التالية. فتأجيل فك الحصار على الجيش الثالث الآن يعنى التأخر إلى مرحلة الفصل بين القوات.. التى تعنى بدورها استقدام قوات من الأمم المتحدة تكون حاجزا كاملا بين مصر وإســرائيل.. وهذا يعنى من جديد تجريد مصر من قدرتها على شن الحرب بينما إسرائيل تحتل معظم سيناء. فضلا عن كل الأراضى العربية الأخرى.

وهنا يقول كيســنجر إنه علم فيما بعد أن كل المستشــارين المصريين - حول الســادات - قد عارضوا بشــدة موافقة الســادات على استمرار حصار إســرائيل للجيش الثالث. ولكن السادات رفض آرائهم جميعا..!

على أى حال. مع عودتنا الآن إلى مذكرات كيســنجر. فإنه يســجل أن السادات قد وافقه على الفور بلا جدل ولا مناقشــة. بل إن الســادات. من أجل إعطاء فرصة للدبلوماســية التى يريدها كيســنجر، قد وافق على تنحية مسألة خط ٢٢ أكتوبر جانبا. الأمر الذى يعنى استمرار إسرائيل فى الترويج لحصارها للجيش المصرى الثالث.

وبكلمات كيسنجر فان السادات برر ذلك بقوله «اننى أريد إتاحة الفرصة لك كاملة لكى تباشر الأفكار التى تقولها. فأى شىء أقل من ذلك هو أمر تافه بما لا يبرر مخاطر ومعاناة الحروب»!!.

ثم يروى كيسنجر فى مذكراته أن السادات استرسل قائلا له : «إن الجيش الثالث على أى حال ليس هو جوهر المسألة بين مصر وأمريكا. إننى مصمم على إنهاء أسطورة عبد الناصر»!

ومرة أخرى. كان السطر الأخير يمثل تعهدا خطيرا يقدمه السادات إلى هنرى كيسنجر. وهو تعهد يدخل فى صميم السياسة الداخلية لمصر.

ومع ذلك فلم يكن هذا هو كل شىء. فمن بين ما أتى به كيسنجر فى حقيبته. مشروع يقترح فيه على السادات إعادة العلاقات الدبلوماسية بين مصر والولايات المتحدة. لقد أعلنت مصر فى يونيو ١٩٦٧ قطع تلك العلاقات نتيجة لدور الولايات المتحدة مع إسرائيل فى حرب يونيو.

وقد تضامنت معظم الدول العربية مع مصر فى ذلك القرار وقتها وفعلت مثلها. وطوال السنوات الست التالية (ما بين ١٩٦٧ و ١٩٧٣) ألحت الولايات المتحدة على مصر لإعادة العلاقات الدبلوماسية. إلا أن مصر فى كل مرة كانت تريد ثمنا محددا لتلك الخطوة : أن تعلن الولايات المتحدة رسميا بوضوح موقفها من ضرورة انسحاب إسرائيل الكامل من الأراضى العربية التى احتلتها فى حرب يونيو. ولأن الولايات المتحدة كانت تراوغ فى كل مرة. فقد كانت مصر بالتالى ترفض فى كل مرة أن تعيد علاقاتها الدبلوماسية مع أمريكا. إن العلاقات بين الدول الأجنبية ليست علاقات عائلية. وإنما هى علاقات مصالح. وبالدقة تبادل مصالح مع مصالح. لابد إذن من ثمن محدد لكل شىء. ومقابل واضح لكل تنازل.

والآن - فى ٧ نوفمبر ١٩٧٣ - يأتى هنرى كيسنجر حاملا معه مشروعا أمريكيا جديدا بإعادة العلاقات.. لعله يقنع به السادات. وكانت أهمية هذه الخطوة بالنسبة لأمريكا تكمن فى نقطة بسيطة للغاية. إن الولايات المتحدة لن تنجح مطلقا فى استعادة

علاقاتها الدبلوماسية مع الدول العربية الأخرى إلا أذا بدأت مصر.. فبغير الشرعية المصرية لتلك الخطوة.. لن تسترد الولايات المتحدة أبدا علاقاتها المقطوعة رسميا مع الدول العربية.

وهكذا تهيأ كيسنجر لإقناع السادات بأن تقدم مصر لأمريكا هذا التنازل الجوهرى. ولكى يعرف منه ماذا تريد مصر الآن فى مقابل ذلك.

ولكن.. قبل أن يفتح كيسنجر فمه بكلمة واحدة.. إذا بالسادات يفاجئه بقوله : إننى سوف أعيد العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة بأسرع ما يمكن. وبمجرد أن ينتهى هذا فإننى سوف أتحرك إلى بناء الصداقة بين مصر وأمريكا.

لم يكد كيسنجر يصدق أذنيه. فحتى هذه اللحظة مازالت الولايات المتحدة فى معسكر العدو.. ومازالت إسرائيل محتلة سيناء والضفة الغربية والجولان. ومازالت تحاول فتك الجيش المصرى الثالث جوعا فوق أرضه بأسلحة أمريكية. ومازالت أمريكا تراوغ فى تفسير قرار مجلس الأمن ٢٤٢ وضرورة تطبيقه على جميع الأراضى العربية المحتلة.

لكن السادات أدهش كيسنجر أكثر وأكثر عندما أضاف قائلا : إننى سأعلن نواياى هذه فورا بعد اجتماعنا هذا. وسأعلن اليوم أيضا رفع درجة المشرف على قسم رعاية المصالح المصرية فى واشنطن إلى درجة سفير.

وأخيرا قال السادات إنه يأمل ويرجو (السادات هو الذى يرجو) أن تفعل الولايات المتحدة أيضا نفس الشىء. وتصدر بيانا بنفس المعنى ! !

وهكذا لم يعد كيسنجر فى حاجة إلى أن يتكلم أصلا فى المشروع الذى جاء به من واشنطن. مسجلا فى مذكراته عن تلك النقطة : «إننا سعينا طوال أربع سنوات سابقة إلى استعادة العلاقات الدبلوماسية مع مصر. ومن هنا فقد حملت معى مشروعا بذلك لكى أحاول إقناع السادات به» . لكن... الآن فقط سيكتشف كيسنجر انه ليس فى حاجة إلى إقناع السادات. فالسادات أكثر من مستعد لكل شىء.. وبغير أن يفتح كيسنجر فمه.

وهكذا يسجل كيسنجر فى زهو وخيلاء ونشوة : «إننا اتفقنا - السادات وأنا - على أن يمارس السفيران - المصرى والأمريكى - عملهما فورا.. من قسمى رعاية المصالح فى القاهرة وواشنطن» !

مع ذلك ظلت القضية الرئيسية قائمة : قضية استرداد مصر لأرضها المحتلة. ثم هناك أيضا القضية العاجلة : قضية عدم السماح لإسرائيل بإهانة العسكرية المصرية يوميا عن طريق عرقلتها وصول الإمدادات الغذائية والطبية للجيش المصرى الثالث. وكان الطريق الذى يقترحه كيسنجر على السادات يبدأ أولا من إسقاط طلب مصر إعادة إسرائيل إلى خط ٢٢ أكتوبر.. وينتهى بوعود غامضة وبأشياء هلامية غير محددة من شخص عرف عنه العالم كله مدى صهيونيته وتعصبه لإسرائيل. بل ودوره الأساسى فى تحريض إسرائيل على إبادة الجيش المصرى الثالث أثناء الحرب.

وهنا يكتب كيسنجر فى مذكراته قائلا: «إن السادات لم يظهر لى أى قدر من العصبية بسبب الأخطار الكامنة فى الأسلوب الذى اقترحته عليه. والذى أصبح السادات الآن ملتزما باتباعه» !

لذلك. كان السادات هو الذى بادر كيسنجر بقوله : لماذا لا تطرح أنت الآن مشروعا محددا للبدء فى سلوك هذا الطريق الذى اقترحته ؟ إنك.. يا دكتور كيسنجر.. تعرف أفضل منى ما الذى يمكن لإسرائيل أن تقبله.. أو لا تقبله.. !

وهكذا.. طالما أن الأمر أصبح يتعلق فى النهاية بما تقبله إسرائيل ولا تقبله. فإن كيسنجر بدأ بالضبط يعرض مشروعا ـ كانت جولدا مائير هى التى رجته فى واشنطن أن يعرضه على السادات.. لعل وعسى !

ووافق السادات على الفور على المشروع الذى عرضه كيسنجر، وهو ما عرف بعد ذلك باسم «مشروع النقاط الست» وينص على :

١ ـ توافق مصر وإسرائيل على الاحترام الدقيق لوقف إطلاق النار الذى أمر به مجلس الأمن.

٢ ـ يوافق الطرفان على البدء فورا فى تسوية مسألة العودة إلى موقع ٢٢ أكتوبر فى إطار الاتفاق على فض الاشتباك والفصل بين القوات تحت رعاية الأمم المتحدة.

٣ ـ تتلقى مدينة السويس يوميا إمدادات من الطعام والمياه والأدوية. وجميع الجرحى المدنيين فى مدينة السويس يتم ترحيلهم.

٤ ـ يجب ألا يكون هناك عقبات أمام وصول الإمدادات غير العسكرية إلى الضفة الشرقية (لسيناء).

٥ ـ تستبدل نقاط المراقبة الإسرائيلية على طريق القاهرة / السويس بنقاط مراقبة من الأمم المتحدة. وفى نهاية طريق السويس يمكن لضباط إسرائيليين الاشتراك مع الأمم المتحدة فى الإشراف على الإمدادات غير العسكرية التى تصل إلى شاطئ القناة.
٦ ـ بمجرد تولى الأمم المتحدة نقاط المراقبة على طريق القاهرة / السويس، يتم تبادل جميع الأسرى ومنهم الجرحى.

إن الجديد فى تلك النقاط الست لم يكن النقطة الأولى، فوقف إطلاق النار قائم بالفعل. والنقاط ٣ و ٤ و ٥ كلها تتعلق بشىء واحد هو وصول الإمدادات غير العسكرية إلى الجيش الثالث. التى كانت أيضا قد بدأت تصل، ولم تكن إسرائيل تستطيع اعتراضها، فكيسنجر نفسه أول من يعرف أن وزارة الدفاع الأمريكية وضعت بالفعل خططا لنقل الإمدادات بواسطة جسر جوى أمريكى مباشر لو لم تذعن إسرائيل.

تبقى النقطة السادسة التى تمثل تنازلا كبيرا من مصر كانت إسرائيل تسعى إليه من البداية خارج نطاق التفاوض السياسى لكى يكون تنازلا بلا مقابل – وهو الإفراج عن أسرى الحرب الإسرائيليين لدى مصر.

أما النقطة الثانية، التى قد تبدو ولأول وهلة وكأنها تتناول إعادة إسرائيل إلى خط ٢٢ أكتوبر. فالواقع إنها تتناوله : «فى إطار الاتفاق على فض الاشتباك والفصل بين القوات» . بكلمات أخرى : مصر توافق على أنه لا عودة إلى خط ٢٢ أكتوبر إلا بعد الاتفاق على الفصل بين القوات، وساعتها لن تكون هناك ضرورة أصلا لمثل هذا الخط. أما إذا لم يتم الاتفاق ؟ ساعتها بالطبع ستكون إسرائيل فى مواقعها الحالية التى تعطيها قوة أكبر لإحكام وتشديد حصارها ضد الجيش الثالث المصرى !

على أى حال فإن كيسنجر فى مذكراته هذه أوضح حقيقة الأمر فكتب يقول : «إن جولدا مائير كانت هى نفسها التى وضعت صياغة تلك النقطة أثناء رحلتها الأخيرة إلى واشنطن «بأمل أن يطرحها كيسنجر على السادات كمحاولة أولى، والآن فقط، بعد أن قبلها السادات فعلا، فإن كيسنجر يرسل إلى جولدا مائير فورا تعهدا

أمريكيا بأن الولايات المتحدة لن تطلب منها العودة إلى خط ٢٢ أكتوبر»!.

وهنا يقول كيسنجر فى مذكراته إن اتفاق النقاط الست هذا قد تضمن تقريبا كل النقاط التى كانت الحكومة الإسرائيلية قد طلبتها، بل إنها أكثر من ذلك فقد: «تجاوزت فى الواقع كل ما كانت جولدا مائير تسلم به» على حد تعبير كيسنجر!

وبالإضافة إلى هذا كله. يواصل كيسنجر. كان هناك تفاهم مع السادات على أن مصر سوف «تخفف» الحصار البحرى الذى كانت قد بدأت به لحظة الحرب عند باب المندب فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر ضد الملاحة الإسرائيلية. وحينما وافق السادات على هذا التنازل الجديد إلى كيسنجر. أضاف قائلا لكيسنجر إنه يرجوه تكتم هذا الأمر وعدم الإعلان عنه. والسبب الذى ذكره السادات لكيسنجر هو : «أن وجود تنازلات علنية أكثر من اللازم - من جانبى - سوف يضر بموقفى مع العرب»!.

ويقول كيسنجر إنه بمجرد أن تم الاتفاق على النقاط الست بينه وبين السادات، فلم يكن هناك وفد للتفاوض ولا أشخاص للتفاوض.. ولا حتى حافظ إسماعيل الذى كان السادات من قبل يتراسل مع كيسنجر عن طريقه. لم يكن هناك سوى السادات بمفرده ! وبمجرد أن اتفق السادات مع كيسنجر على كل شىء فى هذا الاجتماع المغلق، صفق السادات بيديه، وأرسل يستدعى إسماعيل فهمى وزير الخارجية وجوزيف سيسكو مساعد كيسنجر. لقد تم استدعاؤهما من مكانهما فى حديقة قصر الطاهرة لأخذ ما تم الاتفاق عليه بالفعل.. ووضعه فى الصياغة الرسمية.

ولم يكن كيسنجر يحلم مطلقا بان يحقق ما توصل إليه، بل ولم يكن يتصور أن يتعد الحديث، هكذا تماما، عن التسوية الشاملة والحل الشامل لو، فى أقل القليل، خط ٢٢ أكتوبر. وكان أكثر ما يخشاه كيسنجر هو أنه فى حالة تمسك السادات بكل هذا فإنه: «لم يكن هناك شك فى أن الرئيس نيكسون سوف يأمر بالمضى فى إستراتيجيته لو أننى فشلت فى مهمتى» .. وهى الإستراتيجية التى صرح بها نيكسون ووزراؤه وتم إبلاغها إلى كيسنجر فى الطائرة وهو فى طريقه إلى القاهرة فى اليوم السابق - ٦ نوفمبر - حيث كان الرئيس نيكسون يعد حكومته للانضمام إلى أوروبا الغربية ودول

عدم الانحياز والاتحاد السوفيتى للضغط على إسرائيل للالتزام بالانسحاب إلى حدود ٤ يونيو ١٩٦٧، من خلال الأمم المتحدة، وأيضا من خلال : «ممارسة أنواع أخرى من الضغوط» على حد تعبير نيكسون. ولكن الولايات المتحدة لم تعد الآن فى حاجة إلى شىء من هذا كله.

بل إن كيسنجر أصبح يستطيع أن يقول بملء الصوت للعالم العربى. ولأوروبا الغربية. ولدول عدم الانحياز. والاتحاد السوفيتى. بل يقول لرئيسه نفسه : ابتعدوا جميعا عن المسرح. فلا ضرورة للضغط على إسرائيل. ولا للاستمرار فى محاصرتها ! ومن الآن فصاعدا.. أصبح كيسنجر يستطيع أن يؤكد لكل الإدارة الأمريكية إنه هو وحده الذى يستطيع استخراج التنازلات الضخمة من مصر.. أو بالدقة من خلال رجل واحد فى مصر.

وكيسنجر نفسه لا يستطيع أن يخفى مشاعره تلك بالنصر المبين. فيكتب فى مذكراته قائلا : «لقد جئت إلى القاهرة أملا فى خطوة واحدة إلى الأمام فى استراتيجية تتقدم حثيثا. بوصة بوصة. طوال السنوات الأربع الأخيرة. والآن. فى لقاء واحد مع رئيس مصر. وبعد شهر واحد من بداية الحرب. فإننا حققنا وأنجزنا اختراقا. إن السادات قد رهن سياسته على الارتباط بأمريكا. فإذا تابعنا هذه الاستراتيجية بحكمة. فسوف يصبح من الصعب عليه بطريقة متزايدة أن يتراجع عن هذا الطريق. إن تخفيض النفوذ السوفيتى أصبح الآن مسألة وقت ومهارة من جانبه» .

فى مقابل هذا كله.. فعندما خرج الاثنان - السادات وكيسنجر - للإجابة عن أسئلة الصحفيين.. توجه أحدهم بالسؤال إلى السادات قائلا : سيادة الرئيس.. هل ستقلص الولايات المتحدة الآن جسرها الجوى من إمدادات السلاح إلى إسرائيل ؟

وأجابه السادات : يجب أن توجه هذا السؤال إلى الدكتور كيسنجر.. !

فالواقع أنه لم يخطر على بال السادات أن يوجه هو هذا السؤال إلى كيسنجر أثناء التفاوض معه.. فإن كيسنجر يرد هو على الصحفى قائلا : من حسن حظى اننى لم أسمع السؤال.. !

وكانت الإجابة موحية.. فلماذا تقدم الولايات المتحدة تنازلا لم يطلبه منها أحد ؟ أما فى إسرائيل. فقد كان التعليق الأول الرسمى الذى قالته جولدا مائير رئيسة الوزراء.

بمجرد أن عرفت بنجاح كيسنجر فى الحصول على موافقة السادات على النقاط الست.

وهو قولها : إن هذا الانجاز خيالى.. انجاز لا يكاد يصدق.. !

وبالفعل. كان الاتفاق إنجازا يفوق كل ما توقعته إسرائيل.. أو تحلم به !

كانت اتفاقية النقاط الست التى قبلها السادات من كيسنجر بغير اى جدل أو مناقشة.. تتضمن اخطر تنازلين تسعى إليهما إسرائيل. فأولا.. وافق السادات عمليا على التنازل عن ضرورة انسحاب إسرائيل إلى خط ٢٢ أكتوبر، وهو الانسحاب الذى كانت إسرائيل ملتزمة به بنص قرار مجلس الأمن الدولى، وبحكم الاتفاق الأمريكى السوفيتى المشترك.

أما التنازل الجوهرى الأخير. فهو أن إسرائيل أصبح فى يدها الآن اعتراف مصرى رسمى بأن الجيش المصرى الثالث خاضع فعلا لحصار إسرائيلى - وهو أمر كان يعنى إسرائيل تماما لكى تروج فى العالم كله ادعاءها السابق بأنها هى التى انتصرت ومصر هى التى انهزمت فى حرب أكتوبر.

ولأن النقاط الست هذه. التى وافق عليها السادات فى اجتماعه المنفرد المغلق مع كيسنجر. كانت اقتراحا إسرائيليا من الأساس.. لذلك فإن كيسنجر فى القاهرة لم ير ضرورة لكى يسافر بنفسه إلى إسرائيل للحصول على موافقتها الرسمية على الاتفاقية.. إن السادات قد أعطى لإسرائيل أكثر بكثير مما كانت تتوقعه أو تحلم به. وبتعبير كيسنجر فإنه: «تجاوز تماما حتى ما كانت جولدا مائير تتوقعه وتحلم به» فى مباحثاتها بواشنطن قبل أربعة أيام فقط.

من هنا فقد بعث كيسنجر باثنين من مساعديه إلى إسرائيل. وهما جوزيف سيسكو وهال سوندرز. للحصول على موافقة إسرائيل الرسمية على اتفاق النقاط الست.

وكان أول ما قالته جولدا مائير لمساعدى كيسنجر هو : إن هذا الاتفاق هو انجاز خيالى. وشيء لا يصدق، أرجو إبلاغ كيسنجر بذلك فورا.. !

مع ذلك. فإن جولدا مائير تضيف قولها بأنه كان يجب على كيسنجر أن يأتى بنفسه لإبلاغها بموافقة السادات.

وكان السبب فى ذلك بسيطا. فإن كيسنجر يروج لدى السادات بأن إسرائيل «صعبة»..

و«عنيدة» .. فإن إسرائيل يجب من ناحيتها أن تؤكد ذلك لكى تحصل على المزيد من التنازلات الكبرى فى المستقبل. يجب إذن على كيسنجر أن يأتى بنفسه إلى إسرائيل حتى لا يتصور العرب أن إسرائيل شيء مفروغ منه. أو أن الولايات المتحدة تغنيهم عن محاولة «إقناعها»!!

ويسجل كيسنجر فى مذكراته هذه أن اتفاق النقاط الست الذى قبل به السادات قد أعطى لإسرائيل كل ما كانت تسعى إليه من مصر. حيث: «إن الاتفاق ألزم مصر بالإفراج عن أسرى الحرب الإسرائيليين. وأدى إلى إعفاء إسرائيل من كل الضغوط الدولية عليها لكى تنسحب إلى خط ٢٢ أكتوبر. وأعفاها من الحصار المصرى عند مضيق باب المندب (فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر). وكل هذا فى مقابل السماح بعدد صغير من نقاط التفتيش التى ترفع علم الأمم المتحدة على طريق القاهرة / السويس.. بينما تحتفظ إسرائيل لنفسها بالسيطرة الفعلية على هذا الطريق. وكما أن السادات سمح لإسرائيل بأن تقوم بتفتيش الإمدادات الغذائية التى تصل إلى الجيش المصرى الثالث - فى الوقت الذى تعرف فيه إسرائيل تماما أن الموقف الدولى لا يسمح لها بضرب هذا الجيش» .

مع ذلك. لم يكتف كيسنجر بكل هذا. فبمجرد أن ضمن تنازل السادات هذا فى جيبه. فإنه بادر بإرسال تعهد أمريكى إلى إسرائيل بأن الولايات المتحدة الآن تستطيع أن تقرر أنها سوف تستخدم حق الفيتو ضد أى مشروع قرار فى مجلس الأمن يطلب من إسرائيل الانسحاب إلى خط ٢٢ أكتوبر.

وإسرائيل هى الأخرى. بعد أن ضمنت كل هذا فى جيبها. فإن فريق المفاوضات الاسرائيلى برئاسة جولدا مائير. يناقش التنازلات الأخرى غير المكتوبة التى أعطاها السادات لكيسنجر. فلتكن الولايات المتحدة حليفا لإسرائيل.. وليكن هنرى كيسنجر نفسه هو رجل إسرائيل الأول فى واشنطن. ولكن أيضا صديقا شخصيا لجولدا مائير وكل قيادات إسرائيل. ولكن هذا كله شيء.. وتحويل الالتزامات الشفوية إلى التزامات مكتوبة هو شيء آخر تماما تصر عليه إسرائيل.

وهكذا قالت جولدا مائير لمساعدى كيسنجر : إن من الضرورى وضع التنازلات الشفوية الإضافية التى أعطاها السادات فى صياغة مكتوبة. ضمن «مذكرة تفاهم» توقع عليها

الولايات المتحدة مع إسرائيل. إن تلك المذكرة يجب أن تكون تفصيلية تماما.. تضع فيها إسرائيل تفسيرها الخاص لكل واحدة من النقاط الست. ويجب أن تقرر الولايات المتحدة كتابة أيضا أن السادات قد وافق على كل تلك التفسيرات الإسرائيلية. وخاصة قبول تفتيش إمدادات الجيش الثالث. وقبوله أيضا برفع الحصار المصرى على باب المندب. وليس مجرد «تخفيفه».

وقال لها سوندرز مساعد كيسنجر : إن السادات قال إنه يقبل هذه التنازلات كأمر واقع. ولكنه يرجو عدم إعلانها لأنها ستضعه فى مركز حرج للغاية أمام الدول العربية. ولأنها ستكون ضربة موجعة يشعر بها كل مواطن عربى فوق رأسه.

ولكن، إذا كان السادات يهمه ألا تعرف الدول العربية. وخصوصا سوريا. بحجم التنازلات التى أعطاها لإسرائيل. فإن إسرائيل يهمها أن تذيع تلك التنازلات بأى ثمن.. ولنفس السبب. إن إسرائيل تريد بأى شكل دق إسفين بين مصر من ناحية وبين الدول العربية الأخرى من ناحية ثانية، وخصوصا سوريا. شريكة مصر فى حرب أكتوبر.

وهنا قال سوندرز مساعد كيسنجر لرئيسة وزراء إسرائيل: إننى فى هذه الحالة أقترح عليك أن تقومى بإعلان كل هذه التفسيرات فى الكنيست - البرلمان - الإسرائيلى. ونحن نتعهد لك بأن الولايات المتحدة لن تناقض تلك التفسيرات !

وبالفعل. كان هذا هو ما فعلته جولدا مائير بالضبط. وبرغم هذا كله. فإن جولدا مائير لم تعلن موافقتها على اتفاقية النقاط الست إلا بعد مناقشتها كلمة كلمة فى اجتماع طارئ لمجلس الوزراء الإسرائيلى. ثم جلسة خاصة للكنيست. ثم أخيرا. أعلنت جولدا مائير أنها توافق فقط من حيث المبدأ. انتظارا لبعض «التوضيحات» من جانب كيسنجر !

وهنا يقول كيسنجر معلقا : «إن جولدا مائير كانت تعرف جيدا جدا أن كل تلك التوضيحات التى تريدها قد أصبحت فى جيبها بالفعل» . ومع ذلك.. فطالما إسرائيل أصبحت تحصل على التنازلات المصرية بمثل تلك الضخامة والسرعة.. فلماذا لا تؤكد إذن الصورة التى يروجها عنها كيسنجر. من أنها «منتصرة» .. و «عنيدة» .. و «يصعب تحريكها» ؟!

غــادر كيســنجر القاهرة إلى عمان العاصمــة الأردنية. وكان الملك حســين قد تلقى من كيســنجر أثناء الحرب رســائل عديدة تحثه على عدم فتح الجبهة الأردنية للقتال منضمة إلى مصر وسوريا. ومقابل ذلك كتب له كيسنجر بضعة وعود غامضة بأنه سيتم أخذ مصالح الأردن بعين الاعتبار بعد الحرب.

والآن وقد توقفت الحرب يذهب كيسنجر إلى عمان لكى يقول للملك حسين شيئا غريبا. إن مشكلة الملك حسين - يقول كيسنجر - هى أنه اتخذ لنفسه موقفا وسطا طوال الحرب.. فهو لم يشارك فى الحرب. بمعنى إنه لم يفتح الجبهة الأردنية للقتال مع إسرائيل.. وفى نفس الوقت هو قد شــارك إلى حد ما. بمعنى إنه أرســل قوة محدودة من جيشه للمساهمة مع السوريين فى القتال بالجولان !

الآن. بعد أن اســتجاب حســين بالفعل لنصيحة كيسنجر أثناء الحرب. فإن كيسنجر يعلق فى مذكراته قائلا : «لســوء الحظ. فإن الطريق الوســط الذى اختاره حســين لا يقدم ســوى حوافز ضئيلة مــن أجل (حصوله على) المســاندة الخارجية مــن الولايات المتحدة لاستعادة الضفة الغربية المحتلة..» ! !

من هنا فإن كل ما يقدمه كيســنجر للملك حســين هو أن توجه الدعوة إلى الأردن لحضور الجلسة الافتتاحية لمؤتمر السلام المقرر انعقاده فى جينيف. تنفيذا لقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢.

ولقد وثق الملك حسين فى كيسنجر أكثر مما يجب. واعتمد تماما على الدبلوماسية التى ستخذله الآن تماما - ولسنوات طويلة بعدها.

فــى الرياض كانت الزيارة أكثر أهميــة. نظرا لحيوية الدور الذى لعبته المملكة العربية الســعودية فــى حظر البترول العربــى. وبالتالى الدور الذى يمكــن أن تلعبه فى إنهاء هذا الحظر. وكان الرئيس نيكســون أكثر اهتماما بإنهاء هذا الحظر بحكم أنه المســئول مباشرة كرئيــس للولايات المتحدة عن مصالحها الحيوية. ومن ثم فهو أكثر انزعاجا من اســتمرار حظر البترول. ويتلهف بشدة على التوصل إلى نهاية مبكرة له.

وهكــذا. ففــى ٨ نوفمبر (١٩٧٣) تلقى كيســنجر برقية أثناء رحلتــه هذه. من البيت

الأبيض تخبره بان : «.... الرئيس نيكسون ليس محتاجا فقط إلى إحراز تقدم بالنسبة لموضوع إنهاء الحظر البترولى. بل انه أيضا محتاج إلى قدوم الملك فيصل لزيارته فى واشنطن.. وهو يأمل أن يتم هذا الاجتماع فى وقت مبكر من الأسبوع القادم» .

ولكن كيسنجر لم يجد فى الرياض على الإطلاق مناخا يسمح له بالذهاب إلى هذا المدى مع الملك فيصل.

لقد بدأ كيسنجر حديثه مع الملك فيصل بتناول أهمية قبول العرب للسلام مع إسرائيل وقبولها كدولة.

ورد عليه الملك فيصل قائلا : إن السلام مع إسرائيل ممكن. ولكن فقط بعد توفر ثلاثة شروط :-

أولا: أن تنسحب إسرائيل إلى حدود ٤ يونيو ١٩٦٧ على الجبهات الثلاث الأردنية والمصرية والسورية.

وثانيا: قبول إسرائيل لعودة اللاجئين الفلسطينيين الذين شردتهم إسرائيل من ديارهم سنة ١٩٤٨

ثالثا: أن تتحول إسرائيل إلى دولة إسلامية يهودية.

وهنا يصرخ كيسنجر فى مذكراته معلقا: إن الملك فيصل كان يكرر لى باختصار نفس البرنامج الذى تطالب به منظمة التحرير الفلسطينية.

لهذا قال كيسنجر للملك فيصل: إن إسرائيل لا يمكن أن تقبل بهذه الشروط.. ورد عليه الملك فيصل : إن إسرائيل سوف ترضخ وتنسحب. فى نفس اللحظة بالضبط التى تدرك فيها أنكم ستتوقفون عن حمايتها واحتضانها.

هكذا إذن لم يجد كيسنجر أى مجال لاستدراج الملك فيصل إلى فخ الحلول الجزئية التى تجهض وتنسف التسوية الشاملة التى يريدها العرب. فالملك فيصل هنا يلتزم بالموقف العربى الموحد. وهو الإصرار على التسوية الشاملة التى تعيد إسرائيل إلى حدود يونيو ١٩٦٧ على جميع الجبهات.

لهذا استدار كيسنجر بالحديث إلى الموضوع الأخر الذى يعنى الولايات المتحدة بشدة. وهو حظر البترول العربى الذى تم إعلانه تضامنا مع مصر وسوريا. إن كيسنجر يحاول أن يشرح للملك المأزق الأمريكى الذى أدى إليه الحظر العربى .

ورد عليه الملك فيصل بقوله : لسوء الحظ فإن مركز المملكة العربية السعودية أكثر حرجا.. إننا نريد أولا دليلا عمليا على حدوث تقدم حقيقى بالنسبة لانسحاب إسرائيل الشامل، قبل أن نذهب إلى إخواننا العرب ونتقدم إليهم بأى اقتراحات.

وقاطعه كيسنجر قائلا : لكن السعودية بلد صديق للولايات المتحدة..

ورد عليه الملك فيصل : من أجل هذا بالضبط.. فإننا لا نستطيع أن نتصرف بمفردنا..

وهنا يعلق كيسنجر فى مذكراته قائلا : لقد فشل حديثى عن الجغرافيا السياسية مع الملك فيصل، فقررت أن أجرب معه مدخلا سيكولوجيا آخر.. ولذلك قلت له : إن من المؤلم بالنسبة لنا أن نتعرض للضغط من جانب بلد صديق.. ونحن لن نستسلم لمثل هذا الضغط.. !

ورد عليه فيصل باختصار : إننى أعانى أكثر منكم.. ولكن هذا موقفنا..

قال كيسنجر : لكننا لا يمكن أن نبدو للعالم كما لو كنا نستسلم للابتزاز..

رد الملك فيصل فى حزم : إن تفسيرك صحيح. ولكن لسوء الحظ فإن يد السعودية ليست طليقة فى هذا الموضوع بالذات. طالما أن قرار فرض الحظر البترولى العربى لم يكن قرارا سعوديا منفردا، ولكنه قرار اتخذته الدول العربية بالإجماع. ولذلك يجب أن يتم أى مراجعة له بالإجماع أيضا. إن ما أريده هو أن تقدموا إلينا أسبابا مقنعة أقولها لزملائى حتى أقترح عليهم رفع الحظر.

فى هذه النقطة يقول كيسنجر : إننى حاولت بعد ذلك أن أقنع الملك فيصل بقبول حل وسط.. فإذا لم تكن السعودية مستعدة لرفع حظر البترول كليا. فلعلها على الأقل تستطيع تخفيف هذا الحظر.

ورد الملك فيصل مبكرا : إذا كنتم حقا تريدون رفع حظر البترول. فكل ما نريده هو انسحاب إسرائيل الكامل إلى حدود يونيو ١٩٦٧، وعودة اللاجئين الفلسطينيين المشردين منذ سنة ١٩٤٨ إلى ديارهم.

قال كيسنجر : لكن الولايات المتحدة قد تعجز عن إرغام إسرائيل على ذلك.. !

وعلى الفور رد الملك فيصل على تلك المراوغة بقوله : حسنا.. إننى أقبل منك هذا التفسير فى حالة واحدة.. أن تخرج الولايات المتحدة إلى العالم علنا. وتعلن أن موقفها الرسمى هو ضرورة انسحاب إسرائيل الكامل إلى حدود ١٩٦٧ والسماح بعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم. إننا فى تلك الحالة فقط يمكن أن نفهمكم..

هكذا إذن فشل كيسنجر فى الرياض أن يعزل السعودية أو يفصلها عن الموقف العربى الموحد. بقدر ما نجح من قبل مع السادات. إن العرب لن يستطيعوا استخدام سلاح البترول هذا كل يوم. فتلك هى فرصتهم التى يجب عليهم استثمارها الآن حتى النهاية.. وإلا فابدا.

وكما لاحظ كيسنجر أن السادات قد تفاوض معه فى القاهرة على انفراد. وبغير أى محضر مكتوب تحتفظ به الحكومة المصرية فى سجلاتها.. فإن هنا فى الرياض. برغم علاقات الود الطويلة بين السعودية والولايات المتحدة. إلا أن الملك فيصل يتفاوض معه فى وجود مستشاريه السعوديين.. وفى ظل محضر مكتوب لكل ما جرى فى الاجتماع.

إنها ليست مفاوضات عائلية.. ولكنها مواقف دول ستؤثر بفداحة فى المستقبل.

وبعد ذلك طار كيسنجر من السعودية إلى إيران.. لكى يجتمع بشاه إيران – الحليف المخلص للولايات المتحدة منذ ٣٧ سنة. على حد تعبير كيسنجر.

ويقول كيسنجر إن السبب الرئيسى الذى جعله يذهب إلى إيران. كان هو تقديم الشكر والامتنان إلى شاه إيران.. على دعمه الكامل لإسرائيل ضد مصر وسوريا أثناء الحرب.

ويضيف كيسنجر قائلا : «إننا مدينون للشاه بالكثير. مقابل ولائه وإخلاصه الكاملين لنا خلال حرب أكتوبر. فبينما سمحت الدول الغربية الحليفة لنا فى منظمة شمال الاطلنطى بمرور الإمدادات العسكرية السوفيتية فى مجالهم الجوى. من خلال الجسر الجوى الذى قام به الاتحاد السوفيتى لإمداد الجيش المصرى والسورى بالأسلحة.. فان الشاه وحده رفض تماما السماح بوصول تلك الإمدادات السوفيتية إلى مصر وسوريا أثناء القتال. وبالإضافة إلى ذلك. ظل شاه إيران يبلغنا أولا بأول بكل ما لديه من معلومات عن نوايا مصر وسوريا والعرب بصفة عامة. كما أنه رفض تماما الانضمام إلى الحظر البترولى العربى ضدنا. حتى لا يؤدى هذا إلى الضغط على إسرائيل. وزيادة على ذلك. أعطى

شاه إيران لإسرائيل كل ما تحتاجه من إمدادات بترولية. لكى تستمر فى محاولتها إبادة الجيش المصرى فى سيناء. والجيش السورى فى الجولان» .

والآن فإن الشـاه يؤكد لكيسنجر شـيئا آخر فوق كل ما فعله: إنه سوف يزيد دعمه للثـورة الكردية داخل العراق. حتى يرغم العراق بذلك على الاحتفاظ بجيش كبير على حدودهـا مع إيران.. فتعجز بالتالى عن تقديم أى دعم عسـكرى إضافى إلى سـوريا فى حالة استئناف القتال!

عاد كيسـنجر إلى الولايات المتحدة بعد جولته الأولى هذه فى الشرق الأوسط. وهى الجولة التى لم ينجح فيها إلا مع السادات. حيث كان نجاح كيسنجر معه «يتجاوز كل آماله» على حد تعبيره. مما جعل كيسنجر يسجل فى مذكراته هذه أنه لم يكن بأقل من الاختراق الكبير لمصر.. والنجاح الخيالى لإسرائيل.

وأصبح من المفترض أن تكون الخطوة الثانية هى الاتجاه إلى مؤتمر السلام بجينيف. وهو المؤتمر الذى سينعقد تحت الإشراف والرئاسة المشتركة لكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى. طبقا للاتفاق الذى توصل إليه كيسنجر فى موسكو أثناء الحرب. وتنفيذا لقرار مجلس الأمن رقم ٣٣٨.

ويقول كيسـنجر فى مذكراته هذه : إن الفكرة الأصلية فى عقد مثل هذا المؤتمر. وقد ظهرت متأخرة فى الدبلوماسية التى أدت إلى وقف أطلاق النار فى مباحثات موسكو. كانت هى عقد مؤتمر يضم الإسرائيليين والعرب تحت رعاية وإشراف الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى.

ويضيف كيسـنجر قائلا : «ولا شـك فى أن السـوفييت قد اقنعوا زبائنهم العرب (مصر وسـوريا) بوقف إطلاق النار على أسـاس أن فكرة «الإشـراف» المشترك بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى سوف تتيح وسائل يستطيع بها السوفييت الضغط لصالح الحد الأقصى من المطالب العربية. بكلمات أخرى : هذا يعنى تنفيذ التصور الشامل الذى حاول برجينيف أن يقنع به نيكسون فى سان كليمنت» .

إن هذا «التصور الشـامل» الذى يشـير إليه كيسـنجر هو انسحاب إسرائيل الشامل إلى حدود ٤ يونيو ١٩٦٧ مقابل إنهاء العرب لحالة الحرب إنه. فى قاموس كيسـنجر هنا هو «التصور الشامل» .. وهو «الحد الأقصى» .. وهو «برنامج الراديكاليين العرب»..

وكان بريجينيف قد حاول أن يقنع نيكسون بالاتفاق على مثل هذه التسوية. أثناء لقاء القمة بينهما في سان كلمينت بالولايات المتحدة في يونيو (قبل حرب أكتوبر بأربعة شهور) ولكن نيكســون رفض الفكرة في حينها. إلا إنه أثناء حرب أكتوبر أقر نيكســون بأنه أدرك متأخرا عدالة هذه التسوية وضرورة العمل على فرضها على إسرائيل. وأبرق بذلك فعلا إلى كيسنجر أثناء تفاوض الأخير في موسكو - كما لاحظنا من قبل.

والآن في الإعداد لمؤتمر جينيف - يقول كيســنجر - فإن : «.. الســادات كان لديه أوضح إدراك لأهدافه. لقد كان مصمما على أن يقلب تحالف مصر مع الاتحاد السوفيتي. وأن يقيــم بدلا مــن ذلك علاقة وثيقة مع الولايات المتحدة. إن تلك كانت مناورة خطره. لأن في أي نقطة وسطى كان (السادات) يتحمل مخاطرة أن يصبح بعيدا جدا عن الاتحاد الســوفيتي بما يحرمه من دعمه الدبلوماســي: ومع ذلك ليس قريبــا بما فيه الكفاية من الولايات المتحدة بما يجعلنا نتصرف كنصير لمصر».

ثم يضيف كيســنجر: «إن الســادات واجه مأزقا آخر مشابها في علاقاته مع إخوانه العرب. فالســادات لم يكن ليصل إلى أهدافه مطلقا لو أنه سمح لســوريا بالاعتراض على سياسته. مع ذلك، فإلى أن يتم ضبط عملية السلام في مجراها، فإن السادات يحتاج إلى التهديد بتحديد (العودة إلى) العمل العسكري كوسيلة للمساومة. وبغير استمرار التحالف مصر مع سوريا، فإن أحدا لن يصدق مثل هذا التهديد أو يأخذه بجدية على الإطلاق».

وباختصار، يقول كيســنجر، فإنه: «بالنســبة للسادات. فإن توصله إلى فض اشتباك مع إســرائيل هو الخطوة الأولى فيما يجب أن يكون (في رأى الســادات) ســلاما منفصلا بين مصر وإسرائيل. أما (حافظ) الأسد فربما تكون رؤيته هي أن فض الاشتباك هو مجرد المرحلة الأخيرة قبل تجدد المواجهة ضد إسرائيل. في المستوى الدبلوماسي على الأقل».

وبالنســبة للأردن فإن الملك حســين: «يحبذ انعقاد مؤتمر جينيف، لأن مشاركته فيه ســوف تســاعده في الادعاء بالتحدث باسم الفلســطينيين. والتوصل إلى أي اتفاق لفض الاشــتباك يمكن أن يخدمه في إقامة ســابقة لإعادة الأردن إلى الضفة الغربية. وبالنســبة لنا. فإننا كنا نريد حضور حسين في مؤتمر جنيف لنفس السبب».

وإسرائيل أيضا - يقول كيسنجر - لها مصلحة فى : «مؤتمر جينيف يؤدى إلى دبلوماسية الخطوة - خطوة. فبينما ترغب إسرائيل بما فيه الكفاية فى البقاء حيث هى لفترة، إلا أن ذلك يستلزم استمرارها فى تعبئة فرق عسكرية عديدة حتى تحتفظ بالأراضى الموجودة فيها عبر قناة السويس، الأمر الذى يستلزم استمرار إسرائيل فى التعبئة العسكرية. ثم أن سوريا تحت أى ظرف لن تفرج عن أسرى الحرب الإسرائيليين لديها إلا إذا تم بالفعل انسحاب إسرائيلى من جزء من الأراضى السورية التى تحتلها إسرائيل» .

فى نفس الوقت كانت تدور بين مصر وإسرائيل مفاوضات مباشرة على المستوى العسكرى عند الكيلو متر ١٠١ على طريق السويس، فى وجود من الأمم المتحدة. مفاوضات يرأس الوفد المصرى فيها اللواء محمد عبد الغنى الجمسى، والوفد الإسرائيلى يرأسه الجنرال آهارون باريف.

وفى تلك النقطة يقول كيسنجر فى مذكراته ما يلى : «لكى أكون صريحا، فإننا لم نكن متحمسين لتحقيق تقدم مفاجئ فى مباحثات الكيلو متر ١٠١ قبل أن ينعقد مؤتمر جينيف» . وهكذا يقرر كيسنجر إنه بادر فى يوم ٣ ديسمبر إلى طلب السفير الإسرائيلى فى واشنطن ليقول له : «أفترض أن (الجنرال) باريف قد خرج بطلا فى فض الاشتباك.. فماذا ستناقشون إذن فى (مؤتمر) جنيف يوم ١٨ ديسمبر ؟».

والواقع أن تلك الكلمات تخفى أشياء أكثر خطورة مما يوحى به كيسنجر هنا فى كلمات ملتوية. فحقيقة الأمر هى أن إسرائيل، وقد خرجت من حرب أكتوبر لتوها كانت ما تزال تسيطر عليها حالة «الانهيار النفسى» التى يسعى كيسنجر من البداية إلى حمايتها منها. لقد ظلت مباحثات الكيلو ١٠١ تدور لعدة أيام، وفى كل مرة تعرض إسرائيل الانسحاب إلى مسافات أعمق داخل سيناء (بدلا من خط ٢٢ أكتوبر).. مقابل قيام مصر بتخفيض ملموس فى حجم ومستوى قوتها العسكرية. وفى يوم ٢٦ نوفمبر (١٩٧٣) قدم الجنرال آهارون باريف ممثل الجانب الإسرائيلى إلى اللواء محمد عبد الغنى الجمسى ممثل الجانب المصرى مشروعا متكاملا. والمشروع تعرض فيه إسرائيل على مصر الانسحاب شرقا إلى خط قريب من خط العريش / رأس محمد، بشرط أن تقوم مصر فى مقابل ذلك بتخفيض قواتها المسلحة فى

سيناء لتصبح قوة رمزية. وقد أبدت مصر اهتماما بهذا العرض.. لكن الوفد العسكرى المصرى برئاسة الجمسى اشترط أن يكون تخفيض القوات متبادلا، وليس التزاما مصريا منفردا.

وكان دافع إسرائيل إلى تقديم هذا العرض، والانسحاب هكذا من ثلثى سيناء دفعة واحدة، وهو دافع بسيط بقدر ما هو مفهوم. فبعد القتال الضارى والبطولى الذى فوجئت به إسرائيل من الجيش المصرى طوال حرب أكتوبر، أصبحت إسرائيل مستعدة لأن تفعل كل شىء حتى تبعد الجيش المصرى من الالتحام بها مباشرة مرة أخرى فى ميدان القتال. فإذا كان كيسنجر ينقل إلى إسرائيل الصورة السياسية عن مصر من خلال اجتماعه الوحيد مع السادات.. فإن إسرائيل تعرف تماما الصورة العسكرية أمامها الآن فى ميدان القتال. وهى صورة تريد إسرائيل أن تفر من مواجهتها بأى ثمن حتى لا تعطى للجيش المصرى مرة أخرى فرصة الالتحام بها مطلقا. من هنا كان عرضها على المستوى العسكرى بالانسحاب من ثلثى سيناء.

لكن، بعد ثلاثة أيام فقط من تقديم هذا العرض الإسرائيلى إلى اللواء الجمسى فى مباحثات الكيلو متر ١٠١ فوجئ الجانب المصرى بأن الجنرال باريف يأتى ويعلن إنه يسحب المشروع الإسرائيلى ويعدل عنه تماما..!

ولقد كان هذا انقلابا مفاجئا وغريبا فى حينها. ولم يعرف أحد، إلا فيما بعد، أن الذى كان وراء هذا الانقلاب هو هنرى كيسنجر نفسه، والذى دبر ذلك من مكتبه فى واشنطن.

إن كيسنجر كان من البداية يصر على تلقى تقارير يومية عما يجرى بين مصر وإسرائيل فى مباحثات الكيلو متر ١٠١. وكانت تلك التقارير تصله فى واشنطن متأخرة يومين تقريبا. وهكذا، فإنه بمجرد أن علم أن إسرائيل تعرض مثل هذا الانسحاب العميق فى سيناء كأساس لاتفاقية أولى لفض الاشتباك مع مصر، فإنه اتصل بالحكومة الإسرائيلية على الفور، قائلا لهم إن عليهم ألا يعطوا المصريين أى شىء إلا ببطء، وبصعوبة، وبعد مؤتمر جنيف.. وعن طريقه هو !.

وهكذا سحبت إسرائيل مشروعها فورا. فلا شك إن رجل إسرائيل فى واشنطن يعرف أفضل ما الذى يمكن أن يتحمله السادات فى القاهرة.

وفى تفسير تلك الواقعة، يتفق «مارفن كالب وبرنارد كالب» فى كتابهما بعنوان

«كيسنجر» .. مع «ويليام كوانت» فى كتابه «حقبة القرارات» . إن الجميع يتفقون على أن كيسنجر لم يكن يريد فى الواقع أن يشجع مصر وسوريا على التطلع إلى تحقيق انسحابات إسـرائيلية كبيرة، لأنه يريد أن يضبط العملية فى انسـحابات طفيفـة صغيرة، تتم على خطوات متباعدة يتحكم فيها هو.

ثم إذا كانت إسـرائيل تخشـى من اسـتئناف الجيش المصرى للحرب. فإن كيسنجر أصبح يعرف أفضل نوايا مصر، بعد أن قال السادات إنه لا يريد أن يحارب مرة أخرى.

وهكذا إذن، لم تكن المسألة هى مجرد : «إننا لم نكن متحمسين لتحقيق تقدم مفاجئ فى الكيلومتر ١٠١» ولا مجرد منع الجنرال باريف من «أن يخرج بطلا» كما يلف كيسنجر ويدور فى مذكراته. المسـألة هى حرص كيسنجر على ترويج صورة محددة لإسرائيل تكون محل تصديق الطرف العربى ـ صورة أنها لابد لها من تنازلات مصرية على وجه الخصوص مقابـل انسـحاب طفيف بطئ.. بالإضافة إلى إصرار كيسـنجر على حماية إسـرائيل من التصرف تحت وطأة الانهيار النفسـى الذى سـببه لها المقاتل المصرى فى سيناء والسورى فى الجولان.

على أى حال. فبعد انقلاب الموقف الإسـرائيلى يوم ٢٩ نوفمبر، قرر اللواء الجمسـى ممثل الجانب المصرى إنه لا جدوى من الاستمرار فى مباحثات الكيلو متر ١٠١. ومن ثم أعلنت مصر قطعها. (ولم يتم بعد ذلك أى انسحاب إسرائيلى إلى خط العريش/رأس محمد إلا بعدها بسـبع سـنوات كاملة – وفى إطار مختلف تماما حصلت إسرائيل بمقتضاه من السادات على معاهدة الصلح الرسمية).

وفـى اليـوم التالى لتوقف مباحثات الكيلو متر ١٠١. اجتمع كيسـنجر فى واشـنطن بالسفير أناتولى دوبرينين. وفى الاجتماع أبلغه السفير بأن الاتحاد السوفيتى يرى أن مصر معها الحق فى المطالبة بانجاز اتفاق فض الاشتباك قبل انعقاد مؤتمر جنيف. وليس بعده.

وأراد كيسـنجر أن يهدئ السـوفييت، فأخبر دوبرينين بأن الولايات المتحدة تستطيع الآن أن تلتزم للاتحاد السوفيتى بالقيام بجهد كبير فى مطلع شهر يناير (١٩٧٤) أى بعد شهر واحد – لإبرام اتفاق فصل القوات بين مصر وإسرائيل.

والذى حدث بعدها أن موسكو أخطرت سفيرها فى القاهرة سيرجى فينوجرادوف بهذا الالتزام الامريكى على لسان كيسنجر، وهنا يضيف كيسنجر فى مذكراته قائلا : «إن السفير فينوجرادوف، بدافع من التفاخر، وعجزا منه عن مقاومة إحراز نقطة هزيلة حتى بالمقامرة بتقويض الثقة (بين القوتين العظميين) ذهب يخطر إسماعيل فهمى وزير الخارجية المصرى بهذا الجدول الزمنى كما لو كانت الدبلوماسية السوفيتية هى التى فرضته... وقد لقى فينوجرادوف من فهمى تعليقات ساخرة نتيجة لذلك» ! !

و... نسى كيسنجر أنه يقوم بإبلاغ إسرائيل أولا بأول بكل «ذرة معلومات» تتلقاها الولايات المتحدة عن مصر وسوريا.. وكل الدول العربية المعنية !

عندما تم الاتفاق على انعقاد مؤتمر للسلام فى جنيف بين العرب وإسرائيل تحت إشراف الأمم المتحدة، والرئاسة المناوبة لكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى.. كان هذا الاتفاق يتم تحت ضغط حرب أكتوبر نفسها، التى حققت لمصر وسوريا انتصارا استراتيجيا لا مثيل له من قبل.

وكانت دوافع كل من العرب وإسرائيل فى الاتجاه إلى هذا المؤتمر مختلفة تماما. فالعرب يريدونه مؤتمرا لبحث التسوية الشاملة القائمة على انسحاب إسرائيل الكامل إلى حدود ٤ يونيو سنة ١٩٦٧ والاعتراف بالحقوق السياسية الكاملة للشعب الفلسطينى. وكان هذا جوهر الموقف السياسى الموحد الذى اتفق عليه الملوك والرؤساء العرب فى اجتماعهم بالجزائر بعد شهر واحد من توقف الحرب. وفى ذلك الاجتماع، أنكر السادات بشدة الادعاء السورى بأنه قد بدأ فى الواقع يتجه إلى حل منفرد مع إسرائيل عن طريق كيسنجر.. بل إلى جزء محدود ـ حتى ـ من هذا الحل المنفرد.

أما إسرائيل.. فقد كانت تريد فقط تحويل مؤتمر جنيف المقترح إلى مجرد واجهة شكلية تسجل فحسب سابقة وجود درجة من التفاوض المباشر بين العرب وبينها. أما الانجاز الحقيقى.. فتريده إسرائيل أن يتمخض عن حلول جزئية على نطاق زمنى ممتد يتيح لها الإفلات من الحصار الدولى الذى فرضته عليها الحرب، وبشرط أن تكون تلك الحلول الجزئية الصغيرة، أو اتفاقية الخطوة / خطوة كما جرت تسميتها بعد ذلك،

تحت إشراف الولايات المتحدة وحدها بعيدا عن مشاركة السوفييت أو أوروبا الغربية، وبحيث يكون مهندسها هو رجل إسرائيل الأول فى واشنطن : هنرى كيسنجر نفسه.

ومع مطلع شهر ديسمبر (سنة ١٩٧٣) بدأت إسرائيل تسجل مجموعة من طلبات جديدة ترجو من كيسنجر تحقيقها قبل أن تحضر مؤتمر جنيف. الذى أصبح مقررا انعقاده فى الثامن عشر من نفس الشهر. أولا - إسرائيل لا تريد دورا ملموسا للسكرتير العام للأمم المتحدة فى الإشراف على المؤتمر. وثانيا ـ هى تعترض على الإشارة إلى «الفلسطينيين» فى خطاب الدعوة لحضور المؤتمر.. حتى لا يؤدى هذا إلى اشتراكهم الفعلى بالمفاوضات فى مرحلة لاحقة. وثالثا ـ تريد إسرائيل أن يسعى كيسنجر لدى سوريا للإفراج عن أسرى الحرب الإسرائيليين لديها.. قبل انعقاد مؤتمر جنيف. إن إسرائيل قد حصلت على هذا التنازل الضخم من السادات بالنسبة لمصر.. فلماذا لا تجرب الحصول على مثله من سوريا..؟!

ولكن سوريا رفضت تماما مجرد مناقشة هذا الطلب الأمريكى.. لأن أسرى الحرب الإسرائيليين هم ورقة قوية للغاية فى يد سوريا لحظة بداية المساومات السياسية.. فلماذا تفرط فيها سوريا الآن بلا مقابل.. ؟ !

وهكذا بقيت مشكلة الصياغة التى سيتم بها الإشارة إلى الشعب الفلسطينى فى خطاب الدعوة إلى مؤتمر جنيف. لقد أعد كيسنجر مشروعا للدعوة يشير فقط إلى أن قضية اشتراك «الفلسطينيين» فى مباحثات السلام سيكون من بين بنود جدول أعمال مؤتمر جنيف.. ولكن إسرائيل مع ذلك مازالت تأمل فى حذف تلك الإشارة المتواضعة من صيغة الدعوة قبل أن تعلن حضورها للمؤتمر.

وهكذا اتجه كيسنجر إلى الشرق الأوسط فى ١٣ ديسمبر ١٩٧٣ فى رحلة جديدة للاتفاق على شكل ومضمون الدعوة لحضور مؤتمر جنيف. وفى رحلته السابقة كان كيسنجر قد اختار أن يبدأ جولته بالاجتماع بالملك الحسن فى المغرب والرئيس بورقيبة فى تونس.. حتى يستفيد من تأثيرهما فى أنور السادات فى القاهرة. ولكن الآن.. بعد أن وجد كيسنجر أن السادات نفسه أكثر من متعاون معه فى كل مشروعاته.. بل ولديه استعداد كامل لإعطاء

التنازلات الضخمة التى يطلبها منه كيسنجر بلا جدول ولا مناقشة.. فإن المشكلة لم تعد هى مصر.. وإنما المشكلة الآن هى سوريا.

وهكذا قرر كيسنجر أن يبدأ جولته الثانية هذه بالاتجاه إلى الجزائر، حتى يستكشف من خلالها احتمالات الموقف السورى بالنسبة لمؤتمر جنيف الوشيك الانعقاد.

ولكن، بمجرد أن بدأت المباحثات فى الجزائر. وجد كيسنجر أن الرئيس هوارى بومدين هو الآخر (مثل الملك فيصل فى السعودية من قبل) متمسك تماما بالتسوية الشاملة. وبالتالى يرفض الحلول الجزئية التى يسعى إليها كيسنجر.

وقال له بومدين : إنكم - فى الولايات المتحدة - تريدون أن تصبح إسرائيل هى شرطى المنطقة ضدنا.. ولذلك فبالنسبة لنا كعرب.. لا يمكن أن يكون أى حل أمريكى عادلا.

ثم أضاف بومدين قائلا : هناك خطوتان مهمتان ستؤثران كثيرا فى الموقف.. فأولا لابد أن تنجزوا اتفاقية فض الاشتباك على الجبهة المصرية قبل انعقاد مؤتمر جنيف وليس بعده كما تريد إسرائيل.. وثانيا - يجب أن تتوقف جهودكم الحالية لعزل سوريا.. فسوريا يجب أن تكون هى الأخرى جزءا أساسيا من الجهود الدبلوماسية الأمريكية..

وبمجرد أن غادر كيسنجر الجزائر بادر الرئيس بومدين إلى إبلاغ مصر وسوريا على الفور بمضمون مباحثات كيسنجر معه. الآن إذن فشل كيسنجر فى فصل الجزائر عن الموقف العربى الموحد المتمسك بالتسوية الشاملة بمثل ما فشل من قبل فى فصل السعودية عن مصر وسوريا ولكن.. يبقى مصر نفسها.. ولذلك اتجه كيسنجر إلى القاهرة ليجتمع بالسادات.

كانت مصر حتى تلك اللحظة يوم مجىء كيسنجر فى ١٣ ديسمبر، تعيش حالة الطوارئ الفعلية على جبهة القتال. فالجيش المصرى الثالث محاصر فى الصحراء، وإمداداته الغذائية تخضع يوميا للرقابة بواسطة نقاط التفتيش الإسرائيلية التى وافق عليها السادات. والجيش الثانى فى حالة طوارئ، والاشتباكات المتناثرة تجرى يوميا مع قوات الثغرة الإسرائيلية.

وفى القاهرة كانت أنوار المطار مطفأة، والشوارع نفسها مظلمة امتدادا للقيود التى كانت حرب أكتوبر قد فرضتها. ولقد اختار السادات مكانا آخر فى هذه المرة لكى يستقبل فيه كيسنجر. إن السادات إذا كان قد استقبل كيسنجر فى المرة الماضية فى قصر الطاهرة.

فإنه سيستقبله هذه المرة فى استراحته الجديدة الفاخرة بالقناطر الخيرية (وفى المرة التالية سيستقبله فى استراحته الجديدة بأسوان، ثم استراحته الجديدة بالهرم. ثم فى قصر المنتزه بالإسكندرية.. وهكذا) !

فى الطريق إلى القناطر الخيرية عرف كيسنجر أن هذه السيارة نفسها التى يستقلها كانت هى سيارة الرئاسة الرسمية للرئيس الراحل جمال عبد الناصر. وبالطبع كانت المعلومة ملفتة ومثيرة للنشوة بالنسبة لكيسنجر الذى قال له السادات إنه يتعهد – السادات هو الذى يتعهد – بالقضاء نهائيا على أسطورة جمال عبد الناصر.

ويقول كيسنجر : «لقد انطلقت السيارة داخل الاستراحة الأنيقة الضخمة فى القناطر الخيرية. وهى استراحة تقع فى الجزء الفسيح الأخضر من وادى النيل.. وتشتمل استراحة السادات هذه على حدائق فسيحة جميلة من أزهار الياسمين وأشجار التين. وقد ظلت السيارة تنطلق بنا داخل الاستراحة إلى أن وصلنا إلى سلالم تؤدى إلى فيلا أنيقة واسعة. وإلى يسار المدخل كانت توجد صالة واسعة.. حيث وجدت السادات ينتظرنى فيها.. مرتديا الزى العسكرى» ! !

وكما هى العادة، كان السادات محيطا نفسه بأكبر عدد من الصحفيين والمصورين.. لكى يسجلوا لقاءه المهم مع «صديقه» هنرى كيسنجر ! وكما هى العادة أيضا، تفاوض السادات بعد ذلك بمفرده تماما مع كيسنجر.. بلا مستشارين أو مساعدين أو حتى إسماعيل فهمى وزير الخارجية.. وبالتالى بلا أى محضر مكتوب تحتفظ به الدولة المصرية.

أخيرا كما هى العادة، كان السادات هو الذى بدأ الحديث، بغير أن يستمع أولا إلى ما يحمله كيسنجر من أفكار أو مشروعات. فإذا كان كيسنجر قد جاء للترتيب لانعقاد مؤتمر جنيف، فإن السادات لا يخوض كثيرا فى هذا الموضوع لأن لديه ما هو أكثر أهمية. وهو تصوره – أى تصور السادات – للمستقبل!.

هكذا يسجل كيسنجر فى مذكراته : «حينما بدأ السادات يرسم تصوره للمستقبل.. فإنه قال لى إنه لا يثق فى الاتحاد السوفيتى مطلقا.. ولذلك فإنه سوف يمضى قدما الآن فى طريقه. إنه بالتدريج سوف يستأصل الآثار الأخيرة للوجود السوفيتى فى مصر

وينهيها. فهناك الآن أربع طائرات نفاثة أسرع من الصوت من طراز ميج / ٢٥ فوكسبات موجودة فى مطار غرب القاهرة، وهذه الطائرات السوفيتية الأربع كان السوفييت قد جاءوا بها إلى القاهرة قبل ثلاث سنوات ونصف لإمداد مصر بالصور الاستطلاعية للقوات الإسرائيلية فى سيناء. والآن- هكذا يستمر السادات فى حديثه إلى كيسنجر- يجب أن تعود تلك الطائرات الأربع إلى بلادها. وكذلك ستتم إعادة الأسطول السوفيتى الصغير المرابط فى ميناء الإسكندرية لحمايتها ضد أى ضربة إسرائيلية محتملة فيما لو استؤنفت الحرب. أما بالنسبة لمعاهدة الصداقة السوفيتية المصرية (التى كان السادات نفسه هو الذى عقدها مع موسكو فى سنة ١٩٧١) فإن السادات الآن يقول إنه.. إما أن يجعلها تتلاشى.. أو يلغيها كلية.. فهو لم يقرر بعد أيهما» .

وبعد تلك «التعهدات» الاختيارية التى تطوع بها السادات إلى كيسنجر من جانب واحد.. بدأ دور التوسلات !

إن السادات يقول لكيسنجر : «إن كل تلك الإجراءات تحتاج إلى أن تحرز عملية السلام شيئا من التقدم. بالطبع.. أنا اعترف لك بأمانة إننى مازلت أعتمد على إمدادات السلاح السوفيتى.. ولكنى الآن أود أن أتحول إلى الأسلحة الأمريكية. وبرغم إننى لا أرى إمكانية عاجلة لتحقيق ذلك الآن.» !

ثم.. قال السادات بعد ذلك جملة مدوية، أملا فى أن تترك انطباعا من اى نوع لدى كيسنجر، فقال له : «لكن.. إذا حدث جمود دبلوماسى، فربما أجد نفسى مدفوعا مرة أخرى للحرب ولكنى أتطلع الآن إلى الولايات المتحدة»!.

واختتم السادات حديثه بجملة أخرى سيرددها بعد ذلك مرارا وتكرارا كشعار للمستقبل، حيث أشار إلى حقيبة كيسنجر الصغيرة قائلا : «إن لديك كل الأوراق هنا.. يادكتور كيسنجر»!.

وهنا يبدأ كيسنجر بتسجيل تعليق، تهكمى المغزى بعمق فى مذكراته قائلا : «إن السادات كان يريد بوضوح أن يحرر نفسه من العلاقات السوفيتية. وهكذا، فكل ما علينا أن نفعله لكى نغريه بقطع روابط مع خصمنا الرئيسى - الاتحاد السوفيتى - هو أن نمضى نحن فى طريق.. كنا قد قررناه فعلا.. ولكن لأسبابنا الخاصة» !

أما بالنسبة لتلميح السادات الغامض باحتمال «اضطراره» للعودة إلى الحرب.. فيوضح كيسنجر تماما إنه لم يأخذ هذا التهديد بمحمل الجد على الإطلاق. فبعد كل شيء.. لا يحكم المرء على نوايا خصمه من مجرد كلمات عابرة للغاية. تقال فى مجال «الاضطرار» على مقعد وثير وسط حديقة من أزهار الياسمين. ثم إن السادات نفسه دلل بسلوكه العملى مع كيسنجر، وتعهداته التى تطوع بها من جانب واحد. على أن سماحه للجيش المصرى باستئناف القتال غير وارد فى ذهنه مطلقا. وكيسنجر نفسه كانت لديه معلومات مؤكدة منذ المرة الماضية له بأن قيادات الجيش المصرى تصر على القضاء على الثغرة الإسرائيلية بقوة السلاح.. بينما السادات يمنعهم تماما ويرفض السماح لهم بذلك.

وزيادة فى التأكيد، أراد كيسنجر اختبار مدى جدية السادات مرة أخرى وسبر غوره. فقال له بوضوح غريب : «مع كل احترامى، فإننى لا أعتقد أنه يوجد أمامك اختيار عسكرى. فإذا أنت بدأت الحرب من جديد، كما ألمحت فى ثنايا كلماتك، فإن الظرف الموضوعى لحرب أكتوبر سوف يكرر نفسه. إن الجيش المصرى مازال مسلحا بالمعدات السوفيتية. وسيظل يعتمد على جسر جوى لإعادة إمداده بالسلاح. وأنت سوف تعود إلى الاتحاد السوفيتى. ونحن سوف نحافظ على مصلحتنا الجيوبوليتيكية فى التدليل على أن السلاح السوفيتى لا يحسم الأمر. والنتيجة سوف تكون جمودا آخر، عند مستوى أعلى من العنف. ونفس المآزق التى تتم مواجهتها الآن. لحظتها فقط سوف تكون أنت أسير لموسكو وعاجزا عن التحول إلينا».

لقد بدأت تلك الكلمات من هنرى كيسنجر مشحونة بدرجة كافية من الصفاقة والجرأة على رئيس أكبر دولة عربية خرجت من حرب كبرى لتوها، وهو رئيس يجلس كيسنجر نفسه فى هذه اللحظة ضيفا عليه – فضلا عما هي مشحونة به من المغالطات الساذجة.

ولكن، لمفاجأة كيسنجر الشديدة، فإن رد فعل السادات كان هو ما يلى حرفيا : «لقد استمع السادات إلى كلماتى تلك.. وجاء رد فعله تماما كما حدث فى اجتماعى به قبل شهر واحد. فبغير جدل ولا مناقشة، وافقنى السادات على كل ما قلته» ! !

ومرة أخرى، كان هذا شيئا ملفتا تماما أن يسلم السادات بتشخيصات كيسنجر المزيفة تلك باعتبارها قضية مسلما بها. لقد كان غريبا، مثلا، ألا يشغل نفسه بالدافع وراءها.

فالفكرة الكامنة فى كل ما يقوله كيسنجر هى : عليك أن تيأس من وجود أى بديل آخر. فليس أمامك سوى أن تسلم فقط بما أعرضه عليك.. كما هو !

ولم يكن كيسنجر أيضا ليجرؤ على توجيه تلك الكلمات إلى السادات إلا بناء على تحليل مسبق لسلوك السادات وشخصيته. لأن كيسنجر نفسه يعرف تماما أن الذى أرغمه الآن على المجئ إلى المنطقة هو قوة مصر - التى أثبتتها فى ميدان القتال - ليس ضعفها. وإذا كانت عودة مصر إلى الحرب هى الآن شىء لا جدوى منه.. فما الذى يرغم كيسنجر إذن على المجىء الآن ؟ ما الذى يضطره أصلا إلى مغادرة مكتبه فى واشنطن وتلمس الوساطات، فى البداية وساطات إلى مصر. والآن وساطات إلى سوريا ؟ !

ثم إن الأمر فى الواقع لم يكن يتعلق فقط بحرب جديدة قادمة.. ولكنه يتعلق أساسا بحرب انتهت فعلا وتضحيات كبرى بذلتها مصر وسوريا فعلا. ومواقف محددة تضامنت فيها الدول العربية فعلا. وحظر بترولى عربى قائم ومستمر فعلا. ودعم من دول أوروبا الغربية ودول عدم الانحياز فعلا. والقضية العاجلة هى أن هناك الآن مقابلا متكافئا مع وجود كل عوامل القوة هذه. إن التضحيات المصرية السورية. التى تحملها مدنيون وعسكريون منذ يونيو ١٩٦٧. والمواقف العربية المحددة. هدفها هو الوصول إلى تسوية شاملة. وليس مجرد الفتات الذى يطرحه كيسنجر الآن باعتباره الاختيار الوحيد المتاح.

والشىء الملفت حقا فى الموضوع كله هو أن كيسنجر نفسه أول من يعرف بتزييف التشخيص الذى يوافقه عليه السادات هكذا بلا أى جدول ولا مناقشة.. بدليل أن كيسنجر نفسه لم يجرؤ قبل ذلك ولا بعد ذلك على استخدام تلك اللهجة مع أى ملك أو رئيس عربى آخر.

أيضا من الملفت تماما أن السادات. برغم هذا كله. يرد على كيسنجر بقوله : «لقد كان معك الحق تماما فيما قلته لى فى زيارتك السابقة قبل شهر. من أن السلام مع إسرائيل هو مجرد حاجز نفسى... لذلك فإننى أرجوك أن تنقل إلى جولدا مائير إننى أريد السلام مع إسرائيل فعلا. وسوف أسير فى طريقى هذا. منفردا لو لزم الأمر. ولكن إسرائيل يجب أن تساعدنى بعض الشىء» !

وهنا. فإن كيســنجر لم يوضح فى مذكراته أبدا ما هو نوع تلك «المساعدة» التى يرجوها الســادات ببســاطة هكذا من جولدا مائير. عن طريق «صديقه» هنرى كيسنجر. خاصة وأن إســرائيل فى تلك اللحظة ذاتها تحتل الأراضى المصرية غرب قناة الســويس. وتهدد بقتل الجيش المصرى الثالث من الجوع.. !

لكن كيســنجر يسـجل أن الســادات ســأله : هل تعتقد أن جولدا مائير (رئيسة وزراء إسرائيل) قوية بما يكفينى لعمل السلام معها..؟

رد عليه كيســنجر : إذا كانت قوة فرد واحد هى الشىء الوحيد المطلوب.. إذن فلتعتبر من الآن أن جولدا مائير هى الرجل الذى تبحث أنت عنه.. ! !

كانــت إجابة كيســنجر هذه فــى الواقع تهكمية وســاخرة بما فيه الكفايــة. فهو أول مــن يعــرف أن الصراع العربى الإســرائيلى من البدايــة لم يكن بهذا القدر من الاســتهتار والاســتخفاف مطلقا بما يســمح لرجل واحد فى مصر، أو امرأة واحدة فى إسرائيل. بتغيير مجراه هكذا فى لحظة تجلى كما يسعى السادات. إن آلاف الشهداء المصريين الذين قتلتهم إســرائيل فوق الأرض المصرية كانوا تعبيرا عن صراع جاد جدا.. يقرر مصير الشــرق الأوسط نفسه لسنوات عديدة تالية - بما فيه مصير مصر نفسها.

ثم يسترســل كيســنجر فى مذكراته مســجلا تلك الطلبات والرجاءات المثيرة للتأمل من جانب الســادات فى تلك اللحظات الحاسمة بعد حرب كبرى ســجل فيها الجيش المصرى أروع انجازاته. وحانت لحظة ترجمة تلك الإنجازات إلى نتائج سياســية يتحمل الســادات بمفرده مسئوليتها.

يقول كيســنجر : إن الســادات قال لى. بلا مناقشــة. إنه يوافقنى على حضور مصر إلى مؤتمــر جنيف.. حتــى ولم تحضر ســوريا.. ويوافقنى على تأجيل بحــث أى اتفاق لفض الاشتباك إلى ما بعد المؤتمر.. ويوافقنى على عدم الإشارة إلى القضية الفلسطينية من أساسها طوال مرحلة فض الاشتباك !

لكن. بينما كان كيســنجر يحصل على كل هذه التنازلات مرة واحدة من جلســة واحدة أخرى مع السادات، كان الرئيس الأمريكى نيكسون يعمل على مستوى آخر فى واشنطن.

لقد استدعى نيكسون السفير السوفيتى فى واشنطن فجأة إلى مقابلته فى اجتماع خاص معــه فى البيت الأبيض. وهو حدث غير عادى بتعبير كيســنجر. وكما قرأ كيســنجر فى البرقية التى وردت إليه فى مكتبه فى واشــنطن فإن: «الرئيس أمر قبل دقائق باســتدعاء السفير دوبرينين لكى يجتمع به بمفرده. لقد أشار الرئيس بصفة عامة إلى إنه يريد التحدث معه عن الشــرق الأوســط. ولكنه لم يحدد أكثر من ذلك. لقد جاء دوبرينين فعلا. واجتمع بالرئيس لنحو نصف ساعة. وانصرف لتوه. وقد سألت دوبرينين عن كيف سارت المقابلة. فقــال إنهــا كانت طيبة جدا. وأنها واحدة من أكثر مقابلاتــه مع الرئيس بعثا على الرضا والارتياح» .

وهنا يســجل كيســنجر انزعاجه الشــديد من إعلان تلك المقابلة بحجة أنها : «تحول رئاســى لتقوية علاقاتنا مع الســوفييت. فى نفس اليوم الذى أخبرنى فيه الســادات أنه يخطط لإنهاء وإلغاء المعاهدة المصرية السوفيتية» .

لكن الأمر لا يتعلق بالســوفييت فى الواقع. وإنما يتعلق بإســرائيل. فكيسنجر حريص علــى أن يحتكــر وحده التفاوض بين إســرائيل والعرب. لأنه يرى الفرصــة ذهبية أمامه للحصول على تنازلات ضخمة لحســاب إسرائيل حيثما أمكن ذلك. إما فى ظل تحرك من نيكســون. وفى وجود أطراف أخرى ســواء كانوا الســوفييت أم دول أوروبا الغربية.. فإن موقف العرب سيكون هو الأقوى.

لذلك فإن كيسنجر يبرق فورا إلى صديقه الكسندر هيج كبير موظفى البيت الأبيض. وإلى نائبه. يرجوهما محاولة استخلاص أية معلومات بشأن ما ناقشه الرئيس نيكسون مع السفير الســوفيتى. وحتى لا يبدو قلق كيســنجر مفرطا وملفتا. فإنه فى برقيته يتحجج بالسادات قائلا : «إن السادات ينظر شذرا إلى اى أتصال أمريكى سوفيتى باعتباره تواطؤا..!.

وحتى لا يكون هناك أى لبس فى أن قلق كيســنجر يتعلق أساســا بإســرائيل. وليس بالسوفييت. فإنه يسجل فى مذكراته هذه فرحته الطاغية لأن الكسندر هيج نجح فى عرقلة إتمام مقابلة أخرى طلبها الرئيس نيكســون مع السفير السعودى فى واشنطن. إن الاجتماع بالســفير الســعودى معناه الحديث عن الحظر البترولى العربى وبالتــالى. مثلما حدث مع

الســفير السوفيتى. الحديث عن ضرورة التسوية الشاملة التى تقوم على انسحاب إسرائيل الكامل من جميع الاراضى التى احتلتها منذ يونيو ١٩٦٧.

فى اليوم التالى. الجمعة ١٤ ديســمبر. توجه كيسنجر من جديد إلى استراحة السادات الجديدة بالقناطر الخيرية. حيث يفترض أن يكون موضوع المناقشة هو فض الاشتباك على الجبهة المصرية. لقد طلب السادات من كيسنجر التقدم بخطة لهذا الغرض. حيث كانت ما تزال تراوده أمنية أن يكون هناك شىء يمكن تسميته «خطة كيسنجر».

وقال له كيسنجر : «إن من الخطأ أن تتوقع منى برنامجا محددا وسريعا للتنفيذ. وبدلا من ذلك فلنتكلم الآن فى مبادئ عامة.. مثل تخفيض القوات المسلحة. وقبول مصر لوجود قوات من الأمم المتحدة.. الخ. أما عن وجود شىء محدد. فعليك أن تنتظر إلى أن أحضر أنا فى زيارة تالية فى الشهر القادم. بعد أن تحضر مصر مؤتمر جنيف أولا..!

مع ذلك. فبعد الغداء. قام الســادات باســتدعاء الصحفيين والمصورين لكى يلتقطوا له الصور مع «الصديق» كيســنجر. وتوجه أحد الصحفيين الأمريكيين بالســؤال إلى السادات قائــلا : هــل أنت مازلت تأمل فى التوصل إلى اتفاق لفصل القوات قبل الكريســماس (أى خلال عشرة أيام)؟.

وبكل ثقة وتأكيد استطاع السادات التظاهر بهما. جاء رده. نعم.. نعم.. !

وهنا يعلق كيسنجر قائلا : إن السادات. وهو يجيب تلك الإجابة بينما أنا إلى جانبه. كان يعــرف جيــدا أنه اتفق معى لتوه - داخل الغرفة المغلقة - على أن شــيئا من هذا لن يحث إلا بعد زيارتى التالية للمنطقة فى الشهر التالى - يناير.

ويعلق كيســنجر متهكما : لكن. يبدو أن الســادات لم يكن قد تعلم بعد كيفية التعامل مع الصحافة الأمريكية الصاخبة ! ذلك أن الصحفى الأمريكى لم ينشــر إجابة السادات.. لأنه راجعها فعرف أنها غير صحيحة!.

على أى حال. فقد سافر كيسنجر من القاهرة إلى الرياض حيث كرر الملك فيصل موقفه من جديد : لابد من انسحاب إسرائيل من جميع الأراضى التى احتلتها منذ يونيو ١٩٦٧.

وفى اليوم التالى. الســبت ١٥ ديســمبر. سافر كيسنجر إلى محطته الرئيسية فى رحلته

هذه المرة : دمشق سيتباحث مع الرئيس السورى حافظ الأسد لأول مرة.

ولأن كيسنجر فى النهاية وزير خارجية. فقد ترك الرئيس السورى وزير خارجيته عبد الحليم خدام يتفاوض أولا مع كيسنجر لاستكشاف أفكاره. بعدها تم استدعاء كيسنجر لمقابلة الأسد.

إن كيسنجر وجد فى مصر السادات يتفاوض معه بمفرده. بغير وزير خارجية ولا مستشارين ولا خبراء ولا بدائل تتم مواجهته بها. ولكن كيسنجر لن يحصل مطلقا على مثل تلك «الامتيازات» الخارقة فى أى بلد عربى آخر.. من الجزائر إلى السعودية.

والآن وقد بدأ كيسنجر مباحثاته لتوه مع الرئيس السورى حافظ الأسد. فإنه يسجل فى مذكراته : «من البداية. كان واضحا لى أن الرئيس الأسد لا يمارس سلطاته بشكل مطلق كما يفعل السادات. إننى لا أتذكر مطلقا أن السادات قد تعلل بوجود عقبات داخلية تمنعه من قبول أفكارى وجعلها أساسا لسياسته.. لقد كان السادات يتصرف معى بذاته. وباسمه هو. الأمر الذى يعنى أنه يقول لى عمليا إنه هو وحده المسئول عن مصر والمتصرف فى أقدارها. أما حافظ الأسد فلم يدع لنفسه مطلقا مثل تلك السلطات المطلقة فى أى نقطة من تفاوضى معه.. لقد كان تكتيكه هو أن يفتتح التفاوض معى ببيان للموقف السورى على أقصى درجة من التطرف. لكى يختبر أولا ما يحمله الطريق. إنه ربما يسمح لنفسه بعد ذلك بالعودة إلى ما هو قابل للتحقيق. لكنه. وهو يفعل ذلك. يقاتل بضراوة وشراسة. بما يجعل الطرف الآخر متأكدا من أن سوريا لن تقدم أى تنازل إلا بعد أن تحصل على عمل مرتفع للغاية. الأمر الذى يؤدى بالطبع إلى ردع الطرف الآخر (الولايات المتحدة فى حالتنا هذه) عن توقع أى تنازلات زائدة من سوريا. إن هذا التكتيك التفاوضى من جانب الرئيس الأسد كان نفس التكتيك الذى يتبعه الإسرائيليون معى.. ثم.. بمجرد أن يعتصرنى الأسد تماما ويعرف حقيقة ما أحمله إليه. فإنه يستدعى على الفور مجموعة من كبار مساعديه ومستشاريه المقربين. بمن فيهم كبار القادة العسكريين فى الجيش. وهنا يعرض الرئيس الأسد أفكارى التى انتهينا إليها. وفى تلك اللحظة يبدأ كل واحد من مساعدى الرئيس الأسد فى اعتصارى من جديد. بادئين بالرفض المتطرف لأفكارى. وهكذا تبدو

المسألة وكأننا نبدأ من جديد لكى نعيد الجولة التى كنت قد ظننت أننا قد انتهينا منها» .

ويعلق كيسنجر قائلا: «فى الحقيقة. فإن الرئيس الأسد كان يخدم بذلك أغراضه تماما كرئيس دولة. إن زملاءه يصبحون فى كل مرة جزاء حقيقيا من عملية التفاوض. فكل منهم أمامه الفرصة لكى يعارضنى. وأيضا لكى يعترض على الرئيس الأسد نفسه برغم أنهم نادرا ما فعلوا ذلك... ولقد أصابنى هذا الأسلوب التفاوضى السورى بالأرق ليالى عديدة. خاصة عندما بدأت رحلاتى المكوكية لفض الاشتباك على الجبهة السورية فيما بعد» .

ويختتم كيسنجر تحليله لشخصية الأسد التفاوضية بقوله : «لم يحدث أبدا أن فقد الرئيس الأسد فى تفاوضه معى جرأته وجسارته مطلقا. ففى كل مرة كان يتفاوض معى بجرأة وصلابة بمثل ما يفعل مقامر يريد أن يتأكد أولا من أنه قد استخرج من جيبى آخر تنازل أملكه» .

إن كيسنجر يسجل تلك الكلمات فى مذكراته. من قبيل تحليل سلوك كل أولئك الذين يتفاوض معهم. ذلك لأن شخصية الرئيس وسلوكه. وعلاقته بمعاونيه. وتصرفاته أثناء عملية التفاوض. والمدى الذى يسمح فيه لنفسه بالمقامرة على تعهدات هلامية. ومدى استعداده لتقديم تنازلات بلا مقابل. كل تلك عوامل تدخل تماما فى صميم عملية التفاوض السياسى نفسها.. بل وتتوقف عليها كثيرا خلاصة المفاوضات.

وبرغم أن كيسنجر يسجل أن الإسرائيليين كانوا يتفاوضون معه بنفس أسلوب السوريين.. إلا أنه فى حالة سوريا لا يخفى ضيقه التام بهذا الاعتصار الذى يمارسونه له.. بينما فى حالة إسرائيل. هو يعتبر ذلك منهم «إيمانا بحيوية مصالح بلدهم» !

والواقع أن هذا الأسلوب التفاوضى. ليس إسرائيليا.. ولا هو سورى. إنه ألف باء التفاوض السياسى. إنه هو الذى يحدد الفارق بين سلوك صاحب عزبة. يتصرف فيما يملكه.. وبين سلوك رئيس دولة. يعرف أن ما يوافق عليه قد يؤثر بفداحة فى مستقبل شعب بأكمله وبلد بأسرها. فالخطايا التى يرتكبها رئيس دولة.. لن يدفع ثمنها هو أو أسرته.. ولكن ستتحمل ثمنها الأجيال التالية له بعد رحيله. لذلك يخضع دستور أى دولة. رئيسها. للحساب العسير عن كل خطوة تفاوضية يقوم بها.. حتى لا تدخل الدولة فى التزامات فادحة تحت أى ظرف من وراء ظهرها.

وهكذا. ففى تلك المقابلة الأولى بين كيســنجر والأســد فى ١٥ ديســمبر. كان كل منها يحــاول اختبــار الآخر. قبل أن يقفز إلى نتائج. لقد ترك الرئيس الأســد كيســنجر ليتكلم أولا ويشرح الأفكار التى يحملها معه. إن كيسنجر يريد الترويج لفكرة انعقاد مؤتمر جنيف من حيث هى. وكأن انعقاد المؤتمر أصبح هدفا فى حد ذاته. بصرف النظر عن مضمونه.

ثم يقول كيسنجر إن الرئيس الأسد عندما علق على فكرة مؤتمر جنيف. فإنه اكتفى بأن يترك لدى انطباعا لا شك فيه.. بأن سوريا لن تموت إذا لم ينعقد مؤتمر جنيف. فحضور مؤتمر جنيف ليس فى حد ذاته حلما طاغيا على تفكير سوريا.

بعد ذلك بادره الرئيس حافظ الأسد بسؤال مباشر ومحدد. قائلا : قبل أن نحدد نحن هنا. فى ســوريا. أى موقف.. أريد أن اســتمع منك أولا إلى الصورة التى تراها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى للموقف..

وأجابه كيســنجر: إننا نفضل الاتفاق معكم عن الاتفاق مع الاتحاد الســوفيتى. لقد وضع الســوفييت مشــروعات محددة وخطة للسلام الشــامل ـ وأنا تفاديتها. هناك فقط اتفاق بيننا على نقطة واحدة. هى انعقاد مؤتمر جنيف.. ولكن ليس بيننا اتفاق على المضمون بالنســبة لأى قضية. فإذا قيل لكم (من الســوفييت) غير ذلك فإنه غير صحيح. أما بالنســبة للنتيجة التى سيسفر عنها مؤتمر جنيف فالذى سيحددها هو نحن وأنتم فقط» .

وهكذا كانت خلاصة ما يريد كيســنجر أن يقوله للرئيس الســورى هو أن على سوريا أن تبتعد عن الاتحاد الســوفيتى. فلا طريق ســوى الحل الأمريكى – أى نفس ما قاله كيسنجر للسادات من قبل. ولكن بشكل مهذب ومخفف للغاية.. فكيسنجر مازال يستكشف.

لكن الرئيس السورى منع كيسنجر من الاسترسال فى محاولته تلك. بأن قال له بحزم:– اسمع يادكتور.. إذا كان لنا أن نقرر أى شــىء بشأن علاقة سوريا بالاتحاد السوفيتى. فإننا ســنفعل ذلك لأسباب ســورية. وليس لأسباب أمريكية. فعلاقة ســوريا بالاتحاد السوفيتى تحددها فقط مصالح ســوريا وما تراه ســوريا مناسبا لها. وليس ما تراه أنت مناسبا لكم. أما بالنســبة لعلاقاتنا مع الولايات المتحدة. فإنها ســوف تتوقف تماما على ما تنجزه الولايات المتحدة عمليا بالنسبة لانسحاب إسرائيل من أراضينا المحتلة..

وأدرك كيسنجر أن سوريا ـ بعكس السادات فى مصر ـ ليس لديها استعداد مطلقا للسير فــى طريق قبل أن تعرف نهايته مقدما. وهكذا اســتدار فــورا إلى الموضوع العاجل بين يديه. وهو انعقاد مؤتمر جنيف الوشيك بعد ثلاثة أيام.

وظل الرئيس السورى حافظ الأسد يستمع إلى كيسنجر وهو يقرأ عليه مشروعات خطابات الدعوة المقترحة لمؤتمر جنيف. ثم اقتراحات تعديلها. وفى النهاية ســأله كيسنجر : سيادة الرئيس.. هل هناك أى شــىء تعترض عليه ســوريا بالنســبة لصياغة الدعوة ؟ هل تريد أن نحذف جملة أو نضيف جملة.. مثلا ؟

ورد عليه حافظ الأســد : إننى لا أعترض على أى شــىء مما قلته أنت أو قرأته حالا. عندى فقط اعتراض واحد : من أين قررت أنت أن سوريا سوف تحضر مؤتمر جنيف؟!.

يقول كيســنجر : «إننى فى البداية. صعقت تماما من رد الرئيس الســورى» .. فيبدو أن احتمال عدم حضور سوريا مؤتمر جنيف كان غير وارد على الإطلاق فى تقديرات كيسنجر.

لكــن حافظ الأســد لم يترك له فرصة للاســتمرار فى ذهوله طويــلا. فأضاف قائلا: إن مــا يهمنا فى ســوريا بالنســبة لمؤتمر جنيف ليس إجراءات انعقــاده.. ولا جملة تضاف هنا أو تحذف هناك من خطاب الدعوة. إننا ســنحدد موقفنا هنا فى ســوريا بناء على الإجابات الأمريكية أولا على ثلاثة أسئلة محددة هى :

أولا- هل توافق الولايات المتحدة رسميا على أن سوريا لا تستطيع التنازل عن شبر واحد من أراضيها المحتلة ؟..

ثانيا- هــل توافق الولايــات المتحدة معنا فى أنه لا يمكن أن يكون هناك حل بغير الشــعب الفلسطينى ؟..

ثالثا- هل المطلوب منا أن نذهب إلى مؤتمر جنيف لتحقيق هدف يتمشــى مع النقطتين الســابقتين.. أو إنــك تريد منا الذهاب إلى جنيف. فقط لكــى نفكر ونفكر.. ونظل نفكر ونفكر.. بغير التوصل إلى حل جذرى ؟ !

أدرك كيســنجر على الفور أنه. بتلك الأســئلة. قد أصبح فى موقع الدفاع. إن احتمال جرجرة سوريا. عمياء هكذا كما يريدها كيسنجر. إلى جنيف.. هو احتمال غير قائم بالمرة.

فأى إجابة يقدمها كيسنجر على تلك الأسئلة المحددة سوف تكشف على الفور جوهر ألاعيبه من البداية لخدمة إسرائيل على حساب المصالح العربية. وهكذا. يقر كيسنجر نفسه فى مذكراته معلقا بقوله : «إن أى محاولة من جانبى للإجابة بدقة عن تلك الأسئلة كانت ستجهض عملية السلام. مع إسرائيل. من قبل حتى أن تبدأ» .

فى نفس الوقت فإن الرئيس الأسد يستمر فى مواجهته لكيسنجر قائلا : «يجب أن تعرف أن مجرد قيامنا ببدء المحادثات. فى جنيف. هو خسارة لنا وتنازل من جانبنا».

لقد كان الأسد يريد أن يقول بكلمات أخرى لكيسنجر : إن لعبتك مكشوفة تماما. فأنت تريد انعقاد مؤتمر جنيف كهدف فى حد ذاته. لأنك تريد أن تكسب لإسرائيل سابقة التفاوض المباشر مع العرب على هذا المستوى الرفيع. فإذا كانت إسرائيل محتاجة إلى هذا التنازل العربى حقا.. فيجب أن يكون المقابل هو التوصل إلى اتفاق لفض الاشتباك.. قبل أن ينعقد مؤتمر جنيف.. وليس بعده.

ثم قال حافظ الأسد لكيسنجر : إذا أراد الآخرون (يقصد السادات والملك حسين) أن يذهبوا إلى جنيف بلا مقابل.. فهذا شأنهم.. أما سوريا فإنها لن تعطى هذا التنازل الضخم إلا إذا حصلت أولا على مقابل محدد له يؤدى إلى انسحاب إسرائيل.

وحينما رأى كيسنجر الموقف السورى كذلك. فإنه لم يجرؤ مطلقا على أن يطلب من سوريا الطلب الآخر الذى تتمناه إسرائيل. وهو أن تفرج سوريا عن أسرى الحرب الإسرائيليين لديها. فبلا اتفاق محدد للانسحاب الإسرائيلى.. لا تنازل. ولا جنيف. ولا إفراج عن الأسرى الإسرائيليين.

وهكذا خرج كيسنجر من دمشق بخفى حنين. لقد اتجه إلى إسرائيل وهو يفكر فى كيفية إنقاذ ما يمكن إنقاذه حتى يتحقق له ما كان يحلم به طويلا. وهو أن يكون مؤتمر جنيف أول تفاوض عربى مباشر مع إسرائيل منذ قيامها على المستوى السياسى. إن الملك حسين وافق على حضور المؤتمر.. وبذلك فطالما ضمن كيسنجر حضور مصر والأردن.. إذن فهو يستطيع أن يستغنى عن سوريا.. مؤقتا (برغم معرفته المؤكدة مسبقا بأن سوريا ستحصل على ما تريده فى النهاية. لأنها تستخدم جيدا أوراق القوة المتاحة فى يديها).

وبعد زيارة قصيرة إلى لبنان، اتجه كيسنجر أخيرا إلى إسرائيل فى ١٦ ديسمبر. بالطبع إسرائيل سوف تحضر مؤتمر جنيف، ولكنها تريد، كالعادة، أن توقع مذكرة تفاهم رسمية مع كيسنجر حتى لا تفاجأ إسرائيل بعد ذلك بأى شىء لم تخطط له مقدما.

وهكذا، ظل فريق التفاوض الإسرائيلى برئاسة جولدا مائير يتباحث مع كيسنجر لمدة خمس ساعات لكى تركز نقاط مذكرة التفاهم على ما يلى : إن دور السكرتير العام للأمم المتحدة محصور فى افتتاح المؤتمر.. ولا إشارة فى خطاب الدعوة إلى «الفلسطينيين» .. والتفاوض سيتم بين إسرائيل وكل وفد عربى منفصلا عن الوفد العربى الآخر.. والمؤتمر سيتأجل بعد بضع جلسات قليلة.. الخ.

وفى النهاية عقد مجلس الوزراء الإسرائيلى اجتماعا لمناقشة ما تم التوصل إليه فى مذكرة التفاهم هذه، ثم بعدها أعلنت إسرائيل رسميا أنها ستحضر مؤتمر جنيف.

فى اليوم التالى، قبل أن يغادر كيسنجر إسرائيل، اجتمع الوفدان لمناقشة احتمالات الفصل بين القوات وفض الاشتباك على الجبهة المصرية - اجتماع استمر أربع ساعات.

وحتى تتذكر رئيسة وزراء إسرائيل مرة أخرى الخدمات الجليلة من رجلها الأول فى واشنطن، فإن كيسنجر يروى فى مذكراته إنه شرح لها «أسلوب الخطوة / خطوة.. باعتباره وسيلة لمنع تشكيل ائتلاف وتحالف ضد إسرائيل» . وبالطبع، فإن جولدا مائير تفهم وتقدر.. الفارق الخطير بين «الخطوة خطوة» .. وبين التسوية الشاملة.

وهكذا انعقد مؤتمر جنيف فعلا يومى ٢١ و ٢٢ ديسمبر وحضره وزراء خارجية مصر والأردن وإسرائيل والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى والسكرتير العام للأمم المتحدة، ثم تأجل لأجل غير مسمى.

كانت الفكرة من مؤتمر جنيف من البداية قد ولدت أثناء حرب أكتوبر. وبعد أن فشلت إسرائيل تماما فى وعدها لكيسنجر بأن تسحق الجيش المصرى الثالث خلال «ثلاثة أيام» لم تتحقق مطلقا. وهكذا، اضطرت الولايات المتحدة إلى أن تلتزم مع الاتحاد السوفيتى بعقد مؤتمر للسلام فى جنيف تحت رعاية وإشراف الدولتين العظميين.. يكون الهدف منه هو الوصل إلى التسوية الشاملة للصراع العربى الإسرائيلى.. تسوية تقوم فى جوهرها على انسحاب إسرائيل

الكامل من الأراضى العربية التى تحتلها منذ ست سنوات. لقد وافق كيسنجر وقتها مضطرا علــى فكرة المؤتمر، لكى يضمن أولا إيقاف الحرب.. وإعطاء الفرصة لإسرائيل لكى تسترد أنفاسها من الانهيار الذى أصابها به المقاتل المصرى فى سيناء والسورى فى الجولان.

لكن، بمجرد أن توقفت حرب أكتوبر فعلا - بدأ كيسنجر وزير الخارجية الامريكى يعمل لتفريغ فكرة مؤتمر جنيف من مضمونها. فالاتحاد السوفيتى سيكون قوة «معوقة للسلام» فى مفهوم كيسنجر ـ إذا استمر فى تأييده لضرورة انسحاب إسرائيل الكامل من جميع الأراضى العربية المحتلة. إن السوفييت بذلك يكونون قوة ضاغطة على كل من إسرائيل والولايات المتحدة لحساب «الراديكاليين العرب» .. و «المتطرفين العرب» .. وكل تلك الأوصاف التى يطلقها كيسنجر على كل عربى يتمسك بالانسحاب الإسرائيلى الكامل..!

وقد حاول كيسنجر أكثر من مرة جرجرة الاتحاد السوفيتى إلى فخ الابتعاد قليلا عن الموقف العربى.. ففشل. وهنا قرر أن يجرب تكتيكاته من الجانب الآخر - الجانب العربى. وهنا اكتشف كيسنجر أن الأمر أسهل كثيرا، لأنه رأى السادات فى مصر أكثر من متعاون معه. فهو يقبل تفسيراته وأفكاره وخططه لفك الحصار الدولى عن إسرائيل.. بلا جدل ولا مناقشة. وأكثر من ذلك.. كان السادات هو الذى تطوع بالتعهد لكيسنجر بالابتعاد عن الاتحاد السوفيتى.. وعن التسوية الشاملة.. وعن تأييد أوروبا الغربية ودول عدم الانحياز. وبعد أن شكا السادات إلى «صديقه» كيسنجر من العسكريين المصريين.. وتعهد له بالقضاء على ما اسماه السادات «أسطورة جمال عبد الناصر» .. زاد السادات على هذا كله بأن تعهد لكيسنجر بأنه لن يحارب إسرائيل مرة أخرى.. تاركا مصير الجيش الثالث فى سيناء معلقا فى يدى «الصديق» كيسنجر.. وإمداداته الغذائية تخضع للتفتيش كل يوم بواسطة العسكريين الإسرائيليين على طريق السويس.

وكانت المعلومات المتوفرة لدى الولايات المتحدة تؤكد أن العسكريين المصريين يرون فى هذا الوضع الغريب إهانه للعسكرية المصرية. ومن ثم فإنهم كانوا يلحون على السادات للسماح لهم بتصفية الموقف عسكريا. لكن نفس المعلومات أكدت للولايات المتحدة أيضا أن السادات لن يسمح لهم بذلك مطلقا.

وأصبح واضحا أن كيسنجر، وهو اليهودى الصهيونى المتعصب لإسرائيل. يسعى إلى تحقيق هدفين متكاملين : إذلال الجيش المصرى عسكريا وسياسيا عقابا له على أدائه البطولى ضد إسرائيل.. لكن فى نفس الوقت مع الاحتفاظ بالسادات فى السلطة بمصر.

من ناحية أخرى كانت هناك ضغوط عديدة على الولايات المتحدة للتحرك دبلوماسيا. فهناك أولا الحظر البترولى الذى فرضته الدول العربية على الولايات المتحدة وهولندا. مقترنا بتخفيضات شهرية فى الإنتاج بالنسبة للدول الأخرى. وذلك إلى أن تلتزم إسرائيل بالانسحاب الكامل إلى حدود ٤ يونيو ١٩٦٧ وبالحقوق السياسية الكاملة للشعب الفلسطينى. ثم إن دول أوروبا الغربية ـ الحليفة للولايات المتحدة – قد رفضت تماما تكتيكات كيسنجر لعزل الاتحاد السوفيتى. والوقيعة بين مصر وسوريا. وأصرت على ضرورة الاتجاه فورا إلى التسوية الشاملة.. وليس تلك الخطوات الصغيرة التى يستهدف بها كيسنجر شفاء إسرائيل من الانهيار النفسى بسبب حرب أكتوبر. وأصدرت دول السوق الأوروبية المشتركة بيانا رسميا. لكى تؤكد علنا ورسميا انفصالها عن تحركات كيسنجر فى الشرق الأوسط.

وقد وصل الأمر بإدوارد هيث رئيس وزراء بريطانيا فى حينها إلى أن يقول للصحفيين الأمريكيين : إن حكومتكم ظلت تحذرنا طوال السنوات الست السابقة لكى نبتعد عن الجهود الدبلوماسية الخاصة بالشرق الأوسط. ولذلك تركنا لها المسرح طوال ست سنوات.. فكانت النتيجة الحتمية هى حرب أكتوبر وحظر البترول. والآن.. نحن لن نكرر غلطة الوقوف متفرجين مرة أخرى.. وسوف نصر على انسحاب إسرائيل الكامل إلى حدود ٤ يونيو ١٩٦٧.

ولقد كانت هناك مصلحة أمريكية فى تحقيق تقدم ملموس عن طريق مؤتمر جنيف.. لكن كيسنجر كان هو الذى نجح فى تفريغ المؤتمر تماما من مضمونه. وهكذا انعقد مؤتمر جنيف فى ٢١ ديسمبر (١٩٧٣) وانفض بعد يومين. وتحول الاتحاد السوفيتى فى المؤتمر إلى مجرد متفرج.. فسوريا رفضت الحضور.. بينما السادات قبل ذهاب مصر إلى هناك بلا قيد ولا شرط. مؤكدا أنه لا يريد أى دور للاتحاد السوفيتى.

وعندما اشتكى السوفييت إلى الرئيس الأمريكى نيكسون من مراوغات كيسنجر معهم وحرصه على استبعادهم. ورد كيسنجر على جروميكو وزير الخارجية السوفيتى متنصلا من

ذلك بقوله : إن السادات. وليس نحن. هو الذى لا يريدكم.. !

وهكذا. فبرغم أن مؤتمر جنيف قد تم نسفه من أساسه. إلا إنه من بين ما تمخض عنه استجابة لطلبات إسرائيل وتكتيكات كيسنجر. هو تشكيل لجنة عمل عسكرية مصرية إسرائيلية. تثبت فكرة المفاوضات المباشرة التى يريدها كيسنجر لحساب إسرائيل. ولكى تعطى اجتماعاتها انطباعا وهميا بوجود حركة ما.. بينما كيسنجر والسادات وإسرائيل يريدون انجاز العمل الحقيقى كله فيما بينهم.. بعيدا عن جنيف.. والأمم المتحدة.. وأوروبا الغربية.. والاتحاد السوفيتى.. وسوريا - شريكة مصر فى حرب أكتوبر.

وكان كيسنجر يريد التوصل بسرعة إلى اتفاقية لفض الاشتباك بين مصر وإسرائيل.. تكون ملائمة لإسرائيل لأبعد مدى. حتى يكون هذا فى حد ذاته عاملا ضاغطا إضافيا على سوريا. وسابقة تلتزم سوريا بعد ذلك بالانقياد خلفها.

وهكذا ذهب موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى إلى واشنطن فى الرابع من يناير (١٩٧٤) حاملا معه المشروع الإسرائيلى الرسمى. الذى تأمل إسرائيل أن يبدأ منه مفاوضاته التالية مع السادات.

وكان هذا المشروع الإسرائيلى «الافتتاحى» ينص على :

١ - تبقى مصر فى الأراضى التى حررتها فى سيناء. فى شريط طوله عشرة كيلو مترات تقريبا بمحاذاة الضفة الشرقية لقناة السويس.

٢ - تنسحب إسرائيل من «الجيب» الذى توجد فيه غرب القناة. وتنسحب فى الشرق لتبقى فى غرب مضايق سيناء محتفظة بها تحت احتلالها.

٣ - ترابط قوات من الأمم المتحدة فى الوسط. فيما بين الخط المصرى والخط الإسرائيلى بسيناء. فى شريط عرضه هو الآخر عشرة كيلو مترات تقريبا بمحاذاة الخط المصرى من الشمال إلى الجنوب. فتصبح على هذا النحو فاصلا بين القوات المصرية والقوات الإسرائيلية.

٤ - تلتزم مصر بتخفيض وسحب قواتها فى منطقة الضفة الشرقية للقناة. لتتحول إلى قوة رمزية مكونة من ثلاث كتائب (حوالى ١٨٠٠ جندى) بغير دبابات أو مدفعية أو دفاع جوى أو سلاح ثقيل عموما.

٥ ـ إلى جانب ذلك تلتزم مصر بتخفيف وسحب قواتها غرب قناة السويس. فبعرض ثلاثين كيلو مترا بطول الضفة الغربية لا يكون لمصر أكثر من ثلاثمائة دبابة. وبلا دفاع جوى.

إلى جانب ذلك تريد إسرائيل ضمانات سياسية مثل تعهد مصر بتطهير قناة السويس وإعادة فتحها للملاحة. والسماح بعبور البضائع الإسرائيلية بها.. الخ.

وكان أهم ما يحققه هذا المشروع الإسرائيلى فى الواقع هو القضاء نهائيا على أى اختيار عسكرى أمام مصر فى المستقبل. فمصر لن تسحب فقط قواتها التى عبرت إلى سيناء بواسطة حرب كبرى. ولكن عليها أيضا أن تزيل حائط الصواريخ الشهير الذى كانت قد أقامته بتضحيات جسيمة على امتداد الضفة الغربية لقناة السويس سنتى ١٩٦٩ و ١٩٧٠ قبل وفاة جمال عبد الناصر. وهو الذى وفر الحماية الكاملة للعبور المصرى فى سنة ١٩٧٣.

وكانت الفكرة الأخرى فى هذا المشروع الإسرائيلى هى أن الجندى الإسرائيلى قد ذاق طوال حرب أكتوبر مرارة الاشتباك وجها لوجه مع الجندى المصرى فى سيناء. فى أول حرب حقيقية يشتبك فيها الجيشان المصرى والإسرائيلى. ونتيجة للأداء الضارى المدهش للجيش المصرى فى الحرب. والانهيار الذى أصيب به الجيش الإسرائيلى خصوصا خلال الأيام الأولى. فإن إسرائيل تريد الآن أن تمنع الجيش المصرى بأى ثمن من احتمال الالتحام معها مرة أخرى لتحرير الأرض المصرية فى سيناء وطرد الاحتلال الإسرائيلى منها بقوة السلاح. من هنا جاء الإصرار الإسرائيلى فى المشروع على المجئ بقوات من الأمم المتحدة لتكون فاصلا فى سيناء بين الجيشين. فبهذا الشكل تستمر إسرائيل فى احتلال تسعين بالمائة من سيناء محتمية فى قوات الأمم المتحدة التى تفصل بينها وبين الجيش المصرى.. بينما الجيش المصرى نفسه يصبح مشلولا عن أى تحرك لتحرير أراضيه فيما لو احتاجت مصر إلى ذلك.

لكن الفكرة الأكثر خطورة فى هذا المشروع الإسرائيلى كانت شيئا آخر فوق هذا كله. شيئا يمثل بالفعل مؤامرة كبرى على الجيش المصرى وقدراته ومعنوياته. فمعنى المشروع الإسرائيلى ببساطة. هو أن مصر بعد أن عبر جيشها قناة السويس إلى سيناء فى حرب ظل ينتظرها ويضحى من أجلها طوال ست سنوات سابقة.. تصبح الآن ملتزمة بسحب جيشها المقاتل هذا إلى غرب قناة السويس مرة أخرى..!

ويعترف كيسنجر فى مذكراته هذه بتلك الحقيقة الأساسية قائلا : «إن النتيجة العملية لهذا المشروع الذى جاء به موشى ديان وقدمه إلىّ هى انسحاب جميع القوات المسلحة المصرية التى عبرت قناة السويس أثناء الحرب. بحيث لا يبقى هناك سوى مجرد قوة رمزية من حوالى ١٨٠٠ جندى مصرى» .

فى تلك اللحظة. وبكلمات كيسنجر نفسه. فإن القوات المسلحة المصرية التى كانت موجودة فى سيناء فعلا. وعبرت إلى هناك بقوة السلاح. كانت تبلغ سبعين ألف جندى وسبعمائة وعشرين دبابة و ٩٩٤ قطعة مدفعية.

الآن تأمل إسرائيل فى إلزام مصر بسحب كل تلك القوات من سيناء إلى غرب القناة. وتعيدها إلى الخلف مرة أخرى متجردة حتى من دفاعها الجوى وشبكتها الصاروخية التى ضحت مصر كلها فى سبيل إقامتها قبل ثلاث سنوات ونصف بتضحيات ضخمة من أموالها وأرواح شهدائها.

وبهذا الشكل. فإن هذا المشروع الإسرائيلى. لم يكن بأقل من اتفاقية استسلام مصرى بالكامل. إنه مشروع لا يقبله إلا مهزوم من دولة منتصرة. فإذا كانت إسرائيل قد عجزت عن فرض مثل تلك الشروط على مصر من خلال الحرب.. فالسخرية الشديدة أنها تأمل الآن على فرضها ضد مصر من خلال مفاوضات سلام يقوم بها رجلها الأول فى واشنطن: هنرى كيسنجر.

وتعبيراً عن الغل الشديد داخل كيسنجر ضد الجيش المصرى فإن أول تعليق صدر منه إلى موشى ديان على هذا المشروع هو: (هذه خطوة كبيرة إلى الأمام).. وهو (مشروع طيب)..!

إن موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى. وهو يعرض هذا المشروع على كيسنجر وزير الخارجية الأمريكى فى واشنطن. كان يعرف أنه لا أمل مطلقا فى أن يقبل مواطن مصرى واحد. فما بالنا بجندى أو ضابط. بمثل هذا الاتفاق القادح.. الذى يجرد مصر بكل بساطة من نتائج حرب أكتوبر. وكأن تلك الحرب لم تقع على الإطلاق. بل الأكثر من هذا. إن هذا المشروع يجعل مصر بعد أدائها العسكرى الرائع فى الحرب. تعود إلى موقف عسكرى أسوأ بكثير مما كانت عليه.. قبل الحرب..!

كيف يمكن إذن ضمان مفاجأة الشعب المصرى. والقوات المسلحة المصرية بالذات بمثل هذا الاتفاق؟.

هذا هو السؤال الذى بدأ كل من موشى ديان وهنرى كيسنجر يعتصران ذهنيهما للبحث عن إجابة له خلال اجتماعهما المغلق فى واشنطن. إن كلا منهما يتبادل مع الأخر معلوماته العسكرية والسياسية عن مصر. الأول من خلال التقارير الواردة من الجبهة عن الموقف العسكرى الفعلى. والثانى من خلال الاجتماعين اللذين عقدهما مع السادات فى القاهرة.. وحرص السادات خلالهما على عدم وجود أى شاهد مصرى. أو محضر مكتوب. فمن خلال الضراوة المصرية فى الحرب حتى لحظتها الأخيرة. كانت إسرائيل متأكدة مسبقا من أنها لا تجرؤ - حتى - على مجرد التقدم بمثل هذا المشروع إلى أى عسكرى مصرى. ولكن. من خلال الموقف السياسى. كانت لإسرائيل تقديراتها الأخرى. منذ توصلت جولدا مائير إلى تحليلها الخاص الذى أبلغت به كيسنجر وهى تصرخ فى التليفون قائلة: إن الجيش المصرى الثالث يحاربنا بضراوة.. ولكن السادات بمفرده هو اليائس.

وكانت هناك أيضا تحليلات كيسنجر الخاصة لسلوك السادات وحديثه معه. فقد اشتكى السادات إلى كيسنجر بمرارة من العسكريين المصريين.. فضلا عن أنه قبل كل اقتراحات كيسنجر فورا بلا جدل ولا مناقشة. ولا حتى محاولة تقديم بديل مضاد.

ويضيف كيسنجر قائلا فى مذكراته هذه.. إنه اتفق مع موشى ديان على أنه لا توجد سوى ثلاث وسائل فقط. يمكن من خلالها التقدم إلى مصر بهذا المشروع الذى تحلم به إسرائيل.

الوسيلة الأولى هى : أن تتقدم إسرائيل بهذه الخطة إلى الوفد العسكرى المصرى (برئاسة العميد طه المجدوب) فى اجتماعات مجموعة العمل الإسرائيلية المصرية المشتركة فى جنيف. ولكن هذا يعنى - كما اتفق ديان وكيسنجر على الفور - إن الوفد العسكرى المصرى سوف يرفض هذا المشروع الإسرائيلى فورا جملة وتفصيلا.

ويضيف كيسنجر قائلا : إن البيروقراطية المصرية (يقصد القوات المسلحة المصرية) سوف تحدد فورا أوجه النقص والخلل فى هذا المشروع الإسرائيلى. ثم تترك السادات أن ينقض اعتراضاتهم أو يتحمل مسئولية رفضها. إن السادات قد يكون مستعدا لأن

يفعل ذلك، لكن هذا سوف يجعل الحياة بالنسبة له معقدة بلا ضرورة»!.

هكذا إذن اســتبعد موشــى ديان وكيسنجر تلك الوســيلة لأنهما متأكدان مسبقا من أن أى ضابط مصرى لن يقبل بها على الإطلاق. وهنا فكر كيســنجر وديان فى وســيلة ثانية، وهى أن يقوم كيسنجر بإبلاغ هذا المشروع الإسرائيلى إلى هيومان ايلتس، السفير الأمريكى الجديد فى مصر، بحيث يتم إبلاغه فى نفس الوقت ألا يطلع أحد فى مصر على هذا المشروع سوى السادات بمفرده.

ولكن.. بعد قليل اســتبعد ديان هذه الوسيلة أيضا. ويقول كيسنجر إن السبب فى ذلك هو أن : «هيومان ايلتس، سفيرنا فى القاهرة، ليست له سلطة التفاوض، كما أنه لا منافذ له داخل المشاورات الإسرائيلية» . بكلمات أخرى : إن السفير الأمريكى فى القاهرة هيومان ايلتس ليس هو بعد الرجل الذى تثق إسرائيل تماما فى أنه رجلها..!

بقيت وســيلة ثالثة وأخيرة، وهى فكرة مدهشــة طرحها موشــى ديان وزير الدفاع الإســرائيلى على هنرى كيسنجر: لماذا لا يقوم كيسنجر نفسه-وهو اليهودى الصهيونى الذى تثق به إسرائيل كل الثقة-بالسفر إلى القاهرة؟ وكانت الفكرة مدهشة وجذابة تماما، لأنها - بكلمات كيســنجر - تضمن لإسرائيل أن: «أقدم أنا هذا المشروع الإسرائيلى إلى السادات شخصيا، وبنفسى، وعلى انفراد».

والمســألة الواضحة تماما فى هذه النقطة من مذكرات كيســنجر. هى أن كلا من ديان وكيســنجر متأكدان من أن العســكريين المصريين ســوف يرفضون هذا المشروع الإسرائيلى. النقطــة الثانيــة هى مدى اتفاق الطرفين ـ ديان وكيســنجر ـ على أن النقطة الجوهرية فى الموضوع ليست هى القيود الفادحة التى تتضمنها الخطة على مصر وقواتها المسلحة. ولكن النقطة الجوهرية هى كيفية ضمان تقديمها إلى السادات بمفرده. والحصول على رد إيجابى منه. قبل أن تتاح أى فرصة للعسكريين المصريين بمعرفة ما يجرى والاعتراض عليه.

بكلمات أخرى : إن الفرصة الوحيدة أمام إسرائيل للتقدم بمشروعها.. لن تتم إلا من خلف ظهر الجيش المصرى الذى حارب وعبر وضحى وعرف الحجم الحقيقى لإســرائيل فى ميدان القتال.

إن هذا يوضح لنا النقطة التى انطلقت منها فكرة جولات كيسنجر فى منطقة الشرق الأوسط. وهى الجولات التى عرفت فيما بعد باسم «دبلوماسية المكوك» .

وعندما وصل كيسنجر وموشى ديان إلى هذه النقطة. انطلقا منها إلى نقطة أخرى اتفق الاثنان عليها فورا. وهى: إنه سيكون من الأفضل لو أن كيسنجر قدم هذا المشروع الإسرائيلى إلى السادات. وليس باعتباره مشروعا افتتاحيا تتقدم به إسرائيل. ولكن باعتباره أقصى ما يستطيع كيسنجر استخلاصه من إسرائيل.. ! فبمثل هذا المدخل يتم ضرب عصفورين بحجر واحد.. فأولا هذا يؤكد أن إسرائيل «عنيدة» و «صعبة» و تحتاج إلى مجهود لإقناعها «.. إلى آخر الصورة التى يحاول كيسنجر ترويجها لإسرائيل ووجد من السادات استسلاما كاملا فى قبولها.. وثانيا ـ فإن هذا يعطى لكيسنجر دورا أساسيا فى التفاوض بين السادات وإسرائيل.. يدعم شهرته. حيث إن كيسنجر نفسه يؤمن بحاجته الماسة إلى الشهرة باعتباره أول يهودى صهيونى يشغل منصب وزير الخارجية الأمريكية.

إن موشى ديان يريد أن يؤكد لكيسنجر أن إسرائيل تخدم رجالها.. خصوصا هواة الأضواء منهم.. وأصحاب الخدمات السابقة.. !

ولكن. سرعان ما وقعت مفاجأة غير سارة بالنسبة لكيسنجر الذى اعتصر ذهنه مع ديان للتواصل إلى انجح طريقة لتوصيل المشروع الإسرائيلى إلى السادات.. بمفرده. فبينما ديان مستمرا فى مداولاته مع كيسنجر بواشنطن.. حدث أن تقدم الجنرال موردخاى جور رئيس الوفد العسكرى الإسرائيلى فى اجتماعات جنيف العسكرية. بتلك الخطة الإسرائيلية إلى العميد طه المجدوب رئيس الوفد المصرى. وجاءت برقية إلى كيسنجر بذلك.. بينما هو يخطط مع موشى ديان لكيفية ضمان الحصول على موافقة السادات قبل أن يعرف الجيش المصرى بما يجرى..!

وكما يتضح لنا من مذكرات كيسنجر هذه. فإن كيسنجر أصيب فورا بالذعر من هذا التطور المفاجئ. فقال لموشى ديان على الفور : الآن.. كيف يمكن لى أن أذهب إلى السادات وأقول له إن هذا المشروع هو نتيجة لتفكير أمريكى إسرائيلى مشترك..؟!

ورد عليه موشـى ديان : اننى الآن أشـعر بالمفاجأة أنا الآخر.. فيبدو أن العسـكريين الإسرائيليين هم أكثر تعجلا مما توقعت.. ولكن. ما العمل..؟

قـال كيسـنجر فورا : يجـب أن تتصرف أنت بسـرعة.. ليس بـأن تجعل الحكومة الإسرائيلية تقدم خطة أخرى.. ولكن بمعالجة ما جرى فى جنيف بأى ثمن.. مع المحافظة على سرية ما اتفقنا عليه اليوم..!.

وبالفعل.. تصرفت إسـرائيل.. فخلال ٤٨ ساعة. عاد ممثل الجانب الإسرائيلى ليعلن فى اجتماعات جنيف أن ما قدمه لم يكن مشروعا. وإنما مجرد «صورة إيضاحية» ! ولعل الوفد العسـكرى المصرى برئاسـة طه المجدوب تصور يومها أن إسـرائيل ربما عادت إلى رشدها.. تماما مثلما تصور الوفد المصرى فى مباحثات الكيلو متر ١٠١ من قبل أن إسرائيل ربما فقدت رشدها.. !

فى نفس الوقت كان الرئيس الأمريكى نيكسـون يبحث عن أى وسـيلة لإنهاء الحظر البـترولى العربـى. وكلما حدث ذلك كلما زاد انزعاج كيسـنجر. فالحظـر مرتبط بالقضية العربية. والقضية سـتقود نيكسـون بالضرورة إلى الضغط على إسـرائيل. وقد حدث. فى ٧ ينايـر. أن علم كيسـنجر من الكسـندر هيج أن أحد كبار رجال البـترول الأمريكى فى كاليفورنيا. اسـتطاع أن يقدم لتوه مبعوثا عربيا اجتمع به نيكسون بالفعل سرا. لمجرد أن قيل لنيكسون أن هذا المبعوث يستطيع أن يساهم فى الإسراع بإنهاء الحظر البترولى العربى.

ولم ينجح كيسـنجر فى معرفة اسـم ذلك المبعوث العربى السرى الغامض. لكن المهم أنه كان يصاب بالرعب والهلع كلما بدا له أن الرئيس نيكسـون جاد فى فرض تسـوية شاملة. أو يفكـر فى ذلك. إن كيسـنجر. وهو اليهودى الصهيونى المتعصب إلى إسـرائيل.. والذى تعتبره إسرائيل رجلها المخلص فى واشنطن. يكاد يطير صوابه من فكرة إعادة إسرائيل إلى حدود يونيو ١٩٦٧ والاعتراف للشـعب الفلسـطينى بحقوقه السياسية. فإذا كان نيكسون. باعتباره رئيسـا للولايات المتحدة. يفكر فى المصالح الحيوية الأمريكية. فإن كيسنجر يفكر أولا وأخيرا فى إسرائيل.. يريد بأى ثمن أن يحول هزيمتها العسكرية فى حرب أكتوبر إلى انتصار سياسـى. وهكذا. فإن هدفه بسـيط ولكن الطريق إليه معقد : إن هذه الثقة الضخمة

التى استردتها مصر فى جيشها (وكذلك سوريا) يجب نسفها بسرعة حتى يعود العرب إلى حياتهم السابقة تحت رحمة الابتزاز العسكرى الإسرائيلى.

وهكذا بدأ كيسنجر يحس أنه فى سباق مع الوقت والزمن. لكى يحتكر فى يديه عملية التفاوض مع السادات فى مصر على وجه الخصوص. قبل أن يعود الرئيس نيكسون إلى التفكير فى وسيلة لفرض التسوية الشاملة على إسرائيل.

وبالطبع كان المفتاح إلى هذا كله هو أن ينفرد كيسنجر مرة أخرى بالسادات بمفرده. طبقا لمشورة وإصرار موشى ديان. وأصبح السؤال إذن هو : كيف يضمن كيسنجر إثارة حماس الرئيس نيكسون لفكرة السماح له بالسفر إلى القاهرة ؟ ما هى الحجة ؟ ومتى؟.

لقد بادر كيسنجر على الفور إلى الاتصال بالسادات فى مصر. معبرا له عن رغبته فى المجئ «لسماع» أرائه – أى أراء السادات – فى الخطوة التالية. وعلى الفور. جاء الرد الذى يريده كيسنجر يوم ٨ يناير. رد يقول فيه السادات : أرجوك أن تأتى إلى مصر فورا.. فأنا فى انتظارك.. !

لقد كان هذا فى حد ذاته شيئا ملفتا. أن يكون رئيس أكبر دولة عربية متاحا هكذا حسب الطلب أمام وزير خارجية دولة أجنبية.. وبغير أن يعرف على وجه التحديد ماذا سيأتى به هذا الوزير.. على الأقل لدراسته وتمحيصه قبل حضوره. وبالطبع استنتج كيسنجر من رد السادات السريع هذا ما كان يجب أن يستنتجه : إن السادات متلهف تماما على استقبال «صديقه» كيسنجر فى أى وقت يحلو لكيسنجر نفسه. إنها علامة أولى مبشرة.

لكن. تبقى هناك عقبة أخرى : هل يوافق الرئيس نيكسون على إيفاد وزير خارجيته إلى القاهرة ؟ الآن ؟ وعلى أى أساس؟.

لقد تفتق ذهن كيسنجر عن حيلة أخرى. فبكلماته هو فى مذكراته هذه. فإنه ذهب إلى الكسندر هيج مدير مكتب نيكسون وكبير موظفى البيت الأبيض – وهو الأخر متعصب أعمى لإسرائيل – لكى يوسطه لدى الرئيس نيكسون وفى جيبه تلك الرسالة المتلهفة من السادات.

ووافق نيكسون فى واشنطن على سفر وزير خارجيته استجابة لإلحاح السادات فى مصر. ووصل كيسنجر إلى أسوان فى الساعة الثامنة والنصف من مساء الجمعة – ١١ يناير. حيث

كان فى استقباله إسماعيل فهمى وزير الخارجية. ويقول كيسنجر : اننى بالطبع تعمدت الوصول إلى أسوان فى ساعة متأخرة.. حتى لا تبدأ مفاوضتى مع السادات إلا فى اليوم التالى. ولكن إسماعيل فهمى بادرنى بالقول.. إن السادات فى انتظارى.. الآن !

وأصبحت تلك علامة مشجعة ثالثة لكيسنجر. فالسادات لا يستطيع الانتظار حتى الصباح. كما أنه لا يريد إتاحة الفرصة لوزير خارجيته لاستكشاف أفكار كيسنجر. إن السادات. بمفرده. هو مصر.. وهو لا يريد من مساعديه مطلقا معرفة حقيقة المفاوضات مع دولة أجنبية.. ولا فى أى اتجاه تسير..

وهكذا اتجه كيسنجر إلى استراحة السادات فى أسوان - استراحة جديدة تختلف فى طبيعتها عن الاستراحة الأخيرة - ذات الحدائق الواسعة من أزهار الياسمين ـ التى استقبله السادات فيها فى القناطر الخيرية.

وفى هذه المرة.. أيضا.. حرص السادات على أن يكون مرتديا الزى العسكرى وهو يستقبل كيسنجر.. لعل هذه تكون حجة مفحمة لمشاهديه فى التلفزيون بأنه مازال يفكر فى الحرب!.

وكما هى عادة السادات. فإنه بمجرد أن استقبل كيسنجر فى استراحته الفاخرة الجديدة بأسوان. انتقل به إلى غرفة مغلقة لكى يتباحث معه على انفراد.. وبغير أى محضر مكتوب.. أو شاهد مصرى واحد من مساعدى السادات نفسه.

وكما هى العادة أيضا. كان السادات هو الذى بدأ الحديث. بغير أن يعطى الفرصة لكيسنجر أولا لكى يعرض ما جاء به فى هذه المرة من أفكار. خاصة وأن كيسنجر هو الذى طلب الحضور إلى مصر فى هذه المرة.

هكذا يسجل كيسنجر فى مذكراته أن السادات قال له : «إننى لا أجد أى معنى فى مناقشة مبادئ عامة للاتفاق مع إسرائيل لكى يتم بعد ذلك وضع اتفاق على أساسها فى جنيف. إنك لو فعلت ذلك.. فسوف يعنى هذا أننا نتيح الفرصة لتزايد معارضة الراديكاليين العرب ضدى.. وأيضا نعطى الفرصة للاتحاد السوفيتى لكى يسئ سلوكه معى..

وهكذا لاحظ كيسنجر أن السادات يتحدث حسب قاموس كيسنجر نفسه. فكلمة

«الراديكاليين» معناها – فى قاموس كيسنجر – كل من يصر على انسحاب إسرائيل الكامل إلى حدود ٤ يونيو ١٩٦٧.

وكانت تلك علامة جديدة مشجعة بالنسبة لكيسنجر.. تؤكد له من جديد تلهف السادات على أى حل.. بصرف النظر عن مضمونه. أو عن علاقته بالتسوية النهائية.

بعدها قال السادات لكيسنجر : إن من المقرر بالنسبة لى أن أقوم بجولة فى بعض العواصم العربية، بدءا من الرياض فى السعودية، فى نهاية الأسبوع القادم (١٨ يناير).. ولذلك فإننى آمل أن نتوصل إلى الاتفاق على فض الاشتباك مع إسرائيل على الجبهة المصرية قبل هذا التاريخ.

وحتى لا يتصور «الصديق» كيسنجر أن السادات يقصد من تلك الكلمات أى ضغط. أو شبهة ضغط. فإن السادات يضيف قائلا : إننى فى هذه الحالة سوف أحث السعودية والدول العربية الأخرى التى سأزورها على إعلان إنهاء حظر البترول العربى. بل إننى مستعد للتعاون معك.. حتى يتم إنهاء حظر البترول العربى بأى طريقة يرى الرئيس نيكسون أنها تخدمه علنا أمام المواطن الأمريكى.. !

كان هذا يمثل فى الواقع تعهدا جديدا يعطيه السادات لكيسنجر. بعد أن كان قد تعهد له فى المرتين السابقتين بأشياء عديدة. من بينها منع مصر من أى حرب أخرى ضد الاحتلال الإسرائيلى.. وتعهد بالانفصال عن سوريا.. وتعهد بالقضاء على ما اسماه «أسطورة جمال عبد الناصر» .

لكن هذا التعهد الجديد الذى يعطيه السادات فى هذه المرة بإنهاء حظر البترول العربى. كان فى الواقع تعهدا لا يدخل فى سلطته مطلقا.. لأنه يتعلق بدول عربية أخرى مستقلة. لها إرادتها السياسية ومصالحها القومية التى فرضت عليها أن تعلن الحظر البترولى ضد الولايات المتحدة.

ولذلك فإن كيسنجر نفسه يسجل فى مذكراته هذه أن هذا التعهد الجديد من السادات كان : «فى الحقيقة أقل أهمية بكثير من الموعد النهائى الذى حدده لنفسه. وهو ضرورة التوصل إلى اتفاق مع إسرائيل لفض الاشتباك قبل ١٨ يناير – أى خلال أسبوع. ففى

العادة. فإن المفاوض الذى يستخدم مثل هذا الأسلوب إنما يكشف عن ضعفه وليس قوته».

ثم يضيف كيسنجر مسجلا فى مذكراته : «إن هذا الموعد النهائى الذى قال لى السادات انه يقرره لنفســه. أصبح فى الواقع يضمن لى أن الســادات سوف يذهب إلى حد قبول كل التنازلات الممكنة التى تريدها منه إسرائيل» .

وطالما أن الســادات متلهف إلى هذا الحد، ومستعد للتنازلات بهذا القدر. فإن كيسنجر قرر أن يخفى عنه تماما أنه يحمل فى جيبه مشــروعا إســرائيليا كاملا لفض الاشــتباك ! إن أهم ما يريد كيســنجر أن يحققه فى هذه المرة أولا هو تمهيد الســادات نفســيا وعقليا لقبول الأفكار الأساسية التى يقوم عليها المشروع الإسرائيلى : تمهيده لفكرة رفض إسرائيل الانسـحاب العميق فى سيناء.. وفكرة عدم الإشارة مطلقا إلى نوع التسوية النهائية.. وفكرة وجود حاجز من قوات الأمم المتحدة بين مصر وإســرائيل فى سيناء.. وفكرة رغبة إسرائيل فى انسـحاب القوات المسلحة المصرية من الأراضى التى حررتها فى سيناء أثناء الحرب.. وفكرة إصرار إســرائيل على أن يتعهد الســادات بإزالة حائط الصواريخ الضخم الذى كان عبد الناصر قد أقامه سنة ١٩٧٠ وحاربت مصر فى حمايته فى سنة ١٩٧٣.. الخ.

وهذا هو بالضبط ما فعله كيســنجر فى اجتماعه مع الســادات فى اليوم التالى – السبت ١٢ يناير – أن كيسنجر مازال الآن يخفى عن السادات أى مشروع إسرائيلى محدد. ومع ذلك فقد أصبح الســادات متقبلا تماما الأفكار الإسرائيلية الأساسية التى يريدها كيسنجر. وزيادة على ذلك، أضاف السادات قائلا لكيسنجر : ـ إذا كانت إسرائيل قلقة بشأن حجم القوات المســلحة المصرية فى ســيناء (التى عبرت إلى هناك نتيجة لحرب أكتوبر) فإننى مستعد لتخفيضها من ثلاثة فرق مسلحة.. إلى مجرد فرقة واحدة ونصف !

إن هذا كان طلبا متواضعا للغاية يرجوه السادات من «صديقه» كيسنجر. فقبل كل شىء، لم تعبر تلك القوات المســلحة المصرية إلى ســيناء بموافقة إسرائيل. وإنما عبرت بقوة السلاح. وبتضحيات ضخمة فى الأرواح والمعدات، ومن خلال حرب غيرت الموقف الاســتراتيجى فى المنطقة كلها. ومع ذلك. ومن قبل حتى أن يطرح كيســنجر على الســادات أى مشروع محدد لفض الاشتباك، فإن السادات يعطيه مثل هذا التنازل المسبق من جانب واحد، وبلا مقابل.

وهنا يعلق كيسنجر فى مذكراته على طلب السادات المتواضع بالسماح لمصر بفرقة ونصف فى أراضيها المحررة فى سيناء. يعلق بقوله: لقد كان واضحا لى أن السادات. حتى وهو يطلب ذلك. إنما يطلبه لمجرد تسجيل موقف..!

بكلمات أخرى. يريد كيسنجر أن يقول إنه. حتى فى حدود هذا الطلب المتواضع. فإنه لم يشعر أن السادات جاد فيه. أو أنه ينوى الإصرار عليه.

وبالطبع. أصبحت هذه فى مفهوم كيسنجر علامة جديدة أخرى على اقتراب السادات ذهنيا من المشروع الإسرائيلى.

ومرة أخرى. لم يكن كيسنجر قد طرح على السادات بعد أى تصور محدد لنوع الاتفاق الذى تريده إسرائيل لفض الاشتباك مع الجيش المصرى فى جبهة قناة السويس. ومع ذلك. دهش كيسنجر بشدة من شىء أخر قال له السادات إنه يشغل باله بعمق. لم يكن هذا الشىء هو فض الاشتباك. أو مصير مؤتمر جنيف. أو نوع التسوية الشاملة. أو القضية الفلسطينية. إن ما يدور فى ذهن السادات هو شىء آخر غير هذا كله. وهو : كيف ستتم إجراءات الاحتفال بتوقيع اتفاق فض الاشتباك بين مصر وإسرائيل؟!.

يقول كيسنجر فى دهشة بالغة : «لقد وجدت أن حماس السادات كان طاغيا.. إلى درجة أن بدأ يتأمل أمامى الشكل الأمثل الذى سيتم به الاحتفال بالتوقيع. إن السادات لا يريد أن يتم التوقيع فى مؤتمر جنيف مطلقا حتى لا يناور الاتحاد السوفيتى ضده ولكنه يريد أن يتم الاحتفال الكبير بالتوقيع فى الكيلو متر ١٠١ على طريق القاهرة السويس» .

ثم قال السادات لكيسنجر باعتزاز وفخر : إن عندى لك يا دكتور فكرة مدهشة.. لماذا لا تحضر أنت بنفسك احتفال التوقيع هذا فى الكيلو متر ١٠١. لتكون مناسبة مهمة هائلة تصورها عدسات التليفزيون. ويتم إذاعتها فى العالم كله..؟!.

وهنا يعلق كيسنجر فى مذكراته هذه بدهشة شديدة. وبشعور بالمفاجأة. قائلا : إننا مازلنا بعيدين تماما عن تلك النقطة. فالسادات يشغل باله بالاحتفال باتفاق.. قبل أن يوجد هذا الاتفاق أصلا. ثم إن السادات يجهل إنه بفكرته تلك التى يحلم بها. إنما يدفعنى إلى إثارة غضب وحنق الرئيس نيكسون نفسه.. فضلا عن استفزاز جروميكو وزير الخارجية

السوفيتي. فبالنسبة للرئيس نيكسون.. لم أكن أنا مستعدا على الإطلاق لكى أستشيط غضبه إلى هذا الحد باختلاسى الأضواء منه. وبالنسبة للسوفيت لم نكن نحن فى الولايات المتحدة مستعدين بالمرة لاستفزازهم إلى هذا المدى، فى وجود اتفاق معهم على الإشراف الأمريكى السوفيتى المشترك على مفاوضات السلام.

ذلك لأن كيسنجر، إذا كان يسعى عمليا لإبعاد الاتحاد السوفيتى واحتكار العملية كلها فى يديه، فانه غير مستعد لأن يضبطه السوفييت متلبسا فى تصرف لا يمكن تفسيره على نحو آخر.

إن العلاقات بين القوتين العظميين لها فى الواقع قاموس آخر. وقواعد أخرى للعبة. لا يبدو على السادات أنه يستوعبها مطلقا.

على أى حال. فبعد أن اطمأن كيسنجر تماما إلى تلهف السادات للتوصل إلى اى اتفاق لفض الاشتباك مع إسرائيل. بصرف النظر عن مضمونه. فإنه غادر أسوان إلى إسرائيل فى مساء السبت - ١٢ يناير.

والشىء الأساسى الذى لا يبدو أن السادات قد فكر فيه مطلقا.. هو أن القتال الضارى الذى مارسه الجيش المصرى ضد إسرائيل طوال حرب أكتوبر.. قد جعل إسرائيل الآن هى الأكثر حرصا على الابتعاد عن الجيش المصرى بأى ثمن.

من هنا يسجل كيسنجر فى مذكراته إن : «إسرائيل كانت تحتاج إلى إنجاز اتفاقية لفض الاشتباك على الجبهة المصرية. ولكن لأسبابها الخاصة. فإسرائيل لا تستطيع أن تحتفظ مطلقا بثغرتها على الضفة الغربية لقناة السويس بغير الاستمرار فى إعلان حالة التعبئة. وهو الأمر الذى يمثل عبئا صعبا على الاقتصاد الإسرائيلى. وبالإضافة إلى ذلك فإن إسرائيل تعرف أنها إذا لم تفض الاشتباك على الجبهة المصرية بسرعة، فإن البديل سيكون هو مؤتمر جنيف.. حيث تواجه إسرائيل هناك عزلة مؤكدة فيما لو أصرت مصر على التسوية الشاملة» .

ولم يكن كيسنجر من البداية محتاجا إلى أن يذهب إلى إسرائيل بالمرة.. فوزير الدفاع

الإســرائيلى موشى ديان قد سلم إليه فعلا المشروع الإسرائيلى الرسمى لفض الاشتباك على الجبهة المصرية. ولكن كيســنجر تعمد أن يتجه من أســوان إلى إســرائيل لكى يؤكد الفكرة التى روجها هو لدى السادات من قبل واستسلم الأخير لها. وهى أن إسرائيل «عنيدة» .. و «صعبة» .. وتحتاج إلى ذهاب كيسنجر بنفسه «لإقناعها» ..!

والآن، بعد أن نجح كيســنجر فى سبر غور السادات. وجس نبضه. وتحليل سلوكه. فإن كيســنجر، كيهودى صهيونى متعصب لإسرائيل، أصبح يعتصر ذهنه فى البحث عن أفضل طريقة لفرض المشروع الإسرائيلى على الجيش المصرى.

إن إســرائيل تعلم. وكيســنجر متفق معهم فــى ذلك. أن هذا المشــروع الذى تحلم به إســرائيل لن يقبل به مطلقا أى عســكرى مصرى. وسوف يرفضه فورا. إنه مشروع تعرض فيه إســرائيل احتفاظ مصر بشــريط أرض فى سيناء عرضه عشــرة كيلوا مترات بحذاء قناة الســويس. مقابــل المجىء بقــوات من الأمم المتحدة فى العشــرة كيلو مــترات التالية إلى الشــرق، واســتمرار الاحتلال الاســرائيلى لكل ســيناء بعد ذلك – بما فيها مضايق سيناء الاستراتيجية. ليس هذا فقط. بل إن المشروع الإسرائيلى يطلب من مصر أن يكون تواجدها فى الشريط الضيق من سيناء هو مجرد تواجد رمزى تماما. مع سحب كل القوات المصرية من سيناء إلى غرب قناة السويس (وعددها سبعون ألفا) وتجريدها من كل أسلحتها الثقيلة ودفاعها الجوى. وخصوصا – وهذا هو أهم ما تتمناه إســرائيل – أن يلتزم السادات بإزالة حائط الصواريخ الشــهير الذى كان عبد الناصر قد أتم إقامته فى جبهة قناة الســويس يوم ٨ أغســطس ســنة ١٩٧٠ – وهو الحائط الذى اســتطاع أن يحمى عبور الجيش المصرى إلى سيناء فى أكتوبر ١٩٧٣. ومازال قادرا على أن يحميها الآن.

من هنا. قال كيســنجر لفريق المفاوضات الإســرائيلى : إن مشروعكم هذا يعنى أيضا. ببساطة شديدة. أن يتعهد السادات بسحب الجيش المصرى من أراضى مصرية كان موجودا فيها.. قبل حرب أكتوبر. وبالنســبة لكل شــروطكم هذه.. ومن خلال جلساتى المنفردة مع الســادات.. فإننى لا أتوقع أى مشــكلة فى قبول تلك الشــروط من جانب السادات نفسه.

لكن المشكلة ستكون هى مدى استعداد القوات المسلحة المصرية للإذعان لتلك الشروط. إنكم تطلبون من السادات أن يعطى للجيش المصرى - الذى استطاع السادات أن يسيطر عليه مؤخرا بصعوبة شديدة - سلسلة من الأوامر التى لن يستسيغها العسكريون المصريون مطلقا.

وهنا تفتق ذهن كيسنجر عن فكرة عبقرية مدهشة. لقد قال لفريق المفاوضات الإسرائيلى: طالما أن مشروعكم الذى سلمه إلى موشى ديان فى واشنطن قبل تسعة أيام يمثل ما تحلمون بتحقيقه فعلا على الجبهة المصرية. فلقد رأيت ألا أسلمه إلى السادات باعتباره المشروع الإسرائيلى الافتتاحى.. لأنه فى تلك الحالة يمكن أن تبدأ المساومات المصرية منه.. بينما نحن نريد أن ننتهى إليه.

إذن.. ما الحل ؟

بكلمات كيسنجر نفسه. فإنه اقترح على الوزراء الإسرائيليين أن يضعوا مشروعا افتتاحيا آخر يكون أسوأ وأكثر تشددا. لكى يصبح هو المشروع الذى يبلغه إلى السادات فى أسوان. فإذا تململ السادات. أو اقترح مساعدوه إجراء تعديلات. فإننى لحظتها سوف أساوم مع السادات قطعة قطعة. متظاهرا معه بأنكم تتراجعون إلى الخلف فى شروطكم.. بحيث نصل معه فى النهاية إلى قبول مشروع ديان - الذى يمثل بالنسبة لى موقفكم الرسمى. وبهذا الشكل نضمن تماما قبول السادات لمشروعكم الرسمى هذا بالكامل. وهذا أفضل كثيرا مما لو بدأت مفاوضاتى مع السادات بمشروعكم الرسمى هذا. ثم.. طالما أننا متفقون على ضرورة حماية السادات ضد معارضيه العسكريين المصريين.. فإننا بذلك نتيح الفرصة للسادات أن يقول لمساعديه إنه استطاع استخراج تنازلات هو الآخر من إسرائيل..!!

وبالطبع.. رحب الوزراء الإسرائيليون فورا بهذه الفكرة المدهشة من كيسنجر - رجلهم القادم من واشنطون. وهكذا. أضافت إسرائيل قيودا إضافية على الوجود العسكرى المصرى شرق وغرب القناة. وأضافت أيضا شروطا سياسية جديدة. كاشتراط أن تتعهد مصر بتعمير مدن قناة السويس.. وبمرور السفن الإسرائيلية فى القناة بعد إعادة فتحها.. وتتعهد بأن تخرج من أرضها كل القوات المسلحة الأجنبية (تقصد العربية) التى جاءت إلى مصر أثناء وبعد الحرب.. ويتعهد بإعلان إنهاء حالة الحرب رسميا.. الخ.

وبالإضافة إلى ذلك شيء آخر : إن الجيش المصرى يجب أن يسلم إلى قوات الأمم المتحدة (التى يفترض أن تجئ تنفيذا للاتفاق) ثلاثة كيلو مترات من الأرض المصرية التى حررها فعلا فى سيناء..!

لقد أصبحت تلك كلها الشروط الإضافية التى سيبدأ منها كيسنجر عرض المشروع الإسرائيلى الافتتاحى على السادات. فإذا أبدى السادات رغبة فى تعديلها، يمكن للصديق كيسنجر أن يتراجع عنها شرطا بعد شرط. مقنعا صديقه السادات بأن هذا هو اكبر تنازل يمكن الحصول عليه من إسرائيل.. وبحيث إن السادات عندما يطلب من العسكريين المصريين الإذعان فى النهاية.. يكونون راضخين ومذعنين للمشروع الإسرائيلى الحقيقى.. الذى سلمه موشى ديان إلى كيسنجر قبل تسعة أيام فى واشنطن.. !

وقبل أن يغادر كيسنجر إسرائيل إلى أسوان.. ذهب ليحضر حفل استقبال أقامه له موشى ديان فى منزله بتل أبيب. وأثناء الحفل اختلى به ديان فى حجرة جانبية صغيرة.. حيث عرض ديفيد اليعازر رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلى خريطتين : الخريطة الأولى تمثل المشروع الافتتاحى الذى سيبدأ به كيسنجر مناورته التفاوضية مع السادات.. أما الخريطة الثانية فهى المشروع الإسرائيلى الحقيقى الذى تتمنى إسرائيل رضوخ مصر له.

وفى هذه المرة لم يكن موشى ديان محتاجا إلى أن يذكر كيسنجر بأن المفتاح الأساسى فى هذا كله هو ألا يعرض كيسنجر الشروط الإسرائيلية على السادات إلا عندما يكون السادات بمفرده.. بعيدا عن العسكريين المصريين.

فى أسوان توجه كيسنجر إلى استراحة السادات الفاخرة على النيل فى الساعة العاشرة من صباح الاثنين - ١٤ يناير. لقد انتظره السادات فى شرفة تطل على الحديقة الفسيحة فى استراحته الجديدة هذه.. ومعه المصورون الذين سيسجلون لقاءه المهم مع «صديقه» كيسنجر.

وبعد نصف ساعة من التصوير، أخذ السادات كيسنجر إلى الداخل.. حيث بدأت المباحثات بين كيسنجر والسادات على انفراد - تماما وفق السيناريو الذى اتفق عليه موشى ديان مع كيسنجر من قبل.

وبدأ كيسنجر يطرح على السادات التصور الإسرائيلى لفض الاشتباك. وهنا يقول كيسنجر:

طالما أننى كنت أعرف أن المشـروع الذى سـلمه موشـى ديان لى فى واشـنطن هو المشـروع الإسرائيلى الحقيقى.. فإننى بدأت أطرح على السادات المشروع الافتتاحى الأخر الذى وضعه الإسرائيليون بناء على نصيحتى.. لكى نبدأ منه المساومة..

ولأن كلا المشـروعين لا تجرؤ على طرحهما إلا دولة منتصرة على دولة مهزومة بالكامل.. فإن كيسـنجر يعرض تلك الأفكار الإسـرائيلية على السادات بكلمات مترددة للغاية. فحقيقة الأمر هى أن مصر حققت انتصارا استراتيجيا ضخما على إسرائيل فى حرب أكتوبر.. وقوات الثغرة الإسـرائيلية هى الآن محاصرة تماما بواسطة قوات مصرية جديدة وضخمة. ولذلك فإن أى مواطن مصرى فى هذا الموقف الذى تطرح فيه إسرائيل أفكارها المهينة للعسكرية المصرية. والمتجرئـة على مصر كلها. كان كفيلا بأن يطرد كيسـنجر فورا بمجرد أن يدعى الأخير بأن هذا هو ما جاء ليعرضه..

والواقع أن كيسنجر نفسه كان يدرك ذلك تماما. ولذلك فإنه عند هذه النقطة من مذكراته يقول : «لقد بدأت أطرح على السادات المشروع الإسرائيلى الافتتاحى لفض الاشتباك.. وكلما مضيت فى طرحى للمشـروع.. كنت أخشـى أن يشعر السادات بالإسـاءة والإهانة.. بل وأن يتحول شعوره هذا بالمهانة إلى غصة كبرى فى أى نقطة من حديثى..»

ولكن، بدلا من هذا كله، ظل السادات يستمع ويستمع. وكان التعليق الوحيد الذى صدر منه يتعلق بالكيلو مترات الثلاثة التى تريد إسـرائيل أن يسـلمها الجيش المصرى الثالث إلى قوات الأمم المتحدة..

أما الأفكار الجوهرية والأساسـية التى يقوم عليها المشـروع الإسـرائيلى.. فلا تعليق على الإطلاق من جانب السـادات. إن إسرائيل تريد استمرار احتلالها لتسعين بالمائة من سيناء بما فيها المضايق. وتريد انسحاب سبعين ألف جندى مصرى إلى غرب قناة السويس.. وتريد فرض القيود الفادحة على التسـليح المصرى بعمق ثلاثين كيلو مترا غرب قناة السويس.. وتريد إزالة حائط الصواريخ.. الخ. لقد ترك السادات هذا كله.. لكى يعلق على الكيلو مترات الثلاثة..!.

والمفارقة الكبرى هنا. بالنسـبة لكيسـنجر. هى ما يلى: إن كيسـنجر بدأ يطرح المشروع الإسرائيلى الافتتاحى وهو يتوقع تماما أن السادات لابد سيرفضه. فى تلك الحالة فإن كيسنجر

مستعد ليبدأ المساومة مع السادات إلى أن يصل به إلى قبول المشروع الإسرائيلى الحقيقى ـ وهو مشـروع ديان. ولكن الذى حدث هو ما لم يتوقعه كيسـنجر بالمرة : إن السادات لم يرفض هذا المشروع الإسـرائيلى من حيث المبدأ.. !

وبعد قليل قال السادات لكيسنجر: إن مساعدى يجب أن يستمعوا إلى هذا معى.. هنا يعلق كيسـنجر قائلا : لقد كانت هذه هى المرة الوحيدة فى تفاوضى مع السـادات التى تدل ضمنا على حاجته إلى التوافق مع مسـاعديه.. إن هذا أوضح لى تماما. إلى أى حد أصبحت المسـألة شـائكة (فى علاقة السـادات بالعسكريين المصريين).. بحيث إن السادات يعبر لى ضمنا عن حاجته إلى مساعدتى لكى أقنع له الجانب المصرى وأحصل له على موافقتهم الإجماعية.. !

وهكذا صحب السـادات «صديقه» كيسـنجر إلى غرفة أخرى حيث جلس فيها على مائدة الاجتماع اثنان من مساعدى السادات. هما إسماعيل فهمى وزير الخارجية. واللواء محمد عبد الغنى الجمسى رئيس أركان حرب الجيش المصرى.

أما من الجانب الأمريكى. فقد كان هناك جوزيف سيسكو وكيل وزارة الخارجية، والزوبرث السـفير الأمريكى فى مؤتمر جنيف، ثم.. بيتر رودمان لكى يسجل المحضر الأمريكى الرسمى للاجتماع.

ويعلق كيسـنجر قائلا : إن هذه هى المرة النادرة فى تفاوضى مع المصريين. التى جلسـنا نواجه فيها بعضنا فى الموقف التقليدى الكلاسيكى للتفاوض : وفد رسمى.. أمام وفد رسمى.

ثم يضيف كيسـنجر ملاحظة أخرى، فيقول : برغم ذلك.. فإن السـادات لم يزعج نفسـه باستدعاء مسئول مصرى ليسجل محضرا رسميا للاجتماع يحتفظ به الجانب المصرى..!!

ثم يقول كيسنجر : لقد بدأ الاجتماع بمحاولة من جانبى للمرح. ولكن الضحكات اختفت بسـرعة بمجرد أن بدأت أطرح التصور الإسرائيلى لفض الاشتباك. خاصة حينما بدأت أتناول الجانب العسـكرى بالتفصيل. إن السـادات لم يتحدث إلا نادرا، وفقط لكى يسـتوضح بعض النقاط. ثم تحول الجو داخل الغرفة إلى ما يشـبه الصقيع عندما بدأت أشـرح طلبات إسرائيل الأخرى فى الجانب السياسـى، وفـى مقدمتها ضرورة التزام مصر وتعهدهـا بإعادة فتح قناة السويس.. الخ

وبــدلا من أن يرفض الســادات جملة وتفصيلا مبدأ تدخل قــوة احتلال أجنبية فى حقوق السيادة المصرية هذه.. فإن كل ما علق به هو : هذه مسائل سياسية.. يا دكتور كيسنجر!

بكلمات أخرى. يريد السادات أن ينبه «صديقه» كيسنجر إلى عدم إثارة مثل تلك الشروط أمام الوفد المصرى.. لأنه هو وحده ـ السادات وحده–هو الذى يمكن إثارة المسائل السياسية معه !

وبينما كان هذا هو موقف الســادات. فإن اللواء الجمســى كان له رد فعل آخر. فباعتباره رئيســا لهيئة أركان الحرب المصرية. فإنه سيتحمل مسئولية قبول ذلك الجانب العسكرى من الشروط الإسرائيلية المهينة لمصر وجيشها.

وهكذا يســجل كيســنجر فى مذكراته قائلا : «إن الجنرال الجمسى كان أقل كبحا لجماح نفســه. وأقل سيطرة على مشاعره. لقد قرر بشكل قاطع أن هذه الأفكار التى يتضمنها المشروع الإســرائيلى إنما تمثل شروطا مقذعة ومهينة تماما للجيش المصرى. فهى تعرى الضفة الشرقية لقناة الســويس من أى وجود لدبابات مصرية مثلا. أما بالنســبة للضفة الغربية لقناة السويس. فــإن معنى الطلب الإســرائيلى بتخفيــف القوات المصرية هناك. وبعمــق ثلاثين كيلو مترا من القنــاة. هــذا معناه أن تصبح القوات المصرية المســلحة الآن – بعد حرب أكتوبر– أضعف مما كانت عليه قبل الحرب» .

لقد وضع الجمســى إذن يده على جوهر هذا المشــروع الإسرائيلى الذى يستمع إليه من كيسنجر لأول مرة. وحتى لا يكون هناك أى غموض أو لبس. فإن الجمسى يقرر لكيسنجر بشــكل قاطع : «إن هذا المشــروع الإسرائيلى يســتهدف فى الحقيقة تقوية أمن إسرائيل.. وإضعاف أمن مصر» .

وأضاف الجمســى قائلا : «أكثر من ذلك. فإن هذا المشــروع الإسرائيلى يتضمن عناصر سياســية عديدة. بحيث إننى باعتبارى رجلا عسكريا. لن أكون الشخص المناسب لتوقيع الاتفــاق عــن الجانب المصرى. كما أن الكيلو متر ١٠١ لن يكون هو المكان المناســب أيضا للتوقيع. حيث تقتصر المباحثات هناك على المسائل العسكرية» .

هكذا إذن عبر اللواء الجمســى بأوضح الكلمات المكنة عن الرفض القاطع للعســكريين المصريين لهذا المشــروع الإســرائيلى – الذى يتجرأ على مصر بشكل لم تستطع إسرائيل أن

تفعلــه فى أعقاب كارثــة يونيو ١٩٦٧ . فما بالنا الآن ومصر قــد خاضت حربا كبرى فى أكتوبر ١٩٧٣ . أصيبت فيها إســرائيل بالانهيار والشلل على حد تعبير كيسنجر نفسه من قبل؟!.

لقد تكهرب جو الاجتماع إذن. حيث فشــل كيســنجر تماما فى مساعدة السادات على إقناع «الجانب المصرى» . وبكلمات كيســنجر نفســه فإن: «الجنرال الجمسى كان موقفه. باختصــار. هو أقرب ما يمكن إلى إعلان تنصل العســكريين المصريين من هذه المفاوضات. وانفصالهم عنها. وتبرئتهم منها» .

لقد كان هذا هو بالضبط ما يخشــاه موشــى ديان وهنرى كيسنجر من قبل. عندما كانا يبحثان عن أفضل طريقة لمفاجأة العسكريين المصريين بأمر واقع يجرد مصر كلها من نتائج حرب أكتوبر.

والآن ماذا يفعل الســادات ؟ هل يســتجيب لرأى العســكريين المصريين الذين يمثلهم اللواء الجمســى ؟ هل يترك المناقشــة تأخذ مجراها ؟ هل يقطع المفاوضات ويطرد كيسنجر من مصر؟

إن الســادات اختار طريقا آخر. لقد توجه بســؤاله إلى كيســنجر قائلا : هل تستطيع يا دكتور أن تشكل لجنة عمل هنا من الجانبين ؟

ورد كيسنجر قائلا : بالتأكيد..

وحتى يعطى كيســنجر الفرصة للسادات للتشاور مع وفده - المكون من إسماعيل فهمى واللواء الجمسى فقط. فإنه يضيف قائلا : هل تود منا أن نترككم بمفردكم لبعض الوقت ؟ ورد عليه السادات بسرعة : لا.. لا.. إننا يجب أن نتفق أولا - أنا وأنت - على المبادئ التى سيعمل هؤلاء على أساسها.. !

وبتلك الجملة المثيرة للتأمل. نهض الســادات واقفا. وصحب كيســنجر معه إلى الغرفة الأخرى. لكى تعود المفاوضات بينهما كما كانت دائما.. على انفراد.. وبغير وجود شــاهد مصرى.

إن السادات هو الذى يريد الآن مرة أخرى أن يتفاوض بمفرده مع كيسنجر - وهى نفس

الفكرة التى كان موشى ديان وكيسنجر يسعيان إليها من قبل.. باعتبارها الأمل الوحيد أمام إسرائيل لكى تفرض مشروعها المهين على القوات المسلحة المصرية.

وبمجــرد أن أصبــح الاثنــان وحدهما داخل الغرفة المغلقة، بادر الســادات إلى ســؤال كيسنجر قائلا : هل الإسرائيليون يعنون تلك الشروط ويقصدونها فعلا ؟!.

ورد عليه كيسنجر بالحديث عن «عناد» إسرائيل و «صعوبة» إقناعها.. والبرلمان عندهم يحاســب الحكومة على كل شــىء.. وإذا جرى أى تعديل فى هذه الشروط فسوف يعترض الكنيســت الاســرائيلى.. إلى أخر الصورة الملفقة التى وجد كيســنجر من قبل أن السادات استسلم لها.

ثم بدأ كيسنجر يلعب على تلهف السادات ونقاط ضعفه الأخرى التى اكتشفها من قبل، فقال له : بالطبع.. هناك بعض الشــروط يمكن تحســينها. ولكن هذا سوف يستغرق بعض الوقت – الأمر الذى لابد أن يطيل أمد هذه المباحثات. وخلال تلك الفترة.. ســوف تتزايد المعارضة ضدك فى العالم العربى. ثم إن الســوفييت ســوف يناورون بالتأكيد من أجل منع مثل هذا الاتفاق الجزئى المنفرد.. ويصرون على العودة إلى بحث التسوية الشاملة. وسيكون عليك أيضا أن تنتظر إسرائيل حتى تعيد تشكيل حكومتها. وفى النهاية.. أنت لن تحصل على شىء يكون على درجة كبيرة من الأهمية..!.

ثم يضيف كيسنجر قائلا : إن السادات ظل صامتا لعدة لحظات، وبعدها سألنى قائلا: لكن.. لماذا يسعى الإسرائيليون إلى إذلال الجمسى إلى هذا الحد؟!.

كان هــذا الســؤال من جانب الســادات، بتلك الصياغــة العربية، عميــق الدلالة فى الواقع.. وخطيرا تماما بالنســبة للمســتقبل. إن المســألة لم تكن على الإطلاق ضابطا اسمه محمد عبدالغنى الجمسى يتم التنصل منه إلى هذا الحد. فالجمسى لا يمثل نفسه، وإنما هو رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية. والخطة الإسرائيلية بالتالى لا تقوم على إذلال شخص اسمه الجمسى.. ولكنها تقوم على إذلال القوات المسلحة المصرية كلها فى شخص الجمسى.. أو فى شخص أى فرد آخر يعبر عنها وينطق باسمها.

لكن، مع غرابة صياغة السادات لسؤاله على هذا النحو. إلا أن الإيجابى فى الموضوع

هو أن السادات أصبح يعرف - بكلماته هو - أن قبول هذه الشروط الإسرائيلية الفادحة هو إذلال أكيد للقوات المسلحة المصرية.

ولقد أراد كيسنجر أن يساعد السادات على ابتلاع الفكرة الأساسية كلها وراء المشروع الإسرائيلي. فرد على السادات بقوله : إن كل قيمة تلك الشروط الإسرائيلية هي لإرضاء المتشددين هناك.. فالإسرائيليون لا يقصدون إذلال الجيش المصرى أبدا.. !

الإسرائيليون لا يقصدون !! أبدا.. أبدا.. أبدا. هكذا يعطى كيسنجر صك البراءة لإسرائيل.. وهو يعرف تماما كيف تريد إسرائيل أن تنتقم من الجيش المصرى خارج ميدان القتال بعد أن فشلت فى ذلك فى ميدان القتال أثناء الحرب. وكيسنجر يعرف أيضا كيف ظل هو وموشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى يعتصران ذهنيهما قبل عشرة أيام فقط.. للبحث عن أضمن طريق لطعن الجيش من الخلف.. وسحبه من أرضه المصرية فى سيناء.. ومنعه من العودة إلى سيناء مرة أخرى بأى ثمن.

ثم.. فلنلاحظ هنا أيضا أن كيسنجر مازال يخفى تماما أن المشروع الذى عرضه على السادات هو المشروع الافتتاحى الذى أعدته إسرائيل بناء على نصيحة كيسنجر نفسه. وأن الموقف الإسرائيلى الحقيقى - الذى يخفيه - كان هو النقطة التى بدأت منها إسرائيل صالا.

ولنلاحظ أخيرا أن هذه القيود الفادحة على مواقع ونوع وحجم الأسلحة المصرية، والتى تؤدى عمليا إلى إزالة حائط الصواريخ الشهير الذى أقامته مصر غرب القناة بأرواح أبنائها فى سنة ١٩٧٠، تجعل مصر فى موقف عسكرى أسوأ بكثير من موقفها قبل حرب أكتوبر - تماما كما قرر اللواء محمد عبد الغنى الجمسى فى مواجهة كيسنجر والسادات.

وبالإضافة إلى هذا كله، فإن قبول تلك الشروط الإسرائيلية معناه القاطع هو منع الجيش المصرى من دخول أرضه فى سيناء مرة أخرى - فى الوقت الذى مازالت إسرائيل فيه تحتل تسعين بالمائة من سيناء.

وهنا يسجل كيسنجر فى مذكراته هذه إن السادات، بطريقة لم يتوقعها كيسنجر نفسه مطلقا. قد رد عليه أخيرا بشكل مذهل.. بأنه موافق - السادات يوافق - على المشروع الإسرائيلى!.

وتنفس كيسنجر الصعداء. لقد حمل كيسنجر معه مشروعين إسرائيليين : مشروع احتياطى لمجرد المساومة.. ومشروع حقيقى يتم التراجع إليه لو تطلب الأمر ذلك.. الآن.. وجد كيسنجر أن السادات يقبل المشروع الاحتياطى.. الأكثر تطرفا.

بعدها.. بدأ السادات يطلب من «الصديق» كيسنجر بضع خدمات صغيرة. والخدمة الأولى هى : أرجوك يا دكتور.. أن تخفى تماما حقيقة أن هذا مشروع إسرائيلى.. دعنا نقول إنه مشروع أمريكى.. هل هذا ممكن؟!

بكل سرور وابتهاج. وبسرعة خاطفة. يوافق كيسنجر. طبعا.. طبعا.. طبعا. فطالما أن المضمون الحقيقى الكامل سيظل كما هو. فلا مانع أبدا من تغيير العنوان. إن كيسنجر مستعد دائما لكى يساعد أصدقاءه.. الذين يتعاونون معه.. ويطلبون خدماته.. داخل غرفة مغلقة!.

ويقول كيسنجر فى مذكراته هذه : بالنسبة لإسرائيل كانت أهمية قرار السادات هذا تكمن فى موافقته على أن تستمر إسرائيل فى احتلال مضايق سيناء الاستراتيجية..

فالآن.. ها هى ذى إسرائيل تحصل. من خلال التفاوض مع شخص واحد فى مصر. على أمنيتها الأولى هذه.

وبالإضافة إلى ذلك. كانت هناك المطالب الإسرائيلية الأخرى : انسحاب الجيش المصرى من سيناء بكل أسلحته الثقيلة.. ثم تعهد السادات بمنع الجيش المصرى من العودة إلى سيناء مرة أخرى.. وتعهده بإزالة شبكة الصواريخ المصرية من المنطقة غرب قناة السويس. ومنع إقامة أى دفاع جوى مصرى مستقبلا فى مسافة محددة.. وفرض قيود أخرى على مواقع وحجم وتسليح الجيش المصرى فى المنطقة.. الخ.

وقد وافق السادات على كل هذا. فى تفاوضه المنفرد مع كيسنجر داخل الغرفة المغلقة – وهو الأمر الذى كان مذهلا لكيسنجر نفسه. برغم اتفاقه المسبق مع إسرائيل. على أن السادات سيكون هو الشخص الوحيد فى مصر المتعاون تماما مع الخطط الإسرائيلية.

ويقول كيسنجر إن السادات بموافقته على هذه الأهداف الإسرائيلية الرئيسية. خاصة قبوله استمرار إسرائيل فى احتلالها لتسعين بالمائة من سيناء بما فيها المضايق. كان يمثل بالنسبة لى (ولإسرائيل بالطبع) الخطوة الأساسية فى مفاوضاتى معه. أما عدا هذا وما يتلوه فهو مجرد تجميل للصورة..!

الآن إذن.. والسادات بمفرده مع كيسنجر داخل الغرفة المغلقة. بدأت محاولة السادات لتجميل الصورة..!.

فبالنسبة لغرب قناة السويس. تريد إسرائيل فرض القيود على تسليح الجيش المصرى بطول المنطقة كلها الموازية للقناة. وبعمق ثلاثين كيلو مترا.. والسادات يرجو من كيسنجر تخفيض العمق إلى عشرين كيلو مترا..!.

وبالنسبة للجزء الذى حررته مصر فى سيناء. تريد إسرائيل أن يتعهد السادات بسحب كل القوات المسلحة المصرية من هناك (وعددها فى تلك اللحظة سبعون ألفا) وألا يوجد لمصر بعد ذلك فى تلك المنطقة سوى ثلاث كتائب فقط (١٨٠٠ جندى). والآن يرجو السادات من «صديقه» كيسنجر رفع الرقم قليلا..

وسأله كيسنجر: إسرائيل تسمح لك بوجود ثلاث كتائب فقط. فكم تريد أنت ؟

قال له السادات: أى رقم.. أى رقم. يعنى مثلا لو سمحت إسرائيل بوجود عشر كتائب يكون هذا شيئا هائلا.. مع ذلك.. فإننى أترك المسألة كلها لتقديرك.. وسوف أرضى بأى شىء تقول لى أنت أنه يرضى إسرائيل.. !

ثم.. تريد إسرائيل منع تواجد أى أسلحة مصرية ثقيلة فى الجزء الذى حررته من سيناء. لا مدفعية. ولا دفاع جوى. ولا دبابات.. الخ.

وهنا قال السادات لكيسنجر : إن مصر لا يمكن أن تتحمل.وجود مثل هذا التحريم الكامل عليها لوجود دبابات على جزء من أراضها. إن الجنود المصريين (الذين عبروا إلى سيناء خلال الحرب) قد تدربوا مع تلك الدبابات وعاشوا معها. وبحرمانهم منها سيشعرون بأنهم مجردون تماما من الدفاع. والمسألة.. يا دكتور كيسنجر.. هى أن مصر تحتاج إلى وجود دبابات لها فى سيناء يكفى لشعورها باحترام نفسها ـ احترام مصر لنفسها..

وبالطبع كانت تلك كلمات مجيدة.. ومدوية.. من السادات. فبعد كل شىء. يدور الحديث كله عن أرض مصرية حررتها مصر فى سيناء بقوة السلاح.. بينما الاحتلال الإسرائيلى سوف يستمر لتسعين بالمائة من سيناء نفسها.

وهنا يقول كيسنجر إنه سأل السادات : كم عدد الدبابات التى تريد مصر إن تسمح لها

إسرائيل بالتواجد فى سيناء ؟

وأجابة السادات قائلا : أى رقم.. أى رقم.. !

قال كيسنجر : هل يكفى ثلاثون دبابة مثلا لكى تشعر مصر باحترامها لنفسها ؟

عاد السادات يؤكد لصديقة كيسنجر من جديد «أى رقم ترضى به إسرائيل.. سأوافق أنا عليه..!.

لقد كانت تلك صورة معبرة تماما عن مجرى تلك المفاوضات الخطيرة. التى يبيح فيها السادات لنفسه حق التحدث بمفرده باسم مصر كلها. مع «صديقه» هنرى كيسنجر اليهودى الصهيونى المتعصب لإسرائيل والذى طار صوابه من ضراوة المقاتل المصرى ضد إسرائيل طوال الحرب. هكذا إذن يرى السادات أن مصر يكفيها أن تتكرم إسرائيل عليها بالسماح لها بوجود ثلاثين دبابة فى أراضى مصرية حررها الجيش المصرى فعلا فى سيناء. أرض ـ تبلغ مساحتها ألف وثمانمائة كيلو متر مربع.. أى فى المتوسط دبابة واحدة فى كل ستين كيلو مترا.. !

هكذا استمرت إذن الصورة المروعة للمفاوضات.. وكل ما يركز السادات عليه خلالها هو كيفية تجميل الصورة الفادحة لهذا الاتفاق الخطير عندما تحين لحظة إعلانه.. !

من هنا يسجل كيسنجر فى مذكراته أن السادات قال له : إن كل ما أرجوه منك مرة أخرى يا دكتور كيسنجر، هو أن تساعدنى فى شىء واحد.. فسيكون من الصعب على الترويج لهذا الاتفاق لو تبين فيما بعد إنه اتفاق إسرائيلى.. لماذا لا نخفى إذن حقيقة أن هذه شروط إسرائيلية.. وتقول أنت أنه مشروع أمريكى. فى تلك الحالة يمكن أن أوقع أنا الاتفاق عن مصر. مع جولدا مائير عن إسرائيل.. وفى تلك الحالة أيضا أستطيع أنا أن أنكر تماما أننى ألزمت مصر بخطة إسرائيلية.. ؟ !

وواضح تماما أن كيسنجر فهم على الفور مغزى رجاء السادات هذا، فقبل كل شىء كان هذا متمشيا تماما مع ما قررته إسرائيل نفسها فى مشاورتها السابقة مع كيسنجر – عندما اتفق موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى مع كيسنجر على أنه لابد من حماية السادات ضد العسكريين المصريين، لأن السادات هو الوحيد المتعاون فى مصر مع الأفكار الإسرائيلية.

وبالطبع . وافق كيسنجر فورا على رجاء السادات هذا ـ رجاء معناه أن السادات فى الواقع يرجو – وأكرر : السادات يرجو – من الولايات المتحدة أن تتبنى هى طموحات إسرائيل فى مصر والعالم العربى. لأن هذا يجعل من الأسهل الترويج لتلك الطموحات بعد ذلك. مسألة ستكون شديدة الخطورة فيما بعد على مستقبل مصر وأمنها.. بل وستؤدى إلى كوارث مروعة ضد الأمن العربى بمجموعه. فالحقيقة. هى أن هذا الرجاء من السادات يمثل تجاوبا مدهشا مع كل ما كانت إسرائيل نفسها تروج له داخل الحكومة الأمريكية قبل سنوات طويلة..!

ومرة أخرى.. يستمر السادات مع «صديقه» كيسنجر فى محاولة تجميل الصورة المروعة للاتفاق. فبالنسبة للمطالب السياسية التى تتمنى إسرائيل أن تقيد بها الإرادة المصرية.. وافق السادات على أن يتعهد باسم مصر. بتطهير وإعادة فتح قناة السويس. ووافق على التعهد بإعادة تعمير مدن قناة السويس الثلاث ـ بورسعيد والإسماعيلية والسويس – لأن هذا معناه أن يصبح سكان ومنشآت تلك المدن من الآن فصاعدا رهينة تحت رحمة إسرائيل تماما. فيما لو فكرت مصر بعد ذلك فى تحرير التسعين فى المائة الباقية من سيناء تحت الاحتلال الإسرائيلى.

إن السادات يوافق على كل هذا. وكل ما يرجوه هو ألا يتم تسجيل تلك التعهدات فى الاتفاقية المقترحة مع إسرائيل. ولكن يتم تسجيلها فى رسالة رسمية منه إلى الرئيس الأمريكى نيكسون.. وبعد ذلك يستطيع السادات أن يتفادى اتهامه بأنه أعطى تلك التعهدات إلى إسرائيل مباشرة !

وإلى أن يحدث ذلك. فإن السادات يرجو من «صديقه كيسنجر أن يتوسط لدى إسرائيل لكى تتوقف هى عن المطالبة بفتح القناة وتعمير مدنها علنا.. حتى لا تحرجه أمام العالم العربى.. ولكى يتمكن السادات من أن يقول بعد ذلك إنه يفعل كل هذا بقرارات من جانبه.. وليس استسلاما لمطالب إسرائيلية..!

بقيت مسألة المطلب الإسرائيلى بأن تتضمن اتفاقية فض الاشتباك تعهدا مصريا رسميا بإنهاء حالة الحرب. وهنا رفض السادات هذا تماما.. وكما تكشف مذكرات كيسنجر هذه. فان السادات لم يرفض هذا لأن إسرائيل مازالت تحتل تسعين بالمائة من سيناء.. ولا لأن

الجولان والضفة الغربية مازالت تحت الاحتلال الإسرائيلى. لقد رفض السادات لمجرد أن هذا سوف ينبه العالم العربى إلى فداحة ما يجرى. وبالتالى - بكلمات السادات - سوف يؤدى هذا إلى انفجار العالم العربى كله ضده.. !

مع ذلك. وحتى لا يفقد السادات رضاء «صديقه» كيسنجر.. فإن السادات يقول له : ما الذى تريده إسرائيل ؟ أن تضمن خروج مصر من الصراع العربى الإسرائيلى ؟ أن تتأكد من أننى سأمنع مصر من التحرك عسكريا مرة أخرى ضد الاحتلال الإسرائيلى ؟ إننى سأفعل هذا كله. ولكن. بدلا من أن نسمى هذا «تعهدا مصريا بإنهاء حالة الحرب ضد الاحتلال الإسرائيلى» .. أرجو أن نعدل التسمية إلى «تعهد مصر باستمرار وقف إطلاق النار مع إسرائيل»..!

وزيادة فى التأكد. ولكى تطمئن إسرائيل تماما. تطوع السادات من جانبه بتعهد جديد مدهش : لماذا لا تقوم الولايات المتحدة بمراقبة تنفيذ مصر لكل شروط تلك الاتفاقية على الجبهة المصرية ؟ إن السادات يقبل قيام طائرات استطلاع أمريكية بتصوير الجبهة المصرية فى رحلات منظمة متى يحلو لها ذلك.

وبالطبع. فإن هذا يضمن لإسرائيل إشراف الولايات المتحدة. حليفها الوحيد. على التقيد بعدم عبور الجيش المصرى مرة أخرى إلى سيناء.. وعدم وجود أى دفاع جوى مصرى فى غرب القناة.. وعدم وجود أية دبابات أو مدفعية ثقيلة يمكن أن تكدر هدوء الاحتلال الإسرائيلى المستمر فى تسعين بالمائة من سيناء.

كان هذا الذى يجرى بين كيسنجر والسادات داخل غرفة مغلقة شيئا فادحا ومروعا فى دلالته. إنه. ببساطة شديدة. تجريد مصر تماما من نتائج حرب أكتوبر. لقد صبرت مصر ست سنوات. وإعادة بناء جيشها من الصفر. واستعدت وضحت وقاتلت. وتحملت ضرب سكانها ومنشآتها المدنية. وقامت بتهجير مليون مواطن من مدن القناة. وعبأت كل مواردها وطاقتها. وأخيرا دفعت بخمس فرق من قواتها المسلحة إلى سيناء.. بالضبط لكى تمنع مصر تعرضها لمثل تلك القيود الفادحة والمهينة ضدها. لقد كانت إسرائيل من قبل أكثر من مستعدة لإعادة سيناء إلى مصر.. من قبل حرب أكتوبر.. مقابل خروج مصر من القضية القومية.

والآن تأتـــى المفارقة الكبرى. فـكل تلك القيود الفادحة التى رفضت مصر أقل منها فى ظل هزيمة ١٩٦٧. يتم الآن قبولها باســتخفاف شــديد بعد حرب ناجحة وضارية قامت بها مصر فى أكتوبر. وإســرائيل. التى فشــلت تماما فى إخراج الجيش المصرى من سيناء وإبادته خلال الحرب.. تنجح الآن فى إخراجه من ســيناء. ومنعه من دخولها بعد ذلك. من خلال «مفاوضات» غريبة ومروعة يقوم بها السادات بمفرده.. ويخفى مضمونها بالكامل حتى عن مساعديه.

وكيســنجر نفســه مذهول من حقيقة أن التنازلات الضخمة تتدحرج فى يديه بمثل تلك السرعة. وبلا جدل ولا مناقشة.

ولذلك. فإن الســادات سأل كيســنجر فى النهاية : ما تعليقك بعد أن وافقت لك على كل هذا..!

وكيســنجر نفســه لا يصدق. فكتب فى مذكراته هذه متهكما : تعليق ؟ بالطبع لم يكن لدى أى تعليق.. لأنه لم يكن لدى أى شــىء أقوله. لقد حصلت إســرائيل على ما تتمناه.. كاملا. وحصلنا نحن على ما نريده. حيث ستســجل هذه الاتفاقية لفض الاشــتباك تحرك مصر بلا رجعة. بعيدا عن السوفييت.. فى اتجاه العلاقة الحميمة مع الولايات المتحدة.

ثم يضيف كيسنجر : لم يعد أمامنا الآن سوى أن يتحول هذا الاتفاق مع السادات إلى الإطار العملى. ولذلك. فقبل أن نخرج من هذه الغرفة المغلقة لكى نعود إلى مساعدينا.. أمر السادات باستدعاء الجنرال (محمد عبد الغنى) الجمسى..

لقد كان أخر موقف سجله الجمسى قبل ساعات وجيزة فى مواجهة كيسنجر هو إعلانه رفضه بالكامل لتلك الخطة الإسرائيلية لفض الاشتباك. رأى كيسنجر أنه بمثابة إعلان من العســكريين المصريين بتنصلهم الكامل.. وتبرئهم التام.. من هذا الذى يجرى بين السادات وكيسنجر.

وكان الســادات نفســه قد سأل كيســنجر قبل ذلك : «لماذا تصر إســرائيل على إزلال الجمســى إلى هذا الحد ؟» بقيودها الفادحة التى تسعى إليها ضد الجيش المصرى. وكانت تلك الكلمات تمثل فى الواقع إقرارا من السادات بمعرفته التامة لخطورة ما تريده إسرائيل.

أمـا الآن. وبعـد أن قبل السـادات كل ما رفضه اللواء الجمسـى من قبـل. فإنه يأمر باستدعاء الجمسى لكى يتحدث إليه هنا. فى هذه الغرفة نفسها. وأمام وزير خارجية دولة أجنبية هو هنرى كيسنجر. اليهودى الصهيونى المتعصب لإسرائيل.

وطبقا لما يرويه كيسـنجر فى مذكرته هذه. فإن السـادات قال للجمسى أمامه : اسمع ياجمسـى.. إن الدكتور كيسـنجر وأنا اتفقنا على كيفية المضى قدما نحو إبرام هذا الاتفاق لفض الاشتباك. وأنت.. ياجمسى.. سوف توقع الاتفاق» ..!

وهنا بالضبط يكاد الشـعور بالنشـوة والانتصار الكامل يقفز من بين سطور كيسنجر فى مذكراته. فها هو ذا السـادات يعطى أمرا مباشـرا إلى رئيس أركان حرب القوات المسـلحة المصرية. بالتوقيع على اتفاق رفضته تلك القوات لتوها قبل سـاعتين. إن كيسنجر. خلال سـاعات قليلة من الآن. سـوف يطير إلى إسرائيل.. حيث سـينقل تلك الصورة التى رآها أمامه إلى أصدقائه فى إسـرائيل بحذافيرها كاملة.. لكى يبشـرهم بأن ما عجزت إسرائيل عـن أن تفعله بالعسـكريين المصريين فى ميدان القتال.. قد فعلتـه الآن بهم خارج ميدان القتال.. !

ولذلك فإن كيسنجر يكتب فى مذكراته معلقا على تصرف السادات هذا قائلا : «وبهذا الشـكل. فإن السـادات يكون قد قمع وسحق أى احتمال لدى رئيس أركان حرب القوات المسـلحة المصرية للاعتراض أو المقاومة.. وذلك من قبل حتى أن يعطى السـادات للجمسى أى فرصة لمعرفة أى شىء مما اتفقنا عليه» ! !

لقـد انتقل الاثنان. كيسـنجر والسـادات. إلى الغرفة الأخرى حيـث يجلس الوفدان المصرى والأمريكى فى حالة انتظار. الآن.. لم تعد هناك مفاوضات. فقد تكفل بها السادات بمفرده مع كيسـنجر داخل الغرفة المغلقة. الآن فقط اجتماع للتنفيذ.. ولتفريغ الاتفاق العام فى صياغات محددة.

وترك السـادات لكيسـنجر مهمة أن يتلو هو على الحاضرين ما تم الإتفاق عليه بشـأن القيود على الجيش المصرى. ولكى لا ينسى كيسنجر فإن السادات يذكره بأن يحرص على ذكر مسألة أن هذا ليس مشروعا إسرائيليا.. وإنما هو مشروع أمريكى.. !

بالطبع.. كيسنجر لا ينسى.. فهو حريص على رد الجميل للسادات.

لكن. عندما طلب السـادات من كيسنجر العمل على عدم نشر تلك القيود على الجيش المصرى. والاحتفاظ بها سـرية، كان كيسنجر أكثر ذكاء. إن إسرائيل يهمها أولا أن يقبل السـادات بطلباتها وشـروطها المهينة والفادحة ضد الجيش المصرى. ولكن، بعد أن تم هذا فعلا، فإن ما يهم إسـرائيل بعد ذلك هو إذاعة ونشـر ما قبله السـادات فعلا على العالم كله. فمن ناحية، سـوف يؤدى هذا إلى الوقيعة الكاملة بين مصر والعالم العربى - خاصة سـوريا - لأنه سيكشـف للجميع إلى أى مدى انفصل السـادات عن الموقف العربى المتفق عليه فى مؤتمر قمة الجزائر قبل أسابيع قليلة. ومن ناحية أخرى.. لكى يصبح هذا الاتفاق الإسرائيلى نفسه مع السادات ورقة ضغط ضخمة على سوريا تمنعها من أن تطمح إلى اتفاق مختلف. من هنا، قال كيسـنجر للسـادات أمام الوفد المصرى: إننى أحذرك مقدما من أن إسرائيل سوف تنشر وتفشى بنود هذا الاتفاق..

ورد السادات قائلا : لا يهم أن تنشره إسرائيل.. المهم ألا تنشره الولايات المتحدة..!

وهكذا تم إبلاغ الوفد المصرى بالاتفاق الذى سـيحول مجرى الصراع العربى الإسرائيلى كله بشـكل فادح.. ولم يعد هناك سـوى الصياغة التفصيلية، التى كلف بها وفد مشـترك صغير يجتمع فى فندق كتاراكت الجديد بأسوان.

وهنا يسـجل كيسـنجر فى مذكراته : «لم يكن الوفد المصرى سعيدا على الإطلاق بقرار السـادات تقديم كل التنازلات إلى إسرائيل. إن إسماعيل فهمى، وزير الخارجية، عبر عن ذلـك بطريقة حذرة. أما الجنرال محمد عبد الغنى الجمسـى، رئيس أركان حرب القوات المسـلحة المصرية، فقد كان أكثر تحفظا وبرودا فى التعبير عن تعاسته الكاملة مما يجرى. إن الجمسـى كان يشعر بالمرارة العميقة بوجه خاص من تعهد السادات بسحب كل شبكة صواريخ الدفاع الجوى المصرى من المنطقة غرب القناة. وبعمق عشرين كيلو مترا إلى الغرب من قناة السويس».

وكمـا تبـين فيما بعد، فإن أحـد أعضاء الوفد الأمريكى لاحظ أن الجمسـى كان يبذل مجهودا ضخما للسـيطرة على أعصابه ومشـاعره.. بحيث إنه فى إحدى اللحظات نهض

لكى يخلو إلى نفســه قليلا بجوار النافذة.. حيث فرت من عينه دمعة.. مســحها الجمسى بسرعة.. متظاهرا بأنه لم يحدث شىء.

لقد كانت تلك اللحظة وحدها تسـجل المأســاة المروعة كلهــا فيما يجرى. فالمحاربون المقاتلون هم وحدهم الذين يعرفون مدى التضحيات الجســيمة التى تحملتها مصر من أجل إقامة حائط الصواريخ هذا بالذات غرب القناة سنة ١٩٧٠. والذى عبر الجيش المصرى فى حمايته سنة ١٩٧٣.

المحاربــون وحدهم يعرفون أن المعركة كلها بين مصر وإســرائيل تركزت فى الأشــهر الســتة الأخيرة من حرب الاســتنزاف على شــىء واحد : هل تنجح مصر. أو لا تنجح. فى إقامة حائطها الصاروخى هذا ؟ إن إســرائيل فعلت كل ما فى وســعها لكى تمنع مصر بــأى ثمن من إقامة حائــط الصواريخ هذا فى حينها. لقد بلغت وحشــية الغارات الجوية الإســرائيلية أقصاها مع كل دفعة جديدة يقوم بها المصريون لتلك الشــبكة الصاروخية فى اتجاه قناة الســويس. وحشية عبرت عنها كثافة تلك الغارات الإسرائيلية. التى بلغت فى المتوســط أربعا وســبعين غارة جوية فى اليوم الواحد.. كانت إسرائيل تلقى خلالها عشرة آلاف طــن متفجــرات يوميا. من القنابل على كتائب الصواريخ المصرية المتقدمة هذه. وفى الغارة الواحدة كانت إسرائيل تحشد ضد مصر مائة وأربعين طائرة فى المتوسط. وفى يومى ١٤ و ١٥ أبريل سنة ١٩٧٠ فقط ألقت إسرائيل ما يعادل تأثير قنبلة ذرية زنة ٢٠ ألف طن فى مدافع الصواريخ المصرية هذه. أملا فى كسر الإرادة المصرية. بلا جدوى.

ولأن الصراع حول حائط الصواريخ هذا كان يلخص فى الواقع جوهر الصراع العربى الإسرائيلى كله.. فهو صراع إرادة ضد إرادة.. لذلك فإن جمال عبد الناصر لم يستسلم وقتها مطلقا لهذا الابتزاز الإسرائيلى الوحشى. وعلى امتداد الأربعين يوما الأخيرة فى حرب الاستنزاف سنة ١٩٧٠. كانت مصــر تنفق مليون جنيه يوميا على إقامة حائط الصواريخ هذا. وكلما أبادت الغارات الإســرائيلية كتيبة من المهندســين والضبــاط المصريين. تقدمت كتيبة أخرى فــورا. وفى النهاية فرضت مصر إرادتها فى الميدان. بحيث اضطر وزير الخارجية الإســرائيلى وقتها إلى أن يصرخ علنا مســتغيثا بأمريكا وهو يقول : إن سلاح الطيران الإسرائيلى قد بدأ يتآكل.. ويتلاشى..

كانت تلك الاستغاثة بعد «أسبوع تساقط طائرات الفانتوم» الشهير فى يوليو سنة ١٩٧٠. الأمر الذى أدى فى النهاية إلى أن تقبل إسرائيل فى حينها. صاغرة. بمبادرة روجرز.. التى اتجهت بها الولايات المتحدة نحو التسوية الشاملة لأول مرة.

المحاربون هم إذن. قبل غيرهم. الذين يعرفون قدر الدماء والتضحيات والأرواح التى بذلتها مصر لإقامة حائط الصواريخ هذا. ويعرفون أيضا أنهم عبروا إلى سيناء فى حمايته أخيرا. ويعرفون فى النهاية معنى أن تذهب تلك التضحيات هدرا.. الآن.

على أى حال. لقد اتفق كيسنجر مع السادات على أن يجتمعا من جديد بعد الظهر على انفراد.. حيث يكون قد تم وضع الصياغات التنفيذية للاتفاق - لكى يطير به كيسنجر إلى إسرائيل فى نفس الليلة.

ومن طائرة كيسنجر. الرابضة فى مطار أسوان. وقع تطور آخر. لقد تم إبلاغه من مكتبه فى واشنطن بمضمون رسالة سرية تلقتها الحكومة الأمريكية من المملكة العربية السعودية تحدد من جديد الموقف السعودى.

إن الملك فيصل يحذر الولايات المتحدة من خطورة ما تفعله الآن. فالمعلومات المتاحة تشير إلى احتمال أن تتمخض المباحثات مع السادات عن اتفاق جزئى منفرد لفض الاشتباك فى سيناء. فإذا حدث هذا فعلا.. فإن السعودية تحذر الولايات المتحدة من توقع نهاية مبكرة لحظر البترول العربى كما يتصور نيكسون. إن السعودية ترى - هكذا مضت الرسالة الرسمية - إن أى اتفاق جزئى لفض الاشتباك فى سيناء معناه فى الواقع تدعيم وتقوية وتثبيت الاحتلال الإسرائيلى لكل الأراضى العربية. بما فيها التسعين بالمائة الباقية من سيناء نفسها. إن الاحتلال الإسرائيلى سيصبح. لو تم هذا الاتفاق الجزئى. محتميا وراء حزام من الأراضى منزوعة السلاح فى سيناء.. وقوات من الأمم المتحدة.. وبذلك فإن الموقف العربى. وفى مقدمته موقف مصر نفسها. سيصبح أضعف تماما فى مواجهة الاحتلال الإسرائيلى.. مما كانت عليه قبل حرب أكتوبر.

لذلك فإن السعودية تكرر موقفها للولايات المتحدة : إن حظر البترول العربى لن يتم رفعه إلا إذا كان هناك «دليل ملموس وواضح» على الالتزام الإسرائيلى بالانسحاب الشامل

«فورا وبلا تأخير» .. فضلا عن الالتزام بالحقوق الفلسطينية ضمن التسوية الشاملة.

لقد جاءت تلك الرسالة السرية بمثابة القنبلة. واعتبرها كيسنجر نذير شؤم ونحس بالغين.. ولذلك فإنه نقل انزعاجه فورا إلى السادات بمجرد أن التقى به فى الساعة الخامسة بعد الظهر.

ولكن السادات نصح «صديقه» كيسنجر بألا يهتم.. !

وانزعج كيسنجر أكثر. كيف لا يهتم.. بينما الولايات المتحدة كلها.. من أصغر مواطن إلى الرئيس نيكسون.. ترتعش بردا من حظر البترول.. والرئيس نيكسون مستعد لعمل أى شىء فى سبيل إنهاء الحظر.. بعد أن فشل التهديد العسكرى الذى أراد به وزير الدفاع الأمريكى قبل أسبوع أن يخيف دول البترول العربى..؟!

إن معنى هذا التحذير السعودى ببساطة هو أن دول البترول العربى مستعدة للذهاب فى المواجهة مع أمريكا إلى أخر مدى.. التزاما منها بتحقيق الانسحاب الإسرائيلى الشامل.. والحقوق الفلسطينية.

لكن السادات يصر. مرة أخرى. على طمأنة «صديقه كيسنجر.. قائلا : اسمع يا دكتور.. أنا الذى سأنهى لكم حظر البترول هذا.. لا الملك فيصل ولا السعودية ولا أى دولة عربية أخرى.. نحن اليوم فى ١٤ يناير. وأنا أعدك بأنه خلال أسبوعين من الآن. أى قبل ٢٨ يناير الحالى. سيتم إنهاء حظر البترول هذا. إننى سأسافر إلى السعودية بمجرد توقيع اتفاق فض الاشتباك هذا مع إسرائيل.. وسأتكفل بهذا الأمر.. !

ومرة أخرى كان هذا الأمر مروعا تماما.. أن ينفصل السادات إلى هذا المدى عن سلاح البترول العربى الذى تم استخدامه لمساندة المقاتل المصرى فى سيناء والسورى فى الجولان.. ضد الاحتلال الإسرائيلى. والنقطة الأساسية هى : إذا كان السادات يبيح لنفسه قبول تعهدات فادحة ضد أمن مصر.. فكيف يبيح لنفسه التعهد بأشياء هى فى صميم حقوق السيادة. والمصالح القومية. لدول عربية أخرى؟!.

بالطبع.. ربما كان هناك احتمال بأن السادات يناور.. حتى ولو كانت المناورة عمياء

وفاشلة من أساسها. لكن السادات نفسه أثبت أنه جاد تماما فى تعهده هذا من سياق الخدمات التالية التى بدا يطلبها من «الصديق» كيسنجر.

كانت الخدمة الأولى التى يرجوها السادات هى أن يساعده كيسنجر. وإسرائيل بالطبع. فى عدم إفشاء حقيقة التنازلات الفادحة التى أعطاها لإسرائيل.. على الأقل إلى أن يتم التوقيع الرسمى بينه وبين إسرائيل على هذا الاتفاق. والسبب فى احتياج السادات إلى هذه «الخدمة» هو أنه يريد مفاجأة العالم العربى بأمر واقع حتى لا تطلب منه التراجع..!.

الخدمة الثانية هى أنه. طالما أن إسرائيل ستصمم فى النهاية على إفشاء ونشر تعهد السادات وتنازلاته لها.. فإن السادات يرجو ألا تفعل إسرائيل ذلك إلا بعد أن يعود هو - أى السادات - من جولته المقررة فى السعودية والدول العربية الأخرى. إن من الواضح أن السادات يتوقع مسبقا أن تلك العواصم العربية لو عرفت مسبقا بحجم التنازلات والتعهدات التى أعطاها هو لإسرائيل.. فربما ترفض استقباله أساسا.. ومن ثم لا تصبح أمامه فرصة لحثها على إنهاء حظر البترول.

الخدمة الثالثة التى يطلبها السادات من «الصديق» كيسنجر. هى أنه من الأفضل أن تسرب إسرائيل أنباء تنازلات السادات لها من خلال وسيلة تسمح له بإنكارها.. كأن تفعل ذلك من خلال جلسة سرية للكنيست الإسرائيلى.. مثلا.. !

«الخدمة الرابعة. التى يطلبها السادات من «الصديق» كيسنجر هى : لماذا لا تقيم الولايات المتحدة قناة اتصال أخرى معه - أى مع السادات - تنظمها المخابرات الأمريكية»؟!

وهنا يفسر السادات هذا الطلب الغريب لكيسنجر بقوله : إننى يا دكتور.. أريد أن أتبادل معكم الأفكار بشأن تعاوننا فى المستقبل.. !

إن السفارات ووزارات الخارجية إذا كان قد تم اختراعها. فأساسا لكى تكون أداة للاتصال بين الدول وبعضها البعض.. ولكن السادات يريد قناة اتصال أخرى.. لا يراه فيها سفير.. ولا وزير خارجية.. !

وهكذا.. طار كيسنجر إلى إسرائيل.. لكى ينقل إليها كل هذه البشائر المدوية.. عن السادات فى مصر..!

ولقد وصل كيسنجر إلى إسرائيل فى الساعة الحادية عشرة مساء الاثنين - ١٤ يناير (١٩٧٤). وفى جناحه بفندق الملك داود بالقدس. عقد كيسنجر اجتماعا تمهيديا فى منتصف الليل.. لمراجعة الموقف مع أبا أيبان وزير الخارجية الإسرائيلى.. وسيجما دينتز السفير الإسرائيلى فى واشنطن ـ وكلاهما عضو فى فريق المفاوضات الإسرائيلية لفض الاشتباك..

وبدأ كيسنجر يشرح لهما بشائره المدوية عن السادات فى مصر. إن السادات وافق على أن تستمر إسرائيل فى احتلالها لتسعين بالمائة من سيناء بما فيها المضايق. والسادات وافق على سحب كل القوات المسلحة المصرية التى عبرت إلى سيناء نتيجة لحرب أكتوبر.. والسادات وافق على منع الجيش المصرى من العودة مرة أخرى إلى أرضه المحررة فى سيناء. والسادات وافق على منع أية أسلحة مصرية ثقيلة فى الجزء المحرر من سيناء.. وأيضا فى الضفة الغربية لقناة السويس بعمق ثلاثين كيلو مترا. والسادات وافق على إزالة حائط الصواريخ المصرى الشهير داخل هذا العمق. والسادات وافق.. ووافق.. ووافق..

وبدأ أبا أيبان وسيجما دينتز يصابان بالذهول..!

إن من الصحيح أن إسرائيل نفسها قررت لكيسنجر من قبل أن أملها الوحيد لتمرير مشروعها هذا هو أن يعرضه كيسنجر على السادات فى اجتماع مغلق بينهما.. من خلف ظهر العسكريين المصريين. وصحيح أن كيسنجر نفسه بدأ رحلاته المكوكية هذه لتحقيق هذا الغرض أساسا. ولكن.. مع ذلك.. لم تكن إسرائيل تتوقع أن يتعاون السادات مع كل أفكارها بمثل هذه السرعة.. ولا أن يقبلها فى مثل هذا الوقت القصير.. بغير جدل ولا مناقشة!.

لكن كيسنجر يؤكد للإسرائيليين أن هذا هو ما حدث بالضبط فى اجتماعه المغلق فى أسوان. لقد أعطى السادات لإسرائيل كل ما تريده.. وأكثر !

وعندما رأى كيسنجر أن أبا أيبان وسيجما دينتز مازالا مذهولين من هذه البشائر

المدوية عن السادات فى مصر.. أراد أن يذهلهما أكثر وأكثر.. فقال لهما : هل تتخيلان أن السادات وافق على الالتزام بسحب كل الأسلحة المصرية الثقيلة من سيناء. بما فى ذلك السبعمائة وعشرين دبابة الموجودة الآن للجيش المصرى هناك. إن السادات وافق على سحبها تماما. وكل ما يرجوه هو أن تسمحوا له بثلاثين دبابة فقط؟!!

وكاد سيجما دينتز يطير من على الأرض من هول المفاجأة. فسأل كيسنجر بذهول : هل يعقل أنه فعل ذلك ؟

وعاد كيسنجر يؤكد لصديقه الإسرائيلى دينتز أن هذا هو ما حدث.

سأله دينتز وهو مازال غير مصدق : هل تقصد حقا أن السادات لم يطلب سوى ثلاثين دبابة فى سيناء ؟ هل تعنى أنه لم يبدأ طلباته معك بثلاثمائة دبابة مثلا.. ولكن بمجرد ثلاثين ؟ !

نعم. هذا هو ما حدث بالضبط. السادات يرجو أن تسمح إسرائيل لمصر بالاحتفاظ بثلاثين دبابة فقط.. فى كل الأرض التى حررها الجيش المصرى فى سيناء. والتى تصل إلى نحو ٢٨٠٠ كيلو متر مربع ـ أى بمتوسط دبابة واحدة فى كل ستين كيلو مترا ! وكل هذا فى الوقت الذى توجد فيه لمصر فعلا ٧٢٠ دبابة فى سيناء..!

ومرة أخرى لم يكد أبا أيبان وسيجما دينتز يصدقان ما يرويه لهما كيسنجر عن تنازلات السادات لإسرائيل. وهنا يكتب كيسنجر. فى مذكراته هذه. معلقا : «إن الإسرائيليين لديهم مبدأ أساسى ثابت فى التفاوض. وهو أن يأخذوا كل تنازلات يحصلون عليها كما لو كان مجرد شىء مفروغ منه ومن حق إسرائيل أن تحصل عليه. ولكن. مع ضخامة التنازلات التى أعطاها السادات لإسرائيل. فإن أبا أيبان وسيجما دينتز خالفا هذا المبدأ لأول مرة.. حيث اعترف لى الاثنان فورا بدهشتهما الكاملة من كل هذا التقدم – مع السادات – وقد تم إحرازه فى مثل تلك الفترة القصيرة. وحيث إنهما نتاج لبلد ديمقراطى يعيش فى حرية. فإنهما حتى تلك اللحظة لم يكن لديهما. بعد. أى إطار يدركان منه مدى الإيماءات الجارفة والشاملة والكاسحة. التى تستطيع إسرائيل أن تحصل عليها من نظام استبدادى وديكتاتورى. وهى السمات التى يتصف بها سلوك السادات. إن

الإسرائيليين أدهشهم ضخامة تلك الإيماءات الجارفة التى أعطاها لهم السادات فى هذه المرة، وستظل تدهشهم فيما بعد. مرة بعد مرة بعد مرة» !

وبرغم أن كلمات كيسنجر هذه واضحة تماما بما فيه الكفاية. فإننا لو عريناها وجردناها من رتوشها الدبلوماسية. نرى فورا أن كيسنجر يريد أن يقول ما يلى : إن من حسن حظ إسرائيل أن الذى يتعامل معها فى مصر هو السادات. الذى هو فى رأى كيسنجر مجرد شخص مستبد يتصرف فى أقدار مصر بطريقة ديكتاتورية تماما.. ويعطى لإسرائيل كل هذه التنازلات الضخمة. أو «الإيماءات الجارفة الكاسحة» بتعبير كيسنجر. إن السادات يتفاوض بمفرده.. ويقرر بمفرده.. ويتحكم فى مصير مصر وأمنها القومى بمفرده.. بعيدا عن أى مساعدين أو وزراء أو حكومة أو برلمان أو أى مؤسسة سياسية تراقب هذا الذى يجرى فى صميم الأمن القومى المصرى. ولو كان هناك من يحاسبه فى مصر. لو كانت هناك ديمقراطية. لما تجرأت إسرائيل على مصر إلى هذا الحد.. ولما استطاع السادات أن يذهب إلى هذا المدى.

هذا هو على وجه الدقة. التشخيص الذى يقرره كيسنجر عن السادات فى مذكراته بوضوح غريب وقاطع.. كتفسير لما لم يفهمه احد على الإطلاق - تفسير لحصول إسرائيل على كل تلك التنازلات الفادحة من مصر.. كما لو كانت إسرائيل هى المنتصرة. ومصر دولة مهزومة.. وهو الأمر الذى يقلب تماما كل الحقائق العسكرية والسياسية للموقف فى تلك اللحظة.

إن كيسنجر لا يخبر الإسرائيليين فقط بنتائج جلساته المنفردة مع السادات. ولكنه يحلل لهم عملية اتخاذ القرار نفسها فى نظام السادات. نظام يبيح لفرد واحد أن يصبح هو مصر. ومصر هو..!.

فى مقابل ذلك.. برغم حقيقة أن كيسنجر نفسه يهودى صهيونى متعصب تماما لإسرائيل.. وبرغم إن إسرائيل نفسها تعتبره رجلها الأول فى واشنطن.. إلا أن فردا واحدا فى إسرائيل لم يكن ليجرؤ على أن يتفاوض مع كيسنجر بمفرده. لقد كان كيسنجر مضطرا فى كل مرة إلى أن يتفاوض مع إسرائيل كوفد رسمى. وكان فريق المفاوضات الإسرائيلى

مشكلا من عشرة أشخاص ترأسهم جولدا مائير رئيسة الوزراء.. ويضمون وزيرى الخارجية والدفاع ورئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلى والسفير الإسرائيلى فى واشنطن.. الخ. وحتى برغم هذا كله.. كان فريق التفاوض الاسرائيلى ملتزما بعرض ما يجرى أولا بأول على مجلس الوزراء. ثم أخيرا عرضه على الكنيست - البرلمان - الإسرائيلى.

ولم تكن إسرائيل فى ذلك تفعل شيئا مدهشا. فالواقع أننا رأينا من قبل كيف أن حافظ الأسد فى سوريا يعتصر كيسنجر تماما بأسلوب مختلف.. وكيف أن الملك فيصل فى السعودية.. وهوارى بومدين فى الجزائر.. والملك حسين فى الأردن.. كلهم يتعاملون مع كيسنجر تعامل دولة مع دولة أجنبية.. وليس تعامل صاحب عزبة مع سيد يتفضل عليه..!

من هنا يقرر كيسنجر أذن فى مذكراته أن السادات سيدهش إسرائيل مرة بعد مرة. من ضخامة التنازلات التى يقدمها إليها.. وينقل كيسنجر بعضها الآن إلى إسرائيل.

فى الصباح التالى. وردت إلى كيسنجر برقية من مكتبه فى واشنطن.. تطلب منه قطع رحلته والعودة إلى واشنطن فورا.. لكى يتلقى تعليمات جديدة من الرئيس نيكسون.

وهنا أصيب كيسنجر بالذعر.. لسببين : أولا - إن رحلته إلى واشنطن ثم العودة إلى الشرق الأوسط مرة أخرى ستستغرق ثلاثة أيام على الأقل. وهناك خطورة أكيدة على السادات خلال تلك الفترة من تسرب أنباء التنازلات الفادحة التى أعطاها لإسرائيل - الأمر الذى قد يدفع العواصم العربية إلى رفض زيارة السادات لها كما يخطط هو. وثانيا.. هناك خطورة أيضا من أن يتمكن العسكريون المصريون. ومساعدى السادات. من وقف اندفاع السادات هذا نحو إسرائيل بشكل أو بأخر.

من هنا. قرر كيسنجر أن يراوغ قليلا فى الرد على برقية واشنطن.. وفى نفس الوقت استحث الحكومة الإسرائيلية على الإسراع فى خطواتها. فالفرصة الذهبية المتاحة الآن بقبول السادات للمشروع الإسرائيلى.. يجب انتهازها بسرعة.. قبل أن تفلت.. !

ولم تكن إسرائيل فى الواقع تحتاج فى هذه المرة بالذات. إلى أية إجراءات تفاوضية.. لان كل ما جاء كيسنجر من أجله. هو وضع رتوش قليلة للتجميل على اتفاق وضعته

إسرائيل نفسها ـ على حد تعبير كيسنجر.. ولذلك.. فعندما اجتمع كيسنجر بفريق التفاوض الاسرائيلى.. بدأ حديثه إليهم بجملة تهكمية واضحة الدلالة. قال لهم فيها : أظن أنه سيكون انتصارا كبيرا لى.. لو أن إسرائيل وافقت الآن على مشروعها.. !

وبالطبع.. انفجر الوزراء الإسرائيليون ضاحكين !

ثم بدا كيسنجر يتحدث معهم عن «الخدمات» التى رجاها السادات منه. لتجميل الصورة المروعة للاتفاق. من تلك «الخدمات» أن تسمح إسرائيل لمصر بوجود عشر كتائب فقط فى الأراضى المحررة فى سيناء. بدلا من ثلاث كتائب كما اقترح المشروع الإسرائيلى الاصلى.

وهنا قال أيجال ألون نائب رئيس الوزراء الإسرائيلى لكيسنجر : تستطيع أن تخبر السادات بأننا نوافق على وجود ست كتائب فى سيناء بدلا من ثلاث.

وعندما اعترض كيسنجر. عاد أيجال ألون ليقول مرة أخرى : حسنا.. إذا كان هو يريد عشر كتائب. ونحن نقول ستا.. إذن.. دعنا نجعلها ثمانى كتائب..

وهنا تدخل موشى ديان وزير الدفاع الإسرائيلى منبها كيسنجر بقوله : ولكن.. لا تبدأ مع السادات بهذا الرقم. أبدا معه بالحديث عن ست كتائب فقط. ثم ارفعها من جانبك بعد ذلك إلى ثمانى كتائب.. !

وبالطبع. كانت فكرة موشى ديان من ذلك هى أن يساعد السادات على أن يقول لمساعديه إنه هو الآخر قد «اقتنص» التنازلات الضخمة من إسرائيل..!

وهذا هو ما حدث فعلا عندما عاد كيسنجر إلى أسوان.. حيث قبل السادات. فورا وبلا جدال ولا مناقشة. تحديد القوات المصرية فى سيناء بثمانى كتائب.. ! إن ثمانى كتائب معناها سبعة آلاف جندى فقط. فى الوقت الذى يوجد لمصر فيه فى تلك اللحظة نفسها سبعون ألف جندى فى سيناء.. عبروا إلى هناك بقوة سلاحهم .. رغم أنف إسرائيل.. ومن خلال حرب كبرى قامت بها مصر وضحت فى سبيلها.

لكن السادات لا يناقش – كما يقرر كيسنجر نفسه فى مذكراته هذه. السادات يقبل كل شىء فورا وبلا جدل أو مناقشة.. طالما هو يجلس مع «الصديق» كيسنجر على انفراد.. داخل غرفة مغلقة..

مع ذلك. كان هناك البعض من مساعدى السادات نفسه. يناقشون بحكم مسئوليتهم. إن اللواء محمد عبد الغنى الجمسى مثلا. اعترض من قبل على تعهد السادات بإزالة حائط الصواريخ المصرى الشهير غرب القناة. بعمق ثلاثين كيلو متر. وعندما قمع السادات معارضته. حاول الجمسى إنقاذ ما يمكن إنقاذه. فطلب تخفيض هذا العمق خمسة كيلو مترات.

والآن فإن السادات. داخل الغرفة المغلقة. وهو يجلس على انفراد مع «الصديق» كيسنجر.. بدأ يشكو من الجمسى.. رئيس هيئة أركان حرب القوات المسلحة المصرية.. إلى وزير الخارجية الأمريكى.. اليهودى الصهيونى المتعصب بشدة لإسرائيل.. !

إن السادات يقول لكيسنجر : إن حكاية إزالة حائط الصواريخ المصرية هذه جعلت الجمسى مهتاجا وعصبيا كما لم أراه من قبل مطلقا.. ولذلك أرجوك يا دكتور كيسنجر.. حاول معهم فى إسرائيل مرة أخرى.

قال كيسنجر : حسنا.. إننى سأحاول معهم فى هذه النقطة مرة أخرى.. ولكن.. ماذا لو رفضت إسرائيل طلب الجنرال الجمسى..؟

وهنا أجابه السادات بسرعة : طبعا سأوافق على رأى إسرائيل..!

وبالطبع. لم يكن كيسنجر محتاجا لأكثر من هذا. ولم يحصل الجمسى أبدا على الكيلو مترات الخمسة التى يريدها لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من حائط الصواريخ الشهير.

ويخرج كيسنجر من اجتماعه المغلق مع السادات. لكى يجتمع بالوفد المصرى فى فندق كتاركت بأسوان.. إن كيسنجر لم يعد الآن وسيطا بين إسرائيل ومصر.. لقد أصبح فى الواقع وسيطا بين السادات.. والوفد المصرى ! !

وبدأ أعضاء الوفد المصرى – إسماعيل فهمى ومحمد عبد الغنى الجمسى ومساعدوهما – يستمعون من كيسنجر إلى قرارات السادات. إن السادات وافق على استمرار الاحتلال الإسرائيلى لتسعين بالمائة من سيناء بما فيها مضايق سيناء الإستراتيجية. والسادات قبل بوجود قوات من الأمم المتحدة بين مصر وإسرائيل فى سيناء. والسادات قبل بسحب كل القوات المسلحة المصرية من سيناء (سبعون ألف جندى و ٩٩٤ قطعة مدفعية و ٧٢٠ دبابة).

والســادات تعهد بألا تزيد قوات مصر فى سيناء من ضالان فصاعدا عن ثمانى كتائب (أى ســبعة ألاف جندى) مجردين من أى دفاع جوى أو أســلحة ثقيلة. والســادات طلب قيام الولايات المتحدة بإجراء طلعات جوية اســتطلاعية لتصوير الجبهة فى أى وقت يحلو لها ذلك.. والسادات تعهد بإزالة حائط الصواريخ المصرى غرب القناة بعمق ثلاثين كيلو مترا.. وتعهد بإعادة تعمير مدن القناة.. الخ.

وهنا يســجل كيســنجر فى مذكراته عن هذا الاجتماع مع الوفد المصرى : «لقد كانت العملية كلها شــديدة الصعوبة على نفس الجنرال الجمســى. بل إن الجمسى. فى إحدى لحظات الاجتماع. نهض واقفا. وانصرف خارجا من قاعة الاجتماع. قائلا لى فى غضب: إن هذه الاتفاقية لم تعد بهذا الشــكل اتفاقية عســكرية. وإنما هى اتفاقية سياسية. ولكن. بعــد لحظات. عاد الجنرال الجمســى إلى الاجتماع مرة أخرى. حيــث يبدو أنه قد أعاد التفكير فى موقفه» !

لقد عاد الجمســى إذن.. ولكنه مازال يقاتل من أجل حائط الصواريخ المصرى الشــهير غــرب القناة. لقد قال الجمســى : «إن قيام مصر بســحب دفاعها الجــوى هذا - حائطها الصاروخى هذا - من غرب القناة سيكون أمرا بالغ السوء بالنسبة لكل فرد من أفراد القوات المسلحة المصرية على وجه الخصوص» .

وكان هذا أمرا صحيحا تماما. فالعسكريون المصريون يعرفون تماما حجم التضحيات التى تحملوها. وتحملتها مصر كلها معهم. لإقامة حائط الصواريخ هذا. بل إن الشــعب المصرى كله. كان يعرف تماما أن الغارات الوحشــية التى قامت بها إسرائيل ضد السكان المدنيين والمنشآت المدنية المصرية. فى نجع حمادى وأبو زعبل وبحر البقر. كانت تستهدف أساسا الضغــط على أعصاب عبد الناصر لكى يتوقف عــن محاولته بناء حائط الصواريخ هذا. لقد خرج وزير الدفاع الاســرائيلى وقتها لكى يصيح علنا : إن إســرائيل تستهدف الآن إسقاط جمــال عبد الناصر شــخصيا. لأن هذا هــو الأمل الوحيد لإرغام مصــر على قبول المطالب الإســرائيلية. وبالطبع تضامن الشــعب كله فى حينها.. متحملا التضحيات الجســيمة..

حتـــى تفرض مصر إرادتها في ميدان القتـــال.. وهكذا.. فإن النجاح أخيرا فى إقامة حائط الصواريخ هذا كان هو المعركة المجيدة الأخيرة التى قادها عبد الناصر بنفســـه قبل وفاته. وعبر الجيش المصرى كله فى حمايتها إلى سيناء فى حرب أكتوبر.

والآن يقول الجمســـى للوفد الأمريكى برئاســـة كيســـنجر : إن المدنيـــين فى مصر ربما لا يدركون تماما فداحة هذه الفقرة (فى الاتفاق الذى قبله السادات) التى تلزم مصر بسحب حائطها الصاروخى هذا.. ولكن كل فرد فى القوات المســـلحة ســـيدرك فورا.. ولن أستطيع أنا أو غيرى أن نقدم لهم سببا واحدا يبرر قبولنا بهذا التعهد..

لكن هذا لم يكن هو كل شئ !

فكيسنجر مازال يواصل إبلاغ الوفد المصرى فى الاجتماع بالتنازلات الأخرى التى قدمها له السادات فى اجتماعه المغلق معه.. !

وهنا وقف اللواء الجمسى يصرخ فى الوفد الأمريكى غاضبا : إن هذا كله يستحيل على عسكرى مصرى واحد أن يفهمه. إن لمصر الآن خمس فرق مسلحة كاملة فى سيناء.. كيف اذهب إليهم غدا وأقول لهم إن عليهم أن ينســـحبوا جميعا من ســـيناء. ليصبح لمصر هناك مجرد سبعة آلاف جندى ؟ كيف أقول لهم إن مصر.. بعد حرب ناجحة وضارية.. أصبح عليها أن تسحب كل دفاعها الجوى وحائطها الصاروخى من غرب القناة ؟ !

تلـــك كانت المأســـاة المروعة فى اتفاق فض الاشـــتباك هذا الذى قبل به الســـادات فى اجتماعه المغلق مع كيســـنجر، بعيدا عن مستشـــاريه ـ مدنيين وعســـكريين ـ بعيدا عن أى شاهد مصرى فى الواقع.. فما بالنا بمحضر مكتوب تحتفظ به الدولة المصرية..

مع ذلك.. مازال كيسنجر يتصرف كوسيط.. بين السادات.. والوفد المصرى !

فعندما ترك كيسنجر فندق كتاراكت. واتجه برفقة إسماعيل فهمى وزير الخارجية إلى استراحة السادات.. استقبله السادات. ثم سحبه من يده بمفرده. لكى يعقد معه اجتماعا مغلقا آخر.. لا يشـــترك فيه أحد ســـواهما.. وكان طبيعيا أن يحكى كيسنجر للسادات عن ثورة الجمسى.

وهنا بدأ السادات يشكو إلى «صديقه» كيسنجر.. من الجمسى.. والعسكريين المصريين.. والجيش المصرى كله، قائلا : اننى احترت مع جيشى هذا.. !

لم يكن هناك فى مصر (ولا فى أى مفاوضات دولية) شيء اسمه «جيشى» .. أو «برلمانى» .. أو «حكومتى» .. أو «ضيعتى» .. الخ. لقد كان هناك فقط جيش مصر. ولم يكن من حق أحد أن يشكو من هذا الجيش إلى وزير خارجية دولة أجنبية. ومع ذلك فإن السادات أباح لنفسه هذا بالضبط، قائلا لصديقه كيسنجر : لقد واجهتنى المشاكل من قبل فى إقناع هؤلاء العسكريين المصريين بإمكانية الحرب.. والآن تواجهنى المتاعب مرة أخرى فى إقناعهم بعمل السلام مع إسرائيل.. !

والواقع إن ما كان يفعله السادات فى تلك اللحظة لم يكن على الإطلاق سلاما. أو شبه سلام. لقد كان قبولا كاملا لاتفاق فادح ومروع فى نتائجه ضد أمن مصر. لصالح الاحتلال الاسرائيلى. والسادات نفسه. بحرصه الشديد على أن تكون مفاوضاته مع كيسنجر على انفراد داخل غرفة مغلقة. وبعيدا عن أى شاهد مصرى. أو محضر مكتوب.. كان يدلل فى الواقع على إدراكه الكامل لفداحة وخطورة ما يفعله.

إنه لم ينفصل فقط عن دعم الأمم المتحدة. ودول أوروبا الغربية. والاتحاد السوفيتى. ودول عدم الانحياز.. ولم ينفصل فقط عن دعم سلاح البترول العربى.. ولا انفصل فقط عن سوريا - شريكة مصر فى حرب أكتوبر - ..ولكنه انفصل أيضا عن مساعديه هو نفسه.. وعن جيش مصر وأدائه الضارى.. وعن دور مصر وتضحياتها. وبدلا من هذا كله. فإن السادات يرجو من صديقة كيسنجر التوسط له لدى إسرائيل.. لأنه سيمضى - السادات سيمضى - إلى السلام معها.. منفصلا عن الجميع.. ومنفردا لو لزم الأمر.

إن هذا الاتفاق الأول نفسه لفض الاشتباك مع الاحتلال الاسرائيلى فى سيناء. سيكون هو الخطوة الفادحة الأولى فى طريق مروع. لقد ظلت إسرائيل حتى اللحظة الأخيرة وهى لا تصدق مطلقا أن حلمها سيتحقق أخيرا بتوقيع هذا الاتفاق. وعندما قام السادات فعلا بالتوقيع على الاتفاق - بأجزائه المعلنة وأجزائه السرية - تنفست إسرائيل الصعداء.. وطلبت من الولايات المتحدة فى نفس اللحظة صفقة أسلحة ضخمة استعدادا للمستقبل.

إن السادات قدم إلى «صديقه» كيسنجر تعهدا بعد تعهد.. ابتداء من تعهده بالقضاء على أسطورة جمال عبد الناصر (على حد تعبير السادات نفسه).. إلى تعهده بعدم رفع السلاح مرة أخرى ضد الاحتلال الإسرائيلى. والآن سرعان ما سيمضى السادات فعلا فى تنفيذ تعهداته تلك التى يشرحها كيسنجر فى مذكراته بالتفصيل.

إن التنازلات الضخمة ـ أو الإيماءات الكاسحة بتعبير كيسنجر - إلى إسرائيل سوف تتوالى سريعا. ولكن نقطة البدء فيها جميعا يسجلها هذا الاتفاق الأول لفض الاشتباك.

لقد أصبح الاحتلال الاسرائيلى - فى ظل هذا الاتفاق - يمرح فى تسعين بالمائة من سيناء كما يشاء. محتميا وراء حاجز من قوات الأمم المتحدة. وقيود فادحة على مواقع وحجم وتسليح القوات المسلحة المصرية.

وأصبحت المفارقة الكبرى فى الموضوع كله هى النتيجة السياسية التى انتهى إليها الموقف : إن الجيش المصرى الذى عبر إلى سيناء فى ظل حرب ضخمة أصابت إسرائيل بالشلل والانهيار. أصبح ممنوعا عليه الآن - بحكم اتفاق دولى - أن يعبر قناة السويس مرة أخرى ويعود إلى أرضه فى سيناء.. وكأن حرب أكتوبر لم تقع على الإطلاق..!.

لم يكن هذا كل شىء. فالواقع إن السادات أمسك بالقلم.. وكتب اغرب رسالة على الإطلاق فى تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى. رسالة شديدة الود. وتاريخها هو الخميس ١٧ يناير ١٩٧٤. يبدأها السادات بما يلى : «عزيزتى. مس جولدا..»!.

إنها أول رسالة خطيه من مسئول سياسى مصرى منذ قيام إسرائيل فى المنطقة كدولة. والأخطر من ذلك إنها موجهة من السادات. بصفته رئيسا لمصر. أكبر دولة عربية. إلى رئيسة وزراء إسرائيل - التى تحتل فى تلك اللحظة ذاتها تسعين بالمائة من سيناء. فضلا عن الأراضى العربية الأخرى.

ومرة أخرى. كان السادات يدرك تماما خطورة ما يفعله. ولذلك فإنه ناول الرسالة الخطية منه إلى «صديقه» كيسنجر لكى يحملها إلى رئيسة وزراء إسرائيل.. مستحلفا إياه بأن يحتفظ بسرية تلك الرسالة الكاملة.. لأن السادات نفسه سيخفى أمرها تماما عن «وزرائه» .. و «برلمانه» .. و «حكومته» .. و «جيشه» .. و «وشعبه» .. !

ثم خرج الســادات إلى الصحفيين لكى يعانق كيســنجر أمام كاميراتهم. وهو يقول له : إنك لست صديقى فقط.. إنك من الآن فصاعدا.. أخى هنرى.. !

وبالطبــع.. لم يكن الســادات يعرف بعد. رأى كيســنجر فيه : الــذى قاله لآبا أيبان وسيجما دينتز فى إسرائيل قبل يوم واحد.

فى الواقع.. إن الســادات لم يكن يعرف أشــياء عديدة.. ولذلك ستدفع مصر كلها ثمن ذلك.. مضاعفا.

❑❑❑❑

الجزء الثالث

السلام المصرى

"إن مصر لا تستطيع اســتعارة أمنها من قصاصات ورق توقعها مع الآخرين. لأننا لا نستطيع أن نحول الذئب أمامنا إلى حمل بمجرد أن نعزف له قطعة من الموسيقى!"

الفصل السادس

جوهر الأمن المصرى ومعنى السلام

السياسة الخارجية لمصر.. مكتوبة على خريطتها.

ومن النظرة الأولى للخريطة. نستطيع أن نحدد على وجه الدقة : في أى اتجاه يجب أن تسير السياسة المصرية ؟

من هم حلفاؤنا.. ومن أين يأتى الخطر ضدها ؟

وقــراءة الخريطة المصرية.. تحدد علــى الفور حقيقة جوهرية : إن الحياة كانت تأتينا من الجنوب.. والموت يأتينا من الشرق.

إن الحدود الغربية. مع ليبيا. هى مصفاة متقدمة ضد الخطر إذا فكر فى المجىء غربا.. والنموذج الأخير لذلك هو روميل. الذى قاد غزوا نازيا ألمانيا لاحتلال مصر.. فهزم فى العالمين.

والحدود الشــمالية. وهى البحر الأبيــض. تكفل مصفاة أخرى. تجعل الهجوم بحرا على مصر ممكنا دائما.. ولكن انتصار هذا الهجوم. أمام قوة برية. هو أقل إغراء من بدائل أخرى.

والحدود الجنوبية لمصر. يأتى منها النيل. والباب الجنوبى لوادى النيل. ولكن تحالفا من الجغرافيا والتاريخ.. جعل هذا الباب مأمونا دائما.

لا يبقى إذن سوى الحدود الشرقية..

وإذا كان النيل يأتى إلى مصر من الجنوب. حاملا معه الحياة. فإن الخطر فى تاريخ مصر كان يأتى دائما من الشرق. حاملا تهديد الموت.

وسواء كان هذا الخطر. هو الهكسوس. أو الصليبيين. أو إسرائيل. فإن الحقيقة الجوهرية فى تاريخ مصر تبقى هى نفسها فى كل حالة : إن الدفاع عن مصر يبدأ من فلسطين.

وسواء كان الذى يواجهنا فى فلسطين هو هولاكو. أم لويس التاسع. أم مناحم بيجن. فان خلاصة التاريخ المصرى تتكرر أمامنا دائما : إن أمن مصر يبدأ من فلسطين.

إن الخطــر ضــد مصر يأتى دائما من هناك.. ومواجهته دائما يجب أن تبدأ من هناك.. وبقدر تنبه مصر إلى هذا الدرس الأساسى.. كانت مصر تعيش حرة مستقلة.. وبقدر إغفالنا لتلك الحقيقة. كان يبدأ احتلالها واستعبادها.

ولقــد حــدث أن تنبهنــا كثيرا إلى هذا الــدرس. بغير أن يعتمد ذلك علــى نوع النظام السياسى القائم فى القاهرة.

إن قوة مصر اقترنت دائما بعصور محددة. عصور نستطيع أن نتحدث عنها تعسفيا على أساس حكام محددين : رمسيس الأول..تحتمس الثالث.. صلاح الدين.. الظاهر بيبرس.. الخ.. الخ..

إن السـر فى قوة هؤلاء جميعا. وهم هنا رمز لقوة مصر. هو أنهم لم يجلسوا القرفصاء فـى القاهرة انتظارا لقدوم الخطر.. ولكنهم كانوا بعيدى النظر بحيث ذهبوا إلى هناك. إلى فلسطين. لمواجهة الخطر هناك.

وفـى المـرات القليلة التى كان يغيب فيها هذا الإحسـاس الغريزى بحدود أمن مصر.. كانت مصر تدفع فى النهاية ثمنا غاليا.

فعندما لم تذهب مصر لملاقاة الخطر الصليبى فى فلسطين ومحاربته هناك.. وجدت أن ذلك الخطر قد جاء إليها بقدميه ليحاربها هنا. وكانت النتيجة هى أن الذين دفعوا الثمن مضاعفا هم أبناء مصر نفسها. الذين اكتشفوا ذات صباح إن عليهم أن يخوضوا حربهم ضد الخطر من شـارع إلى شـارع داخل مدينة المنصورة ودمياط.. لأنهم ترددوا فى أن يواجهوا الخطر فى نقطة ارتكازه هناك فى فلسطين.

تلك إذن هى خلاصة التاريخ : إن خط الدفاع الأول عن مصر هو فلسطين.

أكثر من ذلك : إن مصير مصر نفسها يتقرر فى فلسطين.

كانت تلك هى خلاصة التاريخ فى عهد المبارزة بالسـيوف.. ومازالت هى نفسـها فى عهد المبارزة بالصواريخ.

وبصرف النظر عما نريده ولا نريده. وسواء كنا نكره تلك الحقيقة أو نحبها. فإن تحديد مصير فلسطين كان دائما هو الخطوة الأولى لتحديد مصير مصر.

تلـك حقيقـة يمليهـا موقع مصر، بغـير أن يكون لياسـر عرفات أو منظمـة التحرير الفلسطينية. أو القضية الفلسطينية كلها. دخل فى الموضوع.

القضية هى : أمن مصر

وفى تبريرنا لالتزامات مصر نحو فلسـطين فإننا ذكرنا دائما كل الأسـباب. إلا السبب الوحيد الجوهرى : الضرورة.. المصلحة.. ضرورة المصلحة.

إنها المصلحة الحيوية العليا التى يجب دائما أن تكون جزءا من الهواء الذى يتنفسه كل مصرى. يعيش فى أسوان أو فى الإسكندرية. أو السويس أو كفر البطيخ.

ما هى المصلحة ؟

إنها رفاهية الشعب وأمن الدولة - وتلك هى أهم المصالح على الإطلاق.

وفى سبيل تلك المصلحة تلجأ الدولة - كل دولة - إلى استخدام قوتها المسلحة وخوض الحرب لو لزم الأمر.

وفى التاريخ المعاصر هناك ألف نموذج ونموذج على تصميم كل شعب على افتداء مصالحه بأرواحه.

فى سنة ١٩٦٢ مثلا.. فرضت الولايات المتحدة حصارا بحريا على كوبا. وهددت العالم كله بحرب ذرية لا تبقى ولا تذر إذا لم يسحب الاتحاد السوفيتى صواريخه من كوبا.

إن الولايات المتحدة هى أقوى وأغنى دولة فى العالم.. وهى قوة تمتلك من القنابل الذرية والهيدروجينية ما يكفى لتدمير العالم كله عدة مرات.

وكوبا مجرد جزيرة صغيرة تفصلها مياه المحيط عن الولايات المتحدة. وهى دولة مستقلة. وتعرضت لمحاولة غزو مولته أمريكا نفسها قبل عدة أشهر.

ماذا تساوى إذن حفنة من الصواريخ تحتفظ بها تلك الدولة الصغيرة فوق جزيرتها؟ هل هى تساوى كل هذا الانزعاج من أمريكا ؟ كل هذا الحسم ؟ كل هذا الحصار.. وتعبئة نصف مليون جندى.. وإعلان حالة الطوارئ.. وتهديد الدنيا كلها ببدء الحرب العالمية الثالثة؟.

نعم. تساوى.

فالقضية هنا. لم تكن هى : إن كوبا سوف تقوم بغزو الولايات المتحدة. فى الواقع أن الولايات المتحدة تحتل قاعدة عسكرية فى كوبا نفسها. على مساحة ٤٥ ميلا مربعا. وبها ميناء ترسو فيها سفن حربية أمريكية. ومطارات تربض على أرضها طائرات حربية أمريكية. ويعيش فيها بصفة دائمة ستة آلاف رجل أمريكى مسلح.

والقضيـة لم تكـن هى: أن الصواريـخ على أرض كوبا موجودة بهـدف الهجوم على أمريكا – لان الأمر كله يتعلق بمجرد أربعين صاروخا..

هل تستحق أربعين صاروخا. فوق جزيرة صغيرة فى المحيط. أن تغامر الولايات المتحدة بدخول حرب ذرية ضد الاتحاد السـوفيتى ؟ هل تستحق أن توجه إنذارا علنيا محددا إلى الاتحاد السوفيتى لكى يسحب صواريخه من كوبا فى الحال وإلا فليتحمل النتائج ؟

نعم. تستحق.

فالقضية قضية أمن. أمن المواطن الأمريكى، الذى تسـتطيع تلك الصواريخ، من مكانها فوق جزيرة كوبا أن تهدده.

إن تلك الصواريخ قد لا تستخدم أبدا، وقد لا تتحول إلى قوة فعاله أبدا. ومع ذلك فإن نوع الخطر الذى رأته الولايات المتحدة.. كان أهم من حجمه.

والخطر هو : إن الاتحاد السـوفيتى يضع فى كوبا صواريخ.. تجعل المواطن الأمريكى فى ولاية فلوريدا تحت رحمتها. لهذا يجب سحب هذه الصواريخ فورا.

و.. تم سحب الصواريخ. فورا.

ذلك لأن هدف السياسة الخارجية لكل دولة هو حماية الدولة.. حماية رفاهيتها وأمنها وأرواح أبنائها. ومن وقت لأخر تكتشف كل دولة أن عليها عند الضرورة أن تضحى بأرواح جزء من أبنائها لكى تحمى أرواح الباقين.

والدولة التى تهمل فى ذلك.. سرعان ما تدفع فيما بعد الثمن. مركبا..

ففى الثلاثينات. تصورت بريطانيا العظمى أن تشيكوسـلوفاكيا هى أرض بعيدة عنها. ومن ثم.. فإنها باركت بطريقة ساذجة من عورة السلام المؤقت الأبله الذى أقامه هتلر بقوة السلاح هناك.

ونتيجـة لذلك دفعت بريطانيا أرواح الملايـين من أبنائها بعد ذلك.. لأنها تأخرت فى مواجهة الخطر النازى.. فالخطر النازى الذى كان صده يحتاج إلى مجرد موقف حازم فى سنة ١٩٣٨. أصبح يحتاج إلى حرب عالمية ثانية فى سنة ١٩٣٩.

وإمبراطورية بريطانيا العظمى. التى تفكك إحساسـها بالأمن فى الثلاثينات. اضطرت

إلى أن تدفع انهيارها نفسه. ثمنا لنجاتها فى الأربعينات.

إن هذا التأخر فى أدرك جوهر الأمن، أدى إلى اختصار بريطانيا من إمبراطورية عظمى. إلى دولة من الدرجة الثانية فى أوروبا.

وعندما نشبت الحرب العالمية الثانية، فى أول سبتمبر سنة ١٩٣٩. كانت ألمانيا النازية مجرد قوة أوروبية جديدة.. أما بريطانيا فكانت إمبراطورية كبرى لا تغيب عنها الشمس. كانت مسئولة. بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عن حياة ستمائة مليون من البشر - أى ثلث الجنس البشرى فى حينها.

ومع ذلك فقد جاءت الحرب لكى تعصف بهذا كله.

إن الحرب اختصرت فى أشهر قليلة. عملية كانت قد بدأت فعلا قبلها بخمسين سنة. عملية كان جوهرها هو : عدم تنبه بريطانيا إلى التغيرات التى تتم فى ميزان القوى من تحت انفها.. ولا تراها. لقد أصبحت اليابان وأمريكا تشكلان قوة بحرية فى المحيط الباسيفيكى، وألمانيا وروسيا قوة برية فى أوروبا.

إن الذى ساهم فى نوم بريطانيا الطويل هو ثقتها الشديدة بنفسها. كقوة بحرية.. وتفريطها الشديد فى أمنها.

وفى مقابل ذلك نجد صورة عكسية فى الجانب الأمريكى.

لقد أدركت أمريكا مبكرا أن أمنها يرتبط إلى أقصى درجة بالأمن الاوروبى. وأدركت أنها ما لم تواجه العدو فى أوروبا.. فإنها ستضطر إلى مواجهته فى داخل أمريكا نفسها.

لهذا ربطت أمريكا قضيتها مبكرا بقضية الحلفاء ضد ألمانيا النازية. إنها - أولا بالسلاح ثم بالدخول رسميا كطرف محارب - ساهمت بالملايين من أرواح أبنائها. وبـ ٣٤١ بليون دولار.. من أجل كسب حرب لم تكن على أرضها.

ومن هذه التجربة. التى مثلتها الحرب العالمية الثانية، خرجت جميع الأطراف بدرس معجون بالمرارة والدمار : إن السلام لا يمكن أن يكون جزئيا، ولا منفردا.

أمريكا وحدها ترتبط الآن بتحالفات. ومعاهدات. والتزامات عسكرية. مع ٤٦ دولة!

إن تلك الالتزامات تكلفها. المال دائما والأرواح أحيانا. ولكنها البديل الوحيد.. حتى

لا تضطر إلى انتظار عدوها فى شوارع نيويورك ولوس انجلوس.

وفى منطقتنا هنا.. فى الشرق الأوسط. يختلف حجم المشكلة.. ولكن لا يختلف نوعها.. نحـن جـزء من العالم. نحن جزء منـه. والعالم اليوم أصغر جدا من عـالم أجدادنا ـ نفس أجدادنا الذين أدركوا من قبل أن الدفاع عن مصر يبدأ من فلسـطين. بل يبدأ من سـوريا. وأدركوا أن القضية الجوهرية فى جميع الأحوال هى دائما : أمن مصر !

ومصر لا يمكن أن تكون أقوى من أبنائها.

مصر ليست أقوى. ولا احكم. ولا أبعد نظرا من أبنائها.

فمصر لن تعطى إلا بقدر ما يصبه فيها أبناؤها. ومصر لن تكون قوية ومستريحة وآمنة. إلا بقدر تنبه أبنائها لاحتياجات هذا الأمن.

والخطيئة الكبرى فى حق بلدنا هى أن يتحول حراس مصر إلى قاتليها. فالناس يرغبون دائما الحياة بعيدا عن الخوف. ويرغبون فى الطمأنينة والرفاهية والأمن.

ولكـن هذا الأمن يظل مهددا ما لم تملك مصر نظرية تحدد اتجاه ومطالب وقدرات هذا الأمـن. إن السياسـة الخارجية لأى دولة يجب أن تمثل نظرية أمنهـا.. وإذا فقدت تلك السياسة نظرية أمنها.. فإنها تصبح كسفينة فى المحيط تفقد بوصلتها.

إننا نستقل سفينة من الإسكندرية أو بورسعيد أو السويس متجهين إلى ميناء آخر محدد. وعند صعودنا إلى السفينة فإن أحدا منا لا يبادر بالاطلاع على البطاقة الشخصية للقبطان. ولا شهادات الدراسة والخبرة التى تؤهله لقيادة السفينة. إننا نأتمنه على أرواحنا. بإيمان أكيد بأنه مؤهل للملاحة بالسـفينة التى تشـق طريقها وسط الأمواج والعواصف والصخور.. وإذا أخطـأ هـذا القبطان درجة واحدة فى ضبط بوصلة السـفينة.. فإن هذا يعنى بالتأكيد كارثة محققة.

نفس الشىء فى حياة الشعوب.

فـإذا أخطانا درجة واحدة فى ضبط نظرية الأمـن المصرى.. فإن هذا معناه بالتأكيد أن سـفينتنا مهددة بأفدح الأخطاء. وأن ميناء الوصـول قد يكون فيه هلاكنا بدلا من نجاحنا وسلامتنا.

وقد أخطأنا من قبل مرات عديدة.

أخطأنا أولاً فى فهم عظمة مصر وأهميتها ـ من حيث هى.. فمصر دائما، بحكم موقعها وأهميتهـا ومواردها، مطمع لكل قوة خارجية. إنها كذلك دائما، بغير أن يتوقف هذا على سلوكها.. تماما مثلما قطعة الإسفنج تمتلئ بالماء دون أن تسعى هى لذلك.

وأخطأنا فى فهم التزامات هذا الموقع.. فحينما قبلنا فى القرن الماضى قيود على قواتنا المسلحة، وصناعاتنا الوطنية، فإننا دفعنا بعدها بجيل واحد ثمنا فادحا – كان هو احتلال بريطانيا لأراضينا.

وحينما حفرنا قناة السـويس.. ولم نسـتطع ترجمة الخطر السياسى الذى يمثله وجود القناة كحقيقة جغرافية، كانت النتيجة هى أن مصر أصبحت مملوكة للقناة، بدل أن تكون القناة مملوكة لمصر.

وحينما غفلنا عن فلسطين وما يجرى فيها.. فوجئنا ذات صباح بأن دولة جديدة معادية وعدوانية قد أصبحت تدق بابنا الشرقى ـ تدقه بالقنابل والمدافع والطائرات.

لقد سـاهمت ظـروف كثيرة، وأحيانا قاهرة، فى ارتكابنا لهـذه الأخطاء – لكن العنصر المشترك بينها جميعا هو أننا لم نعى بما فيه الكفاية أهمية حدود : نظرية الأمن المصرى.

إن إسـرائيل نفسها، وجدت فى فلسـطين، كنتيجة مباشرة للثقوب التى بدأت مبكرا فى نظرية الأمن المصرية. فمن تلك الثقوب تسـربت الصهيونية أولا إلى فلسـطين. ثم ظلت لخمسين سنة تبنى دولة هناك أمام أعيننا جميعا، بغير أن ننتبه.

إننا لم ننتبه لأننا تصورنا أن فلسـطين بعيدة عنا بما فيه الكفاية – وهذه أول رصاصة قاتلة ضد نظرية الأمن المصرى.

لقد خدعتنا أصوات فى بيوتنا، تسـربت إلينا حاملة جوازات سـفر أجنبية، أو تمثل مصالح أجنبية، أو تعمل لحساب أطراف أجنبية. أصوات قالت لنا : مالكم.. وما لفلسطين؟ دعوا فلسطين للفلسطينيين.

ولكننا اكتشـفنا فى النهاية أننا لم ندع فلسطين للفلسطينيين.. وإنما أصبحت فلسطين هى إسرائيل.

لقد قامت إسرائيل.. إنها قامت فى نفس الأرض التى هددنا منها الموت دائما من قبل - حاملا أسماء عديدة. واسمه فى هذه المرة هو : إسرائيل.

ولكـن. بينمـا الخطر الذى كان يهددنا من فلسـطين سـابقا يجئ لينصـرف بعد أن نواجهه.. فإن الخطر قد جاء إلى فلسطين فى هذه المرة.. ليبقى.

فى هذه المرة هذا اسـتعمار اسـتيطانى. جاء يزرع لنفسه جذورا. ويبنى قلاعا. ويتفرغ تماما لمواجهتنا بل ويصبح هو العصا الغليظة التى تستأجرها ضدنا القوى الخارجية.

ومرة أخرى أصبحنا نسـتمع إلى أصوات جديدة تقول لنا : مالكم.. ولإسـرائيل ؟ دعوا إسرائيل للإسرائيليين!

وكانت تلك هى الرصاصة القاتلة الثانية فى نظرية الأمن المصرى.

بالطبع أصبحت إسـرائيل هناك. قائمة بالقوة المسـلحة فى فلسطين. إسرائيل هناك.. لتبقى. ربما !. ولكن تبقى. على أى نحو ؟ وفى أى حدود ؟ وضمن أى أطار ؟

إننا اكتشفنا فى لحظة أن إسرائيل تقفز إلى منطقة العوجة. وهى أرض قررت هيئة الأمم المتحدة أنها منطقة منزوعة السلاح. وفجأة استولت عليها إسرائيل بقوة السلاح.

واكتشـفنا فى لحظة تالية أنها ترسـل إلينا بشـبكات التخريب لكى تنسـف منشآت أمريكية وبريطانية بالقاهرة.. حتى تمنع تحسن علاقة مصر بأمريكا. وتمنع جلاء بريطانيا عن مصر! واكتشفنا فى لحظة تالية. أنها تمارس ضغوطا داخل الكونجرس الأمريكى. حتى تمتنع أمريكا عن المساهمة فى تمويل مشروع حيوى للاقتصاد المصرى هو السد العالى.

واكتشـفنا أنها تغزو أراضينا فى سـنة ١٩٥٦. متآمرة لحسـاب قوتين عالميتين هما بريطانيـا العظمى وفرنسـا.. واكتشـفنا أنها. حينمـا اضطرت بفعل الضغـط الأمريكى للانسـحاب من سـيناء فى سنة ١٩٥٧. فإنها ارتدت إلينا من جديد. لكى تحتل سيناء بالغزو العسكرى مرة أخرى بعد عشر سنوات.

واكتشفنا أننا. حينما بدأنا حربا للاستنزاف. لتحرير هذا الجزء المحتل من أرضنا. فإن إسرائيل جاءت إلينا لكى تضرب منشآتنا المدنية. وسكاننا المدنيين فى الداخل – فى نجع حمادى وبحر البقر.

واكتشفنا أن الثمن الأول الذى تطلبه منا إسرائيل لإيقاف تلك الغارات فى العمق المصرى هو : إسقاط عبد الناصر.. والثمن الثانى لجلاء إسرائيل من سيناء هو : نزع سلاحها.. والثمن الثالث لتعهدها بعدم الاعتداء علينا من جديد هو : تخفيض حجم وسلاح الجيش المصرى. وألا تتجاوز الحدود العسكرية المصرية شاطئ قناة السويس.. والثمن الرابع لتوقيع معاهدة صلح معها هو : فتح الأسواق المصرية أمام بضائعها.. وإلغاء التزامات مصر العربية. وإطلاق يدها فى سوريا ولبنان. والحكم بإعدام الشعب الفلسطينى.

إن إسرائيل تريد وعد بلفور آخر - من مصر - بل من العالم العربى كله !

كان وعد بلفور البريطانى يبيع للصهيونية جزءا من فلسطين.. والآن فإن وعد بلفور العربى يبيع لإسرائيل ما تبقى من فلسطين !

هذا وإلا.. لا جلاء !

ما الذى جعل الأمور تصل إلى هذه الدرجة ؟ لماذا تأخرنا هكذا فى اليقظة والتنبه ؟.. ما الذى أوصل إسرائيل، من مكان الخطر فى فلسطين، إلى احتلال أراضينا.. بل وأراضى دولتين عربيتين أخريين، هما سوريا والأردن ؟

لقد تهاون العرب فى أمنهم الشامل.. وتلك نقطة أخرى.. تعالج بالتفصيل عند الحديث عن الأمن العربى.. ولكننا الآن نتحدث عن نظرية الأمن المصرى.

هل هناك نظرية أمن مصرية ؟

إن الطرف الذى أجرى أول بحوث شاملة عن هذا الموضوع خلال هذا القرن، كان هو بريطانيا. لقد أصبحت بريطانيا تحتل مصر منذ سنة ١٨٨٢، ونتيجة لمصلحتها المباشرة فى قناة السويس ووجودها العسكرى فى مصر.. أصبح عليها أن تبلور سياسة طويلة المدى لمعنى الأمن المصرى، ليس اهتماما بمصر طبعا، ولكن حفاظا على وجودها.

وهكذا طلب مجلس الوزراء البريطانى فى سنة ١٩٠٦ من لجنة الدفاع عن الإمبراطورية بحث الأسس التفصيلية لحماية مصر عسكريا. إن اللجنة هى جهاز استشارى بريطانى

يضم أعضاء فى الوزارة وخبراء فى الجيش والبحرية. ويرأسها رئيس الوزراء البريطانى نفسه. الذى كان فى ذلك الوقت هو كامبل بانرمان.

كان أساس العمل فى اللجنة هو أن مصر لم تعد جزيرة محمية، وإن فكرة استخدام شبه جزيرة سيناء كحاجز طبيعى يمنع غزو مصر من الشرق قد سقطت، وإنه.. أيا كانت السلطة القائمة فى مصر فان مسئوليتها عن حماية قناة السويس يجب أن تمتد شرقا حتى سوريا.

هكذا طلب اللورد كتشنر المعتمد البريطانى فى مصر من وزارة الحربية البريطانية أن ترسل بعثة استكشافية لمسح صحراء سيناء فى جزئها الشرقى وكذلك غرب فلسطين. إن الدراسة التى قدمتها تلك اللجنة لم تنشر إلا فى سنة ١٩١٧ (بعد أن قامت بريطانيا باحتلال فلسطين فعلا).. وكان خطها الرئيسى هو أنه يجب فى جميع الأحوال منع وجود قوة معادية لمصر فى فلسطين لأنه» .. من غير المرغوب فيه أن تصل إلى عدو يمكن أن يجعل هذا البلد – فلسطين – قاعدة للهجوم على مصر» .

إن تلك الدراسات البريطانية المبكرة، التى انتهت فى سنة ١٩١٣، كانت هى السبب المباشر فيما بعد لتقدم بريطانيا لاحتلال فلسطين عندما نشبت الحرب العالمية الأولى، لأن الصحراء فى سيناء – لا يمكن أن تكون حدا حصينا لمصر، بل إنها يمكن أن تكون شيئا مخيفا.. والدفاع عن قناة السويس قد يبدأ من العريش، ولكن الدفاع عن مصر يجب أن يبدأ من فلسطين» .

وعندما تمكنت تركيا فى شهر فبراير سنة ١٩١٥ من التقدم بجيش كامل. قوامه عشرون ألف جندى. إلى منطقة قناة السويس.. أصبح هذا نموذجا للسهولة التى يمكن بها لجيش معادى من التقدم ببطاريات مدافعة الثقيلة عبر سيناء بسهولة أدت إلى تمكنه فعلا من ضرب القناة وضواحى مدينة الإسماعيلية.

وقتها لجأ المحللون العسكريون البريطانيون إلى استخلاص الدروس الإستراتيجية من ذلك. وكتب أحدهم (ب. فيرث) فى ابريل سنة ١٩١٥ يقول مخاطبا العسكريين البريطانيين : « .. أنا اعترف أن قناة السويس حاجز حصين.. لكنها مجرد وسيلة دفاع. وبالإضافة إلى ذلك لا

يجب أن ننسى أن القناة نفسها هى ثروة يجب حمايتها... والآن فإنكم تعاملون القناة ببساطة وكأنهـا خنـدق أمامى. أو مخفر متقدم للقلعة المصرية.. إن أى عدو يملك فلسـطين يسـتطيع بالتأكيد أن ينفذ إلى مصر.. ولو أصبحت فلسطين فى المستقبل قاعدة لدولة كبرى مجهزة بوسائل فنية حديثة. فسوف يكون انعكاس هذا شديدا على أمن قناة السويس. ومن ثم: أمن مصر».

كان هذا فى سنة ١٩١٥.

وحتى ذلك الوقت. كان الفكر العسكرى التقليدى هو أن قناة السويس هى الخط الأول للدفاع عن مصر، بدلا من وجود هذا الخط على حدود مصر بين العريش والعقبة. وكان السبب فى ذلك هو الصحراء.. لأنه أذا واجهت مصر عدوها فى خط العريش/العقبة.. فسوف تكون الصحراء فى ظهور مقاتليها. وسوف يعانون بالتالى من البعد عن قاعدتهم. وبطء خدمات النقل. ونقص المياه. فالصحـراء» قد تحميك قليلا لو كانت أمامك.. ولكنهـا تقتلك وراء مواقعك.. بينما عدوك يكون وراءه» مباشـرة بلاد كاملة مليئة بالرجال والمؤن - هى فلسـطين» ولكن سـرعان ما انهارت تماما تلك الفكرة التقليدية لأن الذى يسـتطيع أن يقتحم الحدود المصرية على خط العريش / العقبة.. يصبح قادرا على الفور على أن يهدد السويس والإسماعيلية وبورسعيد. ومن بعدها مصر كلها.

ومن هنا تم فى شـهر مايو سـنة ١٩١٦ من خطوط السكك الحديدية إلى سيناء لأول مرة - خط القنطرة إلى رمانة. وأخر من بورسعيد إلى المحمدية ثم رمانة. وكانت الفكرة فى ذلك هى التمكن من نقل الدفاع عن قناة السويس إلى شرق سيناء كخطوة أولى عاجلة.

وجاء الهجوم التركى البرى الثانى فى سـنة ١٩١٦. ثم قيام الطائرات الألمانية بقصف بورسعيد والقاهرة تأكيدا لانهيار هذا المفهوم.. وأصبح الدرس هو «إن فلسطين بالنسبة لقناة السويس تمثل تماما طنجة بالنسبة لجبل طارق» وإن «أفضل طريق لتامين قناة السويس ضد اى خطر هو بنقل الدفاع عن مصر إلى فلسطين» .. وهكذا اجتاز الجيش البريطانى رفح فى يناير سـنة ١٩١٧ لاحتلال فلسـطين لأن هذا هو «الثمن الضرورى لحماية مصر» ..وكتب المعلق العسكرى لصحيفة المانشستر جارديان يقول «إن فلسطين الآن ـ وكما كانت دائما - هى مفتاح مصر» وإن «.. كل شـىء يشـير إلى أن تلال الضفة الغربية - لنهر الأردن - هى الحامية الحقيقية لمصر ضد أى هجوم» يأتى من الشرق.

لقد حلل المعلق البريطانى هذا الدرس كاملا فى كتاب بعنوان «انجلترا وفلسطين» نشره فى نوفمبر سـنة ١٩١٨. ومع ذلك فإن هذا الدرس كان قديما فى التاريخ المصرى قدم مصر نفسـها. إن الجنرال البريطانى اللمبى اكتشف ذلك فى القرن العشرين. ونابليون الفرنسى اكتشف ذلك فى القرن التاسع عشر. والظاهر بيبرس فى القرن الثالث عشر. وصلاح الدين الأيوبى فى القرن الثانى عشـر.. ممتدين خلفا حتى رمسيس الثانى فى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وتحتمس الثالث فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

وحينما نتأمل – بامتداد هذا الشريط التاريخى الطويل – أين توجد حدود الأمن المصرى فإننا سوف نكتشف الدرس نفسه فى كل مرة.

إن الدولة المصرية. كما فهمها بطليموس الأول قبل ٢٣ قرنا. يجب أن تكون لها دائما حدود أمنه. هذه الحدود الآمنة تبدأ من برقة (فى ليبيا) غربا.. ومن فلسـطين وسـوريا شرقا.. ومن قبرص شمالا.. إلى منابع النيل جنوبا.

وليس معنى هذا أن تحكم مصر تلك البلاد.. ولكن معناه أن تحرص على عدم قيام نظام معاد لها فى تلك المنطقة. أو بكلمات أخرى. «.. الحيلولة دون قيام دولة عظمى تتاخم مصر».. لأن «سماح مصر بوجود قوة عسكرية معادية لها.. هو المقدمة الأكيدة لانهيار أمن مصر».

ويقترن ارتفاع مصر وسقوطها دائما بمدى التنبيه. أو عدم التنبه. إلى هذا الدرس الذى يقوم عليه أمن مصر.

والذى قاله بطليموس حالا بالنسبة للحدود الآمنة لمصر لم تكن مجرد اختيار. ولكنه تعبير عن الضرورة الملحة. ورمز ونتيجة لدرس معجون بالدماء من التاريخ المصرى نفسه. قبل قرون طويلة من – ومكررة الدرس نفسه فى – عصر الصواريخ والطائرات الأسرع من الصوت. وقبل ياسـر عرفات والقضية الفلسطينية وإسـرائيل. وبغير أن يكون هناك استعمار استيطانى فى فلسطين. وأيضا بغير أن تكون مدينة مصرية واحدة فى مرمى نيران الخطر.

ففى القرن الثامن عشـر قبل الميلاد فوجئت مصر بأول احتلال لها فى التاريخ. وعندما نجح الهكسـوس فى غزو أراضينا عبر سـيناء (قادمين من وسـط آسـيا). لقد تقدم الغزو الهكسوسى مكتسحا سيناء إلى داخل مصر بسرعة وفاعلية. كانت محل دهشة مرعبة عبر

عنهـا المؤرخ المصرى القديم «مانيتـون» بقوله : «لا أعلم لماذا غضبت الآلهة علينا.. وهبت ريح من الصحراء حاملة معها أناسا من عنصر بذئ. احتلوا البلاد بدون صعوبة. فاستعبدوا النساء والأطفال. وقتلوا الرجال. وحرقوا القرى» .

ولقد احتاج التخلص من هذا الغزو الهكسوسـى إلى سـنوات طويلة بعد ذلك من المقاومة والدمـاء والتضحيـات. ولم تنجح مصر فى إزالة الخطر فـى النهاية إلا بعد أن تعقبته فى فلسطين. ونجحت فى هزيمته النهائية فى معركة «شاروهن» .

ولقد أبرز هذا الغزو الأول لمصر المصدر الاساسى للخطر ضدها من الشمال الشرقى. وهو الذى سـيكون فيما بعد أكبر وأبرز الأخطار المتكـررة فى التاريخ المصرى.. بحيث أن عدم التنبه له سيكون قرينة على اضمحلال الدولة المصرية وبالتالى مقدمة إلى احتلالها.. والتنبه له ومواجهته خارج الحدود دليلا على قوة الدولة المصرية وحيويتها وتمسكها بأمنها.

ومن تلك الفترة المبكرة فهمت مصر الدرس بوضوح وقسوة. بحيث يتفق المؤرخون جميعا علـى أن أمـن مصر ارتبط بالدرس الجوهرى التالى : هاجم حتى لا تهاجم.. وانقل الحرب إلى ما وراء سيناء حتى لا تضطر إلى الحرب فى داخل وادى النيل.

وكما يسجل الدكتور جمال حمدان فى موسوعته الضخمة عن «شخصية مصر» إننا «..نجد بلا استثناء أن كل خطر خارجى يهدد الشام. يهدد مصر تلقائيا وعلى الفور. بل نكاد نقول أن مصير مصر مرتبط عضويا. تاريخيا وجغرافيا. بمصير الشام عموما وبالأخص منه فلسطين.. إن الذى يسيطر على الشام يهدد مصر استراتيجيا. بمثل ما يهددها هيدروليجيا من يسيطر على السودان. ولذلك فليس من قبيل الصدفة فقط أن معظم معارك مصر الحربية الفاصلة. سواء منها المنتصر أم المنهزم. إنما دارت على أرض الشام وفى ربوعه حسمت. ومعها حسم مصير مصر. يصدق هذا ابتداء من شـاروهن الهكسـوس. وقادش تحتمس. إلى قرقميش البابليين. وحطين صلاح الدين. وعين جالوت قطز. حتى مرج دابق الغورى. وحمص ونصيبين محمد على» .

ولا توجد بقطعة أخرى حسم فيها مصير مصر. ارتفاعا وسقوطا. وقوة وضعفا. أكثر من ارض فلسـطين والشام. ومن الهكسوس إلى الأشوريين. إلى الأسكندر الأكبر. إلى الصليبيين والمغول. إلى العثمانيين. وأخيرا الصهيونيين.

وتاريخ مصر كله يمكن تفسيره على هذا الأساس.

مـع ذلك فإننا سـنختار هنا تجربتين محددتين فى التاريـخ المصرى. كنموذج لفترات اليقظة المصرية. فى محاولة لاستخلاص الدروس المستفادة منها فى التاريخ المعاصر.

والتجربتان هما : الخطر الصليبى فى القرن الثانى عشـر.. ثم الخطر المغولى فى القرن التالى مباشرة.. وكليهما لم يبدأ أبدا بمصر.. ولكنه انتهى دائما بها.

كان الخطـر الصليبـى هو فعليا أول حرب عالمية فى التاريخ. بكل معنى الكلمة. فهى حرب اشتركت فيها القوى الرئيسية فى أوروبا.. ضد كل القوى الوطنية فى العالم العربى. وقد جاءت الجيوش الصليبية «.. بغزارة رمال البحر ونجوم السماء» .. وتراوح أفراد الجيش الصليبى المهاجم لمصر فى كل مرة بين نصف مليون.. ومليون مقاتل اوروبى.

أمـا الخطـر المغولى. فقد كان إعصارا مدمرا. اختصر فى أربعين سـنة كل الدمار الذى حققه الصليبيون فى مأتى سنه.

وفى مواجهة الخطر فى كلتا المرتين. تراوح بندول الدراما السياسية فى المنطقة. ابتداء من مصر إلى سـوريا والعراق مرة. ثم من العراق إلى سـوريا ومصر مرة. بين منتهى اليأس مـن مواجهـة الخطر.. وبين منتهى التنبه إلى ضرورة رفض الاستسـلام له. كمقدمة أكيدة لمواجهته.. ومن ثم.. الانتصار عليه.

وفى كلتا المرتين.. جرب العالم العربى كل وسيلة ممكنة فى التعامل مع العدو.. ابتداء من التحالف معه. إلى معايشته ومهادنته.. ثم أخيرا إلى حتمية مواجهته. وفى كلتا المرتين كان هناك ألف مبرر ومبرر للتوقف عن الصمود ضد الخطر.. ابتداء من الفقر إلى الضعف إلى الأزمـة الاقتصادية إلى النقص فى السـلاح. ولكن.. فى مقابل ذلك. كان هناك مبرر واحد للصمود هو : الأمن. أمن مصر بالدرجة الأولى.. وأمن العالم العربى بالدرجة الأكبر.

وفى كلتا المرتين أيضا. سلك العالم العربى كل الطرق.. ابتداء من طريق «السلام المنفرد» الـذى جربته مصر مع الصليبيين مرة. ثم فى العـراق مع التتار مرة.. إلى طريق «المواجهة الشـاملة» ضد العدو المشـترك.. ورأى العالم العربى بعينه فى كل مرة النتائج العملية التى انتهى إليها كل واحد من الطريقين.

لهــذا كله.. فإن الدروس المســتفادة من مواجهة الخطر فى كلتــا المرتين.. هى دروس تكلف خبزا ودماء.. ودخلت إلى تاريخ مصر والعروبة معجونة بأضخم التضحيات وأنبلها.. وأكثرها مدعاة للفحص والتأمل، وفيما يتعلق بالأمن المصرى. وهو زاوية اهتمامنا هنا، فإن تلك الدروس الغالية. والفادحة الثمن. هى فى الحقيقة جوهر الأمن المصرى كله.

أول هذه الدروس هو : خطر السلام المنفرد.

إن الموجــة الأولى مــن الحروب الصليبية جاءت فى ســنة ١٠٩٧. جــاءت تمثل حربا اســتعمارية بكل معنى الكلمة. لها أهداف سياسية محددة. ومع ذلك زورت لنفسها شعار الصليب كمجرد غطاء دينى يستهدف استرداد القدس من أيدى أولئك «الكفار» المسلمين!

مع ذلك. فمجرد أن تحقق للصليبيين انتصارهم الكبير الأول. بالاستيلاء على إنطاكيا.. بادروا بتقديم عرض مدهش إلى مصر، إن العرض هو : أن تستولى مصر على القدس.

وللوهلة الأولى أصبح هذا العرض دليلا أكيدا على حســن نوايا العدو القادم من أوروبا.. نحــو مصــر. والأكثر من ذلك أن مصر وجدت فى داخلها مــن يروج لها ويدعو إلى الإيمان به.. ثم نفذ فعلا. هكذا دخل المصريون بيت المقدس فعلا فى ســنة ١٠٩٧ (بعد اســتيلاء الصليبيين على إنطاكيا بشــهر واحد).. وعقد الخليفة الفاطمى فى القاهرة حلفا دفاعيا مع الصليبيين فى الشام.. وأرسل أول سفير له إلى هناك.

وكانــت دوافــع الخليفة الفاطمى فى هذا التحالف الغريب مثيرة حقا. إن الخليفة أعطى السلطة الفعلية فى الدولة لوزيره الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى (ولم يكن مصريا ولا مسلما)، الــذى أصبــح وزير التفويض (رئيس الــوزراء) فى مصر. بعد أن «قلــدك أمير المؤمنين جمع جوامع تدبيره، وناط بك النظر فى كل ما وراء سريره» .. على حد تعبير خطاب التفويض له.

وبمقتضــى هذه الســلطة اقنع الوزير خليفته بــأن التحالف مع الصليبيين ســيجعلهم يتفرغون لتصفية المســلمين الســنة فى الشام.. الأمر الذى يقوى المسلمين الشيعة فى مصر، فضلا عن الميزة العاجلة. وهى الحصول على القدس.

كانــت هناك ميزة أكبر. وهى : توفير نفقــات الحرب. والخراب الذى تجره الحرب على مصر.

ولكــن هذه الحرب التى كان الحكم الفاطمى يهرب منها.. فاجأته بشــكل لم يتوقعه. وبسرعة لم يتخيلها. فالدولة الصليبية كان هدفها من البداية هو تحييد مصر. حتى تتفرغ لحربها فى الشــام. وبمجرد أن فعلت ذلك. اســتدارت على الفور إلى الهدف الأصلى لها. وهو : مصر!

هكــذا انقضــت الدولة الصليبية على المصريين فى ١٤ يوليو ســنة ١٠٩٩ – أى خلال ســنتين اثنتــين فقط من «معاهدة التحالف والصداقة» مع مصــر – لكى يذبح المصريون عن آخرهم فى مدينة القدس.

إن الخليفة الفاطمى فى القاهرة تنبه أخيرا. ولكن. بعد فوات الوقت. لقد قرر أن يعبئ جيشه للحرب مع الدولة الصليبية. ولأن الصليبيين فاجأوا هذا الجيش فى مركز تعبئته ـ مدينة «عسقلان» – لكى يذبحوا ويحرقوا الجنود المصريين عن آخرهم !

ومرة أخرى يســتمع الخليفة الفاطمى إلى نصيحة انهزاميــة من وزيره الانهزامى.. فى هذه المرة أصبحت الحجة هى : إن الصليبيين فى فلســطين يملكون قوة عسكرية ضخمة. ولا قبل لمصر بها. إننا نستطيع تفادى خطرهم.. عن طريق رشوتهم ؟ !

هكذا بدأت مصر تدفع إتاوة بالذهب للدولة الصليبية فى فلسطين !

مع ذلك فإنه حتى هذه اللحظة. بل لسنوات طويلة بعدها. كان يمكن طرد الصليبيين من فلسطين كلها بهجوم أرضى واحد.. بشرط أن يتجاوز الخليفة الفاطمى فى القاهرة عن خلافاته مع الإمارات العربية فى الشــام والعراق. ويتحد معهم ضد الخطر المشــترك. لقد كانــت الدولة الصليبية الجديدة لاتزال تفتقر إلى العمق اللازم للدخول فى معركة حاسمة.. وفيما عدا مدينة القدس ومدينة الرها.. فإن كل المدن الداخلية فى الشــام وفلســطين كانت لاتزال تحت الســيطرة العربية. ابتداء من دمشــق وحمص وحلــب وبعلبك.. وكلها تمثل سلسلة جاهزة من القواعد لخدمة الهجوم العربى المضاد ضد العدو المشترك.

ولكــن لا أحد تحرك فى قصر الخلافة الفاطمية فى القاهرة. أو الخلافة العباســية فى بغداد. بل إن ســكان فلســطين.. حينما أرســلوا وفدا منهم إلى السلطان العباسى فى بغداد يســتغيث به من مذابح الصليبيين فى فلســطين.. حصلوا منه على دموع غزيرة للمواساة.

ولكن : لا شئ سوى الدموع.

إن كل سلطان. فى العالم العربى. يريد أن ينجوا بجلده من الخطر الصليبى. يريد سلاما منفردا. وهكذا استطاع الصليبيون أن يتحالفوا مع دمشق مرة.. ضد حلب لمدة ثلاث سنوات.. ثم انقضوا عليها.

وتحالفوا مع طرابلس.. ضد دمشق.. ثم استولوا عليها..

وتحالفوا مع الموصل.. ضد حلب.. ثم استداروا ضدها..

وتحالفوا مع القاهرة ضد دمشق.. ثم انقلبوا عليها..

وفى كل تلك المراحل كان الصليبيون يستديرون ضد ضحيتهم التالية. بعد أن أصبحوا أكثر قوة ومناعة. والحكام العرب أكثر تمزقا وانقساما.

وهكذا وصلت ضخامة القوة العسكرية الصليبية فى فلسطين إلى درجة أنهم فرضوا حمايتهم العسكرية على مصر مقابل إتاوة عاجلة تبلغ أربعمائة دينار ذهبا. بالإضافة إلى مائة ألف دينار من دخل مصر سنويا.

ولكن. سرعان ما اكتشف الخليفة الفاطمى فى القاهرة. أن قوة الحماية الصليبية التى جاءت إلى مصر لتحميها ضد خطر الشام.. قد جاءت لتغزوها وتستعمرها.

إن الخليفة تنبه أخيرا. ولكن بعد ٦٤ سنة من النوم الطويل. والبحث عن سراب الحل المنفرد. فأرسل إلى نور الدين سلطان دمشق يستغيث به قائلا «هذه شعور نسائى يستغثن بك لتنقذهن من الإفرنج» .

إن دمشق أغاثت القاهرة. ولكن بعد أن ضاعت الخمسة وسبعين سنة الأولى من المواجهة العربية / الصليبية فى سراب الحلول المنفردة. التى جعلت من العرب جميعا مجرد جثث منفردة.

إن تلك الجثث المنفردة لم تتحول إلى جيش مقاتل فعال. إلا على ضوء استراتيجية جديدة تماما. تعتمد على الأمن العربى الشامل. والمواجهة العربية الشاملة. ضد العدو المشترك.

هكذا استطاع الحاكم الجديد فى مصر. صلاح الدين الأيوبى. خلال ثلاث سنوات فقط من حكمه. أن يوحد القاهرة وحلب ودمشق والموصل. ضد الخطر المشترك فى فلسطين.

إن صلاح الدين أدرك. فى القاهرة. أن أمن مصر يبدأ بالنهوض ضد الخطر فى فلسطين. وخلال ستة عشر عاما فقط من تلك الاستراتيجية الجديدة كان العرب. بقيادة صلاح الدين. يحصلون على أضخم انتصاراتهم فى «حطين» ضد الصليبيين. انتصار أصبح هو المقدمة الحتمية لزوال الدولة الصليبية نهائيا فى القرن التالى.

فى هذه المرة كانت مصر هى التى استردت آمنها أخيرا.. بعد أن أخطأت بالتفريط فيه.

ولكن - سرعان ما جاء درس آخر، فقدت فيه مصر آمنها، بسبب تفريط الآخرين فيه.

ومرة أخرى يكون السبب هو : سراب السلام المنفرد.

ففى بداية القرن الثالث عشر ظهرت غارات المغول. قادمة من وسط أسيا بقيادة جنكيز خان. وأخذ سلطانهم يمتد غربا حتى وصل إلى نهر الدينبر فى روسيا. وإلى نهر أندوس فى الهند.

وأصبح الزحف المغولى يهدد العراق.

ولكن الخليفة العباسى. بدلا من أن يتنبه للخطر المغولى على أبواب دولته. ذهب فى نوم عميق.. تصورا منه بأن مسألة جنكيز خان ـ ثم خليفته هولاكو ـ ستبعد عنه شروره.

والوزير الأول (رئيس الوزراء) للخليفة العباسى المستعصم. المرتعد ينصحه بمزيد من الخنوع والاستسلام. بل إن هولاكو أرسل إنذارا إلى الخليفة. يطلب فيه تسليم بغداد وفتح حصونها كثمن للاحتفاظ بحياته.

وقال الوزير المرتعد إن جيش المغول والتتار هو جيش لا يقهر.

لقد نصح خليفته بدفع إتاوة لهولاكو.. اتقاء لخطره.

ونصحه بتخفيض الجيش من مائة ألف إلى عشرين ألفا.. كدليل على حسن النية من جانب الخليفة العباسى نحو هولاكو.. وفعل الخليفة العباسى المرتعد هذا كله.. لكى يفاجأ فى سنة ١٢٥٨ بأن اللعبة قد انتهت.. والمغول ينصبون مدافعهم خارج أسوار بغداد.

إن الخليفة مستعد لأى شىء. إلا الصمود والمقاومة. هكذا أرسل وزيره (مؤيد الدين العلقمى) لكى يتفاوض مع هولاكو.

وخلال أيام بدأت جيوش هولاكو بقصف بغداد.

وأرسل الخليفة وزيره من جديد إلى هولاكو أملا فى استرضائه وعاد الوزير يخبر خليفته بأنــه قد حصل له من هولاكو على عرض مدهش هو : أن يســلم نفســه. بل كل أســرته وحاشيته وأعضاء حكومته إلى هولاكو.. ومقابل ذلك يضمن له هولاكو حياته. بل واستمراره كخليفة أسمى..

ونفذ الخليفة نصيحة وزيره بكل أمانة. إنه يريد أن ينجو بجلده وبمنصبه بأى ثمن.

وهكذا ذهب الخليفة. مع المئات من أســرته وحاشــيته وموظفيه الرسميين. إلى معسكر هولاكــو.. بنــاء على النصيحة المخلصة من وزيره. وخلال لحظات قليلة اكتشــف الخليفة الخدمة الكبرى أن وزيره كان من البداية عميلاً ســرياً لحساب هولاكو.. ومهمته هى إقناع الخليفة بعدم جدوى المقاومة-وخلال لحظات أخرى انقض هولاكو على الخليفة وأســرته لكى يذبحهم جميعا فردا فردا ـ بمن فيهم النساء والأطفال ـ ثم دخل بغداد لكى يقتل مليونا من سكانها.. فى أبشع مذبحة عرفها تاريخ الحروب.

إن الخليفة لم يدفع وحده ـ بحياته – ثمن ســراب الســلام المنفرد مع هولاكو.. ولكن العراق كلها دفعت الثمن خرابا.. وموتا.. ودمارا.. واحتلالا..

وهكــذا. لأول مرة خلال ســتة قرون من وفات النبى محمــد. اختفى منصب الخلافة الإســلامية. ولم تكن بغداد وحدها هى التى جرت وراء ســراب «السلام المنفرد» مع العدو القادم إلى المنطقة. ولكنها دمشق وحلب وصيدا أيضا. الذين تصوروا أن الخطر مازال بعيدا عنهم بما فيه الكفاية.

وبمجرد أن اجتاح الإعصار المغولى بغداد. استدار إلى الآخرين.

لقد اجتاح هولاكو كلا من دمشــق وحلب وصيدا فى غمضة عين.. بعد أن ذبح خمسين ألف مسلم فى حلب وحدها.

الآن جــاء الــدور على مصر. يجئ إليهــا بعد أن أصبح الخطر المغــولى أكبر.. ومناعته أقوى.. وقاعدته فى المنطقة أكثر صلابة.

ومرة أخرى تستمع مصر إلى صوتين من داخلها : صوت يقول إن ما يجرى فى العراق وســوريا ولبنان وفلســطين بعيد عنها بما فيه الكفاية.. وأن الخطر القادم من الشــرق لابد

أن يتوقف أذا رأى مصر مسالة بما فيه الكفاية.. خصوصا وأن المغول «قوم لا يقهرون» والمواجهة العسكرية معهم مستحيلة. ولن تنتهى إلا إلى الخراب والدمار والهزيمة.

وصوت آخر يقول : إن مصر إذا لم تخرج للتصدى لمواجهة الخطر فى فلسطين. فإنها ستفاجأ به داخل شوارعها. بعد أن يكون الخطر قد أصبح أكثر قوة.. ومصر أصبحت أكثر ضعفا.

ولان دروس المواجهة بين صلاح الدين الأيوبى وبين الصليبيين كانت لاتزال ساخنة. ولأن روح المقاومة التى أشعلها صلاح الدين فى شعب مصر كانت لاتزال حية. فإن مصر خرجت إلى فلسطين لتواجه الخطر هناك. إن شعب مصر اكتشف أن أمنه فى القاهرة قد انهار.. نتيجة لتفريط الخليفة العباسى فى بغداد فى الأمن العربى الشامل.. وبحثه عن سراب السلام المنفرد.

وهكذا خرج الجيش المصرى إلى فلسطين. لكى يواجه ويخوض المعركة الفاصلة ضد المغول فى ٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠. محققا انتصارا مدويا فى عين جالوت. انتصارا لن يحفظ فقط أمن مصر لمائتين وخمسين سنة بعدها فقط. ولكن تقييمه الحقيقى. بكلمات مؤرخ بريطانى معاصر هو انتونى ناتنج هو «إن نجاح مصر فى إيقاف التقدم المغولى خلف الحدود المصرية. وخروجها لمواجهته فى فلسطين بدلا من التفكير فى انتظاره. قد أنقذ مصر من المصير المرعب الذى سقطت فيه سوريا والعراق.. ومن ثم فإنه ضمن لمصر زعامة ثقافية وسياسية للعالم العربى. استمرت بلا منازع لستة قرون بعدها» .

إن الذى حقق انتصار حطين فى القرن الثانى عشر كان هو صلاح الدين.. والذى حقق انتصار عين جالوت فى القرن الثالث عشر كان هو الظاهر بيبرس.

إن شخصية كل منهما تختلف تماما عن الآخر. فالأول أسد. والثانى نمر.. والأول جرب أحيانا أسلوب التعايش مع الخطر الصليبى فدفع ثمنه غاليا.. بينما الثانى رفض هذا الأسلوب من البداية.

ومع ذلك فان ما يجمع بينهما كثير. وجوهرى : فكلاهما رأى فى وحدة القاهرة ودمشق وبغداد مدخلا وحيدا لمواجهة الخطر. وكلاهما رأى أن فى بحث أى عاصمة عربية عن السلام المنفرد خطرا عميقا على العالم العربى كله. ومصر فى المقدمة. وكلاهما استوعب

تماما الدرس الجوهرى فى أمن مصر.. وهو أن ما يجرى فى فلسطين. بل وفى سوريا ولبنان والعراق. هو فى صميم الاهتمامات الجوهرية. التى يجب أن تعبر عنها سياسة مصر ومعاهداتها وأحلافها. وأن كل خطر جديد يأتى إلى المنطقة.. قد لا يبدأ بمصر.. ولكنه سينتهى حتما بها.

وفى حالة الخطر الصليبى فإن السلام المنفرد بينه وبين مصر كان مقدمة لانهيار أمن مصر نفسها.. أما فى حالة الخطر المغولى فإن السلام المنفرد بينه وبين العراق كان مقدمة أخرى لتهديد مصر.

على أن هذا ليس هو الدرس الوحيد الذى خرج به أمن مصر من حالتى الخطر. الصليبى والمغولى. فالدرس الآخر هو أن النجاح المبدئى للحروب الصليبية فى فلسطين. والفشل المبدئى فى مواجهة مصر لها.. كان يرجع إلى عدم تنبه. فى الجانب المصرى، إلى ظهور السلاح البحرى كعامل حاسم فى القتال. إن مصر تعتمد على تفوق جيشها برا.. بينما الصليبيون اعتمدوا على تفوق جيشهم بحرا.. أو بتعبير الظاهر بيبرس «انتم خيولكم المراكب. ونحن مراكبنا الخيول» .

مع ذلك فإن حسن استخدام مصر لقدراتها فى القتال البرى قد امتص تماما التفوق البحرى الصليبى. الأمر الذى ستكرره فيما بعد حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣. فى امتصاص مصر برا للتفوق الاسرائيلى جوا.

والدرس الثالث هو : أن الخطر فى كل مرة ـ بمجرد أن يدعم قواعده فى المنطقة ـ سرعان ما كان يحاول التحالف مع الأقليات الدينية فى كل مجتمع عربى. لتحويلها إلى أقليات سياسية تعمل ضد هذا المجتمع من الداخل. هكذا مثلا لجأ الصليبيون إلى إثارة المسلمين الشيعة فى حلب ضد المسلمين السنيين.. والمسيحيين الأقباط فى مصر ضد المسلمين الشيعة. ثم الدروز فى سوريا ضد السنيين.. وهكذا لجأ المغول أيضا إلى تحريك المارونيين فى لبنان ضد المسلمين (وهى استراتيجية سوف تكررها إسرائيل بعدها بثمانية قرون).

والدرس الرابع هو : أن نظرية التعايش مع الخطر الاجنبى هى دائما نظرية تكلف غاليا. إن وجود قاعدة للخطر الأجنبى فى المنطقة سرعان ما تفرض على هذا الخطر التمدد

خارجيا (من فلسطين فى حالة الصليبيين، والعراق فى حالة المغول) إلى المنطقة كلها. إن صلاح الدين نفسه جرب هذا الأسلوب مع الصليبيين أحيانا، وفى كل مرة كان يكتشف أن «التعايش» الصليبى مع العرب هو بالنسبة لهم مجرد فرصة لالتقاط الأنفاس. لقد اكتشف أنهم تهادنوا معه لكى ينقضوا على دمشق.. ومرة لكى يستعدوا لغزو المدينة المنورة.. ومرة تراجعوا مسالمين إلى مدينة صور لكى تصبح فيما بعد قاعدة للحرب الصليبية الثالثة.

والدرس الخامس هو : أن التفكير فى أمن مصر يجب أن يعتمد على نظرية مصرية شاملة للمنطقة كلها. فجزيرة قبرص مثلا، قد تبدو جزيرة نائية لا تربطها علاقة مباشرة بأمن مصر. ومع ذلك ففى كل لحظة خطر ـ وهى لحظات تتابع منذ بطليموس الأول إلى صلاح الدين إلى الظاهر بيبرس إلى غزو بريطانيا لمصر سنة ١٩٥٦ – كانت القاهرة تكتشف أن أمنها يتطلب علاقة ما مع قبرص. ربما تصل العلاقة إلى درجة السيطرة كما فعل بطليموس أو التحالف كما فعل صلاح الدين، أو التحييد كما فعل جمال عبد الناصر.. ولكن النقطة الجوهرية دائما هى : أن تفتح مصر عينيها على ما يجرى فى قبرص.

مع ذلك، فمن درسى الخطر الصليبى، ثم الخطر المغولى، يبقى لدينا درس خطير وجوهرى ومثير للتأمل. هذا الدرس هو : أن لحظات اليأس القاتل فى التاريخ المصرى، كانت هى نفسها أقرب اللحظات إلى الانتصار الكامل.

فخلال مواجهة مصر للخطرين، جربت مصر لحظات عاشت خلالها فى عنق زجاجة، معانية من كمية لا نهائية من المرارة والألم والتضحية والاختبار المتكرر. ومع ذلك، ففى صمود مصر خلال تلك اللحظات، وفى عبورها عنق الزجاجة هذا.. كانت مصر تعبر من الهزيمة المدوية.. إلى الانتصار الكامل.

إحدى هذه اللحظات، ذات الدلالة العميقة فى تاريخ مصر، هى لحظة مواجهة مصر للحرب الصليبية الخامسة. لقد كان الهدف الصليبى المباشر من تلك الحرب هو : احتلال مصر. فالصليبيون اكتشفوا أنهم لا أمان لهم فى فلسطين مطلقا إلا بالقضاء على القوة المصرية.

ومصر كانت قد تعرضت لاستنزاف شديد نتيجة لمواجهة عسكرية مع الصليبيين فى فلسطين ولبنان، استمرت أكثر من قرن كامل. وقد جاءت الحملات الصليبية الثلاث ضد

مصر برا عبر سـيناء. وجاءت خلال فترة زمنية قصيرة (٣٧ سـنة) لكى تفشـل أولها فى شمال سـيناء والثانية شرق بحيرة المنزلة. والثالثة على أبواب القاهرة. أما الرابعة ففشلت فى دمياط.

ولكـن الصليبيـين يأتون إلى مصر فى هذه المرة. فى ظل تفوق بحرى مطلق. تفوق كفل لهم الوصول إلى مدينة دمياط فعلا فى سنة ١٢١٨، بعد أن أقاموا لأنفسهم رأس جسر على السـاحل. لقد استولى الصليبيون على «برج السلسلة» الذى كان يعتبر «قفل الديار المصرية» ولم يعد هناك ما يمنع دخول سفنهم إلى النيل.

لقد انتشـر الذعر فى صفوف المصريين بسبب ضخامة الهزيمة. والهزيمة نفسها كانت مفاجئـة وفادحـة حيث أصاب ألمها الملك العادل ملك مصر. بالمـرض.. ثم فارق الحياة.. وحاول ابنه. الملك الكامل، سد مجرى نهر النيل. وإغراق السفن الصليبية.. ولكنه فشل.

الأسـوأ من ذلك أن ضخامة تلك الهزائم سـرعان ما أدت إلى تمزق ومحاولات انقلاب داخل الجيش المصرى نفسه. الأمر الذى ينذر مصر بأسوأ مصير. فى مواجهتها لعدو أصبح بالفعل داخل أرضها.

وبدأ ينتشـر فى داخل مصر نفسـها اتجاه انهزامى يقول : إن على مصر أن تستسـلم للخطر.. لأنه لا قبل لها به. إن قوة هذا التيار بلغت من الضخامة. بحيث أن الملك الكامل بدأ يتفاوض مع الصليبيين فعلا من أجل الصلح.

فى المرة الأولى طلب منه الصليبيون أن تنسحب مصر من فلسطين.. مقابل جلائهم عن مصر. ثم طلبوا فلسطين.. زائد كل مدن الشام التى حررها صلاح الدين.

ثم فلسطين.. زائد الشام.. زائد ثلاثمائة ألف دينار..

ثم فلسطين والشام.. زائد خمسمائة ألف دينار..

وكل هذا.. مقابل جلائهم عن مصر.. وعدم تهديدها مستقبلا.

ولكى تصبح الأمور أسـوأ وأسـوأ.. فان المجاعة هددت الشعب المصرى فى تلك السنة بالذات. نتيجة لانخفاض مياه النيل. بحيث اعتبرها المقريزى فيما بعد «من أشق السنين وأشدها على مصر» .

وأرسل الملك الكامل بنجدة عاجلة من جنوده إلى أهل دمياط.. فأبيدت عن آخرها. وكما يقرر المقريزى.. فإن ضغط الأزمة الاقتصادية على أهالى دمياط بدا شديد الوطأة. بعد أن «أهلكتهم الأمراض. وغلت عندهم الأسعار حتى بيعت البيضة الواحدة من بيض الدجاج بعدة دنانير. وامتلأت الطرق من الأموات. وعدمت الأقوات. وصار السكر فى عزة الياقوت. وفقدت اللحوم. فلم يقدر عليها بوجه. وآلت الحال بالناس أن لم يبق عندهم غير شئ يسير من القمح والشعير فقط. فتسور الفرنج السور وملكوا منه البلد. فكانت مدة الحصار ستة عشر شهرا واثنين وعشرين يوما..»

لقد انهارت دمياط أخيرا. واستسلمت. كان هذا فى ٥ نوفمبر سنة ١٢١٩.

ومع ذلك فإن إرادة المقاومة لدى شعب مصر كانت أقوى من تيار الانهزام والاستسلام. وهكذا صمد الشعب وضاعف من مقاومته.. الأمر الذى أدى خلال أقل من سنتين إلى تحول الكارثة الكاملة إلى انتصار مبين. وكان ٧ سبتمبر سنة ١٢٢١ هو قمة المقاومة المصرية ضد الصليبيين الذين أوشكوا أن يصلوا إلى مدينة طلخا (المواجهة لمدينة المنصورة) بحيث أن العامة من المصريين على حد تعبير المقريزى ـ كانت تكر على الفرنج أكثر مما يكر عليهم العسكر. فما لبثوا أن أصابهم الذعر. وشاع الاضطراب فى صفوفهم. ولم يجدوا مفرا من طلب الأمان على أن يتركوا دمياط دون قيد أو شرط.

هكذا تحرك البندول من أقصى الهزيمة إلى أقصى الانتصار. خلال أقل من سنتين. بفضل وجود قوة حاسمة فى الجانب المصرى. هى : إرادة المقاومة.

مع ذلك فخلال ثلاثين سنة تعرضت مصر لمحاولة غزو صليبية جديدة. وهى فى هذه المرة أكثر عددا وعدة. بل وأكثر تصميما على أن تستولى على القاهرة فى هذه المرة.. وبأى ثمن.

وبمجرد أن وصلت السفن الصليبية إلى دمياط. أرسل لويس التاسع ملك فرنسا. وقائد الحملة. إنذارا مدويا إلى الملك الصالح. ملك مصر. يقول له فيه «.. غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا. ونحن نسوقهم سوق البقر. ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان. ونخلى منهم الديار.... وقد عرفتك

وحذرتـك من عسـاكر قد حضرت فى طاعتى تملأ السـهل. وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسياف القضاء» .

ورفـض ملك مصر الإنذار بحسـم. مقـررا المقاومة.. ولكن المقاومة بـدأت بهزيمة مروعة أصيب بها المصريون.. واضطر الجيش المصرى إلى التراجع.. واستول الصليبيون على دمياط. وهى «مصيبة لم يجر مثلها» فى تاريخ مصر على حد تعبير أحد المؤرخين فيما بعد.

وزاد على الكارثة العسـكرية. والأزمـة الاقتصادية التى تلتها. والروح الانهزامية التى بدأ يروج لها عملاء الصليبيين. إن الملك الصالح نفسه. ملك مصر. قد توفى فجأة.

وأصبـح الملك فى مصر.. امرأة. نعم امرأة. هى شـجرة الدر زوجة الملك الراحل. التى قـررت أن تخفـى تماما خبر وفاة الملك.. حتى لا تضاعف مـن الفتنة الداخلية وانخفاض الروح المعنوية.

إن الصليبيـين يتقدمون فى النيل جنوبا. وقد وصلوا فى تقدمهم إلى قرية «البرمون» فى مواجهة مدينة المنصورة.. وأصبح لا يفصل بين الجيشين سوى فرع من النيل اسمه «البحر الصغير» .

ثـم شـن الصليبيون هجوما مفاجئا فـى فجر ٨ فبراير سـنة ١٢٥٠. مفاجئين الجنود المصريين «وهم نيام أو بين اليقظة والنوم» .. وسـقط قائد الجيش المصرى نفسـه قتيلا وسط الهزيمة الفادحة.

لقد أصبح الصليبيون داخل المنصورة ! والأكثر من ذلك أصبح القتال يجرى على أبواب قصر شجرة الدر نفسها. بعد أن أحاطت به جيوش الصليبيين.

وجاء «ناصح أمين» يهمس فى أذن المرأة التى تحكم مصر.. بأن تتفاوض وتطلب الصلح. وتستسلم.. وكان جوابها عمليا للغاية.

لقد أمرت بقتله !

إن النصـر والهزيمـة هما أولا حالة عقلية. وفى صراع المصير الذى كان يدور على أرض مصر فى تلك اللحظة كانت المرأة التى تحكم مصر فى حالة عقلية تمنعها تماما من التفكير فى الاستسلام. أو الانهيار.

وفى صمودها هذا، صمود المرأة الواحدة، فإنها أعطت النموذج العملى لجنودها وشعبها.. فدار القتال فى المنصورة من شارع إلى شارع.

وبدلا من أن تصبح المنصورة هى طريق الصليبيين إلى القاهرة كما أراد لويس التاسع ملك فرنسا، أصبحت المنصورة هى «مقبرة الصليبيين» بتعبير المؤرخ الفرنسى رينيه جروس.

إن الكارثة التى أدت إلى أن يئس العباد من البلاد والأولاد تحولت إلى انتصار حاسم بفضل إرادة شعبه على المقاومة.. وإصرار امرأة.. والذين فوجئوا بالهزيمة وهم نيام أو بين اليقظة والنوم «قد أوقعوا بالجيش الصليبى بعد شهرين اثنين هزيمة مروعه قدر المؤرخون فيها عدد القتلى الصليبيين بثلاثين ألفا» .. «وأما عن الأسرى فحدث ولا حرج» ..

لقد كان ملك فرنسا نفسه، لويس التاسع قائد الحملة، واحدا من الأسرى!

ولحظة اليأس القاتلة، التى بدت فجر يوم ٨ فبراير سنة ١٢٥٠، أصبحت هى أقرب اللحظات إلى لحظة الانتصار الحاسم، فى مساء الخامس من أبريل سنة ١٢٥٠.

والفارق بين اللحظتين ليس سوى فارق بين قراءتين مختلفتين تماما لنفس الوقائع. فلدينا هنا قراءة تطالب بالاستسلام للخطر.. لأن الواقع يفرض ذلك، والصمود مكلف، والأزمة الاقتصادية طاحنة، والنذر الأول يوحى بالهزيمة.

ولدينا قراءة أخرى تماما، تعترف بكل هذا الواقع المرير. ولكنها ترى أن تغييره لا يكون بالاستسلام له.. ولكن بإرادة الصمود أمامه.

إن هذا يعيدنا من جديد إلى نظرية الأمن المصرية.

هل هناك نظرية أمن مصرية؟.

إننا نستمع فى كل وقت إلى علامات استفهام ضخمة ومريبة تقول لنا من جديد : مالنا وما لفلسطين ؟ ما لنا وما لإسرائيل ؟ فلنبرم سلاما مع إسرائيل لكى نستريح من هذا كله..

والسؤال هو : هل يمكن أن نستريح من هذا كله ؟

وما هو، أولا : هذا كله ؟

إننا أمام ترسانة اسمها إسرائيل. أصبحت تهدد كل منزل فى شوارعنا. هذه حقيقة. ولكنها ليست حقيقة دائمة.. ولا هى نهائية.

إنها ليست دائمة لأن الأصل فى الأشياء هو قوة مصر.. وليس ضعفها.

وهى ليست نهائية لأن الذى نتكلم عنه الآن ليس تسوية لحساب الماضى. وإنما هو تحديد لاحتمالات المستقبل. ومستقبل العالم العربى والشرق الأوسط كان دائما معلقا إلى أن يتقرر مستقبل مصر. ومستقبل مصر يتوقف بالضرورة على البدائل المطروحة أمامنا الآن.

ما هى البدائل ؟

بعض الأصوات تقول لنا : الحياد ! نعلن حياد مصر.. فيصبح كل شئ على ما يرام. المريض سيشفى. والفقير سيغتنى.. والمحارب سيستريح.. والجائع سيشبع.. و.. كفى الله المؤمنين شر القتال.

ونحن مضطرون لفحص هذا «الحل» .. بصرف النظر عن سذاجته وضحالة الذين نادوا به وشغلوا جزءا من طاقة شعبنا فى الرد عليه.

نحن مضطرون لفحص هذا «الحل» .. ليس فقط لأنه قيل وطرح فعلا – فلكل مطبخ صراصيره – لكن لأنه ربما يكون تأكيدا سلبيا لأهمية نظرية الأمن المصرية.

سوف نفترض أن هناك فى السياسة دواء شافيا ناجحا اسمه «الحياد» .. وإننا سوف نحصل عليه من اقرب صيدلية، سوف نتعاطاه قبل الأكل وبعده. بلهفة مريض يريد الشفاء. وحرص مجتمع يريد الراحة.

وسوف ننسى الانتهازية واللا أخلاقية التى يتضمنها هذا «الحل» .. وأن من الممكن للإنسان أن يكون محايدا بين القاتل والمقتول. أو بين العدو والشقيق.

لقد كانت مصر دولة محايدة فعلا. ولا ينقصها سوى الإعلان القانونى للمجتمع الدولى. لمدة أربعين سنة فى القرن الماضى ـ بالضبط من ١٨٤٢ إلى ١٨٨٢. دولة لا تعادى أحدا. ولا تملك أصلا جيشا لكى تعبر به عن عدائها لأحد. دولة لا أطماع لها ولا تهديد منها.

بماذا انتهى هذا «الحياد» ؟

لقد انتهى باحتلال بريطانيا لأراضينا. احتلال استمر لأربع وسبعين سنة بعدها ! إن

فى السياسة الدولية درسا أكيدا ومتجددا هو : إن الدولة إذا التزمت الحياد فإنها تتوقف عن أن تكون دولة. إن معنوياتها تهبط وآفاقها تضيق وانحدارها يصبح أكيدا واحتلالها فى النهاية يصبح حتميا.

يقولون لك : وماذا عن سويسرا ؟

ولكن سويسرا ليست دولة. سويسرا منطقة حرة. منطقة يستمر حيادها بناء على تسامح مؤقت من الدول الكبرى، بل بضمانه. ولكن هذا الضمان قائم بقدر استمرار مصالح الدول الكبرى فى بقاء تلك «المنطقة الحرة» .. وفى اللحظة الأولى المناسبة سوف يتمزق حياد تلك المنطقة، عندما يكون هذا مناسبا للمصالح الدولية فى أوروبا. حدث هذا من قبل للدنمارك. ولبلجيكا. ولهولندا، ولاوس. وكمبوديا، ولدول أخرى كثيرة تصورت هى أيضا. فى لحظة ما من تاريخها، أن السم هو الدواء.

ولماذا نذهب بعيدا ؟

عندنا هنا. فى العالم العربى، حالة ناطقة، حالة لبنان.

إن لبنان بدت من اللحظة الأولى فى الصراع العربى الإسرائيلى كدولة محايدة. إنه منطقة حرة لا علاقة لها بالعروبة، إذا كانت العروبة تعنى تضامنا ضد الخطر الاسرائيلى.. وهى جزء من العروبة، إذا كانت تعنى أرصدة وأموالا وودائع فى البنوك..

لقد وجدت لبنان فى داخلها من البداية جزءا من المارونيين المرتبطين ذهنيا بأوروبا والغرب، يروجون لفكرة أن قوة لبنان هى ضعفه.. وأنه كلما ابتعد عن الصراع العربى الإسرائيلى.. كلما ضمن السلام مع إسرائيل. بل إنه -زيادة فى الاحتياط- رفضت القوة السياسية الحاكمة فى لبنان بناء اى جيش حقيقى. حتى لا تستفز إسرائيل !

لبنان بدت، من لحظة البداية نفسها، دولة «محايدة» .

مع ذلك فإنها لم تسلم من الخطر الإسرائيلى.. الذى وصل إلى حد غزوها برا وبحرا وجوا بثلاثين ألف جندى إسرائيلى، وجزء من مواطنيها - مواطن لبنان - يعلنون بأعلى الصوت أنهم من الآن فصاعدا تحت الحماية الإسرائيلية !

هذا هو الحياد !

هذا هو الصندوق مكيف الهواء الذى عاش فيه لبنان لثلاثين سـنة بعد قيام إسـرائيل. معلقا على مدخله يافطة «الحياد» .. ومكتفيا بأن يمصمص شفاها كلما غزت إسرائيل أرضا عربية، أو حتى بيروت. عاصمة لبنان نفسـه. كما حدث فى كل سنة تقريبا منذ ١٩٦٨. وفى كل مرة وجدت إسـرائيل أن من الملائم لها غـزو أراضى لبنان. فإنها فعلت ذلك برا وبحرا وجوا (ثلاثين ألف جندى فى ستة ١٩٧٨ و ١٢٠ ألف جندى فى ١٩٨٢).

إن الدعوة لحياد مصر هى فى الواقع دعوة لاحتلال مصر ـ حتى ولو لم يدرك أصحابها ذلك!

إن حياة الشعوب هى كحياة الأفراد. تولد بين الآلام والدماء. ومصالح أى شعب تصبح معرضـة للخطـر بمجرد أن تواجه أمامها مصالح مضادة تريد تثبيت نفسـها. وحماية هذه المصـالح لا تتم بالانسـحاب أمام المصالح المضادة. لأن هذه هـى الهزيمة الكاملة.. ولا تتم برفـع الراية البيضاء. لأن هذا هو الاستسـلام.. ولا تتم بإعلان الحيـاد العاجز لأن الأمر لا يتعلق برغبة.. ولكن بعلاقة قوة.

والشعب الذى يحتل عدو جزءا من أرضه، ثم يترك هذا العدو بلا عقاب.. إنما هو يوقع بيديه على قرار إعدامه. وعاجلا أو أجلا لابد أن يفقد هذا الشعب كل أرضه.. ويكف عن الحياة كدولة.

والحياد بالنسـبة للدول. كما هو بالنسـبة للأفراد. هو أمر يتعلق بالشخصية. إنه نفى لشخصية الشعب.. ومن ثم فهو نفى لاستقلاله. إن الدولة هنا لا تحمى شخصيتها بقوة من داخلها. بل تحميها من نوايا الآخرين.

وفـى حالة لبنان مثلا. فان اسـتمرار «حياده» لم يكـن يعتمد على رغبته هى. فرغبته رسمية ومعلنة، ولكنه اعتمد على إسـرائيل نفسـها. ففى كل لحظة رأت إسـرائيل أن من المناسب لها إن تمزق هذا «الحياد» فإنها مزقته على الفور بقوة السلاح.

والذيـن ينـادون بحياد مصـر. إنما ينادون فى الواقع بتسـليم مصـير مصر كاملا إلى إسـرائيل. ليس مصير سـيناء فقط. أو المصالح المصرية فقط. ولكن مصر كلها.. وفى هذه الحالة فان مصر لن تصبح متحف الشـرق الأوسـط كما يزعمون. ولكنها «كباريه» الشـرق الأوسط.

إذن.. إذا لم يكن الحل هو «الحياد» .. فما هو البديل ؟

هناك بديل آخر هو : إبقاء الحال على ما هو عليه !

ومثل هذا البديل الأول. وهو «الحياد»، فإن هذا «الحل» يقوم على أساس التسليم بأننا قد استنفدنا كل ما نستطيعه.. ولم يعد أمامنا ما نستطيع أن نفعله سوى أن نضع مستقبلنا تحت رحمة قوة خارجية، هى إسرائيل فى حالة «الحياد» .. وهى القدر فى حالتنا هذه.

ومرة أخرى يقوم هذا البديل على أساس أن بمقدورنا إبقاء الحال على ما هو عليه – وهو افتراض غير صحيح من البداية. لأننا حتى لو كنا نستطيع أن نفعل ذلك، فإن إسرائيل لن تفعل ذلك.

مع هذا.. دعنا نفترض أن هذا ممكن.. فما هى النتيجة ؟

إن النتيجة سوف تكون هى أن نحصل على أسوأ ما فى الحالتين : السلام.. والحرب. فإبقاء الحال على ما هو عليه معناه أن نتحمل أعباء السلام والحرب بغير أن نعيش فى أحدهما.

ومعناه مرة أخرى أننا نرهن لدى إسرائيل، ليس أرضنا فقط. ولكن إرادتنا ومستقبلنا أيضا !

إن كلا البديلين السابقين، الحياد.. وإبقاء الحال على ما هو عليه. هما وجهان لشئ واحد : السلبية والعجز عن فهم مسئوليات وأعباء ومتطلبات الأمن المصرى.

فإذا كانت السلبية لا تصلح.. إذن ما هو البديل ؟

إن البديل هو الموقف. أن يكون لنا موقف.. ليس فقط فيما يجرى الآن. ولكن فيما نريد أن يحدث غدا.

كيف نحدد هذا الموقف ؟

إن هذا يعيدنا من جديد إلى النقطة الجوهرية : نظرية الأمن المصرى.

فبغير نظرية لا نستطيع أن يكون لنا موقف. وبغير موقف لا يمكن أن نسيطر على مستقبل الصراع العربى الاسرائيلى.

إن نظرية الأمن هى، مرة أخرى، البوصلة الوحيدة التى يجب أن ترشد السياسة المصرية إلى اتجاهها الصحيح.

والأساس الأول فى نظرية الأمن المصرى هو أن ندرك أن حياتنا هنا مهددة طالما ظل الخطر فى فلسطين طليقا وشرسا وجائعا للغزو كما هو الآن.

الأساس الأول هو أن ندرك أن فلسطين قضية مصرية، بل قضية كل أسرة فى مصر.

إن هذه المقدمة هى المدخل الصحيح إلى الأمن المصرى. وهى مقدمة لا تؤكدها الجغرافيا فقط، ولا التاريخ فقط، بل تؤكدها إسرائيل نفسها.

ففى سنة ١٩٧٥ وقعت إسرائيل مع مصر الاتفاقية الثانية لفض الاشتباك فى سيناء، وبمقتضى تلك الاتفاقية حصلت إسرائيل على ما سماه وزير الخارجية الامريكى هنرى كيسنجر : «كل العناصر العملية لإنهاء حالة الحرب» بين مصر وإسرائيل.

مع ذلك.. وبرغم التزام مصر فى الاتفاقية بعدم استخدام القوة، أو حتى التهديد باستخدامها.. وبرغم أن هذا الالتزام يستمر عمليا.. إلى أن تحل محله اتفاقية جديدة.. فإن إسرائيل اشترطت على أمريكا التعهد بالتزامات أخرى مضادة تماما.

لقد اشترطت الحصول على معدات عسكرية قيمتها ٢٣٠٠ مليون دولار.

واشترطت أن يكون من بين هذه المعدات سلاح محدد بالذات تحصل عليه، هو الصاروخ أرض / أرض.. من طراز« بيرشنج» .

وبهذا الصاروخ تصبح كل أسرة مصرية، فى المنصورة وطنطا والقاهرة وبنها والجيزة والزقازيق.. تحت رحمة إسرائيل !

إن الصاروخ «بيرشنج» صممته أمريكا أساسا لكى يكون صاروخا طويل المدى، ويبلغ مداه ٤٦٠ ميلا.. ولكى يحمل قوة تدميرية ضخمة، تصل إلى هدفها بسرعة ضخمة وبدرجة بالغة من الدقة.. والغريب أن الاحتجاج عن هذه القفزة النوعية الضخمة التى تريدها إسرائيل فى ميزان القوى لم تجئ من السادات، ولكن جاءت من داخل الكونجرس الأمريكى.

بعدها بسنتين قام السادات بمبادرته المشهورة بزيارة القدس.. مقدما أمام العالم كله ما تصوره هو على أن مصر تريد السلام.. ومقدما لإسرائيل خطوة ضخمة، ظلت إسرائيل تحلم

بها وتسعى إليها طوال ثلاثين سنة سابقة - هى المفاوضات المباشرة.. بل والاعتراف الكامل على طبق من فضة.. وبلا مقابل.. !

فماذا كان رد الفعل الإسرائيلى ؟

إنها رحبت وناورت وتلاعبت وقدمت أفكارا فى مشروع محدد. لفقت له عنوان «السلام» .. ولكن فى نفس اللحظة. طلبت إسرائيل من الولايات المتحدة الحصول على طائرات «إف - ١٦» .

إن «إف - ١٦» هى قاذفة قنابل هجومية، تمثل احدث ما فى الترسانة الأمريكية من علم وتكنولوجيا.. وهى بعيدة المدى.. إلى الدرجة التى تجعل إسرائيل قادرة على نقل تهديدها العسكرى إلى نطاق عربى أكثر شمولا.

فى هذه المرة ليست القاهرة فقط هى التى تريد لها إسرائيل هذه الطائرة.. ولكنها القاهرة والإسكندرية والخرطوم وطرابلس والرياض وعمان ودمشق وبغداد.

وقد يقول البعض فى إسرائيل نفسها : إن إسرائيل ربما لا تستخدم تلك الأسلحة الهجومية إلا ردا على اعتداء عربى ضدها.. وطالما لن يعتدى العرب. فلن تهاجم إسرائيل.

ولكن دروس الماضى القريب تؤكد عكس ذلك.. فمنذ سنة ١٩٦٧ والقضية بيننا وبين إسرائيل هى استرداد أرضنا المحتلة نتيجة الغزو الاسرائيلى فى يونيو من تلك السنة. إنها قضية سيناء والضفة الغربية والجولان. وليست قضية النقب والخليل.

ومع ذلك. فلأننا حاولنا إزالة خط بارليف الذى أقامته إسرائيل على ضفاف قناة السويس داخل الاراضى المصرية.. هاجمتنا إسرائيل بطائرات الفانتوم. فقذفت منازلنا ومنشآتنا المدنية بالقنابل، ليس فى قناة السويس.. ولكن فى قنا ونجع حمادى وحلوان والقاهرة.

فالمسألة من حيث الواقع هى : إن إسرائيل هددت مدننا فعلا لمجرد أننا نريد استرداد أراضينا المحتلة. لأن إسرائيل أرادت تلك الأراضى رهينة فى يدها لكى تفرض علينا السلام الذى تريده هى - وهو مضاد على طول الخط للسلام العربى الذى نريده نحن.

والمسألة من حيث المبدأ هى: هل يمكن أن نسمح. سواء فى ظل حرب أو سلام، بأن

تعيش كل أسرة فى مصر والسودان وليبيا والسعودية والأردن والعراق وسوريا.. تحت رحمة السلاح الإسرائيلى.. والنوايا الإسرائيلية ؟

بالطبع نحن نستطيع أن نحاول الحصول على أسلحة مماثلة – ويجب فى جميع الأحوال أن نفعل ذلك ـ لكن إسرائيل ترفض من حيث المبدأ أن يوجد مثل هذا التعادل النوعى فى السلاح بينها وبين أى دولة عربية.

وعندما تقدم الرئيس الامريكى جيمى كارتر إلى مجلس الشيوخ، فى أبريل سنة ١٩٧٨، بمشروع صفقة طائرات إلى كل من إسرائيل والسعودية ومصر.. ذهبت إسرائيل إلى مجلس الشيوخ تصرخ بعلو الصوت محتجة بشدة على الطائرات المقترحة للسعودية.

إن السعودية، بمقتضى الصفقة، سوف تحصل على ستين طائرة «إف ـ ١٥» .. بينما إسرائيل ستحصل على تسعين طائرة إف – ١٦» و «إف – ١٥» .

ومع ذلك فما تريده إسرائيل هو : ولا طائرة للسعودية !

إن السعودية سوف.. تحصل على طائراتها بعد ثلاثة سنوات، وبقيود سياسية عديدة، وبشرط أن تضعها فى حدودها الشرقية وليس فى حدودها الشمالية، ومع ذلك فما تقوله إسرائيل هو : ولا طائرة للسعودية !

إن السبب الاسرائيلى هو: أن تلك الطائرات تخل بميزان القوى فى الشرق الأوسط!

ويومها رد مسئول أمريكى قائلا : أننى لا أستطيع أن أفهم هؤلاء الإسرائيليين. إن لديهم ـ الآن – تفوقا جويا واضحا (على الدول العربية مجتمعة).. وحتى إذا تغير هذا التفوق (بفعل الصفقة المقترحة) فإنه بدلا من أن يكون عشرة إلى واحد.. فإنه سيصبح تسعة إلى واحد. كيف تحتج إسرائيل علينا إذن إذا كانت تملك الآن مثل هذا التفوق العسكرى ؟ إنه تفوق يجعل إسرائيل لا تحتاج إلى أى شئ على الإطلاق!

ومع ذلك فإسرائيل تحتاج.

وفى احتياجها هذا تهديد خطير للأمن العربى ـ وما يهمنا منه الآن هو الأمن المصرى.. ذلك لأن الدول لا تشترى السلاح، مبعثرة لأموالها يمينا و يسارا، لكى تضعه بعد ذلك فى متحف أو تتباهى به فى عرض رياضى.

إن السلاح يوجد لاستخدامه.. أو لاحتمال استخدامه.

وقد رأينا من قبل أن الولايات المتحدة غامرت بالدخول فى حرب عالمية «ثالثة» حرب ذرية. لمجرد وجود أربعين صاروخا فى جزيرة صغيرة قريبة من حدودها.

وسوف نرى فيما بعد أن فرنسا دفعت ثمنا غاليا. من أموالها وأرواح أبنائها ومستقبلها. لأنها تصورت أن السلاح الذى يخزنه هتلر سوف يهدد أراضى كل الدول..إلا أراضيها هى.

والتاريخ كله يعلمنا أن الدول التى تفرط فى جزء واحد من أمنها لابد أن تفاجأ ذات يوم وهى تدفع الثمن من انهيار أمنها كله. فنحن لا نستطيع استعارة أمننا من قصاصات ورق نوقعها مع الآخرين. ولا نستطيع أيضا أن نحول الذئب أمامنا إلى حمل بمجرد أن نعزف له قطعة من الموسيقى !

وقبل أن نتعلم ـ حتى ـ من تاريخ الآخرين.. فإن فى تاريخنا نحن ما فيه الكفاية.. وأكثر.

فمنذ قيام إسرائيل.. أصبح أمننا. كمصر. يتعرض للانهيار مرة كل عشرة سنوات تقريبا: ١٩٤٨.. ١٩٥٦.. ١٩٦٧.. الخ..

ومنذ قيام إسرائيل.. أصبح علينا أن نفكر فى هذا الأمن. ليس فقط بطريقة مجردة.. ولكن من حيث علاقة المقارنة بالأمن الاسرائيلى. كما تراه إسرائيل نفسها.

فإسرائيل ترى أمنها على نحو فريد جدا.. إسرائيل، مثلا تسلح الأقلية اليهودية فى الجزائر. لكى تمنع إجلاء الاحتلال الفرنسى. كما حدث فعلا فى سنة ١٩٥٨.. وإسرائيل. مثلا. تسلح الأقلية الكردية فى العراق. لكى تطالب بدولة منفصلة. وتمنع مساندة العراق لسوريا.. كما حدث فعلا حتى سنة ١٩٧٥.

وإسرائيل. مثلا. تسلح الأقلية المارونية فى لبنان. لكى تضرب المسلمين هناك. وتطالب بدولة مارونية مستقلة. كما حدث حتى الآن.. أو على الأقل بالسيطرة الكاملة من جانب الأقلية المارونية على سياسة ومصير لبنان. متحالفة فى ذلك مع إسرائيل نفسها.

وإسرائيل تهدد بضرب السعودية. أذا وضعت طائراتها «إف – ١٦» فى قاعدة تبوك كما حدث فى سنة ١٩٧٨.

وإسرائيل تقوم فعلا بتدمير المفاعل النووى السلمى العراقى - كما حدث فى يونيو ١٩٨٢ -لأنها ترى أن حصول العراق على تلك التكنولوجيا المتطورة خطر على الأمن الإسرائيلى.

وإســرائيل تقوم بغزو مصر. إذا حركت مصر قوتها المسلحة فى سيناء. داخل الأراضى المصرية. وتعتبر هذا مبررا للحرب. كما حدث فى سنة ١٩٦٧.

وإســرائيل تهدد باحتلال الأردن. إذا سمح لقوات عربية أخرى بأن تشترك فى الدفاع عنه بل أكثر من هذا - فى ســنة ١٩٨٢ ـ تطالب إســرائيل علنا بإسقاط الملك حسين حتى تصبح الأردن نفسها للفلسطينيين بديلا عن الدولة الفلسطينية.

هذا هو نطاق التهديد الاسرائيلى.

إنه إذن نطاق تجاوز مصر. ليشمل العالم العربى.

إنه خطر مشترك.. يجب إذن. لمواجهته، أن يكون هناك أمن مشترك.

وفى هذه المنطقة تبدأ علاقة نظرية الأمن المصرى. بالأمن العربى الشــامل.. كحليف.. وبالأمن الاسـرائيلى. كخطر.

إننا لابد أن نناقش. تفصيلا. مفهوم الأمن الإســرائيلى. ومعنى الأمن العربى.. وسوف نركز الآن فقط على : معنى الأمن المصرى..

وقد يقول قائل : إننا الآن نتجه إلى الســلام مع إسرائيل.. فكيف نتحدث عن الأمن.. ونظرية الأمن ؟.

والرد بسيط : إن الأمن هو مفهوم ملازم للدولة نفسها. إنه لا يرتبط بوجود حالة سلام أو حالة حرب. إنه يرتبط بوجود الدولة. وجودها حرة مستقلة وآمنة.

والسلام ليس أبدا تغيرا فى المصالح.. ولكنه تغير فى وسيلة حماية هذه المصالح.

والحرب ليست غاية فى حد ذاتها. فالدول تلجأ للحرب لتسوي قضاياها التى عجزت عن تسويتها بالدبلوماسية.

واللجوء إلى الحرب نفسه. هو عمل من أعمال الأمن.

إن نظرية الأمن لاى دولة، هى برنامج بمصالحها الحيوية. وتحديد للوسائل التى يتم

بها حماية تلك المصالح، واستعداد لممارسة تلك الحماية بكل الطرق الممكنة. التى تكون الحرب آخر طريقة منها.

وجوهر الأمن هو أن ندرك ما هى مصالحنا الحيوية التى يجب أن نحميها دائما.. بالسلام إذا كان هذا متاحا.. وبالحرب لو اقتضى الأمر.

وجوهر الأمن هو الخلاصة التى يجب أن تعكسها سياسة بلدنا فى كل لحظة. ليس فقط من خلال تصرفاتها وجدول أعمالها وأصدقائها.. ولكن أيضا بتفسيره لكل مواطن تمنعه حياته اليومية من رؤية المصالح الحيوية لبلده.

إن السياسة هى مصالح وأفكار. إنها ليست فقط مصالح الدولة والمجتمع، ولكنها أيضا أفكار كل فرد عن هذه المصالح.

والأفكار الخاطئة، عند الأفراد، عن مصالح بلدهم.. تؤدى إلى نفس النتيجة التى تؤدى إليها المصالح الخاطئة.. تؤدى إلى الكارثة !

فالحكومة البريطانية. التى تخلت عن الوفاء بالتزاماتها نحو تشيكوسلوفاكيا فى سنة ١٩٣٨، فعلت ذلك أيضا فى ظل أفكار خاطئة لدى برلمانها وصحافتها عن مصالح فرنسا.

وملك بلجيكا الذى أعلن حياد بلاده، فى سنة ١٩٣٧ شراء لود هتلر.. فعل ذلك أيضا فى ظل أفكار خاطئة عن أطماع ألمانيا النازية..

إن الأفكار الخاطئة لدى أى شعب عن مصالحه الحقيقية تكون دائما مقدمة إلى سياسة خاطئة. إنها على الأقل تؤدى إلى سياسة مترددة، تصبح دليلا على ضعف الإرادة القومية وعدم الثقة والافتقار إلى الحسم. إنها تؤدى إلى انقسام الإرادة وتحللها وضعفها. والضعف الظاهرى فى السياسة تكون له دائما نفس نتائج الضعف الحقيقى. إنه يفقدنا القدرة على التفرقة بين السلام المشرف والهزيمة المقنعة.

والطريق إلى الهزيمة لا يبدأ دائما فى ميدان القتال. فالدولة قد تنتصر عسكريا فى ميدان القتال، ومع ذلك تتعرض للهزيمة السياسية. حدث هذا فى حالة فرنسا فى الجزائر.. وأمريكا فى فيتنام.. وبريطانيا فى الهند.. وإسرائيل فى مصر ١٩٥٦.

والمشكلة الأولى التى يثيرها أمن إسرائيل فى علاقته بأمن مصر هى: أن جوهر نظرية

الأمن الإسرائيلية يؤدى إلى أن الأمن الاسرائيلى يقوم على أساس عدم الأمن العربى.

فعندما يعلن وزير الدفاع الاسرائيلى أن إسرائيل تحتفظ. منذ سنة ١٩٥٥. بخطط جاهزة ومتجددة. لضرب القاهرة وعمان ودمشق وبغداد. ثم يعلن فى اليوم التالى أن إسرائيل تريد السلام.. فيجب أن نصدقه فى المرة الأولى ولا نصدقه فى المرة الثانية.

إننـا نفعـل ذلك لأن هناك قرائن قويـة تجعله جادا فى الهـدف الأول.. وليس جادا فى الهدف الثانى. إن جديته هذه تترجم نفسـها فى تصرفات محددة يمارسـها.. وتجعل تهديده ضدنا مقترنا بقوة عسكرية حقيقية يسعى دائما لبنائها.

فإذا شـطبت إسـرائيل أهدافها السياسية المقررة فى جدول أعمالها ضدنا.. فإن هذا لن يتـم لأنهـا أصبحت فجأة أكثر ميلا للأعمال الخيرية.. ولكـن لأن لدينا قوة حقيقية تدعم رفضنا لأهدافها.

إن أحد أباطرة الصين ـ فى القرن الماضى ـ اسـتخدم مرة مثلا صينيا فى رفض الأطماع الأجنبيـة فـى بلاده. وعندما صاح قائلا : «إننى لا أسمح لرجل أن يقوم بالشـخير قرب مخدعـى» . إن الإمبراطور الصينى اعتقد أن الحكمة كلهـا. والبلاغة كلها. الموجودة فى الأمثال الصينية. كافية للرد على هؤلاء «البرابرة» الأجانب الذين يطمعون فى الصين. مع ذلـك.. ولأن تلـك البلاغة لم تكن تدعمها قوة حقيقية تحت يـد الإمبراطور الصينى. فان الأمر انتهى بحرب كبرى أعلنتها بريطانيا ضد الصين. لأن الصين ترفض السـماح للتجار الإنجليز ببيع الأفيون لشـعب الصين. لقد انتهت الحرب بهزيمة صينية مدوية. وبفرض تعاطى سم الأفيون على أهل الصين. وبتعويضات ضخمة دفعوها لبريطانيا عن كمية الأفيون التى تلفت. وبدفع تكاليف الحرب نفسـها التى شـنتها بريطانيا. وباقتطاع جزيرة هونج كونج من الصين. وبإحراق قصر الإمبراطور نفسه فى بكين.

إن «البرابرة» أصبحوا يقومون بالشـخير. ليس قرب مخدع الإمبراطور فقط. ولكن بعد أن احرقوا المخدع نفسه. وهزموا الإمبراطور هزيمة عزيز مقتدر.

إن خطأ الإمبراطور لم يكن فى أنه رفض السماح بالشخير قرب مخدعه.. ولكن فى أنه لم يقـرن هـذا الرفض بقوة حقيقية تجعله قابلا للتصديـق. فالعدو لا يجب أن يرى رفضنا

فقط. ولكن يرى أن قدرتنا على الرد على القوة بالقوة هى حقيقة لا شك فيها.

والشـعوب، بـل الإمبراطوريات، التى تجاهلـت تلك الحقيقة، انتهـى بها الأمر إلى الانهيـار، حتى وهى فى قمة نفوذها. إن بريطانيا وفرنسـا فى القرن العشـرين، والصين وروسـيا والنمسا وتركيا فى القرن الذى يسـبقه، واليابان فى القرن السادس عشر، والهند فى القرن الخامس عشر.. كلها نماذج لإمبراطوريات انهارت لأنها أغفلت أن علاقات القوة هى قانون الحياة الوحيد فى الغابة الدولية.

وعندما تصبح إسـرائيل على بابنا الشـرقى، مسـتخدمة معنا فى كل يوم استراتيجية العصـر الحجرى، وقانون الغـاب، فان تراجعها عن تلك الاسـتراتيجية لن يتم بمخزون نملكه من الأمثلة الشعبية، ولكن بمخزون من الإرادة والتصميم والقوة الكافية لحماية أمننا.

والأمن، فى مفهومه الشـامل، لا يقتصر على القوة العسـكرية. إن الأمن ليس فقط القوة العسكرية.. وان كان يبدأ بها.. والأمن ليس فقط معدات القتال، وإن كان يتضمنها. والأمن ليس فقط التنمية، وإن كان يعتمد عليها. وإنما الأمن هو أولا الإرادة.. ونظرية أمن تتمسك بها هذه الإرادة.

والشىء الاساسى الذى يجب أن تقوم به نظرية الأمن المصرية ليس هو فقط مصر الآن، وإنما مصر، زائد عشـرين سنة، زائد خمسين، زائد مائة من الآن. هل نحن نزرع من الآن ألغاما فى طريق الجيل القادم فى بلدنا.. أم نحن نطهر له الطريق من الألغام ؟ هل ستكون مصر ولاية فى فلك الإمبراطورية الإسـرائيلية، أم أن إسـرائيل سـترتد إلى حدود الملايين الثلاثة الذين يعيشون فيها ؟

وإذا كان الأمر كذلك: فهل ما نفعله الآن يقوى أو يضعف من قدرة الجيل القادم ؟ هل إذا فكرت إسرائيل فى غزونا من جديد بعد خمس سنوات، أو عشر سنوات.. سيكون الأمر أمامها أسهل.. أو أصعب ؟

ثم، إذا افترضنا الأسوأ، هل ستكون قدرتنا على الرد فى حينها، أقل.. أو أكبر ؟

إن أى نظرية أمن لا تقوم على افتراض أحسن الحالات. إنها تقوم على أساس افتراض الحالات الأسوأ المعقولة، والاستعداد لها مقدما.

والأمن المصرى، فى علاقته مع إسرائيل، يجب أن يقوم على أساس افتراض وقوع أسوأ حالة معقولة.. وامتلاك القدرة مسبقا على مواجهتها.

إن الحـروب الحديثة ليسـت حروب قبائل، تقوم بانتظـار الخطر، ثم تبدأ بهتاف : هيا يا رجال. إنها حروب يجب الاستعداد لها، حتى بغير أن يعنى هذا ضرورة وقوعها. وللقياس الأساسـى لكفاءة رجل السياسـة، بل لقياس حكمة جيل بأكمله، هو فى صحة تقديره للحدث.. قبل وقوعه.

وبهذا القياس فإن كل رجل سياسة فى العالم العربى، بل وربما الجيل كله الذى عاصر قيام إسرائيل، كان راسبا بجدارة فى اتجاه الكفاءة هذا.

و.. نحن لا نريد أن يتكرر ذلك.

لا نريد أن نضطر يوما آخر إلى الخضوع للابتزاز الاسرائيلى.

والطريـق إلى ذلك يبدأ أولا باعتبار جوهرى فـى أمننا لابد أن نحرص عليه فى جميع الأحوال : إن الغزو الاسرائيلى لأراضينا يجب ألا يمر بغير عقاب.

لقد غزت إسـرائيل أراضينا فى يونيو سـنة ١٩٦٧. ومبدئيا يجب ألا نسـمح بمكافأة إسرائيل على هذا الغزو. إن المعتدى، لو كوفئ مرة واحدة على اعتدائه، فإنه فى هذا دعوة مفتوحة له لكى يكرر اعتداءه مرة، ومرة، وألف مرة.

نتحدث عن السلام ؟ طبعا.

نسعى إلى السلام ؟ أكيد.

ولكن أمريكا، وهى تقصف فيتنام سـنة ١٩٧٢، ثم وهى تغزو كمبوديا فى سـنة ١٩٧٠. والاتحاد السوفيتى وهو يسحق تشيكوسلوفاكيا فى سنة ١٩٦٨، وهتلر وهو يغزو بولندا فى سنة ١٩٣٩، واليابان وهى تقذف بيرل هاربر فى سـنة ١٩٤١.. وبريطانيا وهى تحتل فلسطين فى سـنة ١٩١٧.. كل هؤلاء كانوا يسعون إلى السلام. ولكن السلام يمكن أن يكون أعرج، كالسلام الذى أقامه ماترينخ فى أوروبا لمائة سـنة حتى سـنة ١٩١٤. ويمكن أن يكون خادعا.. كالذى أقامه تشمبرلين فى سنة ١٩٣٨، ويمكن أن يكون هشا.. كالذى أقامه كيسنجر فى فيتنام سنة ١٩٧٢، ويمكن أن يكون خادعا مدمرا، كالذى أوهمت به إسرائيل السادات فى ١٩٧٩.

إن الرئيس الامريكى ريتشارد نيكسون. وطائراته تقصف هانوى وهايفونج كان شعاره إننا نقصف بالقنابل.. فى سبيل السلام.

والقائد الامريكى فى فيتنام كان يعلن: إن علينا أن نهدمها.. حتى ننقذها.

نعم.. هناك ألف طريق تقود إلى السلام. والسلام الوحيد الذى نريده هو الذى يحمى الأمن المصرى.. ولايهدده.

ونحن لن نحمى مصر مطلقا إلا إذا حددنا من البداية : ما هى نظرية أمنها ؟

إن الزعيم الفرنسى الراحل شارل ديجول كان يفسر السلام بأنه يعنى التوازن. وليس السكون. التوازن فى القوى الذى يقوم على احتفاظنا بقوة تتناسب مع حجم أهدفنا.

وهذا التوازن ليس عملية تتم مرة واحدة.. وإلى الأبد. وإنما هى عملية متجددة. ومتطورة. تخضع للفحص المستمر. والمراجعة الدائمة. بهدف مقارنته المستمرة بقوة الطرف الآخر.

لقد خرجت القوى المتحالفة فى الحرب العالمية الثانية. وهى فى حالة توازن. نوع من التوازن. بعد قليل اكتشف الاتحاد السوفيتى أن عليه أن يكسر احتكار الولايات المتحدة للسلاح الذرى. إذا كان عليه أن يحافظ على هذا التوازن. لهذا فجر أول قنبلة ذرية فى سبتمبر سنة ١٩٤٩.

بعد قليل أدركت أمريكا أن عليها أن تحافظ هى الأخرى على التوازن. توازن «السلام» بينها وبين الاتحاد السوفيتى. لهذا أعلنت سياسة جديدة أساسها : الاحتواء. هناك صدام فى المصالح بين أمريكا والاتحاد السوفيتى.. وفى ظل التعادل الذرى أصبح مستحيلا أن يحل هذا الصدام بحرب شاملة. ولكن هذا لا يعنى توقف الصدام، أو تجميده. إنه يعنى خلق توازن متحرك.. فى ظل السلام. لهذا أصبحت السياسة الأمريكية الجديدة، منذ ربيع سنة ١٩٤٧. هى: الاحتواء. ليس احتواء الاتحاد السوفيتى كدولة. ولكن احتواء النفوذ السوفيتى.. كخطر.

هذا الاحتواء له جانب عسكرى. يمثله إقامة منظمة حلف شمال الاطلنطى.. وجانب اقتصادى، يمثله مشروع مارشال الأمريكى لإعادة بناء أوروبا الغربية.

هناك سلام إذن. مازال قائما حتى هذه اللحظة. بين أمريكا والاتحاد السوفيتى.. ولكن كلا الطرفين يعدل من أوضاعه باستمرار.. تحت مظلة السلام.

وفــى منطقتنا فإن وجــه الخطورة فى رؤيــة الأمن العربى لإســرائيل كانت تكمن فى أننــا رأينا بديلين اثنين فقط فى التعامل مع إســرائيل : إما المنــاداة بإزالتها.. أو المناداة بالاستسلام لها.

ولأن إزالة إســرائيل لم تكن هدفا رسميا حقيقيا واردا فى أى وقت. منذ ســنة ١٩٤٨ حتى الآن.. فإن الأمر كان ينتهى دائما إلى الاستسلام لها... هذا هو ما يروج له على الأقل أصحاب سياسة إدارة الخد الأخر لإسرائيل.

وتلك ليست هى حقيقة الأشياء.

فلا إزالة إســرائيل، ولا الاستســلام لها. هما الحدود التى يجب أن يفكر فى إطارها الأمن العربى.. وبالتالى : الأمن المصرى.

إن الحدود هى أولا : أن يتوقف هذا الانهيار فى أمننا.

وثانيــا هى : أن نبدأ، بوعى وتنبه ويقظة وعمل جاد. فى تعديل هذا الأمن. وتعديله بهدف تصور خريطة المستقبل لهذه المنطقة.. أين نريد مكاننا.. وأين مكان إسرائيل ؟.

وفــى الإجابة على هذا الســؤال يجب مبدئيــا أن ندرك الفارق الجوهــرى بيننا وبين إسرائيل : فنحن ننتصر إذا لم نخسر.. بينما إسرائيل تخسر إذا لم تنتصر.

نحــن ننتصــر : إذا منعنا مــن الآن أى احتمال بحياة الجيل المصــرى القادم تحت مظلة الابتزاز العســكرى لإسرائيل.. وإذا أصبح أمننا متوازيا مع - وليس مخصوما من - أمن عربى شــامل.. وإذا ألزمنا القوى الدولية - من خــارج المنطقة - بأن يكون طريقها إلى مصالحها هو من خلال الباب العربى. وليس الباب الإسرائيلى.. وإذا أرغمنا إسرائيل على احترام مبدأ دولى مستقر هو: عدم جواز احتلال الاراضى بالقوة.. وإذا جعلنا ملايينها الثلاثة يعيشون حياة أى ملايين ثلاثة فى العالم، وإذا أقمنا الدولة الفلسطينية على الخمس الأخير الباقى من فلسطين.

وإســرائيل تنتصر : إذا نجحت فى تقديم رشــوة السلام المنفرد إلى مصر.. وإذا جعلت أمنها يقوم على أســاس عدم امن مصر. وبالتالى عــدم أمن العالم العربى.. وإذا جعلت من نفســها عصــا التأديب فى يد القــوى الدولية الخارجية ضد العــرب.. وإذا رأت أن فوائد عدوانها ضدنا أكثر من مضارها.. وإذا نجحت فى تنمية الاتجاهات الانقســامية فى العالم

العربى.. وإذا هدمت سور الصين العظيم الذى ولدت فى داخله وتعيش فيه.

إن الشىء الذى يمكن أن يترجم هذه الأسس. للنصر والهزيمة. هو : هو نظرية الأمن المصرية.

إن تفريط الجيل السابق لنا فى هذا الأمن هو الذى جعل جيلنا يولد فى غرفة الإنعاش.. ونحن لا نريد للجيل القادم أن يموت حتى قبل أن يصل إلى غرفة الإنعاش.

ولقد قيل دائما أن كل جيل يخوض حروب الجيل السابق عليه. بغير أن يدرك ذلك.. ونحن نريد ألا يعيش الجيل القادم محملا من البداية بديون حولناها إليه من رصيد حساباتنا.

نريد للجيل القادم أن يعيش حرا فى حماية الأمن المصرى. وليس مهددا فى ظل الأمن الإسرائيلى. والأمن المصرى لا يقوم فى جميع الأحوال على حسن نية دولة أخرى. خصوصا إذا كانت تلك الدولة معادية وتمتلك أهدافا مختلفة. وتراودها أحلام مختلفة. وتريد أن تستعير لنفسها دور الدولة العظمى فى المنطقة. وتتصور أنها تستطيع أن تقوم بدور رجل الشرطة. لأمريكا فى الشرق الأوسط.

نريد الجيل القادم أن يعرف أن رفضنا للسلام المنفرد مع إسرائيل. لايمثل ضرورة فقط. وإنما يمثل مصلحة تؤدى فى النهاية إلى أمنه هو.. وبالتالى أمن مصر.

فمثل كل رذيلة فى الحياة. هناك دائما إغراء خارجى يمثله السلام المنفرد مع إسرائيل. ورفضنا لهذا السلام المنفرد. لا يقوم على أساس نخوة أو شهامة أو تباه أو تجاهل لضغوط الحياة اليومية.. ولكنه يمثل تمسكا نهائيا بأمن مصر كشعب ودولة. الذى هو بدوره جزء من الأمن العربى الشامل.

نحن فقط لا نريد أن نرهن مستقبلنا فى بنك الرهونات الإسرائيلى.

ولا نريد أن نمارس سياسات وأخلاقيات قارب النجاة. حيث نلقى فى البحر بما نتصوره حمولة زائدة. متوهمين أن فى ذلك نجاتنا. إن أصابتنا بالخطر كانت جماعية.. ومن ثم فيجب أن تكون نجاتنا منه جماعية.

ولا نريد أن نتراجع. فى مواجهة خيبة ويأس وعزلة. أمام الخطر.. لأن معنى هذا التراجع هو أن نفاجأ بهذا الخطر نفسه. أضخم وأضخم وأضخم. فى شوارعنا وداخل بيوتنا.

ولا نريد أن يقوم إيماننا بأمن مصر على أساس عزلتها.. فتلك العزلة هى الطريق الأكيد إلى الانتحار. كانت كذلك فى الماضى.. وسوف تظل كذلك فى المستقبل.

ولا نريد أن نخطو إلى المستقبل. بأقدام مترددة وقلوب وجلة وعقول مهتزة فى فهمنا لمعنى أمن مصر. فأمن مصر يبدأ من عروبتها. وعروبتها ليست عبئا عليها. وإنما هى حزام امن لمصالحها. التى تمثل فى النهاية رفاهية شعبها ومستقبله.

إن الإنسان يجمع بين جناحيه الحكمة والحماقة. كما أن تاريخه كله هو مزيج لكليهما.. ولقد وضع التاريخ أرواحنا فى عهد تتعاظم فيه عواقب الحماقة الإنسانية بشكل يؤدى إلى كارثة فى شئون الحرب والسلام.

وجذور أمن المواطن المصرى لا تكمن فى الحماقة. ولكن فى الحكمة.

والحكمة تبدأ أولا من أدراك حقيقة جوهرية هى: أن مصر لا يمكن أن تكون آمنة على نفسها فى ظل سلام منفرد مع إسرائيل. إن السلام المنفرد يمثل فخا سياسيا وأمنيا تنصبه إسرائيل لكل دولة عربية على حدة.. وفى المقدمة مصر نفسها. لأن الصدام النهائى فى هذه المنطقة هو بين إسرائيل ومصر.

وهناك مائة سبب لرفض السلام المنفرد مع إسرائيل.. العشرة الأخيرة منها هى:

أولا: لان ما ستحصل عليه الأطراف العربية الأخرى من إسرائيل. بعد سلام منفرد تبرمه إسرائيل مع مصر. هو أقل بكثير مما يحصلون عليه فى ظل وجود القوة المصرية فى الساحة. إن إسرائيل.. إذا لم تلتزم بالانسحاب الشامل من الأراضى العربية المحتلة فى وجود قوة مصر.. فإنها لن تفعل ذلك مطلقا فى ظل غياب قوة مصر..

وثانيا: إن اتجاه أى دولة عربية إلى السلام المنفرد مع إسرائيل يضع مبدأ خطيرا فى الساحة العربية. إنه مبدئيا ممارسة لسياسات ولأخلاقيات قارب النجاة.. أو «أنا. ومن بعدى الطوفان» فإذا كنا نقبل اليوم أن نسير إلى سلام هش على جثة الآخرين.. فإننا بذلك نعفى الآخرين من المسئولية حينما يسيرون على جثتنا غدا.

إن السلام المنفرد الذى يبرمه أى طرف عربى مع عدو مشترك اليوم. سرعان ما يرتد إلى صدره غدا. ومن المفيد هنا أن نتذكر على وجه الخصوص دروس المواجهة العربية مع

الغزو الصليبى فى فلسطين ابتداء من أواخر القرن الحادى عشر.. ففى الخمسين سنة الأولى من الحملات الصليبية نجح الصليبيون تماما فى غزوهم لأنهم ضربوا العرب بعضهم ببعض. لقد تحالفوا أولا مع الفاطميين فى مصر ضد الشيعة فى العراق.. ثم مع العراق ضد سوريا.. ثم مع سوريا ضد العراق.. ثم مع العرب ضد الأتراك. ومع الأتراك ضد العرب. وفى النهاية استداروا إلى هذا الذى تحالف معهم فى البداية : خليفة مصر. وعندما تنبه الخليفة الفاطمى أخيرا إلى حجم الخطر الصليبى فى فلسطين. كان الوقت قد تأخر. والصليبيون قد أصبحوا قوة ضخمة. فهاجموا قواته وذبحوها وأحرقوها فردا فردا قبل أن تتمكن - حتى - من أن تستعد للقتال.

لقد تمكن الصليبيون من العرب طوال الخمسة وسبعين سنة الأولى. وسلاحهم الأول فى ذلك هو انقسام العرب أنفسهم وإغراءات «السلام المنفرد» . وتلك الهزائم المتكررة التى منى بها العرب لم تتوقف. متحولة بالتدريج إلى انتصار. إلا بعد أن جاء صلاح الدين الايوبى رافضا من البداية سلاما منفردا. هنا فقط تحول ميزان القوى. الأمر الذى أدى فى النهاية إلى فشل الغزو الصليبى بأكمله.

وثالثا: إن رفض السلام المنفرد ضرورة لأن السلام الذى يجب أن نتجه إليه هو السلام الذى يجعلنا أقرب. وليس أبعد. من بعضنا البعض. وأن تكون مصر أكبر الدول العربية.. فتلك ليست فقط مجرد حقيقة جغرافية. ولكنها أولا حقيقة سياسية. إن مصر سوف تظل هى مصر دائما على الخريطة.. ولكن السياسة الخارجية وحدها تستطيع أن تجعل مصر أكبر. أو أصغر. مما هى على الخريطة. إن فرنسا فى عهد ديجول. وأمريكا فى عهد روزفلت وكنيدى. والهند فى عهد نهرو. هى مجرد أمثلة لدول أصبح نفوذها السياسى فى الحياة الدولية أكبر جدا من حجمها الجغرافى على الخريطة.

إن كلمات مثل «النفوذ» و «الهيبة» و «التأثير» .. هى فى السياسة كلمات حقيقية لها مدلول حقيقى. وتمثل مصالح حقيقية.

وعندما قرر الزعيم الفرنسى الراحل شارل ديجول مثلا. فى أعقاب حرب يونيو سنة ١٩٦٧. فرض حظر على صادرات السلاح الفرنسى إلى إسرائيل عقابا لها على بدئها

العدوان ضد العرب.. فإنه بهذا القرار حمل الاقتصاد الفرنسي خسارة عاجلة بسبب إلغاء عقد مدفوع فعلا لتصدير خمسين طائرة ميراج إلى إسرائيل. ولكن. خلال ثلاث سنوات فقط من تلك الخسارة كانت مكاسب فرنسا من تعاملها مع العالم العربى قد عوضت عدة مرات خسارتها من التعامل مع إسرائيل.

رابعا: إن إسرائيل تريد أن يكون الفلسطينيون هم ضحيتها فى هذه المرحلة. وإذا سمحنا لعدو مشترك بأن يشد من بيننا عضوا فى الأسرة لكى يذبحه أمام أعيوننا. فإننا نفتح أمامه الطريق لكى يذبحنا بعد ذلك واحدا بعد الآخر.

ولعبة التفرقة هذه مألوفة فى السياسة بقدر ما يوجد شر. وبقدر ما توجد سياسة. وفى سنة ١٩٤٩ مثلا عرض الملك فاروق فى مصر أن يعيد حزب الوفد. وهو حزب الأغلبية. إلى الحكم. بشرط أن يتخلى الحزب عن زعيمه.. مصطفى النحاس. إن الملك كان يريد بذلك أن ينسف الطرفين معا : الحزب.. وزعيمه.. ولكن الحزب اكتشف اللعبة مبكرا ورفض العزف على أنغامها.

وفى صراعنا الحالى مع إسرائيل. فإن التمسك بالحقوق الفلسطينية هو فى الواقع تمسك بالفكرة العربية ذاتها. والتجاوز عن ذلك هو عزف على اللحن الذى وضعته إسرائيل نفسها.

خامسا: إن السلام المنفرد هو من البداية هدف إسرائيلى يؤدى إلى تضخم قوة إسرائيل فى كل مرة أمام الدول العربية. وهى فرادى. إنه يؤدى على الفور إلى أن تصبح إسرائيل هى السلطة العظمى التى تقرر مصير الشرق الأوسط. ونحن لو سمحنا لذلك بأن يحدث. ولو لمرة واحدة فإننا بذلك نكون كمن ينسف بذلك نظام الجاذبية الكونية.

إن مصر فى هذه المنطقة هى مركز الجاذبية. ليس فقط من باب الزعامة. ولكن أيضا من حيث القدرة. فإذا سمحنا بإخراج هذا المركز من دائرته فإننا بذلك ننسف محيطا سياسيا كاملا عاشت به مصر. ويستبدل محيطا آخر مختلفا ليست مصر هى مركزه.

وبعض الأصوات فى مصر يقول مخادعا: إن مصر لم تجن من المواجهة مع إسرائيل إلا الخسارة. ومن ثم فعلينا أن ننفض يدنا من القضية كلها. والذين يقولون ذلك إنما يجنون

على مصر قبل أى طرف آخر. فأولا غير صحيح أننا لم نجن سوى الخسارة. وثانيا إذا كنا قد خسرنا بعض الأشياء. فهذا ليس مبررا لكى نخسر كل الأشياء.. وإلا أصبحنا كمن يتخلص من آلام الحياة بالتخلص من الحياة نفسها !

سادسا: إن فى العالم العربى. بل فى الشرق الأوسط كله. أطرافا. من داخل وخارج المنطقة على السواء تنتظر نتيجة هذا الصراع الدامى مع إسرائيل لكى تقامر على طرفه الرابح ضد طرفه الخاسر.

إن قوة السلسلة تقاس أحيانا بأضعف حلقاتها. وقد كان أول تأثير مباشر لتخلخل ميزان القوى فى السنوات الأخيرة لصالح إسرائيل هو خروج القيادات المارونية فى لبنان لكى تطالب علنا بوضع نفسها تحت الحماية الإسرائيلية. إن شيئا من هذا كان يستحيل حدوثه قبل عشرين سنة. أو عشر سنوات. أو حتى فى أعقاب الانتصار الإسرائيلى الكاسح ضد العرب فى يونيو سنة ١٩٦٧. والآن فإن المستحيل يحدث. وهو يحدث فى وضح النهار. لمجرد أن القراءة الأولى للموقف السياسى توحى بأن إسرائيل هى الطرف الرابح والمسيطر.

وأوروبا الغربية. التى اضطرت إلى اتخاذ موقف موحد لصالح الحقوق العربية فى نوفمبر سنة ١٩٧٣. هى التى تراجعت بالتدريج عن هذا الموقف فى السنوات التالية كلما ازداد السادات تراجعا أمام إسرائيل. ومنذ سنة ١٩٨٢ جرجرت أمريكا خلفها ثلاثا من الدول الأوروبية إلى لبنان لكى تفرض عليه «السلام الإسرائيلى» وهو أمر لم يكن متصورا حدوثه قبل عشر سنوات فقط.

سابعا: إن مصلحة مصر هى فى السلام الشامل. وليس المنفرد. مع إسرائيل.. لأن كل طاقة تضعها مصر فى المحيط العربى هى استثمار يعود إليها فيما بعد بأرباح مركبة. استثمار فى مستقبل مشترك. وأمن مشترك. وهدف مشترك.

وحينما تطوعت الجزائر أثناء حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ بدفع مائة مليون دولار للاتحاد السوفيتى ثمنا لأسلحة يوردها إلى مصر. وحينما ساهمت السعودية ودول الخليج فى الأسبوعين الأولين للقتال بألف مليون دولار لمصر. وحينما أعلن العرب حظر البترول.. كان هذا تسديدا عربيا لنصيب مؤكد فى القضية المشتركة.

وعندما تعرضت مصر للغزو الثلاثى فى سنة ١٩٥٦. وبادرت الدول العربية إلى التضامن مع مصر والوقوف خلفها صفا واحدا (ما عدا كميل شمعون فى لبنان ونورى السعيد فى العراق).. بل وعرض بعضها الدخول فى الحرب إلى جانب مصر.. فإن هذا كان نتيجة مباشرة لسياسة عربية رشيدة مارستها مصر.

ثامنا: إذا كانت السياسة الخارجية لأى دولة تبدأ من حيث تنتهى سياستها الداخلية.. فإن السياسة الداخلية بدورها سرعان ما تتأثر بشدة بانعكاسات الموقف الخارجى.. وتجنى فوائد وخسائر السياسة الخارجية. ومن التأثيرات الجانبية المبكرة لما يجرى مع إسرائيل.. إن بعض القيادات المارونية اندفعت إلى المطالبة بقيام دولة مارونية مستقلة فى لبنان. ومع أن هذه قد تبدو للبعض مسألة لبنانية بحتة. إلا أن السماح بهذه السابقة الانقسامية الخطيرة سرعان ما يهدد وحدة كل مجتمع عربى. فلو نجح المارونيون فى إقامة دولتهم فى لبنان.. وهو أمر تدعمه إسرائيل كما سيتضح فيما بعد.. فإنه لا يوجد ما يمنع من أن يكرر الدروز هذه المحاولة فى سوريا.. والأكراد فى العراق.. والبربر فى المغرب والجزائر.. والجنوب فى السودان.. الخ..

تاسعا: إن إطلاق يد إسرائيل فى المشرق العربى.. وهو ما يترتب بالتأكيد على أى سلام منفرد.. سوف يخل بشدة بميزان القوى فى المنطقة لصالح إسرائيل. وفى النهاية ضد مصر. إن الضحايا ربما يكونون فى البداية أردنيين وسوريين ولبنانيين.. ولكنهم فى النهاية سوف يكونون مصريون. وهكذا نجد أن إسرائيل فعلت فى ظل «معاهدة السلام» مع السادات ما لم تكن تجرؤ على عمله من قبل. لقد قامت مثلا بضرب المفاعل النووى السلمى فى العراق. وإعلان ضم الجولان. واحتلال لبنان. وضاعفت برامجها الاستيطانية فى الضفة الغربية وقطاع غزة.. الخ..

عاشرا: لأن السياسة الخارجية الرشيدة لا تقوم أبدا على أساس مكاسب بلا ثمن. إنها تعمل فقط على أن تكون المكاسب مبررة للثمن ومتناسبة معه. وقد تبدو أعباء إقامة أساس أى عمارة ضخمة هى الجزء الأكبر تكلفة فيها.. والجزء الذى يبدو بلا عائد سريع.. ولكنه بغير هذا الأساس يصبح وجود العمارة نفسه مستحيلا. ولقد تبدو مصر أحيانا وهى تتحمل

العبء الأكبر، وتبدو أحيانا بعكس ذلك.. ولكن هذا هو الطريق الوحيد إلى سلام شامل يمثل في النهاية الأمن الشامل.

تلك هي الأسباب العشرة الأخيرة التي تبرر ـ من بين مائة سبب ـ رفض مبدأ السلام المنفرد مع إسرائيل والتمسك بسلام شامل يتم بشروط عربية. التمسك باختصار. بالسلام العربي ورفض «السلام الاسرئيلي» .

أما الأسباب التسعين الأولى فهي: أمن مصر.

إنه الأمن المصرى بمفهومه الشامل الذى يجعل السلام رصيدا يضاف إلى قوة مصر. وليس عبئا يضعفها.

والمفهوم الشامل للأمن المصرى يعنى ارتباط أمن مصر أولا، وبشكل مباشر. بما يجرى فى السودان وليبيا وفلسطين. فقيام نظام حكم معادى فى أى من تلك البلاد هو تهديد مباشر للأمن المصرى. والآن. ما بالنا والذى نواجهه فى فلسطين ليس مجرد نظام حكم معاد.. ولكن دولة معادية من أساسها ؟

من هنا فإن تصدى مصر للخطر الصهيونى القادم من فلسطين. والحد مبدئيا من انطلاقه، يمثل تمسكا بأساسيات الأمن المصرى وهذا الأمن لا تتوقف النظرة إليه على نظام أو آخر للحكم فى مصر.. ولا تتوقف أيضا على حاكم دون آخر.. ولا فترة دون أخرى.

فالذى نلاحظه دائما هو أن مصر تتمسك بجوهر أمنها هذا فى مراحل قوتها ويقظتها الوطنية. لقد كان محمد على هو الذى لخص الموقف كله حينما قال. باختصار شديد. إن الشام فى مجموعه ـ يضم فلسطين والأردن ولبنان وسوريا حاليا ـ هو «باب الديار المصرية».

بعده بمائة سنة كان مصطفى النحاس، زعيم حزب الوفد الممثل للأغلبية.. ورئيس وزراء مصر. يستدعى السير مايلز لامبسون سفير بريطانيا فى القاهرة. فى مقابلة جرت فى يوليو سنة ١٩٣٧ ، ليخطره برفض مصر اقتطاع جزء من فلسطين لليهود. ثم أضاف قائلا له: إننى لا أستطيع أن أحس بالاطمئنان. وأنا أفكر فى قيام دولة يهودية على حدود مصر. إذ. ما الذى يمنع اليهود من أن يدعوا أن لهم. حتى. حقا فى سيناء فيما بعد؟!.

إن مصطفى النحاس، بكلماته تلك. لم يكن يعبر فقط عن تنبه كامل لجوهر الأمن

المصرى. ولكنه عبر عن تنبؤ مدهش بالمستقبل. فما بدا له فى سنة ١٩٣٧ كخطر محتمل فى المستقبل البعيد. تحقق بالفعل بعدها بتسعة عشر عاما فقط كخطر حقيقى. لقد قامت إسرائيل كدولة. وانطلقت بالفعل إلى سيناء تغزوها فى أكتوبر سنة ١٩٥٦. مدعية بأن لها حقا تاريخيا فى الاستيلاء على سيناء ! ولقد تم إخراج إسرائيل من سيناء فى مارس ١٩٥٧. ولكنها لم تلبث أن عادت تحتلها من جديد. وبالغزو العسكرى. بعدها بعشر سنوات.

ولم يكن الأمر فى كل مرة يتعلق برد فعل. ولكنه تعلق من البداية بفعل خططت له إسرائيل من البداية. فالحروب الإسرائيلية العربية لم تكن مطلقا نتيجة لمواقف عربية. وإنما هى بالأساس أسباب لمواقف عربية. فمنذ قيامها خاضت إسرائيل سبع حروب ضد العرب.. سبع حروب كبرى وليس أربعة كما يقول البعض بيننا أحيانا.

ونظرة خاطفة على الفكر الاسرائيلى فى هذا المجال (حيث ناقشناه تفصيلا من قبل) توضح لنا على الفور وظيفة ومهمة كل واحدة من تلك الحروب. ففى دراسة نشرت فى إسرائيل (صحيفة هاعولام هازيه - ٢٩ سبتمبر ١٩٨٢) بعنوان «حروب إسرائيل» .. نجد التفرقة واضحة بين الاسم الرسمى والهدف المعلن والحجة التى يتم ترديدها لكل حرب. وبين الاسم الفعلى والهدف الحقيقى والنتائج الخفية المستهدفة من البداية.

فحرب سنة ١٩٤٨ مثلا. تعرف رسميا بأسم «حرب التحرير» أو «حرب الاستقلال» . وقد بدأت فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ - يوم صدور قرار تقسيم فلسطين - وانتهت بتوقيع الهدنة مع الدول العربية الأربعة المحيطة بإسرائيل. واستمرت ١٩ شهرا. والهدف المعلن للحرب هو: قيام «الاستقلال اليهودى فى أرض إسرائيل» . أما الهدف الحقيقى فهو «الحفاظ على الاستيطان اليهودى وضرب الجيوش العربية وخلق عمق استراتيجى اسرائيلى وتوسيع المناطق التى حصلت عليها إسرائيل والحفاظ على الامتداد الاقليمى من خلال محاولات إخلاء المناطق المحتلة من المواطنين العرب» . أما الحجة فهى رفض العرب. ومن بينهم الفلسطينيون. قبول مشروع التقسيم الصادر من الأمم المتحدة. والنتيجة السياسية هى «قيام دولة يهودية بحجم يفوق كثيرا ما حدده قرار التقسيم وقد رفض بن جوريون لحظة إعلان بيان قيام الدولة ذكر أية حدود لها.

وحرب ١٩٥٦ تعرف رسميا باسم «حرب قادش» أو «حرب سيناء» أو «حرب السويس» . والهدف المعلن هو «القضاء على وحدات الفدائيين المصريين فى سيناء» . ولكن بعد ثلاثة أسابيع أعلن بن جوريون رئيس الوزراء أن لتلك الحرب ثلاثة أهداف: «تدمير القوات التى كانت ترابط لتأديبنا. وتحرير أرض الوطن التى احتلها الغزاة (يقصد سيناء) وتأمين حرية الملاحة فى مضايق إيلات وقناة السويس» . أما الهدف الحقيقى فهو «تقويض نظام عبد الناصر فى مصر من خلال تعاون مستتر جيدا مع أكبر دولتين مكروهتين فى هذه المنطقة فى ذلك الوقت ـ انجلترا وفرنسا» . الحجة : لم تكن هناك حجة. النتائج السياسية : تم فتح المضايق أمام الملاحة الإسرائيلية. واستمرار الهدوء على الجبهة لمدة ١١ عاما. اضطرت إسرائيل للانسحاب من جميع الأراضى التى احتلتها بما فيها قطاع غزة. بينما أصبح جمال عبد الناصر بطلا فى العالم العربى. بل أحد أبطال العالم الثالث.

حرب ١٩٦٧، الاسم الرسمى : «حرب الأيام الستة» أو «حرب يونيو ١٩٦٧» . الهدف المعلن : تدمير الجيش المصرى فى سيناء. الهدف الحقيقى : إعادة الثقة فى قوة الردع الاسرائيلى والتى كانت قد اهتزت فى الأسابيع السابقة للحرب. الحجة : حشد القوات المصرية فى سيناء وإغلاق المضايق. النتائج السياسية : سيطرت إسرائيل على نصف الشعب الفلسطينى. وارتفع نجم شعار «أرض إسرائيل الكاملة» . وتحولت القضية الفلسطينية من مجرد مشكلة خارجية إلى مشكلة إسرائيلية داخلية. وفشلت إسرائيل فى إسقاط عدوها اللدود فى المنطقة. وهو جمال عبد الناصر.

حرب ١٩٦٩. الاسم الرسمى : «حرب الاستنزاف» أو «حرب الألف يوم» . الهدف المعلن : كان العرب هم الذين بادروا بهذه الحرب. حيث أعلن جمال عبد الناصر فى سنة ١٩٦٩ فى الاحتفال بعيد ثورة يوليو : إننا لا نستطيع أن نحرر سيناء فورا. ولكننا نستنزف إسرائيل ونحطم نفسيتها. وكانت إسرائيل. التى تعودت على الانتقام. ترد الصاع صاعين بهدف إسكات المصريين. ولكن عبثا وبلا جدوى. الهدف الحقيقى : أراد عبدالناصر استنزاف إسرائيل وتحطيم نفسيتها وإحباط نواياها التى تريد أن تخلق من الحدود الجديدة أمرا واقعيا. الحجة خرق وقف إطلاق النار. النتائج السياسية : نجح العرب فى أن يبرهنوا

على أن حرب الأيام الستة لم تنته. وأنهم لا يقبلون نتائجها. والسؤال الحائر هو : من الذى انتصر فى هذه الحرب ؟ يجيب الجنرالان ماتيتيا هوبيليد وعيزر فايتسمان بأن مصر هى التى انتصرت فى هذه الحرب. بينما يقول موشى ديان وحاييم بارليف بأن إسرائيل هى التى انتصرت لأن مصر لم تدفعها للانسحاب. ولكن الحرب التالية (حرب أكتوبر) أثبتت أن المصريين طبقوا فيها تماما خبرتهم فى حرب الاستنزاف.

حرب ١٩٧٣. الاسم الرسمى : «حرب يوم الغفران» .. ولدى العرب «حرب أكتوبر» أو «حرب رمضان» . الهدف المعلن : من جانب إسرائيل - دفع الهجوم العربى. ومن الجانب العربى - كانت حرب الاستنزاف بأسلوب أخر. وعموما. كانت الأهداف المعلنة والأهداف الخفية لهذه الحرب متشابهة - سواء بالنسبة لمن هاجم أو من هوجم. النتائج السياسية : انكسر الجمود السياسى بما حقق سعادة المصريين والسوريين وخيبة أمل إسرائيل. وبرزت قوة اندماج أسلحة الحرب والمال والنفط العربى. انخفض تأثير السوفييت فى المنطقة. بينما ازداد الوجود الامريكى خاصة فى مصر. كذلك اتسعت شقة الخلاف بين الحليفتين مصر وسوريا. فى الوقت الذى أدى فيه استخدام سلاح البترول إلى انقلاب اقتصادى عالمى.

حرب الليطانى ١٩٧٨. الاسم الرسمى : عملية الليطانى. الهدف المعلن : إنزال ضربة عسكرية شديدة ضد القوات الفلسطينية فى جنوب لبنان حتى نهر الليطانى. الهدف الحقيقى : بالإضافة إلى الهدف المعلن. هناك هدف غير معلن ذو طابع سياسى عسكرى. وهو توسيع وتعميق الجيوب المسيحية لصنع قطاع مسيحى / شيعى فى جنوب لبنان. وتحطيم أى نواة لقيام دولة فلسطينية. الحجة : الهجوم على أتوبيس ركاب على طريق الشاطئ شمال تل أبيب. النتائج السياسية : اتسعت بالفعل المنطقة المسيحية فى الجنوب اللبنانى ولكنها لم تصل إلى ضفاف نهر الليطانى. تم وضع قوات دولية بين القوات الفلسطينية فى الشمال والقوات المسيحية فى الجنوب.

حرب لبنان - يونيو ١٩٨٢. الاسم الرسمى : عملية «سلامة الخليل» . الأهداف المعلنة : تحطيم آلة الحرب الفلسطينية فى نطاق ٤٠ كيلومترا بالجنوب اللبنانى. ولكن.

بعد أيام تم الإعلان عن أهداف جديدة مثل القضاء على الوجود العسكرى والسياسى والاجتماعى لمنظمة التحرير الفلسطينية فى كل لبنان نهائيا. والالتحام مع قوات الكتائب بزعامة بشير الجميل من أجل قيام سلطة جديدة فى لبنان تقبل توقيع معاهدة سلام مع إسرائيل، وأخيرا إخراج القوات السورية من لبنان. الأهداف الحقيقية : إلى جانب الأهداف المعلنة. هناك أيضا هدف آخر هام هو القضاء على منظمة التحرير تماما حتى يصبح فلسطينيو الضفة الغربية وقطاع غزة بدون قيادة قومية. فيسهل على إسرائيل ضم تلك الأراضى.. وبذلك تحل المشكلة الفلسطينية إلى الأبد. الحجة : محاولة اغتيال سفير إسرائيل فى لندن. النتائج السياسية : خرج رجال منظمة التحرير من بيروت ومن الجنوب. ولكنهم بقوا فى ٤٠٪ من أراضى لبنان فى الشمال. أما الولايات المتحدة. التى أيدت الحرب فى أولها. فقد أعلنت إصرارها على عدم ضم الضفة الغربية وغزة لإسرائيل.

تلك. إذن. هى صورة إسرائيلية لحروب إسرائيل السبعة خلال مجرد ٣٤ سنة من وجودها كدولة. وهناك فى كل حرب أهداف معلنة. وأخرى خفية. وهناك دائما المبادرة بشن الحرب. وفى الحربين الوحيدتين اللتين تمتا بمبادرة عربية – حرب الاستنزاف وحرب أكتوبر – فإن الجانب العربى كان يسعى فقط إلى تحرير جزء من أراضى مصر وسوريا التى سبق لإسرائيل احتلالها من حرب سابقة. وكل حرب لها حجتها التى تنتحلها إسرائيل. ولكن. إذا لم تسعفها الحجة فلا يهم. والأهداف تتجمع فى النهاية عند فرض «السلام الاسرائيلى» على العرب، ابتداء بمصر وانتهاء بلبنان.على الجانب الأكثر أهمية فى قراءة تلك الصورة الإسرائيلية، من زاوية الأمن المصرى. هو أن إسرائيل تستعد وتخطط دائما لحربها التالية.. بينما الجانب العربى يستعد لاحتواء نتائج حرب مضت بالفعل. وقد بلغت تلك الفجوة العقلية قمتها حينما أعلن الرئيس السابق السادات من جانبه، فى أعقاب حرب أكتوبر مباشرة. إن تلك الحرب هى آخر الحروب مع إسرائيل. آخر الحروب. من وجهة نظره. ولكنها لم تكن كذلك بالطبع من وجهة نظر إسرائيل. فقد رأينا حربين كاملتين بعدها. أولاهما تمت فى ظل مبادرة السادات بالذهاب للتفاوض المباشر فى القدس. والثانية فى ظل معاهدة السلام الإسرائيلية معه.

من هنا فإن الدرس الأساسى الذى يعنى مصر الآن بالدرجة الأولى، هو أن حرب أكتوبر لـن تكـون مطلقا هى آخر الحروب الإسـرائيلية ضد العرب، بل وربما ضد مصر نفسـها. وبالطبـع لا يعنـى هذا أن ندعو إلى الحرب فى الربع سـاعة التالية. ولكنه يعنى أساسـا أن قدرتنـا على منعها تتوقف على مدى الاسـتعداد لمواجهتها. فالردع الاسـرائيلى للعالم العربى. إذا لم يتم التوازن معه بردع مصرى كاف. وتكافؤ فى التسليح. وقدرة على جعل الطرف الآخر يدفع ثمن عدوانه، سـيكون طليقا وشرسـا. وكلما تأكدت إسرائيل مسبقا أن هناك ثمنا فادحا سـتدفعه فورا لعدوانها، كلما منعناها من البداية من التفكير فى مثل هذا العدوان.

والواقع إن بناء قوة الردع المصرية أصبح أكثر إلحاحا. على ضوء إعادة البناء الشـامل التى قامت بها إسـرائيل لقواتها فى السـنوات السـبع التالية مباشرة لحرب أكتوبر. ومن ناحية أخرى. فإن الصلح المنفرد الذى أبرمه السـادات مع إسرائيل قد جعل مصر اضعف عسـكريا وسياسـيا فى مواجهة إسرائيل. بل إن وجود هذا الصلح نفسه. غير مرتبط بقيود علـى إسـرائيل. بينما يقـترن بقيود فادحة علـى مصر. أصبح عملا إيجابيـا إضافيا فى حسابات إسرائيل وخططها للمستقبل.

ونحن نستطيع معرفة نوايا إسرائيل فى حروبها القادمة من مجرد معرفة أنواع الأسلحة التـى اهتمت بالحصول عليها فى السـنوات الأخيرة. أسـلحة تتميـز بأنها بعيدة المدى. وتضيـف فى كل مرة مزيدا مـن العواصم العربية داخل مرمى نيرانها وقذائفها. وفى نفس الوقت لا تتيح للجانب العربى أية فرصة للإنذار الكافى. أو مواجهتها بنظام فعال للدفاع الجوى من الذى توافر لدى مصر وسـوريا حتى سـنة ١٩٧٣. وهذه الأسـلحة التى اهتمت إسـرائيل بالحصول عليها تتضمن طائرات بلا طيارين. وطائرات يمكن توجيهها من الجو والأرض والبحر. وقذائف موجهة لاسلكيا. بالإضافة إلى الطائرات والصواريخ بعيدة المدى. وقد تسـلمت إسـرائيل الدفعة الأولى من صواريخ. «لانس» الأمريكية مثلا فى نهاية سـنة ١٩٧٥. فى نفس الوقت الذى حصلت فيه من الولايات المتحدة على تعهد بالحصول على صواريخ «بيرشنج» الذى تبلغ سرعته مائة ميل فى الدقيقة تقريبا.

ولأن نطاق التهديد الاسـرائيلى اتسع تماما بما أصبح يهدد بالفعل معظم الدول العربية المؤثرة. لذلك فإن الأمن المصرى أصبح محتاجا. كما لم يحدث فى أى وقت مضى. إلى أن يجعل نفسـه طليعة ونموذجا لأمن عربى شـامل لابد من إقامته بسرعة وفاعلية. إن العالم العربى قد لا يسـتطيع مواجهة الخطر الاسرائيلى بغير قيادة مصرية.. ولكن مصر أيضا قد لا تستطيع بناء أمن فعال لنفسها بغير عمق عربى.

إن ارتفاع حجم ومستوى الخطر الاسرائيلى بما لم يحدث من قبل. وارتفاعه بما يهدد وجود مصر نفسـها. أصبح يمثل أحد المتغيرات الأساسـية التى تدفـع مصر إلى التعجيل بتدعيم عمقها العربى. من ناحية أخرى. وهذا متغير أساسـى ثان.. أو وجه آخر للعملة. فإن انتقال بؤرة الخطر السياسـى الدولى إلى الخليج العربى ومنطقة البترول. أصبح يفرض على دول البترول العربى أن تتجه - بحسـم وسـرعة - إلى التكاتف مع مصر فى بناء أمن عربى فعال. فالخطر العاجل الآن لن يكون قادما من صراع القوتين العظميين على البترول.. بقدر ما سيأتى من امتداد الخطر الإسرائيلى نفسه إلى منطقة البترول.

ولقـد رأينـا من قبل كيف بدأت إسـرائيل تتطلع بالفعل إلى منطقـة البترول العربى. كوسـيلة جديدة تستفيد منها وتسـتثمرها لتعظيم دورها الإقليمى فى خدمة المصالح الدولية الأجنبية. إن الأمن المصرى يقتضى بداية إلغائه هذا الدور الاقليمى الذى تنتحله إسـرائيل لنفسـها على حساب العالم العربى. إلغاؤه. وليس الاعتراف به والتكيف معه والإذعان له كما فى حالة السـادات. إن كل وظيفة إقليمية تنتحلها إسـرائيل. هى بالضرورة مخصومة من الأمن العربى - بدءا بأمن مصر على وجه الخصوص.

مـن هنـا فإن التحام الأمن المصرى بالأمن العربى أصبح الآن يمثل أكثر من ضرورة. لقد أصبـح فـى الواقع يمثل إنقاذا أخيرا. أصبح حتمية وحيدة متاحة. ولا بديل عنها سـوى الإذعان للسلام الاسرائيلى بكل مضمونه وأبعاده.

يتكرر الدرس الآن إذن ونحن وسط العاصفة درس من الحكمة.

والحكمة التى تبدأ من اختيار طريق المستقبل بناء على دروس الماضى. فتلك دروس لم تمثل أبدا نزوة حاكم.. أو شـطحة مفكر.. أو خيالات شـاعر.. وإنما تمثـل آلاما لا تطاق.. ودماء

لا تعوض.. ومرارة بلا حدود.. وتضحيات بلا نهاية.. قدمها أبناء مصر لبلدهم فى الماضى.

والعــزاء الوحيــد عن تلك التضحيات هو ألا تذهب هبــاء.. العزاء الوحيد هو أن تؤدى فــى النهاية إلى الحكمة منها : حكمــة أن تعيش مصر. وهى أكثر أمنا. وأعظم مكانة فى التاريخ.

وفــى نفس التاريخ هناك نظريات عديدة. لعل أبســطها هــو النظرية التى توصل إليها المؤرخ البريطانى الراحل «أرنولد توينى» .

إن «توينى» .. بعد أن درس حالات إحدى وعشرين حضارة ازدحم بها التاريخ المسطور للجنس البشــرى. اكتشف أن كلا منها نشأ وانهار فى ظل قانون أساسى هو : التحدى.. والاستجابة.

فــكل عصر يطــرح معه تحديا خاصا بــه. والأمم التى تنهض.. هــى الأمم التى تكون اســتجابتها فى مستوى التحدى. أما الأمم التى تنهار. فهى تلك التى تهرب من مواجهة التحدى. أو تتجاهله. أو تؤجل مواجهته. أو تهمل فى الاستجابة إليه.

أكثر من ذلك. فإن هذه الاســتجابة. التى يقدمها كل شــعب للتحدى المطروح عليه. تكون دائما مسألة: إرادة.

إنها إرادة مواجهة التحدى.. وليست إرادة الهروب منه.

وإسرائيل هى التحدى الذى أصبح يواجه أمتنا.

ونحن نخطئ بفداحة. فى حق مستقبلنا بالدرجة الأولى. إذا تصورنا أن التحدى يمكن مواجهته باسترضاء. أو التظاهر بعدم وجوده. أو بإدارة عيوننا إلى اتجاه آخر. إننا فى هذه الحالة نصبح كمريض.. لا هو يتحمل المرض.. ولا هو يتحمل علاجه.

ونحن قادرون على العلاج. ليس بأن ننكفئ على أنفسنا.. ولا بأن نتصور أن مسئوليتنا عــن منطقتنا هى بمثل مســئوليتنا عــن زلزال يقع فى طوكيو.. ولا بالاســتجابة لإغراءات الرشوة القاتلة.

نحن قادرون بشىء واحد نعود إليه هو : أن نقرأ خريطة مصر.

فمرة أخرى. من قراءتنا لتلك الخريطة. سوف نكتشف أن أمن مصر يبدأ من فلسطين.

بـل وما بعدها. درس اكتشـفه اللنبي- وهـو قائد بريطاني- في الحـرب العالمية الأولى.. ونابليون، وهو قائد فرنسي، في القرن الثامن عشر.. ومحمد علي، وهو حاكم مصري- في القرن التاسع عشر.. والظاهر بيبرس في القرن الثالث عشر وصلاح الدين في القرن الحادى عشر.. وتحتمس الثالث- وهو ابن مصر- في القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

لقـد اختلفـت الأسمـاء- وتوحد الدرس فـي التاريخ المصرى : إن أمـن مصر يبدأ من فلسطين.. بل ومن الشام في مجموعه.

ولكن أمن مصر يظل مجرد كلمة- أو بالكثير أمنية طيبة إذا كنا سنتشدق بها ليلا ونهارا بغير أن نجعل هذا الأمن مرتكزا على قوة حقيقية. والقوة التى تقيم هذا الأمن تتشـكل في الواقع من أربع مقومات ضرورية لابد من توفيرها معا حتى تكون قابلة للتأثير فيما يجرى حولنا، بل وقابلة للتصديق من كل عدو يهدد الأمن المصرى. وفي توفير مربع القوة المصرى هذا مفتاح للنهضة المصرية الحقيقية- ومن ثم نهضة واستقلال العالم العربى.. بمثل ما في ضياعه أو اختفاء بعض أركانه مقدمة للانهيار.

والضلـع الأول في هـذا المربع هو وجود القدرة المصرية الفاعلة على الردع العسـكرى. والقوة العسـكرية لا تعنى من البداية أى مسـتوى من مستويات القوة.. ولا مجرد تواجدها مرة وينتهى الأمر. إنها عملية ديناميكية تتطور دائما.. لأن هذه القوة يمكن أن تصبح ضعفا لو قورنت بقوة الخطر حولنا (في فلسـطين أساسـا). ومن هنا فإن مصر تصبح أقل قوة في كل مرة يصبح فيها الخطر حولنا أكثر قوة. فالدولة لا تصبح ضعيفة من داخلها فقط.. ولكنها تصبح ضعيفة أيضا حينما تتجاوزها القوة المعادية في القوة.

ومن ناحية أخرى فإن المعنى الرادع للقوة العسـكرية المصرية لا يتطلب بالضرورة تفوقا شـاملا وكامـلا- في البر والبحر والجو- على القوة المعاديـة. لقد جاء إلينا الصليبيون كما رأينا من قبل وهم متفوقون بحرا.. ولكننا انتصرنا عليهم بحسـن اسـتخدام قوتنا في البر. وفي حرب أكتوبر ١٩٧٣ لم ننتظر إلى أن نتفوق على إسـرائيل في الجو.. أو حتى نحقق التعادل النوعى معها.. ولكن حسن استخدامنا للبدائل- سمح لنا بامتصاص التفوق الجوى الإسرائيلى.

من هنا يكتسب مفهوم الردع المصرى مضمونه. ليس بمعنى التفوق الشامل بالضرورة. ولكن بمعنى التفوق النسبى.. خصوصا على المستوى التكنولوجى. لقد كان التحالف التكنولوجى للقوة المصرية هو دائما مقدمة لاحتلال مصر.. فقديما كان أول احتلال لمصر على يد الهكسوس عندما قدموا إليها من فلسطين.. وكأن انتصارهم على مصر هو فى الواقع انتصارا للحصان والعربة ضد المشاة. وفى القرن السادس عشر انتصر بارود المقاتل العثمانى على حصان المقاتل المصرى. وفى القرن الثامن عشر انتصرت مدفعية نابليون على بنادق المماليك.

بل فى أوروبا نفسها. فى المرتين اللتين جاء منها الخطر إلينا. انتصرنا نحن عليها فى المرة الأولى (القرن الثانى عشر).. بينما انتصرت هى علينا فى المرة الثانية (فى القرن الثامن عشر) بسبب هذا العامل التكنولوجى أساسا.

فالقوة العسكرية الرادعة. ذات المضمون التكنولوجى العصرى. هى إذن الركيزة الأولى فى حماية أمن مصر فى الماضى. وستظل كذلك فى المستقبل. خاصة مع تلاحق طفرات التطور فى هذا المجال.

وهذا بالطبع يتطلب إقامة الصناعة الوطنية العسكرية القادرة على الوفاء بالاحتياجات الأساسية للأمن المصرى.. آخذين فى الاعتبار معدلات الاستهلاك الضخمة التى تشهدها الحرب الحديثة.

ومن ناحية أخرى فإن فاعلية هذه القوة العسكرية المصرية الرادعة. لا تكون فى أقصاها إلا إذا مارسناها خارج حدودنا فى مواجهة الخطر ضدنا. إن انتظار الخطر فى كل مرة لكى نواجهه على أرضنا يجعلنا نتحمل عبء المواجهة مرتين : عسكريا ومدنيا. وفى أحيان عديدة يكون الثمن المدنى أضعاف الثمن العسكرى. فلأننا تركنا لإسرائيل فى يونيو ١٩٦٧ حرية الضربة الأولى. دارت المعركة كلها على أرضنا. وحينما وصلت إسرائيل إلى شاطئ قناة السويس وبقيت هناك لستة سنوات كاملة. أدى هذا إلى إغلاق قناة السويس. وتدميرها لمدن القناة بعد أن أصبحت فى المرمى المباشر لمدفعية الاحتلال الإسرائيلى. وهكذا فانه إلى جانب الأعباء العسكرية التى استلزمها تحرير أرضنا. فإننا تحملنا أيضا خسائر تهجير السكان

وتخريب المدن ونقل المصانع، ثم أعباء إعادة التعمير (٣٠٠٠ مليون جنيه) زائد خسارة عائدات المرور بالقناة المغلقة (وهى التى لا تقل تقديراتها عن ١٢٠٠ مليون جنيه) زائد الموارد الاقتصادية الضائعة فى سيناء ذاتها.. وبذلك تتجاوز خسائرنا المدنية والاقتصادية وحدها خمسة آلاف مليون جنيه، لمجرد أننا نقبل فى كل مرة أن تدور المعركة على أراضينا.

وتزيد أعباء هذه الاختيار الفادح مع نمو الثروات الطبيعية (وفى مقدمتها البترول) التى سنخرجها من سيناء سنة بعد أخرى.. وهى ثروات أصبحت تعيش الآن مجردة من الحماية وتحت الخطر المباشر. فى ظل القيود التى فرضتها معاهدة السادات مع إسرائيل. والتى تقضى بنزع سلاح الجزء الأكبر من سيناء.

وقد يستطيع البعض هنا أن يتعلل بأن الواقع الدولى لا يسمح لنا بنقل المعركة إلى فلسطين. ومن ثم فنحن مجبرون على انتظار الخطر على أرضنا. ولكن هذا تعسف شديد فى قراءة الواقع الدولى.. لأن هناك فارقا بين إلقاء إسرائيل فى البحر (وهو ما لا يسمح به الواقع الدولى) وبين رفض السماح لإسرائيل بشن تلك الحروب «الوقائية» التى اعتادت أن تواجهنا بها على أرضنا فى كل مرة. ولو دفع هذا الخطر ضدنا مرة واحدة الثمن الذى ندفعه نحن من منشآتنا واقتصادنا.. لجعله هذا فى حد ذاته يرتدع عن شن الحرب فى الوقت الذى يحلو له.. وفوق الأرض التى يختارها.

ولقد كان الجنرال ماتاتيا هوبيليد. فى تصريحاته التى أعلنها فى ١٩ مارس ١٩٧٢. نموذجا للاعترافات الإسرائيلية المتأخرة. حينما قال إن الدعاية التى نشرتها إسرائيل بأنها كانت (فى يونيو ١٩٦٧) تحارب من اجل البقاء لم تكن خدعة استغلتها إسرائيل لتبرير الحرب الهجومية. وهكذا. فسواء أغلقت مصر خليج العقبة أو لم تغلقه. فإن إسرائيل كانت على أى حال تعد مبكرا لتوجيه ضربة الإجهاض ضد القوة المصرية النامية.

على أن بناء القوة الرادعة يرتبط بالضرورة بالضلع الثانى فى مربع الأمن المصرى.. وهو بناء القاعدة الاقتصادية الصلبة. فبغير تلك القاعدة يصبح كل بناء عسكرى هشا وقابلا للكسر وعاجزا عن الصمود.

والواقع أنه فى حالات عديدة عبر التاريخ المصرى كانت تلك الثغرة فى حد ذاتها هى التى جاء منها انهيار الأمن المصرى. ففى أواخر القرن الخامس عشر كان تدهور الاقتصاد المصرى نتيجة لقيام البرتغال باكتشاف الطريق الملاحى حول رأس الرجاء الصالح مقدمة مباشرة لتدهور الاقتصاد المصرى. الذى أدى بدوره إلى عجز مصر عسكريا عن مواجهة خطر الغزو العثمانى عندما جاء إليها فى عام ١٥١٦. ومرة أخرى فى القرن التاسع عشر. كان انهيار الاقتصاد المصرى إبان حكم الخديوى إسماعيل مقدمة للاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢.

وفى مقابل ذلك.. نجد أن وجود القاعدة الاقتصادية الصلبة هو الذى مكن مصر من امتصاص النتائج الفادحة لهزيمة يونيو ١٩٦٧. ثم كان هو نقطة الانطلاق إلى حرب أكتوبر ١٩٧٣. فلولا القطاع العام الضخم. وأولا القاعدة الصناعية التى تم بناؤها فى الستينات. لما أمكن لمصر أن تصل بجيشها إلى ما يقرب من المليون مقاتل خلال ثلاث سنوات فقط من هزيمة يونيو.

أما الضلع الثالث فى مربع القاعدة بالنسبة للأمن المصرى فهو الانتماء العربى لمصر. إن مصر لا تستطيع مطلقا تحمل رفاهية الانطواء على نفسها والانكماش على الداخل. لأن عزل مصر عن مجالها العربى الطبيعى هو النذير الأكيد بضربها فى الداخل.

وفى هذا المجال كثيرا ما تتحالف تلك المصالح المعادية من الخارج مع المصالح المشبوهة فى الداخل لترويج أفكار مغلوطة عن فرعونية مصر كبديل عن عروبتها. والواقع أن هذا الادعاء هو من المغالطة بقدر ما فيه من سوء النية. فمصر الفرعونية تلك التى يحاولون التعلل بها. كانت أكثر انتماء لمنطقتها مما يتوهمون. مصر الفرعونية حاربت فى الشام دفاعا عن أمنها. وتحتمس الثالث الفرعونى هو الذى عبر نهر الفرات فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ووصل إلى تخوم الأناضول وسيطر على كل سواحل وجزر شرق البحر المتوسط. وهيرودوت يسجل لنا أن قوة مصر الفرعونية العسكرية كانت ٤١٠ ألف جندى (من سكان يقدرون باثنى عشر مليونا فقط). كما أنه يسجل امتداد السيطرة المصرية حتى وادى النهرين حتى تتمكن من القضاء نهائيا على خطر الأشوريين الذى واجهه فى فلسطين.

ففى فترات النهضة كانت مصر الفرعونية ترى أن نطاق الأمن بالنسبة لها لا يقل عن الشرق الأوسط بمجموعها تقريبا.. علما بأن هذا كله كان يجرى فى عصر الحصان.. وليس فى عصر الصواريخ أرض/أرض والطائرات الأسرع من الصوت الأكثر قدرة على نقل التهديد إلى قلب كل مدينة مصرية.

إذن.. مصر الفرعونية هى كمصر المسيحية وكمصر الإسلامية.. رأت فترات استقلال واحتلال.. ارتفاع وسقوط. تنبه وغفلة.. قوة وضعف. ومع التنبه والقوة كان يقوم الأمن. ومن الغفلة والضعف كان ينهار هذا الأمن. ومن أمن مصر كان يبدأ أمن المنطقة.. ومن انهيار الأمن المصرى كان يبدأ خضوع المنطقة كلها للقوى الطامعة فيها والمتربصة بها.. وعندما أرغمت أوروبا محمد على على الانسحاب من الشام والتقوقع داخل مصر فى ظل قيود فادحة على الجيش والصناعات المصرية.. فلم يكن هذا يتم لحساب مصر أو المنطقة.. وإنما لكى تقتسم القوى الأجنبية الأوروبية فيما بينها المنطقة كلها ومصر من بينها. فى استعمار سافر لم يرحل إلا فى القرن التالى، وبالقوة. وبقيادة مصر سياسيا وعسكريا فى معظم الأحوال.

ولذلك فمن مقتضيات الأمن المصرى مثلا أن نواجه محاولات فرض الدولة المارونية على لبنان، بمثل ما واجهنا محاولات انفصال الجنوب فى السودان. (ومن الملفت هنا أن إسرائيل كان لها دور نشيط فى الحالة الثانية بمثل ما لها دور فعال ومسيطر فى الحالة الأولى). ومن مقتضيات الأمن المصرى كذلك منع جرجرة المنطقة أو بعض أجزائها إلى دائرة المواجهة الساخنة والباردة بين القوتين العظميين (كما فعلت مصر فعلا بالنسبة لحلف بغداد)..إلخ.

نأتى بعد ذلك إلى الضلع الأخير فى مربع الأمن المصرى. وهو السياسة الخارجية. فلقد اقترن أمن مصر دائماً بعلاقات دولية متوازنة. وبقدر نجاح مصر فى استثمار التنافس الدولى ومضاربة القوى الكبرى إيجابياً بعضها بعض.. بقدر ما كانت تدعم أمنها. وعلى العكس من ذلك.. بقدر ما كانت تفشل فى موازنة العلاقات الدولية.. كانت تفاجأ فى النهاية بقدرة إحدى القوتين العظميين على ضربها فى الداخل.

ولعل تلك النقطة بالذات هى الأقل احتياجا إلى التحليل هنا، على ضوء أبرز تجربتين فى

تاريخنا القريب.. تجربة محمد على فى القرن التاسع عشر. وجمال عبد الناصر فى القرن العشرين. وعموما. فان تلك النقطة لابد من معالجتها بمزيد من التحليل عند تناول الأمن العربى.

والواقع أن انهيار الأمن العربى. بمثل ما يمكن أن يبدأ بالجانب العسكرى.. يمكن أيضا أن يبدأ من مكان آخر لكى ينتهى به. ففى مرات عديدة نستطيع أن نرى محاولات فرض الحصار الاقتصادى ضد مصر. أو محاولة إصابة اقتصادها بالعجز والشلل. أو محاولة عزلها عن عالمها العربى. أو إحداث خلل فى علاقاتها الدولية.. باعتبارها موجهة فى النهاية إلى نفس الهدف : ضرب الأمن المصرى.

والسؤال الآن هو : إذا كان جوهر الأمن المصرى يعنى بالدرجة الأولى انتشار «السلام المصرى العربى» حولها.. وبالذات بالنسبة لفلسطين والشام.. وإذا كان هذا الأمن يتطلب قاعدة عسكرية واقتصادية وعربية ودولية.. وإذا كان مستوى الخطر الماثل أمامنا الآن فى فلسطين قد بدا أنه المنتصر حتى الآن.. فهل تستطيع مصر بإمكانياتها المعاصرة التصدى لهذا الخطر؟.

بالطبع علينا أن نسلم أولا بان إمكانيات أى بلد هى حدود قدرته.. والقدرة هى حدود الأمن. وعلينا أن نسلم أيضا بان مصر مسئولة أمام نفسها عن الوصول بإمكانياتها. وبالتالى بأمنها، إلى الحد الأقصى، أيا كانت الأعباء والتضحيات، لان الأمر مرتبط ببقائها فى حد ذاته.. بقائها حرة ومستقلة وقوية ومؤثرة. لكن، بعد هذا كله، هل لاتزال مصر قادرة على التصدى للخطر ؟

إن مصر فى الواقع يجب أن تكون قادرة على مواجهة كل خطر قاصر عليها من حيث هى. أما إذا كان هذا الخطر مشتركا. ضدها وضد الآخرين، فهنا تبدأ المسئولية المشتركة، والأعباء المشتركة. والأمن المشترك.

وهذا يقودنا على الفور. وبالضرورة. إلى مناقشة الأمن العربى.. الآن وفى المستقبل القريب.

ولكن هذا لم يكن ممكنا إلا بعد أن نتمكن أولا من إزالة هذا الغبار الأسود الذى حاول فى السنوات الأخيرة نسف الأسس الأولى للأمن المصرى، وإثارة رياح خماسينية تسمم رئتنا وأنفاسنا وعقولنا. لتعمينا عن المصالح الحيوية لشعب كامل.. وبلد عظيم.

إن مصر بلد عظيم من الدرجة الأولى.. ولكن. قد يفرط فى أمنه أحيانا مواطنون من الدرجة الثالثة.

"هــؤلاء البلهاء.. لو أنهم
فقط عرفوا مــاذا يهتفون
له ويصفقون من أجله؟!"

رئيس وزراء فرنسا ـ ١٩٣٨

الفصل السابع

حالة للتأمل

الدراما الفرنسية: درس من تاريخ أوروبا

خرجت فرنسا من الحرب العالمية الأولى منتصرة.

لقد انتصرت على عدوها التقليدى، ألمانيا، عسكريا، وأرغمت ألمانيا القيصرية على توقيع اتفاقية تعكس بالضرورة شروط المنتصر على المهزوم!.

لقد أعد «الحلفاء» ، بزعامة فرنسا، نصوص الاتفاقية.. وطلبوا من ألمانيا أن توقع على المعاهدة كما هى.. وإلا فعليها أن تتحمل النتائج !

ووقعت ألمانيا على اتفاقية «فرساى» الشهيرة فى ٢٨ يونيو سنة ١٩١٩.

وبمقتضى الاتفاقية تعود مقاطعتى «الألزاس» و«اللورين» إلى فرنسا، وقطعة من الأرض إلى بلجيكا.. وقطعة مماثلة إلى الدانمرك، وبمقتضى الإتفاقية أيضا تدفع ألمانيا تعويضات باهظة إلى فرنسا، وللحلفاء.. بعضها نقدا بالذهب.. وبعضها عينى فى شكل سلع.

ولكن الأهم من ذلك، أن الإتفاقية تنص على نزع سلاح ألمانيا ! إن الجيش الألمانى يجب تخفيضه بحيث لا يتجاوز مائة ألف متطوع، والأسطول البحرى الألمانى ينكمش إلى قوة رمزية بعد حرمانه من بناء أو امتلاك غواصات أو قطع بحرية تزيد حمولتها عن عشرة آلاف طن. والسلاح الجوى الالمانى ممنوع من بناء أو امتلاك طائرات.. الخ.

ومرة أخرى هذه شروط منتصر على مهزوم.. بل على جثة هامدة !

وقد كان أبلغ دليل على ذلك هو أن ألمانيا طلبت من الحلفاء فى سنة ١٩٢٣ منحها مهلة لدفع أقساط التعويضات بسبب العجز المالى الذى واجهها.. فرفضت فرنسا الطلب فورا ثم احتلت الروهر عسكريا.. وهو القلب الصناعى لألمانيا.

إن المنتصر لا يؤجل.. انه يملى. فقط !

هكذا إذن عاشت فرنسا نشوة انتصارها على ألمانيا فى تلك السنوات التالية مباشرة على الحرب العالمية الأولى. إن ألمانيا كسيحة.. والسلام يعم أوروبا.. وهو سلام الأقوياء. لأن فرنسا هى التى أملت شروطه!

وبدأت حالة الاسترخاء..

إن تطور الجيش الفرنسي توقف. فلا ضرورة لذلك.. وقيادات ذلك الجيش أصبحت من العجائز. الذين انتصروا فى الحرب العالمية الأولى وتوقفت قدراتهم العقلية عند ذلك الحد..

ثم جاء أدولف هتلر إلى الحكم فى ألمانيا سنة ١٩٣٣. ومع مجيئه أصبح هناك خطر فى الأفق !

إن هتلر لم يكن مجرد مستشار ألمانى آخر. أو رئيس وزراء آخر. ولكنه زعيم حزب نازى. والنازية التى جاءت به ومعه إلى الحكم فى ألمانيا لا تمثل عقيدة سياسية. ولكنها تمثل تعصبا بلا حدود. وأفكارا عمياء تنادى بتفوق الألمان كجنس متميز فوق باقى البشر.

ولكن السياسة الخارجية الفرنسية استخفت بخطر النازية. وبأفكار هتلر !

وأن هتلر مجرد متعصب أعمى.. وفضلا عن ذلك فإن فرنسا مرتبطة مع بريطانيا. والدول المحيطة بألمانيا. بمعاهدات عسكرية تتيح للجميع دفاعا عسكريا مشتركا ضد ألمانيا. لو فكرت من جديد فى تغيير ميزان القوى.. أو حتى فكرت فى انتهاك قيود معاهدة فرساى.

ثم..

لم تكد سنة تمر على وصول هتلر إلى الحكم، حتى بدأت التقارير تتوالى عن البرنامج الجديد الذى وضعه لإعادة تسليح ألمانيا. منتهكا بذلك شروط معاهدة فرساى.

إن القنصل الفرنسى العام فى مدينة «كولون» الألمانية.. وبعده السفير الفرنسى فى «برلين» عاصمة ألمانيا.. وبعدهما المخابرات العسكرية الفرنسية نفسها.. كلهم رفعوا تقارير متتابعة إلى حكوماتهم يحيطونها علما بالاستعداد العسكرى الألمانى الجديد..

هل تفعل الحكومة شيئا ؟

لا شىء! إن فرنسا لا تصدق أبناءها ! إنها تصدق هتلر نفسه ! وهتلر ألقى خطابا عاما طويلا فى ٢١ مايو سنة ١٩٣٥ أعلن فيه أن ألمانيا سوف تحترم بلا قيد ولا شرط كل الإجراءات التى قررتها معاهدة «فرساى» بشأن الأراضى، بما فى ذلك نزع السلاح.. وأن ألمانيا تتعهد لأوروبا والعالم بعصر من السلام !

صدقت فرنسا ذلك.. بغير أن تعلم أنه قبل خطاب السلام هذا بثلاثة أسابيع

فقط. أصدر الزعيم النازى الألمانى أمرا سريا إلى القيادة العليا للجيش الألمانى فورا فى إعادة تحصين أراضى الراين واحتلالها عسكريا.

إن هذه العملية تحتاج -فى رأى هتلر- إلى خطة مفاجئة يتم تنفيذها بسرعة خاطفة.. ولكن الأهم من ذلك، فى رأى هتلر أيضا، أن العقل الفرنسى يجب إصابته بشلل من الداخل.. يدير تفكيره إلى اتجاهات أخرى حتى لا تتحرك فرنسا حينما تحين لحظة الاختبار. إن أعادة تسليح ألمانيا هى انتهاك لمعاهدة فرساى.. ورغم أن القوى الرئيسية فى أوروبا (زائد أمريكا) أطراف فى المعاهدة.. إلا أن فرنسا هى التى ستصاب بأكبر الأضرار من تجدد الخطر العسكرى الألمانى.. لأنها الجارة الكبرى لألمانيا من ناحية، ولأنها تعرضت للغزو العسكرى الألمانى مرتين خلال أقل من نصف قرن.. ولأن ألمانيا لو ضمنت عدم تحرك فرنسا ضدها.. فإن باقى حلفائها لن يتحركوا..

هكذا بدأ هتلر ينفذ الخطتين معا.. !

وهكذا تحركت قوات عسكرية ألمانية إلى «الراين لاند» فى فجر يوم ٧ مارس سنة ١٩٣٦.. فى أول محاولة حاسمة من جانب هتلر لاختبار أرادة فرنسا..!

(إن «الراين لاند» هى مساحة من الأراضى الألمانية. بعرض خمسين كيلو متر. على الشاطئ الأيسر لنهر الراين. وقد قررت المادتين ٤٢ و ٤٣ من معاهدة فرساى منع ألمانيا من أقامة أية تحصينات أو الإبقاء على قوات عسكرية فى هذه المنطقة. كجزء من ترتيبات تضمن لفرنسا. وبلجيكا. عدم تكرار الغزو الألمانى المفاجئ الذى تعرضنا له فى سنة ١٩١٤).

ولكن فرنسا كانت بلا إرادة.. !

فبرغم أن التحذيرات المتكررة السابقة.. لم تعرف القيادة العسكرية الفرنسية العليا بأخبار التحرك العسكرى الألمانى إلا بعد وقوعه بثلاث ساعات. وحتى حينما حدث ذلك فإن مصدرها كان تقريرا صحفيا لمراسل إحدى الصحف الفرنسية فى برلين!

لقد استدارت فرنسا إلى حليفتها بريطانيا للتشاور معها. وردت بريطانيا : إنها مسألة تخصكم !

واستدارت للرأى العام فيها فوجدت صحافتها مشغولة بشئ أخر هو : خطر الشيوعية! بل إن الصحف الفرنسية الكبرى فى ذلك اليوم أبرزت لقرائها ما يقوله هتلر. من أن هذا مجرد «احتلال رمزى» .. ثم أبرزت خطابه العام الذى يقول فيه «نحن نضمن الآن. أكثر من أى وقت مضى. أننا نسعى إلى تحقيق التفاهم بين شعوب أوروبا.. فليست لألمانيا مطالب إقليمية فى أوروبا.. وألمانيا لن تنتهك السلام مطلقا» !

إن هتلر يصفع خصومه على وجوههم.. وهو يذيب السم الذى يقدمه لعدوه. فى قطعة سكر لكى يسهل على فرنسا ابتلاعها !

والكلمة الساحرة التى اختارها هتلر إذن هى : السلام !

والذين ينقلون هذا الشعار الآن إلى الشعب الفرنسى يقولون له : إن فرنسا تكلفت فى الحرب العالمية الأولى مليونا و ٨٠٠.٣٥٧ قتيلا بالإضافة إلى أربعة ملايين و ٢٦٦ ألف جريح ثم ٥٣٧ ألف أسير.. وكل هؤلاء يساوون ٧٣٪ من الذين تمت تعبئتهم فى الحرب. هل التضحيات بالسلام الآن تساوى كل هذا ؟

لقد كان هذا منطقا معكوسا تماما .. فأولا فرنسا هى التى تعرضت للغزو الألمانى فى الحرب العالمية الأولى.

واليمين المتطرف فى فرنسا يعلن فى صحفه : إننا لا نريد الدمار والحرب..

واليسار المتطرف يعلن : أن أقصى ما تستطيع فرنسا أن تفعله هو.. أن تقدم شكوى إلى هيئة الأمم!

كانت هناك فى فرنسا أصوات ارتفعت تقول : الآن.. وإلا فأبدا ! إن هتلر له أطماع معلنة ومسجلة فى كتابه «كفاحى» .. وإعادة تسليح ألمانيا هى الخطوة الأولى نحو تحقيق هذه الأطماع التى ستكون فرنسا ضحيتها الأخيرة.. فلابد أن نقف الآن بحزم فى وجه هتلر. قبل أن تفوتنا الفرصة..!

ولكن فاتت الفرصة !

لقد انتصر فى اختباره الأول ضد فرنسا.. وفى ذلك اليوم (٧ مارس سنة ١٩٣٦) تلقت فرنسا هزيمتها الأولى، التى ستكون من الآن مقدمة إلى أكبر كارثة واجهت فرنسا فى العصر الحديث!

ولكن أحدا لم يكن يعرف ذلك بعد !

إن كل مـا كان معروفا هو أن الحكومة الفرنسـية لم تملك الشـجاعة لتواجه خصومها. والشـعب الفرنسـى لم يمتلك التصميم على إيقاظ حكومته من نومها. والقيادة العليا للجيش الفرنسـى تطلب إجراء تعجيزيـا لمواجهة تلك القوة الألمانية المحـدودة. إنها تطلب مطرقة ضخمة لكى تقتل ذبابة!

(بعدها بعشـر سـنوات. تبين من الوثائـق الألمانية أن الأوامـر الصارمة لدى الجيش الألمانى كانت تنص على التراجع والانسـحاب بسـرعة عند رؤية أول علامة على تحرك جندى فرنسى. وكتب هتلر نفسه عن تلك المقامرة : إن الثمانى والأربعين ساعة الأولى بعد التحرك كانت هى أكثر فترات حياتى توترا فى الأعصاب. فقواتنا لم تكن مجهزة لمواجهة جيش نظامى. وكان تراجعها يعنى بالنسبة لنا الانهيار التام).

كان هذا التحرك الألمانى يحمل أهمية قصوى بالنسـبة لخطط هتلر فى المسـتقبل. فقبل هذا التحرك كانت منطقة «الراين لاند» خالية من أية تحصينات عسكرية ألمانية بمقتضى معاهدة «فرسـاى» .. ولكن بعدها بدأ هتلر على الفور فى إقامة التحصينات العسـكرية. وبرغـم أن هذا كله يتم داخل الحدود الألمانيـة.. إلا أن الحكمة فى منع ألمانيا من تحصين تلك المنطقة هى فتح الطريق أمام الجيش الفرنسـى لاختراق ألمانيا فـورا فيمـا لو فكرت ألمانيا فى غزو الدول الأخرى على حدودها الغربية، وهى بولندا وتشيكوسلوفاكيا، المرتبطتان مع فرنسا بمعاهدات عسكرية لهذا الغرض.

وأصبح سماح فرنسـا بتسـليح ألمانيا لتلـك المنطقة هو إذن الهزيمـة الأولى. التى ستصبح من الآن بذرة كل الهزائم التالية.

ولكـن الأهم مـن ذلك، فى المدى القصير، هو أن الدول الصغرى الأخرى المحيطة

بألمانيا، خرجت بدرس كبير وأساسى هو: أن فرنسا لا يمكن الاعتماد عليها فى مواجهة الخطر الألمانى المتزايد.. إن الجيش الألمانى سوف يكون من الآن حرا فى الهجوم والغزو شرقا بعد أن انتهى من تامين حدوده غربا.. وإذا كانت فرنسا قد أصبحت من الجبن بحيث لم تتحرك ضد ألمانيا الآن وحدودها مفتوحة.. فإنها لن تفعل ذلك مطلقا حينما تصبح أمام جيشها حدود ألمانية حصينة.

لقد كشفت تلك الأزمة عن دروس خطيرة.. فالحكومة الفرنسية بررت عجزها عن العمل بعجز بريطانيا عن العمل، وهى بذلك فقدت استقلالها فى السياسة الخارجية. والجيش الفرنسى ضبطته ألمانيا متلبسا بالضعف، وقيادته بالجبن. إن هتلر جعل قيادات الجيش الألمانى كلها من الشباب فاكتسب بذلك التفتح والجرأة.. ولكن فرنسا مازالت تضع العجائز فى قمة جيشها، وهم قد أغلقوا عقولهم تماما على تجارب الماضى، وأصبحت الحرب بالنسبة لهم هى فقط الحرب الدفاعية التى يختبئون خلالها داخل مواقع حصينة يرمز لها خط ماجينو الضخم داخل حدودهم مع ألمانيا.

والصحافة الفرنسية أصبحت تقدم لقرائها أعداء وهميين فى الداخل والخارج.. بدلا من أن تنبه الشعب الفرنسى إلى مصالحه الحيوية التى يجب أن يبدأ الدفاع عنها الآن. وليس بعد وقوع الكارثة.

وهيبة فرنسا فى أحلافها الخارجية بدأت تتقلص. بعد أن اكتشف الجميع أنها حليف ضعيف العزيمة ومشلول الإرادة. إن أول مبادرة فى هذا الطريق اتخذها ملك بلجيكا.. عندما أعلن تحلله من تحالفه العسكرى مع فرنسا.. مقررا لبلاده مبدأ «الحياد» من الآن فصاعدا.

وهتلر بنفسه عرف الآن أن رغبة فرنسا فى أن «تنجو بجلدها» هى الأقوى من أى اعتبار آخر. أنه سوف يغذى هذه الرغبة فورا.. إلى أن يبعد عنها أولا حلفاءها الطبيعيين. ثم يستدير إليها فى النهاية !

لقد كانت الخطوة الأولى أمام هتلر هى : إعادة تسليح ألمانيا.

وعندما مرت بلا عقاب.. استدار إلى الخطوة التالية.

ففى ليلة ١١ / ١٢ مارس سنة ١٩٣٨ أرسل هتلر جيشه إلى النمسا، لكى يضيفها بالقوة العسكرية إلى ممتلكات «الرايخ الثالث» .. !

فبعد أربعة أشهر فقط من نجاح هتلر فى الخطوة الأولى، استدعى قادته العسكريين لاجتماع سرى للغاية وقال لهم : إن ألمانيا فى حاجة إلى «مجال جوى» تتنفس فيه وتتوسع إليه. وكبداية فى هذا الطريق فانه ينوى الاستيلاء على النمسا وتشيكوسلوفاكيا.. سلميا لو أمكن، وبالحرب لو استلزم الأمر..

كان هذا فى ٥ نوفمبر سنة ١٩٣٧

وكما حدث دائما، فإن الأخبار جاءت مبكرة إلى الفرنسيين. وذهب الجنرال «جمالين» القائد العام للجيش الفرنسى إلى وزير حربيته ينبهه إلى «النتائج الفادحة علينا – فى فرنسا – لو قام الألمان باحتلال النمسا» . إنها نتائج يستطيع أى تلميذ فرنسى أن يستوعبها.. فاحتلال النمسا سوف يجعلهم يحيطون بتشيكوسلوفاكيا من ثلاثة أجنحة، الأمر الذى يسهل على ألمانيا فيما بعد أن تغزو تشيكوسلوفاكيا عسكريا. إن هذا – حينما يحدث – سوف يجعل الألمان هم سادة أوروبا الوسطى.. وحينما يصبحون كذلك.. فإنهم سوف يستديرون حتما إلى فرنسا.

إن القائد العام للجيش الفرنسى مقتنع بذلك، ووزير الحربية مقتنع معه. ورئيس الحكومة مقتنع مع الاثنين.

لابد إذن من عمل شىء لمواجهة الخطر الألمانى.

لم يعمل شىء.

إن النقطة المهمة هنا هى أن هذا الشلل فى الإرادة الفرنسية، كان هو فى حد ذاته أحد العوامل التى بنى عليها هتلر تقديراته للموقف.. فمن الوثائق الألمانية التى تم الاستيلاء عليها فيما بعد، نجد أن السفير الألمانى فى باريس أرسل إلى حكومته تقريرا يقول فيه : إن الحكومة الفرنسية لن تفعل أكثر من تقديم احتجاج بالطرق الدبلوماسية، ضد قيام ألمانيا باحتلال النمسا. والرأى العام الفرنسى، من خلال صحافته، لن يكترث بالأمر!

.. وهذا ما حدث !

لقد قام هتلر بابتلاع النمسا بغير أن يطلق رصاصة واحدة، وحصل بذلك على موقع استراتيجي ستكون له قيمة ضخمة بالنسبة لخططه للمستقبل. إن فرنسا وبريطانيا، وهما الطرفان الأساسيان فى الأمن الاوروبى، لم ترفعا إصبعا واحدا لإيقافه، وكل منهما تبرر عجزها بعجز الأخرى. بل إن الضحية نفسها - النمسا - التى تضمن عصبة الأمم استقلالها ويلزم الدول الأخرى الأعضاء بنجدتها لو هوجمت - هذه الضحية نفسها لم تنزعج حتى بتقديم شكوى إلى عصبة الأمم.

إن الدولة الكبرى فى المنطقة، وهى فرنسا، اختارت الانهزامية والجبن والتفريط فى مصالحها الحيوية.. وهى بذلك أشاعت مناخا من الانهزامية والتفريط فى القارة بأسرها.

وألمانيا تضاعف الآن من سرعتها فى تطبيق خطة اختراق فرنسا من الداخل. وهى التى تغذى فى الراى العام الفرنسى شعار «السلام» .. الذى ترجمته الحكومات الفرنسية إلى شعار آخر هو «السلام بأى ثمن»!.

لقد كان الثمن هو من قبل إعادة تسليح ألمانيا، ثم أصبح قيام ألمانيا النازية بابتلاع النمسا. والآن جاء الدور على ضحية ثالثة، هى تشيكوسلوفاكيا.

فى هذه المرة كان العذر الذى تعلل به هتلر هو : إن تشيكوسلوفاكيا تضم أقلية ناطقة بالألمانية، وهذه الأقلية أصبحت فى حاجة إلى حماية من ألمانيا !

ولكن تشيكوسلوفاكيا دولة مستقلة ذات سيادة، والأهم من ذلك إنها -بعكس النمسا- قررت ألا تستسلم للديكتاتور الألمانى بلا مقاومة. ثم أن بريطانيا وفرنسا ملتزمتان رسميا بالدفاع عن تشيكوسلوفاكيا لو تعرضت لأى غزو خارجى، وهذا الالتزام تقرره تحالفات واتفاقيات للدفاع المشترك. تستطيع تشيكوسلوفاكيا أن تعتمد على صلابتها ضد عدو متفوق عليها، وتستطيع أن تعتمد ثانيا على حلفائها..

ولكن مرة أخرى كانت إرادة «الحلفاء» مصابة بالشلل.. فكل منهم يريد أن ينجو بجلده.. متصورا بذلك أنه يحافظ على السلام !

إن هتلر هو الآخر يتابع الصحف الفرنسية والبريطانية (خصوصا الفرنسية).. وسفارته فى باريس ترسل إليه المداولات السرية لمجلس الوزراء الفرنسى. وللقيادة العسكرية الفرنسية.. أولا بأول.. ولذلك فإن هتلر لن يتراجع عن مطالبه الإقليمية فى تشيكوسلوفاكيا. إنه الآن لا يريد فقط حماية أقلية داخل المجتمع التشيكى.. ولكنه يريد ضم تلك الأراضى التى تعيش فيها الأقلية. إلى ألمانيا !

إن بريطانيا أخبرت هتلر بأنها لا تمانع فى ذلك.. بشرط أن يتم هذا سلميا وبناء على اختيار هذه الأقلية نفسها.. عن طريق استفتاء لتقرير المصير.

واتخذت فرنسا من هذا التنازل البريطانى الجوهرى عذرا لكى تقدم هى الأخرى تنازلات أكثر جوهرية.

لقد بدأ سباق التنازلات بين الحليفين.. لحساب المستفيد الوحيد : عدوهما المشترك. لقد أوكلت فرنسا مهمة التشاور مع هتلر إلى «نيفيل تشمبرلين» رئيس وزراء بريطانيا.. ذهب تشيمبرلين إلى هتلر يتشاور معه ـ وكان ذلك فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٨.

إن هتلر أخبره بأنه يريد موافقة فرنسا أولا. ثم بريطانيا. على ضم الأراضى التى تقيم فيها الأقلية التشيكوسلوفاكية الناطقة بالألمانية.. إلى ألمانيا. بناء على حق تقرير المصير. وهو فى سبيل الحصول على ذلك فإنه «سوف يواجه اى حرب. بما فى ذلك حرب عالمية»!

إن تشمبرلين عاد إلى لندن. لكى تشترك الحكومتان الفرنسية والبريطانية. فى أكبر عملية ضغط ضد حليفهما الصغير لحساب هتلر. إن على الكبار التشاور.. وعلى الصغار التنفيذ.

واستسلمت حكومة تشيكوسلوفاكيا. وأعلنت ذلك فى بيان رسمى. إن البيان شرح للشعب التشيكى أن الحكومة التشيكية قد تسلمت خطة فرنسية بريطانية مشتركة تقضى بتسليم أراضى «السوديت لاند» -التى تضم الأقلية الناطقة بالألمانية ـ إلى ألمانيا.. وأنه «ليس لدينا اختيار آخر. بعد أن أصبحنا وحدنا» .

ثم قال رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا لمجلس وزرائه بمرارة : إننا تعرضنا لخيانة.. من جانب حلفائنا!

لماذا الخيانة ؟ ولماذا الاستسلام لهتلر ؟

أجابه رئيس وزراء بريطانيا : إننا نريد السلام..

وقال رئيس الوزراء الفرنسي : إننا نريد أن نتفادى الحرب..

وقالت الصحف الفرنسية : نحن لا نريد أن نضحى بأبنائنا.. دفاعا عن أرض أجنبية! إن الحليف أصبح أجنبيا.. فجأة. والتضحية به أصبحت ضرورة من أجل استمرار السلام..!

هل استمر السلام ؟

للوهلة الأولى يبدو ذلك. فعندما طار المستر تشمبرلين إلى ألمانيا للمرة الثانية خلال أسبوع.. لكى يبشر هتلر بأنه قد حصل له ما أراده.. فإنه كان مقتنعا أنه بذلك ضمن السلام.. ومع ذلك. فبمجرد أن هبطت طائرته. تبخر تفاؤله !

لقد سأله هتلر : هل أفهم من ذلك أن حكومات كل من فرنسا وبريطانيا وتشيكوسلوفاكيا. قد وافقت على نقل «السوديت لاند» إلى السيادة الألمانية؟.

رد رئيس الوزراء البريطانى مبتسما : نعم..

قال هتلر : أنا آسف. إن هذا لم يعد كافيا.. الآن!.

إن تشمبرلين اسقط فى يده. وكما يتضح من الوثائق البريطانية الألمانية فإن رئيس الوزراء البريطانى شعر بالحيرة وخيبة الأمل.

إنه قد جاء لهتلر بما يريد. وهو فى سبيل ذلك قد غامر بكل مستقبله السياسى.. بل إن قطاعات كبيرة من الرأى العام فى تشيكوسلوفاكيا قد اتهمه بأنه باع تشيكوسلوفاكيا وخانها لحساب هتلر.

ولكن ماذا يريد هتلر الآن ؟ إنه يريد القيام فورا باحتلال «السوديت لاند» عسكريا. بغير تقرير المصير. ويجب أن يتم هذا خلال أسبوع. أى قبل أول أكتوبر (١٩٣٨)

ثم ناوله هتلر خريطة بالأراضى التى يريد احتلالها.. وعلى الفور اكتشف رئيس الوزراء البريطانى أنها أكبر كثيرا مما طلبه قبل أسبوع. وأكبر كثيرا أيضا من الأراضى التى تقيم فيها الأقلية التشيكية الناطقة بالألمانية !

لقد توسل تشمبرلين – فالذين يريدون السلام بأى ثمن ليس أمامهم سوى التوسل – ولكن الزعيم النازى الألمانى لا يريد أن يتراجع.. أو أن يقبل حلولا وسطا!

كان هذا فى اجتماع الصباح – صباح ٢٢ سبتمبر (١٩٣٨) – بين هتلر وتشمبرلين. إنهما اتفقا على الاجتماع من جديد فى المساء بعد أن طلب تشمبرلين من هتلر أن يسجل طلباته كلها على الورق لكى تكون هى المطالب الأخيرة.

فى المساء حصل تشمبرلين على ما يريد. ولدهشته مرة أخرى فإنه اكتشف أن ما يطلبه هتلر تحريريا فى المساء هو أضعاف ما طلبه شفويا فى الصباح.

لقد عاد تشمبرلين إلى لندن. لكى ينقل طلبات هتلر الجديدة إلى حكومته. وإلى الحكومة الفرنسية. ثم إلى الحكومة التشيكية.

إن الجميع رفضوا. لقد بدا على فرنسا أنها قد استيقظت من نومها أخيرا. بعد أن رأت تصميم حليفتها الصغرى – تشيكوسلوفاكيا – على المقاومة وحليفتها الكبرى – بريطانيا – متململة !

وقررت فرنسا إجراء تعبئة عسكرية.. ففى النهاية هى التى تربطها التزامات يجب الوفاء بها نحو تشيكوسلوفاكيا.. وهى التى يضار أمنها أبلغ الضرر لو تم الغزو العسكرى لتشيكوسلوفاكيا.. ومن ثم فإن تدخلها لنجدة تشيكوسلوفاكيا هو فى الواقع جزء من دفاعها عن نفسها.

وأصدرت بريطانيا بيانا تعلن فيه: أنه فى حالة وفاء فرنسا بالتزاماتها العسكرية نحو تشيكوسلوفاكيا.. فإن بريطانيا سوف تقف إلى جانب فرنسا.

إن إرادة الحلفاء قد تم شفاؤها من الشلل أخيرا أو هكذا بدا الأمر. ولكن ما حدث كان غير ذلك. إن خطة هتلر المبكرة لإصابة فرنسا بالشلل من الداخل (هل تتذكرها) قد بدأت الآن فى العمل.

ففى داخل مجلس الوزراء الفرنسى نفسه كانت هناك شخصية مريبة تحتل مركزا خطيرا فى هذه اللحظة المصيرية هى شخصية جورج بونيه وزير خارجية فرنسا. إنه من البداية يؤمن بأن فرنسا ضعيفة. ولا قبل لها بألمانيا. ويؤمن بأن هتلر شخصية تستحق الإعجاب وليس التنبه. وبريطانيا هى التى تستحق الحذر وليس التحالف !

لقد اتصل وزير الخارجية الفرنسي هذا بالصحف الفرنسية وطلب منها الامتناع عن نشر البيان الرسمي البريطاني. قائلا لهم إنه لا أساس له.. واتصل بوكالة الأنباء الفرنسية ومنعها من نشر البيان. وأرسل إلى سفرائه يحذرهم من الإشارة إليه أو الاعتماد عليه !

إن هذا التصرف سوف يكون الأول في سلسلة غريبة من التصرفات. في تلك اللحظة التي يمكن فيها لفرنسا أن تستيقظ أخيرا من غفلتها. وهي الغفلة التي كان فيها هذا الوزير الفرنسي نفسه جزءا منها. ووجه الغرابة هو أن هذا الوزير حضر اجتماعا في الصباح تم في لندن بين رئيس وزرائه «إدوارد دالادير» . وبين رئيس وزراء بريطانيا «نيفيل تشمبرلين» .. حيث استمع إلى هذا البيان بأذنيه من فم رئيس الوزراء البريطاني. بل إنه رأى تشمبرلين وهو يناول البيان كتابة إلى رئيس الوزراء الفرنسي.

ومع ذلك فها هو يتصل بالصحف قائلا لهم : إن البيان لا أساس له !

لهذا لم يكن غريبا أن تخرج صحيفة «لوماتان» الجماهيرية في الصباح التالي. تخبر قراءها بأن هذا البيان «المزعوم» ليس سوى كذبة كبرى !

وانتهجت كل الصحف الفرنسية الكبرى – التي تشكل الرأي العام الفرنسي – نفس الخط!

جريدة «لوتيمب» مثلا قالت لقرائها : إن علينا أن نوفر دماءنا للدفاع عن أرضنا.. وليس للدفاع عن أراضي الآخرين.

اتحاد موظفي البريد والتليفون والتلغراف وزع بيان قال فيه : إننا نريد السلام.. لأن الحرب هي انتحار لفرنسا !

و«فلاندين». أحد رؤساء الوزارة السابقين وزعيم حزب التحالف الديمقراطي نشر بيانا يخاطب فيه الشعب الفرنسي قائلا : دعوا ألمانيا تسوي مشاكلها مع تشيكوسلوفاكيا. يا شعب فرنسا.. إنكم تتعرضون للخديعة.. فهناك فخ ينصب لكم لاستدراجنا إلى حرب لا تعنينا ولا تهمنا.

صحيفة «لا ليبرتي» قالت لقرائها : إن شعب فرنسا أولى بهذه الأموال لإصلاح مرافقه وتشغيل أبنائه بدلا من قتلهم في حرب خارج حدودنا ولا تمسنا.

إنها كلمات بدت في وقتها مخلصة ورائعة. ومغرية للشعب الفرنسي بالتصديق. وهو

الشـعب الذى ستمضى سنوات طويلة قبل أن يعرف أن هذه الصحيفة بالذات. وكل تلك الخطابات والبيانات، تصدر بتمويل من جهاز المخابرات الألمانية داخل فرنسا !

لا.. لم يكن الشـعب الفرنسـى يعلم تلك الحقيقة بعد. ولكن كل ما يعلمه الآن هو تلك الكلمات المعسولة التى تتشدق حبا فى مصلحته. أو توهمه بأن هذه هى مصلحته!

إن سياسـة «شل إرادة فرنسـا من الداخل» أصبحت لها ركائز ضخمة. لها سلطة، ولها نفوذ، وتحت تصرفها أموال بلا حساب.

هكذا ضاعت من جديد فرصة أخرى لليقظة.

أما بالنسـبة لهتلر. وبعد أن أدخل هذا العامل الجوهرى فى حسـابه. فإنه وجه إنذارا نهائيا إلى تشيكوسـلوفاكيا للاستسـلام إلى مطالبه قبل أول أكتوبر. لقد عبأت تشيكوسلوفاكيا مليـون رجل تحت السـلاح.. وباريس تسـير فى التعبئة.. ولندن تـزداد صلابة مقررة تعبئة أسطولها البحرى.

ولكـن هذا كله يتم فى فراغ.. فالحكومات. خصوصا فى باريس ولندن. تسـير فى واد.. بينما شـعوبها تفكر فى واد آخر. والحكومة ـ أى حكومة ـ لا تسـتطيع أن تجنى من شعبها أكثر مما تزرعه هى فيه. وقد زرعت الحكومة الفرنسـية (وأيضا البريطانية) فى شعبها مبكرا فكرة «السـلام بأى ثمن» .. وحللت له التفريط فى مصالحها الحيوية العليا بحجة اسـترضاء هتلـر.. بالإضافـة إلى أنها تغاضت تمامـا عن الجهود الخفية والعلنية لتسـميم أفكار الحياة اليومية لشـعبها كل صباح.. مخاطرة فى النهاية بأن تكون هى نفسها – الحكومة – أول من يستنشق هذا الهواء.

هكذا إذن كان واضحا أنه، برغم أن بريطانيا مثلا أعلنت تعبئة أسطولها البحرى. إلا أن تشـمبرلين رئيس وزرائها خرج يذيع على الشعب البريطانى يوم ٢٧ سبتمبر بيانا يقول فيه: «انه لشـىء مرعـب. وخيالى. ولا يصدق.. أن يكون علينا أن نحفـر الخنادق ونرتدى أقنعة الغاز هنا، بسـبب مشـاجرة فى بلد بعيد عنا بين شعب نحن حتى لا نعرف عنه شيئا.. إننا إذا كان علينا أن نحارب. فيجب أن يتعلق الأمر بقضايا أكبر من هذه القضية».

وكان واضحا أيضا أن فرنسا، برغم أنها أعلنت التعبئة. فان وزير الطيران وقائد القوات الجوية قد قال لرئيس الوزراء: إن السلاح الجوى الفرنسى سوف يتعرض - فى حالة التدخل العسكرى لصالح تشيكوسلوفاكيا - إلى خسائر فادحة جدا لا يمكن تعويضها تصل إلى ٤٠٪ من قوته فى الشهر الأول. و ٦٤٪ من قوته فى الشهر التالى».

وحينما يعترف قائد سلاح بأنه سيتعرض لهذه الخسائر من دولة مجاورة. كانت منزوعة السلاح حتى خمس سنوات فقط. فان على رئيس الحكومة أن يحاكمه فورا بتهمة الخيانة العظمى والإهمال الجسيم..

ومع ذلك فإن هذا لم يحدث..

إن ما حدث هو - مرة أخرى - أن هتلر ادخل فى اعتباره هذا الشلل فى إرادة خصومة كعامل حاسم فى حصوله على ما يريد. لقد أصبح التاريخ هو ٢٨ سبتمبر. وهو اليوم الذى سمى فيما بعد بيوم «الأربعاء الأسود». لم يبق سوى يومين اثنين على انتهاء الإنذار الذى وجهه هتلر إلى تشيكوسلوفاكيا. وهو الإنذار الذى جعل عواصم أوروبا ترتعد من احتمال الحرب.

وحتى لا تقع الحرب، ناشد الفرنسيون بريطانيا بالتدخل. وأدرك البريطانيون أن الفرنسيين وصلوا إلى نقطة تقديم أى تنازلات يطلبها هتلر. فاقترح رئيس وزراء بريطانيا على الفور عقد مؤتمر قمة للقوى الأربع العظمى فى أوروبا : ألمانيا وإيطاليا من جانب.. وبريطانيا وفرنسا من جانب آخر.

إن هدف المؤتمر هو «تسوية المسألة التشيكية» .. ومع ذلك فلم يهتم أحد بدعوة الضحية نفسها - تشيكوسلوفاكيا - للحضور.. ولو لتكون حاضرة عند صدور حكم الإعدام عليها!

لقد كان هذا هو مؤتمر ميونخ. الذى سيحفظه بعد ذلك عن ظهر قلب كل دارس للتاريخ!. ذهب الزعيم الإيطالى الفاشى موسولينى إلى مؤتمر ميونيخ حليفا لهتلر.. وذهب رئيس وزراء بريطانيا إلى مؤتمر ميونيخ للاجتماع بهتلر.. يسبقه تصفيق فى مجلس العموم البريطانى وصوت يهتف : شكرا لله يا رئيسا الوزراء.. لأنك ستنقذ لنا السلام !.. وذهب رئيس وزراء

فرنسا يسبقه مقال مشهور كتبه «ليون بلوم» فى صحف الصباح قائلا فيه : إن هذا المؤتمر قد هيأ استجابة ضخمة من السرور والأمل. إن شعلة السلام المقدسة التى كانت تخبو.. قد اشتعلت من جديد !

ولم يكن هتلر محتاجا أكثر من ذلك لكى يملى كل شروطه !

إن الشــــروط هـــى :

أولا : تقوم ألمانيا باحتلال كل الأراضى التى يقطنها مواطنون تشيكيون ناطقون بالألمانية على أربع مراحل من الأول إلى السابع من أكتوبر.

ثانيا : تشكل «لجنة دولية» لتحديد المناطق الأخرى التى تريدها ألمانيا. وهى مناطق يجب أن تحتلها ألمانيا عسكريا قبل العاشر من أكتوبر.

ثالثا : يتم استفتاء فى جزء ثالث من المناطق الأخرى تختلط فيها الطبيعة السكانية.. لتقرير مصيره.

رابعا : الحكومة التشيكية مسئولة عن تنفيذ هذا كله. وتسليم المنشآت العامة والمرافق إلى الجيش الألمانى بلا تدمير أو تعطيل. وتضمن الحكومتان الفرنسية والبريطانية ذلك.

خامسا : سوف تقوم ألمانيا وإيطاليا بضمان الحدود الجديدة لتشيكوسلوفاكيا.. ولكن بعد أن تحل قضية الأقليات البولندية والمجرية فيها.

لقد كان اختصار هذا كله هو : ذبح تشيكوسلوفاكيا !

إن هتلر حصل على كل ما أراده.. أخيرا.. ووقع على الاتفاق معه كل من موسولينى وتشمبرلين ودالادير. رؤساء حكومات إيطاليا وبريطانيا وفرنسا على التوالى.

وبمجرد أن تم التوقيع بدأ «إدوارد دالادير» رئيس وزراء فرنسا يدرك فداحة ما وقع عليه. إنه جعل فرنسا تخون حليفه لها. هى تشيكوسلوفاكيا.. وهو قد خصم من قدرة فرنسا العسكرية خمسا وثلاثين فرقة قوية هى قدرة الجيش التشيكى. ولكن الأهم من هذا كله : إنه جعل ألمانيا. وهى الخطر النهائى على فرنسا. قوة أكبر فى صراعها القادم ضد فرنسا نفسها.

وبينما الطائرة تهبط برئيس وزراء فرنسا فى رحلة العودة عصر ٣٠ سبتمبر (١٩٣٨) من

ميونيخ إلى مطار «لوبورجيه» فى باريس.. رأى جموعا ضخمة جدا من الشعب الفرنسى حول المطار، إن عددهم تجاوز نصف المليون مواطن فرنسى.. وهم بلا شك جاءوا إليه فى المطار ليذبحونه ذبحا.. جزاء توقيعه على اتفاقية الاستسلام هذه.

لقد أصيب رئيس الوزراء بالهلع، وطلب من الطيار أن يدور حول المطار قليلا حتى يتمالك نفسه ويعد بضعة سطور يهدئ بها هذه الجماهير الغاضبة.

وهبطت الطائرة.. وخرج رئيس الوزراء مترددا ومتوترا ليقف على سلم الطائرة.. ومواجها مفاجأة العمر كله، على حد تعبيره هو فى مذكراته بعد ذلك.

إن نصف مليون فرنسى جاءوا.. يهتفون بحياته!

لقد شق رئيس الوزراء طريقه بصعوبة وسط الجماهير الغفيرة التى احتشدت طوال الطريق من المطار إلى مكتبه.. فى أضخم مظاهرة تحية عرفها رئيس وزراء فرنسى.. هاتفين ومهللين ومصفقين.

وفى السيارة مال رئيس الوزراء على أحد مساعديه هامسا بقوله: هؤلاء البلهاء.. لو أنهم فقط عرفوا ماذا يهتفون له ويصفقون من أجله؟!

إنهم يصفقون للسلام - أو ما تم إقناعهم بأنه السلام!

إن أحد الوزراء التشيكيين، فى براغ، صب غضبه على السفير الفرنسى، قائلا له بمرارة: كل شئ له نهاية.. فاليوم دورنا، ولكن غدا سيكون دور الآخرين!

ولكن لا أحد فى فرنسا يعرف ذلك - بعد، إن خطة «شل إرادة فرنسا من الداخل» مستمرة!

لقد أرسل فلاندين، أحد رؤساء الوزارة السابقين، برقية تهنئة إلى هتلر!

وجريدة «لوماتان» قالت لقرائها: إننا كسبنا السلام ضد إرادة هؤلاء المجانين، فى فرنسا، الذين يريدون الحرب!

وجريدة «لوتيمب» قالت: إننا نحيى رئيس وزرائنا، مسيو دالادير، ونحيى رئيس وزراء بريطانيا، مستر تشمبرلين، بسبب شجاعتهما وبعد نظرهما.

ووزير خارجية فرنسا نفسه، جورج بونيه كتب مقالا إلى مواطنى دائرته الانتخابية قائلا : لقد أنقذنا السلام.. وليس صحيحا أن فرنسا لم تكن مخلصة لتوقيعها (بالتضامن مع تشيكوسلوفاكيا).. لأن أحدا لا يستطيع أن يدعى أن تشيكوسلوفاكيا قد تعرضت لغزو عسكرى. هل يدعى أحد ذلك ؟ !

وليون بلوم، الزعيم الاشتراكى الفرنسى ورئيس الوزراء السابق، كتب فى صحيفة «لوبوبيولير» يقول : كل رجل وامرأة فى فرنسا.. يجب اليوم أن يوجه الامتنان والشكر إلى إدوارد دالاديير ونيفيل تشمبرلين. إننا تفادينا الحرب، وعبرنا الكارثة.. والحياة أصبحت طبيعية مرة أخرى. إن المرء يستطيع الآن أن يستأنف عمله وينام مرة أخرى.. ويستمتع بجمال شمس الخريف.

والبرلمان الفرنسى، وافق على الإتفاق بأغلبية طاغية، هى ٥٣٥ صوتا ضد ٧٥.. ونفس الشئ فى مجلس العموم البريطانى.

صوت واحد فقط ارتفع فى مجلس العموم ليقول بأعلى صوته : «إننا اليوم قد وضعنا بذرة هزيمة شاملة وضخمة....».

ولم يكمل الصوت جملته.. فقد أرغمته العاصفة التى قاطعه بها أعضاء المجلس على أن يتوقف.

لقد كان هذا الصوت هو : ونستون تشرشل.

وسوف تمر سنة كاملة قبل أن يتذكر الجميع كلماته.

وسوف تمر سنة.. ولكن الآن، فى مطلع شهر أكتوبر سنة ١٩٣٨ كان الضحية الأولى لاتفاقية ميونيخ هو : شرف فرنسا.

إن السؤال المتكرر فى عواصم حلفاء فرنسا بأوروبا، السؤال فى وارسو، وبلغراد وبوخارست، هو : كيف نحتفظ بعد الآن بأى ثقة، وبأى توقيع، تضعه فرنسا على معاهدة معنا ؟ إن فرنسا تبيع حلفاءها، كما حدث مع تشيكوسلوفاكيا، جبنا من مواجهة الديكتاتور النازى.. وعلينا الآن أن نهجرها، ونلحق بركب الديكتاتور، بينما مايزال هناك وقت لعقد صفقة معقولة معه !

لقد بدأ التساؤل بالشرف.. وانتهى إلى نتائج عملية ـ فشرف الدولة ـ وإخلاصها لتوقيعها ـ ليس مجرد شعور عاطفي.. ولكنه شئ يتم حسابه في موازين القوى.

وبدأت سياسة فرنسا بالحديث عن «السلام» .. ثم تطورت إلى «السلام بأى ثمن».. إن باب التنازلات ـ بمجرد أن تم فتحه ـ أصبح من المستحيل إغلاقه، لأن المقدمة الصحيحة لأى سياسة خارجية تم شطبها وتزويرها. مقدمة تقول : إن استعداد أى شعب للحرب.. يكون أحيانا هو الطريق الوحيد لضمان السلام. فحينما تواجه أمة ـ عدوا شرها وعدوانيا وتوسعيا ـ وله مصالح متعارضة مع مصالحها، وتكتفى مع ذلك بترديد كلمة السلام مجردة من أى قوة مادية تحميها.. فإنها تكون في الواقع قد فتحت الطريق أمامه لاستعبادها.. ووقعت بيدها صك استسلامها.

ولقد أدت حالة العمى التى أصيبت بها فرنسا في تلك الفترة عن مصالحها.. إلى إصابة شعبها بظاهرة تسمى عادة «الجبن الجماعي» . جبن يغذيه قصر نظر السياسيين ـ وافتقارهم إلى الإرادة الحديدية اللازمة لحراسة مستقبل شعوبهم ـ والقدرة الواعية على ترجمة هذا المستقبل إلى أفكار يؤمن بها رجل الشارع.

إن الصحافة الفرنسية ـ مثلا ـ نقلت في تلك الفترة نغمة واحدة إلى رجل الشارع : ماهى أهمية كلمة فرنسا لتشيكوسلوفاكيا؟ ما هى أهمية تشيكوسلوفاكيا نفسها لفرنسا ؟ ماهى أهمية نتائج الاستسلام لهتلر ؟ لا شيء. إن الشيء الوحيد المهم هو السلام.

ولكن السلام.. إلى متى ؟ والسلام.. على أى أساس ؟

لا شيء صمتت الصحافة الفرنسية تماما عن هذه الأسئلة.. ليس فقط لأنها لا تريد.. ولكن لأن أطرافا أساسية في الموضوع تغذى فيها حالة العمى القومى التى أصيبت بها.

ففى تلك الفترة مثلا ظهرت شخصية في المجتمع السياسى والصحفى الفرنسى. هى شخصية «أوتو أبيتز» . إنه من أصل فرنسى ولكن المانى الجنسية يعيش في باريس. ولكنه لا يعيش حياة عادية. إنه له علاقة وثيقة في الدوائر الاجتماعية والثقافية وبين رجال الأعمال ـ فضلا عن أعضاء البرلمان ورجال السياسة. لقد ضاعف من جهوده في تلك الفترة

بالذات لكسب تعاطف الشخصيات الفرنسية المؤثرة لحساب ألمانيا النازية. هكذا نظم مثلا رحلات مدفوعة بالكامل لعدد كبير من السياسيين والمثقفين ورجال الصناعة وزعماء جمعيات المحاربين القدماء إلى ألمانيا.. حيث شربوا وأكلوا هناك الدعاية النازية. إنه رتب لقاءات وأحاديث للصحفيين الفرنسيين مع أدولف هتلر. لكى يستطيع من خلالها أن يردد ويكرر للشعب الفرنسى أن كل ما يريده هو السلام وعلاقات الصداقة مع فرنسا.. وان ألمانيا وفرنسا لو تعاونتا معا فإن أوروبا سوف تصبح جنة.

وفجأة تترجم كتب بعض الكتاب والأدباء الفرنسيين إلى الألمانية، ولا يترجم البعض الأخر.. ويحصل الأولون على أموال طائلة مقابلا اسميا لترجمة كتبهم.. ثم يتضح بعد فترة أن الذى رتب هذا الحل هو «اوتو ابيتز» .

إن تلك الشخصية الغريبة كانت مثيرة للاهتمام.. ولكن لا أحد يهتم، فهو مجرد شخص نشيط ومتحمس ومعجب ـ ككثيرين غيره ـ بالنظام النازى الألمانى..

وسوف ينقضى بعض الوقت قبل أن يقفز «أتو أبيتز» إلى السطح مرة أخرى كقضية جادة.

إن كل ما يقوله الآن، ويردده من خلال الأصوات والأقلام الفرنسية ذاتها هو : لماذا تغامر فرنسا بالحرب ؟ إن فرنسا يجب أن تكون للفرنسيين أولا.. ومصلحة فرنسا فوق أى اعتبار.. إن مصلحة فرنسا هى ألا يموت جندى واحد لها خارج حدودها.. إن الذين يفكرون فى الحرب، أو الاستعداد للحرب، هم مجرد مغامرين يرغبون فى مزيد من الدمار. بينما الشعب الفرنسى أولى بإنفاق أمواله على تحسين مستوى معيشته. وليس على التوسع العسكرى.. إن هتلر يريد السلام ولا شىء سوى السلام.. وصراعه فى أوروبا الشرقية هو ضد الشيوعية أولا، وضد المشاغبين الصغار هناك ثانيا.. مشاغبين لا يجب أن تتدهور العلاقة الفرنسية الألمانية بسببهم.. فألمانيا هى التى تقف حاجزا بين الخطر الشيوعى وبين فرنسا.. وألمانيا نجحت فى أن تعالج أزمتها الاقتصادية. ويجب أن تحذو فرنسا حذوها لرفع مستوى معيشة الشعب الفرنسى.. إن السلام معناه الرخاء. بينما الحرب لا تؤدى إلا إلى الدمار.. إلخ.. إلخ..

كل هذا ولم تمض أسـابيع على قيام هتلر بذبح تشيكوسـلوفاكيا، التى لا يبق منها سوى جزء صغير جزء مسـتقل نظريا. وهو الجزء الذى مازالت بريطانيا وفرنسا تضمنان استقلاله. نظريا أيضا.

وحتى هذا الجزء، لم يطق هتلر وجوده، فقد احتله عسـكريا فى ١٥ مارس سـنة ١٩٣٩، وهكذا توقفت دولة «تشيكوسلوفاكيا» عن الوجود.

هل تتحرك فرنسـا فى هذه المرة ؟ لقد ذهب السـفير البريطانى فى باريس إلى وزير خارجية فرنسـا، جورج بونيه، يسأله، فأجابه الأخير قائلا : إن الوقت متأخر جدا على اتخاذ أية إجراءات عسكرية.. فنحن مازلنا غير مستعدين!

إن وزير الخارجية الفرنسـى لديه العذر الجاهز دائما فى كل مرة.. بغير أن يفعل شيئا لتغييره فى المرة التالية!

ولكـن بريطانيـا كانت هى التى بدأت تسـتيقظ فى هذه المـرة ! إن رئيس الوزراء البريطانى «تشمبرلين» اعترف صراحة بأن هتلر قد خدعه.. وأنه إذا كانت أطماع هتلر سوف تستدير الآن لابتلاع بلد جديد.. فإن بريطانيا سوف تقاوم ذلك بكل قوتها.

إن يقظة بريطانيا بدأت متأخرة.. ولكنها بدأت على أى حال.

هل تستيقظ فرنسا ؟

ليـس بعد ! إن أحـدا لا يعلم بعد، أن هتلر قد أصدر أمرا بالغ السـرية إلى قواته المسلحة بوضع خطة للاستيلاء على بولندا، وتدميرها فى هجوم مفاجئ. هجوم يجب أن يتم فى أول سبتمبر (١٩٣٩)

وبدا هتلر يعد المسـرح. إن الهدف العلنى سـيكون هو اسـتعادة ممر دانزيج، الذى اقتطع من ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى وأصبحت دانزيج مدينة حرة. إن بولندا سوف ترفض بالطبع، وساعتها يدمر هتلر بولندا كلها. ومرة أخرى : عاد شبح الحرب!

وفجأة نشـر فى فرنسـا مقال سوف يصبح مشهورا لكل مواطن بعدها مقال، بعنوان «لماذا نموت من أجل دانزيج ؟» . هذا المقال بقلم سياسـى فرنسـى مشهور هو «مارسل

ديت» يقول فيه : إن فكرة أن تحارب فرنسا ألمانيا دفاعا عن دانزيج هى جنون مطبق. إن على فرنسا أن توفر دماء أبنائها للدفاع عن أرضها.

فالا ندين. رئيس حزب الوسط فى البرلمان ورئيس حكومة سابق. اتبع نفس النغمة.. ثم شخص أخر. هو «أوتو أبيتز» . إن رئيس الوزراء. دالادير. بدا يشم رائحة مريبة فى نشاط «ابيتز» في فرنسا. ولكن وزير الخارجية يطمئنه بأنه شخص دمث ولطيف. وهو فقط يردد ما يؤمن به الشعب الفرنسى!.

لقد أخفى رئيس الوزراء عدم اقتناعه بكلمات وزير خارجيته. وطلب من البوليس السرى الفرنسى التحرى بدقة عن «أوتو أبيتز» ..

وسرعان ما جاءت إليه البيانات عن «ابيتز» . كاملة !

إنه ظاهريا رجل أعمال. وكيل لشركة ألمانية. وصديق وثيق الصلة بشخصيات مؤثرة فى كلا من ألمانيا وفرنسا. أما فعليا فهو أنشط عميل للمخابرات الألمانية فى فرنسا. وهو الذى يتم عن طريقه توزيع الأموال السرية إلى صحفيين عديدين. وصحف ضخمة. من بينها صحيفة «لا ليبيرتى» والصحيفة التى نشر فيها مقال «لماذا نموت من أجل دانزيج؟» والأدباء الذين تترجم أعمالهم إلى الألمانية.

وفكر رئيس وزراء فرنسا طويلا ثم قرر إبعاد «أوتو أبيتز» من الأراضى الفرنسية. وتم ترحيله فعلا. وعلى الفور أرسل وزير خارجية ألمانيا إلى سفيره فى باريس يطلب إليه تقديم أعنف احتجاج ممكن إلى الحكومة الفرنسية ويبلغها بأن. ألمانيا لا تنوى على الإطلاق قبول هذا التصرف.. إن أبيتز يجب أن يعود إلى فرنسا. وعليك أن تخبر رئيس الوزراء الفرنسى شخصيا بذلك. وإذا لم يستجب فليعلم أننا نضيف إلى معلوماته أن أبيتز قد عاد بالفعل إلى فرنسا بغير أن يعرف رئيس وزراء فرنسا» !

لقد جاء الدليل إلى الحكومة الفرنسية على أن «أوتو أبيتز» هو أكبر جاسوس لألمانيا داخل فرنسا. وهو كبير مهندسى الطابور الخامس فى دوائرها الصحفية والسياسية.

مع ذلك فإن وزير الخارجية الفرنسى يناشد رئيسه أن يهدى المشاعر الغاضبة فى

برلين ويصدر بيانا يؤكد فيه إخلاص «أوتو أبيتز» وعدم وجود أى شكوك فرنسية فى تصرفاته.

وعندما رفض رئيس الوزراء. أصدر وزير الخارجية «إعلان الشرف» هذا بنفسه.. وأصبح على فرنسا أن تتيح الفرصة رسميا لجاسوس المانى بتسميم مواطنيها هى ضد مصالح بلدهم. إن لن يكون نهاية قصة أبيتز. ففيما بعد. حينما احتلت ألمانيا فرنسا. اختاره هتلر ليكون سفيرا له فى فرنسا..!

إن العمى الذى أصيبت به فرنسا.. قد أضيف إليها أيضا قبول ضمنى لتخريب الشعب الفرنسى نفسيا..

لم تكن حكاية «أبيتز» هى النموذج الوحيد. ولا حتى النموذج الأكثر وضوحا. فمع اقتراب هتلر أكثر وأكثر من ضحيته.. كان تخريبه المسبق لنفسيتها وروحها المعنوية يصبح أكبر وأكبر..

لقد كان هذا التخريب يتم بواسطة الفرنسيين أنفسهم ضد بلدهم. إن بعض من الكتاب الفرنسيين ساهموا فى ذلك أكثر من غيرهم. وأحد الأمثلة على ذلك هو الكونت «الفونس دى شاتو بيريان» . إنه تلقى فى سنة ١٩٣٧ دعوة للقيام بزيارة طويلة إلى ألمانيا النازية.. ومن هناك عاد منبهرا بأدولف هتلر .. إلى درجة مقارنته بشخصية المسيح.. واعتبار الاشتراكية الوطنية هى شئ معادل للمثل العليا للمسيحية والإنسانية. إن ألمانيا النازية لا تريد سوى السلام مع جيرانها.. وبالذات مع فرنسا. هكذا كتب «شاتو بريان» فى كتاب أصدره بعنوان «حزمة المقدرة» .. وهو الكتاب الذى سينتشر سريعا فى فترة حاسمة ودقيقة من تاريخ فرنسا.. وسيساهم بدرجة كبيرة. مع عشرات من الكتب ومئات من المقالات.. فى تخدير العقل الفرنسى.

ومن المثير هنا أن هذا الكتاب بالذات انتشر بين صفوف ضباط الجيش الفرنسى أكثر من غيرهم.. ولنتذكر الآن أن الكتاب قد صدر فى سنة ١٩٣٧ . وأن المؤلف يستخلص فيه إن «هتلر هو إنسان طيب بدرجة ضخمة.. إنه إذا كان يحمى الجماهير بإحدى يديه. فإن يده الأخرى تتجه بإخلاص نحو الله.. إن أفكار هتلر لها جذورها الضخمة فى الأعماق السحيقة

للبحر المسيحى. إن هتلر يحاول أن يرفع المعبد المسيحى من أجل ألمانيا.. والاشتراكية الوطنية هى بداية عمل الله» !

لنتذكـر هذا كله، ولنتذكر أيضا أن أحـد المعجبين بالكتاب والمدافعين عنه اسمه الجنرال ويجاند أسم سوف نسمع عنه فيما بعد !

لم تكن تلك هى الحالات الوحيدة لتخريب فرنسا روحيا وعقليا ونفسيا بواسطة فرنسيين.. فالعملاء الألمان فى داخل ألمانيا اكتشـفوا إنه ليس لديهم وقت لشـراء الصحف.. فقرروا شراء الصحفيين. إن هذا أسرع.. وأرخص.. وأكثر فاعلية !

إن فرنسـا لن تكتشـفهم. وحينما بدأت تفعل ذلك فإنها كانت تكتشـفهم ببطء.. وبعد فوات الأوان. ففى مايو سـنة ١٩٣٩. تم القبض على «بواربيه» مدير الإعلانات فى صحيفة «الفيجـارو» والمدير السـابق لجريدة «لو تيمب» .. وكذلك «لويـس أوبين» رئيس الأخبار فى الجريدة الأخيرة (وهى جريدة محترمة) بتهمة العلاقة مع الدول الأجنبية.

إن الحكومة الفرنسـية، حتى وهى تكتشـف هذه العمالة، مضطـرة إلى أن تصوغ الاتهام بطريقة مطاطة.. رغم أن «لويس أوبين» اعترف فى التحقيق بأنه تلقى رشوة من ألمانيا النازية بلغت عدة ملايين من الماركات.

فى هذه النقطة يقول «وليم شيرر» أحد مؤرخى تلك الفترة فى حياة فرنسا : «إن جماهير الشـعب الفرنسـى، الذين لم يمسهم الفسـاد الموجود فى أعلى، هم وحدهم الذين كانت لهم مصلحة فى صحوة فرنسـا. ومع ذلك.. فان هذه الصحوة كان يتم إحباطها فى كل مرة.. لأن قوى خفية ومحتالة ومؤثرة وذات نفوذ كانت تعمل فى الصحافة والحكومة ضد هذه الصحوة» !

إن الدول الصغرى فى أوروبا بدأت ترى فرنسا، وهى الدولة الكبرى، مصابة بحالة جبن ضد هتلر، وبريطانيا.. وهى الأكثر خبرة بتوازن القوى.. مترددة.. فبدأت تقامر على الحصان الرابح تقامر على ألمانيا نفسـها. إن فرنسـا مسـتعدة لخيانة حلفائهـا.. وبريطانيا لا تحترم كلمتها.. فلماذا الارتباط معهما أو مع أحدهما.. ؟

من أجل هذا أسرعت بريطانيا وفرنسا تبعثران تعهداتهما العسكرية والدفاعية يمينا ويسارا

فى أوروبا الصغرى .. فتتعهدان بحماية هولندا وبلجيكا وسويسرا.. ثم اليونان ورومانيا.. ضد أى اعتداء على أى منهما.

لماذا فعلت فرنسا ذلك؟

لأنها امتلكت إرادة الصمود أخيرا ؟ ولكن الصمود يبدأ من الداخل..

لأنها تفكر فى حشد قوى ضد ألمانيا ؟ ولكن تلك الدول هى عبء على القوة الفرنسية. وليست إضافة. يوغسلافيا مثلا. التى تملك أقوى جيش فى البلقان. لم تفكر فيها فرنسا. وروسيا. التى تحالفت معها فرنسا ضد نفس العدو فى الحرب العالمية الأولى. لم تفكر فيها فرنسا.

ولكن. إذا كانت فرنسا لا تفكر. فإن عدوها يفكر. هتلر يفكر. لقد فوجئ الغرب كله. فى ٢١ أغسطس (١٩٣٩) براديو موسكو يقطع إذاعته بعد منتصف الليل. لكى يعلن أن «.. حكومة الرايخ. والحكومة السوفيتية قد توصلتا إلى معاهدة عدم اعتداء بينهما.. وسيأتى مستر روبنتروب وزير الشئون الخارجية الألمانية إلى موسكو بعد غد للانتهاء من المباحثات»!

لقد ضمن هتلر أن الاتحاد السوفيتى سوف يقف صامتا. متيحا له التفرغ لحروبه القادمة فى الغرب.

وضمن أيضا ما هو أكثر : ضمن تقسيم أوروبا الشرقية بينه وبين الاتحاد السوفيتى. الآن يستطيع هتلر أن يبدأ بالغزو العسكرى المدمر لبولندا..

هل تستيقظ فرنسا؟

للوهلة الأولى بدا ذلك. أو ما يشبه ذلك ! ففى صباح يوم ٢٣ أغسطس (سنة ١٩٣٩) عقد مجلس الدفاع الفرنسى اجتماعا سريعا وسريا للغاية برئاسة رئيس الوزراء. إن القائد العام للجيش الفرنسى، الجنرال جمالين. لا يريد مبدئيا أن يكون صريحا تماما بالنسبة لأوضاع الجيش الفرنسى.

السبب ؟ إنه شك فى ولاء وزير الخارجية الفرنسى.. الذى يحضر الاجتماع بحكم منصبه!

أكثر من هذا : حينما صارح القائد العام للجيش (الفرنسى) رئيس الوزراء (الفرنسى) بشكوكه نحو وزير الخارجية (الفرنسى) رد عليه رئيس الوزراء قائلا : معك الحق.. فأنت إذا كشفت عن

نواحى القصور فى الجيش (أمام وزير الخارجية).. فإن الألمان سوف يعرفونها فى اليوم التالى!

إن الجنــرال «جمالــين» يقول عن هذه الواقعة فى مذكراته : أرجو ألا يســئ أحد فهمى. إن رئيس الوزراء لم يقصد أن جورج بونيه (وزير الخارجية) كان خائنا وعلى اتصال بالألمان. ولكن من الثابت أن بونيه مشبع بفكرة تفادى الحرب بحيث إنه كان قادرا على أن يكرر أننا لا نملك كل التسليح الضرورى. وهى معلومات سوف تنتشر بسرعة فى دوائر معينة. وتمر من خلالها إلى عملاء ألمانيا فى فرنسا» !

مرة أخرى : إنه السلام بأى ثمن !

قبلها بيوم واحد كتب «دالادير» رئيس الوزراء الفرنســى فى مذكراته مســجلا : أن فى مجلس الوزراء تباين. أحدهما يتزعمه بول رينو نائب رئيس الوزراء ويرى أن الجيش جبان ولا يملــك تصميما كافيا (على خوض الحــرب).. والتيار الآخر يتزعمه جورج بونيه (وزير الخارجية) ويرى أن علينا أن نحصل على السلام بأى ثمن» !

فى نفس هذا اليوم كان هتلر يخبر جنرالاته فى اجتماع سرى فى برلين : «إننى سأبدأ بالحرب ضد بولندا. وســوف أعطى ســببا دعائيا لبدء الحرب.. وعليكم ألا تهتموا بما إذا كان هذا السبب صحيحا أم لا. إن المنتصر لا أحد يسأله فيما بعد ما إذا كان قد قال الحقيقة أم لا.. ففى الحرب لا تهم الحقيقة.. ولكن ما يهم هو النصر» !

وهتلر بدا فعلا يســير فى طريق النصر، يوم ســرب إلى العقول المؤثرة فى فرنسا فكرة الســلام بأى ثمن. إن هذه «الحرب التمهيدية» كانت مقدمة لابد منها لهتلر لكى يحطم فرنســا فى النهاية. بل إن هتلر كلف ســفارته بأن توافيه أولا بأول باتجاهات الصحف الفرنســية.. وفى ٢٦ أغســطس (١٩٣٩) كان القائم بالأعمال فى باريس يبرق إلى برلين نص مقال نشــرته صحيفة «لا كشن فرانسيز» بقلم «تشارلز موراس» . مقال يحذر الشعب الفرنسى من أن السياسة الرعناء التى تسلكها بريطانيا تحاول استدراج فرنسا إلى الدخول فى حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل. ثم يضيف «اليوم.. إذا سمح شعبنا الفرنسى لنفسه بأن يذبح أبناءه بلا جدوى، بإرادة قوى أجنبية وعبيدها من الفرنسيين.. فلابد أن يرتفع

صوت فرنسى ليقول الحقيقة» !

ما هى الحقيقة ؟

إن الحقيقة هى أن اليمين الفرنسى لا يريد الحرب لأنه يريد انهيار النظام الجمهورى كله فى فرنسا.. واستبداله بنظام ملكى. أو بنظام فاشى..

واليسار الفرنسى لا يريد الحرب، لأن موسكو وقعت اتفاقية عدم اعتداء مع هتلر !

والمصالح الحقيقة للشعب الفرنسى ضائعة بين انهزامية حكومتها. وعمالة الصحفيين الذين اشترتهم المخابرات الألمانية. وجهل من تبقى منهم. ومن أعضاء البرلمان. بحقيقة أن هتلر يصبح فى كل يوم أكثر قوة.. وهذا معناه أوتوماتيكيا أن فرنسا تزداد فى كل يوم ضعفا!

إن هتلر أعلن مطالبه الجديدة فى بولندا. ووجه إليها إنذارا محددا.

وقررت بولندا إعلان التعبئة العامة.

ولان وزير خارجية فرنسا يؤمن من البداية بفكرة «السلام بأى ثمن» .. فانه بدلا من الوقوف بحسم ضد هتلر. اختار أن يضغط بقوة على البولنديين حلفاء فرنسا. إنه يريد منهم التفاوض مع هتلر. كيف يتم التفاوض بين فيل ونملة ؟ لم يفكر الوزير الفرنسى. ولم يشأ أن يفكر.

وحينما اقترح الزعيم الايطالى موسولينى - حليف هتلر - عقد اجتماع آخر للدول العظمى (التى حضرت مؤتمر ميونيخ) رفض الجميع الفكرة من أساسها. ولكن وزير خارجية فرنسا تحمس تماما. مسجلا فى مذكراته : «إننى رأيت أن هذا الاقتراح هو تدخل مخلص من جانب موسولينى. فمن خلال مثل هذا المؤتمر للقوى العظمى تستطيع بولندا بسهولة أكبر أن تبرر أمام الراى العام بها التنازلات التى سيتم دفعها إليها» .

الوزير الفرنسى أكثر جبنا من الضغط على العدو.. ولذلك فهو يريد الضغط على بولندا. وهى حليف لفرنسا. لكى تقدم التنازلات التى يطلبها هتلر !

لقد اجتمع مجلس الوزراء الفرنسى ليناقش الأزمة الجديدة. وفى الاجتماع أشار «جورج بونيه» وزير الخارجية الفرنسى بأنه يرى قبول اقتراح موسولينى.. خصوصا وأن بريطانيا هى الأخرى ترى ذلك..

ولحظتها رد عليه رئيس الوزراء : ولكن بريطانيا لا ترى ذلك.. فلقد كنت أتحدث لتوى مع لندن وأخبرونى عدم موافقتهم !

إن فكرة «السلام بأى ثمن» لا تدفع وزير الخارجية الفرنسى إلى الانهزام فقط. ولا إلى التفريط فى مصالح فرنسا فقط. ولكنها تدفعه أيضا إلى الكذب على مجلس الوزراء !

إن أحد الوزراء كتب فى مذكراته فيما بعد عن تلك الواقعة قائلا : إن رئيس الوزراء أدار ظهره إلى بونيه - وزير الخارجية - ووجهه المتجهم يبدى أقصى درجة من الازدراء والاحتقار»!

هل هذا هو كل شىء ؟ نعم فرنسا تقترب الآن من اختبارها النهائى مع هتلر. وإرادتها عاجزة. ومشلولة !

فى اليوم التالى (أول سبتمبر ١٩٣٩) بدا الغزو العسكرى الألمانى لبولندا. لقد تلقى وزير خارجية فرنسا هذا «الأخبار الصعبة» ووجد من الصعب على عقله أن يستوعبها. إن أفكاره الأولى لم تتجه إلى وفاء فرنسا بالتزاماتها العسكرية نحو بولندا.. ولكن إلى حث بريطانيا على قبول فكرة الاجتماع مع هتلر !

وعندما اتصل به السفير البولندى مؤكدا أنباء الغزو الألمانى. وطالبا إعلان فرنسا الحرب على ألمانيا تنفيذا لتعهداتها.. رد عليه وزير الخارجية بأن الدستور الفرنسى يمنع الحكومة من شن أى عمل من أعمال الحرب ضد ألمانيا. أو حتى تقديم إنذار إليها. إلا بموافقة البرلمان.

سأله السفير الذى تواجه بلده منذ ساعات ثقل الغزو الألمانى : ومتى يوافق البرلمان ؟

رد وزير الخارجية : إنه حاليا فى أجازة.. ويجب أن ننتظر استدعاء الأعضاء من أجازتهم!

وعندما ضغطت بريطانيا على فرنسا لتقديم إنذار مشترك ومحدد إلى هتلر. رفض وزير الخارجية استخدام كلمة «إنذار» !

لقد واجهت فرنسا غزو هتلر لبولندا. كما لو كان مفاجأة.. بمثل ما حدث من قبل فى غزوه لتشيكوسلوفاكيا.. وفى استيلائه على النمسا. إن فكرة «السلام باى ثمن» مع هتلر قد خربت نفوس الجميع وشلت عقولهم. بحيث انه.. حتى بعد ٤٨ ساعة من الغزو النازى لبولندا. كان وزير خارجية فرنسا مازال يحلم بميونخ أخرى مع هتلر..

إن وزير خارجية ايطاليا – وهى التى شكلت محورا من التحالف مع ألمانيا – علق فى مذكراته الخاصة على سلوك وزير خارجية فرنسا قائلا : «إننى ألقيت باقتراح مسيو بونيه فى سلة المهملات.. ولكن هذا يبين أن فرنسا تتحرك نحو الاختبار الضخم بغير حماس.. وبروح من عدم التأكد» !

نعم فرنسا غير متأكدة من نفسها.. وبغير ذلك لم يكن عدوها يستطيع أن ينطلق من غزو إلى غزو !

لقد انتهى الإنذار البريطانى إلى ألمانيا ظهر ٣ سبتمبر.. وأصبحت بريطانيا فى حالة حرب رسمية ضد هتلر..

وانتهى الإنذار الفرنسى إلى ألمانيا بعده بخمس ساعات.. وأصبحت فرنسا أخيرا فى حالة حرب رسمية هى الأخرى ضد هتلر.

ومع ذلك فإن التعليمات التى صدرت إلى الجيش الفرنسى تنص على ألا يبدأ عملياته الحربية إلا بعد انتهاء مفعول الإنذار باثنتى عشرة ساعة !

إن تردد القيادة العسكرية العليا فى فرنسا بدا فى نفس الساعة الأولى من الحرب !

بل إن احد الوزراء الفرنسيين سجل فى مذكراته ذلك اليوم قائلا : «فى هذا اليوم –٤ سبتمبر – ذهبت فرنسا إلى حرب لا تؤمن بها» .

لماذا لا تؤمن بها ؟

لأن المواطن الفرنسى ترسبت فى ذهنه على امتداد سنوات سابقة، أن قوة ألمانيا لا تعنيه. واستيلاءها على النمسا لا يعنيه. وغزوها لتشيكوسلوفاكيا لا يعنيه، وتدميرها لبولندا لا يعنيه.

لقد ترسبت فى ذهنه. بفعل آلاف المقالات. انه طالما أن هتلر لم يغزو حدود فرنسا.. فإن فرنسا يجب ألا تهتم. إن هتلر محب للسلام. والأهم من ذلك السلام مع فرنسا.. ويجب على فرنسا أن تسترضيه محافظة على هذا السلام. يجب على فرنسا أن تجعل كلمتها رخيصة. والتزاماتها نحو حلفائها بلا قيمة. وتضامنها فى قضية الأمن المشترك مع بريطانيا عند نقطة الصفر.. لأن فرنسا لو فعلت ذلك فإنها لن تتعرض لأى عدوان من هتلر.

كل هذا قد ترسب في العقل الفرنسي. وسمم الراى العام الفرنسي، بحيث ستحصد فرنسا الآن نتيجة ما زرعت على امتداد سنوات سابقة.

إن بولندا تم تدميرها وقهرها فى ثمانية أيام.. ومع مساء ٨ سبتمبر (سنة ١٩٣٩) كانت ٣٥ فرقة مسلحة – هى كل ما استطاعت بولندا أن تعبئه ـ قد تم سحقها تماما.. بعد ١١ يوما دخل الجيش السوفيتى الحدود الشرقية لبولندا (تنفيذا للتقسيم السرى المتفق عليه مع هتلر) وفى ٢٩ سبتمبر أصبح تقسيم بولندا بين الاتحاد السوفيتى وألمانيا رسميا بعد أن تم ابتلاعها.

.. وبدا هتلر يستدير إلى الغرب.

يستدير إلى فرنسا.

ماذا كانت فرنسا تفعل طوال تلك المدة – شهر تقريبا ـ بينما الجيش الألمانى كله مشغول تماما فى الجبهة البولندية ؟ إن ما فعلته فرنسا، أو على الأصح.. ما لم تفعله.. قد حير الألمان تماما.. ولكنه لم يفاجئهم!.

إن قراءة الألمان لأفكار الحكومة الفرنسية، وجهودها المسبقة لتسميم الرأى العام فى فرنسا، قد جعلتهم يقدرون من قبل أن فرنسا لن تفعل شيئا.

إن هذا التأكد من جانب الألمان، وصل إلى درجة أن ألمانيا لم تترك فى حدودها مع فرنسا سوى قوات احتياط، بأسلحة وذخيرة ومواصلات ضئيلة جدا. وعندما حركت فرنسا بعض قواتها إلى داخل الحدود الألمانية لاحتلال عشرين قرية مهجورة.. فإن ألمانيا لم تنزعج. وحتى هذا التقدم الفرنسى المحدود داخل الحدود الألمانية، الذى تم يوم ١٢ سبتمبر، قد ألغى تماما عندما انسحبت فرنسا بسرعة إلى حدودها فى ٣٠ سبتمبر، خوفا من احتمال هجوم ألمانى..

إن هذا الهجوم لم يأت إلا فى ١٦ أكتوبر.. أى بعد ٤٦ يوما من غزو ألمانيا لبولندا، وبعد ٤٢ يوما من إعلان فرنسا الحرب على ألمانيا !

إن رئيس هيئة أركان الحرب الألمانى قال لضباطه قبلها : «إننى لم أعد أؤمن بهجوم فرنسى.. فلقد فقدت فرنسا فرصتها» !

متى ؟ كيف ؟

لقد فقدت فرنسا فرصتها فى سنة ١٩٣٦.. حينما قام هتلر بإعادة تسليح الراين لاند.. ووقتها استمعت فرنسا لأصوات تقول : إن هتلر انتهك اتفاقية فرساى. هذا صحيح.. ولكن علينا ألا نحارب.. لأنه لم يهاجمنا!

وفقدت فرنسا فرصتها فى ١٩٣٧.. حينما قام هتلر بالاستيلاء على النمسا. إن الجيش الألمانى كان لايزال ضعيفا. والفرنسيون يتفوقون عليه عددا وعدة. ومع ذلك استمعت فرنسا لأصوات تقول : يجب ألا نضحى بأبنائنا دفاعا عن أرض أجنبية.. ويجب أن نحافظ على السلام مع هتلر بأى ثمن..

وفقدت فرنسا فرصتها فى ١٩٣٨. عندما قام هتلر بغزو تشيكوسلوفاكيا. بعد اتفاقية الاستسلام فى ميونخ.. ومرة أخرى استمعت فرنسا إلى نفس الأصوات تقول : لا يهم أننا ملتزمون عسكريا نحو تشيكوسلوفاكيا.. فلنضحى بالحليف لكى نكسب السلام مع هتلر!.

وفقدت فرنسا فرصتها فى ١٩٣٩. عندما ألقى هتلر بكل جيشه فى غزو بولندا. وظلت فرنسا مختبئة خلف خط ماجينو. خطها الدفاعى الذى بنته داخل حدودها.

والآن سوف نرى نتيجة انتظار فرنسا لعدوها.. داخل حدودها..

إن هتلر يلجا الآن لنفس الأسلوب بعد كل قفزة : الحديث عن السلام. فبعد كل ذبيحة التهمها.. ينادى بالسلام. وهو فى كل مرة يجد من يصدقه داخل نفس البلد الذى ستكون ضحيته التالية.

وضحيته التالية فى هذه المرة هى فرنسا نفسها.

إنها صدقت. على امتداد ست سنوات متتالية. أنها تنجو بجلدها من أطماع هتلر.

والآن.. جاء الدور عليها !

مع ذلك مازال وزير خارجية فرنسا - جورج بونيه.. هل تتذكره ؟ ينادى - «السلام بأى ثمن» .. مع هتلر!

إن أول شىء فعله دالادير. رئيس وزراء فرنسا. هو : التخلص من وزير خارجيته!

هل حاكمه بتهمة الانهزامية ؟ الكذب على مجلس الوزراء ؟ سـوء التقدير فى السياسـة الخارجية ؟ تضليل الحكومة ؟.

أبدا. لقد نقله من وزارة الخارجية إلى وزارة العدل !

هـل قام بتغيير قيادات الجيش ؟ القيـادات التى أغلقت عقلها من قبل. وانتحلت العذر فى كل مرة مبررة جبنها وتخاذلها ؟

أبدا. مازال الجيش الفرنسى تقوده نفس القيادات، التى توقف نموها العقلى عند الحرب العالمية الأولى. والتى مازالت حتى هذه اللحظة. فى سنة ١٩٣٩ وبعد غزو بولندا. تسمح ببيع السـلاح الفرنسـى إلى الخارج (فى الدبابات مثلا باعت فرنسا خمسمائة دبابة إلى الخارج.. محتفظة فى جيشها بتسعين دبابة فقط) !

إن هتلر كنس فى يومين جنود فرنسا من داخل الحدود الألمانية. من القرى التى احتاجوا إلى أسبوعين لدخولها !

ولكن هتلر ليس متعجلا فى الهجوم على فرنسا نفسها.

إنه بدأ يحاصرها نفسيا منذ سنة ١٩٣٦.

وهـو يحاصرها الآن عسـكريا.. ويريد أن يسـتكمل هـذا الحصار لكى تسـقط الثمرة فى حجرة، بعد ذلك.. ناضجة.. وسـهلة. وفرنسا الآن، مع بريطانيا. أعلنتا الحرب ضد ألمانيا (ثم ايطاليا)..

هكـذا أصبحت الحـرب العالمية الثانية تدور بين معسـكرين. الحلفاء فى جانب. ودول المحور فى جانب آخر..

وهتلر. الذى كان صده يحتاج قبل ثلاث سـنوات إلى إرادة فرنسـية.. أصبح صده اليوم يتطلب حربا عالمية!

وفى فرنسا أصبح الصمود فى وجه الغزو القادم يحتاج إلى حكومة تمتلك إرادة حديدية.

هكذا سقط رئيس الوزراء دالادير. وبدلا منه جاء نائبه بول رينو. ليشكل وزارة. إن «رينو» يمتلك بالفعل إرادة حديدية.. ولكن فات الوقت !

فات الوقت الذى تستطيع فيه إرادة شخص واحد أن تنقذ امة.. فالآن أصبح على فرنسا أن تدفع ثمن تهاونها، واستسلامها، طوال سنوات سابقة.

إن فرنسا عاشت بإرادة ناقصة، إرادة مشلولة، والآن يجب أن تسدد الحساب، من دماء أبنائها.. مضافا إليه الفوائد المركبة للتأخير. التأخير فى اليقظة.. وفى التنبه.. وفى الإرادة.

لقد بدأت روسيا الهجوم على فنلندا فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٠.

ومن الغريب أن نفس الأصوات، داخل فرنسا، التى عارضت من قبل، الدخول مع ألمانيا فى حرب بسبب إعادة تسليح الراين لاند، أو الاستيلاء على النمسا، أو غزو تشيكوسلوفاكيا، أو غزو بولندا.. لأن «دماء أبناء فرنسا يجب توفيرها للدفاع عن حدودها».

نفس هذه الأصوات.. تطالب الآن، فى مارس سنة ١٩٤٠ بالدخول فى حرب مع الاتحاد السوفيتى !

وعندما اسقط البرلمان الفرنسى حكومة «إدوارد دالادير» .. فانه لم يسقطها بسبب غفلتها عن الخطر النازى على ألمانيا.. ولكن بسبب عدم الدخول فى حرب مع روسيا.. فى فنلندا!

إنه لغز سجله الجنرال شارل ديجول فى مذكراته بعد ذلك بقوله : «.. إن من المذهل أن دوائر معينة – فى فرنسا – رأت العدو فى ستالين، بأكثر مما رأته فى هتلر. إنهم شغلوا أنفسهم بإيجاد الوسائل لضرب روسيا.. بأكثر مما يسعون إلى الإمساك بألمانيا».

إن ألمانيا هى التى تهدد الآن أرض فرنسا نفسها.. ولكن هذا لا يهم. المهم فقط هو إعلان الحرب على الاتحاد السوفيتى على بعد ألاف الأميال.

إن الذى تزعم هذا الاتجاه ضد الحكومة الفرنسية.. داخل مجلس الشيوخ الفرنسى، اسمه «بير لافال» وسوف تظهر الأهمية الحاسمة لهذا الاسم فى مصير فرنسا بعد فترة وجيزة.

سقطت الحكومة الفرنسية إذن، وسقوطها كان بسبب عدم إعلان الحرب على الاتحاد السوفيتى، وليس بسبب عدم الاستعداد لخطر العدو الالمانى..

وأصبحت هناك حكومة فرنسية جديدة فى ٢٠ مارس سنة ١٩٤٠، برئاسة بول رينو.

وبدا هتلر يغزو النرويج.. ثم بدا يغزو الدانمرك.. ثم بلجيكا.

وأخيرا بدأ الهجوم على فرنسا.

لقد بدأ الهجوم الألمانى فى ١٠ مايو سنة ١٩٤٠. وبرغم أن فرنسا فى حالة حرب رسمية ضد ألمانيا منذ ٤ سبتمبر، اى ما يزيد على ثمانية أشهر، فإن الألمان امسكوا بالجيش الفرنسى نائمـا فـى ذلك الصباح المبكر صباح ١٠ مايو ١٩٤٠.لقـد كان ١٥٪ من جنود وحدات الخط الأمامى بالجبهة الفرنسية.. فى أجازة !

وفى مساء ٩ مايو (اى قبل الهجوم الألمانى باثنتى عشرة ساعة فقط) طلب مدير المخابرات العسـكرية من وزير الداخلية الفرنسـى اسـتدعاء الجنود من أجازتهم بسـرعة، ولكن وزير الداخلية رد عليه : ولماذا نفعل ذلك ؟ ليس عليهم أن يحاربوا غدا !

ولكن الألمان جاءوا يحاربون غدا. بغير أن يتوقع ذلك وزير فرنسى، إنه، هو الآخر. جزء من الشـلل الذى أصاب فرنسا كلها على امتداد سنوات.. تشبعا بفكرة «السلام بأى ثمن» مع هتلر ! لقد نجح هتلر فى تخدير فرنسا حتى آخر دقيقة !

فى هذا الصباح - ١٠ مايو سـنة ١٩٤٠ - لم يكن الألمان يتمتعون بأى تفوق على فرنسا، والحلفاء عموما (وقد حاول جنرالات فرنسيون عديدون فيما بعد استخدام حجة التفوق الالمانى هذه لتبرير عجزهم وجمودهم وفى النهاية.. هزيمتهم).

إن ما هو ثابت على وجه التأكيد أن قوات الحلفاء كانت تمتلك فى هذا اليوم ١٥٧ فرقة.. مقابل ١٤٠ فرقة فقط تملكها ألمانيا.

وفى الدبابات كانت فرنسا وحدها تمتلك ٢٣٠٠ دبابة مقابل ٢٥٨٠ يملكها الألمان.

وفى الجو كان الفرنسـيون يمتلكون ٣٢٨٩ طائرة حديثة مقابل ٣٠٠٠ طائرة ألمانية. ولكن، لم تكن تلك هى كل القصة.

ففرنسـا تملك قوة برية أكبر.. ومع ذلك فإن خيالها لم يتسـع لتوقع الهجوم الألمانى فى المكان الذى جاء منه !

وفرنسا كانت تمتلك طائرات أكثر.. ولكن ثلث تلك الطائرات فقط هو الذى تم استخدامه فى الجبهة.

وفرنسا كانت تمتلك دبابات متعادلة تقريبا عدديا.. ولكنها أكثر تفوقا نوعيا.. ومع ذلك فإنها تستخدمها بأسلوب الحرب العالمية الأولى. ليس فى شكل فرق مدرعة كما فعل الألمان.. ولكن فى شكل أسلحة ملحقة بالمشاة !

لماذا فعلت فرنسا ذلك ؟

لأن قيادات الجيش الفرنسى هى من مخلفات الحرب العالمية الأولى. إنهم مجموعة من العجائز الذين توقفوا عقليا عند دروس حرب مضت.. ولا يملكون أى خيال لتصور حرب المستقبل. بل إن ضابطا فرنسيا صغيرا برتبة كولونيل. اسمه شارل ديجول. ألف كتابا بعنوان «جيش المستقبل» قبل أربع سنوات نبه فيه إلى أهمية الدبابة فى الحرب القادمة. وضرورة استثمارها كسلاح مستقل فى رأس حربة يشق الطريق بسرعة وفاعلية. وعندما ذهب الضابط الصغير إلى قياداته استخفت به وألقت بالكتاب فى صندوق المهملات. إن تفكيرهم كان هو : كيف يجرؤ الضابط «الصغير» على التفكير فى المستقبل ؟ إنه مازال طفلا !

إن هذا «الطفل» كان عمره خمسين سنة. ولكن الاسترخاء فى الفكر العسكرى الفرنسى كان يرجع أساسا إلى الشلل الفكرى الذى أصيبت به القيادات الفرنسية. لقد وضع هتلر فى المناصب القيادية شبابا تميزوا بالجرأة والحيوية والخيال والإيمان بالحرب الهجومية.. بينما لم يكن لدى الفرنسيين سوى قيادات من الشيوخ الذين تحول حذرهم إلى جبن. وتميزوا بالجمود والانهزامية والإيمان بالحرب الدفاعية من داخل مواقع ثابتة.

أسوأ من ذالك.. فإن القائد العام للقوات الفرنسية. جنرال «جمالين» . لم يكن يملك راديو فى مقر قيادته للاتصال بقواته.. ولا حتى حمام زاجل!

إن سياسة «السلام بأى ثمن» فى القطاع المدنى اتخذت شكل «التخلف بكل وسيلة» فى القطاع العسكرى!

إن الثورة فى وسائل الاتصالات التى تمت فى الثلاثينيات.. لم تجد أحدا يحاول أن يستفيد منها فى الجيش الفرنسى. وقد حدث (بعد الحرب) أن أحد أعضاء اللجنة

البرلمانية الفرنسية لتقصى الحقائق وجه سؤاله إلى الجنرال «جمالين» القائد العام للقوات المسلحة الفرنسية. السؤال هو : كم من الوقت كان الأمر يتطلب لتنفيذ أوامرك؟

ورد الجنرال ببساطة : من مقر قيادتى فى مسرح العمليات. إلى المقر التنفيذى فى جبهة القتال.. كان إبلاغ الأمر الذى أصدره يحتاج إلى ثمانى وأربعين ساعة. فمثلا. لو أصدرت أمرا إلى قواتى فى ١٩ مايو.. فإنه لايمكن تنفيذه قبل ٢١ مايو ! !

لقد سقطت فى فرنسا حكومة للسبب الخطأ !

والآن سقطت فى بريطانيا حكومة. وأصبح «ونستون تشرشل» هو رئيس الوزراء للسبب الصحيح.. وهو فشل تشمبرلين الساحق فى السياسة التى آمن بها وقاد بريطانيا إلى الكارثة من خلالها.. ولكن الأمر سوف يتطلب مزيدا من الكارثة قبل أن تسقط القيادة العليا للجيش الفرنسى.. لقد سحبت ألمانيا الجيش الفرنسى إلى بلجيكا.. موهمة له بأن هجومها الرئيسى يتم هناك.. وبذلك سار الجيش الفرنسى إلى الفخ بقدميه.

لقد بدأت الهزيمة الكبرى الأولى للفرنسيين عند مدينة «سيدان» نفس المدينة التى هزموا فيها قبل سبعين سنة بالضبط أمام نفس العدو.. ألمانيا.

وعلى الفور بدا الانهيار الكبير.. هناك كثير من المدافع والذخيرة فى أيدى الجنود الفرنسيين.. ومع ذلك فإنهم يفرون أمام أول رصاصة ألمانية.

لقد حاول أحد ضباط الفرقة ٧١ الفرنسية أن يوقف فرار جنوده. طالبا منهم الصمود فى القتال أمام عدو أقل عددا وعدة. ولكن الجنود أجابوا قائلين : «ياكولونيل.. إننا نريد أن نعود إلى بيوتنا.. ونعود إلى أعمالنا الصغيرة. ليست هناك فائدة فى محاولة القتال. ولا شئ نستطيع أن نفعله.. لقد تعرضنا للخيانة.. وخسرنا الحرب» .

إن الجنود. فى فرارهم من الجبهة. تصوروا أن الخيانة هى فى رتبة أعلى. أو رتبتين أعلى.. داخل الجيش نفسه. ولكن الواقع أن تلك كانت مجرد نتيجة فرعية لما هو أهم. نتيجة حتمية للاسترخاء النفسى والعقلى. بل التخريب. الذى تم فى عقل فرنسا بسبب سياسة «السلام مع هتلر بأى ثمن» ومبدأ «أن تنجو فرنسا بجلدها» متظاهرة بأن ما يحدث حولها فى أوروبا لن يؤثر عليها.

الآن.. يؤثر عليها !

فبعد خمســة أيام فقط من بدء الحرب، كان الجنرال مينو، قائد الجيش التاســع الفرنسى، يكتب فى مذكراته : «فى الرابعة عصرا يوم ١٥ مايو.. كنا قد خسرنا الحرب» !

بــل إن ضابطــا صغيرا هو الكابتن أندريه بوفر - جنرال بوفــر فيما بعد - ذهب إلى اجتماع عاجل مع قائد الجبهة فوجده يقول : «إن جبهتنا قد انكسرت» .. ثم سقط فى كرسيه يبكى.

ويعلــق بوفــر قائلا : «لقد كان جو الاجتماع هو جو أســرة متجمعــة حول جثة عضو ميت. والجنــرال جــورج - قائد الجبهة ونائــب القائد العام - هو أول رجــل رأيته يبكى خلال هذه المعركة» .

ليس غريبا إذن انه فى نفس هذا اليوم، ١٥ مايو ســنة ١٩٤٠، يرســل بول رينو رئيس وزراء فرنســا رسالة عاجلة إلى ونستون تشرشــل رئيس وزراء بريطانيا قائلا : «لقد خسرنا المعركة فى الليلة السابقة. إن الطريق إلى باريس أصبح مفتوحا (أمام الألمان).. أرجوك.. أرسل كل الطائرات والجنود الذين تستطيعهم».

إن الجيش الهولندى استســلم للألمان رسميا فى نفس اليوم . ومع استســلامه دمرت ألمانيا الجيش الفرنسى السابع، الذى ذهب إلى هناك - بعد المعركة - ليساعد هولندا !

وفى هذا المناخ النفســى، أرسل رئيس وزراء فرنسا يستدعى المارشال بيتان، البطل الفرنسى فى الحرب العالمية الأولى، والذى شغل منصب وزير الدفاع، وحاليا هو سفير لبلاده لدى أسبانيا، إنه أرسل أيضا يستدعى الجنرال ويجاند، بطل فرنسى آخر من الحرب العالمية الأولى والآن هو المقيم العام فى ســوريا.لقد تقرر أن يكون المارشــال بيتان نائبا لرئيس الوزراء.. والجنرال ويجاند وزيرا للحربية وقائدا عاما للقوات المسلحة!.

إن رئيس وزراء فرنسا، فى لحظة الكارثة، استدعى أبطالا من الماضى.. فى محاولة للصمود فى «حرب المستقبل» !

إن هذا «الماضى» الذى يســتعيد به رئيس الوزراء ســوف يتحول إلى كارثة أخرى، فرئيس الوزراء لم يعرف مثلا أن المارشال بيتان وهو يودع الجنرال فرانكو عائدا إلى باريس، قال له :

«إن بلدى قد هزمت.. وهم يستدعوننى الآن لعمل السلام وتوقيع الهدنة... إن هذا هو صنع ثلاثين سنة من الماركسية» !

بهذا التفكير، وهذه الانهزامية، وهذا التخلف العقلى، عاد المارشال بيتان إلى باريس.

إن فرنسا تأخرت كثيرا فى هز قيادتها العسكرية. وعندما فعلت ذلك فإنها عالجت التخلف بمزيد من التخلف. لقد استدعت اثنين من العجائز : بيتان (٨٤ سنة) ليكون نائبا لرئيس الوزراء.. والجنرال ويجاند (٧٣ سنة) وزيرا للحربية.. فى مواجهة ضباط ألمان فى مواقع القيادة.. هم بالدرجة الأولى شبان ومتفتحون وجريئون ومدربون على الهجوم الخاطف.

ويومها قال ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا لأحد وزرائه بعد أن علم بالمتغيرات الجديدة : «يجب علينا فى بريطانيا أن نستعد من الآن لاحتمال خروج فرنسا من القتال. وتحول الثقل الكامل (لألمانيا) ضدنا» !

وفعلا.. بعدها بيومين اثنين - ٢٠ مايو - كان الألمان يرسلون إلى رئيس وزراء فرنسا فى محاولة لجس نبضه. إنهم يعرضون عليه سلاما منفردا.. إذا كان يريد لفرنسا أن تنجو بجلدها !

إن رئيس وزراء فرنسا رفض فورا. ولكنه لم يكن يعلم أن المارشال بيتان. بطل الماضى الذى استدعاه بسرعة وجعله فى ١٨ مايو نائبا له، قد استخلص فى يومه الأول إنه على فرنسا أن تستسلم.. وكانت حجة المارشال التى ذكرها لوزير معه فى الحكومة هى: «إننى ضد سياسة المقاومة إلى النهاية. إن التحدث عن الحرب حتى آخر رجل هو كلام غبى.. وعمل اجرامى. إن معدل المواليد عندنا ضعيف.. ويجب على الأقل أن ننقذ جزءا من الجيش. فبغيره لن يكون ممكنا المحافظة على النظام فى ظل سلام حقيقى» .

لقد قرر المارشال أولا إن على فرنسا أن تستسلم.

وبعدها بدا ينتحل الحيثيات !

ومع ذلك. هل تستطيع فرنسا أن تستسلم ؟ إن هذا معناه توقيع سلام منفرد مع ألمانيا. والسلام المنفرد هو خيانة قاطعة لتحالفها مع بريطانيا.

لقد حول الألمان مدينة «دنكرك» فى شمال فرنسا إلى مذبحة ضد قوات الحلفاء.. وبريطانيا يجب أن تكون مسئولة عن تلك المذبحة. لأنها قامت بجلاء عدد من الجنود البريطانيين أكبر مما أجلته من الفرنسيين !

والقاذفات الألمانية تمطر فرنسا بقنابلها.. وبريطانيا مسئولة لأنها لا تريد أن تفرط فى الطائرات القليلة التى تحتفظ بها دفاعا عن جزيرتها. (وهى لا تزيد عن خمسة وعشرين سربا) إن بريطانيا تريد أن تقاتل ألمانيا.. حتى أخر نقطة دم.. فرنسية !

إن مثل هذه المقدمة لابد أن تقود إلى النتيجة التى أمن بها المارشال من البداية : إن فرنسا يجب أن تتصالح مع هتلر.. وتعقد معه سلاما منفصلا.. !. وهذا هو ما قاله المارشال بيتان نائب رئيس وزراء فرنسا. للسفير الأمريكى فى باريس فى اليوم الخامس من يونيو سنة ١٩٤٠.

ولكن رئيس الوزراء الفرنسى يرفض جملة وتفصيلا هذه السياسة من أساسها. بل إنه فى نفس هذا اليوم اصدر قرارا. ستكون له أهمية تاريخية فيما بعد. بتعيين الضابط الصغير شارل ديجول وكيلا مساعدا لوزير الدفاع.

نفس الضابط الذى يرى بيتان أنه «متغطرس.. ومغرور.. ويجهل أسرار الحرب»

ويرى وزير الدفاع. الجنرال ويجاند. أنه «طفل صغير.. برغم أنه فى الخمسين وهو صحفى بأكثر مما هو ضابط»

.. ولم تكن تلك هى القصة.

إن القصة هى باختصار شديد. أن بيتان وويجاند ينتميان لمدرسة : السلام بأى ثمن.. بينما ديجول يرى : الصمود بأى ثمن..

إن ديجول ذهب يزور الجنرال ويجاند مرة فى مقر قيادته. ومن المناقشة نفسها نعرف كلا التفكيرين.

لقد أخبره الجنرال ويجاند (وزير الحربية والقائد العام) : إن الألمان كسروا أفضل جيوشنا.

سأله ديجول :.. وبعد ؟

قال الجنرال : إنهم سيسبحون فى نهر السين..

- نعم.. وبعد ؟

- بعد ؟ إنها النهاية !

تساءل ديجول مندهشا : ماذا تقصد بالنهاية ؟ ماذا عن العالم ؟ عن إمبراطورية فرنسا؟

انفجر الجنرال ويجاند ضاحكا وهو يقول بسخرية : الإمبراطورية ؟ لا تكن طفوليا. أما بالنسبة للعالم فبمجرد أن ينتهى الألمان من ضربنا هنا.. لن تنتظر بريطانيا ثمانية أيام لكى تتفاوض مع الرابح.. آه لو تأكدت الآن فقط من أن الألمان سيتركون لى القوات الضرورية لحفظ النظام ؟ ! !

إن ويجاند وبيتان. ساهما من قبل بنفوذهما العسكرى داخل الجيش الفرنسى طوال سنوات ما بين الحربين فى منع الجيش الفرنسى من تطوير نفسه.

فى البداية كانت الحجة هى : لا ضرورة.. فألمانيا منزوعة السلاح ونحن متفوقون عليها. فى سنة ١٩٣٦ أصبح المنطق هو :لا يهم.. فألمانيا أعادت تسليح نفسها. ولكنها تريد السلام مع فرنسا !

فى سنة ١٩٣٧ أصبح المنطق هو : لا قلق.. فاستيلاء ألمانيا على النمسا ليس خطرا علينا.. لأن ألمانيا تريد السلام مع فرنسا !

فى سنة ١٩٣٨ أصبح المنطق هو : لا داعى.. فألمانيا تغزو تشيكوسلوفاكيا.. وهذا سيفرغها لمحاربة الشيوعية فى الشرق.. ويجعلها مخلصة فى رغبة السلام مع فرنسا.

وفى سنة ١٩٣٩ أصبح المنطق هو : لا وسيلة.. فالغزو الألمانى ضد بولندا لا يقابله استعداد كاف فى جانبنا.. والأفضل هو أن نؤمن بان ألمانيا تريد السلام مع فرنسا.

وفى سنة ١٩٤٠ أصبح المنطق هو : لا فائدة.. يجب أن نستسلم لألمانيا !

إن المارشال بيتان. نائب رئيس الوزراء يكتب مذكرة رسمية بذلك إلى بول رينو. رئيس الوزراء. فى ٩ يونيو. قائلا له : إن علينا أن نطلب من هتلر الهدنة فورا.

وأجابه رئيس الوزراء قائلا : ولكن الهدنة لن تكون مشرفة أبدا مع هتلر. ثم. إلى جانب ذلك فإننا حينما نفصل أنفسنا عن حلفائنا. ونبرم سلاما منفصلا. فإننا بذلك نقوم بعمل أحمق ومتهور بدرجة ضخمة.

ورد عليه المارشال ببرود : إن مصالح فرنسا يجب أن تأتى قبل مصالح بريطانيا. إن بريطانيا هى التى وصلت بنا إلى هذا الموقف. دعنا لا نرضى بقبوله.

ومرة أخرى يرفض رئيس الوزراء هذا الموقف. من الرجل الذى أتى به لشحذ إرادة فرنسا.. فإذا هو ينصح باستسلامها !

إن تلك الروح الاستسلامية كانت هى نفسها المسيطرة على معظم قيادات الجيش. وهى تنمو وتنمو مع كل تقدم جديد لقوات الغزو الألمانى.

لقد اقترب الألمان من باريس. وقررت الحكومة الانتقال إلى مدينة «بوردو» فى الجنوب الغربى لفرنسا..

ومع كل استدارة فى الأحداث.. وتدهور فى الحالة العامة.. تزداد قوة وعدد معسكر المنادين بالسلام مع هتلر.

إنهم لا يعترفون بالطبع أنه سيكون هو نفسه «السلام بأى ثمن» لكنهم يعرفون تماما ذلك.

وهتلر نفسه يلوح لفرنسا بما يزيغ عينيها: إذا وقعت فرنسا سلاما منفردا مع ألمانيا الآن.. فسوف تحصل على أفضل الشروط. وكلما تأخرت فرنسا. ستزداد قوة الشروط الألمانية.

وذهب ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا للتشاور مع حلفائه الفرنسيين فى المقر الجديد لحكومتهم ثم عاد إلى لندن مسجلا فى تقريره إلى وزارة الحرب : «إن الجنرال ويجاند – القائد العام للقوات الفرنسية – لا يرى جدوى من استمرار فرنسا فى الحرب... والمارشال بيتان. نائب رئيس الوزراء استقر عقله فعلا على ضرورة الوصول إلى سلام. وليس هناك شك فى أن بيتان رجل خطير فى هذه المحنة. إنه كان دائما انهزاميا حتى فى الحرب (العالمية) الماضية»!

إن مزيدا من «الأبطال» يقفزون إلى المسرح الآن.. مؤمنين بأن فرصتهم قد حانت. ودورهم حاسم فى شد أزر معسكر «السلام بأى ثمن» مع هتلر.

مـن هـؤلاء مثلا عمدة مدينة «بوردو» نفسـها.. المدينة التى أصبحـت هى المقر الجديد للحكومة الفرنسـية. لقـد أصبح عليه أن يدبر مأوى لأعضاء الحكومـة البرلمانية فى المدينة الجديدة. إنه اختار أكثر الأماكن أمنا فى المدينة الصغيرة ليضع فيها «المسالمين» من المسئولين وأعضاء البرلمان أما «المتشردون» الذين يصرون على مقاومة هتلر إلى النهاية، فقد اختار لهم فندقا مجاورا لمحطة السكة الحديد حيث خطر التعرض لقنابل القاذفات الألمانية أكبر..!

أكثر من ذلك.. احتفظ العمدة بالمكتب المجاور لمكتبه لصديق عزيز عليه. وهام لمسـتقبله، هو «بيير لافال» نفس الرجل الذى تزعم الحملة فى مجلس الشـيوخ من قبل لإسقاط الحكومة الفرنسية بسبب عدم إعلانها الحرب على الاتحاد السوفيتى بدلا من ألمانيا.. وهو الآن يكتب فى الجريدة التى يملكها باسم «مونيتور» قائلا : «فلندع رينو رئيس الوزراء يتحمل عار طلب الاستسـلام (إلى هتلـر). ولكن علينا ألا نسـمح له بالتفاوض من أجل ذلـك.. إنه أهان هتلر وموسولينى من قبل. لهذا سأطلب من المارشال بيتان أن يترك لى هذه المهمة» .

ولكن رئيس الوزراء مازال يعارض الاستسلام.. أو طلب الهدنة.

والمارشـال بيتان يتزعم جبهة ضده داخل مجلس الوزراء من أجل الاستسلام. بدءا بطلب الهدنة. وقفزت شـخصية مريبة هى «شـوتيمب» نائب رئيس الوزراء.. بحل «وسط»: لماذا لا نطلب من هتلر شـروط الهدنة.. بدلا من أن نطلب منه الهدنة ؟ إذا جاءت قاسية رفضناها.. وإذا جاءت ملائمة قبلناها.. فيستريح المارشال بيتان ؟

وكانت هذه هى الخدعة التى انقلبت على رئيس الوزراء .. وسـوف تكون اسـتقالته هى نفسها ثمن انخداعه !

ذلك لأن أى دولة - بمجرد أن تفتح على نفسها باب الاستسلام.. فإنها ستجد بعد ذلك أن من المسـتحيل إغلاقه. وبالنسبة للعدو المحتمل. هتلر. فان قيام فرنسا بطلب «شروط» الهدنة يجعلـه يحصـل على نفس المعنى الذى يحصل عليه من قيام فرنسـا بطلب الهدنة : فرنسـا قررت أن تستسلم !

نجحت الخدعة إذن ووافق عليها ١٣ وزيرا بما فيهم المارشال بيان، مقابل ستة معارضين فقط.

واعترضت بريطانيا بأعلى صوت.

إن قيام فرنسا بمفاوضات منفصلة مع العدو المشترك هو إخلال جسيم بالتحالف فى القضية المشتركة بينها وبين بريطانيا. إن البلدين دخلا فى هذا الصراع معا. ويد واحدة. ويجب أن يخرجا منه معا. بإستراتيجية واحدة.

ثم.. إن المفاوضات المنفصلة سوف تؤدى حتما إلى سلام منفصل ! وفى هذه الحالة فإن هذا سيضر ابلغ الضرر بموقف بريطانيا نفسها. وبقدرتها على الاستمرار عليه ذلك فى الصمود ضد هتلر.

لكن المارشال بيشان لا يهمه. إنه يرى أن «فرنسا دخلت هذه الحرب بلا استعداد.. وبسبب بريطانيا.. وعلينا الآن أن نتخلص من الحرب. ومن بريطانيا» !

كانت ذاكرة المارشال فى هذا التصور ضعيفة. ومبنية على تزوير الحقائق. ولكن.. فى وقت الشدة هذا.. لا أحد لديه وقت لفحص الحقائق.

لقد طلب رئيس الوزراء الفرنسى من رئيس الجمهورية إعفاءه من منصبه. وقبول استقالة حكومته فهو لن يكون أبدا الشخص الذى يحكم على فرنسا بالاستسلام إلى هتلر...

وقبل رئيس الجمهورية الاستقالة. ثم قرر تكليف المارشال بيتان بتشكيل حكومة جديدة.

إن رئيس الجمهورية أدلى فيما بعد بهذه الشهادة : «كانت الساعة الحادية عشرة ليلا. وكنت مشغولا يأن أرى لفرنسا حكومة قبل الغد. لهذا حييت المارشال وقلت له : حسنا.. الآن.. شكل الحكومة !.

« وعلى الفور فتح المارشال حقيبته وأخرج منها قائمة. قائلا لى : هذه هى حكومتى» !

«... إننى تذكرت كم كان تشكيل حكومة عملا صعبا فى سنواتى الثمانى كرئيس للجمهورية. لقد كان الأمر يستغرق عادة ثلاثة أو أربعة أيام. ولكن.. ها هنا حكومة يتم تشكيلها فى دقيقة» ! !

لم يكن هذا غريبا.. فمعسكر «السلام بأى ثمن» ليس مفككا ولا يعمل فرديا كالمعسكر الآخر. إنه جاهز للعمل ومستعد تماما للمهمة التى ينادى بها. وجاءته الفرصة الآن لكى يستدرج فرنسا كلها إليها..

ولكنها ليست فرنسا كلها..

ففى ذلك اليوم ـ الأحد ١٦ يونيو سنة ١٩٤٠ – اتخذ ضابط صغير. شارل ديجول. قراره: إنه لن يبقى فى فرنسا.

إنه سوف يطير إلى لندن معلنا بدء المقاومة الفرنسية الحرة من هناك. وعندما هرب هذا الضابط الصغير فى طائرة صغيرة. قال عنه تشرشل فى مذكراته : «فى هذه الطائرة الصغيرة.. شرف فرنسا» !

ديجول أيضا قال عن نفسه فى مذكراته عن ذلك اليوم : «لقد بدوت لنفسى وحيدا ومجردا من كل شىء.. مثل رجل يقف على شاطئ محيط. متظاهرا بأنه يستطيع أن يعبره بالسباحة».

إن ديجول يسبح ضد التيار. بل الوحيد فى ذلك اليوم الذى قرر أن يسبح ضد التيار. ولكن التيار نفسه مستمر فى طريقه بكل قوة.

لقد عقد المارشال بيتان أول اجتماع لحكومته قبل منتصف الليل بقليل. وخلال نصف ساعة فقط. اتخذ مجلس الوزراء أخطر قرار فى تاريخ فرنسا. قرار صاغه البيان الرسمى الذى أذاعته الحكومة نفسها على النحو التالى:

« إن الحكومة قد تشكلت... ومهمتها الضرورية. بغير تضييع للوقت الذى ضاع منه الكثير فعلا. هى أن تطلب من الحكومة الألمانية الشروط التى يمكنها أن توقف الأعمال العدائية» .

لقد أضاعت فرنسا وقتا طويلا. فى رأى الحكومة الجديدة. لكى تستسلم لهتلر. الآن يجب ألا يضيع مزيد من الوقت. فالاستسلام يجب أن يتم بأقصى سرعة !

لقد استدعت الحكومة الفرنسية السفير الأسبانى لإبلاغه بنص رسالتها إلى هتلر. طالبة قيام الحكومة الأسبانية بالتوسط بين الطرفين..

ووجدت الحكومة الفرنسية أن سفير أسبانيا جاهز لأداء المهمة. ليس جاهزا فقط بأفكاره. ولكن بترتيبات اتخذتها مسبقا لنقل هذه الرسالة من الحكومة إلى مدريد.

إن اسبانيا. فما بالك بألمانيا نفسها ؟ قدرت نية فرنسا.. قبل أن تعرفها فرنسا نفسها!

وفي اليوم التالى خرج المارشال بيتان نفسه ليذيع بصوته بيانا إلى الشعب الفرنسى قائلا: «إنني وهبت نفسى إلى فرنسا.. وقد طلبت شروط الهدنة فعلا من ألمانيا.. واليوم أخبركم، بقلب مثقل بأن من الضرورى وقف القتال».

هكذا. من قبل أن يسمع المارشال من هتلر ردا على رسالته. ومن قبل أن يعرف أصلا الشروط الألمانية للهدنة. ومن قبل أن تبدأ المفاوضات نفسها من أجل الهدنة. يطلب المارشال من مواطنيه وقف القتال !

ولم يكن المواطنون. ومن بينهم الجنود فى ميدان القتال. ينتظرون أكثر من ذلك. إن عقولهم قد تم تسميمها على امتداد فترة سابقة بأن هذه الحرب لا ضرورة لها.. وأن السلام مع هتلر ضرورة لأن الصمود فى وجهه مستحيل. ثم.. ها هو رئيس الحكومة الفرنسية يخبرهم بأن فرنسا قد قررت. من طرف واحد. إيقاف القتال.

إن الألمان فى هذه اللحظة. لم يشغلوا أنفسهم بالرد أصلا على رسالة المارشال إليهم. ولكنهم شغلوا أنفسهم بإعادة إذاعة خطاب المارشال مئات المرات على الجنود الفرنسيين المحاربين أنفسهم.

وبدأت فرق كاملة من الجنود الفرنسيين فى جبهة القتال. تلقى بسلاحها وتستسلم بالجملة للألمان. إن الجنود الفرنسيين المحاربين فى ميدان القتال لن يشغلوا أنفسهم بشىء قررت حكومتهم نفسها انه لا يستحق التفكير. القتال يتوقف.. نعم. ولكن. على أى أساس؟

هذا ما لم تفكر فيه الحكومة. وبالتالى. لم تفكر فيه قواتها المحاربة فى الميدان !

بل إنه فى مدينة «رينى» الفرنسية استسلم كل ضباط هيئة أركان حرب الجيش الفرنسى العاشر مع مئات آخرين من ضباط الجيش. إلى شاويش ألمانى ! وفى مدينة أخرى أطلق أحد الجنود النار على قائد فرقته وأسقطه قتيلا. عندما طلب هذا القائد من جنوده أن يستمروا فى القتال لأن السلام لم يتحقق بعد ومازال هناك حالة حرب رسميا مع ألمانيا !

إن الحكومة الفرنسية محتاجة إلى عذر تقدمه إلى الشعب الفرنسى، ولو من باب التمويه، لتبرير هذا الاستسلام.

وكان العذر هو: إننا تحملنا أكثر من طاقتنا نيابة عن الحلفاء. إن الجيش الفرنسى «البطل» قد تلقى مساعدات ضئيلة من دول الحلفاء.. والحلفاء أنفسهم تركوه يحارب وحده باعتباره «الطليعة» وفرنسا قد تحملت مذبحة لأبنائها.. وعلى من يؤمن الآن بالحرب.. أن يستمر فيها بعيدا عنا.. !

إن بريطانيا تحتج على فرنسا : هذا سلام منفصل يتم برغم التزامكم معنا.. إن السلام المنفصل هو إهدار لشرف فرنسا ذاته.. ومساعدة للعدو ضدنا..

والولايات المتحدة تحتج على فرنسا قائلة فى رسالة حادة من الرئيس الامريكى «روزفلت».. إن السلام المنفصل الذى تسير إليه فرنسا سيترتب عليه أن «.. الحكومة الفرنسية سوف تفقد بصفة دائمة صداقة وحسن نية حكومة الولايات المتحدة».

لقد أدرك الرئيس الأمريكى «روزفلت» أن جوهر الأمن الامريكى يعتمد بدرجة كبيرة على صمود بريطانيا.. وصمود بريطانيا يعتمد بدوره على صمود فرنسا.. وحينما تحكم فرنسا على نفسها بالانهيار.. فإنها بذلك لا تضر بنفسها فقط. ولكنها تضر بجوهر قضية الأمن المشترك للحلفاء جميعا، وللغرب كله.

ولكن المارشال بيتان لا يعنيه الحلفاء، ولا يعنيه الغرب. إن ما يعنيه فقط هو فرنسا وحدها على الأقل من وجهة نظره. إن خروج فرنسا من الحرب المشتركة ضد عدو مشترك لا يمثل نسفا لالتزام أخلاقى وعسكرى وسياسى. ولكن يمثل نجاة فرنسا.

إن الأحداث التالية هى وحدها التى سوف تثبت أن «النجاة»..حتى بهذا المفهوم الضيق غير ممكنة.

ولكن هذا لا يعنى المارشال، ومن وراءه كل فريق «السلام.. بأى ثمن»

إن ما يعنيهم الآن هو تحقيق هذا «السلام» بأسرع ما يمكن.

وهكذا تم توقيع الهدنة مع ألمانيا النازية فى مساء ٢١ يونيو التى ستأتى أخيرا بالسلام.

هذا النوع من السلام. الذى سعى إليه هذا الفريق بكل طاقته لفترة طويلة.

والهدنة تنص على :

- تقوم فرنسا بتسليم كل اللاجئين السياسيين المعارضين للنازية.. إلى ألمانيا.
- تقوم فرنسا بمنع رعاياها من الاشتراك فى الحرب ضد ألمانيا. ولو فى خدمة دول أخرى.
- تلتزم فرنسا بتخفيض قواتها المسلحة فى الجو والبحر والبر إلى الحد الذى يكفى فقط لحفظ النظام الداخلى.
- تقوم فرنسا بفك تسليح أسطولها البحرى فورا.
- تقوم لجنة ألمانية فرنسية مشتركة بمراقبة تنفيذ هذه الالتزامات.

باختصار فان النتيجة الأساسية هى خروج فرنسا من الحرب ضد ألمانيا..

لقد تبين أخيرا نوع السلام الذى يقبل به فريق «السلام بأى ثمن» داخل فرنسا. سلام بينما هو فى جوهرة شروط يمليها المنتصر على المهزوم.. ليس هذا فقط.. بل هو سلام بين منتصر.. وجثة !

هل كانت فرنسا فعلا جثة ؟

فى الدقيقة الثانية والأربعين. بعد الساعة السادسة مساء يوم ٢١ يونيو ١٩٤٠. وحينما وقعت فرنسا على اتفاقية الهدنة مع ألمانيا النازية.. هل كانت فرنسا جثة ؟

للوهلة الأولى يبدو ذلك.. فهذا هو المبرر الوحيد لقبول تلك الشروط من المعتدى النازى!.

ومع ذلك.. لم تكن فرنسا جثة..

فأولا حتى فى لحظة توقيع الهدنة. وبرغم كل الكوارث العسكرية التى تعرضت لها فرنسا منذ بدء الحرب. وبرغم كل انهيارها السياسى و العسكرى وتدهورها الاقتصادى. لم تكن ألمانيا قد احتلت سوى ثلث أراضى فرنسا.. أما الثلثين الباقيين فكانا لايزالان أرضا فرنسية حرة..

أكثر من ذلك كانت فرنسا لاتزال تملك. فى لحظة توقيع الهدنة ٢٦٤٨ طائرة فى شمال أفريقيا هى من أحدث المقاتلات والقاذفات.

كانت تملك في البحر : سبع عشرة مدمرة. وخمس سفن حربية. وإحدى وعشرين طرادة. وسبع غواصات (من بينها الغواصة «سوركوف» أكبر غواصة في العالم). و ٢٥١ سفينة حربية أصغر.

وكانت تمتلك إمبراطورية في شمال أفريقيا. ألح القائد الفرنسي فيها على حكومته أن تسمح له بإدارة الحرب من هناك. ولو على مسئوليته. وبناء على طلب القوات الفرنسية نفسها. الموجودة في المغرب وتونس والجزائر.

كانت فرنسا لا تزال تملك هذا كله. وأكثر. ومع ذلك فإنها قد تصرفت مثل.. جثة ! لماذا.. وأين الخطأ ؟

إن الخطأ كله بدأ في اللحظة التي أصيبت فيها فرنسا بالاضطراب العقلي والنفسي. اللحظة التي أصيبت فيها أرادة فرنسا بالشلل.

لقد استسلمت فرنسا في ٢١ يونيو سنة ١٩٤٠.

ولكن بذرة هذا الاستسلام كانت تنمو منذ سنة ١٩٣٦، حينما سمحت فرنسا لهتلر بانتهاك اتفاقية فرساي بلا عقاب ! والروح الانهزامية التي قادت فرنسا إلى هذه النتيجة في النهاية.. كان يتم بناؤها قطعة قطعة على امتداد عدد من السنوات، بحيث إنها كانت حربا أخرى شنها هتلر وكسبها قبل الحرب الفعلية التي كسبتها في يونيو ١٩٤٠.

إن «الإبطال» الذين شنوا تلك الحرب، ولعبوا فيها أدوارا رئيسية في البداية. سوف يحصلون الآن على مكافأتهم.. وفريق «السلام بأي ثمن» سوف يصل الآن إلى نهايته، فتتحقق الأهداف النهائية منه، وهي الأهداف التي كانت مستترة من البداية.

فبعد يومين اثنين من توقيع اتفاق الهدنة. أصبح «بيير لافال» وزيرا في حكومة بيتان (نفس الرجل الذي نادى من البداية بأن الشيوعية. وليست هتلر، هي الخطر الذي يجب أن تحاربه فرنسا في كل مكان في العالم).

و «فلاندين» رئيس الوزراء الأسبق الذي أرسل برقية تهنئة إلى هتلر عقب اتفاقية

ميونخ.. كوفئ الآن بأن أصبح وزيرا للخارجية فى حكومة المارشال بيتان.

وأصبح «أتو أبيتز» رجل الأعمال الذى نظم مئات الرحلات لكتاب فرنسا وصحفيها إلى ألمانيا ودفع ملايين الماركات لنشـر شـعار : السلام مع هتلر - أصبح سفيرا لألمانيا فى فرنسا!

وصحيفـة «لا ليبرتى» .. التى عرفت من البداية نغمة «شـعب فرنسـا أولى بأمواله لإصلاح مرافقه وتشـغيل أبنائه بدلا من قتلهم فى حرب خارج حدودنا ولا تمسـنا» .. هـذه الصحيفـة هى فى مقدمة صحف أخرى تبين بعد الحـرب أن المخابرات الألمانية كانت تمولها بملايين الماركات !

وصحيفة «اكشـن فرانسيز» .. ثبتت علاقتها المالية بكل من مخابرات ايطاليا الفاشية. وألمانيا النازية. وهى الصحيفة التى رفعت شعار : فرنسا أولا.. ولو ضد حلفائها !

إن هـذه الصحيفة كان يمولها مصنع عطور. وتبين بعد الحرب أن الذى كان يموله هو «اتو ابيتز» !

و «كاميل شـوتيمب» الذى قدم الاقتراح الخادع بطلب شروط الهدنة من هتلر. بدلا من الهدنة. ثبت بعد الحرب علاقته المسبقة بالمخابرات الألمانية وحكم عليه بالسجن..

و... طابور طويل من الصحفيين والكتاب. الذين برروا للشـعب الفرنسـى فى كل مرة أفعال هتلر ومنعوه فى كل مرة من الصحوة.. وقتلوا فيه إحساسـه بمصالحه العليا وجعلوه يضحى بها مقابل مكاسب. أو ما صوروه كمكاسب عاجلة. اعترفوا بأنهم كانوا على علاقة ماليـة منتظمة مع المخابرات الألمانية. لقد كان النموذج المبكر لهؤلاء هو «لويز أبين» رئيس قسم الأخبار فى جريدة «لو تيمب» : و «بواريبه» مدير الإعلانات بصحيفة «الفيجارو».

إن البعض دافع عن سياسة «السلام بأى ثمن» بدافع من الاقتناع. وهؤلاء لم تكن جريمتهم هى العمالة : ولكنهم مجرد الجهل بأسس الأمن لبلدهم.

ولكـن المهـم الآن أن الحكومة الفرنسـية التى وقعت الهدنة مـع ألمانيا. قد تحركت إلى مقر جديد وهو مدينة «فيشـى» . ومن يومها أرسـل السـفير الأمريكى تقريرا دقيقا إلى رئيسه

روزفلت. يرسم فيه بدقة صورة سينطلق منها كل ما هو قادم من أحداث.

لقد قال السـفير بعد مقابلات ومباحثات مع شـخصيات الحكومة الفرنسية: إن الانطباع الذى يبدو لى من هذه المباحثات هو انطباع غير عادى.. فالزعماء الفرنسيون (الجدد) يرغبون فى أن يقطعوا تماما صلاتهم بكل ما كانت فرنسا تمثله خلال الجيلين السابقين.

إن هزيمتهم المادية والأخلاقية كانت قاطعة بحيث أنهم يقبلون لفرنسا مصير أن تصبح ولاية تسـيطر عليها ألمانيا النازية. أكثر من ذلك.. فلكى يكون معهم أكبر عدد من الرفقاء فى التعاسـة والشقاء.. فإنهم يأملون أن تتمكن ألمانيا من هزيمة انجلترا تماما. وبسرعة... إن كل ما يأملون فيه أن تكون فرنسـا هى الولاية المفضلة لألمانيا.... لقد نمت لديهم فكرة أن أمريكا لم تسـاعدهم.. وبريطانيا فضلت نفسها عنهم بالإضافة إلى أنها فرت وجرت من ميدان القتال»..

لقد استدعت الحكومة الفرنسية الأعضاء الباقين من البرلمان إلى اجتماع عاجل وخاص. خطب فيه «بيير لافال» الوزير الذى أصبح يتحدث باسم المارشال بيتان رئيس الوزراء.

إنه خطب قائلا: «ولم يعد لدينا وقت للأحاديث والخطب. لقد انتهينا من الخطب.. ويجب أن نعيد بناء فرنسا».

كيف؟

قدم لافال إجابته بسـرعة: «سـوف ندمر كل ما كان.. وسـوف نخلق شـيئا مختلفا تماما».

من أين تكون البداية؟

إن «لا فال» جاهز بالرد: يجب أن نعدل الدسـتور الفرنسـى. لكى يكون متماشيا مع الدستورين الألمانى والإيطالى.

يجب إذن أن تتحول فرنسـا، الدولة الجمهورية الحرة إلى نظام فاشـى مثل إيطاليا، ونـازى مثل ألمانيـا، كبداية. ولكى يتم ذلك يجب أن يتم تفويض المارشـال بيتان لتعديل الدستور الفرنسي.

.. ويتم تفويضه.

ولكي يكون التفويض فعالا. والتغيير حاسما. يجب أن يلغى النظام الجمهورى. إن «بيير لافال» لا يغفر لفرنسا الجمهورية أنها «تقيأته» على حد تعبيره. فظل خارج السلطة منذ سنة ١٩٣٦. والآن سوف يتقيؤها هو.. ويقضى على جمهوريتها الثالثة التى استمرت حتى الآن سبعين سنة !

.. وألغى النظام الجمهورى.

ولكى تندفع فرنسا إلى بناء نفسها بكل قوة «يجب أن يكون المارشال رئيسا للدولة الجديدة.

.. وأصبح رئيسا للدولة الجديدة.

ولكن الجنرال رجل عجوز «٨٤ سنة» ويحتاج إلى يد يمنى يستمد منها القوة.. وتلك اليد يجب أن تكون أكثر من بذلوا جهدا للوصل إلى كل هذا التغيير حتى يعرف الجميع أن المخلصين من البداية لمبدأ «السلام بأى ثمن» تتم مكافئتهم.

إن المارشال سوف يختار هذه اليد بنفسه.

وهكذا اصدر المارشال ثلاثة مراسيم دستورية أولها يبدأ بنفس ألفاظ مراسيم أكثر الملوك استبداديا : «نحن، فيليب بيتان، مارشال فرنسا.. وبعد أن تقلدنا وظائف رئيس الدولة الفرنسية، نقرر...» .

ثم أصدر مرسوما رابعا..

فى هذا المرسوم قرر أن خليفته فى حكم فرنسا هو : بيير لافال !

ولكن القدر كان له رأى مختلف !

فبعد أربع سنوات فقط (أغسطس ١٩٤٤)، عاد إلى باريس ضابط تركها مغمورا ومقهورا ووحيدا، وهو الجنرال شارل ديجول. عاد قائدا للمقاومة الفرنسية الحرة بعد أن تم تحرير باريس، وأصبح رئيسا لحكومة فرنسا الحرة.

إن فرنسا عادت حرة، بفضل القليلين من أبنائها الذين لم تتلوث إرادتهم ولا نفوسهم؛ وبفضل حلفائها.. نفس الحلفاء الذين هجرهم المارشال بيتان من قبل.

إن الحلفاء أدركوا ما يدركه المارشـال وفريقه كله المرتبط معه عقليا ونفسيا : أدركوا أنه لكى يكون الأمن حقيقيا.. يجب أولا أن يكون جماعيا.

وأدركوا أن العدو المشـترك، حينما يغرى أحدهم بسـلام منفصل، فليس ذلك لأنه نسى أطماعه فجأة.. ولكنه فقط قام بتأجيلها.

وأدركـوا أن التفريط فى الحليف الصغير.. سـوف يؤدى حتمـا إلى انهيار الحليف الكبير.

إنهم لم يصدقوا وزيرا تشيكيا، حينما رآهم يبيعون بلاده استرضاء لهتلر، فقال لهم: اليوم دورنا. ولكن غدا سيكون دور الآخرين !

إن «غدا» هذا جاء بعدها بسنة واحدة.

والتاريخ، عادة، لا يتحرك بمثل هذه السـرعة الاستثنائية. ولكن الدراما الفرنسية كلها كانت دراما استثنائية.

إن فرنسـا، التى خرجت من الحرب العالمية الأولى منتصرة على ألمانيا، وجدت نفسـها مهزومة أمام نفس العدو فى أقل من جيل واحد.

إن الهزيمة تمت فى ميدان القتال..

ولكنها لم تبدأ فى ميدان القتال.

لقد بدأت يوم تصورت فرنسـا أن السـلام يمكن أن يكون من الأهمية بحيث يصبح هو «السلام.. بأى ثمن» .. أو يصبح «السلام المنفصل» .

وبـدأت يوم فرطت فرنسـا فى درس جوهرى يكرره التاريـخ دائما: إنه لا يحصل على السلام.. إلا من هو قادر على الدفاع عن هذا السلام.

إن من الأفضل دائما أن يكون هذا الدفاع هو باقتناع الجميع. ففى النهاية يمثل السـلام الأصل فى الأشياء. وفوق ذلك فهو المثل الأعلى الذى يجب أن تسعى إليه البشرية دائما.

ولكن، حينما يخل طرف واحد بهذا المثل الأعلى، فإن واجب جميع الأطراف الأخرى ألا تتردد لحظة واحدة فى الدفاع عن هذا السلام بأرواح أبنائها.

إن السلام الحقيقى لا يتم إلا بضمانات حقيقية..

هذه الضمانات ليس من بينها حسن النية !

ولكن فى مقدمتها القدرة الذاتية للدولة على الدفاع بالسلاح عن سلام مشرف لأبنائها.

وفى مقدمة التنبه الذاتى إلى أن الدولة حينما تنتظر لكى تخوض معركة الدفاع هذه على أرضها هى.. فإنها ستضطر فى النهاية إلى التفريط فى أرضها كلها.

وفى مقدمتها أنه لا يجب أن يسمح بلد عظيم أبدا بأن يتقرر مصيره بواسطة بلد آخر له تصورات ومصالح مختلفة ومتعارضة.

إن فرنسا فرطت فى ذلك أملا فى «السلام مع هتلر» ..

ولكنها فى الواقع لم تكسب سوى مهله لثلاث سنوات فقط (من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩)..

بعدها استدار إليها هتلر. وحينما فعل ذلك، فإنه جاء يغزو فرنسا وهو أكثر قوة : وفرنسا أكثر ضعفا، فى روحها وإرادتها وعقلها وتفريطها فى حلفائها الصغار ، الذين هم شركاؤها فى قضية الأمن المشترك.

إن الأمن المشترك ليس مجرد أمنية مشتركة.

إنه ضرورة مشتركة.

وهو تضحية مشتركة.

وهو عمل مشترك.. وفكر مشترك.. وأمن مشترك.

وهو فى النهاية : شرف مشترك

والدولة التى تفرط فى جزء من شرفها.. ينتهى بها التاريخ دائما إلى التفريط فى كل شرفها !

□□□□

كتب للمؤلف

دراسات سياسية

ممنوع من التداول (دار الشروق) الطبعة السابعة

أفكار إسرائيلية (كتاب الإذاعة) الطبعة الثانية

الحرب الرابعة – سرى جدا (المكتب المصرى) الطبعة الثالثة

متمردون لوجه الله (دار الشروق) الطبعة الخامسة

من وجع القلب (دار المعارف) الطبعة الثالثة

بالعربى الجريح (دار المعارف) الطبعة الثالثة

اليوم السابع.. حرب الاستنزاف (دار المعارف) الطبعة الثالثة

دراسات أدبية

أفكار ضد الرصاص (دار الشروق) الطبعة الرابعة

شخصيات (دار المعارف) الطبعة الرابعة

سياحة غرامية (دار الشروق) الطبعة الرابعة

مصرى بمليون دولار (مكتبة الأنجلو) الطبعة الثالثة

أوراق إلى حبيبتى (دار الشروق) الطبعة الأولى

دراسات فنية

أم كلثوم التى لا يعرفها أحد	(كتاب اليوم) الطبعة الخامسة
محمد عبد الوهاب الذى لا يعرفه أحد	(دار المعارف) الطبعة الرابعة

فى الرواية والقصة

أرجوك لا تفهمنى بسرعة	(روزا ليوسف)الطبعة الثانية
شئ يشبه الحب	(كتاب اليوم) الطبعة الأولى

كتب تحت الطبع

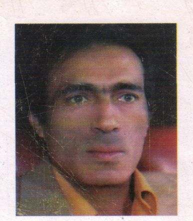
- الدنيا التى كانت
- على بياض

الفهرس

رقم الإيداع	٢٠١٣ / ٣٦٣٧
الترقيم الدولى	ISBN 978-977-02-7729-4

١ / ٢٠١٢ / ٢٩

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع)



إن الصراع العربى الإسرائيلى لم يكن مأساة إغريقية ابتلانا بها القدر، و لا كان أيضا تعبيرا عن نزوة حاكم أو خيالات مؤلف. إن فكرة قيام إسرائيل كدولة لم تبدأ إلا فى ربع الساعة الأخير قبل انسحاب مصر من الشام فى القرن الماضى. و فكرة السلام فى المنطقة عبرت عنها إسرائيل كدولة فى ربع الساعة الأول من قيامها بتلك المعاهدة السرية التى عرضتها على الملك فاروق فى القاهرة. و اعتبرها الملك - برغم فساده - جرأة ضد مصر لا مثيل لها.

و الآن أصبح السلام بين العرب و إسرائيل موضوعا مثيرا للجدل. و فى هذا الكتاب يطرح الأستاذ محمود عوض كل الأسئلة الكبرى للفحص و المراجعة: أى نوع من السلام؟ إن التناقض قاطع بين " السلام الإسرائيلى " و " السلام العربى ".. و هى أدوار مختلفة تماما تلك التى لعبها كيسنجر و السادات و مناحم بيجن و جمال عبد الناصر و محمد على... و يطرح الكتاب أسرارها الكبرى.

إنه كتاب جديد و هام. يضاف إلى كل الكتب الشهيرة التى كتبها محمود عوض، بأسلوبه الرشيق و عباراته اللاذعة و انتمائه إلى جيل آخر مختلف فى عالمنا العربى يصر على فتح كل الملفات وطرح كل القضايا بأعلى صوت.



٠٢٠٨١٢/٠١

